الصافي سَعيد

بورقيبة

سيرة شبه محرّمة



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES
BOOKS

بورقيبـــة

سيـرة شبـه محرمـة

BOURGUIBA: THE LAST MOUJAHID

A SEMI - BANNED BIOGRAPHY

BY:

AL-SAFI SAID

Second Published in November 2000

BEIRUT - LEBANON

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 9953 21 006 3

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠

أقدم هذا الكتاب إلى ابني «نهار»
وكذلك إلى الجيل الذي ولد مع مطلع ما يسمّى «بالتغيير»
الذي حمل «رجال البطل» إلى مواقع الأبهة والصولجان
فيما حمل «البطل» إلى النسيان..

(الصافي سعيد)

المحتويات

سنوات التطواف:

سنوات الرقص:

سنوات الشطرنج:

سنوات الفتنة:

سنوات الذروة:

سنوات المحنة:

سنوات الغدر:

سنوات الزفة:

سنوات الصولجان:

سنوات الكورال:

سنوات الصيد:

سنوات الفالس:

سنوات الشلل:

سنوات الرذائل:

سنوات الحطام:

المقدمة

سيرة شبه محرّمة
لباي شبه جمهوري..

عاش الحبيب بورقيبة قرناً كاملاً، هو القرن العشرون، بامتلاء وامتياز. لقد ولد في عامه الصفر (١٩٠٠) ثم رحل في العام ٢٠٠٠ فيدا وكأنه ضرب معه موعداً ليكون آخر من يرفع له منديل الوداع.

وإذ أُطلقت على بورقيبة عدة ألقاب منها، «الزعيم» و«المجاهد الأكبر» و«الرئيس الأبدي» و«صانع الأمة»، فإن ما يمكن أن يضاف إلى ألقابه الآن هو «وحيد القرن» التونسي. فالرجل الذي ظلّ معلّقاً بين الأرض والسماء لمدة تزيد عن ١٢ عاماً كان فعلاً وحيد القرن العشرين في بلاده.. فخلال ذلك القرن الطويل جداً الذي يتهيأ للوداع الأخير، عاش بورقيبة حياة طويلة جداً.. هي أكثر من حياة.. أو هي حيوات كثيرة.. عاش مناضلاً لا يشقّ له غبار.. وزعيماً ألمعياً بلا منازع.. ورئيساً مدى الحياة فوق كل الشبهات.. ثم عاش شيخاً هرماً متكأ على عصاه وماضيه، «باطرياركاً» متسربلاً في خريف لا ينتهي.. ومُقْعَداً بلا روح ولا صولجان ومنفياً مجبراً على الصمت والنوم.. وإذ كان جميع رجاله، من طين وعجين.. هم عبارة عن أدوات لصغيانه وفهلوته وسلطانه.. فإن الشعب الذي حكمه قد «كان حفنة من غبار» قبل مجيئه، فإذا به يصبح «أمّة كاملة الأوصاف» بعد ظهوره!!

زرع بورقيبة خلال حياته أكثر من عاصفة وأشعل أكثر من حريق قبل أن يعتلي العرش.. بعد ذلك استكان للصولجان، ثم احتمى بماضيه وراح يعدّدُ إنجازاته وهو لا يقوى لا على إحضار ملكاته العقلية ولا على إقناع شعبه بمواهبه النادرة! ففي لحظة ما، هي لحظة التقاطع بين الحقيقة والوهم، بدا أنه لم يكن المستساغ أبداً أن يحكم الذي قارب التسعين من عمره شعباً نصف سكانه تحت الخامسة والعشرين من أعمارهم.. وفي لحظة ما، هي لحظة تهتك جميع الأنسجة، دخل صانع المتاهات إلى المتاهة دون أن يجد أمامه من يُعيده إلى طريق الصواب!

أَوَلم يقل بورقيبة نفسه لمجموعة من وزرائه ورجاله المقرّبين منذ أواخر الستينيات «في يوم ما سأنحرف عن الطريق.. وسأهذي بأي شيء.. ولكن لا أحد منكم سيمنعني عن ذلك أو يوقفني عن الإنحراف»..

ولقد أطال بورقيبة السير في الطرقات المنحرفة حتى كاد أن يجرّ البلاد كلّها إلى الهلاك.. بل حتى كادت البلاد أن تفقد الثقة في نفسها وفي رجالها.. ولأن الارتطام بجدار الوجع واليأس غالباً ما يولد الصحوة وينزع الأوهام، فقد استيقظ الأبناء ذات يوم مذهولين على نبأ عزل الأب يمرض كثيراً، لكنه لا يموت!

* * *

«هكذا، حين تكون قامتك قصيرة وتخاف أن يحجب عنك الآخرون الرؤية أو الضوء، عليك إما بالسير في المقدمة وإما بالصعود فوق أكتاق الآخرين».. وذلك ما أدركه بورقيبة منذ أن دخل إلى مسرح الحياة.. وإذ سار في المقدمة قليلاً، فكثيراً ما رُفع فوق الأعناق.. وإذ رفض النزول من فوق الأكتاف والأعناق، فقد غدا ثقيلاً وسقيماً.. وهكذا.. بعد ثلاثين عاماً من الحكم والطغيان والمباهاة.. وجد بورقيبة نفسه أمام الحقيقة المشعّة والموجعة.. حقيقة رجل ضلّ الطريق.. وحقيقة بلد عريق قد وقع تحت إغراء الفساد والتهميش.. وحقيقة زمن جديد قد راح يكشف عن قسوته.. وحقيقة هشاشة كائن بشري لا تُحتمل.. تلك الحقائق هي التي سيكشف عنها هذا الكتاب/ السيرة. السيرة شبه المحرّمة لرجل شاء أن يكون بطلاً تاريخياً فكان «بطلاً روائياً»! لرجل أراد أن يكون أول رئيس حديث في عالم عتيق، فإذا بهينتهي كـ«باي عتيق» في بلد يريد أن يكون حديثاً.. إنها سيرة بورقيبة.. آخر بايات تونس.. بورقيبة الذي بدأ حياته كأحد فرسان يوحنا المعمداني ثم انتهى.. مثلما ينتهي «باباوات» الفاتيكان!

كلمة أخيرة

كان يمكن لهذا الكتاب أن يصدر قبل موت بورقيبة بنحو ثلاث سنوات، غير أن ضغوطاً كثيرة قد سلبتني بعض شجاعتي. كنت راغباً في نشر هذا الكتاب قبل أن يموت ذلك «الرجل»، لكي يعرف أن قيمة أي رجل توجد في آخر المطاف بين دفّتي كتاب.. وأن الكتاب أقوى من كل سلطان.. ولطالما بحثت عن «معنى» يجعلهم يمنعوني من نشر هذا الكتاب في حياة بورقيبة لكنني لم أعثر عليه أبداً.. والأرجح كانوا لا يريدون أي كلام سلبي أو إيجابي عن «صانع أمّتهم ومجدهم» الذي انتهى سجيناً ومقعداً وبائساً في قريته: المنستير.. ولمرات عدة كنت أتعرض لاستجواب أمني حول «نيتي» في نشر الكتاب، فكنت أجيبهم، «بأن ليس من مصلحتهم أن أقول لمن يسألني عن موعد الصدور، أن الكتاب ممنوع من النشر».. وفي الحقيقة، كنت ملتزماً بعدم النشر لا بسبب الخوف، ولكن لقناعتي أن الزمن سيجعلنا جميعاً أكثر مرونة وتسامحاً!!

وفي اللحظة، التي قررت فيها نشر الكتاب، كان بورقيبة ممدداً على فراش الموت. غادرت تونس إلى بيروت وقد تركتها مليئة بإشاعات موت الزعيم.. ولفرط ما انتشرت إشاعات موته خلال السنوات الثلاثة الماضية، فقد كان يصعب تصديق أكثر دقة وملاحظة.. في بيروت وبتاريخ ٦ نيسان/ أبريل ٢٠٠٠، كنت جالساً إلى مكتب الأستاذ رياض نجيب الريّس حين خابرني ابني - نهار - (١١ عاماً): قائلاً لي بسرعة وبساطة: «بابا.. بورقيبة مات»! قفلت الهاتف ثم قلت للأستاذ الريّس: «لقد

مات الذي نبحث في نشر سيرته.. كنت أتوقع أن يموت هذه المرة، لكنني لم أتوقع أن يموت بهذه السرعة.. فعند خروجه من المستشفى العسكري قبل أسبوع واحد من وفاته، قال بورقيبة لحفيدته بالتبنّي: «كان عليك ألاّ تحزني.. لن أغادرك.. أتوقّع أن أعيش ستة أعوام أخرى».

استجاب الربّ لرغبة بورقيبة، لكن الأعوام الستة تسارعت حتى تكثفت في أيام ستّ فقط. وفي اليوم السابع استراح الربّ من «عناء» بورقيبة واستراح بورقيبة من «عذاب» الربّ!

* * *

إن السرد غالباً ما يحررنا من المركبات ومن الماضي الثقيل، ويجعلنا أكثر خفة وحرية. وهذا الكتاب الذي يروي تراجيديا ذلك ــ البطل ــ الذي بدا وكأنه عاد لتوه إلى عصره الإغريقي.. إنما هو يعيد تركيب تلك الحيوات الكثيرة والمتعددة لرجل كثيراً ما قيل أنه يملك أرواحاً كثيرة.. (ومن المطهرة إلى سنوات الحطام، فعودة إلى سنوات الصبا، فسنوات المنفى والرقص والرصاص والصولجان والفتنة.. وأخيراً سنوات الرذائل).. يمكن أن نقرأ سيرة شبه مضادة لبطل مضادّ.. وسيرة شبه محرّمة لرجل عاش ومات على أهازيج الحريم راقصاً ومتنقّلا بين المناطق المحرّمة.. وباختصار، سيرة شبه كاملة لبطولة عابرة.. إنها ثمرة تحقيق ميداني ورحلة طويلة على حوافّ السّير الذاتية وفي قلب القرن العشرين (التونسي) قمت بها على مدى سنوات مسجلاً شهادات حيّة لرجال كثيرين عاشوا في «وحول» سرايا الباي بورقيبة، فكانوا أن صنوا قسطاً كبيراً من مجده وآخر من بؤسه.. وكان ذلك بمثابة المادة الأولى لتاريخ تونس الحديثة!

سنوات المطهرة:

فسحة بين القصر والقبر

«...نعم..! سلامي إلى البشر جميعاً. لقد أحببتهم وحرصت عليهم كثيراً. قل لهم إن حياتي كانت عذاباً هائلاً لم يعرفه ولم يفهمه الآخرون. ربما بدت كبرياء وغروراً، لكنها لم تكن قطّ شيئاً من ذلك!»

«سيرن كيرغارد»

«على فراش الموت» ـ سيرة ذاتية

كان التواطؤ واضحاً للعيان، بيد أن كل طرف كان يحاول إخفاءه بكل عناية. كان يقول لنا بكل فخر وأبهة: «إنكم أبنائي الذين...». وكنّا نقول له بإذعان واستسلام «أنت أبانا الذي...». وفجأة قيل لنا: إن الأب مات. ملأ الذهول فراغات الوطن قاطبة ثم ما لبث أن تحول إلى أسئلة ساذجة مرة وذكية مرة أخرى.

تنفّس الشرطة والباعة المتجولون ورؤساء تحرير الصحف والطلبة المشاغبون وسيّدات تجارة الشنطة ومعهم مناضلو الإسلام والديموقراطية والنقابيون المشتتون، الصعداء، ثم راحوا يشحذون خيالهم لصناعة حكايات مثيرة حول نهاية ذلك الأب. قيل: «إنه ضرب الأرض بعصاه رافضاً الخروج من قصره بعدما بصق في اتجاه الريح والبحر». وقيل: «إنه تحول إلى مصارع بعدما عادت إليه قواه دفعة واحدة وبحث عن مسدسه فلم يجده». قيل أيضاً: «إنه رفض ركوب الهليكوبتر التي أحضرت إلى ساحة قصر قرطاج طالباً سيارة مكشوفة لوداع شعبه كما كان يفعل عادة». قيل كذلك: «إنه كان يعلم بكل شيء، غير أنه فضل الانسحاب على هذا النحو الذي يحبذه وهو ما يمكن أن يندرج في مسرحة السياسة لدى بورقيبة»!

مات الأب. وكان هذا الأب قد مات فعلاً منذ عدة سنوات حين فقد عنفوانه وسطوته، لكنه ظلّ واقفاً على قدميه متكئاً على عصاه كشجرة يابسة. لم يكن بإمكان أحد أن يتأكد من موت تلك الشجرة إلاّ حين جاء موسم الحرث وكان على الجرّار أن يمرّ من

حيث كان يجب أن يمرّ. تماماً مثلما حدث مع الملك سليمان في عصور جد سحيقة، ذلك الذي مات واقفاً ومتكئاً على عصاه لمدة أربعين سنة دون أن ينتبه إليه أحد إلى حين تمكن النمل من تهشيم تلك العصا عن طريق القضم البطيء.

كان ميّتاً تقريباً لكنه ظلّ يمارس كل سلطات الأب التقليدي، الحنون مرة والماكر في العديد من المرّات. لم يكن أبداً تقيّاً إلاّ حين يهجع الليل ويعود ذابلاً إلى فراشه الخالي من أي حنان. فمنذ أن قرّر الطلاق من زوجته الثانية، حاضنة زهوه وعشقه وشيخوخته (وسيلة بن عمّار)، لم يعد ذلك الأب يجد في استقباله وهو يدق مربعات الرخام بحذائه في طريقه إلى غرفة النوم قادماً من قاعة الاجتماعات، إلاّ ابنة أخته سعيدة ساسي. كان لا يعرف بالضبط لا واجباته ولا وظائفه، ولطالما اختلطت في ذهنه الأرقام مع التواريخ مع الأسماء. كان يذكرنا بشخصية فرويد المثيرة والحزينة، والد ـ دورا ـ الماكر، الحنون، المتهور العطوف المقايض والخائف. أما سعيدة ساسي، فكادت أن تكون «دورا» نفسها التي حضرت من فيينا بداية القرن إلى قصر قرطاج في آخر القرن. تلك الفتاة التي لعبت جيداً على ثلاثية الطبيب والزوج والأب دون أن تستسلم لأي من هؤلاء. فهي الوحيدة التي مازالت تراه قادراً وقوياً وساحراً. كان ذلك الأب لا ينازعه أي شك بأنه أبو الأمّة، مسنّاً ومريضاً ومنهكاً، لكنه ظل في نظر ابنته «دورا ساسي» محبوباً كما رأته وهي طفلة. ولم تكن سعيدة ساسي وحدها التي توغلت في لعب دور «دورا»، وإنما جميع من عرفوا ورقيبة، ظلوا سجناء تلك الصورة القديمة، صورة ذلك العائد من الجبهات والصراع والمنفى وقد امتلأ حكمة وشجاعة وأهلية وقدرة على طحن الهزائم. لقد تعوّد الأبناء باستسلام ألاّ ينظروا إلى «أبيهم» إلاّ وهو في عزّ القوة والصبا. خطيباً فصيحاً، راكباً جواده وهو يشقّ الجموع، ساخراً من جميع الرجال، عنيداً وطموحاً. لاعباً بالمصائر، مقامراً مع القدر. ولكن حين يتذكر الأبناء وأحفادهم أنهم يوجدون تحت قيادة شيخ هزيل ومنهك وثقيل اللسان والخطى يدهمهم حزن مغطى بقشرة من الفرح أو الراحة. فهذا الرجل قد يكون مثل ذلك المحارب الذي دفع العار عن شعبه وبلده أو دينه أو سيّده، لكنه عليه الآن أن يدفع العار عن نفسه وتاريخه، ذلك أن الشيخوخة إذا طالت فإنها تتحول إلى رذيلة!.

كان الأخوة أو الأبناء كارامازوف قد شعروا بذلك الانحراف الذي راح يدق أعناقهم في الأرض. وراقبوا القصر والشارع بعيون ملؤها الحسرة والخوف، فرأوا فزعاً قادماً من وراء الحجاب الذي لطالما عجزوا عن تمزيقه. ثمة زوجة قد أغوتها السلطة إلى حد التمرّد، وخلفها ثمة امرأة أغواها السلطان حتى هوت رؤوس الرجال لتقبيل يديها الغارقتين في

الدسائس وطناجر الطبخ. وهناك بضع عائلات يطحنها الخوف من الغد وتقودها الهواجس إلى مزيد من الأخطاء. وإذ غابت المهارة والشجاعة، فقد تسابق الرجال لتقديم الأضحية على مذبح الأب الذي تحوّل إلى شيخ مهيب بمزاره، يحب الدماء والمهازل والولائم. فيما انهال رجال آخرون على حفر القبور لشبان أحياء ويافعين وغاضبين، بينما انهمكت أمهات كثيرات في تقديم التعازي وتبادل النواح. وشيئاً فشيئاً أصبح الوطن كلّه، ذلك الذي يرفع علمه صبية المدارس السذج والجنود البائسون كل صباح عالياً، في قبضة الدناءة.

فجأة حدث الذي كان يتوقعه الجميع ويفكر فيه الجميع دون أن يصرّح به أحد. فواقع الحال إذا كان الموت ساعة حقيقة لإعلان اليتم البليغ والراشد، فلأنه يحدث تلك القطيعة الضرورية لمعانقة زمن آخر.

لقد تمّ قتل الأب في لحظة نشوة ممزوجة بالخوف من الفشل. «فالأبناء كارامازوف» لم يكن ينازعهم أي شعور بالندم أو أية إرهاصة شك أو أي شعور باقتراف المحرّم وهم يقتربون من الساعة صفر. لقد قاموا بما كان يجب أن يقوم به غيرهم منذ سنوات. وها هي المأساة اليونانية، حتى وإن تأخرت عن موعدها، فقد أعادت إنتاج نفسها وخرجت ناصعة على الضفة الجنوبية للمتوسط. وبالتحديد في قرطاج وارثة المجد اليوناني ومنازعة المجد الروماني، حين كان عليها أن تنهض بالشرق كلّه لمغالبة النزوات الرومانية. لقد استحضرت المناسبة جميع المركبات والعناصر اللازمة لكي تتمكن من إحداث القطيعة، مع التخفيف اللازم للعبارات التي قيلت والطقوس والمراسم التي أقيمت، وذلك فقط حتى لا يشاع الأسف أو الحزن بعد لحظات الانتصار القصيرة جداً!.

كان قلق الغد الذي سيطر على الجميع هو الذي دفع الشعور بالذنب إلى الأمام في محاولة لإفساح الطريق، حتى بدا الأبناء كارامازوف في تونس وكأنهم الأطروحة المضادة لأخوة دوستويفسكي الذين عاقبوا أنفسهم بأنفسهم لقيامهم بتنفيذ حماقة سنوات المراهقة في سنوات الرجولة.

مات الأب أو قُتل الأب، فالأمر سواءٌ بسواء. لقد كانت قبائل «الإيبو» بشرق نيجيريا ولا تزال تنزع إلى قتل الأب منذ أن يصبح عاجزاً عن فعل النكاح وتصبح عروق الخصوبة في جسده جافة، حتى لا يجلب العار للعائلة أو للقبيلة. تلك النوازع الدفينة هي التي خيمت على الأبناء وهم يتقدمون لتنفيذ مهمتهم، حتى إن ما كان يمكن أن يسمى بالمأساة، لم يستحق أي أسف. ومن كان يمكن أن يتهم بالقتل قد أصبح يستحق الشكر والمكافأة.

كان الجميع يرغب في ارتكاب الفعل ذاته، ولكن ما من أحد كان يعرف كيف السبيل إلى ذلك!؟ لذلك كان كل واحد يعتقد أنه قام بواجبه.

وكما يرحل أسد هرم عن الغابة التي كان سيّدها وهو يمشي الهوينا بلا أسف وبلا جنازة تحت عيون ذئاب صغيرة مرتعدة ومحتدمة ونشوانة يريد كل واحد منها أن يتحول إلى أسد، ودّع بورقيبة الصولجان واقفاً على قدميه، وحيداً متكئاً على عصاه وحاضناً خيال شاعره المفضل «فيكتور هيغو». كان سينطق بتلك الأبيات التي لطالما ردّدها في خطاباته الكثيرة، لكن ما من أحد كان مستعداً لسماع ما قاله «هيغو» بعد انقلاب نابليون الثالث على الجمهورية. كان بورقيبة قد أحب «فيكتور هيغو» منذ أن كان صبياً يرتدي الجبة والطربوش ويجلس في القسم الأول من صف البكالوريا في معهد الصادقية. ولأنه كان متفوقاً في حفظ أشعار «هيغو»، فقد صدق ما قاله له معلم الفرنسية ذات مرة «إن روح شاعر ناقد انتقلت إليك». وهو يهم بنصف استدارة ليأخذ طريقه إلى خارج قصر قرطاج، أحسّ بورقيبة أن روحه قد أصبحت خفيفة خفة ذلك الكائن الذي ودع كل أثقاله. حتى لكأنه قد استقبل روح شاعره هيغو، أو لكأنه استراح من عبء الشعر والنثر والقصر والقبر مرة واحدة. ولأن بورقيبة لم يجد لا الوقت ولا القوة لكي ينقش اسم شاعره المفضل على جدران قصر قرطاج، وهو يجمع شجاعته وألمه لكي يغادره إلى قصر أقل منه أبهة وصخباً، قد لاذ بالصمت بعدما أخفى عيونه الدامعة تحت نظارات سوداء.

هكذا، خرج الحبيب بن علي وهو يرقب عيون زين العابدين بن علي ذات يوم خريف من العام ١٩٨٧، تماماً مثلما خرج الباي الأمين بن الحسين بن علي، وكان يرقب عيون الحبيب بن علي ذات يوم صيفي من العام ١٩٥٧. إن الثلاثين سنة التي تفصل بين المشهدين، قد ضغطت إلى ثلاثين ثانية فكانت مكثفة بالخوف المتبادل من مصير متشابه في مرآة واحدة عكست صورة متداخلة لأولئك الرجال الثلاثة.

* * *

وفي باب القصر الملكي بالمرسى، على بعد ميل ونصف من قصر قرطاج الرئاسي، كان الباي محمد الأمين مساء يوم ٢٥ تموز/يوليو من العام ١٩٥٧، قد كتب جزءاً من آية قرآنية على أمل العودة لقصره ذات يوم ليكمل بقية الآية. لكنه خرج مرة واحدة ولم يعد، فكأن ريحاً عاتية قد رمت به بعيداً مثل أية خرقة بالية!.

كان الرأي قد استقر لدى رئيس الوزراء الحبيب بورقيبة، بعد مشاورات طويلة مع هيئة

أركانه في حزب الدستور، أن لا مكان للباي بعد اليوم، ولو أن أحزاباً أخرى كانت تتقاسم المشهد التونسي مع ذلك الحزب العتيد في ذلك الوقت، فما كان يمكن التخلص من الباي ببساطة كما يقع نزع حذاء. كان بورقيبة قد تخطى الخمسين بحوالى ست سنوات حين أقدم على إطاحة الباي الذي تجاوز السبعين. وإذ أطال من مديحه في الغرف المغلقة في القصر، فقد فتح عليه فجأة النار في خطاب طويل استمر ساعتين في اليوم نفسه الذي حدّد للتحرك لمحاصرته[1]. كان إدريس قيقة[2]، مدير الأمن آنذاك لم يبلغ من العمر أكثر من ٣٢ سنة هو الذي توجه إلى القصر على رأس حامية لإشعار الباي بقرار الخلع. وفيما كان «قيقة» يتقدم نحو مجلس الباي، كانت خطابات رجال بورقيبة تصم الآذان وهي تتعاقب في البرلمان معلنة تنظيف البلاد من فساد البايات. وفي اللحظة التي أرغم فيها الباي على توقيع التنازل عن العرش كان بورقيبة يعلن على الملأ، «بأن الشعب التونسي قد اختار الجمهورية». فبعد خمس سنوات ويومين على نحو الدقة من ميلاد الجمهورية المصرية وخلع الملك فاروق ولدت ثاني جمهورية في العالم العربي بتونس عن طريق انقلاب، لكنه انقلاب أبيض!.

كان محمد الأمين بن محمد الحبيب بن محمد المأمون بن حسين الثاني بن علي هو الباي التاسع عشر للدولة الحسينية، الذي خلف المنصف باي على العرش. فهو أحد أحفاد مؤسس تلك الدولة التي استمرت من العام ١٧٠٥ إلى العام ١٩٥٧ (قرنان ونصف قرن وسنتان). وقد وقف من مجلسه ليذهب إلى غرفة منعزلة حيث سيرغم على كتابة وثيقة تفيد بأنه تنحى بمحض إرادته، فقد بدا شيخاً منهكاً ولكنه لا يزال يحتفظ بوقاره. شعر الباي محمد الأمين بأنه تعرض لخيانة من أقرب الذين كانوا يرفرفون فوق رأسه، وإذ عرف أنه لم يعد بإمكانه المقاومة للدفاع عن دولة جده الباي الأكبر (حسين بن علي)، فقد عرف كيف يحتفظ بشهامته وبرود أعصابه وغضبه واحتقار أشياء الدنيا الزائلة.

سحب الباي ساعته التي كان يشدها إلى صدره بسلسلة ذهبية من جيب سترته ونظر في الوقت. وبعد صمت قليل طلب بهدوء من إدريس قيقة «ما إذا كان بالإمكان توقيع وثيقة التنحي اليوم، على أن تتم مغادرة القصر في وقت آخر. وليكن بعد يومين.» لكن قيقة الذي كان مجرد رجل ينفذ الأوامر رد عليه: «سيدي ومولاي، كنت أرغب في تلبية طلبك العزيز، ولكني لا أستطيع أن أفعل ذلك أبداً. الرجاء مولاي أن تستعد للمغادرة الآن. وسوف تجد كل ما تريده من حاجيات أمامك. كل شيء يتبع جلالتك، سنحمله إليك»[3].

كان واضحاً أن المفاوضات لا مجال فيها للمناورة. وأدرك الباي في الحين أن مقامه لا يسمح له بإطالة حديث لا جدوى من ورائه. ولذلك فقد قرأ الفاتحة على روح جده وأسلافه طالباً الغفران منهم ثم مسح وجهه بمنديل أبيض، وناوله أحد الخدم جبته فوضعها بسرعة على جسمه النحيل وقال بشجاعة: «أنا الآن جاهز».

كانت السيارة السوداء التي جلس بداخلها الأمين باي تشبه تلك السيارة (من نوع تراكسيون) التي حملت سلفه المنصف الباي في العام ١٩٤٢ تحت تهديد السلاح الفرنسي حين أرغم على التنحي بتهمة تعاونه مع الحركة الوطنية وغزله لبلدان المحور. وإذ سيموت المنصف باي منفياً في صحراء الأغواط الجزائرية بعد سنين طويلة من العذاب النفسي، فإن ابن عمه آخر بايات البيت الحسيني، محمد الأمين سيختفي منذ يوم ٢٥ تموز/يوليو ١٩٥٧ إلى الأبد، دون أن يعرف أحفاده أو أبناؤه عنه شيئاً. فالجبة التي خرج بها من القصر، كانت هي كفنه. أما «المجاهد الأكبر» الذي حضنه وأدخله إلى تفاصيل حياته الخاصة، فلم يكن إلا حفار قبره. لربما كان كل منهما يدرك أن لحظة الانفصال أو الطلاق ستأتي لا محالة، ولكن بورقيبة الذي دفنت في وعيه الباطني منذ أن كان صبياً كراهية لا محدودة للبايات ممزوجة بلذة جارفة نحو السلطة، كان عليه أن يتحرك قبل أن تدوسه عربات الزمن، أو يصبح مجرد ديكور للباي. فالسنة والثلث التي أمضاها بورقيبة في خدمة الباي كوزير أول، كانت كافية لإنهاء عهد بكامله قد أطال السير وهو نائم.

* * *

وها هو الحبيب الذي يجلس الآن على عرش الجمهورية الوليدة يتذكر كيف كان يجلس على يمين الباي في سيارته المكشوفة وهي تخترق شوارع العاصمة بعد إعلان الاستقلال (١٩٥٦). كان أقل منه نياشين وأبهة لكنه بدا أكثر منه سحراً وجاذبية إذ ينافسه في زرقة العيون وبريقها والطربوش الأحمر الإسطمبولي ويفوز عليه بقدرته على الخطابة والإقناع وسنوات الزنزانات الرطبة.

كان بورقيبة سيكتفي بزعامة الحزب الحر الدستوري مثلما اكتفى علال الفاسي بزعامة حزب الاستقلال في المغرب بعد الاستقلال لولا استثماره لتلك العلاقة التي كانت تربط الباي مع الباهي الأدغم وأحمد بن صالح اللذين قاما بإقناع الباي لكي يعهد لبورقيبة بتشكيل حكومة جديدة تحل محلّ حكومة الطاهر بن عمار. وخلال العام الذي تولى فيه بورقيبة رئاسة الوزارة تمكن من الاطلاع على جميع الملفات ثم تساءل بكثير من الجموح ما إذا كان قد أعد للمهمات الكبرى أو أنه جاء ليتولى شؤون العائلة المالكة؟. فأجاب نفسه:

«إذا كان جدي يحمل البردعة[٤] على ظهره كالحمار في عهد الصادق الباي، فأنا غير مستعد أن أحمل عصا الأمين باي كما يفعل مصطفى العكاك أو صلاح الدين البكوش».
ففي ليلة السابع والعشرين من رمضان من العام ١٩٥٧ كان الباي عائداً من جامع الزيتونة وإلى جانبه رئيس وزرائه بورقيبة. كان الباي يمسك بعصا منحوتة من العاج المزخرف. وحين اجتاز الباب الخارجي الأول للقصر فالباب الثاني، وقبل اجتيازه للباب الثالث ناول بورقيبة العصا التي كانت بيده ليحملها عنه، فتراخت يدا بورقيبة متسائلاً في نفسه: «عما يقصد الباي من ذلك؟»، لكن ابنه الأمير محمد سارع إلى إنقاذ الموقف قائلاً: «إنها هدية من سيدنا بمناسبة ليلة القدر». عندها تناولها بورقيبة محتفظاً بها، لكنه حين بحث عنها بعد فترة في مكتبه لم يعثر عليها.

إذا كان الباي قد اعتاد أن يجعل من رئيس وزرائه رئيساً لخدمه، فإن زوجة الباي كانت لا تبذل أي جهد في إخفاء شعورها بالاحتقار لوزراء زوجها. لكن بورقيبة لم يكن ليتردد في تحجيمها حتى إنه كثيراً ما شكاها إلى الباي لكي تحترم وزير الباي الأكبر ولا تتدخل في شؤونه، غير أنها أظهرت مقاومة شرسة أدخلت بورقيبة في صراع مرير مع نفسه وملكه انتهى بإزاحة العائلة المالكة وإعلان الجمهورية.

لقد أُرسل الآن الباي وعائلته إلى الإقامة الجبرية بعيداً عن العاصمة. ثم عهد بورقيبة إلى رجاله بتفريق العائلة حتى لا تجمع قواها ضده. وحين استقر بقصر قرطاج كرئيس تذكر ابن السابعة والخمسين وهو يرقص صبيّاً صغيراً أمام المرآة ويغني منادياً على أمّه: «فطومة إجي شوفي، طاح الباي وابنك أصبح باي[٥]». ثم تذكر أيام كان تلميذاً بالصادقية لم يصل بعد إلى قسم الشهادة الابتدائية مدفوعاً بحب الاطلاع إلى الاندماج وسط الجماهير باحثاً عن فتحة بين الأرجل ليشاهد الناصر باي متصدراً عربته المجرورة بستة بغال[٦].

كان الناصر باي أشقر، أزرق العينين وصدره موشحاً بالنياشين دائماً. وعندما ينزل من عربته التي تأخذه أحياناً إلى القصبة، مقر الوزراء، تُضرب له الطبول ويعزف له طاقم الموسيقى السلام الملكي. وها هي الأيام تدور دورتها الأولى فيصبح بورقيبة وزيراً أكبر للباي ثم رئيساً بدل الباي. لتدور الأيام دورتها الثانية بعد ثلاثين سنة فيخرج إلى قصر بعيد كما خرج الباي. ورئيس وزرائه زين العابدين بن علي يودعه بدون عنف وبقليل من المراسيم ولكن بكثير من اللطف.

فبعد ثلاثة أشهر فقط من الاستقلال استطاع المجلس التأسيسي أن يحد من امتيازات العائلة المالكة. فالنخبة الحديثة التي كان يقودها بورقيبة لم تخف رغبتها الجامحة نحو تغيير

النظام. وكثيراً ما لمح بورقيبة في خطاباته إلى ضرورة إصلاح النظام السياسي لملاءمته مع المرحلة. فيما كان واضحاً أن الباي يعيش آخر أيام الدولة الحسينية. وحين صعد بورقيبة إلى العرش كان بدون تاج، لكنه كان يملك قاعدة صلبة ارتكزت على شعبية استمدها من سنوات الزهو والنقاء خلال الثلاثينيات والأربعينيات. فامتلك من الصلاحيات ما لم يكن في حوزة الباي الهزيل. كان أكبر من الذي خلفه في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر الماضي بخمس سنوات. ولكنه مثله لم يقم إلا باقتلاع شجرة يابسة. شجرة كانت قد غرست مع بداية القرن، بيد أنها كفت عن الخضرة والإنتاج منذ سنوات الثمانين.

* * *

سقانس: ضاحية في المنستير. رقم ٨٤.

تحت ذلك الرقم ثمة فيلا يفصلها عن العالم الخارجي باب أبيض ضخم وسور من الأشجار الكثيفة، خلف جدرانها كان يسكن لأعوام خلت محافظ المدينة. واليوم تحولت إلى مسكن لأكثر رؤساء العالم الثالث المخلوعين عزلة وجاذبية: إنه الحبيب بورقيبة.

مضى الآن نحو ١٢ عاماً وبورقيبة بعيد عن السلطة. كان الانطباع السائد أن من كان له شخصية كشخصية بورقيبة التي تألقت في السلطة وآلفتها لن تستطيع أن تصمد طويلاً في ضوء الخافت وتتعايش مع الهزيمة وتتقبلها، لكن بورقيبة الذي كان قد عانى الكثير من وعكات الصحية المختلفة وعاش رطوبة الزنزانات وقسوة المنفى استطاع أن يهزم ويصارع لإقصاء والموت بصمت وقوة.

كان الرئيس بن علي قد بذل جهداً كبيراً في إقناع المجاهد الأكبر ـ الذي أوكله ذات يوم رئاسة الوزراء ـ أن يتنحى وينتقل للإقامة في صفاقس في وسط تونس الساحلية أو حتى في مورناق بضواحي تونس العاصمة. وأخيراً قبل بروقيبة وبصعوبة، الصعود إلى طائرة الهليكوبتر مع محمد غديرة وزير الزراعة في ذلك الحين.

وعلى بعد ١٠ كيلومترات من قلب تونس العاصمة كانت ضاحية مورناق محط الرحال الأول للرئيس المخلوع. وكان المسكن عبارة عن «فيلا» تملكها وسيلة بن عمار (زوجته السابقة) مجهزة بكل وسائل الراحة. وقد وجد بورقيبة نفسه محاطاً بجيش من الممرضين والطباخين والخدم وأيضاً بقريبته (ابنة أخته) سعيدة ساسي، التي كانت في آخر أيام حكم بورقيبة الآمرة الناهية في كثير من شؤون السلطة. لكن هذه الأخيرة لم تتأقلم مع حياة

العزلة فرحلت إلى باريس تحت حجة مرض ابنتها، تاركة خالها في الضوء الخافت بعد أن انطفأت أضواؤه الكشافة.

ومرت الأشهر بثقل وبطء. استمرت دورة الحياة في البلاد بدون الحبيب بورقيبة. لكن بعد فترة من الوحدة سيطلب هذا الشيخ الأعزل نقله إلى المنستير (مسقط رأسه) فجاء جواب بن علي كالآتي: «المنستير رطبة جداً ولا تناسب صحته». أما السبب الفعلي لرفض بن علي نقل بورقيبة إلى المنستير فيعود إلى سبب آخر وهو ربما الخوف من تجمهر شعبي حول شخص المجاهد الأكبر في بلدته ومسقط رأسه: في المنستير. في ذلك الوقت كان بعض سكان هذه المدينة قد اتفقوا على جمع المال للاحتفال بالعيد الخامس والثمانين للرئيس بورقيبة. لكن ذلك لم يحدث أبداً. ولما كانت المنستير هي المدينة الوحيدة التي شهدت بعض القلاقل ليلة ٧ تشرين الثاني/نوفمبر، ليلة التغيير، فقد فهم سكان تلك المدينة أن وجع رأس السلطة الجديدة قد يسبب لهم وجعاً في القلب.

احتفل بورقيبة بعيد ميلاده السابع والثمانين في «مورناق»، في تلك الفيلا التي كانت تمتلكها مطلقته. لم يكن الاحتفال كالعادة مهرجاناً متلفزاً حيث الخطباء يتبارون بالأشعار لمجده، لكنه كان بسيطاً وخافتاً. فقط كانت هناك كلمة تهنئة من الرئيس بن علي.

اغتنم بورقيبة تلك الفرصة ليبعث بدوره برسالة إلى الرئيس بن علي يطلب فيها نقله إلى المنستير للسكن في بيت العائلة الذي يقع في «حومة الطرابلسية». انتظر مدة، وحين لم يتلق أي جواب على طلبه أغاظه الأمر وكان غضبه واضحاً من خلال المكالمات الهاتفية التي كان يجريها بكثرة بسبب ومن غير سبب. كان الهاتف الوسيلة الوحيدة التي لايزال بورقيبة يمكلها لقياس شعبيته ومدى محبة الناس له. ثم قررت السلطة وضع حدّ لثرثراته فقطعت الخط الهاتفي، مما أحزن الرئيس السابق كثيراً، فقرر بدوره الاعتكاف والدخول في «مقاومة وطنية ثالثة» فأهمل حلاقة ذقنه وامتنع عن الكلام والامتثال لأوامر الأطباء. وكانت تلك طريقة مؤثرة في الاحتجاج استعملها حين كان نزيل سجن «برج البوف» في عهد الحماية الفرنسية.

أما السؤال الذي طرح نفسه في ذلك الحين فهو أين سيسكن بورقيبة لو أتيح له مجال العودة إلى أرض أبيه علي وأمه فطومة؟ هل يكون قصر سقانس مقر إقامته؟ هذا مستحيل، ذلك أن قصر سقانس هو رمز السلطة بحد ذاته، عدا تكاليفه الباهظة إذا ما تحول إلى إقامة. ثم إن هذا القصر قد وضع للبيع في المزاد العلني. هل يذهب إلى منزل العائلة القديم الذي وقع ترميمه في عهد بورقيبة والذي يوجد في حومة الطرابلسيين؟ هذا أيضاً احتمال

صعب، ذلك أن الدار قائمة في قلب المدينة ولا تستجيب إلى متطلبات الحماية لرئيس سابق له أعداء كثيرون.

وفجأة جاء القرار على النحو الآتي: «بورقيبة سيسكن فيلا المحافظ/الوالي الكائن برقم ٨٤ شارع الجمهورية في سقانس».

في ليلة من ليالي أكتوبر، نقلت هليكوبتر عسكرية بورقيبة من مورناق إلى مطار المنستير (١٢٠ كلم) ومن هناك نقلته سيارة مرسيدس إلى الإقامة في فيلا سقانس.

كانت هذه الفيلا قد أُعدت بعناية منذ ما يقارب الشهر، فدهن السور الذي يحيط بها بالأبيض وشجبت الأشجار وأقفل الباب الرئيسي وأصبح المدخل لمسكن بورقيبة يتم بواسطة باب جانبي يطل على طريق فرعية ضيقة. كانت كذلك قد جهزت بآلات كشف دقيقة وأصبحت أصغر زاوية في الحديقة مضاءةً بشكل يحفظ الأمن المطلوب. أما الطابق الأول فقد تحول إلى مركز طبي خاص بالرئيس المخلوع فيما فرش الطابق الأرضي بما يلائم ذوقه.

وها هو بورقيبة في بلدته أخيراً وبين أهله يعامل بشكل يحفظ مركزه وكرامته وهو حال لا يقارن بحال عائلة «الباي محمد الأمين» بعد خلعه، لثلاث وثلاثين سنة خلت خلال حكم بورقيبة.

ومنذ أول إطلالة له في الثاني من نيسان/أبريل في العام ١٩٨٩ بمناسبة أول انتخابات حين صرّ الرئيس المخلوع على المشاركة قائلاً: «قررت أن أنتخب ابني بن علي»، لم يظهر بورقيبة على شاشة التلفزيون إلاّ ممدداً على أريكة. فهو لم يعد قادراً على الوقوف، كما أنه لم يعد قادراً حتى على الكلام.

وفي جميع الحالات، لا يوجد من يستطيع أن يقدم لنا أي وصف عن حياة الرئيس المعزول. فزواره القلائل والفريق المجند لخدمته وكوميسار المنطقة اتفقوا أن يتكتموا في شأن طريقة المعيشة التي تسلكها فيلا ٨٤ شارع الجمهورية. أما الشخص الأول والوحيد الذي كشف بعض الظلال عن حياة بورقيبة فكانت شخصية أجنبية هي: «ماري كلير» أرملة رئيس الوزراء الفرنسي السابق «مانديس فرانس». بعد ذلك بقليل تمكن صديقه الصحافي الفرنسي صاحب النوفيل أبسرفاتور «جون دانيال»[٧] من زيارته في عزلته. وبالرغم من أنه ليس من السهل الحصول على أية معلومات دقيقة، إلاّ أن الهمس المتواتر شكّل في النهاية حكاية شبه موحّدة: في السنوات الأولى من عزلته كان يستيقظ كعادته في السادسة أو

الخامسة صباحاً. نزهة قصيرة في الحديقة. عودة إلى الطابق السفلي حيث يسكن، أما الطابق الأول فهو مخصص للحرس وللفريق الطبي والخدم.

بعد النزهة يستريح بورقيبة مع قراءة بعض الأشعار بصوت عال وبعدها يسترسل في حديث مع ممرضيه أو يستقبل عائلته القريبة: ابنه وأحفاده. بعدها ينتقل بسرعة إلى حالة صفاء ذهنية واضحة ثم فجأة تأتي العشوائية والخلط في الأحداث والتواريخ. وهذا يعود بشكل أساسي إلى معاناته من مشكلة الأرق.

في السنتين الأخيرتين، أصبح بورقيبة يسمع ولا يتكلم إلا قليلا حسب شهادة محمد الصيّاح، مدير الحزب الحاكم سابقاً. لم يفقد ذاكرته كليا، ولكن يصعب عليه أن يوضح فكرة تخطر بباله. يتعرف بصعوبة إلى الذين يزورونه. ويتذكّر أحياناً بعض المواقف أو اللقاءات التي جمعت بينه وبينهم لكنه سرعان ما يغيب عن الوعي. لا يشعر بأي نوع من الإهانة أو هو يخفي ذلك جيداً، لكنه من الواضح أنه يعاني من الكآبة. وخلال سبع أو ثماني زيارات أداها هذا الرجل المدلل لدى بورقيبة في عزلته، خرج بانطباع مفاده أن دماغه حيّ وقلبه ينبض ويداه تتحركان، لكن جسده انهار تماماً[٨].

ظلّ بورقيبة يتناول وجباته في ساعات محددة: الثانية عشرة للغداء والسابعة والربع للعشاء. الغداء عبارة عن شريحة سمك وفواكه، وفي المساء شوربا مع مياه معدنية، لكنه في السنتين الأخيرتين أصبح يكتفي بوجبته من المرق والحساء.

إن الدقة في مواعيد الوجبات ونظام الأكل المدروس هما المفتاح لصحة جيدة ولعمر مديد. ولكن جسد شيخ قد شارف على مئة عام، قد بات لا يقوى على هضم أي شيء. رغم ذلك وفيما عدا المشاكل البولية، فإن بورقيبة لا يزال يتمتع بصحة نسبية بالتوافق مع سنّه. ورغم شائعات الموت التي ظلت تلاحقه من وقت إلى آخر منذ أن أُزيح عن السلطة، فإن الملل هو المشكل الأساسي الذي يقلق راحة الرئيس المخلوع. وحتى يخدع هذا القلق الممزوج بالملل يلجأ بورقيبة إلى الهاتف فيطلب أرقاماً كيفما اتفق وما أن يرد الطرف الآخر حتى يقول له:

«هل أنتم عائلة منستيرية؟ أنا الحبيب بورقيبة وأحب المنستير» ثم يقفل السماعة. وقد اتصل مرة بالإذاعة المحلية غاضباً: «أنا سبب وجودكم ولا تذكرون اسمي مرة واحدة!!». هكذا حين نبلغ الشيخوخة نكون قد عدنا إلى الطفولة في سذاجتها وشغبها!.

أما الذين يحيطونه بالرعاية فهم عرضة دائماً لغضبه وقلقه، فاتفقوا أن يمرروا بعض الكاسيتات القديمة لتسليته وأغلبها أناشيد قديمة تغنت بمجده حتى لا يشعر بالخذلان.

وإلى الآن يظل بورقيبة ينتظر كل مساء النشرة المتلفزة ليعلق عليها بشكل مرير أحياناً. وفيما يقوم ابنه الحبيب بزيارته أسبوعياً فإن حفيده المهدي يحضر له كل يوم «الموند» و«الفيغارو» ليقرأ عليه بعض الأخبار. لا أثر لأية مطبوعة تونسية في قراءاته. يستمع إلى ما يقرأ له ويعبر فقط عن رأيه باقتضاب إذا كان الحدث يهمه من قريب أو بعيد. وقلائل هم الذين يسمح لهم بزيارة الرئيس. فالسلطات أو حتى عائلته حريصان جداً أن لا تكون الزيارات كثيرة. وكان بعض المنتمين إلى عائلته قد رغب بزيارته إلا أن طلبهم ظل دون جواب. أما ابنه الحبيب (٧٠ عاماً) وزوجته نائلة فيأتيان كل آخر الأسبوع لقضاء يوم العطلة معه. ومع الحبيب الابن يأتي أحياناً أحفاده الثلاثة وهم مريم وهي زوجة ابن علالة العويتي (السكرتير الخاص السابق لبورقيبة) ومعز وهو طبيب يمارس مهنته في تونس العاصمة ومتزوج من فرنسية. ومهدي الذي كثيراً ما يزور جده وهو مالك لمطعم على شاطئ القنطاوي قرب سقانس اسمه (l'Escale).

أما وسيلة، الزوجة المطلقة التي كانت تسكن بفيلا ضاحية في المرسى إلى حين وفاتها في صيف ١٩٩٩، وأصدقاؤه السابقون مثل البشير زرق العيون وصادق بوصفارة وحسن عبد العزيز والمحجوب بن علي[٩] فلم يقوموا بأية زيارة إلى سقانس دون أن نعرف من رفض مقابلة من؟

ولم يقابل الرئيس بن علي بورقيبة منذ ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٧ إلاّ أربع مرات. الأولى في العام ١٩٩٢ وكانت عبارة عن التفاتة عاطفية والثانية في بداية العام ١٩٩٥ حين انتشرت شائعات حول موت بورقيبة، وثالثة حين قيل إن بورقيبة قد نقل إلى منفى آخر. والرابعة كانت في آذار/مارس ٢٠٠٠ بالمستشفى العسكري بالعاصمة. على أية حال، فإن نزيل قصر قرطاج يسهر شخصياً على راحة من تسمّيه الصحافة المحلية باحتشام بـ«الزعيم بورقيبة».

إن مصاريف ومرتبات موظفي فيلا سقانس من خدم وحرس تقتطع من ميزانية الرئاسة. ويخصص لبورقيبة مرتب الرؤساء السابقين وهو يقارب الألفي دولار، أما مصاريف إقامته فهي على عاتق الدولة. وحين اقترح المتعهد بالإدارة المالية لإقامة المنستير أن يبيع محصول الزيتون من حصة بورقيبة للمساهمة في مصاريف الإقامة، وجد الأبواب كلّها موصدة

أمامه ورفض الحرس الخاص دخوله لأسباب أمنية لأنه أثار مشاعر الغضب لدى من يعتقد أن في ذلك إهانة للدولة قبل أن تكون إهانة لزعيم سابق!.

إن بورقيبة هو قبل كل شيء محام. وقد وجد في بن علي محامياً يدافع عنه ضد الذين أرادوا تشويه سمعته أو الذين رغبوا حتى في محاكمته. وقد كذّب بن علي عبر وسائل الإعلام كل ما يتعلق بـ«الثورة المزعومة» للمجاهد الأكبر. وإذا كانت بعض تماثيل بورقيبة قد أزيحت من أماكنها فإن الكثير منها مازال في مكانه خصوصاً في المنستير وطبرقة وحلق الوادي.

وإذ ينام الزعيم في إقامته في انتظار ساعة الحقيقة فإن الجميع يجمع على القول «إن بن علي تصرّف بلباقة». إن تونس التي تعرف اليوم أنها تستطيع العيش من دون ذلك الرجل المسن قد أزاحت عنها القلق الذي ساد فترة ما بعد ٧ تشرين الثاني/نوفمبر تماماً، وانهمكت في نسج علاقة أخرى مع ساكن قصر قرطاج شبيهة بعلاقتها مع الزعيم المخلوع أيام كان سيّد البلاد بلا منازع.

كان بورقيبة يرى دائماً بأن مجيئه إلى الدنيا كان بمثابة ولادة أمّة حتى لكأن من سرير أمّه فطومة ولد شعب هو في وعي بورقيبة ولاوعيه مزيج من الغبار والقبائل. لكن موته السياسي لم يهدم بناء تلك الأمة. وحتى لو أن خلعه قد جرح «أنانيته» فإنه في الواقع كان تحية كبرى له.

لقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً، وأخيراً فهم كل شيء. فهم كذلك أن العزلة، إذا كانت قاسية جداً، فلأنها مكاشفة مع الذات المعذبة وترويض للأنا المتعاظم، فكيف يمكن لنا أن نقرأ سيرة ذلك الأنا المتجبر، دون أن نقع تحت سحره أو تحت نزقه!؟.

الهوامش:

(١) كان الخطاب الذي ألقاه بورقيبة في الـ٢٥ من تموز/يوليو ١٩٥٧ بالقصبة، بمثابة ساعة الصفر التي حددت لإرغام الباي على التنحي. وقد ظل ذلك اليوم عيداً وطنياً، يعرف بـ«عيد الجمهورية».

(٢) إدريس قيقة، هو نفسه الذي أصبح فيما بعد وزيراً للداخلية وقد أقيل من منصبه على إثر انتفاضة الخبز عام ١٩٨٤ بعد اتهامه بمحاولة تفكيك الحكم خلال صراع مكشوف مع رئيس الوزراء آنذاك محمد مزالي.

(٣) من حديث مع إدريس قيقة أجراه المؤلف في باريس قبل حركة التغيير عام ١٩٨٧ ببضعة أسابيع.

(٤) البردعة هي كساء الحمير. وقد روى بورقيبة لطلبة معهد الصحافة وعلوم الأخبار في العام ١٩٧٣، كيف أن والده الذي عمل جندياً في جيش البايات كان يحمل البردعة مثل الحمير، وكيف أنه كان دائم التحذير له قائلاً: «إذا لم تجتهد في دراستك فإنك ستحمل البردعة كما حملها أبوك».

(٥) مما رواه محمد المصمودي عن بورقيبة خلال محاورات طويلة ببيته في باريس عام ١٩٨٦.

(٦) من رواية بورقيبة لتاريخ الحركة الوطنية ـ محاضرات معهد الصحافة وعلوم الأخبار، ١٩٧٣

(٧) من حديث لمحمد الصباح ببيته في تونس العاصمة مع المؤلف ـ كانون الثاني/يناير ١٩٩٦.

(٨) جان دانييل رئيس تحرير «النوفيل أبسرفاتور» الفرنسية هو الصحافي الوحيد الذي زار بورقيبة في إقامته الجبرية في العام ١٩٩٣. وقد أجرى معه دردشة متنوعة خرجت في شكل حوار صحافي. وقد تمت المقابلة بعد إلحاح من بورقيبة.

(٩) المحجوب بن علي ـ أحد رفاق بورقيبة، وأحد رجاله الأشداء. توفي غريقاً في البحر على شاطئ قرطاج عام ١٩٩٩.

سنوات الصبا:

من البراءة إلى القلق

«ثمّة براءة من الإعجاب· مَن يتحلّى بها لم يخطر على باله بعد، أنه قد يكون بدوره محطّ إعجاب ذات يوم».

«فريديريك نيتشه»

ما وراء الخير والشرّ

«كم ملأ أبي روحي بالقلق. كم ملأت أمي حياتي بالبكاء. لذلك أنا مغلق على نفسي كشجرة الصنوبر المتوحدة متجهاً إلى ذاتي ومتطلّعاً إلى أعلى».

«سيرن كيرغارد»

فونتانا

ولد الصبيّ الحبيب، مع بزوغ القرن العشرين. وإذ سُمع صراخ الحبيب وهو يرتطم بالأرض معلناً عن قدومه وسط الخجل والانكسار، فإن القرن العشرين قد كشف هو الآخر عن وجهه البشع من خلال تلك المجاعات التي ضربت الكرة الأرضية من الصين إلى إفريقيا، وتلك المجازر والمذابح التي اقترفت في حق شعوب كثيرة من روسيا إلى أرمينيا، ومن الجزائر إلى الهند. سار القرن العشرون على جثث كثيرة وهو يتغذى بالمجازر والخيانات والدناءة، باحثاً عن المجد والقوة، ومتخطياً الأرض والفضاء والزمن والأبعاد. أما الحبيب الصغير، فقد راح يحدّق في الأفق وهو لا يعرف إلى أين ستقوده خطواته الصغيرة.

كان ثامن إخوته. وكان أصغرهم. وإذ جاء إلى الحياة حين بلغ أبوه من العمر أرذله، فقد قوبل بتململ واضح. وقد ظن الناس والجيران أن أخته التي ولدت قبل سبع سنوات، هي خاتمة العنقود، فإذا بالوالدة «فطومة» بنت خفشة الأربعينية تحبل به. ولأن فطومة قد أصبحت في مصاف الجدّات لأن البنات كنّ يتزوجن في سن مبكرة، وهي التي يبلغ ابنها لا يُسمع صياحها بدافع الخجل والحياء.

حين عرف الأخ الأكبر محمد أن المولود ذكر وليس أنثى، قال بصوت عال وخشن وهو يهنئ نفسه: «الحمد لله، لم يكن المولود أنثى». وحين سمع الصبي الحبيب تلك الرواية، لاذ بصمت عميق، ما لبث أن تطور إلى مساءلة في سنوات النضج عن وضعية المرأة عموماً. لمّا حدثته الأم فطومة لاحقاً «بأن الغيرة والأحقاد كانت تأكل أحشاء وقلوب زوجات أعمامه، لأنها قد أكثرت من إنجاب الذكور» أدرك الصبي الحبيب مبكراً أن الإناث محتقرات!.

تطور الخصام بين السلفات. لم تكن والدة الحبيب «فطومة» امرأة مطيعة أو لينة رغم مرضها. فأمّ الذكور غالبا ما تكون صاحبة سطوة على زوجها. ولذلك فقد قررت أن ترحل من بيت الجد الذي أصبح مقرّاً لشجار متواصل طوال النهار. وحين وضعت زوجة العمّ محمّد كمية كبيرة من الملح في إناء طبخ فطومة ثم عمدت زوجة العمّ حسن إلى وضع كمية من الرماد في قصعة الكسكسي، كان على الأب علي وقبل أن يأتي الطفل الحبيب إلى الحياة، أن يهرب بأبنائه وزوجته إلى دار أخرى خوفاً من الفضائح.

كانت «حومة الطرابلسية» التي توجد بها دار جد الحبيب، الحاج محمد بن علي الأشقر، عبارة عن مجموعة أزقة متشابكة ومزدحمة بالوافدين والنازحين إلى قرية المنستير منذ أكثر من قرن. لم يولد الصبي الحبيب كبقية أخوته في تلك الدار التي تجمع أبناء الحاج محمد وزوجاتهم، وإنما ولد بدار أخرى في حي «القرايعية» خارج حومة «الطرابلسية» بعد أن اكتراها والده مفضلاً الانسحاب من الشجار والخصومات. وسوف تبقى «دار الجد» الحاج بورقيبة الأشقر حظيرة للبقر والبهائم بعد أن تركها الجميع تباعاً، إلى أن تتحول إلى مزار بعد أن أصبح الحبيب رئيساً للبلاد التونسية.

كانت هذه الدار، وكما وقع ترميمها فسيحة وبها ثلاث غرف، الأولى على اليسار لعمّ الحبيب سي محمّد وهو رجل يكبر والده علي بحوالى ٢٠ عاماً. وقد كان كفيفاً ولم ينجب إلا ولداً معتوهاً. والثانية تقع في صدر الدار وكان يسكنها عمّه سي حسن الذي لم ينجب إلا ثلاث بنات. أما الغرفة التي تقع على اليمين وهي الغرفة التي كان أحد جدرانها مطلاً على الشارع فقد شهدت ميلاد أخوة الحبيب جميعاً.

وإذ يصعب تحديد السنة التي ولد فيها الحبيب على وجه الدقة، فإن التاريخ الذي اختاره بورقيبة قد تحدد سنة ١٩٠٣. بيد أن العودة إلى أوراقه المدرسية وتاريخ حصوله على الشهادة الابتدائية قد يرجح أنه ولد في العام ١٩٠١. وليس ثمة ما يؤكد أن الحبيب قد ولد في الصيف شهر أب/أغسطس، إلا حبه لبرج الأسد، إذ اختار أن يسجل نفسه تحت

مواليد ذلك البرج. وحين جاء الحبيب إلى الحياة كان أصغر إخوته فتاة تبلغ من العمر حوالى ٧ سنوات، وهذا يعني أن جميعهم ولدوا قبل حلول القرن العشرين. ولو افترضنا أن والده قد تزوج في العام ١٨٨٠، أي قبل بدء الحماية بعام واحد وأن أخاه الأكبر محمد يكبره بـ٢١ عاماً كما يقول بورقيبة بنفسه، فالأرجح أن يكون الحبيب قد وضع قدميه على الأرض في العام ١٩٠١ وليس في العام ١٩٠٣. وحين نضيف أن تاريخ حصوله على الشهادة الابتدائية هو العام ١٩١٣، يكون من المؤكد أن الولادة حدثت في العام ١٩٠١ بحيث إنه حصل على الشهادة وهو في سن الثانية عشرة. وهو عمر مناسب أكثر من عمر الـ١٠ سنين، زيادة على أن رقم ١٢ سيكون رقماً سحرياً في حياة هذا الرجل كما سنرى لاحقاً.

* * *

لم يعرف الصبي الحبيب لا حارات الحومة الطرابلسية ولا صبيتها. فقد ولد وتربى بعيداً عنها ثم ما لبث أن غادر المنستير بصحبة أخيه الأكبر ليتابع دراسته الابتدائية. وحين كبر أدرك أنه نُزع بالقوة من تلك الأجواء التي عادت تخيم عليه كحنين جارف جعله سجيناً لذكريات ملونة مرة وغائمة أو مشوشة مرة أخرى. كانت تلك الحومة يسكنها القادمون مع جيش الباي حمودة باشا الذي سافر عبر ليبيا نحو تركيا للمشاركة في حرب القرم، كذلك الهاربون من عسف حكم عائلة القرامنللي على إيالة طرابلس الغرب، والباحثون عن عمل موسمي في حقول الزيتون بالساحل والناجون من المذابح والمجاعات، بالإضافة إلى بعض العائلات اليهودية الخائفة والباحثة عن الأمن.

وسيظل بورقيبة مثقلاً إلى سن متقدمة بهمّ البحث عن جذوره البعيدة. سوف لن يتنكر أبداً لجذوره الليبية وهو ما ردّده مراراً وتكراراً في تونس وطرابلس، من أن عائلته قدمت من ليبيا، بل هو سيقبض على نفسه وهو مورط بالبحث عن عائلته في مصراتة، حين كان يتابع رحلته إلى المشرق في الأربعينيات، ولكن ما لم يؤكده أحد بما في ذلك بورقيبة نفسه، هو ما إذا كانت تلك العائلة (عائلة بورقيبة، هي عائلة ليبية ـ مصراتية أم هي عائلة وافدة على مصراتة في حدود الربع الأول من القرن التاسع عشر).

تتيح مقارنة الأسماء هنا التأكيد أن اسم بورقيبة مركب على النحو الذي تركب به بعض أسماء العائلات الليبية مثل بورجيلة وبوعوينة وبوسنينة وبوكريشة وبوذينة وبورويس وبوخشيم، وهي صيغ تصغيرية. هذه الألقاب بهذه الصيغة التصغيرية غالباً ما تطلق على الوافدين، لا على الأهالي، ذلك أن الذي لا يعرف اسم جده أو اسم عائلته، يصبح ملقباً

بما هو بارز منه عضوياً أو حتى سلوكياً. فالذي يملك كرشاً صغيراً يصبح بوكريشة، والذي يملك رجلاً صغيرة، يعرف تحت اسم أبو رجيلة. وإذا كانت رقبة أحدهم صغيرة أو قصيرة يصبح حاملاً لقب أبو رقيبة.

يأخذنا ذلك التأويل المقارن إلى أن عائلة بورقيبة وافدة على مصراتة التي ظلت إلى منتصف القرن العشرين من أهم موانئ التجارة والاختلاط البشري. وما يؤكد ذلك أن عائلة بورقيبة هذه قد انتشرت بعد ذلك في طرابلس ثم في جربة، حين كانت تحت حكم القرامنللي ومنها إلى الساحل في المنستير. وإذ يبدو مسجد بورقيبة بطرابلس كشاهد على أن أحد أفراد هذه العائلة قد مرّ من هناك، فإن عائلة بورقيبة بجزيرة جربة تبدو هي الأكبر حجماً وعدداً من عائلة بورقيبة التي سكنت المنستير ممّا يرجح خط رحلتها (مصراتة ـ طرابلس جربة ـ المنستير). ولكن إذا لم تكن عائلة بورقيبة من أهالي مصراتة القدماء، فمن أين تكون قد وفدت؟

تذهب بعض القراءات بعيداً فتؤكد أن جذور هذه العائلة ألبانية[١]. فيما يؤكد آخرون أنها من أصل يوناني من جزيرة سالونيك[٢]. إن بورقيبة نفسه الذي لطالما تغنى بعيونه الزرق «التي لا يمكن أن تنتمي إلى عيون العرب السوداء»[٣] كثيراً ما سوف يتساءل ما إذا كان من أصل عربي أو من أصل أوروبي. ولا تتوقف الأسئلة حول أصل هذا الرجل صاحب العيون الزرق، بل ستشمل كذلك ديانة هذا الرجل العلماني الجاف الذي أثار كثيراً من المتاعب لرجال الدين الإسلامي حين أصبح رئيساً.

ثمة من يعتقد أن اسم بورقيبة يعني «السجين»[٤] باللغة الألبانية، وفي هذه الحالة سيكون من الأرجح أن يكون المعنى هو الرجل الذي عتق رقبته. وعلى ذلك الأساس، فإن التفسير يقوم على أن الجد بورقيبة، قد عتق رقبته عن طريق الهرب عبر البحر إلى مصراتة، أي إلى ديار الإسلام!

ثمة كذلك من يعتقد أن بورقيبة من سالونيك ومن أصل يهودي. وقد اضطر إلى اعتناق الإسلام حين هرب إلى مصراتة، الأمر الذي يجعل الافتراض الذي يقول أن جامع طرابلس المسمى بجامع بورقيبة قد بني على زاوية قديمة كانت تعرف بزاوية بورقيبة تنعماً على روح الشيخ بورقيبة الذي اعتنق الإسلام في سنّ متقدمة.

وستظل «يهودية بورقيبة» من الأشياء الغامضة تماماً مثل غموض أصله اليوناني أو الألباني، كذلك مثل غموض تاريخ قدوم جده الأول إلى مصراتة، وقدوم جده الأخير إلى تونس.

وثمة افتراض عام من شأنه أن يضع حداً لذلك الغموض والتأويل المتشابك، هو أن بورقيبة من عائلة تنتمي إلى الكون العثماني سواء كان من سالونيك أو من ألبانيا، وأنه ينتمي إلى عائلة مسلمة منذ أن أصبحت نزيلة ديار الإسلام على شاطئ مصراتة. كما أن جده الحاج محمد بن علي الأشقر قد قدم إلى المنستير في حدود العام ١٨٥٥ أي حين كان عمر والد بورقيبة علي ٥ سنوات. فهذا الأب الذي توفي في العام ١٩٢٦ وعمره يناهز الـ٧٦ سنة، وكان قد تزوج وعمره نحو ٣٠ سنة في العام ١٨٨٠، لم يولد في المنستير، بل من المرجح أن يكون قد ولد إما في جربة قبل أن ينتقل جده إلى المنستير أو في مصراتة.

كان الحاج محمد بورقيبة الذي يلقب بالأشقر قد استقر في حومة الطرابلسية، مثل الذين سبقوه إليها في موجات متعددة من الهجرة. لا أحد يعرف متى حل الحاج بورقيبة الأشقر(٥) بتلك الحومة، ولكن الحكايات التي نسجت بعد أن أصبح حفيده رئيساً للبلاد التونسية تبدو مكتنزة بكرم هذا الرجل وشجاعته وغناه. وتبدأ تلك الحكايات في العام ١٧٩٥، حين قرر الحاج الهجرة من مصراتة على إثر قلاقل اجتاحت ولايات الأمبراطورية العثمانية. نزل في البداية في جربة مع أبنائه وعبيده الأربعين وحيواناته وكذلك طبيبه الخاص!. وبعد سنين طويلة انتقل إلى المنستير. وإذ تتكرر الأسماء نفسها في عائلة بورقيبة، فإن الحقائق كثيراً ما تتداخل، حتى لا نعود نعرف متى حلّ بالضبط بالمنستير، ومن الذي حلّ بالمنستير من جدود الحبيب، هل هو الحاج محمد الأول الملقب بالكبير أو الحاج محمد الثاني الملقب بالأشقر؟ كما لا نعود نعرف ما إذا كان الحاج محمد واحداً فقط يلقب مرة بالأشقر وأخرى بالكبير، أو اثنين؟ ولكن هناك واقعة مهمة تثبت أن والد الحبيب حين انفجرت ثورة علي بن غذاهم في وجه حكم الحسينيين في العام ١٨٦٤(٦)، كان يبلغ من العمر حوالى ١٤ سنة فقط. أثناء تلك الانتفاضة، وضعت أملاك الحاج بورقيبة تحت مراقبة جند الجنرال زرّوق، كما وضع الحاج محمد في السجن وكان على العائلة أن تجمع ما تملك من ذهب وفضة لتدفعها كفدية لإطلاق سراح الحاج محمد. تلك الفدية سيحملها إلى إدارة الجند المراهق علي والد الحبيب. وحين وقف المراهق مضطرباً أمام أحد مساعدي الجنرال زرّوق، استبقاه ليقدمه إلى الجنرال نفسه(٧). وفي الحين لمح الجنرال عيون المراهق علي الزرق، فقال له مداعباً: «أنت من أبناء الباب العالي، فلماذا لا تعمل في الجندية؟» ثم قام الجنرال ليأذن بإطلاق سراح الأب الحاج محمد. عاد الحاج محمد إلى بيته لينام من التعب، فإذا بالنوم يأخذه إلى القبر، أما الابن علي، فقد أعجبته الفكرة وأصبح من جند الجنرال زرّوق. أمضى «علي» حوالى ١٩ عاماً في خدمة الباي، وحين ترك تلك

الخدمة كان عمره نحو ٣٣ سنة فقط حصل خلالها على رتبة رقيب مع خطة تقاعدية قدرت بـ١١ فرنك كل ثلاثة أشهر.

كانت الحماية الفرنسية قد انتصبت على تونس منذ سنتين، حين غادر الرقيب علي الخدمة العسكرية. كان يبلغ من العمر نحو ٣٣ سنة، وكان قد تزوج من فطومة بنت خفشة قبل عام فقط من اتفاق قصر السعيد في العام ١٨٨١ الذي شرّع لتلك الحماية الفرنسية. وبعملية حسابية نجد أن الوالد علي قد ولد في العام ١٨٥٠ إذا كان قد توفي في العام ١٩٢٦ عن عمر يناهز ١٩٧٦ سنة. وهو ما يؤكد أن هذا الوالد علي قد ولد إما في جربة قبل وصول الحاج محمّد إلى المنستير في العام ١٩٥٥ أو ولد في مصراتة.

لم تعد عائلة الحاج بورقيبة غنية، أو بالأحرى لم تكن كذلك. فالدار التي كان يسكنها الأولاد، علي وحسن ومحمد لا تحتوي على أكثر من ثلاث غرف. خرجت الأخت آمنة لتتزوج أحمد سقا ثم غادرت الأخت عيشوشة لتتزوج من الحاج يوسف زوتين. وهذان الصهران ينتميان إلى أعيان البلدة. أما الأخوة الذكور فقد اقتسموا البيت، حيث سيعيش كل واحد منهم مع زوجته وبناته في غرفة، إلى حين يغادر الأخ علي بيت الوالد إلى دار أخرى خارج حومة الطرابلسية، قرب القرايعية حيث سيلد الابن الحبيب.

كانت أم الحبيب فطومة ابنة للسيدة خدوجة مزالي. وهذه الأخيرة، التي تنحدر من «سوس المغرب» (بربر) غنية إلى حدّ يضعها في صف أعيان المنستير. وهي التي رتبت زواج بنتها بعلي والد الحبيب، كما هي التي ساعدت صهرها - علي - على اكتراء منزل آخر تنتقل إليه ابنتها وأحفادها هرباً من الشجار مع السلفات. وإذا عرفنا الآن أن جد الحبيب قادم من مصراتة (ليبيا) ويرمي بجذوره البعيدة إلى سالونيك أو ألبانيا، وأن جدة الحبيب خدوجة مزالي قادمة من بلاد السوس البربرية في المغرب، يصبح آنذاك من السهل مغامرة الاستنتاج أن الحبيب لم يكن من أصول تونسية لا من جهة الأب ولا من جهة الأمّ. أما أصوله العربية فستظلّ في حاجة إلى تأكيد.

إذا كانت الأم فطومة قد ورثت من آل خفشة السمرة ومن آل مزالي المثابرة والقوة والجاه، وورث الأب عن جدّه الأشقر عيونه الزرق وقامته الممشوقة، فإن الحبيب، وهو الابن الأخير بعد محمّد وأحمد ومحمّد ومحمود ونجية وعايشة (عيشوشة) ويونس (الذي توفي بعد ثلاثة أشهر فقط من ولادته) سوف يرث من والده زرقة العيون وبياض البشرة ومن والدته قوة التصميم والمثابرة. أما قامته القصيرة (متر و٦٤ سنتمتراً) والتي كثيراً ما كانت محل تهكم لدى أخوته الكبار كقولهم: «البيضة الفاسدة هي دائماً البيضة الصغيرة» أو «من

قرب إلى الأرض كثر شرّه»، أو «حبة العنقود الأخيرة غالباً ما تكون صغيرةً وصفراء»، فسوف تجعل منه رجلاً قلقاً وطموحاً إلى أبعد حدّ. وإلى درجة أنه سيكتشف مبكراً أن القامة تزداد طولاً كلما صعد صاحبها إلى الفوق، فوق المنابر أو فوق الأعناق.

وبالرغم من أن الابن سيتربى على احتقار الثكنات والعسكر، إلا أن والده كان من عساكر الباي. وسوف نعرف أنه ربما الـ١٩ سنة التي قضاها والده في خدمة الباي وهو يحمل «البردعة» على ظهره هي التي شحنته بذلك العداء الصارخ لكل ما هو عسكري، بيد أن والده حين تقدم به العمر لم يجد ما يسدّ حاجاته غير تلك «الخطة التقاعدية» التي أصبح بمقتضاها يتلقى منحة كل ثلاثة أشهر، بعد أن عزل من منصب شيخ حومة الطرابلسية. إن البردعة التي كان يحملها الوالد هي التي أرهبت الحبيب وجعلته معادياً للعسكر، أما السيف الذي ورثه أبوه الرقيب المتقاعد فسوف يبقى رمزاً للمجد في نظر الحبيب.

كان الأب علي في البداية قد دخل كجندي عادي في صفوف التريس (المشاة) ثم أصبح فيما بعد رقيباً تحت أمرة يوزباشي المنطقة. وسوف لن يتذكر الابن الحبيب من خدمة والده، سوى حكايات بسيطة يسمعها من الوالد الذي غادر جند الباي قبل مجيئه إلى الحياة بحوالى ٢١ سنة. كما سوف لن يرث من مجد أبيه سوى ذلك السيف المعلق على جدار السقيفة «بدار القويج» حيث ولد الحبيب، كرمز للمثابرة والشرف العائلي والبأس إذ كثيراً ما أدخل الرعب في قلب الصبي، حين كان يحاول النهوض برجولته لإخراجها من معتقل الدار والزقاق الضيق والمراهقة المشاغبة. ولأن الأب قد أصبح شيخاً بعمر يناهز الـ٥٨ عاماً وبصحة عليلة وهو على خوف كبير من ضياع آخر العنقود، فقد اختار أن يرسل ذلك الصبي الحبيب بسنواته الست إلى أخيه محمد الذي كان يسكن تونس العاصمة ويعمل كمترجم في الإدارة الفرنسية. هناك سيدخل الطفل الحبيب عالم الخشونة مبكراً. سيعرف حرمان الأم وقسوة زوجة الأخ، وصرامة الأخ الأكبر. سيعرف حرية كانت أقرب إلى الإهمال والحرمان. كما سيتوزع نهاره بين المدرسة والشوارع محدقاً في بنايات ضخمة وأناس جدد ناشطين. وكل ذلك سيغرس في الصبي الحبيب ميزة التأمل الجارح والوعي المقارن. وإذ كثيراً ما عوقب من قبل زوجة أخيه التي كانت تنظر إليه كولد شقي ونزق ووسخ، فإنه لطالما أحزنه الأمر وهو يقارن نفسه بأقرانه تلاميذ الصادقية، فلا يجد في قدمه غير حذاء مثقوب، وعلى قامته القصيرة والنحيفة لباساً رثّاً يخفي بداخله حبّاً فاجعاً لأمّه وكراهية مقيتة لتلك المرأة القاسية «التي تسكن بيت أخيه»[8]، وبعض الحقد على زملاء له أكثروا من التفاخر والفخفخة.

مضى الآن أكثر من ربع قرن على نظام الحماية الفرنسية: خطا الصبي الحبيب أولى خطواته في تونس العاصمة نحو الدرس والاجتهاد وهو مثقل بنصيحة الوالد «عليك بالاجتهاد حتى لا تحمل البردعة»، وإذ سأله وهو يودعه: وما البردعة يا أبي؟ أجابه: «إنها الكساء الذي يوضع على ظهر الحمار. وقد حملها أبوك على كتفيه سنين طويلة أثناء تنقله مع جيش الباي من منطقة إلى أخرى»(٩). اجتاحت تونس موجة من الغضب دفعت بها أمواج الساحل الشرقي، حين قذفت بأخبار مظاهرات القاهرة ضد الاحتلال البريطاني، ولم يتأخر ذلك الغضب حتى كشف عن مجموعة من «الشباب التونسي» تحت قيادة علي باش حانبة، وقد تحمسوا لمقاومة الحماية. وخلف ذلك القلق الكثيف، خلف محمد الناصر باي ابن عمه الذي كثيراً ما وصف بالباي الشهم (محمد الهادي باي).

ولأن «الناصر باي» قد برز كرجل قوي داخل قصر قد أصبح مثقلاً بالذنوب ومحاصراً بالكراهية وكذلك بالشروط المذلة، فقد افتتح عهده بتحد سيسجل في تاريخه كنقطة مضيئة. لقد تم إصدار مجلة «العقود والالتزامات» التي اعتبرت أول عهد للقانون المدني التونسي الحديث. بعد ذلك أدخل هذا الباي لأول مرة نواباً عرباً تونسيين في مجلس «الشورى» المشرف على توزيع ميزانية الحكومة والتي كانت فيما مضى تحت قبضة الفرنسيين المطلقة، ثم أحدث ما أصبح يعرف بقانون «الحالة المدنية» لتسجيل الولادات والوفيات بالمجلس البلدي. وهذا كله ما أعطى للأهالي بعض الفرص للظهور في معظم قطاعات الحياة.

كانت مدرسة الصادقية من إنجازات «الصادق باي» المشعة والتي ستخفف عنه ذنوب توقيعه على معاهدة الحماية. وقد أقيم ذلك البناء في العام ١٨٧٥، أي قبل انتصاب الحماية بنحو ست سنوات بأمر من «الصادق باي» وتحت إشراف المصلح «خير الدين باشا». وإذ أطل عليها الصبي المنستيري الحبيب في العام ١٩٠٧(١٠)، فقد شاعت شهرتها على نحو أقبل فيه أعيان البورجوازية العقارية والعسكرية والزراعية، يتنافسون على إرسال أبنائهم إليها. كان الجيل الذي أصبح يتزعم منظمة «الشباب التونسي» هو الجيل الأول لتلك المدرسة. فعلي باش حانبة وعلي بوشوشة وبشير صفر ومحمد الأصرم، هم رموز بداية المقاومة، كذلك هم أبناء رموز الأرستقراطية التونسية الذين أعدوا خصيصاً لخدمة العائلة الحسينية.

إذا كانت الصادقية قد بدأت تعطي ثمارها لتحديث المجتمع في ذلك الوقت، فإن مدرسة الخلدونية التي تأسست في العام ١٨٩٦، قد جاءت لتحديث تعليم جامعة الزيتونة. كانت

الفكرة قد ولدت في أحضان مجموعة من المثقفين تعرفوا إلى الشيخ «محمد عبده» لدى زيارته لتونس[11]. ولأن الخلدونية قد أصبحت هي أيضاً منارة للعلوم الحديثة، فقد تحمس المحامي باش حانبة والصحافي علي بوشوشة نحو بعث جمعية قدماء الصادقية. تلك الجمعية ستكون بمثابة المصهر الثقافي الجديد لتونس العاصمة وأبناء أحياء باب الجديد وباب سويقة والحلفاوين وباب الفلّة. لم تكن السياسة بعيدة عن هموم أولئك الشباب الطازج والمتعطش للمعرفة والحرية. وإذ أعجب المحامي باش حانبة ورفاقه بأفكار محمد عبدة المصري وأفكار «تركيا الفتاة»، فقد اختار لتلك الجمعية التي تطورت فأصبحت حزباً سياسياً، «تونس الفتاة» أو «الشباب التونسي». ومنذ كانون الثاني/ يناير ١٩٠٧، سيصدر الشباب التونسي جريدة عرفت «بالتونسي» ناطقة بلسانهم وحاملة لمطالب إصلاحية تذهب إلى حدّ المطالبة ببرلمان تونسي.

كان الطفل الحبيب قد اندمج في الصادقية دون أن ينسى أبداً أنه قادم من الضواحي. ولذلك فقد تعلم الحذر مبكراً إلى جانب التحدي. ظل يلبس الجبة والشاشية الحمراء إلى صف الشهادة الابتدائية، ولطالما أعجب بالسراويل الإفرنجية والأحذية اللماعة التي كان يرتديها بعض أقرانه من أبناء الموسرين، لكنه لم يجد لا الشجاعة ولا الحماسة لكي يطلب من أخيه محمد شراء بعض الملابس الجديدة. كانت المرأة التي تعمل ببيت أخيه الكائن بتربة الباي - قرب مقبرة البايات - تدعى «ضاوية». لم تكن «بَلْدية» أي من أصيلي تونس المدينة، ولكنها تعلمت كل شيء لكي تخفي أصولها الريفية جيداً. هذه المرأة ستغرق الطفل الحبيب في الشعور بالعار وحتى باليتم. ولأنه لا يجد مَن يشكو إليه غطرسة تلك المرأة التي جعلت منه خادماً صغيراً، وقد ترك أمه ووالده في المنستير، فقد دفن رأسه في الكتب وراح يهيئ نفسه للنجاح. لم يكن ذكياً جداً، ولكن كان مجتهداً. كذلك لم يكن كسولاً في دروسه ولكنه كان مشاغباً. ففي إحدى زيارات والده «الشيخ علي» للمدرسة، انتحى به المقيم العام للمدرسة ليقول له: «إن الحبيب مهتم بدروسه جيداً، لكنه من النوع المشاغب رغم ما يبدو عليه من انطوائية»[12]. لم يعلق الأب علي آنذاك على كلام ناظر المدرسة، ولكن الابن الذي أصبح فيما بعد رئيساً قال وهو يروي عذاباته: «لقد فهمت منذ تلك اللحظة أن كلّ شيء قد يكون مسموحاً إذا كنا ناجحين»[13].

في الصيف، كان الحبيب يترك بيت أخيه محمد المترجم ليذهب إلى المنستير. وهناك ينغمس في محيط مليء بالنساء. وبين أمّه «فطومة» وجدته «خدوج» وأختيه عيشوشة ونجية سيتعلم الحبيب الطبخ الذي سيتقنه حين يصبح طالباً في باريس أو منفياً في بورج البوف أو

حتى رئيساً في قصر قرطاج. كان صبياً شرهاً رغم نحافته، ولطالما تلقى عدة توبيخات حين كان يقبض عليه وهو يمد يده في الخفاء لصحن البقلاوة أو وهو يختلي بقصعة الكسكسي المعدة للضيوف كأي قطّ جائع. ولكن أيام العطلة الصيفية سرعان ما تنتهي حين يرغمه أخوه محمد على مصاحبته والعودة به إلى تونس لحفظ القرآن في الكتاتيب.

كان الحبيب لم يبلغ بعد العاشرة حين أصبح بالقسم الرابع ابتدائي. في تلك السنة سيمرّ الحبيب بالصدفة أو بالعادة من طريق «باب منارة» ليشاهد الحادث الذي سيؤرخ لمقاومة الاستعمار الفرنسي. كانت أحياء القصبة تعج بالجنود الذين يضعون على رؤوسهم ما يشبه الشاشية التي يخرج من وسطها خيط طويل فينتهي بخيوط قصيرة متشابكة ذات شكل كروي تنزل إلى أسفل العنق. وسأل الصبي الحبيب عن تلك الحشود، فقيل له: «إن حادثة مؤلمة وقعت في مقبرة الزلاج».

لقد كانت هذه المقبرة من أحباس العائلات التونسية المسلمة، ولكن السلطات الفرنسية أرادت أن تضمها إلى البلدية وتنهي أمر الوقف الذي يقال إنه كان لأحد أعيان القيروان. ولأن التونسيين المسلمين قد رأوا في ذلك تدنيساً لمقدساتهم رافضين أن يدفن أموات المسيحيين إلى جانب الأموات الإسلاميين، فقد عرضت المسألة للتحكيم. ولكن أثناء ذلك وقع الصدام بين بعض الأهالي وبعض الأجانب الأمر الذي أدى إلى قتل بعض الإيطاليين، وهو ما سوف يتطور إلى صدام مسلح مع الجنود الحارسين للمقبرة أدى إلى مقتل بعض التونسيين.

سال الدم على نحو أفزع الجميع. وإذ استمرت تفاعلات ذلك الصدام نحو سنة، فقد لحق بها حادث آخر شارك في تشكيل ما يمكن أن يسمى بجنين الوعي المقاوم. ففي اللحظة التي ضغطت فيها المقصلة على أعناق المحكوم عليهم بالإعدام لمشاركتهم في انتفاضة الزلاج وفصلت رؤوسهم عن أجسادهم، جاء قرار المقيم العام الفرنسي «لابتيت» بإبعاد قيادات «الشباب التونسي» إلى المنفى: علي باش حانبة وعبد العزيز الثعالبي ومحمد نعمان تمّ نفيهم إلى مرسيليا. حسن القلاتي نُفي إلى الجزائر. أما الصادق الزمرلي والشاذلي درغوث فقد أبعدا إلى تطاوين بالجنوب التونسي، حيث تعتبر المنطقة من مشمولات الحاكم العسكري الفرنسي.

سوف لن يهتم كثيراً التلميذ الحبيب بورقيبة إن توقف «الترامواي» عن السير، لأنه قد تعود السير على قدميه الغارقتين في حذاء واسع ومثقوب. ولكن حادثة دوس طفل تونسي تحت عربات «ترامواي» يسوقه أحد الإيطاليين، سيثير فتنة التساؤلات في رأسه. وقد أجابه أخوه

محمد عن ذلك «بأن التونسيين يمتنعون عن ركوب الترامواي لأنهم يريدون معاقبة الإدارة الفرنسية، وأن ذلك هو ما يسمى بالعصيان المدني». لقد كان أغلب سائقي هذه العربات من الإيطاليين أو التونسيين المتجنسين. فالجالية الإيطالية التي كانت تسكن تونس كانت أكثر عدداً من الجالية الفرنسية. ومنذ ذلك الحادث، أجمع سكان تونس الأهليون على مقاطعة عربات التراموي إذ قالوا جميعاً: «نمشي على أقدامنا أو نركب العربات التي تجرها الخيول ولا نمتطي هذه الآلة القاتلة»(١٤). وفيما ظلت عربات الترامواي تسير فارغة بين القصبة وباب منارة وانتهاء بباب سويقة عبر باب الجديد، امتلأت صدور السلطات الفرنسية بالغضب الذي انفجر عندما تمّ ترحيل قادة «الشباب التونسي» إلى المنفى.

تحسس الحبيب وهو مراهق صغير اتجاهه نحو المدرسة مرة أخرى وهو يشعر بفقدانه لدفء والدته. وإذ عرف أن المدينة التي يشقها صباحاً ومساءً قد أصبحت ساحة لاحتكاك الغرائز، فقد تساءل طويلاً عما يمكن أن يعيد تلك الغرائز إلى سكينتها؟ لقد حلت الكراهية محلّ التسامح وغطت البشاعة ممارسات السلطات الفرنسية، حين اتجهت إلى إطلاق النار على الأهالي في المقابر.

انتهى المقام بـ«علي باش حانبة» إلى إسطمبول ليموت هناك. أما البشير صفر فسوف يتوفى بين أهله. فهذا الوطني الكبير الذي اشتغل بالتدريس في الخلدونية، وعمل ـ كقائد ـ على مدينة سوسة، فسوف يودع إلى مثواه الأخير بجنازة طويلة جداً أثارت أكثر الأحاسيس اضطراماً في نفوس الأهالي، وكادت أن تتحول إلى مذبحة بسبب تدخلات السلطات الفرنسية لتنظيمها. وإذ عارض الأهالي ذلك التدخل البشع، رأى المراهق الحبيب بورقيبة والده يذرف الدمع على روح الفقيد «صفر» إلى حدّ ظن فيه بعض الناس أنه من أقارب الميت. تلك الجنازة ومعها حادثة مقبرة الزلاج، وحوادث مقاطعة الترامواي إلى جانب احتجاج الأهالي على اجتياح الطليان لطرابلس عام ١٩١١، سوف تحفر علاماتها في لحم المراهق الحبيب بورقيبة. أما أسماء البشير صفر وباش حانبة والثعالبي، فسوف تكون علامات مضيئة على طريقه الطويل والشاق.

ولم تنته جنازة الأستاذ بشير صفر، حتى قامت جنازة الأم «فطومة». ورغم أن المسافة بين تونس العاصمة والمنستير طويلة، سيتمكن الحبيب من حضور مراسم الدفن وهو يبكي كما لم يبكِ أبداً. وحينما يدخل على جثمانها وهي مسجاة في إحدى الغرف ويقترب منها ليقبلها القبلة الأخيرة سيحسّ، لأول مرة أن أجساد الميتين باردة، الأمر الذي زعزع كيانه

فيما بعد وجعله رغم تجاوزه الثمانين يبكي كالطفل ويرتجف كلما تذكر أمه أو وقف أمام قبرها إلى حدّ يشعر فيه المرء بالتلاشي.

لقد قاست الأم فطومة الكثير كبنات جيلها. كانت رضيعة عندما طلّق والدها أحمد خفشة أمها خدوج مزالي لأسباب تافهة، وهي أنها تكثر من الشخير حين تنام وأحياناً تقدم له الأكل بارداً. وسوف تبقى الابنة فطومة بلا زواج إلى حين بلغت الـ١٨، وهي سن متقدمة حسب عادات ذلك الزمن. وحين تقدم إليها الرقيب علي بن الحاج محمد بورقيبة العائد من الجندية بقليل من الأنفة وبسيف ومرتب تقاعدي، قبلت به في الحين. ولم تكد هذه الأم أن تفرغ من الولادة وهي تشارف الخمسين حتى توفيت فتركت سبعة أبناء أصغرهم الحبيب البالغ من العمر نحو ١٢ سنة وزوجاً شيخاً قد أصبح مدمناً لعب الورق وحكايات عنترة بن شداد. فحين تصل القصة إلى وقوع عنترة في الأسر، يدهم الشيخ علي نعاس ثقيل فيحمل أشلاءه ويعود إلى داره متوجعاً على شبابه وأبنائه البعيدين وخصوصاً ابنه الحبيب الذي كان لا يزال مراهقاً طرياً.

عاد ذلك المراهق إلى تونس وقد زرعت الفاجعة بداخله بذرة النضج. ولم تمض سنة حتى حصل على الشهادة الابتدائية. ولكن ماذا سيفعل به الأخوة بعد أن توفيت الأم وأشرف الأب على الشيخوخة الرذيلة؟ أحدهم وهو محمد كان فظاً معه وأحياناً كان يجنح إلى ضربه ضرباً مبرحاً، قال: «ليذهب يتعلم صنعة يعيش منها ذات يوم». الأخ الثاني وهو أحمد فكر في إرساله إلى المنستير ليبحث عن عمل ويساعد الوالد الشيخ. أما أخوه محمد فقد وقف إلى جانبه فاستدعاه إلى قرية «تالة» في وسط البلاد ليقضي معه وقتاً ريثما تتدبر الأمور وينتعش جسمه الذي راح السلّ ينهشه.

وفي الحقيقة لا أحد من أخوته كان يريد للحبيب أن يواصل تعليمه، باستثناء أخيه محمود الذي يعمل هو الآخر كمترجم بوزارة العدل. إن محمود الذي يكبره بنحو ١٥ سنة هو الذي سينتشل أخاه الحبيب من الضياع ويدفع به إلى التسجيل في معهد كارنو، حيث سيدرس اللغة الفرنسية على يدي أساتذة مهرة وكذلك الرياضيات والتاريخ وبعض الخطوط العريضة للفلسفة الوضعية. ومن ثمة سينغمس الحبيب في قراءات لهيغو وجان جاك روسو وبرغسون. وبعد أن امتلأ رأسه بعدة أفكار وعدة أسماء ورموز، سيبدأ المراهق الحبيب في الكشف شيئاً فشيئاً عن نضج بالغ الحساسية.

الهوامش:

(١) يذكر كتاب صوفي بسيس/سهير بلحسن/ في جزئه الأول عن بورقيبة منشورات «جون أفريك» عام ١٩٨٨ أن بورقيبة تعني ـ السجين ـ باللغة الألبانية. لكنها لا تذكر أكثر من ذلك.

(٢) يعتقد أحد المثقفين الليبيين أن عائلة بورقيبة أصلها من سالونيك وهو ينقل ذلك عن حكايات تورائتها عائلات مصراتة. وقد تحدث (المؤلف) في ذلك مع الدكتور علي فهمي خشيم الذي هو على دراية واسعة بالألقاب والأسماء. وقد أكد أن عائلة بورقيبة هي عائلة مصراتية، لكنه لا يستطيع أن يؤكد ما إذا كانت أصيلة ليبيا أو وافدة من فضاء الدولة العثمانية، خصوصاً أن مصراتة مرفأ تجاري ونقطة عبور إلى الساحل التونسي.

أما ما يؤكده الأستاذ إبراهيم أحمد أبو القاسم في أطروحته التي نال بها درجة الدكتوراه من الجامعة التونسية والتي نشرت في كتاب **«المهاجرون الليبيون بالبلاد التونسية»** ـ منشورات عبد الكريم بن عبد الله ـ عام ١٩٩٢، فإن عائلة بورقيبة من العائلات المعروفة حتى الآن في مدينة «مصراتة» وهي تنتمي إلى قبيلة (الدرادفة) التي بلغ مجموع أفرادها سنة ١٩١٧ حوالى (١٣٠٠ نسمة). وتتكون هذه القبيلة من اللحمات الآتية: النواصف ـ الرضاونة ـ المعاتقة، أولاد رجب ـ السقائف.

(٣) قال ذلك بورقيبة للسيدة التي أصبحت زوجته الأولى فيما بعد: «ماتيلد»، والتي أصبحت تعرف فيما بعد بمفيدة بورقيبة. كما أن كثيراً من زملاء بورقيبة ووزرائه يؤكدون تكراره لذلك القول.

(٤) كتاب صوفي بسيس/سهير بلحسن/ منشورات جون أفريك ـ عام ١٩٨٨.

(٥) إن لقب «الأشقر» هو صفة أو كنية أطلقت على الجدّ بورقيبة وهذا ما يؤكد انتماءه إلى «الحالية الشقراء» أي القادمين من فضاءات البلقان في الدولة العثمانية.

(٦) ثورة علي بن غذاهم، كانت انتفاضة لمزارعي الوسط الشرقي (تونس) الذين تم تفقيرهم بزيادة الضرائب وتصاعد الجباية. وقد انتهت إلى مساومة بين زعمائها، (وهم مجموعة من رؤساء القبائل) وبين البايات، وذلك بعد حملة قمع رهيبة استعمل فيها الجنرال زروق أبناء الساحل ضدّ أبناء الوسط.

(٧) ذكر ذلك بورقيبة أثناء محاضراته التي ألقاها على طلبة معهد الصحافة في كلية الآداب بتونس عام ١٩٧٣.

(٨) المصدر نفسه، وهي محاضرات طبعت في كتاب عام ١٩٧٤ حمل عنوان. **محاضرات في تاريخ الحركة الوطنية (حياتي ـ آرائي ـ جهادي).**

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) دخول الحبيب إلى المدرسة الصادقية عام ١٩٠٧ كما هو موثق، يفيد مرة أخرى أنه مولود عام ١٩٠١ أو ١٩٠٠ وليس عام ١٩٠٣، إذ ليس من المعقول أن يصبح تلميذاً وهو لم يبلغ الرابعة.

(١١) زار الشيخ محمد عبده تونس مرتين. الأولى في آخر القرن الماضي. والثانية في بداية القرن الحالي. وقد التقى بالعديد من وجوه النخبة التونسية في ذلك الوقت. فكان محرضاً كبيراً على النضال والوطنية للشباب التونسي.

(١٢) كتاب **(حياتي ـ آرائي ـ جهادي)** مجموعة محاضرات من إصدارات الحزب الحاكم عام ١٩٧٤.

(١٣) من محاضرة لبورقيبة في العام ١٩٧٣ أمام معهد الصحافة وعلوم الأخبار ـ نشرت في كتاب تحت عنوان **حياتي، آرائي، جهادي.**

(١٤) المصدر نفسه.

سنوات الغليان:

الخطوات الصغيرة نحو قدر كبير

«الاستقلال من شأن قلّة قليلة: ـ إنه امتياز الأقوياء. ومَن يقم بالمحاولة، حتى لو لم يكن على حقّ، إنما من دون أن يكون مكرهاً على ذلك، يبرهن على أنه ليس قوياً وحسب، بل على الأرجح، مقدام إلى حدّ التهوّر».

«فريديريك نيتشه»

ما وراء الخير والشرّ

انتهى الجدال داخل العائلة، بأن يتقدم المراهق الحبيب إلى اختبار (المناظرة) للدخول إلى مدرسة الصادقية ـ المرحلة الثانية كتلميذ مقيم.
لم يكن الحبيب متأكداً من نجاحه لأنه كان يعاني ضعفاً في مواد كثيرة. وحين اجتاز المناظرة بنجاح وأصبح تلميذاً مقيماً، تنفس الجميع الصعداء. أصبحت المدرسة الصادقية هي أمّ الحبيب بعد أن توفيت أمّه فطوْمة. ففيها تلقى التعليم والشراب والمأكل والملبس لمدة ستة أعوام. كان واضحاً أن الحبيب الأخ الأصغر يتبع خطوات بعض إخوته. فهو لو واصل تعليمه إلى السنة الأخيرة، فإنه سيصبح مترجماً ويدمج في العمل داخل الإدارة الفرنسية التي كانت في حاجة كبيرة إلى مثل أولئك الشبان الذين يتقنون اللغتين (العربية والفرنسية).

لم يعد طفلاً ضائعاً أو متخلفاً ذهنياً كما قال عنه أخوه محمد الذي أراد أن يرسله كأجير في محل تجاري. فقد أصبح الآن حريصاً على أن يكون في مستوى ظن أخيه محمود الذي دفع به إلى مواصلة الدراسة رغم قساوته معه. كان طلبة «الليسيه كارنو» منقسمين إلى صنفين. أول وثان. دخل الحبيب إلى قسم الصنف الأول بمساعدة السيد الطاهر زويتن، وهو رجل ينتمي إلى عائلة زوج عمّته، ليكون في الصف نفسه الذي يوجد به الطاهر صفر الذي تأثر به الحبيب أيما تأثير خلال حياته، ولكن بعد أسبوعين، قبل الحبيب على مضض أن يعود إلى القسم الثاني لأنه غير قادر على متابعة دروس القسم الأول.

استساغ بورقيبة الدراسة في «ليسيه كارنو»، فأقبل عليها بنهم. ولكنه كان دائماً يفضل الرياضيات ويحضر دروس التاريخ والجغرافيا ويعمد إلى التغيّب عن دروس الفرنسية. لم يكن بورقيبة يكره هذه اللغة، ولكنه كان يعتقد أنه يتقنها كما لا يتقنها غيره من الزملاء. بالإضافة إلى ذلك فإن شغفه المبكر بالمسرح وعالم التمثيل، سوف يجعله متغيباً باستمرار خصوصاً عن مادة الفرنسية.

حين أحرز الحبيب الجزء الأول من البكالوريا، كان ذلك بفضل تفوقه في مادة الحساب. وقد اعتقد زملاؤه أنه سيختار شعبه الرياضيات للتقدم إلى الجزء الثاني من البكالوريا، لكنه سيختار شعبة الفلسفة، ثم ما لبث أن أصبح يتطلع إلى دراسة القانون ليصبح ذات يوم أحد رجاله العارفين بأسراره وخطورته كسلاح ضد التهميش.

في امتحان البكالوريا، اختار الطالب الحبيب موضوعاً يتعلق بالأخلاق. وأثناء ذلك تردد إلى حين بعد أن خطر له أن الأستاذ الذي سيشرف على تصحيح موضوعه قد لا تعجبه أفكاره في الأخلاق. ومع ذلك مضى إلى تحرير موضوع دسم حول الأخلاق حيث نال عليه علامة متفوقة جعلته ينال الجزء الثاني من البكالوريا بسهولة. في ذلك اليوم كان ينتظر النتائج بصحبة أخيه محمود. وحين علم بنجاحه انسحب مسرعاً دون أن ينتظر نتائج زملائه. وفي الطريق إلى البيت تحدث إلى أخيه محمود بلغة الواثق من نفسه، وقد رأى قامته قد أصبحت تقارب قامة أخيه من فرط الاعتزاز والنشوة، عن رغبته في السفر إلى باريس لمواصلة تعليمه العالي. وإذ صمت الأخ، راح الحبيب يفكر كيف يمكنه أن يعتمد على نفسه منذ هذه اللحظة.

أمضى الحبيب ١٢ سنة في تعليم المرحلة الثانية. وهذا يعني أنه أمضى ضعف السنوات التي يمضيها كل طالب للوصول إلى البكالوريا. وإذ لا يوجد أي تفسير لتلك الثغرة، حتى أن بورقيبة نفسه كان حريصاً على تجاهلها، فالأرجح أن الطالب بورقيبة قد أعاد معظم الأقسام، خصوصاً أنه مرّ بفترة مرض حين أصيب بالسل، فكان عليه أن يتوجه إلى الكاف (الشمال الغربي) لقضاء فترة نقاهة عند أخيه محمد استمرت نحو ٢١ شهراً. إن تأخر بورقيبة في اجتياز المرحلة الثانية، كاد أن يضعه على حافة الرصيف، ولكن دعم أخيه محمود وولعه بالمواد الأدبية والفلسفية وتفوقه في مادة الحساب، بالإضافة إلى مساعدة بعض أقارب عائلته العاملين بمعهد الصادقية، كل ذلك زائد شهادة مرضه بالسلّ، قد أعفاه من الطرد ومنحه فرصاً لاجتياز البكالوريا لم تمنح إلاّ للذين حالفهم حظ كبير.

إذا كان الطالب الحبيب متثاقلاً في الدراسة، فإن قدرته على إثارة الإعجاب من حوله قد

جعلته محبوباً رغم نرجسيته الواضحة. ففي معهد «كارنو» سيشكل مع كل من «بحري قيقة» و«الطاهر صفر» ما أصبح يُعرف «بالثلاثي الساحلي». ورغم أن بحري قيقة يتحدر من تستور، فإن معاشرته لأهل الساحل ستجعله ساحلياً في طباعه وسلوكه أكثر من الساحليين أنفسهم. أما الطاهر صفر الذي يتحدر من المهدية فلطالما أشبعه بشغف المعرفة والحياة. لقد برز الطاهر صفر بسرعة كخطيب مولع بالسياسة والفن والتاريخ. وإذ كان يتمتع بذكاء حاد، فإنه كان على حساسية مفرطة سرعان ما أفقدته الحماس لمواصلة السير في حقول مليئة بالأعشاب الطفيلية. تعلم بورقيبة من صفر الخطابة والقدرة على تناول المواضيع قولًا وتحريراً. أما من «بحري قيقة» فقد تعلم الحبيب شغف الحياة وألاعيبها. فالثلاثي الساحلي سيواصل السير معاً إلى سنوات باريس، ومن هناك سيبدأ كل واحد منهم السير لوحده إلى قدره.

كان بورقيبة قد أصبح يتطلع إلى مستقبل يراه في مفترق الطريق. فهو من جهة يريد السفر إلى باريس لمواصلة التعليم. ومن جهة أخرى يريد أن يصبح مترجماً مثل أخيه في الإدارة الفرنسية. وفي الوقت نفسه يريد أن يتزوج من ابنة عمته عيشوشة.

كان الحاج علي قد طلب من أخته عيشوشة أن تزوج ابنتها شاذلية من الحبيب قبل أن يتوفّاه الأجل. وقد وافقت على ذلك لكن زوجها الحاج يوسف زويتن الذي ينتمي إلى أعيان المنستير والذي أصبح يعيش بتونس العاصمة حياة أهل المدن في شقة بشارع باب بنات، والذي له ابن يدرس الطب في باريس، قد فضل أن ينتظر ما سوف يكون عليه الشاب الحبيب قبل أن يلفظ بوعده.

كان الحبيب لا يزال يلبس الجبة وتبدو عليه قساوة أهل الساحل وفقدانهم للطراوة، ولكنه حين يحل بشقة عمته الفاخرة، كان يكثر من المديح والكلمات اللينة بعد أن يكون قد أكثر من الأكل اللذيذ. ولاحظ عليه الحاج زويتن نهمه للأكل والحديث في مواضيع سياسية كثيرة. وإذ أعجبه أسلوبه وثراء معلوماته، فإن قامته القصيرة وكذلك ملبسه وعدم تركيزه، أمور كثيراً ما أثارت بداخله الغضب. ولأن «شاذلية»، كانت الطفلة الرابعة بعد ثلاثة صبيان، فقد كانت تحظى بمكانة عاطفية خاصة لدى أبيها الأمر الذي جعله يقول لزوجته عيشوشة «إن ابن أخيك الحبيب قد يكون شعلة ذكاء كما تعتقدين، ولكن العنف وكذلك الخبث الذي يلمع من عينيه يجعلاني غير مرتاح لزواج ابنتي من هذا الشاب»[1].

إذا كان الحاج زويتن لم يكن متحمساً لزواج ابنته من الحبيب، فالحبيب نفسه لم يكن يشغله موضوع الزواج في ذلك الوقت. وحتى زياراته المتكررة إلى عمته عيشوشة كانت

بسبب الصحون اللذيذة ولم تكن سبب اللقاء بشاذلية. وحين كان لا بد أن يوضع حدّ لتلك الزيارات، اتجه الحبيب إلى الإكثار من زيارة أخته نجيبة في المهدية. كان بيت نجيبة التي تزوجت من الحاج علي بوزغرو، أحد أعيان المنستير الذي أصبح خبيراً زراعياً في المهدية وينام على ثروة هائلة يقع بالقرب من البحر. وفي الصيف كان الحبيب يمضي عدة أسابيع هناك حيث يلتقي بشباب مولع بالحديث عن السياسة والشعر والأدب.

كان إعجاب بورقيبة الشاب واضحاً باتجاهات الحزب الحر الدستوري الذي أسسه كل من الشيخ العلامة الثعالبي والمحامي أحمد الصافي، والذي سيشهد أول انشقاق داخلي في العام ١٩٢١. فبعد أن أصبح بعض المنتمين لهذا الحزب يأخذون عليه استغراقه في الشعارات الكبيرة، وقد رأوا أن كلمة «دستور» لا تناسب وضع الأهالي في هذه المرحلة، لأنهم ما زالوا يحتاجون إلى عناية ورعاية، خرج ما أصبح يعرف بـ«الحزب الإصلاحي»، الذي بدا معتدلاً وأكثر تفهماً للمرحلة وتواضعاً في مطالبه السياسية. كان برنامج هذا الحزب الإصلاحي يرمي إلى تشكيل برلمان مختلط. ولأنهم قد ساعدوا السلطات الفرنسية على إضعاف حزب الدستور وشق صفوفه، فقد مكّنهم المقيم العام الفرنسي «ليسيان سانت»[٢] من بعض مطالبهم حين أصدروا قراراً في الأول من حزيران ١٩٢٢ بتأسيس برلمان كبير يحتوي على غرفتين منفصلتين. الأولى وتعد ٤٤ نائباً فرنسياً لتمثيل ١٥٦ ألف أوروبي يعيشون بتونس، والثانية تحتوي على ١٨ نائباً تونسياً لتمثيل أكثر من مليوني تونسي.

كان ذلك المجلس مثار سخط، وإذ لم يقبل عليه الكثير من التونسيين، فقد حاربه الدستوريون القدماء والجدد مع الشيوعيين طوال ثلاثين سنة. كان بورقيبة لا يزال هاويا للسياسة، وفي الوقت نفسه كان حذراً من التورط في أي اتجاه قبل أن يواصل تعليمه، لكنه لم يكن قادراً على إخفاء إعجابه بقادة حزب الدستور مثل صالح فرحات وأحمد الصافي وعبد العزيز الثعالبي. حتى إنه حين قرر الدخول إلى الميدان السياسي، وجد نفسه يعيد تاريخ الشيخ الثعالبي، ولكن على منوال أبناء جيله إذ كان يفصل بين الرجلين نحو ٢٨ سنة.

* * *

ومثلما نجح المقيم العام «ليسيان سانت» في شق صفوف الحزب الحرّ الدستوري، نجح كذلك في زرع الشقاق بين هذا الحزب والباي محمد الناصر. كانت المناورة بارعة جداً. وقد كشفتها جريدة «الصواب»[٣] التي كانت قريبة من حزب الدستور. ففي حوار مع

الباي كان موجهاً إلى للجمهور الفرنسي، جاء ما يفيد «أن الباي لا يوافق على مطالب حزب الدستور»، وأكد أن الوقت لم يحن بعد لتكوين برلمان تونسي أو بعث دستور، كما ندد ببعث حزب شيوعي في البلاد؟ وحين أصبحت تصريحات الباي منشورة، احتج حزب الدستور عليها ووصف الباي بأنه «ألعوبة في يد الفرنسيين وهو يمارس لعبة مزدوجة»، غير أن الباي سارع إلى تكذيب تلك التصريحات مؤكداً أنها مناورة قام بها المقيم العام. وما إن أقدم الباي على تكذيب ما جاء على لسانه، حتى أصبح قصر المرسى محاصراً بالجنود الفرنسيين الذين أرادوا إرغامه على التنحي عن العرش. اجتاح التونسيون غضب لا مثيل له وهم يرون «بايهم» يتعرض للإهانة، فنزلوا بالآلاف إلى الشوارع. تراجع الباي تحت الخوف والضغط مس بعض الأمراء عن التكذيب، ثم تراجع المقيم العام عن محاولة إرغامه على التنحي. وإذ عوقبت جريدة «الصواب» بعدم الصدور لفترة، فقد أصبح زعماء الحزب الدستوري مطاردين في كل مكان وخصوصاً الشيخ الثعالبي(٤).

ينتمي هذا الشيخ الذي عرف الغرب والشرق وكتب في الفلسفة والدين والقانون، إلى بيت العلامة مفسر القرآن «عبد الرحمن الثعالبي» المدفون بالجزائر العاصمة. وبعد نحو عشر سنين من احتلال الجزائر، اختار والد عبد العزيز أن ينتقل إلى تونس. وفي العام ١٨٧٤، ولد الابن عبد العزيز بتونس العاصمة. ولم يكد يبلغ العشرين مس عمره، حتى اندفع هذا الشاب الذي انتقل من الزيتونة إلى الخلدونية نحو العمل السياسي. كان محباً للعلوم ومولعاً بالصحافة وشغوفاً بالسياسة، وإذ راح مبكراً يذرع البلاد بحثاً عن رفاق يشاطرونه الرأي، فقد تعرف إلى الشاب أحمد الصافي، أصيل تونس العاصمة، الذي سرعان ما جلب معه شاباً آخر من الساحل يدعى صالح فرحات.

في العام ١٨٩٥، استطاع الثعالبي، ابن الواحدة والعشرين فقط، أن يصدر جريدة عرفت تحت اسم «سبيل الرشاد». ولكنه بعد سنتين سيضطر إلى إغلاقها بعد أن فرضت عليه السلطات الفرنسية دفع مبلغ من المال كضمان صدور لم يكن متوافراً لديه. بعد ذلك سيفكر الثعالبي بالسفر فيأخذ طريق طرابلس الغرب حيث لا تزال تحت سلطة الباب العالي. وإذ نجح والد زميله في الدراسة «الجيلاني الدغاري» في تهريبه انطلاقاً من جزيرة جربة إلى طرابلس الغرب، فإن الشاب الثعالبي سينجح في الوصول إلى قصر نامق باشا والي طرابلس آنذاك. أثناء إقامته بطرابلس حضر استعراضاً عسكرياً للقوات المسلحة التركية فكتب مقالاً نشر بجريدة «طرابلس الإسلامية» ذكر فيه «أن هذا الجيش ليس للآستانة فقط، بل هو جيش الشعوب الإسلامية»، وهو ما أثار احتجاج القنصل الفرنسي

لدى الباب العالي. غادر الشاب عبد العزيز ولاية طرابلس بعد أن أشعرته السلطات بأنه شخص غير مرغوب. وحين وصل إلى بنغازي، انتهز فرصة الاحتفال بعيد جلوس السلطان عبد الحميد على عرش الخلافة، لكي يخطب في الحضور وسط الشارع طالباً من الجيش العثماني أن يحرر بلاد العرب والإسلام من الاحتلال الفرنسي. قوبل ذلك الخطاب بالاحتجاج الفرنسي، فاضطر الثعالبي إلى مغادرة بنغازي إلى اليونان عن طريق البحر، ومنها إلى اسطمبول حيث سيجلس لأول مرة في حضرة السلطان عبد الحميد وهو لم يبلغ من العمر غير ٢٦ عاماً.

بعد جولة في الشرق، عاد الشاب الثعالبي في العام ١٩٠٣ إلى تونس وقد امتلأ حكمة وتجربة ومعرفة بعد أن اطلع على أفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وحسن حسني الطوراني. أثار خلال نقاشاته ومداخلاته الكثير من اللغو لدى رموز الثقافة المحنطة. وإذ كشف عن موهبة في التحليل والخطابة، فقد كان عليه أن يحارب طويلاً أولئك الذين اتهموه مرة بالكفر وأخرى بالتطاول على الأولياء وأصحاب الكرامات.

عاد مرة أخرى إلى تجواله، فقصد بلاد المغرب وإسبانيا. وهناك عرف أن إسبانيا أصبحت على قاب قوسين أو أدنى للقفز إلى المغرب الأقصى في سباق مع فرنسا التي احتلت الجزائر وتونس. وحين عاد إلى تونس انكب على تحرير كتاب «روح التحرر في القرآن» بالاشتراك مع زميله ورفيقه «الهادي السبعي» وهو الكتاب الذي سيحدث ضجة كبرى في الأوساط الثقافية في تونس ومصر تنتهي بإدخال الثعالبي إلى السجن لمدة قصيرة. ولكن الثعالبي الذي أصبح يعرف أن ثمن الحرية باهظ والذي يملك شبكة من العلاقات في الداخل والخارج، سيجمع شجاعته ويصدر صحيفة باللغة الفرنسية «كورية دي تونيس» (بريد تونس). بعد فترة ستغلق هذه الجريدة لتصدر مكانها جريدة أخرى عرفت بـ«التونسي» وذلك بالاشتراك مع المناضل «علي باش حانبه».

وإذ راحت فكرة إصدر الجرائد والصحف تنتشر وسط الشباب الأهلي، فإن السلطات الفرنسية قد وجدت نفسها مضطرة في كل مرة إلى منع بعضها والسماح بإصدار بعضها الآخر. وحين توقفت «التونسي» عن الصدور، شرع الثعالبي مباشرة في إصدار جريدة «الاتحاد الإسلامي» التي هاجمت الصليبيين الذين يغيرون على ديار الإسلام، وقد اشتهرت تلك الصحيفة بدفاعها عن حرب المسلمين في المغرب وطرابلس ضد الغزاة المسيحيين.

حين وقع حادث الترامواي، واختار التونسيون الاعتصام، كان الثعالبي هو الذي ألهب حماسة الأهلين بخطاباته النارية. فهو الذي وصفه شاعر العراق الكبير معروف الرصافي

«بأنه أعظم خطيب عربي عرفه القرن». في هذه المرة سيرغم على ترك تونس بعد أن صدر قرار بنفيه في العام ١٩١٢. ومن فرنسا سيغادر الثعالبي إلى اسطمبول وشبه الجزيرة العربية والهند وماليزيا والهند الصينية ليتعرف إلى الفلسفات الدينية والسياسية. وفي نهاية الحرب العالمية الأولى، استطاع الثعالبي أن يعود إلى تونس لينتقل إلى مرحلة أخرى من العمل السياسي أكثر نضجاً وتنظيماً. وإذ أصبح كتابه «تونس الشهيدة» تحت إبط كل تونسي وطني، فقد استطاع من خلاله أن يجمع حوله شباباً كثيرين تدفعهم الحماسة وتحركهم كتاباته ومبادئ الرئيس ويلسون التي تتحدث عن تحرير الشعوب. وفي آذار/مارس من العام ١٩٢٠، سيعلن الثعالبي عن تكوين الحزب الحر الدستوري، وهو الحزب الذي سيستمر في الحياة إلى هذه اللحظة عبر تنويعاته المتعددة.

يندر في ذلك الوقت أن يوجد في تونس رجل يضاهي الثعالبي في معرفته وحكمته وعلاقاته. فقد حاز مكانة عالية جداً أهلته لأن يكون أحد رجال النهضة والإصلاح في العالم العربي والإسلامي. فالثعالبي الذي ظهر حينما كانت السلطة العثمانية تسير نحو الحتف، قد أدرك مبكراً أن الإسلام والعروبة قد دخلا في صراع مقيت سيستفيد منه الغرب ما لم يعد التوأم إلى مداره الموحد. ولكن إذا كانت السلطة العثمانية لم تعد قادرة على الدفاع عن الإسلام فإن الغرب وهو يجتاح بلاد المسلمين سيقف مذهولاً أمام هول المذابح التي اقترفها في حق الإنسان خلال الحرب العالمية الأولى.

* * *

بعد أكثر من ٨٥ سنة على انتهاء تلك الحرب، سيظل من العسير أن نعرف ماذا أعطت تلك المذابح كلها من جدوى. فنتائج المذابح مهما كانت عظيمة تبقى سخيفة جداً. وحين تكون النتائج هزيلة أصلاً يكون كل من شارك في تلك الحرب مجرماً لا أقل ولا أكثر. إن الأسر الحاكمة في الأمبراطوريات الأربع التي آلت إلى السقوط (العثمانية، القيصرية الروسية، النمسوية ـ الهنغارية والألمانية) كانت ستقبل بالانسحاب من المسرح بأقل من ذلك بكثير. أما الدولتان اللتان انتصرتا في نهاية تلك الحرب، فقد دفعتا ثمناً باهظاً جداً لا يعادل أبداً عناءها. إن فرنسا التي استرجعت الإلزاس واللورين ووسعت سيادتها إلى مناطق أخرى ما وراء البحار، وكذلك بريطانيا التي جعلت من أراضيها أوسع وأفضل، ستكتشفان بعد ٣٢ سنة فقط كم كانتا مغرورتين ومتهورتين.

وربما بفضل نتائج تلك الحرب، تمكنت كل من فرنسا وبريطانيا من تشريح الجثة العثمانية والعبث بأعضائها. فالأمبراطورية التي حكمت طويلاً بالسيف التركي والقرآن العربي قد

اندثرت إلى الأبد، وقامت على قبرها جمهورية اصطفت في آخر طابور الغرب. تزامن ذلك كله مع صعود الأقليات المتذمرة والدسائس الخبيثة في الباب العالي وظهور الجماعات اللائكية وتآكل الأطراف، والإغراءات الأجنبية مع قوة دفع للانتشار العربي لم يشهد التاريخ مثله حتى ذلك الوقت.

سقطت نبوءة ذلك الكاتب التركي الغاضب (ضياء جوكالب) الذي رأى «أن البلاد العثمانية ستصبح أميركا الشرق الحرة التقدمية»[٥]. وإذ نال كل واحد متهور أو متسرع قسطه من غضب القدر والتهاون مع العدو، فإن الورطة التي وقع فيها الجميع قد أنتجت حركات لم تكن قادرة على الحفاظ على تراث الأجداد. سار الأتراك نحو تتريك كل شيء من الدولة إلى اللغة وهم يتفننون بالعودة إلى العرق الطوراني الآري، أما العرب فقد دخلوا في زحمة الخيارات دون أن يكون بإمكانهم رؤية المستقبل في أي صف يقف. وحين تفرق الصرب والبلغار وتشتت اليهود والأرمن، أدرك الجميع أن سوء حظ الرجال قد تحالف مع قوة احتجاج الاستعمار. وبسرعة ظهرت الحقائق المرة. لم يعد أحد يرى أن تركيا ستصبح أميركا الشرق. إذ خرجت «تركيا الفتاة» منذ البداية في شكل عجوز ضعيف وهزيل. وقد أتت الحرب بدرس جليل لمن كانوا يحملون تلك الأوهام، ففد خرج العرب كالعميان وهم يواجهون مصيراً مظلماً ومتشابكاً. دخل رجال برّ الحجاز والخليج ني مساومات بين المجد والشيطان، واستيقظت مصر على دويّ هائل يدعوها إلى التوقف عن أحلام اليقظة وقد أصبحت شبه معزولة عن الشرق والغرب، إذ لم يعد هناك ما كان يسمى بالكيان الإسلامي. وفي تلك اللحظة ستقذف مجموعات من الشباب المتعلم والمتحمس في عموم بلاد العرب بنفسها في قلب المعارك السياسية، وأخرى ستصعد غاضبة ومنتفضة إلى الجبال والغابات متصدية لعصور الذل وباحثة عن رموزها وأسمائها وهوياتها المبعثرة.

* * *

لم يكن خليفة بن عسكر النالوتي ولا محمد الدغباجي ولا البشير بن سديرة[٦] من خريجي الصادقية أو ليسيه كارنو حتى يدركوا أن بشاعة الاستعمار تحفز على المقاومة. ولكنهم كانوا من الناس البسطاء الذين شعروا بأن واجب حماية أرض العرب والإسلام من التدنيس قد رمى بثقله على ظهورهم. كان الدغباجي أصيل جبل نالوت قد شرع في مقاومة الطليان الذين اجتاحوا ليبيا، وحين شعر بأن الفرنسيين يشددون من حوله الخناق

في محاولة للقبض عليه وتسليمه إلى السلطات الإيطالية، رأى أن العدو واحد في أرض الإسلام ويجب مقاومته إن في تونس أو في ليبيا.

وحتى نهاية الحرب العالمية، سيحقق خليفة بن عسكر مع مجموعات صغيرة من الرجال انتصارات كبيرة سجلتها الذاكرة الشعبية كأغان وأهازيج وحكايات مثيرة لحماسة الأطفال والرجال. ومن جبل نالوت إلى صحراء رمادة، ومن الذهيبات حتى قابس فقفصة، استطاعت كمائن حرب العصابات التي قادها رجال خليفة بن عسكر ورفيقه محمد الدغباجي أن تثير الفزع في صفوف الجيش الفرنسي.

لقد تعرف محمد بن صالح الدغباجي أصيل منطقة الحامة إلى خليفة بن عسكر بمنطقة عمله كجندي مكلف بالحراسة على الحدود الليبية ـ التونسية. ولما كان هذا الرجل يجد من العار أن يخدم في جيش يحتقر شعبه ودينه، فقد فضل الهروب من الجندية والانضمام إلى جيش بن عسكر. استطاع هذان الرجلان أن يضربا في منطقة تمتد من الحدود الليبية إلى الحدود الجزائرية، وعبر سلسلة الجبال سيتعرف الدغباجي إلى رجل آخر ليس أقل منهما نباهة أو شجاعة هو البشير سديرة أصيل «صانوش»، الذي سيعمل جاهداً على كسب العروش لمقاومة الاستعمار.

وخلال لقاء بين الدغباجي وبن عسكر في طرابلس (آيار/ مايو ١٩٢٢)، كان الكمين الإيطالي في انتظارهم. أعدم القائد بن عسكر رمياً بالرصاص الإيطالي. أما الدغباجي فقد سُلّم إلى فرنسا ليعدم بالرصاص الفرنسي بين أهله في بلدة الحامة.

ورث البشير بن سديرة(٧) الذي ينتمي إلى قبائل الهمامة عن أجداده الشجاعة والنبل. وإذ جمع حوله كثيراً من الرجال، فقد راح ينتقل بسرعة عبر جبال عرباطة ليجعل منها مسرحاً لعملياته الفدائية. كانت المهمة أبعد من الانتصار للدغباجي وخليفة بن عسكر. فقد أدرك أن الثورة لا بد أن تمتد وتتوسع إلى أكثر مما يتصوره العدو، حتى لا يقع حصارها أو خنقها. وحين أكثر من عملياته كان يهيئ لتحالف كبير بين قبائل الهمامة وأولاد جلاص والفراشيش، ولكن هذا الرجل الذي تفنن في نصب الكمائن فقتل من الجنود الفرنسيين الكثير، سيقع في كمين حين تطوع بعض رجاله المندسين بقتله أثناء نومه.

قُتل البشير بن سديرة في جبل عرباطة، مركز عملياته قبل أن يقبض على الدغباجي وخليفة بن عسكر بنحو سنتين، ولكن أخاه محمد سينتقم للبشير بسرعة حين نظم هجوماً مسلحاً على المقهى الذي يرتاده قاتل أخيه «بلقاسم الفرطاس». كانت تلك الليلة قد صادفت المولد

النبوي، فكان الاحتفال على قدر كبير من النشوة والانتصار. تابع محمد بن سديرة مسيرة أخيه، وإذ رأى رؤوساً كثيرة تذوي طالبة الغفران، عرف أن الثورة قد هدّها التعب. ولم يطل به السير حتى وقع في كمين حيث تم وقفه ومحاكمته بالإعدام، ثم ما لبث أن استبدل حكم الإعدام بالأشغال الشاقة والنفي إلى مستعمرة كاليدونيا الجديدة بالمحيط الهادي.

في تلك الأجواء المليئة بالمرارة والانكسار التي خلفها انهزام الكفاح المسلح، ولد الحزب الحر الدستوري التونسي تحت ثقل الشعور بالاختلاف عن الغرب المسيحي، مندفعاً موجة وراء موجة، معجباً بالحركات الإصلاحية في مصر، وحاضناً تاريخاً طويلاً من المعاندة، ومستمعاً جيداً لأصوات بعيدة في جميع أرجاء بلاد الإسلام.

* * *

تعاهد أحد عشر رجلاً وهم يقسمون يمين الولاء والصدق على متابعة النضال ضد الاستعمار الفرنسي. لم يكونوا كلهم على يقين أنهم سينجحون، ولكنهم كانوا مستعدين للتضحية. وفي منزل «علي كاهية» بنهج الباشا بتونس العتيقة، ودع الحاضرون بعضهم بعضاً بعد أن شكلوا اللجنة التنفيذية للحزب. كان البيان الذي أوضح أهدافهم قد وضع مهمته الأسمى تحرير الوطن من الاستعباد كي يصبح الشعب التونسي حراً ومتمتعاً بكل حقوقه. ومن أجل ذلك الهدف، أوضح البيان التأسيسي أن ذلك سيتم عن طريق نظام .ستوري يسمح لهذا الشعب بحكم نفسه بنفسه طبقاً للأسس التي تحكم العالم المتمدن.

إذا كانت مطالب هذا الحزب قد اتهمت بالازدواجية إذ أراد أن يجعل من التشريك مع الفرنسيين قاعدة للعمل، فلأنه لا يزال يشعر بالضعف ويتلمس طريقة بصعوبة. بالإضافة إلى ذلك فإن مؤسسي هذا الحزب كانت غالبيتهم تقع تحت سحر الثقافة الغربية، ولكن سرعة اللجنة التنفيذية في التحرك ستعطي لهذا الحزب انطباعاً بأنه أكبر مما هو في الواقع. فحين سافر وفد المحامين برئاسة أحمد الصافي إلى باريس بعد ثلاثة أشهر فقط من إعلان التأسيس، لتقديم عريضة مطالبهم إلى الحكومة الفرنسية، وهي مذيلة بتواقيع عشرات الآلاف من الأهالي، تمكن من لقاء رئيس البرلمان الفرنسي بالإضافة إلى مسؤولين عن المستعمرات في «الكي دورسيه». عاش التونسيون أسبوعاً من العسل. ولكن بمجرد عودة الوفد الدستوري إلى أرض الوطن، وتحت ضغط المعمرين الأجانب، بدا أن السلطات الفرنسية قد أخطأت في استقبالها لهذا الوفد التونسي.

بدأت في الحين حملة ترهيب ضد مناصري الثعالبي، قائد الحزب الحر الدستوري. قاموا باقتحام مقر جريدة «الصواب» التي كان يديرها محمد الجعايبي. وفي تلك الأثناء توجهت الشرطة الفرنسية إلى مقر إقامة الثعالبي في باريس، فصادرت جواز سفره وأوراقه الخاصة وكتابه «تونس الشهيدة» الذي كان قد منع رواجه بقرار من قائد جيوش الاحتلال.

كان الثعالبي لا يؤمن بأقل من الاستقلال التام، ولكن بمعرفته بأن الطرق الطويلة لا تستسلم إلا للأقدام الخفيفة والمدربة على السير، فقد فضل أن يجمع من حوله شباباً لا يحرق المراحل، وإنما يطويها رويداً رويداً نحو الهدف الأسمى. وحين قرأ رجال الشرطة بعض أوراق الثعالبي، أيقنوا أنهم أمام رجل يعرف جيداً «أن الحكومة الفرنسية سوف لن تفعل شيئاً، وأن الحرية لا تؤخذ إلا بالقوة وأنه لا يقبل أي تغيير في المبادئ التي تبناها، أي الاستقلال التام وتغيير الحكومة». وضع الشاب الثعالبي داخل باخرة قديمة تستعمل لنقل الفحم الحجري كانت متجهة إلى تونس في مساء يوم حار جداً من أيام آب/أغسطس، ليجد نفسه في السجن العسكري الذي سوف لن يخرج منه إلا بعد حوالى سنة، وذلك في أيار/مايو ١٩٢١.

تحرك رجال الحزب الحر نحو لقاء الباي محمد الناصر. كان الوفد الذي يعد أكثر من عشرين من أعيان البلاد التونسيين تحت قيادة مفتي المالكية «محمد الصادق النيفر». وإذ خاطب القاضي النيفر مولاه بالتدخل من أجل حماية أبنائه، ردّ عليهم الباي وفي صدره بعض الحشرجة من فرط ثقل الإدارة الفرنسية بقوله «بأنه ليس إلا واحداً منهم يحس بما يحسون ويشعر بما يشعرون، وكونوا على ثقة بأني سأبذل مجهوداتي في تحقيق رغائبكم». هدأ الباي من روع وفد جاء غاضباً. وحين غادر قصر المرسى، اتجهت السلطات الفرنسية إلى عقاب الباي لاستقباله ذلك الوفد، وذلك حين أوقعته في مناورة جلبت له عاراً كبيراً من حاشيته، لم يدفعه عنه إلا حين دفع بالتحدي إلى الأمام.

لم يكن الحزب الحر الدستوري وحده الذي رسم لنفسه استراتيجية الانفصال التدريجي عن الدولة الفرنسية على قاعدة التشريك، وإنما الحزب الشيوعي الذي سيطل برأسه بداية من العام ١٩٢١ هو أيضاً كان شريكاً لتلك السياسة، حتى وإن قام على أسس نظرية مخالفة تماماً.

* * *

يمكن التأريخ لأول الحلقات الشيوعية في تونس بداية من أيار/مايو ١٩٢٠. ففي ذلك

اليوم اختارت الشبيبة الاشتراكية اسماً جديداً لها عرف بالشبيبة الشيوعية، معلنة عن تبنيها لبرنامج الأممية الثالثة. كانت تلك الشبيبة تنتمي إلى أصول مختلفة من تونسيين مسلمين ويهود وفرنسيين وإيطاليين، وقد اختارت أن تسير تحت قيادة تلميذ معهد كارنو: «موريس رانبو» (فرنسي). وبعد ملاحقات كثيفة استهدفت أعضاء تلك الشبيبة الشيوعية وأعضاء الحزب الحر الدستوري، أُعيد تنظيم الشبيبة الشيوعية تحت اسم «الشبيبة الثقافية» بقيادة الإيطالي «أنريكو كوستا».

كانت الحلقات الأولى قد ولدت إثر انشقاق حدث داخل الحزب الاشتراكي الموحد الفرنسي في العام ١٩٢٠. ورغم أن ممثلي تونس قد وقفوا إلى جانب الأقلية التي رفضت الانضمام إلى الأممية الثالثة، ولكن عند العودة إلى تونس، تغلبت نزعة الانضمام إلى الأممية الثالثة. إن الشيوعيين التونسيين الذين ظلوا حتى سنوات الكفاح المسلح لا يؤمنون بانفصال الجسم التونسي عن المدار الفرنسي، لم يكونوا أبداً من المعارضين المدللين لسلطات الحماية. بل كانوا هم أيضاً معرضين للملاحقة والعقاب، وقد أوقفت جرائدهم مثل «حبيب الأمة» و«النصير» و«المظروم» و«البصير» كما أوقفت جرائد المعارضين الآخرين[٨].

غير أن تبعية الشيوعيين التونسيين المفرطة للمركز والاستغراق في المقولات الجاهزة والقوانين الميكانيكية، شأنهم شأن الشيوعيين العرب عموماً مع بعض الاستثناءات القليلة، وتركيزهم منذ البداية على مسائل هامشية وتأجيلهم لمطالب الاستقلال وهجومهم على الدين ورجاله وخلافاتهم مع الحزب الإصلاحي والحزب الحر الدستوري، كل ذلك سيجعلهم في نظر الأغلبية بمثابة العجلة الخامسة لعربة الاستعمار.

وإذ لم يستطع الشيوعيون في تونس /الفرع الفدرالي/ من النفاذ داخل النسيج التونسي، فقد أدرك كثير منهم أن التحول إلى العمل النقابي ربما كان أكثر جدوى، من الهراء الأيديولوجي، الذي كان يضعهم في تلك المرحلة في مكانة «حزب التحرر الوطني» الوحيد في البلادا. وفي الوقت الذي كان فيه الشيوعيون ممزقين بين خيارات متشابكة وصعبة ظهر على المسرح رجل يدعى «محمد علي الحامي»، وقد عاد من ألمانيا حاملاً معه أفكاراً ثرية حول الفكر الاشتراكي والتنظيم النقابي.

* * *

نزل محمد علي إلى أرض الوطن من باخرة كانت قادمة من هامبورغ. وكان هذا القروي الذي عرف الرعي والمشي حافياً في بلدة الحامة قد سافر عن طريق الصدفة بحثاً عن فرصة

للعيش. وبعد إقامة قصيرة في إسطمبول انتقل إلى برلين. لقد عاش هناك مرة كعامل وأخرى كطالب. وحتى لو أن شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية كانت مزورة كما تشير بعض المصادر، فإنه كان يملك زاداً معرفياً ولغوياً جعله يتميز بطرح أفكار جريئة جدّاً. فالذي عرف برلين بعد الحرب العالمية الأولى كان لا بد أن يطلع على الطروحات الفكرية والاجتماعية التي كانت تتلاطم في شوارع ومقاهي تلك العاصمة المثيرة للزوابع. فإلى نهاية الحرب العالمية الثانية ستظل برلين هي العاصمة الثقافية الأولى في أوروبا، إذ حاورت جميع الفلسفات وأصغت لكل الإغراءات السياسية وتصادمت مع جميع الإيديولوجيات من الشيوعية المنتصرة في موسكو، إلى الفاشية الصاعدة في روما. مروراً بتنويعات الاشتراكية المسيحية والعمالية والاجتماعية. ولأن محمد علي كان يدرك جيداً أنه عاد لبلد لا تزال نخبه طرية ومحافظة ويسبح في ثقافة الشيوخ والمساجد وهو منهمك في البحث عن الغذاء والكساء متألماً من الخصاصة والتحكم الأجنبي، فقد اختار أن لا يصدم ذلك المخزون الثقافي بأفكار بدت لأكثر الناس انفتاحاً في ذلك الوقت وكأنها من نسج الشيطان. اتجه مباشرة إلى التغلغل وسط قوى العمال. وإذ عرف أن هؤلاء قد بدأوا يتعرضون للسلب والاستلاب من الجهتين: الاستعمار وماكينته الرأسمالية من جهة، والشيوعية الدولية واستغراقها في التحاليل الميكانيكية من جهة ثانية، فقد سعى باكراً إلى بعث أول نواة نقابية للدفاع عن هذه القوة الصاعدة.

شاعت أنباء في ذلك الوقت ومفادها أن محمد علي قد أُرسل خصيصا من ألمانيا للتشويش على السلطات الفرنسية، وهو ما يعني أنه كان جزءاً من مخطط ألماني لتخريب السياسات الفرنسية في فترة كانت تتسم بصراع حاد على الأسواق والمستعمرات بين قوى أوروبا الكبرى. ولكن تلك الشائعة ما لبثت أن تبخرت بفعل مصداقية محمد علي وحواراته المتماسكة مع زملائه النقابيين الفرنسيين. في تلك الأثناء تعرف محمد علي إلى رجل آخر سيكون له صيت واسع في تونس وخارجها لأفكاره الجريئة حول حرية المرأة. هذا الرجل هو «الطاهر الحداد» ابن بلدته «الحامة» الذي تخرج من «الزيتونة» واندمج في عالم الفكر والصحافة. وكمن عثر على نصفه الآخر، راح التوأم محمد علي والطاهر الحداد يذرعان البلاد وهما يحثان السير من أجل هدف مشترك، هو تنظيم القوى العاملة التونسية نقابياً والدعوة إلى تحرير المرأة لكي تنضمّ إلى مسيرة أخيها الرجل.

كان ثمة من يقول آنذاك بأن «تأسيس نقابات تونسية جاء لتقسيم قوة العمّال إلى شطرين أمام قوة رأس المال المتحد، ولا شيء يبرر هذا الانقسام ما دامت فوارق الأديان والأجناس

معدومة في العمل النقابي». وقد عمد أحد الفرنسيين وهو أستاذ نقابي يدعى «دوربل» إلى اتهام القادة النقابيين التونسيين بالتعصب الديني والعرقي، غير أن محمد علي قد أجابه عن ذلك: «إنني لا أرى ما يمنعكم من الانحراط في النقابة التونسية مادامت تشكيلاتها ستنخرط في العالمية كما هو موجود لدى عمال العالم أجمع. إن النظام النقابي خاضع في كل بلاد العالم لنظام الشعوب، فكل أمة تشكل في أرضها نظاماً كاملاً ثم ينضم إلى العالمية. ولماذا لا نعتبر تونس شعباً من الشعوب كما هو في الواقع ما دامت لم تكن تراباً فرنسياً»[٩].

بدا واضحاً أن محمد علي كان مطلعاً على الأنظمة النقابية. ففي برلين نطقت الأطروحات الثورية بوجوب التميز وحق الاختلاف وكذلك حق الشعوب في التحرّر. وإذ ردّ تهمة السعي إلى الانقسام والانشطار ببراعة، فقد واصل عمله من أجل هدف أصبح يراه واضحاً غير مشوش أو خاضع لخطابات أيديولوجية جافة. وكان لا بد أن يقع الصدام المرير بينه وبين السلطات الفرنسية. فإذا كان الحزب الحر يحرض الأعيان والمثقفين ضدهم والحزب الشيوعي يحرض النخب ويزرع الأفكار المضادة لهم وثوار حرب العصابات يثيرون العواصف من خلف صفوفهم، فإن النقابات هي الأخرى قد فتحت معركة عمالية وإنتاجية سوف تتطور وتصبح أكثر البؤر امتلاءً بالغضب والمقاومة. وعلى إثر موجة من الإضرابات طاولت أغلب القطاعات الإنتاجية نظمتها جامعة النقابات التونسية، جاءت مصاحبة لفترة جفاف ضرب البلاد من الشمال إلى الجنوب، سيتمّ وقف محمد علي ويرسل إلى المنفى. أما رفاقه وكان على رأسهم «الطاهر الحداد» فسوف يواصلون العمل النقابي، ولكن وسط دسائس جهنمية أضعفت حماسة غالبيتهم.

* * *

رحل محمد علي ليموت في بلاد الحجاز حين ولدت دولة «ابن سعود» من كفن الثورة العربية! غطّى حزن فظيع العمال التونسيين حين بلغهم موت قائدهم، فيما غطت رايات الإسلام الوهابي المنتصر كل فلول جيش الشريف حسين الذي لم يعد له أي مكان في الحجاز. وإذ أيقن البريطانيون أن ابن سعود، أسد الصحراء قد قلب موازين القوى، حزم الفرنسيون أمرهم لكي يصفّوا حساباتهم مع جميع الذين يكدرون نومهم في مستعمراتهم الدافئة ولا سيما في بلاد المغرب العربي.

في تلك الأجواء كان بورقيبة لا يزال يتمايل بطربوشه وقد حصل على شهادة البكالوريا، بين المقاهي وحلقات الأصدقاء والأقارب. كان قد أبدى بعض التحمس لزعماء الحزب

الحرّ الدستوري، غير أنه كان من المهاجمين الشرسين للشيوعيين وكذلك للنقابيين. وقد نظر كأغلبية المتحمسين للاشتراكيين الفرنسيين، إلى أولئك النقابيين على أنهم يريدون بعث البلبلة. أُعجب قليلا بالطاهر الحداد[١٠] لأفكاره التحررية حول المرأة، أما محمد علي فقد نظر اليه كشيطان جلب معه أفكاراً هدامة نسجها ببعضها بعضاً من خلال رحلته إلى إسطمبول وبرلين. فبالنسبة إلى بورقيبة في ذلك الوقت، كان اهتمامه كله منصبّاً على الحياة السياسية الفرنسية، ولطالما مجّد الاشتراكيين الذين وصلوا إلى الحكم آنذاك، من جهة ومن جهة أخرى، على حصوله على منحة لمواصلة الدراسة في الخارج.

كان الطيب رضوان، وهو غنيّ من أغنياء الساحل يملك آلاف الهكتارات من الأراضي، قد ساعد الكثير من الشباب التونسيين على مواصلة تعليمهم في الخارج. ولطالما تمنّى الشاب الحبيب أن يرسله إلى باريس على نفقته ولكن أمنيته لم تتحقق. ومن فرط ما حزن بورقيبة الذي كان لا يفارق ليلاً ونهاراً المقهى الذي يجلس فيه الطيب رضوان، فقد صبّ كل غضبه على صديقه «الشاذلي الخلادي» لاعتقاده بأن هذا الأخير هو الذي جعل السيد الطيب رضوان يقتنع بإرسال «محمد عطية» مكانه إلى باريس. وسوف يظل بورقيبة ناقماً على الشاذلي الخلادي، زميله في الدراسة طوال حياته ويتهجم عليه كلما سنحت الفرصة خلال خطاباته الرسمية، ويتهمه بتزوير شهادته في المحاماة وتعاونه مع الاستعمار!.

ولكن بورقيبة الذي لم يفلح في الحصول على منحة من السيد الطيب رضوان، وجد أخاه محمود الذي بدا وكأن القدر قد وضعه إلى جانبه فقط من أجل تلبية جميع رغباته. كان محمود يريده أن يذهب إلى جامعة الجزائر، ولكن الحبيب أصر على الذهاب إلى باريس وبالتحديد إلى جامعة «السوربون» كما فعل محمد عطية والخلادي والبشير صفر. وعد محمود أخاه الصغير الحبيب بإرسال حوالة بريدية تقدر بخمسين فرنكاً شهريّاً، ثم قال له وهو يودّعه على مشارف الباخرة: «أريدك أن تعود من باريس رجلاً لا محامياً فقط».

الهوامش:

(١) ابشير ررق العيون في حديث مع المؤلف عام ١٩٩٢

(٢) «ليسيان سانت» هو المقيم العام الفرنسي رقم ١٠. والذي حكم البلاد من العام ١٩٢١ إلى العام ١٩٢٨ ـ أرشيف الخارجية الفرنسية.

Les résidents généraux - ١٨٨١ - ١٩٥٦

(٣) جريدة «الصواب». كان يملكها محمد الجعايبي، وقد تعرضت للمصادرة أكثر من مرة. ولفترة طويلة كانت بمثابة الناطق باسم الحزب الحرّ الدستوري.

(٤) عن الشيخ الثعالبي انظر كتاب: **«الشيخ الثعالبي والحركة الوطنية»** (١٨٩٢ ـ ١٩٤٠) تأليف «أحمد بن ميلاد» ـ و«محمد مسعود إدريس».

(٥) ضياء جوكالب هو أحد مثقفي حركة الترقي. وقد انتمى إلى جماعات كمال أتاتورك. كان قومياً طورانياً.

(٦) خليفة بن عسكر ومحمد الدغباجي والبشير بن سديرة: ثلاثي قاوم الاستعمار الطلياني في ليبيا والاستعمار الفرنسي في تونس. وقد أدرك هذا الثلاثي من البداية أن المعركة واحدة، وأن على العرب والمسلمين أن يكونوا كتلة واحدة.

(٧) البشير بن سديرة من صانوش قرب عمرة، وهو من قبائل الهمامة التي تسكن الجنوب الغربي لتونس.

(٨) من أدبيات الحزب الشيوعي التونسي، **الحركة الشيوعية**، محمد الكيلاني، في تونس ١٩٢٠ ـ ١٩٨٥.

(٩) من مداخلات النقابي محمد علي. وقد حورب من الجميع: الشيوعيين والاشتراكيين والدستوريين والمعمّرين إلى حين تمّ نفيه ـ من كتاب أحمد الدرعي، الدار العربية للكتاب ـ ١٩٧٧.

(١٠) الطاهر الحداد ١٨٩٩ ـ ١٩٣٥ ـ زيتوني ـ زميل للشاعر أبو القاسم الشابي ـ صاحب كتابي **امرأتنا في الشريعة والمجتمع والعمال التونسيون.** أفكاره كانت هي المنهل الأول لأفكار بورقيبة حول حرية المرأة.

سنوات الإخصاب:

ميلاد أب.. أو الخروج إلى الغابة

«إن التوتر والخيبة في كل مكان، بين الإقامة العامة والقصر، بين الحزب الدستوري والإقامة العامة، بين البلاط والشعب، وفي هذا المناخ من السخط العام وسوء التفاهم، فإن المجال واسع ليلعب المناورون كما شاءت مصالحهم وطموحاتهم».

«الحبيب بورقيبة»
تاريخ الحركة الوطنية

دسّ طالب زيتوني رأسه تحت الفراش من فزع دعوات وأفكار الكفر التي يشيعها «الطاهر الحداد» ورفاقه، طالباً الغفران لأبناء بلده الذين أغواهم الشيطان. وبكى طالب شيوعي في معهد كارنو على لينين الذي مات تاركاً الثنائي ستالين وتروتسكي يستعدان للقتال. وصفّق عامل في رصيف الميناء بيديه معرباً عن الفشل الذي بدأ يدبّ في حركة نقاباتهم المستقلة. وحدّق يهودي وهو لا يزال مستمتعاً «بوعد بلفور» في جاره اليهودي قائلاً بهمس له: «إن العالم يتمزق ويركض نحو الحرب، بينما اليهود هم الذين سيكسبون». وتحدث رجل عائد من بلاد السوس بالمغرب يشتغل بتجارة الصوف عن الخطابي بإعجاب قائلاً للذين يسألونه «إن الفقيه قد لقّن الإسبان المسيحيين درساً فظيعاً. إنه رجل بركة وخير». وانتشرت أهازيج حماسية من جبل مرنالوت إلى جبل غرناطة في تونس تمدح شجاعة الدغباجي والبشير بن سديرة، فأصبحت تغنى في الأعراس على مرأى من الجندرمة الفرنسية. وروى طالب عائد من الأزهر الشريف لأهله بإعجاب كبير عن بطولات أرض الكنانة وثورتهم ضد الملك والإنكليز. وإذ حلّت أخبار طرابلس الغرب على التونسيين ثقيلة وهي تتحدث عن فشل الجهاد ثم انحلال أول جمهورية، فكر رجل من الجنوب من أهل الهمامة بمواصلة الحرب ضد فرنسا على طريق بن سديرة، فيما «هاجر» الثعالبي مرة أخرى إلى المشرق للتعريف بقضية بلاده. أما محمد علي فقد انتقل إلى الحجاز باحثاً عن نفح جديد في الصحراء العربية، فيما دبّ الوهن في «الطاهر الحداد»

وجماعة الحزب الحرّ الدستوري. أما الشاب بورقيبة فقد استرجع صحته كاملة وتغلب على مرض السلّ وغدا يتطلع إلى فرنسا بعينين، واحدة يملأها الأمل وأخرى يحتلها الألم.

وعلى متن باخرة قديمة تحمل اسم «جدة» مهددة بالغرق أو بالتفكك، يملكها بحار صقلي بالاشتراك مع تاجر تونسي، غادر بورقيبة أرض الوطن تاركاً كل شيء يتلاعب بكل شيء. أخذ الشاب الحبيب وقد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره مكانه في الرحلة المتجهة من حلق الوادي إلى مرسيليا، بكثير من العناية والرهبة، وقد نزع عن رأسه الطربوش وزيّن عنقه وصدره بربطة عنق زاهية اللون. وهو نائم على سرير معلّق إلى فوق في غرفة مزدوجة، انتابه حلم مزعج فرأى نفسه وهو يغرق بينما جميع من يعرفهم يبتعدون عنه. ولم يستقيظ إلاّ على صياح من كان ينام تحته حين سقط إلى جانبه وهو لا يعرف كيف يعتذر منه. لم تكن هذه كوابيس من يركب البحر لأول مرة، فقد سبق له أن سافر إلى باريس في رحلة استطلاعية مع رفيقه الطاهر صفر، ولكن الشاب الحبيب الذي كان خائفاً من الفشل وهو يتجه هذه المرة للدراسة، قد انتابه كابوس السقوط.

بعد عشرة أيام، قضى نصفها في مرسيليا، وكان الشتاء قد سبقه، وصل الحبيب إلى باريس. وبالقرب من «ساحة سان ميشال» في الحي اللاتيني، وجد غرفة في فندق «سيفر» بالطابق السادس كانت فيما مضى تستعمل للخدم، ليستقرّ بها. ولأن هذه الغرفة لا يشملها جهاز التدفئة، فإن الحبيب سيظل ينام بثيابه أحياناً، وأحياناً يهرب منها في الليل ليذهب لينام عند صديقيه محمد عطية والطاهر صفر[1].

كان الحبيب يحمل بداخله عدة أحلام، لكنه لم يكن يعرف من أين سيبدأ فيما كانت سنّ الرجولة تدهمه. ولما شرع الحبيب في تثبيت أقدامه وقد نجح في تسجيل نفسه بجامعة السوربون، كان القرن العشرون الذي ولد في مطلعه الحبيب قد غرس أوتاده في الأرض وراح ينشر ظلاله وظلامه وتطاحناته وإلهاماته.

كان يسير في «السان ميشال» باتجاه بيت صديقه «محمد عطية» في شارع «مونج»، حين أقحم بورقيبة نفسه في جنازة الزعيم الاشتراكي «جون جوريس» المتجهة إلى البانتيون (مقبرة عظماء فرنسا). شاهد الحبيب رئيس الحزب الراديكالي «إدوارد هيريو» وقد تقدم الجنازة بعد أن أصبح رئيساً لوزراء فرنسا بالتحالف مع الاشتراكيين تحت شعار «تجمع اليساريين» فأحس وكأن صوتاً بعيداً يناديه لحضور مثل هذه المناسبات الكبيرة.

فمنذ وصوله إلى باريس، وهو يتجول في شوارعها ومقاهيها ويحدق في مبانيها العالية والفخمة منهمكاً في مقارنة تهكمية بين تونس الصغيرة وشوارعها الضيقة وباريس

المتعاظمة بساحاتها الفسيحة. كان منتشياً بوجوده في عاصمة النور، ولكن ما كان يزعجه هو غلاء المعيشة وعدم حصوله على منحة والبرد الذي يحطم جسمه خصوصاً في الليل. أكثر بورقيبة من كتابة الرسائل إلى أخيه محمود وهو يشكو من الخصاصة والتعب. وبفضل تدخلات كثيرة، استطاع السيد حسن الشاذلي وهو منستيري يعمل كمحاسب في الصادقية أن يحصل على منحة للطالب الحبيب وقدرها ١٨٠٠ فرنك سنوياً تدفع له على مرتين. كانت تلك أكبر هدية يتلقاها الحبيب منذ أن جاء إلى هذه الحياة القاسية. فمبلغ ١٥٠ فرنكاً شهرياً سيجعله أكثر حركة ونشاطاً وتفرغاً للدراسة. ولذلك فقد اتجه مباشرة إلى تسجيل نفسه بالسوربون لمتابعة دروس في علم النفس والأدب إلى جانب دروس الحقوق. غرق الحبيب في معطف داكن طويل جداً يصل إلى قدميه، ووضع شالاً أصفر على كتفه، ثم راح ينتقل من شارع إلى شارع، من شارع «ليزوكولييه» إلى شارع «مولج» إلى شارع «سان جاك». أحياناً كان يذهب إلى «مومبارناس» فيجتاز ساحة الأوديون، لا لشيء إلا ليشاهد بعض المثقفين الفرنسيين الكبار مثل «أندري بريتون» وهم جالسون في المقاهي منهمكين في نقاشات صاخبة لا تنتهي.

كان مفتتناً بالفلسفة والآداب وكذلك بالعقل الغربي، ثم كان مصراً على اكتشاف أسرار تلك الحضارة التي بنت هذه المدنية العظيمة، «وأسرار هذه القوة» التي جعلت من بلاده «مزرعة لها». كانت باريس في البداية تتبدى له في أشعار «فيكتور هيغو» وأفكار «برغسون» التجريبية وكذلك في المقيم العام الشديد البأس والجنود حليقي الرؤوس. ثم ها هي الآن تكشف له عن رموز أخرى مثل «جون جوريس» و«ليون بلوم» والكاتدرائيات العظيمة والمقاهي النظيفة والنساء الحاذقات وعربات المترو والمكتبات الكثيرة والمدارس السياسية المتنوعة والاختلاط الجنسي وكثرة الصحف وقصر البوربون وساحة الأنفاليد.

قرب ساحة «اللكسمبورغ»، وأحياناً بداخلها، كان بورقيبة ينهمك في نقاشات طويلة مع زملائه من التونسيين والفرنسيين. لم يكن متحمساً لا لخط ستالين الذي خلف لينين ولا لخط تروتسكي الذي ينادي بالثورة المستمرة. كان معجباً فقط بالقائد التركي «كمال أتاتورك» وكذلك بزعيم الاشتراكية الفرنسية «جون جوريس». وحين يشتد النقاش مع ابن بلده الذي يدرس الطب والمتشبع بالأفكار الشيوعية والذي سيشاركه في تأسيس الحزب الدستوري الجديد بعد عدة سنوات، محمود الماطري، ينسحب تدريجياً تحت سحر العبارة وقوة الشخصية التي كان يتحلى بها الشاب محمود.

كان بورقيبة متحمساً للعمل أكثر من الأيديولوجيا، كما قال عن نفسه لاحقاً. والعبارة

التي قرأها على تمثال «أغوست كونت» ـ لنحيَ من أجل الغير ـ المنتصب في ساحة السوربون، ستزرع فيه بذور المصالحة مع الآخرين، إذ كان لا يزال أنانياً ويخاف الناس. وإلى جانب «كمال أتاتورك» الذي كان سيعشقه بورقيبة أكثر لو لم يكن «رجل حرب»، فقد كانت تهزه الحماسة لـ«غاندي» الذي اختار الكفاح المسالم ضد بريطانيا بعد أن درس القانون. أما ما كان يزعجه في «هوشي منه»، أبي الفيتنام الحديث، الذي سيزعم بورقيبة لاحقاً أنه تعرف إليه في باريس، فهو اصطفافه إلى جانب الاتحاد السوفياتي لتحرير بلاده، الأمر الذي سيجعله سجين اختياراته في المستقبل(٢)!

وسوف يمر وقت غير قصير قبل أن يخطو أولى خطواته نحو العمل السياسي. فهذا الذي أصبح يلقب بـ«الحيوان السياسي الأول» في بلاده، سيتأخر في الاندفاع نحو السياسة. فإذا هو ابتعد عن أوساط الشيوعيين، ونبذ أطروحاتهم، فهو كذلك لم يقترب كما فعل بعض رفاقه من أوساط «نجمة شمال إفريقيا»(٣) التي كانت مدرسة ممتازة لكثير من المناضلين المغاربة. وإذ انضم الطالب الطيب الدبابي والبحري قيقة والطاهر صفر إلى صفوف «مصالي الحاج» العالم الذي استوت له زعامة تيار سياسي لن يفلت من سحره إلا القليل من نخب شمال إفريقيا، فإن بورقيبة لم يشاهد قط لا في أوساط نجمة شمال إفريقيا، ولا بالقرب من مقر الحزب الشيوعي، حيث يتزاحم عليه عرب وأفارقة وآسيويون باحثين عن الأخبار الآتية من الريف المغربي والهند الصينية والصحراء العربية وبلاد السوفيات وبلاد الطوران والفرس وجمهورية مهاباد وهي كلها مناطق ساخنة في ذلك الوقت. إن بورقيبة الحذر والتجريبي بطبعه، سيكتسب مناعة منذ ذلك الوقت تؤهله للوقوف دائماً في الوسط، وهو يتطلع يميناً وشمالاً ليأخذ طريقة نحو وجهة ثالثة بعد أن يكون الجميع قد انطلق في اتجاه آخر. إن مرحلة الخيارات الكبرى إذا كانت لم تعلن عن نفسها بالنسبة إلى بورقيبة، فإن سنوات ما بعد الحرب الأولى نفسها قد تميزت بصراع شديد بين قوى متكالبة وأفكار مجنحة ستفتح نحو آفاق أخرى ملوثة بالدم والغطرسة.

* * *

كان اسم الفندق الذي نزل فيه الشاب الحبيب (سيفر أو «سان سيفيران») قد عُرف بتلك المعاهدة المشؤومة ـ سيفر ـ التي حطمت كيان السلطنة العثمانية وكبرياء السيف التركي، ولكن ما سوف ينهض به الضابط مصطفى كمال أتاتورك، وليد سالونيك المختلطة والمضطربة، وتلميذ «الاتحاد والترقي» وحبيب اليهود وعدو الأرمن سيثير الإعجاب في نفس بورقيبة إلى حد الفتنة. وهو إعجاب لطالما أثار جيل أتاتورك كله حين أعلن سقوط

«الخلافة» ونفي الخليفة عبد المجيد وابنه محمد السادس وجميع أعضاء الأسرة المالكة. فعل ذلك مصطفى كمال بكثير من الهيبة والرعب فأغرق بلاده في الطوفان الغربي، وكان مدفوعاً بسخرية شديدة من غاندي ومقاومته السلبية وبخوف شديد من لينين وشيوعيته الفوضوية! ثم باحتقار كبير للأتراك الذين غطوا رؤوسهم بطرابيش وعمائم حجبت عنهم أفكار العصر. شرع «أتاتورك» يبني وطناً للأتراك على شاكلة ألمانيا التي تسحره، بعد أن توارت الأمبراطورية الهزيلة تحت التراب وتبعها خيالها مترنحاً خلف الضباب، فخلفت هنا وهناك ولايات يتيمة بلا أي سند تقاوم لوحدها استعماراً غربياً شرساً كان قد اندفع إلى أقصاه.

كانت الحرب قد بدت للبعض صراعاً شرساً من أجل تراكم الثورة والطاقة وللبعض الآخر تحولاً عميقاً في بنية العلاقات الدولية، وللبعض الثالث تحرراً من الأفكار الثقيلة والأمبراطوريات المريضة. ومع دخول أميركا إلى المسرح الدولي بأفكارها التحررية ومعها الاتحاد السوفياتي بأفكاره الاشتراكية، بدا أن انشقاقاً كبيراً، بعد ذلك النصر المشترك، سيلفّ العالم عما قريب. ومع أن الحرب قوبلت بالترحاب في أوروبا عموماً لتنظيم القارة وتنظيفها، وفي عالم المستعمرات الذي قد رأى في نتائجها انتصاراً له خصوصاً بعد خطاب «ويلسون» الشهير[٤] إلا أنها حين طالت، وما لبثت أن تغير ذلك الشعور إلى استفزاز وسخرية نطق بها الشاعر «عزرا باوند» حين كتب قائلاً: «كثيرون ماتوا، وكان خيارهم. ولكن كثيرون ماتوا في سبيل عاهرة حمقاء ومدنية مرقعة». فأزمة ١٩٢٩ الخانقة والمفزعة ستضرب العالم بركلة قوية على مؤخرته فيما سوف تسدد له الحرب الثانية بعد بضع سنوات لكمة أخرى على صدره تجعله مصدوماً إلى زمن طويل وهو يعاني من ضيق في التنفّس.

ظهرت كل من فرنسا وبريطانيا بعد الحرب وكأنهما استبدلتا الأراضي بالرجال. خسرت الأولى حوالى مليوني رجل لتخرج كقوة قارية منافسة لألمانيا المندثرة مرة ثانية بعد قرن من اختفاء نابليون بونابرت. وخرجت الثانية كقوة جزيرية (التعبير لمترنيخ) بعد أن دفعت حوالى مليون ونصف من أبنائها وأبناء مستعمراتها، بوضع مكّنها من تشريح جثث الأمبراطوريات السابقة، إذ ورثت الكثير من ولايات الدولة العثمانية والمستعمرات الإيطالية.

كانت الحرب قد أصبحت كذكرى مؤلمة لمعظم الناس، حين أصبح «ميليران» رئيساً لفرنسا، وهو رجل قد وضع أذنه جيداً باتجاه أصوات العصر، فقام بعدة زيارات لمستعمراته،

فبدا من ناحية وكأنه يطمئن المعمّرين الكبار إلى أن فرنسا لم تتغير، ومن جهة أخرى كأنه يوزّع عطفه على أهالي المستعمرات الذين دفعوا الكثير في حرب فرنسا. ولأن رئيس الحزب الراديكالي «هيرنو» قد أصبح يتكلم لغة جديدة، هي لغة الاشتراكيين فقد تحالف الرئيس ورئيس الوزراء على إعطاء انطباع جديد لبلديهما مفاده «أن الإصلاحات ضرورية وأن اليأس ممنوع»(٥). غير أن نفير أزمة ١٩٢٩ الراكضة صوب عواصم العالم الجديد، سوف يصم الآذان ويملأ الآفاق والأسواق سواداً وكساداً.

وقبل أن يصبح ثمن كيلو الخبز يساوي عربة صغيرة من الأوراق النقدية في ألمانيا كما في أميركا، كان هناك وفي شرق المتوسط وشبه الجزيرة العربية، قد تحول يأس العرب من إيجاد الحماية أو الراحة في دار الإسلام المتداعية إلى سخط ما لبث أن أخذ شكل الانفصال/ الاستقلال حين اختلط مع الإغراءات الأجنبية والعصبيات القبلية. أما في مصر التي كانت دائماً منبعاً لكثير من أفكار التونسيين والتي كانت أشبه بكعكة ذات طبقات كل طبقة تحسد التي فوقها حسب تعبير «ديزموند ستيوارت»(٦)، فقد مثل الزعيم زغلول عودة ثانية من الداخل لـ«عرابي» الذي انتهى منفياً بعد أن فاز بمحبة المصريين على أنواعهم. وإذ طاف الطلاب في شوارع القاهرة ينادون بالاستقلال ويهاجمون بريطانيا، فقد دبّت حماسة جديدة في التونسيين بعد وهن أصاب الأحزاب والنقابات. كانت الصورة جداً متقاربة بين مصر وتونس اللتين تعانقتا منذ العهد الفاطمي، وهي تقريباً على هذا النحو: اشتكى فلاح صعيدي ظلم الباشوات وتحسس طالب أزهري رأسه خائفاً على ذلك الطربوش المجيدي ودارت حلقات نقاش ثرية بين مصريين متنورين ويهود حول الشيوعية المندفعة والمزهوة. ثم زغردت امرأة في بيت طيني وهي تخبر الجيران أن الأب حسين قد رزق بولد ذكر سيعرفه العالم فيما بعد تحت اسم جمال عبد الناصر. ثم لف البلاد حزن أسود لأن الزعيم زغلول قد أخذته الحمى القرمزية تاركاً شعبه في مهب الأحزاب العاجزة والقصر العفن.

وفي تونس، كان الشارع يغلي مردداً أفكار «سعد زغلول»، ومتحمساً لثورة الريف بالمغرب بقيادة الخطابي وباحثاً عن أخبار «مصالي الحاج»، ومرحّباً بعودة «الثعالبي» من المشرق، وهو يقلّب أحواله وأحلامه التي رآها تكبر مع كتابات الحداد وتزدهر مع أشعار الشابي. عرض بحار مالطي على بحار تونسي أن يشتريا مركباً قديماً من صقلية ويتعاونا في التجارة. وصاح طالب شيوعي وهو يهزه الفزع من الإلحاد الذي خيم على بلاد الإسلام، وتحلق شباب آخر صغير حول كراسات لينين وهم يناقشون «ما العمل» كما يفعل الكبار. ودخلت امرأة إلى مصنع يديره أحد المعمرين بعد أن ترملت. ومات رجال كثيرون في

مناجم الفوسفات بالجنوب التي فتحت للعمل منذ عدة سنوات. فامتلأ الفضاء بأصوات مبحوحة وصاخبة، رددت تارة صوت الثعالبي وهو ينادي بمقاومة الاستعمار، وتارة صوت الخطابي وهو يرى أن جمهورية قد تحطمت على يدي الفرنسيين والإسبان، فتلاقت في الجوّ أصوات المؤذنين مع أصوات الطلبة الغاضبين وهم عائدون من الزيتونة.

وسط ذلك الهياج المتلاطم بالغضب والأفكار الجامحة، والذي راح يعصف بالغرب كما بالشرق بعد فترة راحة قصيرة أعقبت الحرب، راح الشاب بورقيبة يتلمس طريقه وهو يقابل أفكاره الجنينية وأحاسيسه البسيطة بواقع خشن ومعقد ومراوغ. وفي السوربون سيجد ذلك الشاب ما يوحد ويرفق، سيجد أيضاً ما يباعد وما يقرب وكذلك من يدافع عن فرنسا ومن يتذمر منها. ورغم أنه لا يزال على حذره الشديد فإنه سيقع في منطقة التجاذب العنيف، لكنه سيحاول ألاّ تنزلق قدماه أو رأسه إلى موقع لزج، إلى فكرة فوضوية، سوداء أو حمراء!.

* * *

حين أهدى له صديقه الطاهر صفر، وكان أكثر منه نضجاً، كتاب «الرجل غير المرئي» (هـ.ج.ويلس) لم ينس أن يقول له: «هذا الكتاب ستعرف قيمته فيما بعد. إنك ستفهمه لاحقاً». بدأت السنة الدراسية لعام ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ بالنسبة إلى بورقيبة أكثر تركيزاً. وقد أصبح يتمتع بمنحة سنوية من الدولة وبغرفة في دار الطلبة بشارع «جوردان» العريض في الدائرة الرابعة عشرة في باريس، فإن ذلك ما أهّله لمتابعة دروس أخرى إضافية في العلوم السياسية ـ قسم المالية العمومية. عرف بورقيبة آنذاك قيمة المال وقدرته على تذليل الصعاب. فالمنحة الدراسية زائد المساعدات التي كان يتلقاها بين الحين والآخر من أخويه محمد ومحمود أو من أستاذ المنستير القديم «مونييه بيلات» المسيحي الفرنسي الذي أسلم بدافع الحب والتسامح، قد جعلته أكثر استقلالية واندفاعاً. أما دروسه في قسم الخزينة العامة، فقد أطلعته على أن فرنسا بدون مال كثير لا تستطيع أن تكون دولة قوية. بيد أن ذلك المال الكثير لن تحصل عليه إلا إذا كانت قوة جبارة ذات إدارات عالية الكفاءة ولوبيات متشابكة وتنظيم اقتصادي محكم وقدرة على استغلال ثرواتها في الداخل وكذلك في مستعمراتها. وأخيراً عرف الطالب بورقيبة أنه بدون استغلال كبير لن تجمع الدولة الفرنسية مالاً وفيراً. وتساءل بينه وبين نفسه «ماذا يا ترى يقع تحت هذا الاستغلال الشنيع؟» لكنه خبأ الجواب في زاوية من رأسه مفضلاً أن ينتظر الوقت لطرح مثل ذلك السؤال والإجابة عنه حين يعرف أكثر.

لم يكن بورقيبة من هواة الرقص ومراودة الملاهي الليلية مثل صديقه «بحري قيقة». وبالرغم من أنه أصبح يملك مالاً كثيراً إلا أنه كان شغوفاً بجمعه لا بصرفه. وإذ يعتقد أحد زملائه القدماء بأنه كان ينفق الكثير(٧)، إلا أن لا أحد يعرف كيف ينفق أو على من ينفق ذلك. كان أنيقاً، نعم، ولكن ظل لمدة سنتين غارقاً في معطف واحد، ثم إنه كان يشتري معظم ملابسه من محال الروبافيكا (الملابس المستعملة) وهو لا يشتري كتباً ولا صحفاً. وحتى السجائر، فقد كان في أغلب الأحيان يدخن من علب رفاقه. أكثر من ذلك، حين يذهب إلى مطعم مع رفاقه كان يتحاشى دفع الفاتورة بل كان أحياناً يفتعل الشجار مع رفاقه أو حتى مع الغراسين، كما حدث مع الغرسون الإسباني في مطعم الأكروبول، بعد أن يكون طلب أغلى الصحون. يسير أحياناً مع زميليه صفر وقيقة إلى شارع «فوجيرار» حيث مرقصهما المفضل، وهنا يختفي بسرعة ليدخل إلى قاعة الرياضة. هل كان يحب الرياضة؟ لا أحد يعتقد بأنه كان من الرياضيين، ولكنه كان يتحايل على عدم الذهاب إلى المراقص حتى لا ينفق مزيداً من المال. وسوف يستمر نهم بورقيبة للمال في جميع مراحل حياته إذ كثيراً ما اتُهم من رفاقه في الحزب حين ذهب إلى مصر ثم حين ذهب إلى الباكستان والسعودية، بإخفاء المساعدات التي كان يتلقاها باسم دعم الحركة الوطنية التونسية، وإنفاقها على شؤونه الخاصة وعائلته(٨).

في أحد المساءات، اختار أن يبقى في غرفته، وخلال تنظيم أوراقه وأشيائه، عثر على ورقة صغيرة تحمل عنوان سيدة فرنسية مطلقة ستكون فيما بعد أمّاً لابنه الوحيد الحبيب/الابن. كان العنوان قد كتبه الأستاذ الفرنسي الذي أصبح مسلماً وسلّمه إلى الحبيب قائلاً له: «يمكنك الاتصال بهذه السيدة والقيام بزيارتها حينما تريد ذلك». أخفى الحبيب الورقة جيداً، وفي الصباح، وكان يوم أحد، ذهب إلى العنوان بالدائرة العشرين قرب مقبرة «الأب لاشيز». طرق الباب، فخرجت السيدة نفسها لتفتح الباب، قال الحبيب متلعثماً: «أتمنى أن لا أكون مخطئاً في العنوان، أنت السيدة ماتيلد فراس أليس كذلك؟» فردّت ماتيلد فراس بسرعة: نعم نعم. ثم تنحت جانباً لتدعوه إلى الدخول.

كانت السيدة ماتيلد تكبره بحوالى ١٢ سنة، وكانت قامتها تزيد على قامته ببضعة سنتيمترات. وإذ بلغت السادسة والثلاثين، وهي أرملة لأحد الضباط الذين ماتوا على جبهات الحرب العالمية الأولى، فقد احتفظت ببريق أشاع في بورقيبة منذ أن رآها كثيراً من الفتنة. كان الفستان الأسود الذي ترتديه في ذلك اليوم هو الذي ذكّر بورقيبة بأن هذه السيدة أرملة منذ ما يزيد على ست سنوات، وحين جلس في الصالون الصغير عرف أنها

تعيش مع أمّها بدون أبناء. وسألته عن صديقه الطاهر صفر، فعرف أنها تعرفت إليه كذلك عن طريق الأستاذ الفرنسي «مونييه» وأنه زارها لكنه لم يعرف متى وكم من مرة. وإذّاك قرّر بورقيبة أن يفعل ما في وسعه حتى يفوز بصداقتها وكأنه يريد أن يغيظ صديقه الطاهر، فكشف عن سحر عبارته متحدثاً عن ولعه بالرياضة والمعرفة وحبه لفرنسا واللغة الفرنسية. كانت السيدة ماتيلد تحدق في عيونه الزرق، وقد بدا لها بقامته القصيرة وملابسه الخفيفة وشاربيه القصيرين وتصفيفه لشعره المنشطر إلى نصفين متساويين وكأنه «شارلي شابلن» قد حضر إلى بيتها، بلحمه ودمه. وحين استبقته لتناول الغداء، أدرك بسرعة أنه ربح نصف المعركة. وانهمك كل من الحبيب وماتيلد في حديث طويل ما بين الصالون وغرفة المطبخ إلى حد نسيا فيه الوقت. وروى كل منهما للآخر حكايته مع الحياة، فكشفا لبعضهما بعضاً عن حاجة كل منهما للدفء والحنان. فيتيم الأم بدا وكأنه عثر على أمّ أخرى. أما الأرملة الشابة فقد دغدغت مشاعرها فكرة الاحتفاظ بهذا اليتيم الناضج.

خرج الحبيب من ذلك اللقاء الأول مع ماتيلد مزهواً وقد أثار إعجاب امرأة نامت بداخلها الأحاسيس المتوهجة لسنوات طويلة. قالت له: «يمكنك أن تعود متى تشاء». أما بورقيبة فقد رد عليها: «سيدتي، إن بيتك قد جعلني شخصاً ناشطاً جداً». وخلال بضعة أشهر بعد تكرار اللقاءات والزيارات والذهاب معاً إلى الرقص، أصبح الشاب والأرملة يعيشان تحت سقف واحد. سيعترف بورقيبة «أنه كان حريصاً على البقاء مستقلاً، وأنه لم يكن يفكر أبداً في ذلك الوقت في الزواج من هذه السيدة، ولكن حدث كل شيء وكأن القدر كان يريد ذلك»[٩]. عاش الحبيب مع ماتيلد طوال السنوات التي قضاها في باريس. ثم عاد إلى بلاده ليبدأ مشوار آخر من حياته. وقد اعتقد دائماً أن معاشرته لهذه السيدة، كانت من قبيل زواج المتعة الذي يمنحه الدين الإسلامي لأبنائه خلال السفر أو الحج.

أصبح بورقيبة يسكن قرب مقبرة «الأب لاشيز»، وقد ترك غرفة الحي الجامعي. لم يعد يلتقي إلا نادراً برفاقه وزملائه، محتفظاً ببعض اللقاءات القصيرة مع كلّ من قيقة وصفر. ابتعد عن كل شيء، أصبحت ماتيلد هي عالمه الأول بعدما تراجعت الجامعة إلى الدرجة الثانية من اهتمامه. كاد ينسى حتى أقاربه. فالحبيب زويتن ابن عمته الذي كان قد سبقه إلى باريس لدراسة الطب، حار في العثور عليه حين جاءت أخته شاذلية لزيارته في باريس، وقد عادت شاذلية التي كانت تعتبر شبه خطيبة للحبيب، ابن خالتها، من دون أن تراه، الأمر الذي جعل أخاها يقطع علاقته به.

هذه التغييرات التي حدثت في حياة الحبيب، جعلته يبتعد كذلك عما يحدث في بلاده

تونس. وأثناء عودته إلى المنستير لقضاء عطلة صيف عام ١٩٢٦، لم يبحث عن أصدقائه القدماء كما لم يهتم أبداً بتلك النقاشات السياسية التي تملأ الفضاء من حوله. كان حزيناً فقط لأن والده قد توفي، ثم كان مشغولاً ومهموماً بسبب التليغراف الذي أرسلته له ماتيلد لتخبره أنه أصبح أباً. وأن الطبيب أخبرها بأنها «حبلى». وفي اللحظة التي دفن فيها الحبيب أباه، تحول هو إلى أب. «يالها من فظاعة»!. قالها الحبيب بمرارة وهو يروي حكايته أمام صديقه محمد علولو، لكن بورقيبة الذي حاول علولو أن يخفف من مرارته بقوله له: «لست الأول الذي يحدث له هذا. ويمكنك أن تترك أمّه تتدبّر شأنها مع طفلها»، سوف يقترب من البكاء وهو يروي كل ذلك لطلبة معهد الصحافة وعلوم الأخبار: «أبداً قال بورقيبة لمحمد علولو بحزم. إنني مسؤول عنها».

إذا كان الحبيب قد أبدى شهامة الأب الذي لا يهرب من مسؤولياته، فلأن ماتيلد التي حضنته، امرأة تستحق كل العناية. ثم إن شعوره بأنه أصبح أباً قد طغى على كل أحاسيسه وجعله مزهوّاً ونافخ الصدر وقد تخلص من ذلك الخوف الذي صاحبه طوال حياته من أنه رجل عقيم. هذا ما سوف يصرح به بورقيبة لاحقاً وقد روى كيف كان يعاني خوف العقم كلما تلمس جهازه العضوي ووجد نفسه أنه لا يملك إلا خصية واحدة. ولطالما أخفى ذلك الخوف حتى عن أقرب الزملاء إليه، ولكن ما إن أصبح أباً، حتى أصبحت تلك الحكاية الصحن المفضل لدى بورقيبة. فأخيراً عرف أن صاحب الخصية الواحدة يلد مثل أصحاب الخصيتين. كان في السابق يخفي ذلك وقد حاول مراراً أن يتحدث عن معاناته لطبيب الصادقية وهو يتخطى نحو المراهقة، لكنه تراجع في آخر لحظة خوفاً من الفضيحة.

وبالرغم من أن ماتيلد قد عوضت له فقدان الأم المبكر، ورفعت عنه معاناة العقم بحيث وجد فيها العلاج الضروري لأكثر من عقدة، إلا أنه لم يعد مهذّباً معها كالعادة. فمنذ أن أصبح أباً تحول إلى رجل آخر. أصبح أكثر خشونة وأكثر اعتزازاً بذكورته، وهو لا يتردد في تسديد بعض الإهانات لها كما يفعل رجال بلاده مع نسائهم، لأن تلك الطريقة ستجعله يؤكد أمام أصدقائه أنه رجل مثل الرجال. كان في السابق يمتنع عن استضافة أي أحد في بيته. أما الآن فها هو من حين إلى آخر يجمع بعض الزملاء على أكلة كسكسي، لا ليأكلوا معه الكسكسي الذي يتفنن في طبخه جيداً، ولكن على الأرجح ليؤكد لهم أنه هو الذي يحكم في البيت وليست ماتيلد كما يشاع عنه. وإمعاناً في ذلك لم يكن بورقيبة ليتردد أبداً في فتح خصوماته مع ماتيلد بسبب وبلا سبب أمام أصدقائه. كانت ماتيلد

مهذبة جداً ولكنها كانت حريصة على مناقشة الحبيب في أفكاره التي تجدها أحياناً غير ناضجة، وعند ذلك يحدث الصدام. فبورقيبة الذي تخلص أخيراً من عقدة الخصي، قد تحول إلى «جبار صغير» يفترس كل من يعارضه في الرأي. بعد سنة فقط كان على الحبيب أن ينتقل مع زوجته ماتيلد وابنهما الحبيب الصغير الذي سماه «جان» إلى بيت آخر بمنطقة «بانييه». من الصعب أن نعرف أسباب تلك النقلة، ولكن من المحتمل أن الزوج بورقيبة أصبح صعب المراس مما تسبب في خصام بينه وبين أمّ ماتيلد.

لم يخرج بورقيبة من وطأة الحريم إلا حين أصبح يسكن بعيداً عن أم ماتيلد. فالحبيب الذي أصبح أباً لعائلة صغيرة ثم غدا أباً لشعب بكامله كما كان يصف نفسه، سيظل سجين تلك الوطأة طوال حياته، بل سيعود إلى سجنها منذ أن يمسي شيخاً هزيلاً وأعزل في قصر قرطاج. حين كان صغيراً كان يفضل معاشرة النساء والبنات ولطالما لعب وتخاصم وعمل مع أخواته وبنات عماته وبنات جيرانه، حتى ظنّ البعض أنه صبيّ لكنه ليس كبقية الصبيان. كان يشارك في طحن القمح والجلوس إلى الرحى والغربال، ثم كان يحب الطبخ وإعداد الخبز والدقيق وتسخين الفرن، كما كان يشارك في إعداد حلويات العيد ويتدخل في شؤون الطنجرة. وهذه أشياء لا يفعلها الذكور، بل كانت غالباً ما تلحق العار بالصبيان الذين يقتربون منها.

هكذا سينزع الحبيب عن نفسه ذلك العار مرة واحدة، حين يحمل ابنه وزوجته إلى بيت آخر ويقرر أن الرجولة التي تأخرت عنه قليلاً قد حلّت أخيراً بداخله. لقد امتلأ فجأة بالرجولة، بل أصبح أكثر من رجل، أو رجلاً مفترساً.

* * *

وها هو بورقيبة يعود أخيراً إلى تونس. لقد عجنته تجربة فرنسا جيداً وأخرجت منه رجلاً ناضجاً. ترك المراهقة إلى الخلف، ثم راح يصارع الرجال والزمن والأحلام. عاد بابن وزوجة وكذلك بشهادة في الحقوق. ستتضارب الأقوال حول هذا الشهادة إذ يؤكد بعض زملائه[11] أنه لم يكمل دراسته وقد انقطع عنها قبل حصوله على الليسانس. أما بورقيبة فسوف يجعل من شهادة الحقوق سيفه الضارب الذي لا يشبه سيف والده الذي عاد به من الجندية وظل معلقاً على أحد جدران السقيفة كدليل على بأس مفقود. حتى إذا لم يجلب بورقيبة معه شهادة في الحقوق، فقد جلب معه معرفة جيدة للحياة السياسية في فرنسا التي ذهب ليطّلع عليها عن كثب كما كان يقول. لقد بعثت فرنسا في بورقيبة الرجولة والاندفاع وكذلك المعرفة والأفكار الليبرالية. وحتى لو لم يكن بورقيبة مسلماً

جيداً أو مؤمناً جيداً، فقد كان منذ البداية «لائكياً» كما يقول عنه زميله «بحري قيقة»، فإنه بمجرد وصوله إلى تونس، سوف يتجه مباشرة لعقد قرانه على «ماتيلد»، كما يفعل جميع المسلمين.

كان عليه كذلك أن يدخل إلى عالم المحاماة. ولكن قبل ذلك لا بد أن يمر بتدريبات لمدة ثلاث سنوات لدى محام معترف به لدى الحاكم. دخل في البداية كمتدرب لدى الأستاذ المحامي «سيريه» ثم ما لبث أن انتقل كمتدرب بمكتب السيد «شمامة». لم يدفع الأستاذ «شمامة»، وهو يهودي تونسي للمحامي المتدرب إلا قليلاً من المال كتعويض عن أتعابه، بل لم يكلفه طوال المدة التي عمل بها عنده إلا بمهام الكتابة، فرأى بورقيبة أن ينتقل إلى العمل بمكتب المحامي «صالح فرحات»، الذي كان آنذاك يشغل السكرتير العام للحزب الحرّ الدستوري. ولم يمض وقت طويل حتى انتقل إلى المحامي «سيبو» الذي خصص له جراية بملغ ٦٠٠ فرنك شهرياً، الأمر الذي جعل بورقيبة يعمل سنة إضافية في ذلك المكتب بعد سنوات التدريب الثلاث الضرورية.

عمل بورقيبة في مكتب سيبو في انسجام كامل. وقد استطاع خلال عمله أن يرافع في عدة قضايا، الأمر الذي جعله يغضب على الأستاذ «فيليكس شمامة» فيما بعد لأنه كان يقول له: إن المرافعات من اختصاص الأستاذ زيراح، وهو يهودي كان لا يحذق حتى الكلام، حسب شهادة بورقيبة.

لا يزال بورقيبة في ذلك الوقت يبحث عن موقع يضعه في صفوف النخبة والمحظوظين. وقد أحس أن السياسة حتى ذلك الوقت كانت من اختصاص أبناء العائلات الكبيرة، فقد امتنع عن الاندماج في العمل السياسي المباشر قبل أن يصبح من أعيان البلاد. فهو محام وزوج لسيدة فرنسية ويملك سيارة صغيرة، وله أخوة موظفون في الدولة الفرنسية وصهر لأعيان المنستير ويتقن اللغة الفرنسية وله عيون زرق. ولكنه سيظل يحتاج إلى المال والشهرة حتى يصبح من الذين «يحق» لهم العمل السياسي. إن بورقيبة الذي كان لا يريد أن «يحرق نفسه» بسرعة وبلاهة، إنما كان كذلك يبحث عن الزعامة منذ البداية. فرجل حذر جداً مثله ونرجسي ومعبأ بنوازع السيطرة لا يستطيع أبداً أن يعمل إلا إذا كان يضع نفسه فوق الجميع.

اختفت الخيبة من قلب إخوته الذين تعجبوا لزواج أخيهم من فرنسية تكبره بنحو ١٢ سنة. ثم تغلب أقاربه على تلك الصدمة. وشيئاً فشيئاً عاد أخوه محمود الذي كان باستمرار إلى جانبه، إلى مصالحته. وبعد فترة من السكن بين ضاحيتي «الكرم» و«المرسى»، مع عائلة

أخيه، سينتقل بورقيبة مع زوجته إلى شقة مستقلة بتونس العاصمة بشارع «الرزرفوار» حيث سيستقر بها إلى العام ١٩٣٣. وخلال ذلك سيعمل بورقيبة في المحاماة ومن حين إلى آخر سيذهب لحضور محاضرة ثقافية أو سياسية فيتدخل حين يروق له المقام، ولا يتكلم إلاّ بمقدار واتزان. ورغم أنه كان يمتلك موهبة التمثيل التي أهّلته جيداً لفنون الخطابة، ثم هو أصبح يمتلك ناصية الحديث بفضل عمله في المحاماة، إذ أصبح يعرف من أين يبدأ موضوع وفي أية نقطة يجب أن ينهيه، إلا أنه كان حريصاً جداً على أن لا يبدو مترفاً أو نافراً أو مترفعاً. فأمام بورقيبة جمهور يتكون من عدة حساسيات، وهو متنوع دينياً وعرقياً، ولا بد له لكي يستحوذ على جمهوره أن يتكلم إليه بمستويات متنوعة وبعبارات جريئة لكنها غير يقينية، وأن يقف في الوسط إذا كان التطرّف سيعزله عن الآخرين. باختصار، كان واضحاً وهو يشارك في محاضرة بالنيابة عن أخيه في مقر جمعية ليسور (جمعية أدبية كان يرأسها ألكسندر فيشي) عن جدوى الحجاب الذي ترتديه المرأة التونسية المسلمة، أن بورقيبة لا يريد أن يغضب أحداً. بل كان يسعى أولاً وأخيراً إلى صقل شخصيته ولسانه، ثم إلى نسج علاقة خاصة مع الناس، في انتظار أن يتقدم للعمل السياسي المباشر.

لقد استهوته النقاشات التي دارت خلال تلك المحاضرة. وبرز كمثقف بارع يجيد فنّ الإقناع، وقال وهو يراقب عيون التونسيين والفرنسيين باحثاً عن ردود فعلهم «إن الحجاب قد يخلو من طابع اللطافة، لكنه يعد جزءاً من الشخصية التونسية»(١٢). بعد ذلك سيستهويه العمل الصحافي ويثير شهيته وقد أدرك أن الصحافة هي المحرك الأساسي للرأي العام، وأن جميع من عمل في الميدان السياسي وحاز على شهرة في البلاد، إنما بلغ ذلك عن طريق الصحافة. شارك بورقيبة في البداية بمقال سجالي نشر بصحيفة «تونس الاشتراكية» حول الحجاب، ثم كتب بجريدة «اللواء التونسي» (جريدة يصدرها الشاذلي خير الله أسبوعياً) مقالتين كردّ على دعوات الحزب الاشتراكي الفرنسي الذي كان يرى حسب إعلان «موريس فيولات» الذي يتولى الإشراف على ولاية الجزائر «أن إفريقيا الشمالية جزء من فرنسا لا يمكن أن تنسحب منها أو تتنازل عن شبر واحد»، تلك المقالات التي بدأت محتشمة ثم ما لبثت أن أصبحت صاخبة ومثيرة للتعب، سوف تتتابع في جريدة «الصوت التونسي» حين تتتابع الأحداث العنيفة في تونس وشمال إفريقيا عموماً.

* * *

في العام ١٩٣٠، كان على الفرنسيين أن يحتفلوا بمرور مئة سنة على احتلالهم للجزائر. لقد أصبحت الجزائر قطعة من التراب الفرنسي، أو الضفة الثالثة لفرنسا التي تفتح على

المتوسط والأطلسي. وبعد سنة فقط من ذلك التاريخ سيكون قد مرّ على احتلال تونس نصف قرن. أما المغرب فقد أصبح تحت حمايتها منذ ١٨ سنة. إن شمال إفريقيا من قرطاج إلى أغادير، قد أضحى من ممتلكات فرنسا باستثناء جزء صغير من شمال المغرب، ظل تحت الاحتلال الإسباني. وإذ شعر الفرنسيون بالافتخار أمام الألمان الذين أبعدوهم عن تلك المناطق، وبالشماتة تجاه الطليان الذين غرقوا في حرب صحراء شنيعة ضد المقاومة الليبية ستلهيهم لبعض الوقت عن مناوشتهم من أجل امتيازات أفضل في تونس، فقد أكدوا من خلال احتفالات مرور قرن على وجودهم في الجزائر، أنهم ما زالوا قادة الحملة الصليبية بلا منازع وجنودها الأكثر اندفاعاً وحماسة.

غصّت شوارع تونس بالرهبان الذين جاؤوا من كل صوب حتى بدت وكأنها جزء من حاضرة الفاتيكان. وخلال انعقاد ما كان يُعرف بـ«المؤتمر الأفخارستي» سنة ١٩٣٠ بتلك المناسبة، امتلأت البلاد بغرباء يرتدون ملابس تشبه ملابس جنود الحملة الصليبية الثامنة التي قادها الملك الفرنسي «لويس التاسع» (القديس لويس) والتي ردت على أعقابها عند هضبة قرطاج قبل نحو سبعة قرون (عام ١٢٧٠) حين انتشر مرض الطاعون الذي قضى على جزء كبير من جيشه وعليه شخصياً. كان أولئك الرهبان والقساوسة مدفوعين بشعور مفاده أنهم يواصلون السير على طريق ملكهم القديس لويس ورافعين لأعلام بيضاء كتب عليها «الحملة التاسعة»، وهم يقتحمون الشوارع والحارات بكثير من الصخب والرهبة. وقبل ذلك المؤتمر الذي أشرف عليه البابا شخصياً، كانت السلطات الفرنسية قد عمدت إلى إقامة تمثال «للكاردينال لافيجي» الذي عرف بأنه داعية تنصير شمال إفريقيا كلها منذ إقامة الكنيسة الكبرى فوق هضبة قرطاج، الذي يفتح بابها باتجاه إفريقيا. ذلك التمثال الذي أقيم في مدخل المدينة القديمة وعلى مقربة من جامع الزيتونة، وهو يجسم «الكاردينال لافيجي» وفي يده صليب يستعد لتركيزه على الأرض التونسية، سيرمز إلى عودة هؤلاء الصليبيين إلى ديار الإسلام، لكنه سيثير غضباً كبيراً لدى مسلمي تونس.

في تلك السنة، كانت الإعدادات واضحة للاحتفال بمرور نصف قرن على احتلال تونس. وإذ رأى التونسيون في المؤتمر الأفخارستي تمزيقاً وتدنيساً لمقدساتهم، فإنهم سيرون في ذلك الاحتفال إمعاناً في احتقارهم وتمزيق هوياتهم. كانت الصحافة هي المنبر الوحيد تقريباً للأصوات الغاضبة. ولما كان بورقيبة قد استهوته الكتابة وكثيراً ما تلقى الترحيب والمدح لكتاباته الذكية وأسلوبه الحي والرشيق، فقد سعى جاهداً إلى أن يفرّغ نصف وقته على الأقل للكتابة الصحافية. وصدرت «صوت التونسي» باللغة الفرنسية، فبرزت على

صفحاتها أسماء كثيرة من بينها اسم المحامي الحبيب بورقيبة وإلى جانبه الأستاذ عبد العزيز العروي وصالح فرحات ورئيس تحريرها الشاذلي خير الله.

كان الحزب الحر الدستوري حسب رأي بورقيبة الرئيس، منذ العام ١٩٢٧ قد أضحى «جزءاً من مسرحية الحماية»(١٣). فقد كانت هناك سلطات فرنسية عليا وإلى جانبها باي ووزراء مثقلون بالنياشين ثم حزب معارضة مدجن. ولذلك فإن بورقيبة الذي بدأ يكتشف أسرار اللعبة السياسية في بلاده من خلال العمل الصحافي، سوف يشرع في ذلك الوقت في رسم المسافة التي ستفصله عن ذلك الحزب الذي كان يهيمن على الحياة السياسية الأهلية. ولأن بورقيبة فشل في الحصول على وظيفة مهمة في إدارة المخزن فقد أصبح متطلعاً للعمل السياسي. وقد سعى جاهداً إلى مناظرة لاختيار مجموعة من «قادة» المناطق (محافظين) إلا أنه ورغم شهادته في المحاماة وزوجته الفرنسية لم يتمكن من ذلك لأنه لم يعد محلّ ثقة في أوساط المقيم العام لكتاباته الصحافية واختلاطه بجماعات الحزب الحرّ الدستوري.

إذا كان الحزب الحر الدستوري قد دخل في نوم عميق في تلك الفترة لأنه لم يستطع تطوير آليات نضاله ومشاريعه وبدا وكأنه قد أصبح من ملكية بعض العائلات الكبيرة والأعيان، فإن الحزب الشيوعي قد استكان للغة المزدوجة والنقاشات البيزنطية، فأصبح عبارة عن ناد للتعاون بين النخب المختلفة. أما النقابات فقد سيطرت عليها نزعات متصارعة ومتضاربة مع يأس كبير بسبب غياب قادة متحمسين من نمط «محمّد علي الحامي»، سوف لن تتخلص منها إلا مع الأربعينيات. لقد وصلت أزمة ١٩٢٩ العالمية إلى البلاد التونسية على جناحي السرعة وهي مصحوبة بيأس كبير داخل النخب الأهلية وصراع خفيّ داخل العائلة المالكة وكذلك بجفاف حلّ بالأرض فضرب الأشجار والأفكار على السواء.

* * *

إن أحمد بن علي باي الذي صعد إلى عرش محمد الحبيب بعد سبع سنوات، في شتاء ١٩٢٩، قد وصل متعباً وأعزل. فالباب العالي لم يعد له أي وجود. وإذ أصبح دعاء المساجد باسم الباي أمير البلاد، بعد أن كان يتوجه فيما مضى إلى السلطان ودار الخلافة، سلطان البرين وخاقان البحرين، فإن تونس التي كانت تتثاءب وهي لا تعرف على أي فراش ستنام قد أصبح عليها أن تتعلم لغة جديدة خالية من كل العبارات التركية.

اعتادت مراسم البيعة منذ الحماية أن يفتتحها المقيم العام بخطاب وتوسيم للباي الجديد. ثم يدخل المجلس الشرعي للمبايعة في القاعة البللورية بقصر باردو، حيث وقعت اتفاقية معاهدة الحماية. ومنها ينتقل الباي الجديد إلى القاعة الكبرى لاستقبال وفود المبايعين. وإذ لمح صحافي فرنسي مرة «أن المقيم الفرنسي يمنح الباي الولاية السياسية والمشايخ يمنحونه الولاية الدينية» وقد أورد ذلك في كلام نطق به أحد المشايخ، فإن أحمد باي[١٤] لن ينسى ذلك. سوف يبدأ عهده بتوجيه إهانة إلى أولئك المشايخ، حين استقبلهم في آخر مرحلة من حفل البيعة. إن أحمد باي الذي سيموت خلال سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٤٢)، سوف لن يترك أي أثر غير ذلك القانون الذي يخص العائلة المالكة، والذي ينص على ضرورة تدريس الأمراء. وكما عاش أحمد باي بلا أيّ سند خارجي، فقد عاش في الداخل مقطوع الصلة مع بلاده، تلك البلاد التي وإن بدت مستسلمة لليأس، فإنها كذلك قد راحت تستعد لاستجابة دغدغة أبنائها الجدد وأفكارهم الجديدة، من خلال كتابات متناثرة هنا وهناك على صفحات الجرائد، لتشكل في النهاية روافد لنهر بدأ يشق طريقه في الأرض عميقاً.

* * *

لايزال بورقيبة شديد الولع بالمرافعات أمام المحاكم وبكتابة المقالات وكذلك بالقراءة. لقد رسم هذا الذي تحول إلى الرجولة فجأة ملامح شخصيته بعناية. وإذ أجاد التعبير والتحرير باللغتين الفرنسية والعربية، فقد فاز بحسد كل الذين يترصدون صعوده. إن مقالاته لم تكن تخلو أبداً من التحليل والخيال واللعب بالعبارة واللغة المنمقة وكذلك المعلومة والحجة والمحاججة. إنه نوع من السجال الذي يجنح بقارئه حين يجعل من الفكرة قوة دافعة. فمنذ أن كان طالباً، كان متفوقاً في الفلسفة وقد أحب فيكتور هيغو كما لم يحبّه أي فرنسي وكذلك جان جاك روسو وكلود برنار. لقد كان هيغو بالنسبة لبورقيبة هو الخيال المتناهي والشاعر الموهوب والرجل الذي يموت واقفاً وباعث العوالم الشفافة. وباختصار فهو بحق شاعر الملحمة التي يحلم بورقيبة أن يكون أحد صانعيها، وسوف يظل بورقيبة أميناً لهذا الشاعر في كل منعرجات حياته، كما ستكون أول هدية لابنه الشاب مجموعة مؤلفات هيغو.

وإذ أعطاه هيغو «سموّاً» نحو الأفكار الكبرى والقضايا الكبرى وجرأة على الخيال، فقد مده روسو بتعاليم المساواة الأولى ووضعه أمام الحياة المتنوّعة والمضطربة بالأمل فيما دربه على التفكير في التنظيم السياسي. وأخيراً ها هو «كلود برنار» صاحب نظرية العقل

الإيجابي يدخله إلى عالم الحدس والملاحظة والتجربة والافتراض والاستنتاج. إن هؤلاء: فيكتور هيغو الملهم والملحمي، روسو المعلم والمؤلف والجامع، وبرنار التجربة والملاحظة والعمل هم الذين أخرجوا بورقيبة في تعريفه الأوليّ: خليط من الشفافية والدهاء، الحركة المستمرة مع الإيقاع، الحماسة المتواصلة مع الحذر، الخيال القاهر بعقل مركب وقلب مضطرم ومدرع بالصرامة والعناد ثم الطموح اللامتناهي الممزوج بسذاجة تقع بين التصوف والجنون بالعظمة. عين على ذاته وأناه وأخرى على الآخرين، أولئك الذين عليهم أن يؤمنوا مرة بالنبي. وأخرى بالزعيم!.

الهوامش:

(١) من محاضرات بورقيبة في معهد الصحافة وعلوم الأخبار، وبالاستناد إلى رواية «البشير زرق العيون» التي ينقلها حرفياً عن محمد عطية - في حديث مع المؤلف - ١٩٩٢.

(٢) إدعى بورقيبة أنه تعرّف إلى «هوشي منه» في محاضراته بمعهد الصحافة. ولكن لا يوجد ما يؤكد ذلك، إذ إن الشاب بورقيبة قد ظلّ بعيداً عن المناخات الشيوعية. ويذكر المصمودي للمؤلف، «ربما حاول بورقيبة التعرّف إلى هوشي منه لكنه لم يفلح، لذلك استمر في معاداة الفيتنام خلال الحرب ضد أميركا».

(٣) بالرغم من أن «مصالي الحاج» كان زعيماً لبلدان شمال إفريقيا قاطبة في ذلك الوقت، إلا أن بورقيبة لم يقترب البتة من أوساط حزبه كما فعل بعض رفاق بورقيبة: **المغرب بين الحربين**، «جاك بيرك» - باريس - لوساي - ١٩٦٢.

(٤) خطاب «ويلسون» الشهير الذي جاء بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية والذي نصّ على مبدأ تقرير المصير للشعوب المستعمرة.

(٥) فيليكس غاراس، **بورقيبة وميلاد أمّة** .ED Juliard 1956

(٦) هيكل جانوس **تاريخ الشرق الأوسط الحديث** ديزموند ستيوارت، منشورات النهار - بيروت.

(٧و٨) يجمع كل رفاق بورقيبة أنه بخيل في إنفاق المال من ناحية، لكنه مسرف من ناحية أخرى إذا شغف قلبه بامرأة أو بالأكل. وقد اتهم في العديد من المرات بتبذير ثروة الحزب أيام كان في القاهرة في الأربعينيات وبداية الخمسينيات. كما أن الأموال الكثيرة التي حصل عليها من الملك سعود عام ١٩٥١، قد بذر جرءاً كبيراً منها في المللذات وعلى النساء اللاتي كن يحطن به. خلافه مع الحبيب ثامر كان على المال. وكدلك جزء من خلافه مع الزعيم «صالح بن يوسف» كان بسبب المال. وحين أصبح رئيساً بات لا يعرف قيمة للمال. بل كان في آخر حياته يجهل المعايير الأساسية للمال.

(٩) روى بورقيبة ذلك بنفسه في أكثر من مناسبة. وكان يردّ مرة على من اتهمه بالعقم وأخرى على من اتهمه بالهروب من زوجته والتخلّي عن ابنه الوليد.

(١٠) لطالما كرّر بورقيبة تلك الحكاية. وقد كاد في إحدى المرات أن يفتح بطاله في حركة مسرحية للتدليل على أنه رجل مثل كل الرجال بالرغم من أن خصيته واحدة لا خصيتان..

(١١) خلال صراعه مع الجناح اليوسفي في حزب الدستور، كان هناك من كشف أن بورقيبة لم يكن يحمل معه شهادة في الحقوق وأن اسمه لا يوجد في سجلات السوربون من بين المتخرجين التونسيين من كلية الحقوق.

(١٢) عاد بورقيبة في سنوات الاستقلال ليهاجم «الحجاب» بضراوة. وقد شوهد خلال إحدى الزيارات لبعض المدن يمزق

حجاب سيدة جاءت لتسلّم عليه. كان فخوراً بجرأته على تمزيق المحرمات ومعجباً بكمال أتاتورك الذي شارك بنفسه في العشرينيات بنزع الطرابيش من فوق رؤوس الأتراك.

(١٣) كتب ذلك في رسالة وجهها إلى صديقه الدكتور محمود الماطري. ثم تجرأ فنشر ذلك في صحيفة **صوت التونسي**.

(١٤) **الوراثة على العرش الحسيني ومدى احترام نظامها** ـ محمد الصالح مزالي ـ الدار التونسية للنشر.

سنوات الحمّى:

البطل يصعد درجة درجة

«يغرس الواحد منا إصبعه في التربة فيعرف الأرض التي ينتمي إليها من الرائحة التي يشمّها، وأغرس أنا إصبعي في الوجود، فينمّ عبيره عن اللاشيء، فأين أنا؟ ومن أنا؟ وكيف جئت؟ وما هذا الشيء المسمّى بالعالم؟ وكيف وصلت إليه».

«كولن ولسون»

ما بعد اللامنتمي

بدت الحمّى السياسية التي هبطت على بورقيبة بداية من العام ١٩٢٩، شبيهة بحمى البورصة التي عادة ما تهبط على المضاربين الشبان. فالمراهنات والضغوطات والخوف والكتمان والدسائس والمشاحنات، هي جزء من محيط العمل في البورصة السياسية أو البورصة المالية. ولأن بورقيبة كان كتوماً ويملك قدرة مقاتل على الفوز بنصيبيه من كل شيء، فقد أضافت له ثقافة البورصة السياسية رصيداً جعله يحظى بالاحترام إذ سرعان ما أصبح يحسب له ألف حساب من قبل زملائه أو منافسيه في مقصورات وصالونات السياسة في مدينة تونس.

إن المضاربة بالأموال تشبه كثيراً المضاربة بالأفكار، ولذلك فإن ملامح هؤلاء العاملين في الحقل السياسي تشبه ملامح المضاربين في البورصة. إنها ملامح تجمع الفردانية وروح المنافسة والشعور الدائم بالخطر وكذلك بالتفوق والاستحواذ، وأكثر من ذلك كله فإن العمل السياسي مثل عمل البورصة كثيراً ما ينمي أعراضاً مرضية لها دلالتها أهمّها: الخوف والجشع والاستحواذ. فحتى لو أن السياسة تمجّد الأخلاق الرفيعة والفضائل في خطابها الأيديولوجي، إلا أنها تضغط على أصحابها ليدوسوا على النظم المتعارف عليها، وهي الخطوة الأولى نحو التحلل أو التخلص من الواجبات. يسمّى ذلك في القاموس السياسي: الممانعة أو الرفض أو التمرد أو الثورة، ولكن ليس ذلك إلا وجوداً خارج الإدارة والرقابة هو

محفوف بالمخاطر مما يستحضر أساليب التحيل والغطرسة والغرور إلى حد التهور والمخاتلة ودفع الخصوم نحو الخطأ والضياع.

وإذ تشبه البورصة كازينو للقمار حيث تكون النقود في الوقت نفسه هدفاً وذريعة لإشباع الميول الانتحارية للاعبين المدمنين، فإن من وجهة النظر هذه، ليست السياسة إلا فن اللعب بالمصائر والكلمات والأشياء والرموز فتكون في النهاية تحولات سلبية أو إيجابية، حقيقة أو وهمية، سطحية وعميقة.

إن بورقيبة الذي سينغمس في تلك اللعبة منذ أن ذاق طعم الشهرة من خلال كتاباته الصحافية في جريدة «صوت التونسي» سوف تستهويه كل الأساليب التي من شأنها أن تضعه فوق الأعناق: إن الشاب الذي يتحدر من عائلات المنستير المتوسطة سرعان ما سوف يتغلغل في الأوساط الدافئة للعاصمة وهو يكسب الثقة في نفسه يومياً ويتأقلم مع أجواء «المعلمين الكبار» ويستأنس داخل ذلك الجو المضطرب، حتى أصبح في فترة وجيزة رجلاً لا يخطئ أحد في قامته القصيرة!.

نحن الآن في العام ١٩٣٠. أصبح بورقيبة يمتلك مكتباً خاصاً لمباشرة مهامه كمحام بعد أن ودّعه السيد «سيبو» قائلاً له: «الآن أصبحت معروفاً لدى الكثير من الحرفاء ويمكنك العمل بمفردك». ولكن تحوله إلى كاتب وصحافي شبه محترف سيجعله أكثر انغماساً في الحياة السياسية. وإذ خيمت الخلافات والانشقاقات على الأحزاب كالحزب الدستوري والحزب الإصلاحي وفرع الحزب الاشتراكي الفرنسي وانتقلت العدوى إلى الجرائد والصحف فتحولت إلى منابر للسبّ والشتم أكثر منها لمقارعة الأفكار والحجج، وسوف يجد بورقيبة المحامي الوقت للعمل في مكتبه ثم للاشتراك في تحرير بعض الصحف الناطقة بالفرنسية أو العربية، بل سيبرز كصحافي أكثر منه كمحام رغم كونه ظل معجباً بإمكاناته في القانون وهو الذي لم يرافع أمام أية محكمة!. وفيما سرت روح جديدة في النخب المتعلمة في الداخل والقادمة من الخارج، دفعتها إلى الانخراط في العمل السياسي والصحافي والأدبي، كما يتضح ذلك من خلال كثرة الصحف الصادرة آنذاك، سرت كذلك أخبار عقب الاحتفال بمؤتمر الأفخارستي بأن العام المقبل أي ١٩٣١ سيكون عام الاحتفال بمرور نصف قرن على احتلال تونس، وهنا أجمعت النخب في الصحف والأحزاب الوطنية وجامع الزيتونة «أنه سيكون بلاشك عام النكبة».

وبمناسبة مرور نصف قرن على تلك النكبة، سيظهر اسم بورقيبة على صفحات جريدة «صوت التونسي» التي كان يشرف عليها شباب تابعون للحزب الحر الدستوري. وسوف

يكتب بورقيبة كلاماً جديداً وملوناً، وُصف تارة بالمخاتلة وأخرى بالمراوغة، لكنه سيحدث لا محالة بلبلة سواء داخل الجريدة أو في أوساط الصالونات السياسية. وتساءل السيد «خير الله» الذي كان يشرف على الجريدة عما يريد بورقيبة قوله من خلال مقالاته، فجاءه الجواب من جماعة اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري، «بأن هذا الشاب لا يزال مناصراً للحزب وهو ما دون العضوية الكاملة، وقد يكون متطرفاً، لكنه لم يكشف بعد عن أهدافه البعيدة. إنه من الجيل الذي سيتابع المسيرة فيما لو استطاع أن يلتزم أكثر»[1].

كتب بورقيبة في إحدى مقالاته ما يفيد «أن هذه الأحوال لا يمكن أن تدوم وأن أمن فرنسا لا يستقرّ إلاّ إذا وُجدت دولة تونسية حرة تتفهم وتتعاون معها، وأنه أفضل لفرنسا أن تساعد على بعث هذا الوضع الجديد من أن تمضي في تعكير الأحوال ودفعها من سيئ إلى أسوأ». وفيما نظرت السلطات الفرنسية إلى ذلك الأسلوب الجديد بعيون الريبة والخوف، فإن أوساط الحزب الدستوري قد تضايقت إلى حد الامتعاض، الأمر الذي أدهش بورقيبة وجعله يكتشف لاحقاً: «أن جماعة الحزب الحرّ الدستوري لا تريد أن تظهر مظهر المتعصب ويشعر بأن الحركة الوطنية كانت قائمة إلى ذلك الحين على أسس من الرياء والخوف، إذ لم يكن حزب الدستور مثلا ليجرؤ على مواجهة فرنسا مقتصرين على التوجه إلى الباي كلما شعروا بالضيق أو المهانة».

حين حضرت جماعة «صوت التونسي» إلى مقر المقيم العام بالمرسى، وكانوا مهددين بالسجن لمقالاتهم المثيرة، كان بورقيبة من بين الحاضرين الذين كان على رأسهم الشاذلي خير الله وصاحب الامتياز البشير ياسين. قال المقيم العام لهؤلاء الحاضرين وهو يهددهم بالمحاكمة التي قد تفتتح بعد أسبوعين، «بأن نشاطهم يثير القلق بالنسبة لفرنسا. ولأنه كان يخشى أن تسبب محاكمتهم في مظاهرات ومصادمات على منوال ما حدث في الزلاج أو أثناء قضية الترامواي، فقد ألمح إليهم بملازمة الهدوء حتى يتسنى له مساعدتهم». ردّ السيد خير الله على المقيم «بأن لا داعي للقلق أو الجزع، وأن الأمر لا يعدو أن يكون غير المطالبة بحقوق وتقويم أوضاع سيئة وكذلك بمقالات يكتبها شباب اكتسبوا فن الجدل من تعليمهم في فرنسا». انتهت المقابلة مع المقيم العام بالمصافحة وغلق الملف أو تأجيل القضية. خرج بورقيبة من تلك التجربة، وقد ظل صامتاً طوال الجلسة، بشعور مفاده: «أن فرنسا القوية يمكن أن تجنح إلى المساومة، وأن المواجهة معها يمكن أن تتخذ عدة وضعيات». وإذ عرف بورقيبة أن «صوت التونسي» قد تتوقف عن نشر بعض المقالات التي

لا تنسجم مع الحزب الدستوري، فقد راح يؤكد لصاحبها خير الله، «بأنه شخصياً يعمل في الصحيفة، ولا يعمل في صفوف الحزب»[٢].

رسم بورقيبة مسافة بينه وبين صاحب الجريدة خير الله، وإذ شعر خير الله أن بورقيبة قد أصبح يثير أعصابه بأسئلته الكثيرة ومقالاته المثيرة، فإن بورقيبة راح يرمي بسهامه تجاه خير الله فأشاع «أنه يتعاون مع المقيم العام، وأنه رجل يريد أن يصبح ثرياً على أكتاف الشباب والحركة الوطنية، وأنه لا يدخن إلا السجائر الأميركية». وشيئاً فشيئاً انسحب بورقيبة من الجريدة فانسحب شباب آخرون، ولم يمض وقت طويل حتى أصدروا جريدة أخرى عرفت تحت اسم «لاكسيون تونزين» في أواخر عام ١٩٣٢.

كان أول مقال كتبه الصحافي بورقيبة في تلك الجريدة يتعلق بمساءلة حول «الميزانية التونسية»، ولأنه كان قد درس بمعهد العلوم السياسية في قسم المالية العمومية، فقد استطاع أن يناقش في ذلك المقال عدة مسائل قد بدت للآخرين بمثابة الألغاز. فقال «إن الميزانية هي مرآة سياسة الحكومة، ومن خلال دراسة للميزانية التونسية نستنتج أن الحكومة تدفع البلاد نحو الهاوية»[٣].

* * *

ضربت أزمة ١٩٢٩ العالمية التي جاءت في أعقاب سنوات قاسية من الجفاف، قطاعات إنتاجية كثيرة في المحمية التونسية. وقد ظهر ذلك واضحاً في زعزعة القطاع الزراعي. وفي ما يتعلق بإنتاج الخمور، فهو منتوج كان معداً خصيصاً للسوق الفرنسية. ولما كانت تلك السوق لم تعد تستوعب إلا نصف المنتوج التونسي بسبب هبوط في القوة الشرائية وكذلك بسبب زحف المنتوج الجزائري والمغربي، فإن الفلاحين بما في ذلك «المعمرون الفرنسيون» قد أصبحوا عاجزين عن تسديد ديونهم لدى البنوك. لم يفهم مزارعو الكروم آليات السوق وتقلباتها بسرعة، فأكثروا من زراعة الكروم، وكانوا يسعون إلى مضاعفة إنتاجهم، بيد أنهم كانوا في الواقع يحاربون أنفسهم بأنفسهم دون أي إرشاد من الدولة. وبعد أن كانت مساحة الكروم تغطي ٢٥ ألف هكتار في العام ١٩٢٥، فقد أضحت في العام ١٩٣٣ تغطي مساحة ٥٠ ألف هكتار. ولأن ديوان الخمور لم يستطع ترشيد زراعة الكروم، فقد نتج عن ذلك انهيار مروع لأسعار الخمور حيث انحدر معدل ثمن بيع الهكتوليتر من ١٨٦ فرنكاً في العام ١٩٢٧ إلى ٥٤ فرنكاً فقط في العام ١٩٣٤، الأمر الذي دفع بسلطة الحماية إلى التشجيع على قلع أشجار الكروم ومنح تعويضات للفلاحين الذين يقومون بذلك[٤]. إن سنوات الكروم الأولى التي جلبت في البداية نوعاً من

البحبوحة الجماعية، قد خدعت حتى رجال السياسة والحركة الوطنية، إذ لم ينس بورقيبة أبداً كيف انساق رجل كالثعالبي إلى تشجيع غراسة الكروم بدل الزيتون وهو ما سوف يجعله قاصراً عن الرؤية البعيدة المدى، حسب بورقيبة، غير أن تلك السنوات ما لبثت أن أعقبتها سنوات أخرى من الكساد والعجز.

انتهت أزمة الخمور إلى إفلاس العديد من المنتجين الصغار والمتوسطين، وكان أغلبهم من الإيطاليين والمالطيين. أما أزمة الزيوت التي دفعت الدولة إلى بعث ديوان الزيت عام ١٩٣٣ لتنظيم السوق، فسرعان ما انتهت بعض الحلول إلى السيطرة على التخزين. بعد ذلك انفتح ملف أزمة القموح التي أنهكت المنتجين وجعلتهم يمتنعون عن زراعة حقولهم لمدة موسمين الأمر الذي لم يساعدهم على تسديد قروضهم. ولأن الدولة كانت أمام خيارين، الأول: يتمثل في الإفلاس التام للنظام الزراعي، والثاني هو إلحاق ذلك النظام بالسوق الفرنسية، فقد كان من الطبيعي أن تصبح الزراعة التونسية ملحقة وتابعة لفرنسا بعد أن تم فتح السوق الفرنسية أمام المنتوجات التونسية.

غير أن ذلك حتى وإن منح هذه الزراعة التجهيزات الضخمة والدعم الكبير من المصارف، فإنها ستبقى ضعيفة لأن تبعيتها قد جاءت لإنقاذ مجموعة من المعمرين فقط ثم لتضعها مباشرة تحت رحمة الأسعار الدولية والظروف السياسية والعالمية المحتدمة. إن الاستعمال المفرط للآلات والأسمدة سيؤدي إلى تدهور التربة وخفض الطاقة الإنتاجية واحتكار الأراضي بيد القادرين على شراء هذه الآلات. لقد حصل ذلك التقدم على حساب أغلبية الفلاحين التونسيين الذين لم يكونوا يتمتعون بأي نوع من الإعانات، على أن ذلك قد صاحبه ارتفاع في الولادات أدى إلى تشتيت وتبديد تلك الملكيات الأهلية، إلى حدّ أصبح فيه من النادر أن نجد عائلة تونسية تملك أكثر من ٥ هكتارات سواء في الساحل أو في الوسط أو في منطقة الواحات.

إن التحولات التي طرأت على الزراعة مرة عن طريق التدحرج في الإنتاج، وأخرى عن طريق عنف المناخ أو السلطة، هي التي هيأت للتحولات التي عرفتها حياة التونسيين الأهليين ونمط عيشهم حين أقفلت العديد من الصناعات التقليدية تحت تأثير الحاجات والرغبات الجديدة.

في العقود الثلاثة الأولى للحماية، كان ثمة قسط صغير من السكان وأغلبهم من أرستقراطية المماليك وكبار الوجهاء بالبلاط الملكي وكبار الموظفين تنتسب إلى نمط الحياة الأوروبي. وقد برز في إشاعة وتسويق ذلك النمط الجديد من الحياة مجموعة المرابين اليهود

الذين تحولوا إلى تجار وعقاريين وأصحاب مفازات تبيع البضائع الأجنبية بكل حنكة. وما هي إلا فترة قصيرة حتى بدأ جزء كبير من بورجوازية المدن المسلمة يرتدي الزي الأوروبي فتم التخلي عن الجبة والفرملة والسروال والبرنوس. وبات ارتداء السترة الإفرنجية وكأنه قدر لا مناص منه. ظلت الشاشية الحمراء، هي الرمز الوحيد الذي تتوحد تحته رؤوس السكان المسلمين، فالفقراء مع جزء كبير من الأغنياء تابعوا وضع الشاشية الحمراء فوق رؤوسهم، وهم يُمعنون في فرز أنفسهم وسط ذلك الزحام الكسموبوليتي الذي يملأ شوارع المدن التونسية. كان السكان الأهليون يتزايدون بكثرة إذ استفادوا كثيراً من أنظمة الصحة وكذلك من قانون الزواج الإسلامي الذي لم يمنع التعدد، فبلغ تعدادهم في العام ١٩٣٣ نحو مليون ونصف، وإلى جانبهم تأتي الجالية الإيطالية التي كانت تتفوق على الجالية الفرنسية من حيث التعداد بحوالى ١٥٠ ألف ساكن. وتحت الخوف من تكاثر الإيطاليين في وقت كانت فيه إيطاليا تتعاظم مع صعود الفاشية، أوضح رئيس الحكومة الفرنسي آنذاك «بول بونكور» «أن عدد الفرنسيين في تونس ليس كافياً، وأنه لا بدّ من العمل لترجيح كفة الفرنسيين وذلك لا يتم إلا بالتشجيع على التجنيس».

رصدت الحكومة الفرنسية جائزة تمثلت في زيادة الثلث لمرتب كل مسلم يريد أن يصبح فرنسياً، ثم رأت أن تدفع نحو تشجيعات أخرى فسعت إلى استصدار فتوى من كبار المشايخ والمفتي تعتبر التجنيس كأمر غير مخالف للدين ما دام المسلم الفرنسي سيظل يصلي ويصوم ويحج إلى بيت الله الحرام، وهو ما سوف يخفف على التونسيين عناء التجنيس.

ها هنا فتحت السلطات الفرنسية على نفسها باباً كان مغلقاً، فتسلل منه مهاجمون كانوا قد هيأوا أنفسهم جيداً للقفز عالياً. ومن بين أولئك المهاجمين كان هناك الحبيب بورقيبة.

* * *

سوف تُخرج قضية التجنيس الحبيب بورقيبة في صورة أخرى، هي صورة الرجل المصارع، بل ستضعه في مقدمة الفاعلين في الساحة السياسية. فبورقيبة الذي ظل متهماً في بعض الأوساط حتى ذلك الوقت بإعجابه المفرط بفرنسا سيبرز كأكبر مدافع عن الأصالة التونسية حتى بدا وكأنه وجد الفرصة ليكفر عن بعض ذنوبه أو ليرد تهمة الاستلاب عن نفسه. إذ وهو في المنستير، وقد ذهب إلى هناك لختان ابنه «جان» على الطريقة الإسلامية، سيحضر عن طريق الصدفة حادثة عنيفة بين الأهالي وممثل الإدارة الفرنسية بسبب دفن أحد المتجنسين في مقبرة إسلامية. هذه الحادثة التي أدت إلى قتل أحد المواطنين وجرح

العديد، ستجعل أهالي المنستير يتداعون بسرعة للذهاب إلى الباي وتقديم شكواهم بين يديه.

كان بورقيبة قد استحسن الفكرة. ولأنه سبق له أن ذهب إلى المقيم العام، فقد وجد في مثل تلك الزيارات لأهل الجاه والسلطة، مناسبة للبروز، الأمر الذي جعله بسرعة ينضمّ إلى الوفد المتوجه إلى «الباي» للاحتجاج على حادثة مقبرة المنستير. ولأنه لم يُكرّم أمام المقيم العام وخرج غاضباً لأن السيد «خير الله» لم يترك له فرصة الكلام، فقد أسرع بورقيبة حين انتهى لقاء الوفد مع الباي، إلى الوقوف إلى جانب «أحمد باي» ثم أشار على المصور أن يلتقط له صورة!.

وحين خرجت تلك الصورة وأصبحت تتنقل من يد إلى يد، طُرد بورقيبة من الحزب الحرّ الدستوري الذي وجه له توبيخاً لعدم التزامه بتعليمات الحزب حين أصرّ على مصاحبة الوفد إلى قصر الباي. أجاب بورقيبة اللجنة التنفيذية للحزب، «بأنه توجه إلى القصر مع وفد من المنستير بصفته من أصيلي هذه البلدة ثم بصفته كمحام، وليس كمتكلم أو ممثل عن الحزب». كان هذا الحزب قد استكان للصمت وقد أصبح في قبضة رجال متعبين أو متذمرين أو أصحاب مصالح، وحين رأوا أن شباباً جديداً قد أصبح يحرك الحزب في اتجاه آخر، ألمّ بهم غضب شديد فقرروا من أجل تشديد قبضتهم عقد مؤتمر للحزب. دام المؤتمر ثلاثة أيام (١٢ - ١٣ - ١٤ آيار/مايو من العام ١٩٣٣). وعوض أن يعمد أعضاء اللجنة التنفيذية إلى طرد الحبيب بورقيبة، فقد اقترحه الجميع كعضو جديد في اللجنة التنفيذية للحزب. اشتمّ بورقيبة الذي تعلم المخاتلة والتلون وكل أساليب الخداع، أن تلك المكافأة ليست إلاّ عقاباً سيتضح فيما بعد، كما باح بذلك لزميله «الدكتور محمود الماطري». ومع الأيام تأكد لبورقيبة أن انتخابه لعضوية اللجنة التنفيذية كان من أجل أن يوضع تحت السيطرة الكاملة للحزب. ولأنه كان يصعب عليه أن يدفن نفسه داخل العمل الجماعي أو يضع عبقريته في الثلاجة منتظراً فرصة أخرى، فقد اختار الاستقالة، طالباً من الزملاء الذين تعاضدوا معه وساندوه أن يبقوا في الحزب حتى لا يتسبب عملهم في انشقاق الحركة الوطنية واضعافها.

لم يكن بورقيبة في الحقيقة حريصاً على صحة ذلك الحزب بقدر ما كان حريصاً على التميز والسبق. ثم إنه كان يريد أن يتحرر من سلطة الحزب للبروز أكثر وفي الوقت نفسه كان يريد أن يبقى زملاؤه في الحزب ليحفظوا له طريق العودة وكذلك ليمدوه بالأخبار والمعلومات التي سيحتاج إليها لاحقاً. وهذا ما سوف يحدث حين يطلب المقيم العام

مقابلة مع أعضاء اللجنة التنفيذية عقب انتهاء مؤتمر الحزب. فأثناء المقابلة التي نقل تفاصيلها إلى بورقيبة المستقيل، زميله وصديقه «البحري قيقة»، اعتذرت اللجنة التنفيذية للمقيم العام إذا كان هناك بعض التشويش خلال انعقاد مؤتمر الحزب، ثم مسحت يديها في قميص بورقيبة الذي راح يكبر منذ ذلك اليوم دون أن يكون في إمكان الحزب تحجيمه أو تقزيمه. فهذا الذي دخل إلى عالم السياسة متأخراً جداً، بالمقارنة مع زملائه، سينهض باكراً ليبدأ مسيرة جديدة.

أضحى بورقيبة مبعداً عن الحزب. ثم وزّعت اللجنة التنفيذية تعميماً يمنع الاتصال به، لكن أصدقاءه «الطاهر صفر» و«البحري قيقة» و«محمود الماطري» سيعقدون العزم على الانسحاب من ذلك الحزب الذي رأوه ينحدر إلى الدناءات وعقد التسويات مع المقيم. وسوف يشرع هؤلاء الأربعة في تكوين حزب جديد سيعرف تحت اسم «حزب الدستور الجديد». ولم تأت سنة ١٩٣٤ على نهايتها حتى أصبح بورقيبة على قاب قوسين أو أدنى من الخطر والمجد. وكان عليه أن يواصل فيرث الأمل وآلامه.

* * *

من جدل الصحافة ومنازعاتها الحادة، سيُصنع جزء كبير من تاريخ تونس حتى ليمكن القول إن تونس الحديثة قد ولدت بين مكاتب الصحف والمطابع. فالصحف الصادرة في تونس منذ بداية القرن إلى سنوات الثلاثين لا تعدّ ولا تحصى. وقد اهتمت بالجدل السياسي مبكراً وكذلك بالحياة الثقافية والنقاشات الدينية. وبداية من العشرينيات ستكتسب تلك الصحافة الجرأة والأسلوب والقرّاء لتصبح أكثر فاعلية. ومع وصول الدفعة الأولى من المتعلمين في فرنسا، ستتأثر تلك الصحافة بالأساليب الفكرية وفنيات التحليل الأوروبية لتتخلص شيئاً فشيئاً من الأساليب التقليدية المفخمة والمزخرفة لتتجه نحو الأسلوب المباشر، المتقد والحي. وحين ظهرت صحيفة «العمل التونسي» في العام ١٩٣٢ بعد انشقاق داخل صحيفة «الصوت التونسي» سيصبح العمل الصحافي أكثر احترافاً وكذلك أكثر نضالية. فهذه الجريدة الناطقة بالفرنسية ستقود معارك جديدة وساخنة على عدة جبهات، بل ستتخصص أساساً في فضح أساليب الجماعات القديمة المسيطرة على الحركة الوطنية، وكذلك في الرد على ما يكتب في جريدة «الإرادة» التي صدرت للتوّ لتصبح الناطق الرسمي باسم الحزب الحرّ الدستوري.

كان الحبيب بورقيبة لا يترك مناسبة وطنية إلا ويسدد فيها بعض اللكمات على الحساب لكل صحافيي «الإرادة» مثل المنصف المنستيري ومحيي الدين القليبي. كان لا يزال يكتب

بالفرنسية حتى وإن شرع يهيئ نفسه لمشروع سياسي عريض. ولكنه كان حريصاً على بناء شبكة من العلاقات مع الصحافة السياسية والثقافية الأخرى الناطقة بالعربية، وإذ لم يعرف أنه كان قريباً من زين العابدين السنوسي أو محمد الحليوي ومحمد البشروش أو أبو القاسم الشابي أو العربي الكابادي، فقد ورد على لسانه أنه عرف شخصيتين فقط هما: «عبد العزيز العروي» الصحافي والراوي الشهير و«الطاهر الحداد» الكاتب والمصلح الاجتماعي[٥].

إذا كان عبد العزيز العروي الذي يتحدر من المنستير مثله، سيثير الإعجاب في بورقيبة لأسلوبه الأدبي الساحر وجرأته على النقد وإتقانه لفن الحكي والإقناع، الأمر الذي سيجعل منه أحد أسلحته الدعائية الأكثر حدة في سنوات الاستقلال، فإن الطاهر الحداد سيبعث فيه الحماسة لتحرر المرأة وتحرير نصف المجتمع من المعتقدات البالية من خلال كتابه «امرأتنا في الشريعة والمجتمع».

لقد كان هذا الزيتوني أصيل الحامة (الجنوب) مثيراً فعلاً. وقد شكل مع الشابي الزيتوني كذلك (أصيل الجنوب أيضاً) كل في ميدانه، ثورة في التفكير والأسلوب، بيد أنه إذا لم يسجل على الشابي أي نشاط أو ميل سياسي، فإن الطاهر الحداد كذلك سرعان ما ملّ من المشاحنات والمطاحنات الجوفاء لأولئك السياسيين. وإذ توفي الشابي صريع السلّ وهو لا يزال شاباً، فإن الطاهر الحداد غاب عن الحياة قبل أن يخطو نحو الكهولة.

ألقى الشاعر الشاب أبو القاسم الشابي على مدرج جمعية قدماء الصادقية محاضرته الشهيرة في ذلك الوقت حول «الخيال الشعري عند العرب»، فبدا وكأنه ألقى بقنبلة وسط تجمع من الراكدين الكسالى. فالمحاضرة التي نشرت فيما بعد في كتاب مستقل دانت الشعر العربي لجحوده وترنحه بين البكائيات والغزليات الركيكة، وكذلك لفقدانه السمو والخيال وتمسكه بالقوالب الجامدة والعبارات الجوفاء. وإذ طالب بكتابة نص جديد يعبر عن إيقاع العصر، فقد حكم بأن العرب ولفقدانهم الخيال في أدبهم وشعرهم، سوف لن يكونوا قادرين كذلك على استيعاب أو إنتاج العلم. كان ذلك الربط بين الخيال والعلم الذي أعلنه الشابي منذ بداية الثلاثينيات قد كشف عن عبقرية رجل ظلّ مسجوناً في مجتمع قديم وبال.

وإذ أجمع قسم كبير من النخبة التونسية بشقيها الفرنسي والعربي، الكلاسيكي والحديث على إدانة الشاعر الشاب، فإن الطاهر الحداد تمنّى لو أنه مات قبل أن يصدر كتابه «امرأتنا في الشريعة والمجتمع»، فقد وجد نفسه فجأة «زنديقاً وحاقداً ملحداً ومتسلقاً وصعلوكاً

وأخنث»[٦]، إلى حدّ جعله يبحث عن منفذ للهروب بجلده من مجتمع رجالي متكالب، قد أشعره بالدناءة حين أزاح عنه غطاء النفاق والازدواجية والسلطات المبهمة.

انتقد الحداد نظام تعدد الزوجات، الذي سيحرّمه بورقيبة منذ أن يصعد إلى السلطة، وكذلك عدم التساوي في الإرث بين الرجل والمرأة فاقترح إجراء إصلاحات تأخذ بعين الاعتبار التطور الذي طرأ على العقليات كما ندّد بالوضع الشاذ الذي أصبحت عليه الفتاة المسلمة منذ تاريخ ولادتها إلى تاريخ زواجها، ومثل تلك الأفكار الجريئة كانت تعتبر كفراً في أوساط المشايخ المحافظين إلى حد ذهب فيه الشيخ «محمد صالح بن مراد» إلى إصدار كتاب كرد على كتاب الحداد تحت عنوان «الحداد على امرأة الحداد»[٧].

اختلفت الصحف في تقييم كتاب الحداد المثير فتحمست له صحف مثل مجلة «العالم الأدبي» و«الزمان» وتهجمت عليه أخرى مثل «النهضة» و«مرشد الأمة»، إلا أنه لم يعرف ما كانت عليه مواقف «صوت التونسي» التي فضلت الصمت وعدم الخوض في مثل ذلك النقاش. ولأن الثلاثينيات قد تميزت بتدفق الشباب التونسي على التعليم والعمل الإداري، فإن ذلك الكتاب قد وجد صداه في أوساط تلك النخبة الجديدة التي ستبدأ الصعود نحو فضاءات أخرى أكثر رحابة.

كان واضحاً أن هناك انشقاقاً بين جيلين وعقليتين قد بدأ يطفو على السطح من خلال الصحف والمقالات والأشعار وهما: جيل قدماء الخلدونية والزيتونة وقدماء الصادقية والذي راح نجمه يتوارى، وجيل المتخرجين الجدد من الخلدونية والزيتونة والعائدين من جامعات فرنسا. بيد أنه يصعب حتى ذلك الوقت إيجاد قطيعة بينهما أو إيجاد نخبة من الثوريين الراديكاليين. إن فكرة التخلي عن الماضي جذريّاً كانت فكرة مبتذلة وليست ثورية أو ساحرة لأن الجميع منهمك في إعادة إحياء ذلك الماضي المهان من قبل سلطات الحماية، كما أن الجميع راح يؤسس منذ البداية على قاعدة التمسك بالثقافة الأهلية. وحتى الشبان العائدون من جامعات فرنسا والذين راحوا يتبارزون على الكتابة باللغة الفرنسية في الصحافة، كانوا حذرين جداً من الانزلاق إلى خطأ التنكر للماضي، بل بدوا في أحيان كثيرة أكثر حرصاً على الثقافة الإسلامية الأهلية، وهو ما جعلهم على نحو ما يبدون أقل جرأة من غيرهم الزيتونيين. إن أفكاراً مثل تحرر المرأة والدعوة إلى تساوي الإرث وكذلك كتابة النص الشعري الجديد ومناقشة الأفكار الأكثر إثارة في ذلك العصر في «جماعة تحت السور» لم تأت مع الشباب العائد من فرنسا، وإنما ولدت بالقرب من جامع الزيتونة وعلى يدي شباب متخرج أساساً من جامع الزيتونة. تلك مفارقة تدعو إلى التريث، لكن

القول بأن النخبة التونسية بشقيها القديم والجديد، لم تكن لا متحجرة مغلقة ولا هي ثورية راديكالية كثيراً ما يغري الباحثين. فتونس المنبسطة والمتصالحة مع الصحراء والبحر نادراً ما كانت تلجأ إلى التطرّف أو تنام داخل العقائد أو تمشي على الحواف.

إذن، إذا لم يكن الانشقاق الذي حدث داخل الحزب الحر الدستوري، بين تيار ثوري وآخر إصلاحي أو بين تيار الشباب وتيار الشيوخ، أو بين تيار الثقافة الفرنسية وتيار الثقافة العربية فماذا عساه أن يكون؟.

* * *

كان انسحاب بورقيبة من الحزب قد جاء بعد مشادة بينه وبين اللجنة التنفيذية التي وجهت له توبيخاً بسبب مشاركته في الوفد المنستيري الذي توجه إلى الباي لتقديم شكواه وطلب تدخله لصالح أبناء المنطقة حتى لا تدنّس مقابرهم بأموات المتجنسين. وإذ ردّ بورقيبة على اللجنة التنفيذية أنه صاحب الوفد لأنه ينتمي إلى المنطقة نفسها، فقد أوضح بجرأة ولكن بمخاتلة عما كان يفكر فيه. إن بورقيبة الساحلي لم يكن أبداً مرتاحاً لا للعمل ولا حتى للمعاشرة لأبناء عائلات تونس العاصمة. وقد شعر بوطأتهم تزداد كلما فكّر بأسلوب آخر. ومنذ صغره، كان بورقيبة الذي تعلم بتونس العاصمة يشعر بأن أبناء العائلات الكبرى في تونس كانوا يكنون الاحتقار لأبناء الساحل القادمين من مزارع الزيتون وحقول الصبّار ينهبون الأرض وينهلون العلم. وهو ما سوف يجعله لاحقاً حين أصبح رئيساً شديداً معهم ومتعجرفاً ومتحدياً لمشاعرهم وساخراً منهم.

وحين جاء انسحاب الطاهر صفر ومحمود الماطري وقيقة من الحزب، بدا واضحاً أن بورقيبة نجح في تكوين «مجموعة ساحلية» ضد «مجموعة العاصمة»، فراح يستقطب رجالاً وشباباً جدداً مركزاً على أبناء الداخل من جربة إلى زغوان ومن قصر هلال إلى المهدية في محاولة لمحاصرة التيار القديم الذي ظل سجين تونس العاصمة. وإذا غاب عن ذلك الانشقاق ما يمكن أن يسمى بالاختلاف الأيديولوجي، فقد حضر الصراع الجهوي والمناطقي ليدفع بكل الاختلافات إلى الأمام.

وها هم أبناء الساحل، أبناء البرجوازية الصغيرة التي خرجت إلى النور مع توسع غراسة الزيتون والكروم وإلحاق المنتوج الوطني بالسوق الفرنسية، يبدأون الآن زحفهم على مواقع أبناء البرجوازية الكبيرة. لقد أصبحوا متعلمين ويحملون شهادات عليا ويتكلمون لغة أهل السلطة ويعملون في الإدارات مثل المالية والبريد وديوان الزيوت وديوان الخمور، وهم على

قدر من التكاتف والانسجام متحالفين أمام الآخرين ومتنافسين فيما بينهم وكأنهم قد قرروا أن ينتقموا لساحلهم المهمش بالتحالف مع الجنوب ومستوطني العاصمة الجدد.

وبدون شك سوف يبدأ منذ تلك اللحظة تاريخ جديد لتونس، هو تاريخ عائلات الساحل، ليتوارى تدريجياً تاريخ آخر هو تاريخ عائلات تونس العاصمة الكبرى وهو يجر خلفه تاريخ العروش والقبائل في الوسط والجنوب. إن الساحل المبرقع بالأتراك والأندلسيين والبربر والقادمين من ليبيا زمن الشدة والنازحين من الشمال والجنوب، والذي ظل نسيجاً من العائلات الصغيرة والمتوسطة التي تعيش على ملكيات الزيتون والحوامض والكروم والمتأهبة باستمرار لقطف ثمارها وبيع محاصيلها في الوقت المناسب على نحو من الحيوية والمثابرة والخوف من تقلبات الأسواق والمواسم السيئة، سوف يطبع منذ ذلك التاريخ، عموم تونس بطابعه ويسحبها سحباً إلى مداره. إن مجموعة الساحل التي ستبرز تحت قيادة بورقيبة، ذات الأصول الزراعية والتي تعلمت بمدارس فرنسا، سوف تصنع المجد ليس فقط لأجدادها المهمّشين، ولكن لتونس كلها، بيد أن ذلك المجد كان لا يزال يحتاج إلى جهد كبير من رجال آخرين ليسوا من الساحل دائماً.

* * *

لم يكن بورقيبة في البداية قائد تلك المجموعة التي ستلقب «بأوباش المنستير»[8] أو «عصابة الساحل»، وإنما محمود الماطري هو الذي كان الرأس المدبر لكل ما ينطق به تقريباً أفراد تلك المجموعة. فحتى وإن برز بورقيبة كوطني متحمس وكاتب مقالات مثير ومصارع لا يتعب، فإنه لم يكن يحظى بالاحترام الذي كان يحظى به الدكتور الماطري. فهو رجل علم، مطلع على الأحداث الدولية، محلل جيد للأوضاع السياسية، صاحب رؤية نافذة، ثم هو يهيمن على كل من يحيط به بالثقة والكبرياء. كان قد عرف الشيوعيين، وناضل في صفوف حزبهم لفترة وشارك في مؤتمر للأممية الثالثة، ثم هو صاحب نزعة إنسانية ووطني كبير على قناعة كبيرة بأن الاستقلال ضرورة موضوعية لتطور آليات مجتمع أصيب بالخمول الأبدي.

إن أناقة الماطري الفكرية وترفعه عن الأساليب البالية جلبا له الاحترام والإعجاب. وذلك كله لم يكن إلا انعكاساً لشخصية شفافة وقوية ومتعالية. فبالنسبة إليه كان دائماً يضع التسامح ومعنى الشرف وروح التضامن والتسامي والعدالة فوق كل اعتبار، وهي ليست تكتيكات لئيمة وإنما هي العجينة التي تشكلت منها شخصيته. ولأنه لم يكن من ذلك الصنف الذي يندمج في الألاعيب المكشوفة والمخزية، فقد رفض أن يكون شاهد زور في

حزب لم يعد قابلاً للتطور. كما رفض أن يكون قائد مجموعة لم تفصح عن أهداف واضحة أو معانٍ مترفعة لانشقاقها. دفع محمود الماطري ببورقيبة إلى المقدمة وهو يؤمن بأن العدالة أو الشعبية وحدها لا تصنع زعيماً أو قائداً، قائلاً لبحري قيقة «إن بورقيبة رغم طيشه، فإنه يمكن أن يفعل أكثر مما سأفعله أنا».

كان بحري قيقة ابن تستور وصديق الساحليين الذي عرف بورقيبة منذ أيام الصادقية أكثر شغفاً بالحياة من بورقيبة. وقد درس هذا الراكض بسرعة نحو الملذات في فرنسا. كان صاحب نزعة قوية. ظل ينظر إلى بورقيبة لفترة على أنه صبي غير ناضج، بل كثيراً ما أغرقه في السخريات حين يفقد مزاجه المرح. ولكنه من ناحية أخرى كان إلى جانب «الطاهر» صفر قد شكل حماية لبورقيبة جعلته لا يثق في غيرهما من الزملاء أو الرفاق فيما بعد. ولأنه لعب ما يمكن أن يسمى بدور العراب لبورقيبة منذ أن كان طالباً في الصادقية، فقد دفع هو أيضاً ببورقيبة إلى المقدمة ليفسح أمامه فرصة الصعود إلى القمة. ورغم أن بورقيبة سوف لن يعترف لقيقة إلا بتلك الوقفة الكريمة قائلاً ذات مرة: «لأول مرة لعب قيقة الورقة الرابحة» في إشارة إلى وقوفه إلى جانبه زمن محنة الطرد من الحزب، إلاّ أنه ما كان ليصل إلى تلك المرتبة بدون الثنائي قيقة والطاهر صفر.

إذا كان قيقة قد تقاسم مع بورقيبة كل شيء في وقت من الأوقات، من الغرفة إلى المصروف، وأدخله إلى العوالم الخشنة تحت حمايته، فإن الطاهر صفر هو بلا شك كان بمثابة الأخ الآخر لبورقيبة الذي لم تلده أمه فطومة وإنما ولدته صدف الحياة الغنية.

كان الطاهر صفر قد احتضن بورقيبة كما لم يحتضنه صديق آخر. وقد تابع خطواته في الصادقية ثم في كارنو ثم في باريس. أحياناً كان يقسو عليه لكنه كان يحبه جيداً بمثابة أخيه الصغير. شجعه في باريس على القراءات فأهدى له العديد من الكتب ودفعه إلى نسج علاقة عاطفية مع «ماتيلد» ليتخلص من مرض فقدانه لأمه. كان يعرفه جيداً، بل كثيراً ما شجع ميوله الأدبية والمسرحية. ومنذ أن ذهب الطاهر صفر إلى المنستير في العام ١٩٢٢ ورأى بورقيبة ممثلاً على المسرح دور «خباريو ابن لوكريس»، عرف أن هذا الممثل الذي كان يكره أمه فوق المسرح بسبب فجورها، يملك طاقات كثيرة ليحب بلاده من أجل تخليها عن كل ما لحق بها من عار. في تلك المسرحية التي أصرّ فيها بورقيبة على تقبيل أمّه، «حبيبة مسيكة» فوق المسرح، قبلة غير باردة وغير بريئة ومن الشفاه مباشرة لافتتانه بتلك الممثلة والمغنية اليهودية التي أهلكت الكثير من الرجال وانتهت بهلاك نفسها حين أحرقها عشيقها اليهودي. بدا بورقيبة في عيون الطاهر صفر، أنه شاب يعرف كيف

يلتقط الفرص ويستثمرها إلى أبعد حدّ. فالذي تجرأ على أخذ قبلة حارة من شفاه «حبيبة مسيكة» في ذلك الوقت، هو نفسه الذي سيتجرأ على الظهور إلى جانب «الباي أحمد» في صورة شمسية ليصنع بها بلبلة في صفوف حزب بكامله، وهو نفسه الذي سينتهز فرصة حفل في الأمم المتحدة في ذكراها الأولى (عام ١٩٤٦) ليظهر إلى جانب نائب وزير الخارجية الأميركي في صورة أرعبت الخارجية الفرنسية وأشعلت الخلافات في الحركة الوطنية.

إن اللحظة المناسبة هي تلك التي نلتقطها بحرارة حين يكون الناس في غفلة متذمرين أو مذهولين أو مشغولين بأشياء أخرى قد تكون كبيرةً ولكنها لن تكون بلا فائدة. ذلك ما كان يعتقده بورقيبة منذ أن كان شاباً. فهو يهبط كالنسر الجائع على كل شيء يريده دون استشارة أحد. وبين الجرأة والهبلنة أو الصبيانية وعدم الحياء، كان دوماً بورقيبة يصنع نشوته وحسد الآخرين.

حين فكر بورقيبة في جولة على بلدات الساحل لتوضيح قضيته حيث أصبح متهماً بالانسلاخ والانشقاق وحتى التعاون مع سلطات المقيم العام «بيرطون»[٩] لإضعاف الحركة الوطنية، حرص على مصاحبة صديقه الطاهر صفر الذي يعتبر أحد أبناء العائلات الكبيرة بتلك المنطقة، وأكثر منه معرفة برجالات الحزب في المكنين والمنستير وقصر هلال. لم تكن فكرة تكوين حزب جديد قد طرأت على بال بورقيبة أو صفر خلال تلك الرحلة، ولكن .ورقيبة الذي شعر بأنه قد وجد الترحاب والتفهم لم يترك الفرصة تمرّ دون أن يحفر عميقاً. ففي قصر هلال، كان لا بد أن يضع الحجر الأساسي لمشروعه الخاص.

أعجب باستقبال أحمد عياد وهو دستوري قديم في قصر هلال تربى على الصراحة والوقوف إلى جانب الحق فعطف كثيراً على جميع المهمّشين ودعمهم مثل الطاهر الحداد ومحمد علي الحامي. وفي داره بقصر هلال بعد الإفطار إذ كان ذلك في شهر رمضان، جمع أحمد عياد مجموعة كبيرة من الدستوريين من قرى الساحل ثم كشف لهم عن ضيفيه «الطاهر صفر» و«الحبيب بورقيبة». أصاب الجميع الذهول ورأوا أن في ذلك فخاً لا أخلاقياً، لكن بورقيبة راح يخفف من معاناتهم قائلاً لهم: «ألا تعرفونني؟. ألستم أنتم الذين انتخبوني بالإجماع في مؤتمر الحزب الماضي عضواً في اللجنة التنفيذية». وحين صمت بورقيبة تكلم الطاهر صفر بكثير من الحذر قائلاً لهم: «إن هذا الاجتماع ليس القصد منه شتم قيادة الحزب في تونس العاصمة، وإنما هو لتوضيح ما أشيع عنّا من اتهامات باطلة. فدعونا نتناقش بكل صراحة وبكل حرية». ثم عادت الكلمة إلى بورقيبة فبدا وكأنه ينتظر

تلك اللحظة منذ أن هبط على الأرض. كان قد رتب أفكاره جيداً واختار الأسلوب الذي سيطغى به على جميع الحاضرين.

حتى تلك الليلة (٣ كانون الثاني/يناير ١٩٣٤) لم يسبق لبورقيبة أن تكلم في حشد كبير مثل الحشد الذي جمعه أحمد عياد في بيته (٦٠ شخصاً). كان يعرف فن الإلقاء من خلال ولعه بالمسرح، ولكنه لم يكن متأكداً من أن لسانه سيطيعه إذا ما وجد نفسه أمام الناس. ففي المحاكم لم يشاهد أنه رافع في أية قضية. أما في الصحافة، فقد برز ككاتب مقالات. ورغم أن صديقه صفر كان كثيراً ما يهنئه على الفصاحة التي يتحلى بها وقوة الحجة والقدرة على بسط أكثر الأفكار تعقيداً، إلا أن تجربته حتى تلك الليلة لم تخرج عن كونها مجادلات ونقاشات ساخنة بين شلة من الأصدقاء الحميمين. تكلم بورقيبة بإسهاب وبشراهة فأثار إعجاب جميع الحاضرين ونال التصفيق الحار حتى من أولئك الذين يشكون في مصداقيته. وما إن أكمل كلمته الخطابية حتى وجد نفسه على الأعناق. حتى قال صديقه بحري قيقة ضاحكاً: «لو أن تلك الليلة من ليالي رمضان صادفت ليلة القدر لقلنا أن أبواب العرش قد فتحت لهذا الشاب الذي تأخر كثيراً عن الالتحاق بصفوف الرجال».

أخذ «أوباش المنستير» حسب تعبير جماعة الدستور القديم، طريقهم للعمل والدعاية والإعداد لبعث حزب آخر جديد فيما ظل الحزب القديم ساخطاً وعاجزاً عن الحركة أو ردع أولئك الذي تمردوا عليهم. وفي خلال ثلاثة أشهر تمكن كل من الإخوان بورقيبة الحبيب ومحمد ومحمود الماطري وصفر وقيقة من استقطاب عناصر أخرى من قفصة والمطوية والمكنين بالإضافة إلى استمالة خلية من خلايا الحزب في باريس، وكان فيها عنصران ناشطان سيكون لهما دور كبير في الحركة الوطنية وهما: «صالح بن يوسف» أصيل جربة و«سليمان بن سليمان» من زغزان. وفي الثاني من آذار/ مارس من العام ١٩٣٤ سيصر بورقيبة على أن ينعقد مؤتمر استثنائي في بلدة «قصر هلال» حيث برز فيه كخطيب ساحر وماهر قبل نحو ثلاثة أشهر فقط.

في يوم المؤتمر، حضر ٤٨ عضواً من الحزب الحر الدستوري، كان وزن الساحل ثقيلًا جداً. كان هناك ١٨ عضواً من المنستير والمهدية وقصر هلال وإلى جانبهم تسعة أعضاء من تونس العاصمة وعشرون عضواً من باقي الأيالة التونسية. لم ترسل اللجنة التنفيذية أي عضو لتمثيلها في هذا المؤتمر، وإذ أرسل أحمد عياد الذي أشرف على تنظيم ذلك المؤتمر إلى قيادة الحزب في تونس للحضور، فإنه لم يفعل ذلك إلا متأخراً، لأن لا أحد من المؤتمرين كان يريد المصالحة مع تلك القيادة التي أضحت جامدة في نظرهم.

انتهى ذلك المؤتمر الذي عرف بـ«مؤتمر البعث» ببعث حزب جديد سمّي «الحزب الحر الدستوري الجديد». وقد أصر الجميع على الاحتفاظ بالاسم نفسه مع إضافة كلمة «جديد» حتى لا يصدموا لا السلطات الفرنسية ولا قواعد الحزب الأم. تبنى هذا الحزب استراتيجية جديدة ستعرف باستراتيجية التحرر الوطني. وإذ طالب ممثلو بنزرت وقفصة والمطوية بوضع مشروع للإعداد للكفاح المسلح، فإن بورقيبة وصفر سرعان ما أغلقا باب النقاش في خيارات العنف وقال الواحد تلو الآخر للحاضرين «إننا نختلف مع القيادة القديمة في الأفكار والمنهجية، ولكننا لا نحبذ العنف مثلهم»[١٠]. وإذ برز بورقيبة مرة أخرى كخطيب لا يشق له غبار، فإن صفر قد برز كرجل جهاز من الدرجة الممتازة. عمد هذا الأخير إلى إعداد تنظيم داخلي للحزب جاعلاً منه منظمة هرمية ذات تراتبية صارمة تبدأ من الخلية المحلية (الشُعبة) وصولاً الى المكتب السياسي (الديوان) مروراً باللجان الجهوية والمجالس الوطنية. هكذا ولد الحزب الجديد في ظروف أسهل مما كان يتصورها أي مغامر قبل فترة قصيرة. فأسندت رئاسته إلى الدكتور الماطري وأمانته العامة إلى الحبيب بورقيبة. وبينما كلف الطاهر صفر بنيابة الأمانة العامة، فإن محمد بورقيبة قد كلف بمالية الحزب ومعه البحري قيقة كنائب له.

ردت قيادة الحزب الأم على مؤتمر قصر هلال بمؤتمر آخر عقد في زقاق محدود بنهج «غرنوطة» بتونس العاصمة. بدا «للهلاليين»، جماعة «قصر هلال»، أن يحضروا ذلك المؤتمر لكسب المزيد من الأعضاء لحزبهم، لكن «الغرانطة» أي الحاضرين في مؤتمر شارع غرنوطة رفضوا حضورهم وطردوهم بعد اشتباكات كادت أن تؤدي إلى تدخل الجندرمة الفرنسية. وهكذا في نهج «غرنوطة» سيدرك أعضاء آخرون من الحزب/الأم، كانوا يلتزمون الحذر حتى ذلك الوقت من الهلاليين، أن الذين أصبحوا يسمّون «بالغرانطة»، قد بدأو طريقهم نحو الانحدار.

لقد بدت تونس في ذلك الوقت وهي تتلوى من شدة أوجاع المخاض في عيون البعض وكأنها بلاد لا تحتوي إلاّ على قادة بلا جند أو على جند بلا قادة. وإذا كانت اللامبالاة والصبيانية والطابع الإجرامي هي خصال الجنود الذين ليس لهم قادة، فإن الخوف والعبثية والاحتقار هي خصال القادة الذين ليس لهم جنود. من ذلك الفراغ خرج بورقيبة القائد وهو لم يكن يعرف من قبل أن قوة فرنسا التي ترهبه وترهب شعبه ربما لا تحتاج إلاّ إلى شيء من قوة البلاغة لتحطيمها. وعندها اكتشف أن مقدرته الفائقة على الخطابة قد تتفوق على مقدرته على الكتابة.

فيما مضى، كانت القوة بالنسبة إليه هي الكلمة المكتوبة، أما اليوم فإن القوة التي تسحره وتزعزع كيانه وتحمله إلى عوالم النشوة والسطوة هي الكلمة المنطوقة. ففي صحيفة «صوت التونسي» مات بورقيبة المحامي، وولد بورقيبة الكاتب. وفي قصر هلال مات بورقيبة الكاتب وولد بورقيبة الخطابي. إن زعيماً بلا لسان وبلا فصاحة، هو بلا شك قائد أركان بلا مدفعية ثقيلة.

الهوامش:

(١) «كان تقدير أحد أركان الحزب الحرّ الدستوري، وهو أحمد الصافي، أن «الشاب المحامي والكاتب الحبيب بورقيبة ينقصه الانضباط ولكنه مثابر على العمل ويتمتع بقدرات كبيرة». جاء ذلك في كتاب أحمد الطيب الفقيه: **المنستير وبطل التحرير** تونس ـ ١٩٦٢ ـ وكذلك في كتاب «بن ميلاد»: **بورقيبة في سبيل الحرية التونسية**، تونس ١٩٦٨ ـ انظر كذلك كتاب: **حياة كفاح**، مذكرات أحمد توفيق المدني» الجزائر، الشركة الوطنية للنشر، ١٩٧٦.

(٢) من روايات بورقيبة. وقد وردت في أحد أجزاء، **تاريخ الحركة الوطنية التونسية**، التي أشرف على إصدارها محمد الصياح حين كان مديراً للحزب الحاكم.

(٣) من مقالة شهيرة لبورقيبة نشرت في صحيفة **العمل التونسي**، في أواخر عام ١٩٣٢. وهي الصحيفة التي أصبحت ناطقة باسم حزب الدستور الجديد.

(٤) معلومات وإحصاءات مستندة إلى دراسة قامت بها الإقامة العامة الفرنسية في تونس. وقد تعرض إليها كتاب، **بورقيبة وميلاد أمة**، فيليكس غاراس ـ باريس ١٩٥٦. أنظر كتاب: **تاريخ تونس المعاصر**، ١٨٨١ ـ ١٩٥٦ الشركة التونسية ـ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٦.

(٥) «إيف كاتلان»-Yves Cahtelain, **La vie littéraire et intelectuelle en tunisie, 1937**, Paris, 1937-1900.

أنظر كذلك كتاب **الحركة الأدبية والفكرية في تونس** ـ محمد الفاضل بن عاشور ـ تونس ـ الدار التونسية للنشر ـ طبعة ١٩٨٣ **ومجمل تاريخ الأدب التونسي**، حسن حسني عبد الوهاب، ١٩٦٨.

(٦و٧) نال الطاهر الحداد توبيخات كثيرة لأفكاره المتنورة. وقد أرغم في النهاية على الصمت. ولم يجد من يقف إلى جانبه إلاّ قلّة من الرفاق القدماء. وكان أعنف هجوم عليه هو من الشيخ محمد صالح بن مراد الذي يقال إنه أصدر كتابه، **الحداد على امرأة الحداد** قبل قراءته لكتاب الحداد. انظر: محمد فريد غازي

Le milieu zitounien de Cahiers de tunisie, 1920-1933.

(٨) «أوباش المنستير»، هذا التعبير ورد على لسان بعض قادة الحزب الحرّ الدستوري. لكنه سرعان ما استبدل بتعبير «عصابة الساحل» أو بـ«الهلاليين» نسبة إلى قصر هلال حيث تم الانشقاق عن الحزب الدستوري القديم عام ١٩٣٤.

(٩) «بيرطون» هو المقيم العام الثاني عشر Marcel Peyrouton حكم تونس من تموز/يوليو ١٩٣٣ إلى نيسان/أبريل ١٩٣٦ .

(١٠) أحمد توفيق المدني، **الحياة كفاح**، مذكرات، الجزء الثاني ـ نشر الدار الوطنية في الجزائر، ١٩٧٦.

أنظر كذلك كتاب: Conte Arthur, **La legende de Bourguiba-Paris- ed: Media,** 1978.

بورقيبة يصنع سلالم الزعامة

«عادة ما نقول إن القائد في أيّ ميدان كان، عليه أن يكون هو نفسه، ولكن الحقيقة، ما التقيت بقائد أو زعيم إلاّ ووجدته ممثلاً. إن القائد هو الممثل الذي عليه أن يلعب أدواراً عديدة ومختلفة».

«نيكسون»

كتاب: «قادة»

حين تكون قامتك قصيرة وتخاف أن يحجب عنك الآخرون الرؤية، عليك إمّا السير في مقدمة الصف وإمّا الصعود فوق أكتاف الآخرين، لتتمكن من رؤية ما يحدث أمامك وحواليك بوضوح. ذلك ما أدركه بورقيبة على الأرجح منذ البداية. وإذ رُفع فوق الأعناق بعد أن أكمل خطابه في دار بن عياد بعد إعلان تأسيس الحزب الجديد، فقد فهم كذلك أن عليه أن يسير منذ تلك اللحظة في المقدمة.

كان بورقيبة، أقصر أعضاء الديوان السياسي المؤسس لقيادة الحزب الدستوري الجديد. كما كان أصغرهم سنّاً. فهو أصغر من أخيه محمد بعدة سنوات ومن بحري قيقة بنحو سنتين ومن محمود الماطري بثلاث سنوات وكذلك من الطاهر صفر بسنتين، ومع ذلك فقد اختير أميناً عاماً لذلك الحزب. من الصعب أن نعرف أسباب ذلك الاختيار الآن، لكن عادة ما يدفع في مثل هذه الظروف إلى المقدمة أضعف الأطراف أو أكثرهم استعداداً للمساومة، أو أبلغهم في توضيح أهدافهم أو أقلهم استفزازاً للأعداء المتربصين بهم أو أكثرهم سذاجة ويقينية. ومهما كانت آراء تلك المجموعة وتشابك نظراتهم إلى زميلهم بورقيبة، فإن بورقيبة الحثيث الخطى، الذكي، الملحاح، الماكر، المتسلط والنرجسي، ليس هو بورقيبة الذي اختير لقيادة الحزب في ذلك الوقت.

هكذا إذ نتساءل بعد أكثر من ٦٦ عاماً عن الحقائق المخفية وراء اختيار الحبيب بورقيبة لقيادة الحزب الجديد، دون أن نعثر على الجواب، فإن هيئة الأركان التابعة للحزب الدستوري القديم قد تساءلت منذ اللحظات الأولى بسخرية عبر الصحافة التابعة لها، ما

إذا كان يستطيع هذا الغرّ وهذا الصحافي المبتدئ وهذا المحامي المجهول أن يسخر وحده من القدر الذي تتواطأ أحكام الشريعة والإدارة والأجداد على تلقين قانونه العنيد؟[١].

سوف لن يجد بورقيبة في الشعب الذي ينادي بتحريره وفك الطلاسم التي تعمي عيونه أكثر ممّا وجد «حزب الوفد» في الشعب المصري الذي كان أكثر استعداداً وتنظيماً ووعياً بالوطن والاستقلال. وهذا ما سوف يجعله في أحيان كثيرة يصاب بالقنوط أو بالعصاب إذ لم يكن قد تخلص بعد من الأمراض النخبوية الشائعة التي تعتقد أن الشعوب اختارت بنفسها أقدارها البائسة، ومع ذلك سوف يعمل لإعداد المستقبل منطلقاً تقريباً من الصفر لأن الخضوع كان شبه ثقافة سائدة حتى في أكثر الأوساط حيوية. ولكن من كان يعتقد آنذاك أن ارتيابية البعض ولامبالاة البعض الآخر وأنانية الأغنياء وتدهور البؤساء واستسلامهم وغطرسة الاحتلال ستهزم في يوم من الأيام تحت قيادة ذلك الغرّ الأشقر الذي لم يكن يملك غير قوة اللفظ وبريق العينين؟؟

* * *

سار بورقيبة ورفاقه على طريق وعرة ومفخخة. لم يكونوا على ثقة بأنهم سينجحون في اجتياز تلك العقبات والأفخاخ، ولكنهم كانوا لا يخلون من طاقة جديدة غالباً ما يتحلى بها قادة اللحظات الحرجة، وهي طاقة اليأس. من جهة كان عليهم أن يردوا تهمة الانشقاق الجهوي الذي تمثل في تكتل أبناء الساحل ضد أبناء تونس العاصمة، وهو ما ينذر بحرب أهلية تأخذ فيها المناطق وضعيات مضادة، ومن ناحية ثالثة، كان عليهم أن لا يستفزوا السلطات الفرنسية حتى يشتد عودهم ويكسبوا قواعد الحزب ويهيئوا أنفسهم لعمل طويل المدى أو صدامي النزعة، كانوا يحتاجون إليه ليؤكدوا زعامتهم ونقاوتهم وعدم تعاونهم مع الاستعمار.

أصبحت جريدة «العمل» الناطقة باسم الهلاليين (الحزب الجديد) أكثر الصحف إثارة للقراء ولأعصاب المقيم العام الفرنسي. فقد ركزت هجومها على عدوين أساسيين: الأول مجموعة الغرانطة المحنطين، أولئك الزعماء النبلاء والأعيان المهذبين مستقيمي الرأي والذين يفتقرون إلى الإشعاع والنجاعة[٢]. والثاني: الإدارة الفرنسية التي أفقرت الأهالي وجعلتهم شعباً من البائسين والكسالى الذين يقعون تحت سلطات المشعوذين. وإذ رأى المقيم العام «مارسال بيرطون» في انشقاق حزب الدستور فرصة لضرب الحركة الوطنية، فإنه غاب عنه، أن هؤلاء الشباب الجدد يمثلون حالة وطنية جديدة. وهكذا بعد أن سمح بإصدار

جريدتهم «العمل» ، عضّ على أصابعه ندماً حين أصبح مضطراً إلى معالجة هذه الحالة عن طريق الصدمة.

لم تتقوقع قيادة الحزب الجديد على نفسها وراحت تعمل من أجل ألا تصبح فعلاً عبارة عن مجموعة ساحلية منقطعة عن مناطق تونس. فاتجهت نحو الجنوب (مثل جربة - مطماطة - قابس - قفصة - الجريد) لاستقطاب شباب جديد، ثم نحو الشمال، بنزرت باجة، دون أن تغفل عن العمل في ساحة باريس، سواء عن طريق استقطاب طلبة جدد أو الاتصال بأوساط جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين أو الاتصال بشخصيات فرنسية معتدلة ومناهضة للاستعمار.

وفي خطوة جريئة حطمت أعصاب المقيم العام بيرطون، دعا الحزب الجديد إلى مقاطعة البضائع الفرنسية والامتناع عن دفع الضرائب وشن الإضرابات من أجل إجبار سلطات الحماية على المفاوضات. كان بورقيبة يعتقد على نحو راسخ أن اللحظة التي تقرر فيها السلطات الفرنسية المفاوضات أو عقاب الدستوريين الجدد تكون قد اعترفت بهم كقوة وطنية. لقد أمضى الآن نحو السنة في العمل الدعائي والتنظيمي، ولكن ذلك سوف يبقى بلا معنى إذا لم يجبر السلطات الفرنسية على التحاور مع هذه القوة الجديدة.

ولأن بيرطون، ذلك الرجل الذي يوصف باستمرار بمنقذ الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا، قد اختار العقاب، فإن بورقيبة ربما عرف في ذلك الوقت أنه بدأ يكسب. لقد قال لاحقاً، «لو أن فرنسا اختارت المكافأة والحوار، فإنها كانت ستثبت علينا تهمة التعاون وتجعلنا أضحوكة[٣]».

كان العقاب عامّاً وشاملاً، فقد طاول إلى جانب سبعة من الدستوريين الجدد من بينهم بورقيبة والماطري ستة من الشيوعيين المسلمين واليهود لرفع الالتباس، وهؤلاء جميعاً نقلوا إلى المنفى، كما شمل العقاب منع جريدة «العمل» من الصدور ومنع الاجتماعات العامة، فيما أصبح حق الاعتقال يصدر مباشرة من «المقيم العام» وليس من مجلس الوزراء. كان ذلك يوم ٣ أيلول/سبتمبر ١٩٣٤، أي بعد ثلاثة أشهر فقط من تأسيس الحزب الدستوري الجديد.

وفي الخامس من أيلول/سبتمبر ١٩٣٤ عمّت منطقة المكنين (الساحل) الاضطرابات احتجاجاً على عمليات التوقيف، وتدخل الجيش الفرنسي، فسقط قتلى وجرحى. وآنذاك فقط أدرك بورقيبة أنه كسب معركة أولى ضد من يخالفونه الرأي ويتهمونه بالخيانة. ففيما

كان الجميع تقريباً يتساءلون عن أي معنى أو جدوى لتلك النكبة، كان بورقيبة يقول لرفاقه وهو يهدئ من روعهم: «الآن قد بدأنا السير على الطريق الصحيح».

كان بورقيبة ليلة الثالث من أيلول/سبتمبر ١٩٣٤، تلك الليلة التي سيصعد فيها درجة أخرى نحو الزعامة العامة في طريقه إلى منطقة الجم (الساحل) لعقد اجتماع مع أهالي البلدة. وفي المساء وهو نائم في دار جده بالمنستير في حي الطرابلسية، جاءه من يقول له: «إن سيارات الجندرمة الفرنسية تحيط بالمكان، وهي تترصد الحركة». أجاب بورقيبة وكأنه كان يبعد الخوف عن أعوانه: «نحن هنا علينا أن نمضي في أعمالنا، وهم هناك وليكن ما يكون»[٤]. دخل الحبيب إلى غرفته لينام قليلاً فيما تمدد رفيقه «الشاذلي قلاله» على الأرض في فوهة الباب وهو يقول: «لن يأخذوا بورقيبة من هنا إلا بعد أن يمروا فوق جثتي»[٥]. مضت الليلة بسلام، وقد نام الذي سيلقب بعد فترة قصيرة بالعم، نوم الزعماء. ولكن في الصباح عرف أنه سيذهب إلى المنفى، حين دخل عليه العامل الهاشمي بن خليفة[٦] الذي قال له: «إنهم سيأخذونك إلى المنفى ولذلك لا فائدة في المقاومة. والأفضل أن تخرج من تلقاء نفسك»، وإذ أجاب بورقيبة بأنه يفضل «الخروج بلا بهذلة»، تسلل البعض لاستحضار أخته عيشوشة وزوجها الحاج زويتن. كان المشهد يبعث على الاعتزاز والحزن فاختار بورقيبة الاعتزاز مانعاً أخته من النحيب والولولة طالباً منها زغرودة حين يخرج من الدار. وقبل أن تستنجد عيشوشة ببعض نساء الجيران لمساعدتها على الزغاريد، طلب منها الحبيب، الأخ الأصغر، الذي سيلقب بـ«المجاهد الأكبر» بعد سنوات من تلك الحادثة، بعض المال ليستعين به على أحوال المنفى.

امتلأت دار جد الحبيب بالرجال والنساء. وإذ استعدت النساء للزغاريد، أطلق رجال كثيرون أصواتاً قوية وصارمة وهم يقولون إنهم يفضلون الموت على الإهانة حين يأخذون ابنهم من بين أيديهم. في تلك اللحظة قال بورقيبة في نفسه ما سوف يفصح عنه لاحقاً وقد أصبح رئيساً: «إن هؤلاء لم يعوا شيئاً مما شرحته لهم مراراً وتكراراً، إذ أن حالهم بدت لي شبيهة بحال ذلك الرجل الذي ظل الشيوخ يلقنونه طوال عشرين سنة التوحيد والإيمان بالله، ثم سألهم في النهاية عن صلة القرابة التي توجد بين الله وبين الأولياء الصالحين». أعاد بورقيبة شرحة للمسألة كالتالي قائلاً: «إذا أخذوني إلى المنفى فهذا يعني أننا أصبحنا قوة يحسب لها ألف حساب. وإذا أنا خرجت طواعية، فإننا سنكسب بأننا قبلنا المهمة والمصيبة معاً. أما إذا اعتصمنا، فإنهم سيسحقوننا ويأخذونني عنوة ويكون بعد ذلك الاندثار والمصيبة فقط».

وهو خارج ليسلّم نفسه إلى الجندرمة الفرنسية انتشى بالزغاريد فتخيل نفسه وكأنه عريس ليلة زفافه، فنظر من حوله فرأى رجالاً قد هبط عليهم الوجوم ونسوة قد سيطرت عليهن الحماسة. من بين أولئك النسوة كانت هناك امرأة قد فقدت زوجها قبل حين فقط، ومع ذلك بالغت في الزغاريد، الأمر الذي أضحك بورقيبة، بعد نصف قرن من تلك الحادثة وهو يرويها وكأنها وقعت البارحة فقط(٧).

أصبح الآن بورقيبة داخل سيارة عسكرية للجندرمة، لا يعرف إلى أين سينتهي به المطاف. ولكن حين وصل إلى قابس (الجنوب) على بعد ٤٠٠ كلم من المنستير، أدرك أنه في طريقه إلى مدنين (الجنوب الشرقي، على حافة الصحراء) حيث تقع المنطقة كلها تحت السلطات العسكرية.

حين حضر الكولونيل «سيفوني» لوضعه في مكانه، بعد رحلة دامت يوماً وليلة تقريباً. وجد بورقيبة أمامه مجموعة من الرفاق كانوا قد سبقوه إلى ذلك المنفى من بينهم الماطري وأخوه محمد ويوسف الرويسي. حزن بورقيبة قليلاً لأنه لم يكن أول القادمين، وتمنى لو أنه وصل قبلهم ليفوز بالمرتبة الأولى، ولكن حين كان على السلطات الفرنسية أن تنقله إلى مكان آخر هو: «واحة قبلي»، عادت إليه بعض الفرحة، مهنئاً نفسه بنفسه: الزعماء قد يصلون متأخرين، ولكنهم يسجنون لوحدهم.

كان بورقيبة يرتدي الجبة حين خرج من دار جده ليسلم نفسه للجندرمة. وتحت الجبة تمكن من إخفاء عدة سراويل ارتداها فوق بعضها لاستعمالها عند الحاجة. ولما رأى الشيخ الرويسي ملفوفاً في «وزرة» بعد أن أخرجته الجندرمة من بيته في «دقاش» في لباس النوم، خلع بورقيبة بعض السراويل وسلمها إلى رفيقه الرويسي ليستر بها نفسه.

وإذ انتقل بورقيبة إلى «قبلي»، وصل أخوه محمد ويوسف الرويسي إلى تطاوين. أما الدكتور الماطري فكان قد حط الرحال في بنقردان، بعد أن وضع الشيخ كركر في مطماطة. وهي جميعها قرى تابعة للسلطات العسكرية بالجنوب الشرقي للبلاد التونسية. أشار عليه الضابط الفرنسي بالتزام الهدوء ومتابعة مهنته كمحام في بلدة قبلي على أن يحضر يومياً إلى مركز الجندرمة لتسجيل حضوره. أجاب بورقيبة بالقبول قائلاً: «هذا أمر يسير». ثم اتجه إلى البحث عن بيت فاكترى مخزناً جعل منه بيتاً استقبل فيه من حين إلى آخر زوجته «ماتيلد» وطفله «جون» ابن السبع سنوات. وشيئاً فشيئاً تعرّف إلى أهل البلدة وبدأ يستعيد نشاطه من خلال كتاباته للرئاسل واتصالاته بالناس، الأمر الذي أثار مخاوف السلطات الفرنسية التي رأت إبعاده إلى منطقة صحراوية تعرف بـ«برج البوف».

في تلك الأثناء، ظل رفيقا بورقيبة البحري قيقة والطاهر صفر في العاصمة طليقين. وإذ فكر المقيم العام «بيرطون» أن بإمكان هذا الثنائي الذي صنع بورقيبة، أن يجعل حزب الدستور الجديد يتجه نحو الهدوء، فإنه قد فعل العكس تماماً حيث واصل التنديد بالسلطات الفرنسية والمطالبة بإطلاق سراح الدستوريين وعودتهم من المنفى.

خطب «بيرطون» في المجلس الكبير مزهواً من أجل فرنسا، بعد أن أطيح أعداء فرنسا وبُعث بهم إلى الصحراء. كما حذر من إعادة المنفيين مهدداً بالاستقالة إذا انتهج غيره سياسة ضعف لا تليق بفرنسا، ثم أمر بإلقاء القبض على الثنائي - صفر وقيقة - ليرسل بهما إلى «برج البوف» لأنهما لم يمتثلا لطلباته. وحين وقع الاصطدام بين المتجمهرين أمام جامع الزيتونة والجندرمة الفرنسية ليلة القدر من العام ١٩٣٥، عند مرور «الباي» إثر الصلاة وهم يطالبونه بالتدخل من أجل إطلاق سراح المنفيين، ارتفع عدد المعتقلين الجدد من زعامات حزب الدستور، حيث سيقبض في تلك الليلة على رجل ألمعي سينازع بورقيبة في الزعامة لاحقاً لم يكن من الأعضاء المؤسسين للحزب الجديد، لكنه سيستحوذ عليه لفترة طويلة هو: «صالح بن يوسف».

وصلت الدفعة الثانية من الدستوريين الجدد إلى «برج البوف». وإذّاك بدا للدستوريين أنهم أصبحوا يتامى لأن جميع زعمائهم قد أخذوا طريق المنفى. فرغت الساحة للدستوريين قدماء والإصلاحيين، غير أن هؤلاء كانوا منهكين ويحتاجون بدورهم إلى زعيم مثل شيخ الثعالبي الذي لا يزال في المنفى بالخارج. وفيما تشكل ديوان سياسي ثالث مؤقت من رجال تحوم فوق رؤوسهم شبهات وخصومات، راح «بيرطون» يرسم خطوط سياسته الجديدة وسط أجواء مشحونة بالكراهية واليأس تنذر بقدوم عاصفة من ناحية الشمال، عاصفة من النوع المذل لشرف «بيرطون» وشرف بلده فرنسا.

* * *

لم يستطع المقيم العام فرنسوا مانسيرون Manceron[٨] أن يسيطر على الساحة التونسية المشاغبة وكذلك المفلسة. فهذا البلد الفقير في إنتاجه واحتياطياته لم يتمكن من مراكمة رأسمال قادر على المنافسة والاستثمار. وبدا أنه أصبح عالة على الخزينة الفرنسية خصوصاً بعد سنوات الجفاف التي صاحبت سنوات الأزمة المالية العالمية. غير أن تونس المحدودة الإمكانات قد أثبتت أنها أرض خصبة لزراعة الأفكار الوطنية المناهضة للإدارة الفرنسية. وثبت للسلطات الفرنسية أنه كلما اشتدت الأزمة المعيشية كلما كانت الأفكار أكثر

تطرفاً. ومن حلقة الأزمة ـ التطرف الجهنمية، كان على فرنسا أن تنتقل إلى حلقة التطرف ـ القمع الأكثر جهنمية.

رحل مانسيرون وقد سجل اسمه في خانة الذين لم يقدروا على مواجهة الحالة التونسية، فخلفه رجل آخر عرف ببطشه وحسمه هو «مارسال بيرطون» Peyrouthon. كان اختيار بيرطون قد أملاه الوضع المتفجر في تونس الذي أصبح محل نقاش ساخن في الحكومة الفرنسية. ولذلك فقد سحب ذلك الرجل من حكومة الجزائر وكان قد أصبح اسمه يثير الرعب والرهبة، ليوضع على رأس الحماية في تونس في صيف ١٩٣٩.

جاء بيرطون إلى تونس لمهمات عديدة منها: إنقاذ إدارة الحماية من الإفلاس وتنظيم الإدارات وفقاً للقوانين الفرنسية، لكنه سوف لن ينجز غير مهمة القمع للحركة الوطنية. انفتح في البداية على جميع التيارات وطلب من الباي أن يساعده على مهمة إنقاذ اقتصاد البلاد، كما اتجه إلى المعمرين من أجل مدّ يد المساعدة إليهم. في الوقت نفسه حصل على امتيازات خاصة للتصرف من الحكومة الفرنسية، إلا أن ذلك كله بالإضافة إلى ديناميكيته وحرصه على النزول إلى الميدان مباشرة، لم يمكنه أبداً من حل العقدة التونسية. إن قرار أكتوبر لعام ١٩٣٤ الشهير والذي أصبح مفعوله كاملاً عقب صدور ملحق القرار في تشرين الثاني/نوفمبر من السنة نفسها والخاص بوقف مؤقت للعقوبات التي سلطت على الفلاحين الذين لم يتمكنوا من تسديد ديونهم، سوف لن يزيد الخزينة الفرنسية إلا أعباء إضافية. أما الفلاحون فقد نظروا إليه على أنه بمثابة تأجيل تنفيذ للعقوبة نفسها مع فائض التأخير. تعاقبت قرارات الإصلاح وكأن الحماية قد انتقلت تحت دولة أخرى، فشملت الزراعة والقضاء والإدارة والتعليم والخزينة العامة، بيد أن ذلك زاد في تعقيد الإجراءات وتضييق الخناق حين كشف الأهالي والمعمرون على السواء، أنهم أصبحوا تحت قبضة رجل صارم يعمل بالقرارات والأوامر ولا يعمل بالحوار والمفاوضات. وفي لحظة، كاد المعمرون أنفسهم، أولئك الذين تضرروا من الجفاف والأزمة الاقتصادية وأجواء القمع أن يصبحوا أعداء لدولتهم في المتروبول، خيم على البلاد جو خانق ينذر بالانفجار.

أصبح «بيرطون» شخصاً مكروهاً حتى لدى الجاليات الأخرى غير المسلمة. وفيما ركزت الحركة الوطنية الهجوم عليه شخصياً، انتقد نواب فرنسيون تصرفاته الغليظة والعنيفة. وتحت وطأة الخوف من الفشل بات مزاجه حاداً فاندفع نحو القمع. اختار في البداية المناورة، فسعى إلى زرع الشقاق داخل حزب الدستور الجديد. حاور البعض وأرغم البعض على الاختفاء. ثم تقدم خطوة أخرى، فأرسل البعض إلى المنفى وأبقى البعض طليقاً. كان

واضحاً أنه يبحث عن مكان مناسب لدق إسفينه، ولما كان عليه أن يظهر المزيد من البطش أرسل من تبقى من قادة الحزب الجديد إلى المنفى. وهناك سوف يحاول «بيرطون» أن يُوقِع بين الرفاق بطرق ملتوية وغاية في الدهاء.

وإذا كان أغلب هؤلاء الشبان لم يعرفوا الصحراء في حياتهم، فإن منفى برج البوف الذي يبدو وكأنه يقع على فوهة بركان قد جعلهم مثل عصافير قد أعدت جيداً على نار هادئة وأصبحت جاهزة للأكل. تقدم بيرطون وبيده شوكة، لكنه وهو يقترب أدرك أن لحم العصافير لا يؤكل بالشوكة. حينها فشل في الوصول إلى هدفه. صحيح أنه نجح في الدس فيما بينهم وجعلهم يتقاتلون ويتهمون بعضهم بعضاً ثم يبدون الضعف طالبين الرحمة والغفران، ولكن كل ذلك سوف لن يفيد بيرطون في شيء لأنه بمجرد أن يعود هؤلاء من المنفى، سوف يختارون طريق الفتنة لأنهم قد باتوا على قناعة تامة أنهم أصبحوا كلهم زعماء. وعند ذلك: فإما أن يعيد بيرطون أولئك إلى قلب الصحراء أو يكون عليه أن يرحل بلا أية نتيجة.

كان ذلك ما حدث فعلاً، فالصحراء قد أعطت لأولئك الشباب قوة مضافة للمقاومة وجعلتهم يشعرون بالمسؤولية أكثر مما مضى، إذ علمتهم التحدي والمراوغة على الخصام والعناد. ولأن «بيرطون» رجل لا يقبل الهزيمة بسهولة، فقد اختار بنفسه أن يرحل عن تونس التي لا تنتج أرضها غير المتاعب[٩]. وفي آذار/مارس ١٩٣٦ انتقل بيرطون إلى المغرب ليباشر عمله هناك كمقيم عام، حيث ستستقبله المقاومة المغربية على نحو سيجعله ترف فيما بعد، «بأن التونسيين قد شوهوا سمعته أما المغاربة فقد أرغموه على القبول بما يتعلمه أبداً في حياته».

حين جاء أرموند غيون Guillon[١٠] كمقيم عام جديد على الحماية في تونس، كان مسلحاً بتوصيات لتهدئة الأوضاع. ولذلك حرص منذ البداية على أن يحصل على تصريح من الدستوريين المنفيين يجعلهم مقبولين كمحاورين في المستقبل. وحتى وإن اعتبر ذلك التصريح الذي ذكر أنهم لا يعارضون الحماية من حيث المبدأ ولكن من أجل إصلاح أوضاعها، فإن زعماء الدستور قد تحمسوا له لأنه سيدخلهم كمحاورين مع السلطات الفرنسية. ذلك التصريح الذي تنكر له أغلب المنفيين فيما بعد، وأصبح كتهمة يرمي بها كل واحد منهم الآخر لأغراض كثيرة، كان في الواقع قد صدر بالإجماع بما في ذلك بورقيبة، لكن هذا الأخير سوف لن يعترف أبداً لا بالضعف الذي وضعه على الماطري، ولا بالمناورة التي يجيد حبك مبرراتها جيداً حينما يريد ذلك.

وكما كان يفكر بيرطون قبل أن ينتقل إلى المغرب، وقع الذي لم يفكر فيه خليفته غيون. فما إن عادت كوادر الحزب من المعتقلات وأطلق سراح زعمائه، حتى امتلأت البلاد بنشاط لا مثيل له. ففي السنة التي أعقبت إطلاق سراحهم، أصبح عدد خلايا الحزب حوالى ٤٠٠ خلية، منتشرة في عموم البلاد بينما لم يبلغ عددها ما بين عامي ١٩٣٦ - ١٩٣٥ أكثر من ٤٠ خلية. لقد بدا المقيم الجديد «غيون» وكأنه قد أخذ على عاتقه تجريب أسلوب جديد مع الحركة الوطنية. ولأنه كان حذراً جداً من إطلاق عنان الدستوريين الجدد في البلاد، فقد بادر برفع كل الحواجز أمام عودة الجميع إلى الساحة بمن فيهم الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي طرد من البلاد منذ العام ١٩٢٣. ففي الثامن من تموز/يوليو عام ١٩٣٧ أي بعد ١٤ سنة، سيعود ذلك الشيخ الجليل، أبو الحركة الوطنية التونسية الأول وقد امتلأ تجربة وحكمة، إلى بلاده، ليواجه حقائق ومتغيرات جديدة، ستضعه حيناً تحت الشبهات وأحياناً، فوقها، مترفعاً عن رذائل لا يقترفها غير الذين سيصبحون ضالعين في الدسائس طوال حياتهم.

* * *

خلال الـ١٤ سنة التي قضاها في المنفى، عرف الثعالبي العالم شرقاً وغرباً، واطلع على ثقافات متعددة من باريس إلى الهند، كما أقام في بغداد والقاهرة، فعرف العديد من شخصيات النهضة العربية. وكما في تونس، ظل الثعالبي في القاهرة أو في بغداد رجلاً يفسح له الطريق عندما يخرج من داره في محلة «البقجة» في بغداد القديمة، وصوتاً يسمع بإجلال في حلقات المثقفين في القاهرة حين يبدأ في الكلام. كان طربوشه الأحمر، القاني الذي وضع على رأس ضخم قد أصبح علامة مميزة لذلك العالم التونسي وهو يتجول في أقطار الشرق. حين يمرّ تتحول الأنظار رأساً إلى وجهه العريض الواسع بقسماته المنسجمة بعينين وديعتين يتطاير منها كهرباء الذكاء، كان يجيب بوداعة على تحية المعجبين الذين قاموا له من المقاهي المنتشرة بالساحة الكبيرة في محلة «البقجة» وقد أحضروا له عربة توصله إلى الأعظمية حيث كان أستاذاً لأول جامعة في بغداد. وحين يصعد العربة، يشغل الثعالبي ما يوازي ثلاثة مقاعد. وتسير به العربة على مهل فيأخذ الناس في الحديث عن ضخامة جسمه ومتانة تركيبه وكيف أن العربة هبطت عندما صعد إليها الثعالبي[١١].

تلك اللوحة الصغيرة عن حياة الزعيم الثعالبي أيام كان مدرساً للفلسفة الإسلامية في جامعة بغداد (١٩٢٦) إلى العام ١٩٢٨، تكشف لنا جانباً من تلك الشخصية التي

زرعت أول الأفكار الوطنية في تونس. فهو في الوقت نفسه عالم وأديب وخطيب وسياسي وصحافي ورحالة ومؤلف وعضو ناشط في المؤتمر الإسلامي بالقدس.

حين تبلغ الثعالبي برفع الحظر عن عودته إلى أرض الوطن في العام ١٩٣٧، كان يعيش في القاهرة، ولشد ما تأثر بذلك الخبر مدركاً أن ساعة العودة قد دقت. وأخبر أحد أصدقائه المصريين (محمد صبيح) بأنه شعر بالغبطة ولكن بنوع من الذنب، إذ لم يخف أبداً أنه ظلم ابنه الصغير «حميد» الذي تركه طفلاً وكذلك زوجته التي لم يعش معها سوى خمس سنوات من أصل ٢٣ سنة زواج. «لقد غادرتها، يقول الثعالبي لصديقه صبيح، رجلاً في مطلع قوته وها أنا أعود إليها وقد اشتعل رأسي شيباً ومع هذا فلن أكون لها وحدها ولكني سأكون كعهدي القديم لبلادي وعقيدتي»[١٢].

وصل الثعالبي من مصر إلى مرسيليا في ٥ حزيران/يونيو ١٩٣٧ على باخرة تسمى محمد علي، رافضاً طائرة أرسلها له المقيم العام في تونس. ومن مرسيليا أبحر الثعالبي ليصل بعد يوم إلى شواطئ تونس. كان استقباله قد فاق كل التوقعات، فالسبعون ألفاً من الأهالي الذين وقفوا على رصيف الميناء لتحية زعيمهم كانوا جزءاً قليلاً من جماهير ذلك الزعيم.

كان أولئك الذين هبوا لاستقبال الزعيم الكبير وقد أحرقهم وهج شمس حزيران وخنقهم الزحام ينتمون إلى أفكار سياسية متباينة، ولكنهم كانوا قادرين على الترفع عن خلافاتهم وهم يتقدمون لتحية رجل كان الجميع ينتظر وصوله للحسم في التناحرات التي آلت إليها الحركة الوطنية.

وسوف تكتب صحيفة «النهضة» ما معناه: في الوقت الذي يتمخض فيه شمال إفريقيا عن حركات سياسية واجتماعية كبرى، وتلتوي فيها أمامه الطرق وينتظر فيه الشعب على أحر من الجمر رجلاً يعرف كيف ينقذه من الأخطار المحدقة وينقذه من أسلاك السياسة الشائكة، وصل من الشرق الزعيم الكبير الثعالبي.

كان الثعالبي حين بدأ جولاته داخل البلاد من أجل المصالحة بين الوطنيين، يود أن يوحد الصفوف من أجل معركة حاسمة، فلقد رأى في عودته من المنفى الخارجي التي صاحبت عودة المناضلين الآخرين من المنفى الداخلي لحظة ضعف تمر بها إدارة الحماية يجب استغلالها إلى أبعد حد، غير أنه سوف لن يجد أمامه إلاّ الدسائس والمؤامرات والاتهامات.

راجت شائعات أن الثعالبي قد عاد إلى تونس الآن لضرب زعامة الدستوريين الجدد. وقد عمل بورقيبة بأقصى جهده لكي تصبح تلك الشائعة ذات مفعول، ثم تبعتها شائعة أخرى

بأن الثعالبي تعاون مع الاستعمار في مصر ثم ها هو يعود ليبيع تونس. وإذ كان الثعالبي أحياناً يضحك من تلك المهازل، فقد اشتد به اليأس حين تعرض لمحاولة اغتيال في بلدة «ماطر» قيل إنها كانت من تدبير الديوان السياسي لحزب الدستور الجديد. بعد ذلك سيختار الثعالبي وقد رأى أنه لا جدوى من مخاطبة رجال تهزهم حمى الزعامة والنرجسية، العزلة لتدوين مذكراته. وطوال سنيّ الحرب العالمية الثانية، سيظل الثعالبي متأملا ومحدقاً في المستقبل إلى أن يموت تحت وطأة المرض والعزلة قبل أن تنتهي الحرب بسنة واحدة. ليس الثعالبي وحده الذي انتهى إلى اليأس والعزلة. فقبله كان علي باش حانبه قد هرب من اليأس والطيش.

* * *

مثلما تعرض الثعالبي إلى اتهامات التعاون مع السلطات الفرنسية التي قيل إنها سمحت له بالعودة للقضاء على حركة الدستور الجديد، كانت جماعة «برج البوف»، قد تعرضت كذلك إلى تهمة التعاون مع دولة أجنبية منافسة لفرنسا هي: إيطاليا. وقد يكون زعماء الدستور الجديد قد هزمتهم بعض الحماسة للحركة الفاشية الإيطالية وأبدى بعضهم إعجابهم بـ«الدوتشي موسوليني» وهو يملي شروطه على فرنسا من أجل تحسين وضعية الجالية الإيطالية في تونس، ولكن لا أحد من أولئك كان على علاقة مادية بالسفارة الإيطالية كما زعمت بعض الصحف الفرنسية.

كان «برج البوف» عبارة عن قلعة ترتفع عن الأرض ٤٠٠ متر في قلب الصحراء. تلك القلعة امتلأت بالعديد من مناضلي الدستور، وأحس بورقيبة أنه لم يعد وحده هناك بحيث أصبح بلا امتياز أمام رفاقه. لكنه سيظل يتصيد جميع الفرص ليعيد لنفسه بعض الامتيازات. فخلال زيارة للجنرال «آزان» لتلك المنطقة الصحراوية اختلط فيها الترهيب بالترغيب، حين قال لهم الجنرال: «أنتم مشوشون وسأحول بينكم وبين اقتراف الآثام، ولكني سأحرص على أن تكون معاملتكم على الوجه المرضي. بوسعكم مكاتبتي إن أردتم ذلك فأنا على استعداد لتلقي رسائلكم»، أحسّ بورقيبة أن فرصة قد لاحت أمامه.

حاول بورقيبة أن يخفف من خطاب الجنرال «آزان» العنيف وهو يخفي خوفه من تهمة التعاون مع الإيطاليين، لكنه شعر أنه لا بد من مبادرة نزع فتيل الغضب لدى ذلك الجنرال الهائج.

سيدّعي بورقيبة بعد حوالى أربعين سنة[١٣] «أنه لم يشارك أبداً في كتابة تلك الرسالة

الشهيرة التي وجهت إلى المقيم العام، والتي اعتبرت بمثابة إعلان توبة وطلب للغفران من السلطة الفرنسية والباي، وأنه كان من رأيه أن يظل في الصحراء إلى أن يتوفاه الأجل، وأن الماطري وصالح بن يوسف هما اللذان بادرا إلى كتابة تلك الرسالة»، إلاّ أن اسم بورقيبة كان موجوداً على قائمة الرسالة الشهيرة في المرتبة الحادية عشرة من أصل ١٦ اسماً. دار نقاش طويل تخلله الغضب والصياح والشتم، وبدا بورقيبة قبل أن يوقع على الرسالة وكأنه لا يريد أن يفعل ذلك حتى لا يفقد شعبيته، ولكن حين حرك الماطري نرجسيته بقوله: «إذا بقينا هنا، فإن الحزب سيموت هناك وكذلك شعبيتك» سارع بورقيبة إلى وضع اسمه على القائمة.

كان بورقيبة في الحقيقة يريد العودة إلى تونس العاصمة والحرية. ولكن حياته في «برج البوف» لم تكن كلها عذاباً كما ظل يصورها لشعبه طوال نصف قرن وهو يضغط على الأرواح وأبواب السجون!. كان قد استطاع أن يربط علاقات جيدة بالسكان ثم كان محل ترضية من رفاقه وبالخصوص من أخيه محمد الذي يكبره سنّاً، ثم كان يتلقى باستمرار الرسائل والهدايا من زوجته ماتيلد. وباعتبار زوجته «فرنسية»، فقد كانت تجد باستمرار الفرصة والوسيلة لكي تغدق عليه الكثير من الهدايا. كان يقضي معظم وقته في لعب الورق وفي الأحاديث إلى السكان، وكذلك في بعض القراءات وكتابة الرسائل. أما حين يكون مزاجه رائقاً، يتولى طهي الطعام لرفاقه بعد أن يكون دبر مكيدة بيضاء لإبعاد «حسونة القروي» الذي كان يهتم بـ«الطنجرة الدستورية» على حد تعبير بورقيبة نفسه.

أعطت تلك التجربة لبورقيبة الدهاء لكنها لم تعلّمه إخفاء مشاعره عند الغضب. ثم هي أمدته بالشعور بالتفوق، لكنها لم تصقل فيه الفضائل التي تمكنه من الحفاظ على التفوق. وإذ هي كشفت له معادن الرجال، فقد عرف أن معدنه من الحجر اللّماع. فهو متلون وصلب ويوحي بالطراوة، وقد يغري بأنه من النوع الغالي جداً أو أنه من فصيلة الأحجار الكريمة، لكنه ليس أبداً من الصلصال أو من فئة الحجر الرخو والطيني. كان لا يتعب من الكلام مثلما لا يتعب من موجات الغضب الهستيرية، فهو بسبب تافه أو فظيع وبلا سبب يتحول إلى رجل كهربائي يرتعش من شدة الغضب في مشهد يتكرر معه يومياً مرتين على الأقل، ولكنه بعد برهة من الصياح والهياج وتمزيق الثياب وبعثرة الأشياء يعود إلى هدوئه ومزاجه. ومن خلال تلك الموجات الغاضبة التي تجتاح بورقيبة، لاحظ صديقه الماطري، أن بورقيبة حين يغضب لا يمزق إلاّ الثياب التي لم تعد مهمّة، ولا يكسّر إلاّ الأشياء الصغيرة والتافهة. فهو مثلاً لم يمزق أي كتاب ولم يكسر أي صحن، الأمر الذي يوضح أن هذا

الرجل مقدام جداً لكنه لا يتقدم إلا بمقدار. يخاف من العزلة لكنه يحب التفرد والمبادرة، لا تهمه التفاصيل، لكن الأشياء الكبرى هي بفكره في النهاية تفاصيل. وأخيراً، فإن رجلًا عصبياً وغضوباً على ذلك النحو، ويحسب بدقة لا بدّ أن يكون على درجة من الذكاء والدهاء وكذلك الحساسية تجعله دائماً متفوقاً برتبة أو برتبتين على رفاقه.

غادر الجميع «برج البوف». وتم توزيع تلك المجموعة على عدة مدن. كان بورقيبة قد أرسل إلى جربة مع صالح بن يوسف وبدا أن هذا الثنائي هو الذي سيسيطر من الآن فصاعداً على فضاء الحركة الوطنية. الأول من المنستير (الساحل) والثاني من جربة (الجنوب). لم يكن بن يوسف عضواً في الديوان السياسي الأول للحزب، لكنه أصبح عضواً في الديوان الثاني بعد أن عاد من باريس. كان يضاهي بورقيبة في الثقافة والجرأة والمناورة. وإذ رآه بورقيبة على ذلك النحو، فقد اقترب منه جيداً ليكسب ثقته ومساندته. وحين عاد الجميع إلى تونس العاصمة ظل ذلك الثنائي على اتصال وثيق ليشكلا ما يمكن أن يسمّى بالنواة الصلبة في «الحزب الدستوري الجديد» بعد أن بدا الضعف على الرفاق الآخرين وخاصة البحري قيقة والطاهر صفر. كان فيروس الزعامة قد تمكن جيداً من بورقيبة حين أصبح لا يقبل بغير لقب الزعيم حتى أنه إذا ما أسند ذلك اللقب لغيره تملكه الغضب والحقد قائلاً: «أنا الزعيم الوحيد، لأن الزعماء لا يوجدون بالدزينة». وإذ راح ينهب الأرض لتكريس تلك الزعامة، فقد استغل نفيه إلى «برج البوف» إلى أقصى حدّ. بدا وكأنه «نبي» قد عاد من الديار الآخرة.وتمنى لو أنه كان لوحده في «برج البوف». أطلق لحيته حتى أصبح يشبه الفرسان الرومنطيقيين. وتأبط حزمة من الجرائد والملفات لا تفارقه إلاّ عند النوم، وقلّل من الجلوس في المقاهي ثم اعتنى بمظهره حين التزم ارتداء البدلة الإفرنجية مع الطربوش الأحمر. ولما بدت عليه النحافة ازدادت قامته طولاً بعض السنتيمترات. أصبح يشار له بالأصابع وهو مارّ بالمدينة العتيقة. وإذا ما تقدّم أحد التجار وقدم له هدية، يشكره جداً سائلاً إياه عن أحوال التجارة ثم يسلّمه عنوانه ويمضي. إن بورقيبة الذي لطالما أعجب بالاشتراكيين الفرنسيين وهو لا يزال طالباً لم يصب بخيبة حين وصل هؤلاء الاشتراكيون إلى الحكم. فلولا وصول الجبهة الشعبية إلى الحكم في باريس، ربما ما كان لبورقيبة أن يستعيد حريته. إن جون جوريس الذي ألهب حماسته وهو صغير قد عاد في صورة ليون بلوم ليطلق سراحه وهو يتهيأ ليصبح رجلاً كبيراً. بل الرجل الأكبر في بلاده!.

* * *

فتح عهد الجبهة الشعبية آفاقاً عريضة أمام الدستوريين وغيرهم من المناضلين الآخرين. وفكر

كل من صالح بن يوسف وبورقيبة اللذين يعرفان الساحة الفرنسية جيداً وتياراتها السياسية في الاتصال بأصدقائهم في باريس. وبعد اجتماع بين جماعة برج البوف، اختير بورقيبة لتلك المهمة. وصل بورقيبة إلى باريس وهو يريد أن يحقق أي شيء من شأنه أن يدعم زعامته، فوجد في استقباله كلاً من «الهادي نويرة» و«الحبيب ثامر»، وهما المسؤولان عن ساحة باريس، بعد أن عاد كل من بن يوسف وسليمان بن سليمان إلى أرض الوطن. كان أول اتصال قد تم مع صحافي جريدة «لافلاش» (السهم) التقدمية والمناهضة للاستعمار آنذاك. وبمساعدة مثقف ومؤرخ على اطلاع كبير بتاريخ شمال إفريقيا، هو «شارل أندري جوليان» الذي سترطه صداقة متينة ببورقيبة لا تنتهي، وها هو زعيم برج البوف، وهو مزهو أمام رفاقه الصغار بسنوات المنفى والنضال قد استطاع أن يلتقي بنائب سكرتير الدولة للشؤون الخارجية «بيار فينوا» (Veénoit) في السادس من تموز/يوليو عام ١٩٣٦.

بالنسبة إلى بورقيبة سيكون ذلك اللقاء بمثابة الاختراق العظيم الذي حققه من وراء المقيم العام، والذي لن ينساه أبداً كما لن ينسى فضله الذي يعود إلى المؤرخ «أندري جوليان». ولأنه كان اختراقاً سياسياً كبيراً، فهو قد دفع بورقيبة على سلم الزعامة درجتين أمام رفاقه. وبالنسبة إلى سلطات الحماية فإن بورقيبة ما كان ليلتقي بأي مسؤول فرنسي لو لم تذهب الموافقة من تونس. أما بالنسبة لبعض منافسي بورقيبة، فإن الاختراق الذي تحدث عليه بورقيبة قد وقع فعلا ولكن في الاتجاه المعاكس، أي بمعنى أن فرنسا هي التي اخترقت حزب الدستور حين حققت كسب أهم عناصره إلى جانبها.

بالرغم من أن فرنسيي تونس لم يكونوا متحمسين لاستقبال بورقيبة في «الكي دورسيه» في باريس، إلا أنهم لم يعارضوا ذلك أبداً. أما السيد «فينوا» الذي وجد في بورقيبة شخصاً يمكن الإنصات إليه جيداً بما أنه غير معاد للوجود الفرنسي في تونس ومستعد للتعاون والإصلاح ويتكلم اللغة الفرنسية بشكل يستحق عليه الشكر، فقد التقى بورقيبة مرة أخرى في السرية ليتحدث معه في كثير من المواضيع، طالباً منه في آخر اللقاء أن يكتب له تقريراً عن الوضعية السياسية في المحمية الفرنسية.

عاد بورقيبة من باريس في أيلول/سبتمبر ١٩٣٦، وقد حقق خطوة في الاتجاه الصحيح، وبعد أن عاد منافسوه يتهمونه بأن حزبه الجديد لا يؤدي إلا إلى المنافي، أصبحوا بعد رحلته إلى باريس يتهمونه بأنه صناعة فرنسية مسجّلة، غير أنه كان صاحب حدس متطور جداً جعله يتحسس بأن أيام الزهو غير طويلة، وأن الطريق مازالت طويلة، لأن حكم الجبهة

الشعبية لا يزال سجين أطروحات الماضي ورجال الماضي حتى وإن أتى برجال جدد إلى السلطة.

وصل بورقيبة إلى تونس قوياً ومنهكاً في الوقت نفسه إذ أن سوء الفهم سرعان ما طغى على إنجازه في باريس. ولطالما تكلم في كل مكان ليقنع رفاقه بتلك الخطوة إلى حد فقد فيه صوته وأصبح مبحوحاً، ففضل الانسحاب مؤقتاً لفترة نقاهة أمضاها بجبل «عين دراهم» ريثما تهدأ الخواطر ويعود إليه صوته، ذلك السلاح الذي يمكنه من فتك جميع أعدائه. إن بورقيبة الذي لا تعوزه المبادرات في كل حين، قد أصبح على قناعة، أن الإجماع يستحيل بلوغه ولذلك، فإن ما كان يهمه دائماً هو أن يتحرك باستمرار حتى لا يعتقد الآخرون أنه أصبح من الموتى. عاد بورقيبة من «عين دراهم» بفكرة إعادة إصداره جريدة «العمل» بشكل أسبوعي وقال لرفاقه «إن حزباً بلا جريدة مثل رجل أبكم».. وإذ عاد إليه الحنين لرائحة الحبر والمطابع، فلأنه يريد أن ينهمك في المعركة بقلمه ولسانه معاً. إن المتكلم الجيد غالباً ما لا يكون كاتباً جيداً، ولكن بورقيبة استطاع أن يجمع الموهبتين.

* * *

دار الحوار التالي بين بورقيبة ورفيقه الدكتور الماطري عبر الهاتف، وكان عقب نشر صحيفة «العمل» (ناطقة بالفرنسية) لافتتاحية بقلم بورقيبة تحت عنوان «عدم مسؤولية أم لا مبالاة» وهو مقال مليء بالنقد للسلطات الفرنسية[١٤]:

قال الماطري وهو غاضب من ذلك المقال: «ما هذا المقال الذي نشر اليوم في الصحيفة؟». فأجاب بورقيبة: «وما الذي لم يعجبك فيه؟» فرد الماطري: «أنت تعرف يا سي الحبيب أنني لا أتحمل السجن». ولم يتركه بورقيبة يواصل حديثه فقال: «إن هذا الفعل لا يوصل إلى السجن». وبعد أخذ ورد قال الماطري بحزم: «أحذرك وأؤكد لك أن لا قدرة لي على تحمل السجن والأجدر بنا أن لا نعود إلى فضائح برج البوف، فدعوني أترككم من الآن وليكن الله في عونكم». حينها رد عليه بورقيبة: «لتفعل ما بدا لك».

كتب الطاهر صفر استقالة الماطري التي سيوقعها. وعند قراءته لنص الاستقالة وجد أن الاستقالة بسبب المرض، وهي مؤقتة. وسوف يعود الماطري إلى أعماله للإشراف على الديوان الاقتصادي الذي هو بصدد الإعداد. وسأل بورقيبة عند التوقيع عن سبب ذلك، فقال له: «لا نريد أن نعطي فرصة للأعداء، وكل ذلك من أجل ألا تسبب استقالتك في الأقاويل».

لم يكن الماطري فقط هو الذي شعر بالتعب، «فبحري قيقة» نفسه قد طالب بالانسحاب في العديد من المرات. أما محمد بورقيبة، الأخ الأكبر للحبيب، فقد أصبح لا يهتم بطموحات أخيه الأصغر التي لا تقود إلا إلى الكوارث. وحين تمرّد بلقاسم القناوي المسؤول الأول عن المنظمة النقابية والذي كان نزيل برج البوف قائلاً لبورقيبة: «نحن نقابيون ولا شأن لنا بالسياسة»، بدا أن بورقيبة قد بدأ يفقد رجاله ورفاقه الواحد تلو الآخر.

لكن بورقيبة الذي يخسر هنا، كان يكسب هناك. لقد قام بعدة جولات في داخل الأيالة التونسية امتدت من الوطن القبلي إلى الجنوب، خطب خلالها طويلاً إلى درجة أصيب فيها بالتهاب حاد في الحنجرة ألزمه الفراش إلى حين سيقبض عليه مرة أخرى ويودع السجن.

ففي ٨ نيسان/أبريل ١٩٣٨، وبعد أن ألقت السلطات الفرنسية القبض على العديد من المناضلين الدستوريين من بينهم «يوسف الرويسي»، ستدعو قيادة الحزب إلى تنظيم مظاهرة شعبية تتجه نحو إقامة المقيم العام لتقديم عريضة احتجاج على سياسته القمعية. مرت تلك المظاهرة تحت عيون الجيش والجندرمة، كما خطب بعض المتظاهرين منددين بسياسة القمع ونكران فرنسا، متوعدين المقيم العام بمظاهرة أخرى ستكون أكثر صخباً ستنظم في اليوم التالي.

وفي الغد لم تنظم مظاهرة أخرى لأن مذبحة قد وقعت. فحين ألقى الجيش الفرنسي القبض على الشاب «علي بلهوان» لأنه تحدى المقيم العام ووعده بتنظيم مظاهرة أخرى، هجم طلبة الصادقية والزيتونة على الشوارع، فاندفع معهم سكان كثيرون خرجوا من أحياء القصبة، وانطلقوا نحو قصر العدالة وهناك كان الرصاص في انتظارهم (قدر عدد القتلى بـ ٢٠٠)[١٥].

كان بورقيبة في ذلك الوقت جالساً في مكتبه وإلى جانبه كل من علالة العويتي الذي سيصبح مدير مكتبه الخاص طوال سنوات حكمه، والباهي الأدغم الذي سيصبح رئيس وزرائه طوال الستينيات. وإذ بلغتهم أخبار المذبحة، قفز الباهي الأدغم هارباً إلى السطح. أما «علالة العويتي» فظل إلى جانب بورقيبة[١٦]. كان هذا الأخير في ذلك الوقت قد بدأ يدب فيه الوهن من كثرة الاتهامات والأقاويل والاستقالات ولكنه كان يبحث عن فرصة لاستعادة وهجه وحماسته لعمل ذي جدوى. ولربما سيحزن لأنه لم يشارك في مظاهرة ٨ نيسان/أبريل ١٩٨٨، ولكنه انشرح كثيراً لأنه لم يكن هذه المرة وراء هذه المذبحة، لإبعاد تهم التطرف والتطير عنه. ولأن بورقيبة رجل تحول إلى حيوان سياسي مفترس، فقد أدرك

أن المعركة لم تنته مع اقتراف تلك المجزرة، ولكنها بدأت في الوقت الذي أصبحت فيه الدماء شاهداً على غطرسة فرنسا وعارها. وفي الحين أشار بعدم دفن القتلى ونقلهم إلى الشوارع والتجول بجثثهم حتى يراها القناصل وممثلو الدول الأجنبية، ثم ذهب ليكتب مقالاً تحت عنوان «القطيعة». بعد ذلك بقليل أعلنت حالة الحصار على البلاد.

في صباح اليوم التالي لتلك المجزرة، دخل أعوان الجندرمة بيت بورقيبة فأخرجوه مكبلاً بالأغلال. نقل في البداية إلى السجن المدني. وفي المساء دخل إلى زنزانته في السجن العسكري رقم ٣٧. وهناك سيستلقي على الأرض الرطبة ملتحفاً ببرنسه، وهو يوبخ ذاته ورفاقه بصوت خافت قائلاً: «إنها مصيبة، كيف يموت ٢٠٠ مواطن تونسي بالرصاص ولا يموت فرنسي واحد؟».

لقد عاد بورقيبة إلى السجن مرة أخرى تاركاً الحزب في مهب الرياح والرفاق في خصام، وهو لا يعرف ما إذا كان سيخرج سالماً أم أنه سيذهب إلى المقصلة. لقد أعاد الجنرال هانوت (Hanotte) والقائد الأعلى للقوات الفرنسية المتمركزة في تونس الهدوء وسيطر على الوضع من بنزرت إلى قفصة. وبعد حوالى نصف سنة من تلك المعركة الدموية، سيأتي مقيم عام جديد وهو «إيريك لابون» (Labonne)[١٧] السفير السابق في برشلونة ليخلف المقيم العام «غيون». وحين سيشرع المقيم الجديد في الاتصال بالباي ورجالات الحكم ورموزه المعمّرين الكبار، ستكون فرنسا/الأم قد بدأت تسير نحو الحرب وهي لا تدري أن أعداءها الكبار يوجدون في الشمال ولا يوجدون في الجنوب. فبعد سنة فقط سيدق «الفوهر هتلر» عظام السياسيين الفرنسيين في الأرض ويجعلهم أقزاماً صغاراً في عيون بلادهم ومحمياتهم، حين يخلع أبواب باريس ويدخل إليها ليقبض على جميع أرواحها الطيبة والشريرة على السواء.

الهوامش:

(١) جاء ذلك في مقال لصحيفة «الصواب» غير موقع. ويمكن أن يكون بقلم محيي الدين القليبي - عضو اللجنة التنفيذية للحزب القديم.

أحمد توفيق المدني، مذكرات - الحياة كفاح، الدار الوطنية للنشر الجزائر، ١٩٧٦.

(٢) محمد الهادي الشريف، **الحركة الوطنية التونسية** - كفاح شعب.

(٣) محاضرات بورقيبة في معهد الصحافة وعلوم الأخبار، عام ١٩٧٣

(٤) خطاب بورقيبة، **تاريخ الحركة الوطنية**، إشراف محمد الصياح.

(٥و٦)**تاريخ الحركة الوطنية**، إشراف محمد الصياح.

(٧) **حياتي - آرائي وكفاحي**، محاضرات للرئيس بورقيبة في معهد الصحافة لعام ١٩٧٣.

(٨) فرانسوا مانسيرون Francois Manceron

هو المقيم العام الفرنسي الحادي عشر الذي تولى المهمة من ١٩٢٩ إلى تموز/يوليو ١٩٣٣

(٩) ورد ذلك على لسان المقيم العام «بيرطون» في المغرب - أنظر كتاب

Histoire de la tunisie depuis les origines jusqu'à nos jours, Paris-Pellegrin Arthur.

(١٠) «أرماند غيون» Armand Guillon هو المقيم العام الفرنسي الثالث عشر، من نيسان/أبريل ١٩٣٦ إلى تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨.

(١١) **الثعالبي، رائد النهضة الإسلامية ١٩٤٤ - ١٩٧٩**، أنور الجندي - دار الغرب الإسلامي، لبنان.

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) جادل بورقيبة في ذلك طويلاً. وقد أعاد الرواية مراراً. وكان يصرّ دائماً على أنه لم يضعف ولم يوقع مثل تلك الرسالة.

(١٤) **تاريخ الحركة الوطنية التونسية**، مجموعة وثائق وخطب بإشراف، محمد الصياح.

(١٥) Les chemins de la décolonisation de l'empire francais Paris Sous la directiion de Charles Robert Ageron Paris: ED. Cnrs, 1936-1956, 86.

(١٦) من خطابات بورقيبة - تاريخ الحركة الوطنية - وثائق وخطب - بإشراف محمد الصياح

(١٧) Erik Labonne هو المقيم العام الفرنسي رقم ١٤ - من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨ إلى أيار/مايو ١٩٤٠.

سنوات الرصاص:

بورقيبة عند مفترق الأقدار

«تكتّلوا اليوم مع فرنسا، فدون فرنسا لا يمكن النجاح! ولن ترفض فرنسا محاربة الأيدي التي امتدت نحوها من أجل عمل من الوفاق والازدهار جعلته الظروف أكثر إلحاحاً من أي وقت مضى».

«الحبيب بورقيبة»

تونس وفرنسا

إن بورقيبة الذي وصفه ذات مرة رفيقه «صالح بن يوسف» الذي تحول فيما بعد إلى أكبر منافس له على الزعامة مازحاً: «إنك تشبه الحية الملساء» فردّ عليه غاضباً: «ولكن أنت الحية الرقطاء» سيخلع جلده القديم بعد أن تآكل ويلبس جلداً آخر ليواجه به الزحف في الأحراش لمسافات طويلة. لقد تساقط رفاقه القدماء المؤسسون وفضلوا الانسحاب الواحد تلو الآخر عائدين إلى واجباتهم الصغيرة وكأنهم مجموعة من التائبين الباحثين عن الغفران. أما هو فقد أيقن أنه لا بد أن يبحث عن طاقم جديد لتجديد دماء الحزب لمواصلة زحفه نحو المجد والسلطة حالما يخرج من السجن. إن الذين لا يرثون الزعامة عليهم أن يصنعوها.

وجهت لبورقيبة تهمة تستحق الاعدام، وتتمثل في التحريض على القتل والتقاتل بين الأجناس بالإضافة إلى خرقه لقانون تحريم الاجتماعات. وقال له ضابط العدلية العسكرية «دي غيران دي كيلان»، بعد أن وقع على محضر الجلسة الذي سجل بعناية التهم المنسوبة إليه: «إنك الآن قد أصبحت وحدك وعليك أن تواجه مصيرك ولتفكر جيداً في ابنك الصغير»[1].

ولكن ما سوف يجعل بورقيبة غاضباً وكئيباً هذه المرة ليس وجوده في زنزانة رطبة وباردة، ولا حتى المعاملات السيئة التي تلقاها من ضباط الأمن، ولكن من الشهادات التي أدلى بها رفاقه، هيئة أركان الحزب، والتي تدل على الخذلان والضعف.

إذا كان الدكتور الماطري قد واجه ضابط العدلية «بأنه لم يعد عضواً في الحزب الدستوري منذ كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٧. أي قبل مجزرة ٩ نيسان/ أبريل بنحو ٥ أشهر» فقد اضطر كذلك إلى القول «بأنه لم يكن على اتفاق مع بورقيبة الذي كان يراه منذ برج البوف كرجل متهور». ثم روى كيف أنه انسحب من الحزب لأسباب صحية حتى لا يتسبب في انشقاقه، وأن كلاً من بورقيبة وصفر ساوماه على ذلك حتى لا يتجه نحو تأسيس حزب آخر. ثم ختم أقواله: «لم أكن لأقبل سياسة الحزب وأفكار بورقيبة لأني كنت على يقين من أنها ستؤدي إلى الكارثة». أما البحري قيقة الرفيق الثاني لبورقيبة فقد تطوع بإرسال شهادته إلى السلطات الفرنسية انطلاقاً من باريس قائلاً: إنه «كان يرفض سياسة الحزب وأن وجوده في باريس دليل على خلاف مع بورقيبة». ثم عاد إلى تونس.

ولدى حاكم التحقيق «دي غيران»، أنكر «البحري قيقة» أن يكون أرسل في مهمة حزبية إلى باريس لتهيئة الأجواء حين تندلع الإضرابات وتعم الإضطرابات. ثم قال: «سوف لن يخطر ببالي في المستقبل أن أتحمل مسؤولية في الحزب الدستوري سيما وقد وقع حله. والشيء الوحيد الذي أفكر فيه الآن، بعد أن حصل لي اضطراب نتيجة كل ما وقع، هو أن أعتني بصحتي المتدهورة وانصرف إلى الواجبات التي تفرضها عليّ مهنتي كمحام. وابتداء من اليوم، فإني أعتبر حياتي السياسية قد انتهت كما بيّن لكم رفيقي الطاهر صفر».

كان الطاهر صفر في السابق بمثابة المثال الأعلى لبورقيبة منذ أيام الصادقية وباريس، ثم تحول بداية من نيسان/أبريل ١٩٣٨ إلى مأساة. فهذا الذي كان يصفه بورقيبة بالأخ والصديق الحميم والمثال للرجل المخلص، قد تسرب إليه الضعف الذي حطّم كل شيء. في البداية اعترف صفر لدى حاكم التحقيق بأن بورقيبة يختلف معه في الرأي وقد نسب إليه عدة تهم مثله مثل البحري قيقة. وحين طلب بورقيبة المكافحة، تراجع صفر عن أقواله أمام المحكمة، فزج به مجدداً في السجن. وأثناء زيارة عائلته، انفجر صفر باكياً ثم سحب ورقة وقلماً وكتب إلى الضابط بحضور محاميه «بأن ما صرّح به سابقاً صحيح وأنه كان دائماً على خلاف مع بورقيبة طالباً العفو للعودة إلى أهله ملتزماً بعدم العودة إلى العمل السياسي». ولما طلب بورقيبة مكافحة ثانية مع الطاهر صفر الذي قال إنه جنّ ويعاني من خبل عقلي وإن شهادته لا يؤخذ بها، سحب الضابط «دي غيران» شهادة أخرى مضادة له موقعة من أخيه أحمد. وهنا انهارت معنويات بورقيبة إلى فترة، سوف يقدر على استرجاعها تدريجياً حين بلغته الأخبار، «بأن الحزب متمسك بقيادته»، وهو قد أعدّ نفسه للدخول تحت الأرض[٢].

كان أحمد، أخو بورقيبة يعمل كوكيل إداري، وهو لم يُعرف أبداً بنشاطه السياسي على منوال الحبيب ومحمد، ومع ذلك فقد شهد ضد أخيه الذي أصبح خطراً لا على العائلة فقط، بل على البلاد. وقال للمحقق الفرنسي، «إن ابنه فريد قد ضاع بسبب تأثير عمّه الحبيب، وإني أتمنى أن يعود الحبيب إلى الصواب، حتى يخلع ابني فريد عنه هذه الأوهام»(٣).

إن قصة فريد بن أحمد بورقيبة وكما يرويها العم بورقيبة تفيد بأن أحمد والحبيب لم يكونا أبداً على وئام. كما أن فريد ووالده أحمد كانا باستمرار في خصام. لقد كبر فريد ليجد أمّه بنت الرايس مطلقة بسبب سيرتها الأخلاقية، فتربى في بيت أصبحت سيدته زوجة أبيه «بيّة بن عمار». وهذه السيدة التي ترتبط بصلة قرابة مع زوجة بورقيبة الرئيس الثانية «وسيلة بن عمار»، كانت شديدة مع فريد، ولذلك فقد كبر هذا الشاب ناقماً على أبيه متخذاً من عمّه الحبيب مثالاً له فغرق في النشاط السياسي مبكراً. سافر فريد إلى ليون ليتابع دراسته، لكنه لم يحصل على أية شهادة عليا. واحتاج إلى المال فأرسل له الحبيب القليل ثم تكفّل بإعانته ذلك المعلم الفرنسي الذي أصبح مسلماً والذي تكفل بعمه قبل عدة سنوات لفترة. وسوف يمكث فريد في «ليون» إلى أن تصبح تحت سلطة «كلاوس باربي» النازي أثناء الاحتلال الألماني ليصبح فريد أحد المتعاونين مع الألمان ضد فرنسا وكذلك ضد توجهات عمّه. ورغم أن فريد قد استبدل أباه بالحبيب، إلا أنه سيتنكر له فيما بعد في محاولة للانتقام من الوصاية، حين يصبح أحد أتباع صالح بن يوسف اثناء ما عرف «بالحرب الأهلية» في أواسط الخمسينيات.

حين جاءته المصيبة من أخيه أحمد، لم يعد بورقيبة بإمكانه أن يلوم أحداً. وفيما أطلق سراح عدد كبير من المعتقلين ومن بينهم قيقة وصفر والماطري، ظل بورقيبة في السجن ومعه مجموعة من الشباب الذين دخلوا إلى الحزب مؤخراً ومعهم مجموعة من القدماء الصامدين مثل «المنجي سليم» و«سليمان بن سليمان» و«يوسف الرويسي» و«صالح بن يوسف». ومن السجن العسكري، نقل هؤلاء إلى سجن مدني، ولم يمض وقت طويل حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية. إن الحرب التي تزحف وهي تجر وراءها «عار ميونيخ» سوف تغرق فرنسا وكذلك أوروبا كلها في عار بالرغم من أنه أصبح من الماضي، فإنه لا يزال يرفض أن يمضي.

* * *

دفع هتلر بقواته نحو بلجيكا. ثم سرعان ما اندفع نحو فرنسا مخلفاً وراءه خط ماجينو

كجبل من الألعاب النارية. وإذ عقد التسوية مع جنرال سبق له أن قاتل الألمان بشجاعة في الحرب الأولى، قد أصبح يعرف بالرئيس «بيتان»، فقد صدم العالم الآخر قبل أن يصدم الفرنسيين. أما حكومة فيشي فقد برّرت ذلك دون إجهاد كبير، بأن الحفاظ على باريس وفرنسا أهم من الدخول في امتحان شجاعة قاس جداً. أُلحقت جميع محميات فرنسا قانونياً بالرايخ الثالث، وانتشر الألمان من المغرب إلى سوريا ومن لبنان إلى تونس وسوف لن تسترجع فرنسا أنفاسها وتستيقظ من هول الصدمة والخيانة إلا حينما يشرع الكولونيل «شارل ديغول» ومعه مجموعة صغيرة من «العسكريين والشيوعيين واليهود»(٤) وبمساعدة الإنكليز في المقاومة لذلك الاحتلال الشنيع.

كانت أوروبا قد أعطت للسياسيين العرب على أنواعهم فكرتين شموليتين هما: الشيوعية المنتصرة في روسيا التي انتقلت من القيصرية إلى السوفياتية، والفاشية بتنويعاتها العديدة في كل من إيطاليا وألمانيا وإسبانيا. وإذ أنتجت تلك الموجات من الأفكار المجنحة أحزاباً وجماعات ومنظمات متخاصمة ومتنافرة ومتصارعة، فإن الأوروبيين سوف لن يجنوا من ذلك الصدام إلا الدناءة وعقد تسويات العار على جثث شعوب كثيرة.

ولما كانت روسيا مرتبطة في أذهان الناس العاديين بالشيوعية المرتبطة بدورها بالإلحاد، فإن قليلين قد اتجهوا نحو موسكو. أما الأغلبية فقد توزعت بين ألمانيا وفرنسا وبريطانيا. تصارع المسلمون العرب من الجزائر إلى مصر ومن فلسطين إلى بغداد على التحالف بين ألمانيا وبريطانيا. وإذ رأى بعضهم أن ألمانيا ستساعدهم على قتل الاستعمار في جحره، رأى البعض الآخر أن بريطانيا هي التي تقف إلى جانبهم بحزم لأن ثلثي أمبراطوريتها في بلاد الإسلام. راح حسن البنّا يمتدح هتلر، أمّا جماعة حزب التحرير فقد تابعت السير مع بريطانيا. وإذ وقفت أحزاب شمال إفريقيا حائرة بين التعاون مع ألمانيا أو التعاون مع فرنسا إلى أن يزول الاحتلال، أعجبت أحزاب أخرى في المشرق وخاصة في لبنان بالحركة النازية، مثل حزب الكتائب اللبناني والحزب القومي الاجتماعي السوري.

كان أنطوان سعادة، ذلك المثقف الألمعي الذي عاش طويلاً في البرازيل وتعرف إلى الألمان في الهجرة قد أنشأ تلك الحركة التي ستثير إعجاب أقليات كثيرة في منطقة الهلال الخصيب. كان يؤمن تماماً بالقاعدة التي تقول «إن القوميين ينشأون من الجماعات ذات الآراء المتطرفة(٥)» وإذ وقع تحت سحر النظريات القومية المتطرفة فقد أوقع تحت سحرها معظم مثقفي المنطقة إلى حدود سنوات الخمسين، حين تصبح حركة البعث أكثر نشاطا واتساعاً بفضل مثقفين تشبعوا بالفكرتين السائدتين في العالم وهما: الاشتراكية والقومية،

ثم ما لبثوا أن رفعوا شعاراتهم الخاصة بهم باحثين عن أمة رأوها قد أصبحت غباراً تحت أقدام الغزاة الجدد!.

لم يصل الحزب القومي السوري إلى السلطة في أي بلد، وحين أدرك الفشل قام بمحاولة عنيفة وشبه انتحارية للفتك بالسلطة فقضى على أتباعه ومؤسسيه. وكان في ذلك يشبه الإخوان المسلمين الذين لم يصلوا إلى السلطة في أي بلد عربي، وهو ما جعلهم عرضة للقمع والانتحار والهواجس العنيفة. وإذ بدا أن الموجات الكهربائية القومية والدينية التي أرسلتها أوروبا بشقيها الألماني والبريطاني قد أصبحت بلا حرارة، كشفت الأحزاب الوطنية ومعهم الشيوعيون والبعثيون القوميون عن مخزون جديد من الطاقة.

في ذلك الخضم المتماوج سيسكر الحزب الدستوري تارة بانتصارات الألمان وهو شامت بعدوّه الذي يضع قائده في السجن، وأخرى بوعود فرنسا الحرة لمنحه الاستقلال عند نهاية الحرب. ولم تكن الرؤية قد اتضحت بعد حين راح شباب من الحزب يتعاون مع الألمان، وآخرون يمدون خيوطهم مع المقاومة الفرنسية فيما انهمك البعض الثالث في نسج علاقات متينة مع المنظمات الإسلامية. أما بورقيبة وصالح بن يوسف الزعيمان اللذان سيتقاتلان كعدوين لدودين ويشقان البلاد طولاً وعرضاً، فقد أصبحا في ذلك الوقت نائمين في سجن «سان نيكولا» منذ فترة. وبينما هما تحت سلطة الألماني الذي يعرف «بجزار ليون» - كلاوس باربي - شاءت تونس العميقة أن تستسلم لمتعة الفرجة على أعداء يتقاتلون، وهي تردد «فخار يكسر فخاراً»، لكن تلك المتعة لن تلبث حتى تتحول إلى نشيج وغضب ومرارة وهي تغرق في الدناءة بجميع أجناسها، وتساق على نحو فظيع إلى المجازر والآلام.

* * *

أصبح الأهليون بين نارين. وإذ لم يرغبوا أبداً أن تتحول بلادهم إلى ساحة قتال، فإنهم كذلك لم يتحمسوا أبداً للقتال إلى جانب من يحتل بلادهم. وأخيراً قبلوا ذلك القدر في انتظار ما سوف ينجزه الزمن. وساد الهلع بين المعمّرين الفرنسيين فاستسلم معظمهم محققاً مزيجاً غريباً من إخلاص للماريشال «بيتان» وطاعة للعناصر الحركية التي أُرسلت إليهم من طرف فيشي(٦). واستعد يهود كثيرون للمأساة وهم لا يعرفون إلى أين يهربون وقد سدت قوات الفوهورر أمامهم جميع المنافذ. أما الجالية الإيطالية فهي وحدها التي شعرت بالزهو وراحت تعد إقامة جميلة ولائقة ما بين تونس العاصمة والحمامات للدوتشي العظيم موسوليني(٧).

كان عدد المعمرين الفرنسيين حوالي ١٢٠ ألفاً في عموم الإيالة التونسية حين بدأت الحرب تدق أبواب شمال إفريقيا. كان هؤلاء معظمهم من الفلاحين الكبار في الشمال والموظفين في الإدارات والتجار وأصحاب العقارات. وكان الصراع واضحاً بينهم وبين الجالية الإيطالية التي تعد نحو ١٤٠ ألفاً وهم من الفلاحين المتوسطين والحرفيين والصناعيين الصغار وأصحاب المطاعم وبعض العقارات. وطوال فترة الاحتلال الفرنسي لتونس، كان هؤلاء الإيطاليون يشعرون بأنهم أصحاب امتيازات وحقوق في تونس، لأن تونس كادت أن تكون من نصيب إيطاليا أثناء مؤتمر برلين الذي قسمت فيه الخارطة الإفريقية. ولطالما حاولت الدولة الإيطالية أن تضغط باتجاه تحسين أوضاع جاليتها. وحين أصبح الدوتشي رجلاً قوياً ومتحالفاً مع ألمانيا النازية، استطاع أن يسلب من الإدارة الفرنسية عدة امتيازات لجاليته المتشبعة بأفكاره، كما استطاعت السفارة الإيطالية أن تنشط لتمد خيوطها إلى الحركة الوطنية للضغط على سلطات المقيم العام. وساعد وضع إيطاليا في ليبيا في تكوين قوة ضاربة مالياً وإعلامياً خلف صفوف الإدارة الفرنسية. ولما أعلنت الحرب العالمية، أصبح هؤلاء الإيطاليون يتطلعون إلى يوم انتقامي كبير من الغطرسة الفرنسية.

في ذلك الوقت كانت الجزائر وحدها التي تبعث بإشارات المقاومة للإدارة الفرنسية التي تحولت إلى رهينة بيد الألمان. ولما انتقلت «الإقامة العامة» إلى منطقة الكاف (قرب حدود الجزائر) فإن ذلك تم بإيعاز من «بيرطون» حاكم الجزائر القوي الذي يعمل بالتنسيق مع فريق «جيرو» وقيادة ديغول. وفيما استسلم الجنرال أزفستيا في تونس إلى وشوشات فيشي، ومغازلة الألمان، فتح الجنرال جوريون إقامة عامة ملحقة بالكاف سيلتحق بها بعض الموظفين الفرنسيين المذعورين والخائفين على أملاكهم في تلك المنطقة. أما بيرطون العارف بدسائس تونس ومخادعها قبل الحرب، والحاكم القوي العائد من الأرجنتين إلى الجزائر بمباركة ممثل روزفلت، فسوف يؤسس خلية خاصة بتونس تعمل انطلاقاً من الجزائر اختصت في بث الفوضى ونشر الدعايات الكاذبة ضد «المنصف باي» ووزرائه «المطربشين» والمتعاونين مع دول المحور.

في تلك المعمعة كانت الجالية اليهودية في تونس التي تعد أكثر من ٦٠ ألفاً وتهتم بالتجارة على أنواعها وتعمل موزعة بين الإيطاليين والفرنسيين والمسلمين الأهليين، تتعرض لضغط نفسي مضخم، الأمر الذي أحبط معنوياتها وجعلها تبدو فجة بلا قيم أخلاقية.

لقد تعرضت الجالية اليهودية إلى أضرار كبيرة بعد صدور قرارات فيشي التي حرمتها من أملاك عديدة. وإذ حافظ التونسيون على برودة دمهم ولم ينساقوا إلى منطق الانتقام، فإن

العديد من أفراد تلك الجالية قد تطوع للتعاون مع الألمان بدعوى حماية أبناء دينه، فيما انتمى البعض القليل إلى فرنسا الحرة بعد أن تمكن من الهروب إلى الجزائر. أما الفرنسيون الذين ظلوا يسمون أنفسهم بالمتفوقين رغم وقوعهم تحت سلطة الألمان، فقد استولوا على المؤسسات اليهودية وراحوا يطبقون القوانين العرقية بحذافيرها مدفوعين بالدعاية النازية وكذلك بالكراهية للسامية والمنافسة الاقتصادية. وهكذا وبفضل تلك القوانين، كفّ اليهود منذ العام ١٩٤٠ عن إزعاج الفرنسيين في المجال الاقتصادي، وعزز الفرنسيون المتفوقون سلطتهم الاقتصادية فأصبحوا أسياد التجارة والزراعة والصناعة بلا منازع.

في ذلك الوقت لم يكن «المنصف باي» مستعداً للتورط لا مع الدناءة ولا مع المساومة. كان بالأحرى لا يزال ينتظر وهو يخفف الآلام عن أبناء تونس جميعاً بما فيهم اليهود الذين أرسلوا بعض زعمائهم لطلب حمايته. كان أيضاً يعرف أنه يعيش بين زمنين متضاربين، ولذلك فقد جمع كل شجاعته للصمود أمام جميع الإغراءات التي راح الجانبان يلوحان بها مع بعض التهديدات المراوغة. أما قيادة حزب الدستور فقد أصبحت منقسمة تقريباً إلى مجموعتين منفصلتين لا تربط بينهما إلا بعض الذكريات الحلوة والمرة. واحدة تائبة ومذعورة وصامتة ومتشمتة في هيبة فرنسا المهانة وتدعو الرب إلى القصاص منها، وأخرى تنام في السجن بحصن «سان نيكول» تستعد لفصل من المساومة التاريخية بشرط ألا تندمج كلياً في أي مشروع ما لم تصبح في وضع يؤهلها للاختيار الحرّ. أما الشباب الجدد الذين التحقوا بالحزب في السنوات الأخيرة فقد تأهبوا لعمل أكثر جدية وقد أذهلهم تغيّر الأحوال السريع!.

* * *

كانت فرنسا قد دخلت الحرب منذ أيلول/سبتمبر ١٩٣٩. ولم تمض إلا أسابيع قليلة حتى سمع سكان تونس انفجاراً مدوياً قرب القيادة العامة بحي الرابطة. وتلاه انفجار عبوة أخرى حطمت الجدار الخارجي لثكنة القصبة. كان صوت المذيع العراقي «يونس بحري» قد بدأ يرسل موجاته الكهربائية عبر أثير «راديو برلين». ومن مراكش إلى القدس، سوف يشارك ذلك الرياضي الذي أصبح فيما بعد من أشهر مذيعي «راديو برلين» في دفع شباب كثيرين إلى المقاومة تحت وابل من التعليقات الحماسية التي تلهب الخيال والجسد. وفي تونس سيقع شاب يدعى «الحبيب ثامر» قد عاد لتوه من باريس بعد أن أكمل دراسته، وأصبح من قيادة حزب الدستور المنحلّ، تحت سحر الدعاية النازية. لم يكن «الحبيب ثامر» نازياً بل لم يسع إلى ذلك أبداً بالرغم من أن «دستوريين كثيرين» ما زالوا يعتقدون إلى اليوم

بأنه كان نازياً. كان يعتقد فقط بنصف تلك المقولة «عدو عدوك هو صديقك». وهكذا إذا لم تكن ألمانيا صديقة لتونس، فإنها على الأقل عدو لعدوّ تونس. ومع الحبيب ثامر كان هناك «الباهي الأدغم» و«البشير زرق العيون» وهؤلاء هم رموز الجيل الثاني لحزب الدستور الذين سيشكلون لجان مقاومة، حين كانت القيادة في السجن، ولكن السلطات الفرنسية سوف تقبض على أحدهم هو الباهي الأدغم لترمي به في «سجن لامبيز» الذي يقع بجنوب الجزائر. بعد فترة أخرى وبالتحديد في كانون الثاني/يناير ١٩٤١، سيحاول كل من الحبيب ثامر والطيب السليم الفرار إلى طرابلس، لكنهما سيقعان في كمين بقرية «ابن قردان» الحدودية وهما يتأهبان لاجتياز الحدود.

دعمت محاولة الفرار تلك التهم التي حامت حول القيادة السرية لحزب الدستور والتي مفادها أنهم عملاء للنازية ويعملون بالتنسيق مع قوات الغستابو، وهو ما سوف يجعل من الثنائي ثامر والطيب سليم عرضة للانتقاد من الدستوريين فيما بعد وإلى هذا اليوم. لكن حزب الدستور ما إن يودع قيادة إلى السجن حتى ينتخب قيادة جديدة. وجاء دور «رشيد إدريس» ليتولى مهمة إعادة التنظيم، لكن هذا الأخير سيلقى عليه القبض هو أيضاً. وفي ذلك الوقت أصبح الحزب مفتتاً ويعمل تحت أسماء مستعارة وقد غلب عليه الطابع الارتجالي فانهمك أغلب شبابه في تكوين خلايا مستقلة كل واحدة اتخذت لها اسماً. وظهرت منظمات اتسمت بالغموض مثل منظمة «شباب محمد»، وهي نسخة عن منظمة مصرية شبيهة بها تعاونت مع دول المحور وهي ترفع رايات الإسلام المجاهد. وإذ عرف بعض قادة تلك المنظمة مثل الشابين الطيب السحباني وأحمد بن صالح، فإن منظمة مثل منظمة «الهلال التونسي» أو «منظمة الطريق الصحيح» ظلت مجهولة القيادة، وقد سجلت على أنها منظمات وهمية شارك في إشاعتها الغستابو النازي.

إن محمد الصباح الذي اقترن اسمه بإحدى هذه المنظمات لينفي جملة وتفصيلاً أن يكون قد انضم إلى «شباب محمد» أو غيرها[٨]، وإذ لا يؤكد أنها كانت من اختراع الغستابو، فهو يرجح أن تكون من اختراع حزب الدستور من أجل هدفين هما: استقطاب الشباب المسلم الغاضب، ثم إبعاد اسم الحزب عن مزالق العمل العنيف حتى لا يتورط في مسار يصعب التراجع عنه. غير أن التورط في صف دول المحور قد أصبح سمة من سمات أغلب الحركات الوطنية في ذلك الوقت. فالدستوريون القدماء راحو يغازلون ألمانيا في الخفاء، والذين كانوا يناضلون في صفوف الشيوعية وأصيبوا بخيبة أحزاب المتربول المهيمنة هم أيضاً أصغوا السمع للدعاية النازية خصوصاً أن شهر العسل بين هتلر وستالين كان لا يزال

مستمراً حتى ذلك الحين. وحركة الطالب الزيتوني ومعها التنويعات الإسلامية لم تجد عناء كبيراً في مدح ألمانيا إذا ما كانت جادة في نزع قوة فرنسا الغاشمة، وأخيراً فإن حزب الدستور، بقياداته الموزعة بين السجون أو خلاياه اليتيمة قد غدا متحمساً لتعاون أكثر جدوى. وفي تلك اللحظة بالضبط صعد «المنصف الباي» ابن الناصر باي الذي لم يخف أبداً نزعته الوطنية في العشرينيات، إلى العرش في (حزيران/يونيو ١٩٤٢)، وهو يرفض أن يلعب دور الدمية الذي قام به خليفته أحمد باي. فبعد شهرين فقط ستسوء العلاقات بين هذا الباي البالغ من العمر ٦٢ سنة والذي انتظر طويلاً حتى يصعد إلى سدة الحكم، وبين سلطات الإقامة العامة الفرنسية. أبعد من محيطه الرجال المقربين من حكومة «فيشي» ثم أقال الوزير الكبير «الأخوة» ثم أمر رجلاً آخر سيئتهم بالتودد لألمانيا هو محمد شنيق بتأليف وزارة للجدل. وحين عرفت السلطات الفرنسية أسماء الوزراء الذين انضموا إلى حكومة شنيق أصيبت بالهلع واعتبرت ذلك تحدياً لها من جماعات الطرابيش. إن محمود الماطري زعيم الحزب الدستوري قبل حين ورفيق بورقيبة وإلى جانبه الليبرالي والإصلاحي محمد بدره ثم الصادق الزمرلي أحد قادة الحزب الدستوري القديم، قد جمعوا ثلاثة تيارات داخل تلك الحكومة وهي تيارات الحركة الوطنية بالإضافة إلى مجموعة من أعيان البلاد الوطنية. وهؤلاء جميعاً سيشكلون من الآن فصاعداً محيط «المنصف باي».

وفيما بدا محمد شنيق يشق طريقه بصعوبة تحت ضغوطات كثيرة من جانب الحلفاء ودول المحور والحكومة والشارع وهو لا يعرف أي مصير ينتظره، كان هناك رجل آخر يتهيأ لعقد تحالف مع القدر داخل السجن في مرسيليا على الضفة الأخرى للبحر الذي يفصل بين بلاده وبلاد الإفرنج.

* * *

وصل بورقيبة ورفاقه إلى سجن «سان نيكولا» بمرسيليا على ظهر باخرة عسكرية حملتهم بسرعة مثل الخرفان من مدينة بنزرت، بعد أن قضوا حوالى شهرين تحت الأرض في مجمع للفواضل وسط الأوساخ والقاذورات والتبن والفئران. ولما كانت القيادة الفرنسية لا تزال مترددة في التعاون مع الرايخ، فقد أشعر ضابط الحراسة سجناءه بأنهم قد يعودون إلى تونس إذا ما قررت بلاده الحرب انطلاقاً من محمياتها، غير أن الأمور سارت نحو الهدنة، فكان على أولئك السجناء أن يبقوا في أماكنهم، إلى أن أصبحوا بفعل تواتر الأحداث تحت سلطة الغستابو الألماني.

انتقل بورقيبة ورفاقه إلى حصن آخر هو حصن «مون لوك» قرب مدينة ليون ثم إلى السجن

العسكري في «ليون». وفي تلك الأثناء سيتذكر الضابط «كلاوس باربي» حاكم ليون، أن هؤلاء المساجين يمكن أن يساعدوه في تونس إن هو أطلق سراحهم، فشرع في الحين في نسج مساومة خطيرة ومغرية معهم، لكنها لم تكن أبداً مضمونة في نظر بورقيبة. وإذ لم يمتنع بورقيبة ولا رفاقه عن تقليب ذلك العرض ومناقشته، فقد تركوا الأمر للزمن وهم يسيرون بمحاذاة المقامرة مركزين نصف حواسهم على قيمة العرض، ونصف حواسهم الأخرى على إيقاع الحرب بين الحلفاء والمحور.

في أحد صباحات كانون الأول/ديسمبر الباردة من العام ١٩٤٢، قال ضابط الحراسة الألماني لبورقيبة، «إن الضابط الألماني الكبير «كلاوس باربي» سيقوم بزيارتك هذا اليوم. فلتكن على استعداد». حزم بورقيبة أمره ورتب أفكاره بعد أن أخفى بعض القناعات السابقة، وإذ استعد جيداً كما يفعل دائماً في مثل هذه اللقاءات وقد أكثر من الوقوف أمام المرآة والتدرب على الكلام وحركة اليدين، فإنه استطاع أن يتغلب على نفسية السجين المنهارة، ليتحول فجأة إلى مفاوض برتبة زعيم حركة سياسية.

كان باربي لم يكمل كلمة الترحيب، حتى سأله بورقيبة فجأة:

. هل الفوهرر هتلر يعرفني أيها الكابتن؟

. ألست أنت بورقيبة، الزعيم التونسي المنشغل بتحرير بلاده؟ تساءل باربي ساحباً بورقيبة إلى مجاله المغناطيسي، فقال بورقيبة مستعجلاً:

- نعم. نعم. كما ترون، أنا هو بورقيبة بلحمه وعظامه.

- وإذن، لندخل إلى صلب الموضوع، ألا تعتقد معي أيها السيد بورقيبة أن وجودك في بلدك سيكون أكثر جدوى؟

قلب بورقيبة السؤال ليحدد إجابته، وتباطأ في الحديث، فقال باربي: أمامك الوقت الكافي لتفكر في ذلك وتناقش الموضوع مع رفاقك. ثم خرج[٩].

لم يستغرق اللقاء أكثر من عشر دقائق، فباربي علاوة على أنه رجل حاسم وحادّ ويشق طريقه نحو غايته كالسكين داخل الزبدة، فهو مسؤول كبير وحاكم منطقة ليون لا شأن له بالتفاصيل. ولما توارى ذلك الرجل تاركاً بورقيبة في حيرة وكذلك في عطش لمعرفة التفاصيل، ظهر من خلف الباب رجل آخر هو الملازم «آلان بارجيه» وهو فرنسي كان يتعاون مع الألمان ليلقي بسؤال ثقيل على بورقيبة:

ـ هل ستتعاون مع دول المحور؟ أيها السيد بورقيبة؟

صمت بورقيبة قليلا ثم استجمع شجاعته ليرد على ذلك السؤال على نحو مراوغ: إن التاريخ سيذكر ذلك. إنني لا أعرف كيف ستسير الأمور الآن. وعلى كل فهي مسألة تخصني.

كان واضحاً أن بورقيبة قبل عرض باربي الذي يتمثل في إطلاق سراحه مقابل تعاونه مع دول المحور، من حيث المبدأ، ولكنه كان في انتظار فقرات ذلك العرض مفصلة. وتبين لبورقيبة في الحين أن القوات الألمانية قد بدأت تخسر على الجبهة الشرقية (روسيا) وأن الجيوش النازية قد بدأت تتدرج نحو الكارثة أمام الجيش الأحمر الذي استعاد المبادرة، وأن بريطانيا قد حصنت سماءها وباتت تتفوق من الناحية البحرية بالسيطرة على جبل طارق ومالطة، وذلك من خلال متابعته لأخبار «البي.بي.سي»، فأدرك أن العرض الألماني حتى وإن كان مغرياً، فقد جاء متأخراً. مع ذلك فضل انتظار البقية.

نقل بورقيبة ورفاقه، سجناء «سان نيكولا»، إلى مدينة ليون. أما الرفاق الآخرون وعددهم ١٢ فقد ظلوا تحت الإقامة الجبرية في قرية تراتس إلى وقت آخر حتى يأتي بهم الإيطاليون إلى روما، حيث سيلتمّ شمل جميع السجناء. كان بورقيبة يعتقد في البداية أنه ذاهب لبرلين، وهناك ربما استطاع أن يلتقي برجالات كبار من رجالات العرب الذين أصبحوا يتعاونون مع الرايخ مثل الفلسطيني الحاج أمين الحسيني والسوري شكيب أرسلان، ولكنه أصيب بخيبة أدخلته إلى حالة عصبية متقدمة جداً، حين أدرك أن القطار الذي كان يحمله يسير باتجاه مدينة نيس الفرنسية الجنوبية. وهناك أحس أن الضابط «بورجو» قد خدعه حين أوحى له أنه سينتقل إلى برلين بعد أن أدلى بإيضاحات وافية حول نشاطه السياسي وأصدقائه. وفي صبيحة ٧ كانون الثاني/يناير ١٩٤٣، سيسلم بورقيبة مع بقية رفاقه إلى ضابط إيطالي كي يتولى إيصالهم إلى روما. ومن ثم إلى تونس.

في روما وضع بورقيبة في قصر «راسبيغي» الفخم فشعر للحظات أنه على طريق المجد، ولربما يكون تمنى في تلك اللحظة النصر لدول المحور، لكنه سيتعرض بعد بضعة أيام لمساومة فظيعة تعامل معها في البداية ببرودة ثم بمناورة أدهشت رفاقه الذين راح بعضهم يدفعه إلى استغلال جميع الفرص والضغط على فرنسا بجميع الوسائل. فحين طلبت السلطات الإيطالية منه التعاون معها وهي تضع على ذمته موجة إذاعية موجهة إلى تونس، حاول بورقيبة أن يضع شرطاً صعباً تمثل في إعلان استقلال تونس مسبقاً من كل سلطة أجنبية. فكان الجواب الإيطالي بالنفي على لسان أحد المسؤولين في الخارجية: «إن مسألة

الاستقلال لا يمكن أثارتها إلا بعد نهاية الحرب»[١٠]. ولأن بورقيبة كان يعتقد أن أطماع إيطاليا في تونس قديمة جداً، وأن تونس ستصبح من مشمولات إيطاليا فيما لو انتصرت دول المحور، وأن الإيطاليين يتهيأون منذ الآن لاستلام تونس، وأنهم لم يحاربوا من أجل كورسيكا أو بعض الجزر الأخرى وإنما هم يحدقون باتجاه شمال إفريقيا كله، فقد حاول أن يكتسب شيئاً واضحاً قبل أن يخطو نحو المأزق.

راح الإيطاليون يبحثون عن وسائل للإغراء وأخرى للضغط، فدفعوا بجماعة رشيد عالي الكيلاني ثم بجماعة مفتي القدس الحاج الحسيني لإقناعه، فيما ضغطوا على رفاق بورقيبة وجعلوهم يشعرون بأنهم أمام خيارين لا ثالث لهما: فإما التعاون أو العودة إلى السجن، وعندما قرر بورقيبة أن يحرر نداء ليذيعه من راديو روما في برنامجه العربي، كانت رسالة شكيب أرسلان قد وصلت إليه وهي تطلب منه الوقوف بحزم ضد فرنسا، فأعطته جرعة أخرى من الحماسة.

ذلك النداء الذي شكر إيطاليا لأنها استضافته وشكر ألمانيا لأنها حررته من السجن، تحدث كذلك باحتشام عن الاستعمار الفرنسي، واستفز عزائم المناضلين في تونس، لكنه لم ينسف تلك العلاقة الروحية مع فرنسا. وجاء الضابط الإيطالي ملليني إلى قصر «راسبيغي» غاضباً وهو يقول لبورقيبة: «إن بلادي تستغرب عدم شجاعتك، ألست أنت بورقيبة الذي يقول إنه لا يخاف؟». فرد عليه بورقيبة بتودد خبيث: «ولكنني أخاف أن تكون بلادك تريد أن تحل محلّ فرنسا في بلادي». ولأن الإيطاليين كانوا في حاجة إلى أي نصر يسجلونه ضد فرنسا لا سيما في محمياتها، سحب الضابط ملليني من جيبه عرضاً آخر وطرحه على الطاولة قائلاً: «إن الدوتشي لا يعارض إعلان حكومة منفى في روما إذا كنتم قادرين على تشكيلها وإعلانها».

كانت الفكرة مثيرة وقد أعجبت بورقيبة، بل الأحرى أنها استحوذت عليه قليلاً من الوقت. طلب مهلة للتفكير والتشاور مع رفاقه. لم يبد أحد من هؤلاء أية ممانعة لذلك العرض، بل أن سليمان بن سليمان قد دفع باتجاه قبولها، حسب رواية بورقيبة لاحقاً،[١١] لكن هذا الأخير تراجع فجأة بعد أن اتصل بزوجته الفرنسية ماتيلد، وعاد ليقول للضابط ملليني: إن ذلك من صلاحيات الباي. وإنني لا أستطيع أن أتجاوز ملكي!!

إن الملك الذي قال بورقيبة إنه لا يستطيع تجاوزه هو «المنصف باي» الذي قيل له إن بورقيبة سيعود إلى تونس ليفتك بالحكم في انقلاب يقوم به الدستوريون بالتعاون مع الإيطاليين. كانت المعارك الأخيرة بين قوات الحلفاء وقوات المحور قد رسمت نهاياتها على التراب

التونسي. وسوف لن يمضي وقت طويل حتى يشتد الهجوم البريطاني انطلاقاً من الجنوب وصولاً إلى زغوان حتى أبواب العاصمة، ليلتقي بالإنزال الأميركي الزاحف من الشمال باتجاه العاصمة. أصبحت منطقة حمام الأنف (جنوب العاصمة) التي يقيم فيها الباي منذ بدء المعارك بعد مغادرته لقصر المرسى في شمال العاصمة، محاصرة بالمخاوف والهواجس وهي تنتظر جميع الاحتمالات السيئة.

تضخمت الشائعات حول انقلاب الدستوريين على الباي، ومع وصول بورقيبة ورفاقه المباغت من روما على متن طائرة اضطرت للنزول قرب منزل تميم (الوطن القبلي - قرب تونس الجنوبية) لأن مطار «العوينة» في شمال العاصمة لم يكن آمناً، قامت مظاهرات صاخبة وقع خلالها التهجم على رجال الباي في أكثر من مكان. وحاول كل من الحبيب ثامر ورشيد إدريس وعزوز الرباعي أن يهدئوا من روع الناس والباي في الوقت نفسه. كانت الاستعدادات جارية للاحتفال بذكرى التاسع من نيسان/أبريل المؤلمة، لكن «راهن» المسؤول الألماني عن الأمن نصح قيادة الحزب بعدم تنظيم تلك المظاهرة. ثم نصح بورقيبة بأن لا يذهب إلى تونس يوم ٩ نيسان/أبريل، لكنه وفي مساء ٨ نيسان/أبريل، كان في قصر حمام الأنف عند المنصف باي. كان الاستقبال حاراً. فالباي وكذلك كبير وزرائه محمد شنيق وجزء كبير من الأمراء قد جعلوه يشعر فعلاً أنه أصبح زعيماً. وتحدث بورقيبة والمنصف باي عن الضغوطات التي سلطت عليهما وقاوماها بشجاعة. وعند نهاية اللقاء أعلن بورقيبة الولاء للباي فدحض كل الشائعات والمزاعم التي أرادت أن توقع بين الباي والدستوريين الجدد. كان بورقيبة قد بدا في حضرة الباي غير راغب في أي منصب، وقد كان يستطيع أن ينال ما يريد، لكن منظره كان يوحي بأنه متلهف لربط اتصالات جديدة مع الفرنسيين والأميركان والإنكليز.

طرحت فكرة تكوين حكومة الوحدة الوطنية الكبرى لتحل محل حكومة الوحدة الوطنية الصغرى التي شارك فيها الماطري ومحمد بدرة والزمرلي، لكن بورقيبة الذي لم يتحمّس لها كثيراً بعد أن رأى أن محمد شنيق متردد وأن بعض الأمراء يعارضونها وأن الجنرال «إستيفا» لا تعجبه في مثل هذه الظروف الغامضة، والمنذرة بالهزيمة، سوف يعمل جاهداً من أجل أن يترأسها.

في العاشر من نيسان/أبريل، وقد مرت ذكرى حوادث ٩ نيسان/أبريل بسلام، كان المقيم العام الفرنسي المتعاون مع دول المحور الأميرال «إستيفا»[١٢]، على موعد مع بورقيبة (اللقاء رتبه «راهن» الألماني). كان واضحاً أنه بدأ ينزلق نحو التعاون مع المحور رغم أن المعارك

الأخيرة تفيد بوضوح أنهم في طريقهم إلى الهزيمة. لم يستطع أن يقنع «إستيفا» بفكرة تشكيل حكومة وفشل كذلك في إقناع الماطري والشيخ الثعالبي. ورغم أن تلك «المعارضة» هي التي أنقذته تاريخياً من الانتقال إلى صف المحور المنهزم إلا أن بورقيبة لم يغفر أبداً للماطري والثعالبي وكذلك لشنيق الذي حرموه من فرصة ترؤس أول وزارة في حياته.

ولأنه فشل في تشكيل تلك الوزارة، فقد كانت ردود فعله مذهلة حتى لأقرب أصدقائه. أقنع بعض الرفاق بكتابة منشور يعلن عن وقوف حزب الدستور إلى جانب الحلفاء، ثم أمر بتوزيعه وترويجه داخل البلاد. وهكذا حين كان المنصف باي يوزع النياشين على مجموعة من الضباط الألمان والإيطاليين الذين عملوا بتونس، وهو الأمر الذي سيتخذ كحجة دامغة على تعاونه مع دول المحور، كان بورقيبة يوزع منشور الحزب الذي يدعو إلى الوقوف إلى جانب الحلفاء. إن الملك والزعيم قد أصبحا الآن على طرفي نقيض، وبينما كان الملك يسير نحو الهزيمة، كان الزعيم يصعد نحو النصر.

كان المنصف باي الذي استوى له العرش خلال الحرب العالمية الثانية بلا حظ تقريباً، رغم أنه كان محبوباً لدى الشعب على نحو لم يبلغه أي ملك من قبله، ومدفوعاً بوطنية جارفة جعلته من أهم البايات الذين عرفتهم تونس. كان يحظى بشعبية لا حدود لها إذ عرف كيف يبني جسورها مع شعب وجد نفسه شبه «أقلية غربية» في بلاده التي أصبحت مليئة بالأوروبيين. وحين كان يظهر على عربته وهي تجرها فرس بيضاء في ضاحية المرسى، كان يصفق له المارة وهم يتصايحون: «سيدنا، أنت منقذنا». لم يكن المنصف باي الذي قادته ظروف عصيبة نحو المنفى ليموت بعيداً عن بلاده، إلا أن يكون في مستوى تلك الظروف العصيبة. كان يعرف أن سلطاته لا تمتد خارج قصر حمام الأنف، لكنه استطاع أن يطفو فوق خلافات الأمراء، ويكسب احترام المتقاتلين الأوروبيين، ويضع يده في أيادي جميع أطراف الحركة الوطنية، فتجرأ على رفض الإهانات واعتقد أن الفرصة أصبحت أمامه لنيل بعض الحقوق واستعادة الاعتبار لسلطاته، غير أن انتصار الحلفاء واجتياحهم لآخر مواقع المحور، قد قلب جميع المعادلات، فبات ملكاً أعزل ينتظر مصيره الذي جاء مسرعاً حين نقل إلى المنفى في صحراء الجزائر بمنطقة الأغواط ومنها إلى مدينة ـ بو ـ بجنوب فرنسا.

استسلم الجنرال «إستيفا» يوم الجمعة صباح ٧ آيار/مايو ١٩٤٣، وسيق ذلك الذي تعاون مع «بيتان» رافضاً كل حوار مع قوات فرنسا الحرة إلى الطائرة بعد مقاومة شديدة مطالباً بحضور المطران «غونو» رئيس أساقفة قرطاج. وأثناء ذلك هرب عدد كبير من الموظفين

الفرنسيين التابعين للجنرال «إستيفا» ومعهم عدد من كوادر الحزب الدستوري مثل رشيد إدريس والحبيب ثامر وحسين التريكي، فيما اختفى عدد آخر من قادة الحزب خوفاً من القبض عليهم بتهمة التعاون مع دول المحور، وكان من بين هؤلاء الذين دخلوا إلى المخابئ الحبيب بورقيبة.

في ذلك اليوم حضر ضابط ألماني على جناح السرعة إلى قصر الباي لحمام الأنف قبل أن يشتد حصار القوات البريطانية، فأبلغ المنصف باي أن هيئة الأركان الألمانية تأسف شديد الأسف لكونها مضطرة لإقامة خط دفاعي قرب القصر، ثم عرض عليه أن ينقله إلى أي مكان آخر للحماية، لكن «المنصف باي» الذي عرف أن الخيارات أصبحت محدودة رفض نصائح الألمان. وفي اليوم التالي تقدم فوج صغير من الفرقة السادسة المصفحة التابعة لمونتغمري إلى القصر، لينزع سلاح حرس الباي. اندفع جنود المملكة البريطانية حاملين رشاشاتهم وسط عويل النساء إلى القاعات الداخلية للقصر باحثين عن ملك قد صدر بشأنه قرار العزل.

سيجرجر ذلك الملك الوقور وسط الحشود، وقد وضع على شاحنة مكشوفة، وسوف ينال البصاق والشتم والزعيق من أناس أوروبيين ويهود تجمعوا خصيصاً لتلك المهمة، ثم يعود إلى قصره بعد تدخل من القنصل الأميركي وكأن في الأمر خطأ. وحين يعود الباي إلى قصره في حمام الأنف، سيأتيه اعتذار من الجنرال «جوان» قائد القوات الفرنسية الذي وصل متأخراً إلى تونس. وقد بعث بتوبيخ إلى القوات البريطانية لأنها تجرأت على إهانة عاهل لا يزال في السلطة الشرعية لبلاد تربطهم بها علاقات خاصة.

وفي ١١ آيار/مايو، أي بعد ثلاثة أيام من تلك المهزلة التي أحبطت من عزيمة الباي، غادرت العائلة المالكة قصر حمام الأنف إلى قصر السعادة بالمرسى، «كان الموكب الرسمي منظماً بإحكام. لكن ذلك الموكب كان آخر موكب للمنصف باي، وصاحب الموكب، وهو في طريقه، الهتاف والتصفيق. فقد كان الناس يتطلعون إلى ملكهم بنظراتهم الطويلة التي يملأها الحزن والقلق وهم الذين اعتقدوا أنهم عثروا على الأمل والأمان في ذلك الرجل. كان تأثر الملك شديداً. وبدا أن إحساسه بالذنب قد بلغ درجة من الحدة جعلته في تلك اللحظة الدقيقة يفكر في التنحي عن العرش»[١٣].

بعد يومين فقط سيتقدم الجنرال جوان، رفيق الجنرال ديغول مصحوباً بثلاثة جنرالات آخرين للقاء الباي. وقد تم اللقاء في الدور الأول من قاعة الاستقبال بقصر السعادة، ودام ثلاث ساعات. إن ذلك اللقاء الذي سجل كأطول لقاء منذ تاريخ الحماية جمع بين باي

تونسي بمقيم عام فرنسي، سيسجل نهاية عهد المنصف باي. أبدى الباي كبرياء لا مثيل لها وعبر عن سُخطه لـ«جوان» فأخبره أنه لا ينوي التنحي، وأنه لا يهاب الموت، وتحدث عن موقفه الحيادي أثناء الحرب، وكذّب كل الشائعات التي نشرها بيرطون انطلاقاً من الجزائر، وذكر بأنه حمى الرعايا اليهود وأنه لم يستسلم للضغوط الألمانية. وبعد نقاش عنيف شارك فيه رئيس الوزراء «محمد شنيق» مع الجنرال «جوريون» مدافعاً عن عاهله وعن شجاعته ومذكّراً بهروب وزير الحربية الفرنسي الجنرال باري، تمسك كل طرف بموقفه خلال تلك الجلسة العاصفة. وقد طاول الحديث كل شيء فيما عدا تعاون الباي مع الحركة الوطنية. ثم انصرف الجنرال جوان تاركاً للملك بعض الوقت ليستعد للرحيل قائلاً: «ذلك هو القرار الأخير يا صاحب الجلالة».

في صباح اليوم التالي ركب الباي سيارة عسكرية باتجاه المطار، ليركب من هناك طائرة صغيرة ستضعه بعد ساعتين في مطار صغير بالجزائر بين بسكرة والأغواط، ليسدل الستار على ملك قاوم كل الإغراءات والتهديدات. فأخيراً قبل المنصف باي بأن يحمل قدره ويذهب إلى المنفى. بعد ذلك سيلتفت الجنرال جوان وقد صفى حساباته مع الملك، ليبدأ في تصفية حساباته مع مجموعات الحزب الدستوري.

* * *

كان قد مضى على بورقيبة نحو شهر مختفياً في دار صغيرة بالمدينة القديمة (باب سويقة). فمنذ أن مالت كفة الحرب لمصلحة الحلفاء، ورأى بعض الرفاق يهربون إلى الخارج، قرر أن يبتعد عن الفصل الأخير من المحرقة. لم يعد يسكن بضاحية «حمام الأنف»، وهي المنطقة المحايدة باعتبارها مقراً لقصر الباي. أصبح صالح بن يوسف لا يفارقه أبداً وفكر معه في استعادة قيادة الحزب والخروج بمبادرة أخرى تفتح لهم آفاقاً جديدة وتبعدهم عن العقاب. وذات يوم جاء أحد الرفاق ليقول لبورقيبة «إن دبابات بريطانية قد سدت منافذ المدينة القديمة». ولم يصدق بورقيبة ذلك الخبر، فأرسل رفيقه ثانية لكي يتثبت ما إذا كانت تلك الدبابات ألمانية أو بريطانية، فعاد ليؤكد له أنها «دبابات بريطانية تقف عند باب سويقة. وأخرى أميركية قرب باب الخضراء». وفي الحين عثر بورقيبة على فكرة بدت له مناسبة. حرّر بياناً سريعاً حيّا فيه الحلفاء باسم حزب الدستور، بالنصر، وذكر فيه أن تنبؤاته قد انتصرت مع الحلفاء لأن حزب الدستور الذي تأسس على روح الديموقراطية الفرنسية لا يمكن أن يستجيب للمناورات البائسة. عرضه على صالح بن يوسف، فأضاف له بعض الكلمات حول أهداف حزبهم الواضحة والتي تعرفها فرنسا، وهي التعاون من أجل

مستقبل مشترك، ثم أصبح جاهزاً للتوزيع. غير أن ذلك البيان لم يأت بأي نتيجة وتجاهلته السلطات الفرنسية، وبات واضحاً أن الجنرال جوان قد عقد العزم على معاقبة جميع من داعبتهم أحلام التعاون مع دول المحور. آنذاك تذكر بورقيبة أن للحزب صديقاً أميركياً هو القنصل «هوكر دوليتل»، وأن هذا الرجل بإمكانه أن يتدخّل لعقد تسوية بين الحزب وبين الجنرال جوان، وذلك من موقع مسؤول دولة تزعمت دول الحلفاء.

أرسل بورقيبة صديقه «صلاح الدين بوشوشة» لإتقانه اللغة الإنكليزية للاتصال بالقنصل «دوليتل» لتنظيم لقاء معه. رحب القنصل الأميركي بكل تهذيب بالفكرة إلا أنه أجاب في النهاية «بأنه يفضل أن يتم ذلك في السرية حتى لا تشعر فرنسا أننا نتدخل في شؤونها»(١٤). وبعد لقاء قصير، أشعر دوليتل وهو رجل خبرته سنوات الحرب، بورقيبة «أن واشنطن لا تنوي إزعاج فرنسا»، لكن بورقيبة الذي حزن قليلاً لأنه لم يجد استجابة لمطلب الوساطة الأميركية، سيشعر منذ تلك اللحظة أن هذا القنصل الأميركي سيخصه بجزء من رعايته، بل سيلعب دوراً مهما في حياته. لقد فهم بورقيبة أن القنصل سيكتب إلى حكومته بخصوص ذلك اللقاء. بل أكثر من ذلك، لقد فهم أن أميركا يمكن أن تكون له نصف حليف مع معركته مع فرنسا، إذا لم تكن حليفاً كاملاً في المستقبل.

يمكن أن يقال إن اللقاء قد تم عن طريق الصدفة، ولكن الحقيقة أن القنصل دوليتل قد أعد كل شيء بإتقان من أجل ترجيح تلك الصدفة. دعا القنصل الأميركي أعيان البلاد وأعضاء الحكومة لمشاهدة شريط سينمائي عن «المجهود الحربي الأميركي»، فكان بورقيبة من بين المدعوين. ارتدى بورقيبة بدلة المناسبات السوداء ثم اندمج داخل المدعوين، وإذ رآه بعض الفرنسيين، فقد دهشوا قائلين لبعضهم بعضاً: «انظروا إنه بورقيبة. ها هو اليوم عند الأميركان وقد كان البارحة مع الألمان والطليان». وبعد نهاية العرض، أكمل دوليتل حديثه القصير مع بورقيبة وهو يقول له: «إنهم يخافون أن تكون البارحة مع المحور واليوم مع الأميركان». لم يسألْ بورقيبة عمّن هم الذين يخافون؟ لكن تلك العبارة سيقلبها بورقيبة عشرات المرات في ذلك المساء وسيقف عند كل كلمة، إلى حد جعلته لا ينام.

لقد أصبح الآن كهلاً. لقد تجاوز الأربعين بقليل، وقد دهمه الشيب، وبدا وكأنه لا يزال في منتصف الطريق وهو لا يعرف إلى أين يتجه، وحين يتذكر السجن يدهمه بكاء مرّ وغزير. ولم يكن أمامه إلا أن يسافر إلى الشرق هذه المرة.

كان الشرق العربي في ذلك الوقت قد عاد إلى صناعة أساطيره، ولكن على نحو فاجع

هذه المرة. وإذ بدأ يهيئ نفسه لاستقبال اليهود والانقلابات والحروب، كان بورقيبة يبحث عن أسطورته، أو عن الجزء الناقص لهذه الأسطورة.

الهوامش:

(١) **Les chemins de la decolonisation de l'empire francais 1956-1936,** Editions, C.N.R.S. Paris 1986.

(٢) **Les positions doctrinales de bourguiba,** Begue Camille Paris 1975.

(٣) من خطابات بورقيبة، محاضرات ألقاها في معهد الصحافة وعلوم الأخبار - كذلك أنظر كتاب:
Bourguiba: A la conquète d'un destin Jeune Afrique-livres/collection-destin 1988.

(٤) أشار ديغول في مذكراته إلى أنه حين بدأ حرب التحرير لم يجد في البداية من يسير وراءه ويقتنع بأفكاره غير عسكريي ما وراء البحار والشيوعيين وكذلك اليهود.

(٥) «ديزموند ستيوارت»، هيكل جانوس، **تاريخ الشرق الأوسط الحديث**، منشورات النهار، بيروت.

(٦) كتاب المنصف باي، **الحكم والمنفى**، تأليف سعيد المستيري، دار الأقواس، تونس، ١٩٩١.

(٧) لا يزال هيكل القصر الذي بناه الإيطاليون للدوتشي ظاهراً للعيان. وهو يقع بالقرب من مدينة قرنبالية - قرب الحمامات.

(٨) نفى محمد الصياح ذلك في حديث مطوّل مع الكاتب، حين إعداد هذا الكتاب. وقال إنه سمع باسم تلك المنظمة (منظمة محمد)، لكنه لم يشارك فيها. ويعتقد أنها منظمة سعى بعض الدستوريين لإقامتها بالتعاون مع الألمان وذلك كردّ على الجمعيات الإسلامية التي كانت تابعة للإنكليز.

(٩) من **مذكرات كلاوس باربي**، وهي مجموعة أحاديث جمعها الصحافي، إيمانويل سيتور - في العام ١٩٨٦، أنظر كذلك كتاب: **الصليب والهلال**. **La crois et le croissant,** Ed· C.N.R.S.,1986.

(١٠) Camille Begue, **Les positions doctrinales de Bourguiba,** Paris 1975.

(١١) من محاضرات معهد الصحافة، عام ١٩٧٣، أنظر كذلك **مذكرات المناضل الدكتور سليمان بن سليمان.**

(١٢) هو المقيم العام السادس عشر من تموز/يوليو - ١٩٤٠ إلى آيار/مايو ١٩٤٣ وهو الذي جاء من بعده الجنرال «حوان»، الذي يقال أنه كان يمسك بوثائق تدين بورقيبة على تعاونه مع الألمان.

(١٣) **المنصف باي، الحكم والمنفى**، تأليف سعيد المستيري، دار الأقواس، تونس ١٩٩١.

(١٤) من محاضرات بورقيبة أمام طلبة معهد الصحافة عام ١٩٧٣.

سنوات التطواف:

الركض بأكثر من سرعة في أكثر من اتجاه

«العاشرة والنصف صباحاً، حديث مع القنصل الأميركي العام هو كردوليتل. بعد ذلك تكوّن لديّ رأي سلبيّ جدّاً عن هذا الرجل ونشاطاته ورغبتي أن يقع نقل القنصل العام دوليتل إذ أنه مصدر اضطراب بالنسبة إلى الفرنسيين وانقسام بالنسبة إلى الحلفاء».

«هـ.ماك ميلان»

يوميات الحرب

كان بورقيبة ممدداً على فراشه مرتدياً البيجاما، وبالقرب منه زوجته الماجدة وسيلة وجهاز التلفزيون. وسواء كان مريضاً أو هو تمارض لأسباب، فإن خطاب العقيد القذافي بقاعة البالماريوم الذي كاد أن يتحول إلى «تظاهرة وحدوية» هو الذي تسبب في وجع سياسي لبورقيبة لم يعد قادراً على تحمله. وفجأة ينهض بورقيبة من الفراش بقدرة قادر ليلتحق بضيفه إلى قاعة البالماريوم. وحين أخذ مكانه إلى جانب القذافي، كان خيط حذائه غير مشدود وربطة عنقه غير مرتبة. كان واضحاً أن بورقيبة خرج في عجلة من أمره، وأن الانزعاج كان قد استحوذ عليه. وما إن أكمل القذافي خطابه حتى تناول بورقيبة الميكروفون ليبدأ هجومه المضاد بسؤال جاف:

ـ هل يمكن أن تقول لي في أية سنة ولدت يا أخ معمّر؟

أجاب القذافي وهو يبتسم ليخفي قدر الإمكان غضبه: «بالتحديد لا أعرف. ولكن في حدود ١٩٤٢».

هنا ضرب بورقيبة على الطاولة وكأنه أوقع خصمه في الأسر. ثم تابع يقول وقد راح يكور قبضته حيناً ويمطط أصابعه حيناً آخر سائلاً جمهور القاعة:

«هل تعرفون أين كان بورقيبة في تلك الفترة؟ لقد كنت أشقّ صحاري ليبيا في اتجاه القاهرة للتعريف بقضية بلادي».

حدث ذلك في ربيع ١٩٧٢ حين كان بورقيبة على مشارف السبعين. وإذ كان يريد أن يقول لجمهور القاعة الذي رآه بورقيبة على شاشة التلفزيون يصفق طويلاً لكلام القذافي عن الوحدة العربية، إنهم يجهلون تاريخ المنطقة وأن العالم العربي لم يتّحد أبداً منذ أن وجد. كان كذلك على وجه الدقة لا يريد أن ينسى أكثر سنواته توهجاً ومعاناة.

فقبل أن يذهب بورقيبة لحضور عرس ابنة أخيه في المنستير، كان قد قرّر السفر إلى الشرق وبالتحديد إلى مصر. وإذ قال له صالح بن يوسف، «عليك أن تسافر إلى هناك لسماع صوت الحركة الوطنية»، فهو لم يعارض الفكرة أبداً. باع حصّته من غابة الزياتين ليترك ثمنها لدى زوجته، وحضر عرس ابنة أخيه، وفي طريق العودة إلى تونس العاصمة من المنستير وكان مصحوباً بأخيه محمد وبابنة أخته سعيدة (التي ستُعرف فيما بعد بسعيدة ساسي)، اشترى بورقيبة سمكة من نوع «الجغالي» ثم توقف مرة أخرى قرب ثكنة بوفيشة ليشتري برتقالا سيساعده على عطش الطريق، وقد سأل بورقيبة البائع عن الثمن، فأجابه «ألست أنت بورقيبة؟» فقال «نعم»، فرد البائع، «إذن هي هدية لك».

عاد بورقيبة إلى تونس العاصمة من أجل موعد مع قنصل الولايات المتحدة «دوليتل»[١]، ولكن حين التقى بصالح بن يوسف، أخبره «بأن اللقاء لن يحدث، ولكن فهمنا أنك ستلتقي به في الخارج، وعليك بالسفر اليوم».

لم يأكل بورقيبة من تلك السمكة نصيبه، وعرج على بيته ليخبر زوجته بموعد الرحلة، لكنه تراجع عن ذلك حتى لا يحدث اضطراباً في عائلته. خرج متعللاً بموعد مع أحد أصدقائه، وهو يخترق نهج الوادي الذي يسكنه، خفق قلبه لتلك المرأة التي أصبحت عشيقته منذ فترة، والتي ستصبح فيما بعد زوجته الثانية «وسيلة بن عمار». تقدم قليلاً نحو نهج بوخريص حيث تسكن مع زوجها الدكتور الشاذلي. توقف هناك برهة وهو يفكر في طريقة لوداعها، لكنه تراجع ولسان حاله «أمرّ على الديار من غير حاجة/ لعلّي أراكم أو أرى من يراكمو»[٢].

بعد عشاء مشترك وحديث مع صالح بن يوسف، جاءت لحظة الفراق بين هذين الرجلين لتمتد إلى ما لا نهاية. قال بورقيبة: «عليك أن تشهد أمام التاريخ وأمام الشعب أني لم أتردد بل كنت على أتمّ الاستعداد حين قلت لي أن عليّ أن أترك كل شيء وأسافر». وإذ أضاف له بعد برهة من الصمت «سنلتقي في الآخرة إن تعذر اللقاء في هذه الدنيا»، فكأنه كان يعرف أن لقاءهما بات مستحيلاً منذ تلك اللحظة. كان واضحاً أن حزب الدستور قد أصبح تحت سلطة هذين الرجلين القويين والعنيدين، والأرجح أن لا أحد منهما أراد أن

يتراجع إلى المرتبة الثانية. فإذا كان بورقيبة في ذلك الوقت يبدو أكثر تأهيلاً للقيادة، فإن صالح بن يوسف كان أكثر سطوة وقدرة على التحكم في شباب الحزب.

ركب بورقيبة القطار المتجه نحو الجنوب بصحبة سكرتيره «علي عبد الصمد». وفي صفاقس سيجد بورقيبة نفسه بين يدي رجل وطني على قدر من الجاه والمال يدعى «خليفة حواض»، أصيل قرقنة، ويعمل في التجارة البحرية، منذ عدة سنوات، جعلت منه محبوباً لدى أصدقائه وكذلك لدى مجاهدي حزب الدستور لعطفه وكرمه وأيضاً شهامته. بعد مغادرة محطة الميناء بصفاقس، سيتجه بورقيبة مرفوقاً «بخليفة حواص» و«علي عبد الصمد» في اتجاه بيت متواضع، هو بيت الحبيب عاشور الذي سيصبح فيما بعد من ألدّ خصوم بورقيبة في آخر حياته السياسية أثناء معارك الاتحاد العام التونسي للشغل مع السلطة في الثمانينيات.

في الحين خضع بورقيبة لعملية تزييف (تغيير) إذ أصبح الآن يلبس «كدروناً» من الصوف طويلاً شبيهاً بكدرون أهل قرقنة، وفوقه لحاف آخر من الصوف، ثم وضع شاشية (طربوش) على رأسه، وراح ينتظر موعد الإقلاع إلى جزيرة قرقنة. ولكن بورقيبة الذي لا يستطيع أن يخفي قلقه وتوتره، ذهب إلى المطبخ في تلك الأثناء ليطهو مرقاً يجيد طبخه منذ أن كانت جدته تنهره وهو صغير قائلة له: «يا حبيب أنت لا تبرح المطبخ، أخرج منه وإلا أدركتك طباع النساء»[٣].

وحين جاء الليل تسلّل بورقيبة بصحبة الريس «علي الزاهي» ومعاونه «محمد عون» إلى الزورق الذي سيحمله إلى قرقنة ومنها إلى طرابلس. ولم ينتبه بورقيبة إلى أن تلك الرحلة ربما كانت مؤامرة لإبعاده عن الحزب والبلاد بطريقة مهذبة جداً إلا حين أصبح الزورق في عرض البحر. ولكن العودة في ذلك الوقت إن لم تكن مستحيلة، فهي ستكسبه عداوات واتهامات كثيرة أقلّها الجبن وعدم الالتزام.

كان الزورق الذي ركبه بورقيبة قد وضعه السيد «خليفة حواص» تحت تصرف الحزب. وهو مركب شراعي بسيط وقديم. ولولا مهارة الريس علي الزاهي، فلربما كان سيتوه في البحر. لم يكن الريس الزاهي يعرف أن ضيفه الذي على متن الزورق هو بورقيبة إلا حين كشف هذا الأخير عن نفسه بعد أن هبت الريح بقوة باتجاه الشرق دافعة الزورق نحو شواطئ طرابلس وكأن عناية إلهية قد حضرت إلى جانب إرادة الزاهي ومساعده محمد عون.

لامس الزورق الشاطئ الليبي حين لامس الليل الأرض، واختار الريس الزاهي أن يبتعد قليلاً عن شاطئ صبراتة، فنزل «خليفة حواص» مع محمد عون إلى البرّ بحثاً عن الرجل الذي سيكون في انتظارهم. أما بورقيبة فقد مكث داخل الزورق وهو يشكو من دمل قد بعث فيه كل الإرهاق. وبعد ساعات عاد السيد حواص إلى الزورق وهو خائب لأنه لم يجد سبيلاً للاتصال بالرجل الذي سيساعدهم على التنقل داخل ليبيا بعيداً عن حراسة الإنكليز الذين اجتاحوا البلاد. وبعد ليلة أخرى قضاها الجميع في عرض البحر، أصرّ بورقيبة تحت وطأة القلق والمرض أن يغادر الزورق «وليكن ما يكون». حضر الرجل الذي سيفتح لهم الطريق نحو صبراته، ولكن بلا أي وسيلة نقل. وبعد أخذ وردّ أحضر جملاً فامتطاه بورقيبة وهو فاقد الوعي من شدة المرض. ولأن الحاميات الإنكليزية قد نزعت علامات الطريق من أماكنها واستبدلت بعضها بأخرى بقصد التمويه، فإن تلك القافلة الصغيرة ستظل تدور في مكانها ساعات طويلة إلى أن يكتشفوا طريق «الزاوية» عن طريق الصدفة. وهناك سيرتدي بورقيبة اللباس الطرابلسي التقليدي (الجرد) ثم يذهب إلى محطة القطار مع خليفة حواص ليصعدا معاً نحو طرابلس. كان «مصطفى حسين باشا» وهو أحد مناضلي الحزب الوطني الطرابلسي في استقبال بورقيبة، وهذا الرجل الذي اندمج مع بورقيبة في حديث طويل هو الذي سيتولى توجيهه نحو الزعيم الوطني الليبي «أحمد السويحلي» في مدينة مصراتة التي تبعد عن طرابلس بنحو ٢٥٠ كلم. وبعد رحلة على متن حافلة الكوريرة، كما يسميها الإيطاليون، سيصل بورقيبة إلى مصراتة. هناك سيتوزع بين البحث عن السيد السويحلي وبين البحث عن جذوره العائلية المصراتية!. وبعد ثلاثة أيام قضاها في مصراتة بين جماعة أحمد السويحلي، امتطى بورقيبة شاحنة للبضائع متجهة إلى الحدود المصرية وبيده رسالة من أحمد السويحلي موجهة إلى السيد «علي باشا العبيدي» أحد بني لملوم (المستقرين على الحدود الليبية/المصرية)، فأحس بلذة العجلات المطاطية التي لا تشبهها إلا لذة سيارته «التراكسيون» التي تركها في تونس.

لم تكن الرحلة إلى بنغازي سهلة، ذلك أن بوابات العبور التي نصبها الإنكليز كانت تبعث في بورقيبة الخوف من اكتشاف أمره. وحين وصل «علي باشا العبيدي» سرعان ما أحاله على رجل من بني لملوم يدعى ميخائيل، وهو الرجل الذي امتص كل قلق بورقيبة في أربع كلمات فقط: «خلاص، اعتبر نفسك في القاهرة». ثم أضاف بلهجة حاسمة وهو يضرب على صدره كما يفعل رجال الصحراء، «أطلب من دليلك أن يعود إلى بلده، فإن ابني وصهري سيرافقانك في سفرك». ركب كل واحد من هؤلاء الثلاثة حماراً ثم انطلقوا مع المساء يشقون الصحراء التي كانت قبل حين مسرحاً لأكبر معارك دبابات في التاريخ بين

مونتغمري البريطاني وروميل الألماني، إلى أن بلغوا درنة. وهناك استطاعوا أن يقنعوا أحد الجنود السود التابعين للقوة البريطانية أن ينقلهم نحو «السلوم» بعد أن أوهموه بأنهم ضائعون في الطريق. ولكن في مركز الضبعة بالجمارك وهي آخر نقطة على الحدود الليبية، سيقع بورقيبة في قبضة ضابط شديد البأس.

خاطبه بقوة: أين جواز سفرك أيها السيد؟

أجاب بورقيبة وقد انهمك في فرك عينيه وكأنه قام من النوم لتوه: «أنا الحبيب بورقيبة. أما تسمع به من قبل»؟. غضب الضابط المصري وقد اعتقد أن الرجل الذي أمامه قد تجرأ على ممازحته بثقل دم لا يحتمل، فنهره قائلاً: «لا أعرفك. ولذلك أنا مضطر لتحرير محضر في مخالفتك لعبور الحدود ثم نحيلك على محكمة العامرية». حار بورقيبة قليلاً وقال لنفسه: «هذه مصيبة، إن أخذوني إلى السجن مرة أخرى بعد كل هذا التعب». ثم دهمته فكرة وقد وقع نظره على مركز للبريد. حرر بسرعة برقيتين، واحدة إلى السيد «عبد الرحمن عزام» الأمين العام للجامعة العربية والثانية إلى شيخ الأزهر «الخضر حسين» وهو تونسي من منطقة الجريد، ثم وضعهما على كشك موظف البريد. في تلك اللحظة أصبح بورقيبة جاهزاً للانتقال إلى سجن العامرية مع مجموعة من المهربين. وما كادت الشاحنة العسكرية أن تتحرك، حتى ركض ضابط نحوها طالباً «الحبيب بورقيبة» للنزول. ولم يتأخر ذلك الضابط كثيراً حتى قال بلهجة ناعمة: إنك مطلوب إلى مصلحة الحدود في الإسكندرية. هنا شعر بورقيبة أن الوضع تغير لصالحه، وأن القاهرة أصبحت مفتوحة أمامه، وقبل أن يصل إلى قاهرة المعز، ذلك القائد الذي انطلق من الساحل التونسي (المهدية) قرب المنستير بلدة بورقيبة، في أكبر مغامرة تاريخية تخرج من المغرب العربي نحو الشرق، وصل بورقيبة إلى الإسكندرية وهي تلهب خياله من فرط اختلاطها وتسامحها وعراقتها.

* * *

كانت الإسكندرية التي استقر بها بورقيبة لبعض الوقت بعد رحلة شاقة من الساحل التونسي إلى الساحل المصري عبر الساحل الليبي بمحاذاة الصحراء، عاصمة لأكثر من حكومة منفى. يوغسلاف ويونانيون وبلغار وإيطاليون وغيرهم كانوا ينتظرون عودة مشرفة لبلدانهم حين ينتصر الحلفاء. كانت كذلك مليئة بجاليات الأرمن واليهود والألبان والشركس. وقد حاكت معهم أجمل العلاقات وهي تمزج بين الحكمة والتجارة على نحو مثير. في تلك المدينة المدهشة والنائمة في حضن البحر منذ الأزل، سيجد بورقيبة القنصل الأميركي «دوليتل» وقد انتقل إليها ليباشر عمله الجديد بعد أن غادر تونس. وسواء كان

ذلك صدفة أو ميعاداً محكماً، فإن لقاء الإسكندرية بين بورقيبة ودوليتل قد عوض لقاءهما في تونس الذي ألغي في آخر لحظة. «كان لقاءً مثمراً جداً قد حصل بيني بين السيد دوليتل»[٤] كتب بورقيبة في إحدى رسائله إلى أمانة الحزب بتونس، لكنه لم يوضح ما إذا كان ذلك من باب الحظ والعناية الإلهية أو من باب العناية الأميركية ببورقيبة!. ثم كان عليه أن ينتقل إلى القاهرة.

بدت القاهرة لبورقيبة المتذمر حيناً والمتطير أحياناً عاصمة شرقية قاسية جداً وموحشة بالرغم من أنها كانت تحتوي على دار للأوبرا ومسارح كثيرة ويشقها نهر أوسع بكثير من نهر السين. وتحسس نفسه وهو يشق الزحام الشديد لرجال اختاروا الجلباب وآخرين اختاروا الطربوش، فرأى نفسه وكأنه فقد قامته تماماً. وقد يكون مزاجه المتوسطي تلاءم مع الإسكندرية الساحلية أكثر مما تلاءم مع القاهرة القارية. مع ذلك، كان عليه أن يبدأ اتصالاته مع الجاليات المغاربية التي سبقته إلى القاهرة.

كان الملك فاروق في ذلك الوقت قد دفن في اللحم المتورم حسب تعبير «ديزموند ستيوارت». وهذا هو قبره الأول. «لقد كانت نفس ذلك الملك المتهالك على الملذات فاسدة ومحطمة بقدر ما كان لحمه منتفخاً على نحو مرضي»، وقد قبل تحت تهديد ممثل صاحب الجلالة «لامبسون» أن يعين خليفة لسعد زغلول، هو النحاس باشا على رأس الوزارة. وبذلك بدأ يحفر بيديه قبره الثاني الذي سيتسع لجميع أفراد أسرته ذات الجذور الألبانية. وقلّب بورقيبة تلك المناورات السياسية فوجد فيها مشهداً مفزعاً في البداية متسائلاً بينه وبين نفسه: كيف يمكن لرجل وطني مثل النحاس باشا أن يصبح حليفاً لبريطانيا المستعمرة؟ فوجد في ذلك نوعاً من الراحة إذ راح يتخيل إعادة إنتاج المشهد نفسه في تونس، قائلا في قرارة نفسه، «كل شيء يمكن أن يحدث في عالم السياسة إذ غالباً ما تنسحب الأخلاق أمام هجوم المصالح».

تقدم بورقيبة، وقد أمدّه «النحاس باشا» بكثير من الجرأة، بخطوات خفيفة نحو هدفه وقد اختار طريقين ليسير على كل منهما خطوة، الأولى نحو إثبات صدارة وجدارة حزب الدستور الجديد في ساحة القاهرة، أمام مناضلي المغرب العربي مثل علال الفاسي زعيم حزب الاستقلال والشاذلي المكّي ممثلاً عن حزب الشعب الجزائري ومحيي الدين القليبي ممثلاً عن الحزب الدستوري القديم التونسي، فاستطاع أن يصبح مشاركاً لنخبة تحرير المغرب العربي ممثلاً لحزب الدستور الجديد مع رفيقه الحبيب ثامر الذي التحق به إلى القاهرة. أما الثانية فكانت نحو نسج علاقة مع قوة عالمية بحجم أميركا التي أصبحت قائدة

للغرب الجديد بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك عن طريق القنصل دوليتل. فهذا الرجل الذي رحل عن تونس ليلتحق بمركز عمله الجديد بالإسكندرية، تحت شكاوى عديدة تلقتها واشنطن من باريس تتهمه بالتدخل في شؤون محمياتها الخاصة، سوف لن يكف عن متابعة خط سير بورقيبة وقد أصبح حصانه المفضل في سباق السيطرة على المغرب العربي، وها هو بعد أن يقابله في الإسكندرية، يأتي إلى مقابلته في القاهرة(٥).

سيثير بورقيبة من حوله زوبعة كبيرة حين قرر الاتصال بالسفارة الفرنسية في القاهرة. وإذ برر بورقيبة ذلك بأنه رجل أصبح يعرف أين يضع أقدامه وقد عرف السجون أكثر من الذين ينددون به، فإن ذلك التقرير الذي قدمه إلى «الكابيتان سوليه» مستشار السفارة الفرنسية بالقاهرة لا يترك له أي مجال للدفاع عن نفسه، أبدى بورقيبة في ذلك التقرير استعداده لتعاون مثمر مع فرنسا، وطلب تمكينه من فرصة لإظهار نواياه الطيبة كما طلب جواز سفر يمكنه من السفر.

تلك الزوبعة تحولت إلى عاصفة في مكتب المغرب العربي وكذلك في أوساط الجامعة العربية وأغضبت شخصيتين مرموقتين هما شيخ الأزهر «الخضر حسين» وزعيم ثورة الريف «عبد الكريم الخطابي». ثم بلغت إلى قيادة الحزب في تونس فدارت حملة تشهير ببورقيبة لا مثيل لها شحنها الحبيب ثامر الذي أصبح يبحث عن فرصة لإزاحة بورقيبة عن مكتب الحزب في القاهرة. كان بورقيبة الذي شعر بالخيبة وهو يقدّم نفسه لجماعة المغرب العربي وكذلك للمسؤولين المصريين على أنه زعيم، قد أصبح مفتوناً بابتداع أساليب مثيرة أخرى. وإذ دأب على لقاء القنصل الأميركي دوليتل، فقد فتح خط اتصال مع «الكابيتان الفرنسي سوليه»، وبموازاة ذلك، كان قد أصبح من فترة زائراً للسفارة العراقية وصديقاً للسفير تحسين العسكري الذي لم يبخل على جميع مطالبيه من جوازات وأموال.

هرب بورقيبة من ذلك الجو الخانق لحركته المليئة بالاتهامات والدسائس، كعادته إلى الأمام. وحتى يجتاز تلك المحنة النفسية التي اشتدت عليه حينما أصبحت على ورق الصحافة في مصر وتونس، قرر أن ينطلق في جولة على الأقطار العربية. تلقى من السفير العراقي جواز سفر ومبلغاً من المال ثم قصد عمان. وفي عمان التي بدت مجموعة قرى بائسة وموزعة على هضبات عارية من الأشجار، سيتلقى برقية من الزعيم المغربي عبد الكريم الخطابي يدعوه فيها للعودة إلى القاهرة، لكن بورقيبة الغاضب سيزداد غضبه ويكتب إلى ذلك الزعيم، أبي أول جمهورية في تاريخ العرب ما معناه: «إنني لم أتسلم أية مبالغ مالية من مكتب المغرب العربي حتى تأمرني بالعودة». وحين أكمل جولته في كل من

الأردن وسوريا ولبنان والعربية السعودية، عاد إلى القاهرة ليجد الجو قد ازداد توتراً لاتهامه بتسلم أموال من الدول العربية التي زارها باسم الحزب وأخفاها لصالحه. أحس بورقيبة بالعزلة خاصة بعد أن قيّد الحبيب ثامر حركته، فأصبحت القاهرة تبدو له كأنها سجن كبير قد ملكت روحه وشلّت حركته، فاختار هذه المرة أن يتجاوز تلك العزلة بالعمل في ساحات عالمية أبعد وأرحب.

لاحت له أميركا من بعيد كقوة جبارة لا تقهر، وإذ سيطرت عليه فكرة السفر اليها، فقد اتجه إلى السفارة الفرنسية للحصول على جواز سفر. ولأن فرنسا لم تعد ترغب في قطع الصلة مع من يتوق إلى التعاون معها، فقد استجاب السفير «لوكوبي» لطلبه فمنحه جواز سفر واضعاً أمامه مبلغاً من المال. كانت الأمم المتحدة في ذلك الوقت تتهيأ للاحتفال بعيدها الأول بعد التأسيس. وكان بورقيبة يركض كالمجنون حتى لا تفوته فرصة الاحتفال. ومن القاهرة سيصل عن طريق الجو إلى جنيف، ومن هناك سينتقل إلى بلجيكا، ليركب باخرة أميركية كانت قد حررت نفسها من المرسى في رحلة متجهة نحو نيويورك. بعد ١٥ يوماً سيصل بورقيبة الذي لا يتكلم الإنكليزية إلى نيويورك في إحدى ليالي كانون الأول/ديسمبر الباردة من العام ١٩٤٦. كان صديقه «صلاح الدين بن عثمان» في انتظاره قائلاً: «إنك وصلت في الوقت المناسب». وحين أخبره أن السفراء العرب يتأهبون لاجتماع، سارع بورقيبة إلى تحسين مظهره، فارتدى بدلة من الطراز الإنكليزي، ثم اتجه نحو المقر الزجاجي للأمم المتحدة عارضاً نفسه أمام المصورين الفوتوغرافيين.

كان بورقيبة قد قرر التحدي واجتياز العزلة التي ضربت من حوله في القاهرة. ولذلك حين يظهر بورقيبة في بعض الصور وهو يسلم على بعض الشخصيات أثناء الحفل، سيثير النقمة والتعجب في نفوس كل الذين حاربوه أو حطوا من شأنه. لقد فهم الآن أن الصورة قد حلت محل الكلمة. وهذا هو الدرس الإعلامي الأول الذي منحته أميركا لبورقيبة وللعالم أجمع.

استمر بورقيبة طوال شهر كانون الأول/ديسمبر بنيويورك، وخلال تلك الإقامة القصيرة سيتمكن بورقية من نسج علاقات كثيرة وطويلة الأمد عن طريق اللبناني «سيسيل حوارني» الذي يعمل كمدير للمكتب العربي للإعلام المدعوم من الحكومة العراقية. لقد عمل سيسيل حوارني وهو مثقف مسيحي متشبع بفكرة العروبة كل ما في وسعه لكي يجعل بورقيبة راضياً عن رحلته بعد أن قرأ تلك التوصية الخاصة من السفير العراقي في القاهرة «تحسين العسكري». كانت الفكرة التي اقترحها حوارني على بورقيبة تتلخص في

التالي: «إن الولايات المتحدة يمكن أن تدعم القضية التونسية فيما لو وقع الطلب من منظمة الأمم المتحدة لتطبيق ميثاق فرنسيسكو الداعي إلى إزالة الاستعمار وتحرير الشعوب، وهو الميثاق الذي وافقت عليه فرنسا كقوة استعمارية». ثم أضاف: «إن مجلس الجامعة العربية هو الذي بإمكانه أن يرفع القضية التونسية إلى الأمم المتحدة ويكلف الدول العربية الخمس الأعضاء في تلك المنظمة».

أصبحت فكرة «سيسيل حوارني» تحظى بالتقدير لدى سفير العراق في القاهرة. وقد وافقت عليها حكومته فيما بعد، فطرحت على الجامعة العربية. وبالتوازي مع ذلك دعا دستوريو القاهرة إلى فكرة تنظيم مؤتمر لشمال إفريقيا الذي انعقد من ١٥ إلى ٢٢ شباط/ فبراير ١٩٤٧، وأسفر عن تكوين مكتب لشؤون المغرب العربي. هذا المكتب الذي سيعوض نشاطات مكتب حزب الدستور، سيؤرخ لانفصال سياسي بين المغرب والمشرق العربيين، وكذلك لإنشاء فكرة المغرب العربي مقابل المشرق العربي، ولكن قبل ذلك سيهمش زعامة بورقيبة.

بدا الأمر وكأنه مفارقة مذهلة، فالفكرة التي ناقشها حوارني مع بورقيبة في نيويورك بخصوص قضية تونس ستتطور إلى أن تصبح وكأنها دعوة لإسقاط بورقيبة. فما إن فتح مكتب شؤون المغرب العربي، حتى أغلق مكتب حزب الدستور. وإذ غضب بورقيبة، فإن زميله ورئيس مكتب حزب الدستور في القاهرة الحبيب ثامر، سيبدأ معه صراعاً مريراً سينتهي بالطلاق.

سيدخل بورقيبة إلى القاهرة فيجد نفسه شبه معزول. فالثلاثي يوسف الرويسي مدير مكتب دمشق لحزب الدستور والحبيب ثامر مدير مكتب القاهرة ومعه الطيب سليم قد اتفقوا فيما بينهم على أن هذا الرجل لا يركض إلا نحو مجده الخاص. ولكنه سوف لن يستسلم إلى تلك العزلة. ودون أن يستشير أحداً من رفاقه أو من مكتب المغرب العربي، ذهب في جولة عربية ثانية قادته إلى العربية السعودية وسوريا والعراق والأردن. في العربية السعودية وجد ترحيباً كبيراً من العاهل ابن سعود، وقد وضع تحت تصرفه مساعدة مالية، وفي سوريا أغلقت في وجهه جميع الأبواب بفضل علاقات يوسف الرويسي المتينة مع السوريين بالرغم من أن بورقيبة حاول التسلل عن طريق «رفيق عشّه»، وهو مستشار في البعثة السورية بالأمم المتحدة في نيويورك، وفي بغداد كاد بورقيبة أن يفقد صوابه لأنه لم يجد من يستمع إلى آرائه رغم علاقته الجيدة مع السفير في القاهرة تحسين العسكري والقنصل في نيويورك عبد الله بكر. أما في عمان فقد نصحه «الملك عبد الله» بعد أن

وصل إليه عن طريق صديق فلسطيني من آل المصري، بالتنسيق مع مكتب المغرب العربي في القاهرة وبعدم السفر إلى مدريد، لأن ذلك قد يسيء إلى مشاعر الأخوة المغاربة.

كانت رحلة بورقيبة إلى البلدان العربية فاشلة هذه المرة. فقد قطع عنه مكتب المغرب العربي الطريق، ثم إنه قد أصبح يتحرك تحت الضغط النفسي، وقد تراكمت فوق ظهره اتهامات عديدة ساندها رجال كبار من وزن زعيم الريف عبد الكريم الخطابي. وعمل على تغذيتها آخرون كانوا من تونس ينافسونه على زعامة الحزب، وإلى جانبهم آخرون أصبحوا لا يرون في بورقيبة غير رجل أناني، يتحرك بسرعة الريح، غير خاضع لأي نوع من الالتزام والعمل الجماعي، وهارب باستمرار إلى الأمام، وكأن صوتاً من خارج الأرض كان ينادي عليه.

* * *

كانت الفكرة التي سادت بعد أن استقر أسد الريف الخطابي في القاهرة، هي أن يبدأ أبناء المغرب العربي كفاحاً مسلحاً طويل الأمد تحت قيادة واحدة ومن أجل أهداف واحدة. وقد تحمس لتلك الفكرة شباب كثيرون من تونس والجزائر والمغرب يحملون دماء جديدة وآخرون أصابتهم الخيبة من فرنسا التي لم تف بوعودها بعد أن انتهت الحرب. أصبح مكتب المغرب العربي يحمل اسم «لجنة المغرب العربي» وقد أسندت قيادتها إلى «الخطابي» الذي كان يحظى بسمعة عربية ودولية بلغت حتى «ديان بيان فو» في الفيتنام. ولكن بورقيبة اشمأز من تلك الفكرة ورأى فيها انحداراً إلى الأسفل أو تراجعاً إلى الخلف، وقال لبعض رفاقه في الحزب: «إن الخطابي يتصرف كمقاتل، وهو سيصطدم بعدة عقبات». اختار بورقيبة صف الأقلية، بل كاد أن يصبح وحده في الوادي الذي اختاره لزراعة أفكاره المعتلة!. أما الأغلبية فقد اصطفت وراء الزعيم المغربي، الذي سانده خطاب العاهل محمد الخامس في طنجة إذ قال فيه: «إن المغرب قد قرر استرجاع كل حقوقه». أرسل الخطابي مبعوثين انطلاقاً من القاهرة إلى بلدان المغرب العربي للتنسيق بين حركات التحرر والاتفاق على أعداء الساحة للكفاح المسلح، وآخرين إلى بلدان المشرق للتحالف والبحث عن الدعم. وفيما تراجع بورقيبة وقد رأى دوره يتضاءل، برز الحبيب ثامر الذي كان أول داعية في «حزب الدستور» إلى التعاون مع القوميين العرب في المشرق، ثم أطلق حملة تشويه منظمة ضد ذلك الذي وضع «القومية التونسية» فوق القومية العربية.

انتقلت الاتهامات التي جمعها أعداء بورقيبة بعناية إلى صفحات الجرائد القاهرية. فهو مورط في علاقة مع السفارة الفرنسية وأخرى مع السفارة الأميركية. وهو كثيراً ما يتلقى

أموالا من السفارات أو من الحكومات مرة باسم الحركة الوطنية التونسية وأخرى باسم المغرب العربي، لكنه يحولها إلى حساباته الخاصة، وهو يرتبط بعلاقات نسائية مشبوهة. وإلى غير ذلك.

وسيعترف بورقيبة لاحقاً، بأنه أقام علاقات مع السفير الفرنسي في القاهرة السيّد لوسيير (Le Seuyer) وبعد أن انتقل ذلك السفير إلى مكسيكـو، استمر في علاقته مع السفارة من خلال الكابيتان سوليبه (Soulié). ولكن ما لم يذكره بورقيبة بوضوح، هو أنه كان يعرف جيداً أن السفارة الفرنسية كانت تبحث عن رجل بإمكانه أن يشق صفوف لجنة تحرير المغرب العربي ويفتت جهودها، وأن السفارة وضعت تحت تصرفه جواز سفر ومبالغ من المال، وأن ذلك تم بعد أن حرر تقريراً قال فيه بوضوح: «إنه حتى لو أنه قد أصيب بخيبة في حس فرنسا السليم، فإنه لا يزال يعتقد بتكوين دولة تونسية ذات سيادة مرتبطة مع فرنسا بمعاهدة جديدة!. لأنه يؤمن جيداً بأن تونس ليس بإمكانها أن تعيش بدون مساعدة فرنسية. وإن إمكانية تكوين مجلس نيابي منتخب وحكومة تحت قيادة عاهل شرعي، ستكون مفيدة للجميع»(٦).

وقبل أن يقوم بزيارة له إلى لبنان في ربيع ١٩٤٨، جرّده الحبيب ثامر من أية مسؤولية في القاهرة. لقد وصل الصراع بينه وبين ثامر الذي يصغره بنحو ١٥ سنة إلى نقطة حرجة. صراع تداخلت فيه الأجيال والثقافة والأفكار وكذلك الأخلاق. كان الحبيب ثامر يعتقد أن بورقيبة لا يعرف العمل الجماعي، وقد أصبح حساساً جداً لمناقشة أية مسألة لا تتناسب وأفكاره، وهو إما يلجأ إلى الصراخ أو إلى تفتيت أية جهود، ثم اقتنع أخيراً بأن عليه أن يتحمل مسؤولياته، فهو الرئيس الفعلي لحزب الدستور الجديد منذ ١٩٣٩، بالرغم من أن بورقيبة استحوذ على تلك الصفة في الفترة السابقة.

لقد قاد الحبيب ثامر الحزب من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٣ في مرحلة مضطربة، هي سنوات الحرب العالمية الثانية، حين كان بورقيبة في السجن. وقد اكتسب ثامر شهرة جعلت منه بطلاً منافساً لبطولة بورقيبة، بسبب جرأته وشجاعته. وقد مر هذا الرجل الذي يشبه «الجنتلمان الإنكليزي» في هيأته ولباسه وحركاته وبرودة دمه بعدة مطبات في حياته، وكاد أن يقتل في أكثر من مناسبة، لكنه كان متواضعاً إلى درجة بدا فيها وكأنه رجل متصوف لا يعرف غير العمل. كان يميل إلى الصمت. وإذا تكلم فهو مقنع وموجز. أما إذا اقتنع بفكرة فإنه يذهب بها إلى الحد الأقصى، كان رجل فعل أكثر منه رجل كلمة، وإذ فاز عليه بورقيبة بأساليبه التكتيكية، فإن الحبيب ثامر كان غالباً ما يحدّد هدفه الأكبر بلا مناورة أو

مراوغة. وباختصار، فإن حَبيبيْ القاهرة الحبيب بورقيبة والحبيب ثامر سوف لن يعودا حبيبين كما كانا في السابق. اتجه بورقيبة إلى بناء شبكة خاصة من الرجال داخل حزب الدستور في القاهرة فوضع على رأسها كلاً من خليفة حواص الذي نقله إلى هناك وعلالة العويتي سكرتيره الخاص الذي راح ينتقل بين تونس والقاهرة. وقد ضمّت تلك الشبكة كذلك ابنه الحبيب في باريس وبعض أقربائه في تونس، تحت رعاية «عزوز الرباعي» الذي سيلعب منذ ذلك الوقت دور «الرتل الخامس» لصالح بورقيبة داخل حزب الدستور.

أما الحبيب ثامر فقد أصبح هو الرجل الأول في القاهرة داخل الدستوريين. لقد سيطر على كل شيء بما في ذلك إدارة الميزانية. ومع المنجي سليم، سوف يحدان من حركة بورقيبة، وهما على قناعة بأن «اللوبي البورقيبي» داخل الحزب يجب أن يقتل في المهد، وأن هذا الحزب لم يبعث ليكون في خدمة شخص أصبح يعيش في القاهرة على هواه بفضل الأموال التي جمعها باسم الحزب.

كان بورقيبة لا يعرف أي معنى للأموال. إنه ينفق كثيراً وبلا سيطرة مثلما يتكلم. وقد راح يعاشر نساء كثيرات سيئات السمعة. كان يتجول في شوارع القاهرة على متن سيارة من نوع سيتروين، ويقدم نفسه في الجلسات الخاصة على أنه مهاجر تونسي عائد من العربية السعودية. يسكن بمنطقة «المعادي» الراقية ويواظب على قضاء عطلاته في الإسكندرية، حيث يقضي أوقاته بين رياضة الصيد وبين زورق عائلة السيد «عبد الحميد إسماعيل»، وهو أحد الموظفين الكبار في البلاط الملكي. وعلى شاطئ الإسكندرية تعرف بورقيبة إلى ابنة الفنان «سيّد شطا»، فأصبح لا يفارقها بينما كانت تبدو تلك المرأة الغارقة في اللحم والابتذال كمثال على انحراف بورقيبة نحو ليالي اللهو(٧).

شقّت قصة علاقة بورقيبة وابنة سيّد شطا طريقها نحو الصحافة بسهولة ثم بلغت إلى تونس، فاغتاظت «وسيلة بنت عمار»، المرأة التي أصبح لها قلبان، واحد للعشيق المسافر والمخادع الحبيب والثاني للزوج المقيم والمخدوع الشاذلي. وسألت ابن أخيها «هشام» العائد من القاهرة فأكد لها تلك العلاقة. اشتد الغضب بوسيلة فدبرت حيلة للوصول إلى القاهرة بعد أن أقنعت عائلتها وزوجها بالحجج. وحين وقفت على الحقيقة، أرادت أن تقطع صلتها بذلك الرجل الذي استبدلها براقصة رخيصة، لكن بورقيبة استعمل كل موهبته فأغدق عليها الوعود الوردية من وراء ظهر زوجها وأضاف لها جرعة من التهديدات وأخرى من الهدايا. ورغم ذلك فإن وسيلة ستشعر أنها أهينت وأهانت زوجها، الأمر الذي سيجعلها أكثر إصراراً على الانتقام، ولكن كما تفعل كل النساء، عن طريق الزواج!.

ذات يوم، وكانت زيارة وسيلة إلى القاهرة قد جعلته يبدو كرجل عار من أي عطف، جاءه بواب مكتب لجنة تحرير المغرب العربي ليسلمه رسالة مرقونة على الآلة الكاتبة. قرأ بورقيبة الرسالة فأصيب بالهلع إذ عرف أن الحزب قد جرّده من كل مسؤولية مالية. كانت الضربة هذه المرة قاسية جداً لأنها جردته أولاً من الأموال ثم لأن القرار صدر في تونس عن الديوان السياسي، وليس في القاهرة. فعلاوة على أن حزب الدستور قد ضعف في الفترة الأخيرة رغم وجود قيادة نشيطة على رأسه مثل صالح بن يوسف، فإن تغييرات كثيرة قد حدثت في غياب بورقيبة جعلت من حزب الدستور مجرد فصيل من الفصائل الوطنية تصطف جميعها وراء ملف عودة الملك المنفي في «بو» المنصف باي. لقد أصبح حال بورقيبة في القاهرة يشبه كثيراً حال الحزب التونسي.

لقد اقتنع الديوان السياسي لحزب الدستور الجديد أخيراً بأن المرحلة تتطلّب التعاون والتحالف، وأنه يحتاج إلى جميع القوى من أجل أن ينهض بمهامه. ولأنه لم يكن قادراً على فرض شروطه أو أفكاره، فقد قبل بالاشتراك في المؤتمر الوطني في ليلة القدر المصادفة في ٢٣ آب/أغسطس لعام ١٩٤٦، كفصيل لا أكثر ولا أقل. إن تلك الليلة المباركة ستزداد بركة في عيون الشعب وهو يرى أن الطريق قد أصبحت مفتوحة لتكوين «تحالف وطني» بدلاً من السير متفرقين في شتى الاتجاهات. ورغم أن هناك من قال: «لو أن بورقيبة موجود في تونس ما كان ليحدث مؤتمر ليلة القدر»[٨]، فإن بورقيبة قد رأى فعلاً في تلك الليلة وكأنها ليلة اغتيال لحزب الدستور الجديد.

اجتمع ذلك المؤتمر الذي سيسمّى كذلك «بمؤتمر الاستقلال» في بيت أحد المناضلين في باب الخضراء. وقد جمع أكثر من ٢٠٠ شخصية هم قضاة ومحامون ومناضلون من الحزبين الدستوريين القديم والجديد وبعض الأعيان وترأسه القاضي العروسي بن الحداد. كان رأي صالح فرحات مندوب الحزب القديم في تلك الليلة تقريباً هو رأي صالح بن يوسف الذي أصبح الرجل الأول في الحزب الجديد، ولكن قبل أن ينتهي ذلك المؤتمر من أشغاله دهمت قوة فرنسية مكان الاجتماع فألقت القبض على قائمة طويلة من بينهم صالح فرحات والدكتور الماطري ومحمد شنيق، وهما وزيران سابقان لدى «المنصف باي» والفاضل بن عاشور مفتي عهد الاستقلال ابن المفتي الطاهر بن عاشورن وإلى جانبهم الشيوعي سليمان بن سليمان.

انتهى ذلك المؤتمر بنكبة كما قال بورقيبة، أو كما تمنى ذلك حسب بعض الشهادات. وإذ عادت قيادة الحزب إلى السجن بأوامر المقيم العام «الجنرال ماست»[٩]، فإن تلك القيادة

ستتلقى لأول مرة عرضاً تفاوضياً من المقيم العام الجديد السيد «جون مونس Jean Mons[١٠]» الذي خلف الجنرال ماست في شباط/فبراير ١٩٤٧، وهو مدير سابق لمكتب «ليون بلوم» زعيم الجبهة الشعبية الفرنسية.

تلقى صالح بن يوسف ذلك العرض بحذر، وحين ناقشه مع ابن الباي «الشاذلي باي» الذي كان غاضباً من تسمية أبيه «الأمين باي» بـ«باي الفرنسيين»، وجد الحماسة من القصر لكي يلتقط تلك الفرصة، لأنها ستجعل من الحركة الوطنية ولا سيما حزب الدستور الجديد طرفاً قوياً وشرعياً. رأى بن يوسف أن يعرض ذلك على فصائل أخرى من الحركة الوطنية، وخاصة على الحزب القديم وكذلك على الاتحاد العام التونسي للشغل الذي ولد في كانون الثاني/يناير ١٩٤٦، بعد محاولات عسيرة، والذي أصبح قوة لا يستهان بها توجد تحت قيادة رجل أصبح ذائع الصيت هو «فرحات حشاد». فكانت الفكرة السائدة هي تكوين جبهة وطنية موسعة للدخول إلى تلك المفاوضات بقوة إذا كانت فرنسا جادة. أعجب بن يوسف بتلك الفكرة التي نطق بها في البداية صالح فرحات (من الحزب القديم)، ولما لاحظ ميل فرحات حشاد نحوه، وقد رأى بعين ثاقبة أن بإمكانه أن يفرض استقلالية اتحاد العمال إذا ما تحالف الحزب الجديد بشروط أفضل، اقتنع بن يوسف بأن الفرصة حانت ليس فقط لإنقاذ الحزب وإعادة الثقة في صفوفه، وإنما كذلك لاختبار نوايا فرنسا وهو مدعوم بقوة عمالية استعدت لجميع الاحتمالات، وقد دللت على ذلك من خلال حوادث صفاقس في آب/أغسطس ١٩٤٧ ثم في حوادث النفيضة المؤلمة التي أعقبتها.

أصبح حزب الدستور تحت قيادة الثلاثي العنيد والمهيب. إثنان في الداخل وهما صالح بن يوسف الذي يتقن لغة القانون وفن المساومة وقد ورث عن والده الجربي، كبير تجار تونس حسن التصرف في الأموال ومعرفة الرجال، وهو الذي عرف الوزارة مبكراً فعاشر الأمراء والبايات بلا عقد أو مراوغة. ثم المنجي سليم الذي يتحدر من العائلات البورجوازية للمماليك القادمين إلى تونس مع انتشار الأمبراطورية العثمانية وهو رجل مثقف، حاذق، ذكي ومرن وشديد الحساب مع نفسه، ومع أصدقائه. أما الثالث فهو «الحبيب ثامر» لا غيره الموجود في القاهرة والذي وضع حداً لألاعيب بورقيبة وأخرجه من موقع القرار بفضل حنكته وجرأته وحبه للعمل وكسبه لثقة الحزب في الداخل والخارج. تعاون ذلك الثلاثي على إعادة بناء وانتشار الحزب. وهكذا وفي غياب بورقيبة عرف الحزب الذي كان كثيراً ما يسمّى «بحزب بورقيبة» فترة تخصيب سرعان ما جعلت منه القوة الأولى في

البلاد. قوة ذات توجه تقدمي حين التحقت به قوة العمال، ثم انضم اليه الاتحاد التونسي للصناعات التقليدية والتجارة. ولما عمل هذا الحزب على بعث اتحاد الفلاحين، تمكن من اجتياز المصاعب المالية بفضل التبرعات التي يغدقها الفلاحون التوانسة. خرج الحزب من صالونات النخبة إلى شمس الشوارع، ومن المدينة إلى الريف ومن المكاتب إلى المزارع والمناجم، وراح يستعد لمعركة فاصلة بعد أن غدا جهازاً قوياً ومخيفاً، وكف عن أن يكون مجرد وسيلة دعاية بيد بورقيبة. ذلك الجهاز كان على قدر كبير من التراتبية، فهو هيكل يتصاعد انطلاقاً من قاعدة الخلية أو الشعبة وصولاً إلى قمة المكتب السياسي مروراً بالمجالس المحلية فلجان التنسيق الجهوية إلى المجلس الوطني. باختصار، وكما وصف ذلك المقيم العام الفرنسي، أصبحت كل تونس تحت قبضة ذلك الجهاز الحزبي. يضيف المقيم العام لويس بيريه (Berrillier)[١١] بعد فترة «لم يعد بإمكان المقيم العام أن ينتقل إلى أي مكان داخل تونس دون أن تعترضه تجمعات دستورية».

إذا كان أغلب المنتمين إلى ذلك الحزب لا يزالون من الساحل، فإن الحزب قد خرج من تحت وصاية النخب الساحلية، إلى حين آخر. فصالح بن يوسف والحبيب ثامر والمنجي سليم ومعهم القائد النقابي فرحات حشاد، الذين ينتمون إلى مناطق مختلفة من خارج الساحل هم الذين يسيطرون على ذلك الحزب الآن. وباستثناء الهادي نويرة، أصيل المنستير الذي أصبح مسؤول جريدة «مهمة» الناطقة بالفرنسية والتابعة للحزب، فإن جماعة المنستير سيتراجعون إلى الصفوف الخلفية. لقد بدا الأمر وكأنه تحالف داخلي بين الجنوب وتونس العاصمة وصفاقس لتفكيك القيادة من بين يدي أبناء الساحل، وإذ استوت لهم الأمور في البداية، فإن عودة بورقيبة المفاجئة من مصر ستربك ذلك التحالف وتجعله يتفكك شيئاً فشيئاً.

* * *

أصدر الحزب الآن جريدتين الأولى بالعربية «الحرية» والثانية بالفرنسية «مهمة»، وإذ استعد جيداً لعقد مؤتمر خارق للعادة لرسم الخطوط العريضة للمرحلة المقبلة، فإن بورقيبة قد شن على قيادة تونس حملة عنيفة. انتقد اللغة التي أصبح يتكلم بها الحزب ووصفها بأنها لغة معتدلة ومتخلفة، وكان ذلك نوعاً من المزايدة، لا لأنه يقدم نفسه دائماً كرجل معتدل داخل الحزب، ولكن لأن كل شيء قد أصبح خارج سلطته. وجاء موت الباي المنفي في مدينة «بو» المنصف الباي، ففجر عدة عبوات مؤقتة بين بورقيبة وقيادة الحزب. فقد انتقد تخاذل الحزب حين لم ينظم جنازة لائقة بـ«الباي المناضل». ورغم أن بورقيبة قد جعل على

كتفيه حملاً ثقيلاً يسمى «الشرعية» فإنه يتحرّر لاحقاً من أية وصاية، لكي يواصل الهجوم من موقعه في القاهرة على قيادة تونس للحزب.

وها هو إذن ينجح في مناورته. لقد قرر صالح بن يوسف أن يسافر إلى القاهرة لكي يسكت انتقاداته ويصلح بينه وبين الزعيم المغربي عبد الكريم الخطابي. وبعد إقامة قصيرة عاد بن يوسف بعد أن أسند رئاسة الحزب لبورقيبة والأمانة العامة إليه شخصياً، والشؤون الخارجية للحبيب ثامر. وإذ حصل بورقيبة على ما يريد واسترجع خيوط علاقته مع الخطابي بفضل وساطة بن يوسف، فقد شعر كل واحد منهما بأن عليه أن يواصل الهجوم نحو زعامة المرحلة.

دعا الأمين العام بن يوسف إلى مؤتمر، عرف بمؤتمر «دار سليم» والذي سيسمّيه بورقيبة بمؤتمر الغدر والنفاق. ذلك أن المؤتمر الذي سيتواصل لمدة ثلاثة أيام بداية من ١٦ إلى ١٩ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٤٨، ستفتتح أشغاله وسط خلافات حادة ومساومات رخيصة وأجواء مثقلة بالغموض. اعترض البعض على شرعية المؤتمر لأن رئيس الحزب غائب، ودعمه البعض الآخر بتأجيل المؤتمر. أما البعض الثالث فقد حرص على أن تكون عناية الباي إلى جانبهم، وتساءل البعض الرابع عمّن يستطيع أن يؤكد له أن هذا المؤتمر ينعقد بموافقة قادة الحزب. وإذ غضب بن يوسف قائلاً للمؤتمرين: «هل لا بد أن أحضر معي شهوداً من المحكمة للتأكيد على أقوالي»، فإنه استطاع أن يتماسك ويضغط على أعصابه فيمسك بجلسات المؤتمر الذي انتهى بمساومة حاذقة: وافق بن يوسف على أن يبقى بورقيبة في رئاسة الحزب ثم وضع إلى جانبه ثلاثة نواب، لكي يجعلوا منه رجلاً بلا حركة، وهم: الهادي شاكر في تونس، يوسف الرويسي في دمشق، والحبيب ثامر في القاهرة. كان واضحاً أن رئاسة بورقيبة للحزب قد أصبحت شرفية لأن السلطة الفعلية لم تعد بين يديه.

بالرغم من أن بن يوسف قد توصل إلى تسوية لم تعجب بورقيبة أبداً، إلا أن كثيرين يذكرون اليوم نزاهة ذلك الرجل وترفعه عن المهازل، لأنه كان آنذاك في قمة توهجه وكان بإمكانه أن يتخلص من بورقيبة بقرار يصدره المؤتمرون، لكنه لم يفعل ذلك. ولكن ما لم يفعله بن يوسف في العام ١٩٤٨ ضد بورقيبة، سيفعله بورقيبة ضد بن يوسف في العام ١٩٥٥.

إزداد مزاج بورقيبة حدة، وأصبح رجلاً عصبياً وقد شعر بالعزلة والاختناق. ورغم أنه كان يعتقد أن الرجال الكبار وحدهم الذين يتعرضون للخيانة، إلا أنه لم يعد قادراً على العمل

والتواصل إذ انعدمت ثقته بالناس تماماً. ويتذكر سكرتيره الخاص علالة العويتي، كيف أن بورقيبة في ذلك الوقت لم يعد يميز بين من يحبه وبين من يكرهه. وازداد شعوره بالإهانة حين أصبح مهمشاً لدى مكتب المغرب العربي، وبات رصيده السياسي معرضاً للفقدان(١٢).

وحين بلغه أن المجلس الوطني للحزب سينعقد في الثاني من آب/أغسطس ١٩٤٩، تأكدت مخاوف بورقيبة، وعرف، حسب شهادة العويتي أن «زعامته» ستكون هي النقطة الأولى والأخيرة في ذلك الاجتماع. وإذ طالب «الفرجاني بلحاج عمار» و«الهادي شاكر» وآخرون بتكوين لجنة للتحقيق مع الذين يصدرون الأوامر من الخارج دون المرور بالمكتب السياسي للحزب، وهم غارقون في ملذات الحياة، وكانوا يقصدون بورقيبة لا غيره، فإن الهادي نويرة وسليمان بن سليمان قد دافعا لوحدهما عن بورقيبة. كان علالة العويتي لا يزال يروي ما حدث في ذلك المجلس، لبورقيبة الموجود في القاهرة، حين نهض هذا الأخير قائلاً: «لا بد أن أعود حالاً إلى تونس. سوف أجعلهم يندمون الواحد تلو الآخر. كنت أعرف من البداية أن بن يوسف هو الذي دبّر مؤامرة رحلتي إلى مصر لكي يتخلّص منّي وتفرغ له الساحة»(١٣).

هاتف بورقيبة ابنه الحبيب، قائلاً له: «يمكنك أن تتأكد أني سأصل إلى تونس اليوم ٨ أيلول/سبتمبر» وحين هاتف بن يوسف ليخبره بقدومه، وجده غير متحمس لذلك طالباً منه أن يؤجل ذلك، غير أن بورقيبة كان مصراً على العودة.

كان بورقيبة قد خبأ جواز سفر باسمه الحقيقي في الخزانة لمدة سنتين، وهذا الجواز الذي قال بورقيبة إنه حصل عليه بواسطة أحد الشباب الدارسين(١٤) في فرنسا عن طريق شرطية فرنسية، أرسله إليه في القاهرة عن طريق الخارجية السورية التي أرسلته بدورها إلى الخارجية المصرية، سيوصل بورقيبة إلى تونس، ولكنه سيثير له متاعب كثيرة ويخضعه إلى اتهامات شنيعة. اختار الخطوط الجوية عبر العالم (البانام) للعودة إلى مطار تونس/العوينة، بعد أن حصل على تأشيرة عودة من القنصلية الفرنسية بسهولة، وفي الساعة الرابعة من مساء يوم الخميس الموافق في ٨ أيلول/سبتمبر ١٩٤٩، وضع بورقيبة قدميه على أرض الوطن ليضع نفسه في مواجهة قدره.

ها هو إذن بورقيبة يصل. لم يكن يناور، بل فعل ما قاله بالضبط وما لم يتوقعه أحد. كثيرون حاولوا إقناعه بعدم العودة لكنه لم يستمع إلاّ إلى صوته الداخلي. القنصل الفرنسي قال له: «إننا نخاف أن تحدث اضطرابات تفسد توجهات فرنسا الجديدة». صالح بن

يوسف قال له: «انتظر قليلاً ريثما تهدأ بعض الخلافات»، وسيلة بورقيبة لم تصدق أنه سيعود حين أخبرتها ابنة أخته سعيدة ساسي. أما «علي عبد الصمد» كاتب بورقيبة الخاص وزوج ابن أخته «حسن ساسي»، فقد دعوا الناس من المنستير وقصر هلال لاستقبال بورقيبة على أرض المطار.

باع سيارته السيتروين وحزم حقائبه وأوراقه، ثم اتجه إلى مطار القاهرة. سأل الموظفة ما إذا كان جوازه لا يزال صالحاً للسفر فأجابته بنعم، ثم تسلّل إلى قاعة المسافرين إلى تونس على رحلة البانام. وهناك سيجد بورقيبة في انتظاره حشوداً كثيرة للاحتفال بعودته، فعرف أنه لا يزال يتمتع بشعبية كبيرة. وتساءل ما الذي يمكن أن يفعل رجل مثلي بكل هذه الشعبية؟.

حين هدأت الطبول وزغاريد المحتفلين بعودة الزعيم، سيجيب بورقيبة نفسه «إن رجلاً لا يعرف ماذا يفعل بشعبيته إنما هو لا يستحق الزعامة». وفي تلك اللحظة عرف كل من بورقيبة ومنافسه بن يوسف أن معركة الزعامة الحقيقية قد بدأت. وكان واضحاً للذين منحهم الله بعد النظر، أن كلّ شيء سيسير نحو حرب أهلية.

الهوامش:

(١) القنصل الأميركي دوليتل، كان صديقاً للدستوريين. عمل في تونس ثم انتقل إلى الإسكندرية عقب الحرب الثانية وقد عرف بعلاقته الجيدة مع صالح بن يوسف وبورقيبة. وهذا الرجل سيلعب دوراً كبيراً في صنع بورقيبة كزعيم.

(٢) لطالما ردّد بورقيبة هذا البيت الشعري. وفي أحيان كثيرة كان يوحي بالبكاء والتأثر الشديد. كرّر ذلك في خطابات كثيرة في معرض روايته للرحلة التي حملته إلى مصر.

(٣) «آرائي، حياتي وكفاحي. مجموعة محاضرات في معهد الصحافة وعلوم الأخبار ـ خرجت في كتاب تحت إشراف محمد الصياح ١٩٧٣.

(٤) من رسائل بورقيبة ـ **وثائق تاريخ الحركة الوطنية التونسية**، تحت إشراف محمد الصياح حين كان مديراً للحزب الحاكم.

(٥) لن ينسى أبدا بورقيبة صديقه «سيسيل حوارني» إذ سوف يستقبله عدة مرات حين أصبح رئيساً ويمنحه وساماً عالياً. وسيسيل حوارني، ينتمي إلى تيار القوميين العرب، وكان يعمل مباشرة مع القيادة العراقية منذ الأربعينيات، كضابط اتصال مع الأميركان. سيسيل حوراني هو الذي سيكون ضابط الاتصال بين بورقيبة وبين بعض رجال الخارجية الأميركية لفترة طويلة.

(٦) **Bourguiba: la conquête d'un destin 1901-1975. jeune Afrique** Edition: 1989 Sophie Bessis et Souhayr Belhasse-Paris.

أنظر كذلك «**رسالة بورقية، سياسة الإنسان**» كاميل بيغيه، Camille Bégué نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس.

(٧) من رسائل الحبيب ثامر إلى الحزب. ورد ذلك في أكثر من مصدر، أنظر: **رسائل الباهي الأدغم ـ ومذكرات بن سليمان.**

(٨) قال ذلك علالة العويتي رحل بورقيبة وكاتم أسراره وسكرتيره الخاص

(٩) الجنرال ماست Mast، هو المقيم العام الفرنسي رقم ١٨، فترة ولايته امتدت من تموز/يوليو ١٩٤٣ إلى كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٦.

(١٠) جون مونس Jean Mons هو المقيم العام رقم ١٩، من كانون الثاني/يناير ١٩٤٧ إلى حزيران/يونيو ١٩٥٠.

(١١) لويس بيريه Louis Periller هو المقيم العام رقم ٢٠، امتدت فترة ولايته من حزيران/يونيو ١٩٥٠ إلى كانون الأول/ديسمبر ١٩٥١، وقد كتب هذا المقيم مذكرات جاءت تحت عنوان، الحياة القاسية.

Edition Julliard, La vie dure, Paris 1953.

(١٢) **Bourguiba-la conquete d'un destin 1901-1957** S. Bessis-et S. Belhassen 1989. Jeune Afrique-Livres.

(١٣) **آرائي، حياتي وكفاحي**، محاضرات في معهد الصحافة وعلوم الأخبار، تم جمعها بإشراف محمد الصياح، عام ١٩٧٣.

(١٤) الرواية وردت بلسان بورقيبة في المصدر السابق. ويعتقد أن ذلك الشاب هو محمد المصمودي الذي سيصبح رفيق دربه ثم وزير خارجيته الأشهر.

سنوات الرقص:

الشيطان يرقص على أكثر من ساقين

«كلّ ما ينتمي في هذه الأرض إلى الله يمكن أن ينتمي إلى الشيطان. حتى حركات العشّاق في الحبّ».

«ميلان كونديرا»

رواية «المزحة»

ترك بورقيبة القاهرة جريحة ومبحوحة الصوت وكئيبة. فما حدث في فلسطين أصاب جميع العرب والمصريين بخيبة كبيرة في حكّامهم وجيوشهم. ولأن العرب لا يرون الكارثة قبل وقوعها، فهم كذلك غالباً ما يزيّنون النكسات بالخرافات. هجم الجيش الإسرائيلي باندفاع لم يعرفه اليهود أبداً عبر تاريخهم، فهزم عدة جيوش عربية دفعة واحدة، هزيمة لم يعرفها تاريخهم أبداً. كان الملك فاروق الذي دبت فيه قبل المعركة روح جدّه إبراهيم باشا، رجل بلاد الشام القوي، قد شعر بأن العالم تغير فعلاً حين عرف أن جيشه قد أصبح خارج العمليات. ولأنه كان مقامراً في حياته الخاصة، فقد نظر إلى تلك الهزيمة على أنها مجرد جولة. ولكن بعد سنوات قليلة فقط، سيتأكد أن الحرب لا تشبه أبداً قمار الكازينو. ومنذ ذلك الوقت سيطلّق فاروق زوجته فريدة ذات الشعبية النادرة، ويصبح رجلاً كريهاً وهارباً من شعبه ولا يتنقل في القاهرة إلا تحت حماية البوليس.

في الوقت نفسه كان المجتمع المصري قد راح ينتقم لتلك النكسة وهو يتفكك على طريقته. وإذ نجا النحاس باشا بأعجوبة من محاولة اغتيال، فإن النقراشي باشا رئيس الوزراء آنذاك قد قتل وهو على منصة المجلس. آنذاك صعد رئيس وزراء آخر هو «إبراهيم عبد الهادي» في مهمة صعبة هي: تنظيف الشوارع والدولة من رجال حسن البنّا، مرشد الأخوان الأكبر. وبعد أسابيع فقط سقط ذلك المرشد الذي دعا إلى عدم وقف إطلاق النار وقتل رجال فاروق، صريعاً في أحد شوارع القاهرة.

أصبح الملك والأخوان تحت قبضة الإرهاب. وخيّم على مصر جو خانق مشبع بالاتهامات، سوف لن يرفع إلا حين ينتقم الجيش لنفسه ولشرفه. إن جيشاً مقهوراً في الخارج غالباً ما يذهب مباشرة إلى هدفه في الداخل. كان انقلاب حسني الزعيم في سوريا قد فتح باب الانتقام على مصراعيه، ولم يلبث باب القاهرة أن انفتح لاستقبال جيش قاتل بكل بسالة، ولكن حكومته الفاسدة لم تسنده.

وكما ترك القاهرة كئيبة تحدق في المجهول في انتظار من يرفع عنها الذل، ترك بورقيبة أيضاً الجامعة العربية غارقة في لغة الاتهامات والعجز. فهذا المجمع العربي الذي سيظلل دائماً متّهماً بأنه أحد كائنات «المستر أنطوني» العجيبة، لم يكشف لا عن قدراته ولا عن مهمّاته بوضوح. وقد حاول بورقيبة خلال وجوده في القاهرة أن يجره إلى تبني القضية التونسية أو قضايا المغرب العربي، لكنه لم يجن الكثير. ولما جاءت محنة فلسطين، أصبحت الجامعة العربية وكأنها قد بُعثت خصيصاً لمعالجة تلك المحنة، غير أن تاريخها الممتد منذ أواسط الأربعينيات لم ينطق بأي حكمة في هذه القضية.

هكذا إذاً كان بورقيبة قد عاد إلى تونس متوتراً وخائباً من «خيانات» رفاقه، فهو كذلك كان متوتراً وخائباً من عجز الجامعة العربية وكذلك من مكتب المغرب العربي ومن مصر البيروقراطية والدائخة بين مثلث القصر والإنكليز والأخوان المسلمين، ومن الشرق كله تقريباً. فبورقيبة الذي ذهب إلى مصر وهو يعتقد أنه أصبح زعيماً لا ينقصه إلا القليل ليبلغ قامة النحاس باشا، إذ كاد يشارك في إحدى حكومات المنصف باي عام ١٩٤٣، قد وجد نفسه رغم رحلاته الكثيرة وشبكات العلاقات التي ينسجها من الأردن إلى الرياض ومن بيروت إلى بغداد، قد أصبح بلا أهمية تقريباً. الأمر الذي سيجعله عدواً شرساً منذ ذلك الوقت لما يسمّيه بـ«العقلية الشرقية»!.

رغم ذلك فقد تعلّم بورقيبة عدة دروس فذة في القاهرة: تعلم أن السياسة لعبة جهنمية تتغذى من رصيد لاعبيها كما الكازينو تماماً، كما تعلّم أن الأهداف التي يرسمها رجل السياسة لنفسه هي أهداف على الورق لا تصلح لأي شيء ما لم يجد لها أوّلاً الرجال لتنفيذها. وإذ أتقن فن المفاوضات والتدرب على اللقاءات السرية والمشي على الحواف، فإنه كذلك جمع من الخيبات ما سوف يجعله محصّناً أمام الصدمات القوية في المستقبل. وباختصار فإن بورقيبة العائد من القاهرة والبالغ من العمر آنذاك حوالى ٤٩ سنة، وقد ابيضّ شعره وأصبح كهلاً ممتلئاً بكثير من اللحم والحكمة، كان فعلاً رجلاً من صنف نادر في تونس، ذلك أنه جمع الآن بين ثقافة الغرب ومناورات الشرق.

حالما انتهى الاحتفال بعودة «الزعيم الغائب»، وقد شقّ صفوف الجماهير وهو يحييها ممتطياً سيارة مكشوفة اتجهت به إلى داخل المدينة، قال لأحد رفاقه: «هذا الاحتفال هو استفتاء شعبي وبيعة لزعامتي. إنني لم أنته كما يدّعون. إن الحزب قوي جداً»[1] وبعد برهة أضاف: «الآن عليّ أن أقوم بزيارة الأمين باي، إني أريد أن أطمئنه وأهنئه كذلك. فهو قد أصبح الآن ملكاً شرعياً بعد موت المنصف باي».

فتح باب قصر السعادة أمام بورقيبة بلا صعاب. ثم فتح له الأمين باي ذراعيه. لكن البروتوكول لا يسمح باحتضان الباي لضيوف. وإذ انحنى بورقيبة قليلاً لتحية الملك وهو يسعى لكسب ودّه وثقته، فإن «الأمين باي» خرج قليلاً على تعاليم البروتوكول فتبادل مع بورقيبة بعض الكلمات الطيبة. قال بورقيبة: «مولاي ها أنا بين يديك، ماذا ترى لكي نتعاون على خدمة رعيتك»! فردّ مولاه: «إن البلاد في حاجة إلى كل أبنائها. إن مهمتنا صعبة كما تعرفون»[2].

ترك بورقيبة القصر وهو يشعر بأنه يسير على الطريق الصحيحة لاسترجاع زعامته. وجد ترحيباً لائقاً في المطار ثم احتضنه الشعب في الشوارع، وأخيراً ها هو الملك بعينه يستقبله في قصره بلا أية إحراجات. إن الزعيم لكي يحافظ على زعامته لا بد أن يحافظ على روح البطل بداخله. هذا ما يمكن أن يكون فكر فيه بورقيبة وهو عائد إلى بيته. وجاءته الفكرة التي ستحيي بداخله روح البطل المنهار. «لا بد أن أقوم بجولة على المدن والقرى. إنني لن أحاربهم في مكاتبهم أو في الغرف المغلقة. سوف أحاربهم في الساحات»[3] قال ذلك لعلالة العويتي ثم طلب منه أن يهيئ نفسه لجولة طويلة. فهو يملك السلاح الفتاك لمثل تلك المعارك، وهو فن الخطابة.

في تلك الفترة سيبدأ بورقيبة رحلة انتقام طويلة ستمتد به إلى آخر يوم من حياته السياسية. سينتقم من جميع الذين خذلوه أو خانوه، من الذين نظروا إليه باستخفاف سواء في تونس أو في مصر. من الذين اتهموه بسرقة المال والنهم وكذلك من الذين خالفوه الرأي أو الاجتهاد، أما الذين لم يعرف بورقيبة كيف ينتقم منهم وهم أحياء فقد دنس قبورهم كلما جاء على ذكرهم. إن هذا الرجل الذي يعرف كيف يخرج من عزلته مرفوع الرأس، يعرف كذلك متى وكيف ينتقم، «إنه رجل نصفه حب ونصف الآخر كراهية» كما وصفه أحد الذين عرفوه جيداً[4].

ها هو يخرج إذن للمعركة، من بنزرت إلى صفاقس. لقد بدأ يجتاح مواقع الذين خذلوه. توالت الاجتماعات والخطابات في أكثر من مدينة، فكشف بورقيبة عن قدرة نادرة وخارقة

على الإقناع والخطابة. وتذكر الناس أن هذا هو بورقيبة الذي عرفوه في السابق لم يتغير. بحركاته السريعة وحكاياته المتشعبة وسخريته اللاذعة وكلماته الدافئة. استغل بورقيبة جيداً الجو الليبرالي الذي أشاعه المقيم العام «جون مونس»، ومن خريف ١٩٤٩ إلى ربيع ١٩٥٠، جال في معظم مناطق المملكة، ولكن في قفصة، الخاضعة للإدارة العسكرية، سوف يمنع بورقيبة من حضور اجتماع كبير. لكنه سينام هناك ليلتين بسبب وعكة أصابته آنذاك، حيث سيتعرف إلى شباب جدد سيشكلون قريباً النواة الأولى للكفاح المسلح(٥). وحين عاد إلى تونس العاصمة وجد بورقيبة أن مجموعة من شباب حزب الدستور الجديد، أبناء عائلات كبرى ومثقفين عائدين من فرنسا، قد أصبحوا متحمسين له مثل أحمد المستيري والطيب المهيري وأحمد بن صالح ومحمد الصياح ومحمد المصمودي.

كانت شقة الخلاف بينه وبين بن يوسف تتسع يومياً وبصمت. وفيما كان صالح بن يوسف يخسر، كان بورقيبة يكسب إلى حد أصبحت فيه الإدارة الفرنسية مهتمة بصعوده أكثر من أي وقت مضى. أطلقت فرنسا بالوناً تجريبياً وهي تبحث عن منفذ حتى لا تضطر إلى سفك دماء غزيرة على منوال ما حدث في الجزائر أو في مدغشقر، فتكلم رئيس وزرائها «روبير شومان» عن «إمكانية التفاهم» مع هؤلاء «الغاضبين»، وما إن سمع بورقيبة ذلك التصريح حتى طار إلى فرنسا.

وقبل أن يتوجه بورقيبة إلى فرنسا في ١٢ نيسان/أبريل عام ١٩٥٠، عمل جاهداً على عزل سليمان بن سليمان من المكتب السياسي للحزب لإضعاف بن يوسف. فبالرغم من أن هذا الشيوعي السابق والذي سجن مع بورقيبة في حصن «سان نيكولا» والذي دافع عن بورقيبة في غيابه مع الهادي نويرة، إلا أن بورقيبة كان لا يرى فيه غير ـ عدو احتياطي ـ له. فهو محترم جداً ومثقف ومفكر جيد وقوي الشخصية، وبإمكانه أن يقلب كفة التوازن لغير صالحه فيما لو تحالف مع بن يوسف. كانت تلك هي الحقيقة، أما ظلالها فهي: «أن هذا الشيوعي القديم والعنيد يضع قضايا الأممية فوق قضايا الوطن، وإنه كثير الانتقاد لرئيس الولايات المتحدة ترومان، وأن هذه الازدواجية في الانتماء لا تخدم حزب الدستور».

وصل بورقيبة إلى باريس متلهفاً للصحافة ووسائل الإعلام، فدعا مباشرة إلى ندوة صحفية بفندق لوتيسيا، وأعلن عن برنامجه الذي لخصه أحد الصحافيين الفرنسيين هو «ماكس زلطاوي» في سبع نقاط أهمها: تشكيل حكومة تونسية، إلغاء منصب المقيم العام والجندرمة، بعث مجلس نيابي منتخب. هذه الإصلاحات، قال عنها بورقيبة وهو يخاطب

الصحفيين «ستحفظ لنا استقلالنا وكذلك تعاوننا مع فرنسا»، ثم ختم قائلاً: «إن سياسة المراحل يمكن أن تقودنا إلى مستقبل مشترك»!.

لم يعد بورقيبة إلى تونس، لقد اختار أن يبقى لفترة في فرنسا، لم يلتق بأي مسؤول فرنسي كبير، لكنه أحس أن رسالته قد وصلت عبر الصحافة إلى الرأي العام وكذلك إلى الرئيس «أوريول خانسان» ورئيس وزرائه «روبير شومان». لم يجد صعوبة في إقناع قيادات حزب الدستور بانتهاز هذه الفرصة، لكي يضعوا فرنسا أمام مسؤوليتها التاريخية. وقد أكد رفاقه (في رسالة لبن يوسف) «أن نوايا حكومة فرنسا قد تكون صادقة وعلينا اختبار هذه النوايا، حتى لا نبقى متهمين أبداً بأننا لا نصنع إلا الفوضى»[٦]. في ذلك الوقت كان قد تم تغيير المقيم العام الفرنسي مونس برجل أكثر انفتاحاً هو السيد «بيريليه». وهذا الرجل سيساعد بورقيبة من خلال تصريحاته المطمئنة، «بأن مهمته هي مواصلة ما بدأه مونس لقيادة تونس نحو الحكم الذاتي» على الدفع باتجاه الانفتاح. وخلال جلسات طويلة بين الدستوريين، قال بورقيبة وهو يخفي كراهيته لكل الذين هبّوا لمعارضته: «إننا سنجرب. وإذا لم نفلح، فإن الخيارات أمامنا كثيرة»[٧]، ثم اقترح وهو يداعب شهوة بن يوسف للسلطة: «إن الأستاذ صالح سيكون في قلب كل المفاوضات». وبذلك كسب بورقيبة شيئين متعارضين في غفلة من الجميع: كسب موافقة صالح بن يوسف، حين دفع به إلى الأمام، كما كسب ثقة فرنسا في قدرته على توجيه الحزب إلى حيث يشاء.

بقي الآن أمر هام في نظر بورقيبة. لقد تعلم جيداً أن يتقدم وظهره مسنود من الملك. ففي القاهرة شاهد كيف أن الحركة الوطنية المصرية كانت على اتصال بالقصر والشرعية، كما رأى كيف أن المغاربة وعلى رأسهم علال الفاسي كانوا يناضلون تحت راية الملك. طلب من «بن يوسف» أن يجري اتصالاته مع محمد شنيق رئيس الوزراء السابق ومحمد بدرة، ذلك السياسي القدير والوزير السابق، لكي يتدخلوا لدى الملك محمد الأمين باي ويقنعوه بموافقة ومساندة هذه الحركة التفاوضية. لم يتأخر الباي فخرج عن صمته قائلاً لمحمد شنيق: «سأكتب رسالة إلى الرئيس الفرنسي أوريول لدعم هذا المسار ومطالبته بإصلاحات أخرى». وحين أصبحت موافقة الباي في جيب بورقيبة، طار الطاهر بن عمار، أحد رجال المال والسياسة في ذلك العهد إلى باريس محمّلاً برسالة الباي إلى الحكومة الفرنسية. وإلى جانب الطاهر بن عمار الذي كان أيضاً رئيساً لنقابات الفلاحين، كان يجلس رجل سيتصارع عليه الجميع لكسبه ثم يموت في حادث غامض، هو فرحات حشاد، زعيم النقابات العمالية، وهي القطعة الرئيسية في تلك اللعبة المصيرية.

كانت العراقيل كثيرة، ولكن المناخ الدولي كان مهيأً لاستقبال مثل ذلك التحول. ففي ٢٩ أيار/مايو ١٩٥٠، صوتت الأمم المتحدة على استقلال ليبيا. وبعد عشرة أيام فقط صرح شومان مرة أخرى، «إن المقيم العام الجديد بيريليه (Berrillier)، ستكون مهمته قيادة تونس إلى الاستقلال». وإذ ركض بورقيبة إلى الهاتف ليهنئ بن يوسف على هذا الانتصار، فإن «شومان» تراجع عن تصريحه تحت ضغط المعمرين واللوبيات الاستعمارية فصدر تعديل لتصريحه يقول: «إن الاستقلال سيكون هو الهدف النهائي في ظل الاتحاد الفرنسي». ورغم أن ذلك سيحبط البعض في قيادات حزب الدستور، إلا أن بورقيبة كتب لهم قائلاً: «إذا تراجعت فرنسا فإننا سنكون قد وضعناها عند الحائط». ثم أضاف: «إن القضية التونسية أصبحت الآن قضية فرنسية داخلية. وهذا ما يجعلنا حذرين ومطالبين بالمفاوضات».

وفي فندق «اللومباسادور»، حيث يسكن بورقيبة مع زوجته ماتيلد وابنه الحبيب، سيزوره محمد المصمودي المكلف آنذاك بفرع حزب الدستور في باريس. ومنذ اللقاء الأول سيغرق كل منهما في حب الآخر. بدا المصمودي ابن المهدية لبورقيبة شاباً ذكياً وألمعياً. إلى جانب ذلك فهو يتمتع بعلاقات جيدة في أوساط السياسيين الفرنسيين، وهو ما سوف يؤهله للعب دور بارز في المفاوضات اللاحقة. أما بورقيبة فكان يمثل للمصمودي الزعيم الذي يشع منه بريق المستقبل. وإذ وضع كل منهما يده في يد الآخر، فلأن قلبيهما كانا قد دخلا في حوار داخلي. في الفندق نفسه سيلتقي بورقيبة برجل من رجال المقاومة الفرنسية «جان روس»، وهذا الأخير سيعرّفه بالرجل الثاني للفيدرالية الأميركية للعمل «إيفينغ براون». أعرب هذا الرجل القادم من وراء المحيط عن دعم الفيدرالية الأميركية للحركات الوطنية. وإذ دفع بورقيبة باتجاه كسب أصدقاء جدد في أميركا، فإن مؤتمر العمال التونسيين في تموز/يوليو ١٩٥٠، قد قرر مغادرة الفيدرالية النقابية العالمية لصبح عضواً في فيدرالية «السيزل» .C.I.S.L.

أصبحت الطريق مفتوحة للدخول في اختبار النوايا الفرنسية. شكّل محمد شنيق حكومة جديدة حملت كل الألوان. كان ذلك في ١٧ آب/أغسطس ١٩٥٠. عاد الماطري إلى الوزارة مرة أخرى وكذلك محمد بدرة. وتقدم بن يوسف لمنصب وزير العدل باعتباره الأمين العام لحزب الدستور. وافتتحت تلك المفاوضات فكانت ثقيلة ومبهمة وتكاد تكون مجرد نقاشات عامة وغير مركزة. وفي ٧ تشرين الأول/أكتوبر، رأى المقيم العام «بيريليه»، أن هذه المفاوضات تحتاج إلى «عطلة» فنزلت الخيبة على أوساط الحزب. وهذه المرة ستقدم

إلى المعركة النقابات العمالية. فالحزب الدستوري لا يزال متمسكاً باتفاقه مع الإدارة الفرنسية، وهو لا يستطيع أن يعلن عن انسحابه من الحكومة ومن المفاوضات، وإلا فإنه سيعتبر مسؤولاً عن أي نتائج وخيمة. بدا واضحاً أن اتحاد العمال قد أصبح قوة جبارة في يد حزب الدستور، كما أيقن الزعماء النقابيون «أن الفرنسيين يريدون عزل الاتحاد عن الحزب». ولأنه شعر بحجم الكارثة فيما لو نجحوا في ذلك، فقد اختار بورقيبة أن يورط الطرفين في استراتيجيته. من جهة سيبرز أكثر قوة فيقدر على فرض شروطه على الحزب، ومن أخرى يمكن أن يهدد بقطع المفاوضات إذا كان هناك من يسعى إلى تهميش مصالح العمال.

وفجأة تنطلق حوادث النفيضة وهي مدينة بنيت على تراكم الإنتاج الزراعي قرب سوسة، وبها معمرون كثيرون. ففي الـ ٢١ من شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٠، سيتحول إضراب عمال النفيضة إلى حمام دم (٥ قتلى)، وفيما ندد الوزير «بدرة» بقمع السلطات الفرنسية باعتباره وزير الأشغال العمومية، فإن المقيم العام الفرنسي احتج على ذلك. طالب بورقيبة في البداية بالهدوء، ثم وانطلاقاً من باريس وضع المسؤولية على مجموعة من المعمرين المتعصبين، مضيفاً: «إن حزب الدستور الذي هو أول من مدّ يديه إلى المفاوضات سيكون آخر من يسحب يديه»، أما فرحات حشاد، فقد أدرك منذ تلك اللحظة أنه إذا كان الحجر الأساسي الذي يتصارع عليه الجميع لكسب اللعبة، فإنه كذلك هو الحجر الذي سيتفق الجميع على إزالته حتى لا يتسبب في سقوط أحد، وهكذا بعد سنة وحوالى شهر، سيزال ذلك الحجر حين يقتل في عملية محبوكة جدت[٨].

بعد حوادث النفيضة أصبح الدفاع عن استراتيجية التعاون مع فرنسا صعباً جداً، وفي اجتماع المجلس القومي لحزب الدستور في شباط/فبراير ١٩٥١، طالب كثيرون بسحب الوزير الدستوري (صالح بن يوسف) من حكومة شنيق. ثم اجتاحت البلاد عدة إضرابات. طالبت مجموعة من المثقفين بتكوين جبهة وطنية ودعوا إلى الاستقلال لا إلى التعاون، أما «صوت الطالب» وهي منظمة قريبة من أوساط جامع الزيتونة وقد ترأسها الشيخ محمد البدوي آنذاك فقد نددت بفرنسا وكذلك بحزب الدستور الذي أصبح يطمح إلى السلطة وليس إلى الحرية.

مقابل ذلك سيرفع «الكي دورسيه» سوطه حين يعين «جون دي هوتوكلوك» كمقيم عام جديد لتونس خلفاً للسيد بيريليه، فيدخل إلى العاصمة على ظهر دبابة. كان ذلك في بداية كانون الثاني/يناير ١٩٥٢، ولكن قدوم جزار سطيف الجزائرية (عام ١٩٤٥ ـ حين

سقطت ٤٥ ألف ضحية) وجزار ثورة مدغشقر (٨٠ ألف ضحية) الذي زرع الرعب في الجميع، كان قد أقنع بورقيبة بعد محاولة فاشلة لإنقاذ تلك المفاوضات بأن الرقص مع الشيطان عبث. وآنذاك سيطير بورقيبة في رحلة دولية مثيرة جداً.

* * *

عاد بورقيبة إلى القاهرة. وفي هذه المرة، كان مزهوّاً ومسنوداً لأنه أعاد اعتباره داخل الحزب ثم لأن هذا الحزب قد أصبح شريكاً في الحكومة التي تقود «مفاوضات» مع فرنسا. بعث إلى محمد المصمودي مسؤول الحزب في باريس ليلتحق به في القاهرة. كان المصمودي لم يبلغ من العمر إلاّ ٢٥ سنة آنذاك، وقد حصل على إجازة في الآداب، فكان يتكلم العربية والفرنسية بطلاقة. تذكر بورقيبة النصيحة التي أسداها إليه ذات مرة «محمد صلاح الدين باشا» وزير الخارجية المصرية ومفادها «أن يذهب إلى السعودية ويعرض قضيته على الملك الكبير عبد العزيز، فهو الوحيد الذي سيفهمك وسيدعمك». وما إن جلس المصمودي أمامه، حتى بادره بورقيبة بالقول: «هل تعرف لماذا دعوتك إلى هنا؟».. ثم أضاف: «غداً سنسافر أنا وأنت والأخ علي الزليطني، إلى العاصمة السعودية. فاستعد جيداً للرحلة»[٩].

«بدت العاصمة السعودية الرياض في شهر حزيران من العام ١٩٥١ متواضعة جداً. فهي عبارة عن تجمع سكاني ضائع في قلب الصحراء»[١٠]. كانت رياح السموم تهب من كل جانب حين التفت بورقيبة إلى المصمودي قائلاً: «هذه هي الرياض، إنها تمبكتو أخرى وبداخلها الملك عبد العزيز يحاول السيطرة على الرمال المتحركة». مضت ثلاثة أيام ثقيلة على بورقيبة وهو في دار الضيافة الملكية، قال عنها بورقيبة، «إنها أسوأ من عدة شهور قضاها منفياً في برج البوف بالصحراء التونسية». أخيراً جاء موعد اللقاء بأسد الصحراء الملك عبد العزيز. وحين لاحظ بورقيبة حضور فيلبي الجاسوس الإنكليزي الشهير الذي كان مجنداً لصالح الكا.جي.بي، اعتذر عن الكلام وأشعر الملك على نحو لبق، أنه ليس في حاجة إلى «حضور فيلبي في مجلسكم»[١١].

أشار الملك لفيلبي بالخروج من المجلس، فشعر بورقيبة بالارتياح. كان الملك يجلس على كرسيه المتحرك، وعلى بعد أمتار، كان ابنه سعود يجلس على كرسي عادي. بدا الملك قوياً، حازماً وعينه مثبتة باتجاه ضيوفه من وراء نظارات صغيرة ومذهبة وعلى رأسه كوفية ذات خطوط حمراء وبيضاء، وهو يرتدي لحافاً شفافاً صنع من وبر البعير. لقد كان يعادل أسطورته تماماً حين تكلم قائلاً: «أتمنى ألاّ يكون السفر قد أرهقكم». ويعلق المصمودي:

«فهمنا أن الملك قد دعانا للحديث وبسط قضيتنا أمامه بعد ذلك المدخل، فتكلم بورقيبة بعد أن شكره على حسن ضيافته واستقباله قائلاً: «جلالة الملك، إن القضية باختصار هي كالتالي: الاستراتيجية واضحة وحاسمة وهي لا تنفي الذهاب إلى منطق الكفاح المسلح. أما التكتيك فهو مرن، وهو لا ينفي إمكانية التفاهم حول بعض النقاط والمطالب مع فرنسا» ثم ختم يقول: «نتمنى أن نجد لديكم المساعدة لكي نتمكن من تنفيذ هذه الخطة»[١٢].

«نعم، يمكنكم أن تعتمدو علينا»، أجاب الملك عبد العزيز على نحو مركز، ثم أضاف، «ولكن قبل ذلك عليكم أن تعتمدوا على أنفسكم». بعد حين تابع الملك عبد العزيز يقول: «ولكن لا ترتكبوا خطأً مهاجمة فرنسا عن طريق معركة تقليدية ومنظمة. إن الفرنسيين أكثر عدداً وأفضل تنظيماً وتسليحاً. ولا شك أنكم تعرفون الكارثة التي حدثت للجيوش العربية أمام الصهاينة. إنني أقول لكم ما كنت قد قلته هنا في هذا المجلس للأخوة العرب والفلسطينيين: نظموا أنفسكم في حرب شعبية، وحاربوا بأسلوب الجماعات الصغيرة. إضربوا ثم اقطعوا الطرق واختفوا. بعد ذلك أعيدوا تنظيمكم وتوزيعكم، وهاجموا العدو من جديد. فتتوا جهوده ثم اختفوا. وهكذا تتمكنون من السيطرة على حيويتكم وقوتكم. على هذا النحو يمكنكم تشتيت قوة العدو، وتدفعونه نحو التفاوض معكم. وإذ أبدى الفرنسيون لكم حسن النوايا وقدموا لكم بعض المطالب، فمدّوا لهم أيديكم. وشجعوهم وساعدوهم على التقدم. فهم في النهاية جيران لكم. وفي يوم من الأيام ستضطرون للتعاون والشراكة في ظل الكرامة والحرية. وإذن لا تضيعوا هذه الفرصة، إنكم تفعلون أمراً جيداً وأنتم تفاوضون باريس الآن وتستعدون لأمر مهم في نفس الوقت. وبالنسبة لهذا الأمر المهم، فإني أعيد عليكم أن بإمكانكم أن تعتمدوا علينا، وأنتم تعرفون أننا لا نتنكر لكلمتنا»[١٣].

«كان درساً فذاً في التكتيك والاستراتيجيا، كتب المصمودي فيما بعد، قد تلقيناه من ذلك البدوي الذي وصفه أحدهم، بأنه «حادّ كالسيف وهشّ مثل العصا وصلب مثل الحجر». وعند الخروج لاحظ المصمودي والزليطي أن بورقيبة تحول فجاة إلى رجل خطير، إنه يملك الآن «كلمة» أسد الصحراء الملك عبد العزيز، وعليه أن يعدّ جيداً لذلك «الأمر الهام والجدي» الذي وعد به الملك. وعند العودة إلى دار الضيافة، وجد بورقيبة في انتظاره بضعة آلاف من الليرات الذهبية، وثلاثة عقالات وثلاث كوفيات وثلاثة لحافات. أصبحت «كلمة» الملك عبد العزيز تعادل ذهباً، وإذ عرف بورقيبة أن ذلك هو أول الغيث، فقد أعطى بضع ليرات إلى كلّ من المصمودي والزليطي، ثم طار ببقية المبلغ إلى القاهرة،

حيث قام بصرفها إلى ملايين الجنيهات، وهناك سيكلف علي الزليطني مباشرة بإعداد مكان للتدريب في ليبيا، حيث توافرت الآن الأموال اللازمة لشراء السلاح وتدريب الرجال.

كان بورقيبة الذي اختار كلاً من المصمودي والزليطي لمرافقته في رحلته إلى السعودية، يوضح لمن لم يفهموه جيداً أنه «كان يحتفظ برجل المفاوضات على يمينه ورجل الكفاح المسلح على يساره، وهو يتقدم نحو المستقبل». وفيما أصبح الزليطني الذي هو من أصل ليبي كما يدل اسمه المنسوب إلى زليطن، مشرفاً على أول معسكر للتدريب تابع للمقاومة التونسية في الأراضي الليبية، سيكلف المصمودي بمتابعة الاتصالات مع جميع القوى السياسية في باريس.

وفي كانون الثاني/يناير ١٩٥٢، وبعد اغتيال الزعيم النقابي فرحات حشاد ببضعة أسابيع سيتسلل أول كوماندوس تونسي مكوّن من مجموعة من رجال الفلاقة[١٤] عبر الحدود الليبية ليخوضوا أول معركة في منطقة مدنين ذات الحكم العسكري. أما المصمودي فسيظل في باريس إلى أن يلتقط العرض الثاني للمفاوضات الذي تأخر كثيراً، لكنه سيصل ناضجاً.

* * *

قبل ذلك، كان بورقيبة قد ذهب إلى كراتشي قادماً من القاهرة التي وصلها مباشرة من الرياض، وذلك لحضور اجتماعات المؤتمر الإسلامي العالمي، وكان يسعى إلى كسب تلك المنظمة العالمية. استمرت الرحلة في آسيا حوالى شهر وكان بصحبته الأخوان «الطيب والمنجي سليم». كان حريصاً على أن يقدم نفسه في كل من الباكستان والهند وأندونيسيا على أنه زعيم حزب شريك في الحكومة. في نيودلهي قابل الزعيم نهرو وتحادث معه طويلاً، بكل حفاوة. وكما في كراتشي التي حظي فيها بلقاء مع «لياقات علي خان»، تمكن في جاكرتا من لقاء بـ«أحمد سوكارنو»، حيث سمح له بإلقاء خطاب في مجلس النواب. ومن هناك سافر إلى لندن حيث التقى بالسفير الفرنسي وأخبره: «بأن التونسيين لا يطلبون من فرنسا إلا ما وعدتهم به، وأن الوزير الذي قطع على نفسه عهد «الاستقلال» باسم فرنسا لا يزال وزيراً للخارجية». ثم انتقل من لندن إلى روما. وهناك سيجد في انتظاره الزعيم النقابي فرحات حشاد ومساعده أحمد التليلي الذي سيصبح عمّا قريب أحد زعماء المقاومة المسلحة، وقد جاء إلى لندن للقاء بـ«أرفينغ براون» المسؤول الثاني للنقابات الحرة، فدعاه لحضور المؤتمر العام الذي سيعقد بعد حين في مدينة سان

فرانسيسكو (١٧ أيلول/سبتمبر ١٩٥١). وفي سان فرانسيسكو، التي وصلها بورقيبة قبل حشاد، سيترك فرصة الظهور أمام المؤتمرين للوفد النقابي. وبعد الخطاب الذي ألقاه حشاد، وكان معتدلاً جداً، قرأ الحبيب بورقيبة على صفحات «لوموند» الفرنسية أكاذيب لا سند لها، إذ نشرت بعض الفقرات، قالت إنها جزء من خطاب حشاد، مليئة بالشتم والسباب الموجه إلى الدولة الفرنسية مثل: «أميركا هي التي بعثت فرنسا من العدم بعد أن قبرتها ألمانيا في العام ١٩٤٠». أحسّ بورقيبة أن خطأ شنيعاً قد يكون ارتكبه وأن ذلك قد أوقعه في مأزق، فسارع إلى الاتصال بفرنسا عن طريق بعض الرفاق في تونس لتوضيح تلك المسألة، لكن المقيم العام الفرنسي أصرّ على أن «نص لوموند» صحيح، وأن ذلك يجعل فرنسا تفكر في وقف أية مفاوضات.

ترك للزمن فرصته لتوضيح ذلك الخطأ، ثم ذهب إلى إسبانيا، ومنها إلى المغرب حيث التقى في طنجة التي كانت منطقة دولية بالزعيم المغربي «عبد الخالق الطريس». كان بصحبة ابنه الحبيب، حين أشعره البوليس بمغادرة المدينة فعاد إلى إسبانيا ومنها إلى إسطمبول التي لطالما أثارت بداخله مشاعر مختلطة بين الإعجاب بعظمة الإسلام وإنجازاته على تلك الأرض، وبين الانبهار بالزعيم كمال أتاتورك الذي كان قد توارى خلف الضباب في ذلك الوقت وحل محله خليفته «عصمت إينونو». ومن تركيا تابع بورقيبة خط رحلته نحو بيروت. وفي ١٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥١، انتقل إلى باريس بعد أن عرف من المصمودي أن وفداً يتكون من صالح بن يوسف ومحمد شنيق والجلولي فارس قد وصل لبدء جولة أخرى من المفاوضات مع فرنسا. اختار بورقيبة أن يرافق بعض الطلبة من المطار إلى المدينة، وإذ سألهم عن الأجواء، فقد أجابه الشاب «منصور معلّى» الذي كان يدرس الاقتصاد، «بأن الطلبة التونسيين يبدون عدم الارتياح للحكومة»، لكن بورقيبة خفف عنه قائلاً: «هذا لا يهم لأننا نملك خيارات أخرى».

دارت تلك المفاوضات بعيداً عن بورقيبة، وشعر أن صالح بن يوسف زميله في الحزب قد أصبح يخفي عليه بعض الأشياء، فطلب منه أن يطلعه على فحوى تلك الجلسات، لكن بن يوسف رد عليه: «إنني وزير لدى صاحب الجلالة ولا بد أن أُطلع الباي على فحواها قبل أي أحد». في ذلك الوقت تمكن بورقيبة من معرفة بعض الأشياء المتسربة إلى الصحافة، فأعلن رفضه لما جاء في تلك المحادثات وهي أمور هزيلة جداً، ثم قال لـ«بن يوسف»: «إن الحزب سيضطر للنزول إلى ميدان المعركة من جديد وللمرة الثالثة، وإن الأمة بأجمعها ستقاوم وسنرى لمن تكون الغلبة». فكر بورقيبة أن بقاءه في الخارج قد يجعله عرضة للعزلة،

فقال للباهي الأدغم والمصمودي، إنه سيعود إلى تونس «لأن علينا أن نكون هناك على الأرض» ولأنه أصبح يملك المال وكذلك بعض السلاح في ليبيا، وهو محاط بشباب جدد يؤمنون به كما يؤمن بعضهم بالله! فقد عاد إلى تونس في ٢ كانون الثاني/يناير ١٩٥١، وهو يلاحق قدره، كطفل يلاحق كرة من الثلج كلما ابتعدت عنه، أصبح حجمها أكبر.

* * *

قبل أن يعود إلى تونس، قضى بورقيبة عدة أيام أخرى (من ١٥ كانون الأول/ديسمبر إلى ٢ كانون الثاني/يناير) في باريس فقام باتصالات كثيرة مع هيئة فرع حزب الدستور الجديد في فرنسا، وهو يحرضهم على الانتقال إلى مرحلة أخرى بعد أن فشلت المفاوضات وأغلق الملف في ١٥ كانون الأول/ديسمبر بانتهاء اجتماع شنيق/بن يوسف مع الخارجية الفرنسية. وفي قصر شايو، حيث تنزل وفود الجامعة العربية للاشتراك في اجتماع للأمم المتحدة، ضغط على الوفود السعودية والعراقية والمصرية من أجل أن تطرح القضية التونسية للنقاش، لكن اقتراحه رفض بتهذيب لأنهم لم يتلقوا أي شيء من حكوماتهم بهذا الخصوص. ثم تمكن من لقاء «الأمير فيصل»[١٥] رئيس الوفد السعودي، فذكره بأن والده المعظم الملك عبد العزيز قد وعده بالمساعدة. وهو الآن لم يبق له إلا أن يمضي إلى عمل جاد من نوع آخر. كان بورقيبة في ذلك الوقت قد أصبح سجيناً لفكرة الكفاح المسلح ضد فرنسا، ولربما تمنى في داخله أن تفشل جميع المفاوضات. ولأنه أصبح مشغولاً بنسج أسطورته الشخصية، فقد كان يدفع بكل قواه نحو مرحلة جديدة. كان صامتاً أحياناً، وأحياناً كان يردد بصوت منخفض أغنية شعبية (ليليري يامنّة) وهو يذرع غرفته جيئة وذهاباً، حين وقف فجأة وقال للمصمودي وكأنه عثر على كنز: «وجدتها ما مصمودي. أنصت إليّ جيداً: سوف أخترع سيناريو مذهلاً. سأعود إلى تونس وسأذهب إلى الباي لأخبره وأخبر الجميع بأني التقيت مع المندوب الأميركي في مجلس الأمن، وبأن هذا المندوب وعدنا بالدعم إذا نحن قدمنا شكوى ضد فرنسا إلى الأمم المتحدة. وأنت يا مصمودي ستؤكد لهم أنك كنت شاهداً على هذه الحادثة السرية»[١٦].

أخيراً عاد بورقيبة إلى تونس. ولأنه كان يسابق الأحداث، وقد أصبح يمتلك المال والرجال والتجربة، ويريد أن يضغط بالاتجاه الذي سيسمح له بالسيطرة على كل شيء، ذهب مباشرة إلى الباي في قصره بحمام الأنف. تكلم بورقيبة بكل ثقة أمام شنيق كبير الوزراء، فقال: «مولاي المعظم، لقد حان الوقت لكي نرفع قضية تونس إلى مجلس الأمن. لقد تحادثت مع المندوب الأميركي في مجلس الأمن بباريس ووعدني بالدعم». رمى بورقيبة

قنبلته وظل ينتظر ردود الفعل. أدرك الباي بسرعة أنه لا يمكن له أن يلعب بمجد أجداده لمجرد محادثة شفوية. أما محمد شنيق فقد شجع ميول الباي المعتدلة. خرج بورقيبة من القصر الملكي وهو يشعر بالخيبة، فكان عليه أن يتقدم إلى الأمام في محاولة للضغط على الطبيعة. وخلال اجتماع للحزب في مدينة المنستير، عقد يوم الثامن من كانون الثاني/يناير، تكلم بورقيبة لأول مرة عن «خيارات أخرى» دون أن يفصح عنها، وإن كان كثير من الناس قد فهموا أنه يقصد الثورة المسلحة. وفي بنزرت يوم الثالث عشر من كانون الثاني/يناير انتقل إلى الهجوم فقال خلال اجتماع حزبي، إنه «مستعد للتنديد بحكومة شنيق إذا لم تسارع إلى تقديم شكوى للأمم المتحدة». وعند ذلك الحد كان على شنيق أن يوقع تحت الضغط على وثيقة شكوى للأمم المتحدة سلّمها إلى بن يوسف باعتباره وزيراً للعدل، الذي طار مع زميله محمد بدرة إلى باريس ومنها إلى نيويورك. غير أن الوثيقة لم يكن عليها خاتم الباي.

قبل ذلك بقليل كان المقيم العام الجديد «جون هوتوكلوك» قد وصل إلى ميناء بنزرت على متن فرقاطة عسكرية، ثم اختار أن يدخل إلى العاصمة على ظهر دبابة، وبسرعة فهم بورقيبة أن مجزرة تنتظر تونس. وفيما صرّح «هوتوكلوك» على نحو مشهدي «إن فرنسا قرّرت أن تستعمل القوة لإعادة الأمن» وهو أمر بات واضحاً منذ تعيين الجنرال الدموي «غرباي» على رأس الجيش الفرنسي المرابط بتونس، أعطى حزب الدستور أوامره لمناضليه بأن يرفعوا من وتيرة الاحتجاج. وهكذا انتشرت المظاهرات في كل مكان تقريباً من باجة إلى قابس ومن بنزرت إلى قفصة، أسفرت في كل مرة عن قتلى وجرحى. وأمام تلك الفوضى التي استقبلت المقيم العام دي هوتوكلوك، أصدر هذا الأخير قراراً بمنع انعقاد مؤتمر الحزب الذي حدد تاريخ انعقاده يوم ١٨ كانون الثاني/يناير ١٩٥٢.

في ذلك اليوم الذي سيسجل على أنه يوم انطلاق الثورة المسلّحة في تونس، ألقى البوليس الفرنسي القبض على بورقيبة وكذلك على المنجي سليم منذ الفجر فنقلا إلى سجن طبرقة (أقصى الشمال). رغم ذلك فإن الهادي شاكر الذي كان يتولى قيادة الحزب قد أصرّ على انعقاد ذلك المؤتمر، حيث سيصرّ المؤتمرون بدروهم على الكفاح حتى الاستقلال وهم يطالبون بإطلاق سراح قادتهم. وخلال ساعات تمكن البوليس الفرنسي من إلقاء القبض على العشرات من كوادر ذلك الحزب ومعهم عشرات من الشيوعيين ليرسلوهم نحو سجون الجنوب، أما الهادي شاكر فسوف يلتحق بسجن الشمال حيث سبقه إليه كل من بورقيبة والمنجي سليم. وفيما انطلقت الشرارة التي ستتحول إلى حريق انطلاقاً من قفصة

حين أطلق أحد مناضلي الحزب على «قايداها النار» فإن هوتوكلوك كان مضطراً أن يطلب من حكومته دعماً عسكرياً على جناح السرعة.

* * *

كانت القضية التونسية قد تحولت إلى ورم خبيث في جسد الحكومة الفرنسية. قررت باريس أن تستدعي المقيم العام «بيريليه» إلى مهمات أخرى، وترسل بـ«جون دي هوتوكلوك» إلى تونس. جاء هذا الرجل بتعليمات محددة تتناسب وأسلوبه الجاف والعنيف، كان الهدف الكبير لتلك الحكومة هو إعادة النظام والأمن لتونس عن طريق استعمال تلك التقنية التقليدية لقمع الانتفاضات كما حدث في الجزائر أو مدغشقر، أي عن طريق القتل والاغتيال. ولأن الحكومة قد انشغلت بالبحث عن السمكة التي بإمكانها السباحة في بحر شمال إفريقيا، فقد فكرت في البداية في السيد «بيار فوازرد» وزير الدولة لشؤون إمارة موناكو، وخريج المدرسة العليا للغة والآداب العربية بتونس. كانت تلك رغبة «موريس شومان» وزير الخارجية لكن الوزير الأول «روبير شومان» رفضه لأنه لم يجد فيه الكفاءة اللازمة. وهكذا اتجه الاختيار نحو «هوتوكلوك»، الذي كان يعمل آنذاك سفيراً في بلجيكا بعد أن قام بمهمّات شنيعة في الجزائر وإفريقيا. رغم أن الرئيس «أوريول» كان غير راغب في تعيين هذا الرجل الدموي على رأس الإقامة في تونس، حسب شهادة السفير «أندريه فرنسوا بونسييه»، والد وزير الخارجية في عهد «جيسكار ديستان»، «جان فرانسوا بونسييه».

كان «دي هوتوكلوك» ينظر إليه كرجل بلا قيمة وبلا شرف، ولكنه كان محمياً من لوبيات استعمارية في الدولة الفرنسية. كان كذلك بلا أخلاق ولا تهذيب ويتكلم عبارات سوقية لا ينطق بها إلا أبناء الشوارع. فذات مرة استقبله الرئيس «أوريول» وقد أصبح سيد تونس الأول ليشرح له الوضع في المحمية بحضور وزير الخارجية «روبير شومان»، وحين جاء دوره في الكلام قال: «سيدي الرئيس، حتى هذه اللحظة، كنا في حالة ارتخاء. الآن علينا أن ننتصب بقوة»[١٧] حاول موريس شومان أن يخفف من تلك العبارات السوقية أمام الرئيس، بأن شرح المعنى قائلاً: «إن السيد دي هوتوكلوك يريد أن يقول لسيادتكم إن على فرنسا أن تضرب بقوة».

في المساء التقى دي هوتوكلوك مع شومان ووزير ثالث على العشاء، فانطلق صوت هوتوكلوك بلا مقدمات: «حتى الآن كنا في حالة ارتخاء لكن منذ الآن علينا أن نكون في حالة انتصاب قصوى كما قال لي رئيس الجمهورية صباح هذا اليوم».

تلك الحادثة تفيد أن تونس قد أصبحت في قبضة جزار عنيف وسوقي، وإذ سيبادر التونسيون إلى تحديه رغم عجرفته، فإن دي هوتوكلوك سيقوم بكل ما أوتي من وحشية للتنكيل بالحركة الوطنية، وتفتيت بناها التحتية حين دمّر قواعدها الشعبية عن طريق حرق محاصيل الفلاحين وقمع المظاهرات وغلق الصحف وعقاب التجار واغتيال بعض الرموز الوطنية. وأخيراً جمع حكومة شنيق كلها وأمر شاحنة عسكرية بأن ترمي بها في واحة «قبلّي»، سائلاً عن بن يوسف متى يعود من مهمته في الخارج، (الأمم المتحدة) فقيل له: «لقد انتقل إلى القاهرة مباشرة».

فجأة صعد «إدغار فور» إلى رئاسة الوزراء في فرنسا في ١٧ كانون الثاني/يناير ١٩٥٢ ليعلن بعد أسبوع فقط «في ما يتعلق بتونس، فإني أعتقد بأن هوتوكلوك لم يكن في المستوى، أنه لا يفهم شيئاً وهو محاط برجال سيئين»، وهنا أصبح الرئيس «أوريول» يتحدث عن ذلك المقيم العام بكثير من السخرية في مجلس الوزراء (يوميات أوريول)، «إنه لا يملك أي حس سياسي أو أية أخلاق. ويمكن للمرء أحياناً أن يتساءل ما إذا كان مجنوناً أو غبياً». لقد كان غير مهذب مع الباي، وللأسف فهو حيوان كبير! باختصار لم يكن الرئيس يثق فيه البتة: إنه مجرد كذاب كبير.

كان «أدغار فور» الذي صعد إلى الوزارة رجل توازن بامتياز، فهو صاحب أفكار بسيطة لمشاكل معقدة. وقد مثل خلال رئاسته للوزارة سرّ الاستمرار والالتزامات المرنة، ولأنه كان يعتقد بأن الاختيار الحقيقي هو اختيار الوسائل قبل الأهداف، فإنه كان يعتبر أن «دي هوتوكلوك» وسيلة بالية للحفاظ على هدف نبيل. إن الاختيار السيئ للوسائل كما يقول إدغار فور هو بالضبط الاختيار الحقيقي ضد الهدف(١٨). وبالتالي فإن السياسة لديه ليست لعبة فقط، فهي أيضاً فن وعلم ويمكن أن تكون مهنة بالمعنى النبيل للكلمة، ولذلك فإن نائب الغليون والفراشة كما كان يلقب، كان حريصاً جداً على استعمال الأسلحة الأقل رذالة للوصول إلى أهدافه. فهو في المحصلة رجل قانون واقتصادي وروائي ومؤرخ وأستاذ جامعة ووزير، ولذلك كان باستمرار يبحث عما يجعله مختلفاً ومتنوعاً.

ولأن الوزارة الأولى التي شكلها في بداية كانون الثاني/يناير ١٩٥٢ لم تستمرّ إلا ٤٠ يوماً، فقد ظل ينتظر فرصة الوزارة الثانية التي عادت إليه في العام ١٩٥٥ لكي يمضي نحو أهدافه. حاول «إدغار فور» خلال الـ ٤٠ يوماً التي قضاها على رأس الوزارة الأولى أن يبعث الحرارة في تيار الاعتدال والمرونة فكلف «فرانسوا ميتران» بإعداد برنامج إصلاحي يعتمد على تصريح شومان حول استقلال تونس، غير أن مهمته قد انتهت حين كان عليها أن

تبدأ لما أعلن عن سقوط وزارته، ولذلك كان على كل من التونسيين والمغاربة أن ينتظروا ثلاث سنوات أخرى قبل أن يروا إدغار فور يدق أبواب الحوار مرة أخرى.

وإذ قال «هوتوكلوك» لبعض وزرائه، «إن تونس قد نسيت بورقيبة ولم تعد تعرف بن يوسف» وصلته أخبار بائسة: إن الجنرال «غرباي» قد قتل في كمين قرب جبل عرباطة بالقطار - قفصة. وفي لمح البصر استدرك يقول: «إذا كان التونسيون يريدون الحوار، فعليهم أن يبحثوا عن رجل هذا الحوار»[١٩]. هكذا لم يكن هوتوكلوك فقط سوقياً وكذاباً، بل كان جباناً. وحين هدد هوتوكلوك بأن يجلب ٨٠ ألف جندي من الهند الصينية إلى تونس، وجد من يهمس في أذنه «إنهم متعبون ومحبطون. ويمكنك أن تعوضهم برجل واحد».

ذلك الرجل، هو رجل الحوار، سجين جزيرة جالطة، الحبيب بورقيبة.

* * *

في طبرقة، كان بورقيبة سجيناً ولكن بخمسة نجوم. ففي «فندق فرنسا»، سيسكن بورقيبة الغرفة رقم (١) لمدة ٦٧ يوماً، كان خلالها يستقبل من يشاء. كان على غاية من الانشراح حسب روايات الذين قاموا بزيارته، وكان حريصاً على رفع معنويات من يزوره. في الصباح يقوم ببعض الحركات الرياضية. أما في المساء وبعد قيلولة قصيرة، فيذهب إلى فندق «ميموزاس» ليتناول قدحاً من الشاي، ويحاضر في ضيوفه. أحياناً يذهب لتناول العشاء في بيت ابنة أخيه «شاذلية بوزقرو» التي أصبحت تسكن في فيلا بطبرقة بصحبة عائلتها. كان على اتصال بالجميع تقريباً، حتى بالخارج عن طريق الهاتف. لم تنقطع الصلة مع «وسيلة بن عمّار» التي أصبحت تسكن آنذاك في باريس، بل كان يوصي المصمودي برعايتها ومعاملتها على نحو رسمي ولائق «بحبيبة الزعيم». كان على يقين بأن هذه المرة هي الأخيرة التي سيدخل فيها إلى السجن. فحين زاره كل من الهادي نويرة، أحد رجال الحزب الأقوياء في ذلك الوقت وفرحات حشاد زعيم النقابات، قال لهذا الأخير «لم يبق إلا القليل. سنة، سنتان أو ثلاث، ولكن بعد ذلك سيكون النصر». كانت تلك هي الكلمات الأخيرة التي سمعها حشاد من بورقيبة قبل أن يموت بعد نحو ١٠ أشهر من ذلك اللقاء.

الرجل الوحيد الذي شعر بأن بورقيبة كان منزعجاً من كل تلك الحرية التي كان يتمتع بها في طبرقة، هو «الباهي الأدغم»، لأنه لم يكن على استعداد أن يسمع من يقول «إن الشعب

تحت جزمة هوتوكلوك، وإن القيادات الأخرى قد رمي بها في الصحراء، أما بورقيبة فقد وجد الدلال لدى فرنسا». لكن المصمودي يفسر ذلك على نحو آخر، فهو يعتقد بأن هوتوكلوك قد ترك بورقيبة حراً في طبرقة لأنه كان يريد أن يهرب إلى الجزائر فيفقد سيطرته على الحزب وعلى مسار الأحداث، غير أن بورقيبة تفطن إلى ذلك وقرر أن يبقى على أرض الوطن[٢٠]. في ذلك الوقت رفع دي هوتوكلوك من وتيرة القمع. أقال حكومة شنيق، ووضع أمام الباي مشروع حكومة تحت قيادة صلاح الدين بكوش، ثم ضغط على بعض الدستوريين أن يشاركوا فيها، لكن الهادي نويرة الذي رفض العرض، أجبر على أن يركب الشاحنة العسكرية نحو الجنوب الصحراوي.

فجأة تتغير لهجة حاكم طبرقة تجاه بورقيبة. لقد طلب من بورقيبة أن يجمع أدباشه ليغادر طبرقة. وفي باجة التي وصلها بورقيبة مع كل من المنجي سليم والهادي شاكر وجلولي فارس على متن جيب عسكري، ستأخذهم طائرة عسكرية نحو رمادة في أقصى الجنوب. بدا لبورقيبة وكأنه عاد إلى النقطة صفر، حين وصل إلى رمادة، حيث يوجد «برج البوف» حيث سجن لأول مرة في الثلاثينيات، ولكن لشد ما كان منتشياً وهو يلتحق برفاقه المساجين، فقد نسي التعب والحرارة. لم يعد الآن مجرد سجين أو مجرد مناضل من المناضلين بل أصبح الزعيم الذي لا يشق له غبار، فهو أكبرهم جميعاً سناً وهو أكثر تجربة وتحملاً على المحن. احتل بورقيبة غرفة بمفرده داخل المعسكر، أما الآخرون وهم أكثر من ٣٥ مناضلاً فقد تقاسموا الغرف الست الأخرى. كان بورقيبة قد أصبح وكأنه «أمير». الجميع في خدمته والجميع لا يناقشه إلا بأدب، والجميع يسعى إلى ترضيته طوال النهار. كان كل واحد يقوم بواجباته مثل الطبخ وتنظيف الغرف وغسيل الملابس. وفي المساء يجمعهم بورقيبة في محاضرة عن تاريخ تونس ما تلبث أن تتحول إلى خطاب. لقد كان مزهوّاً جداً وهو يرى «أن المسلمين مع اليهود يحاربون فرنسا جنباً إلى جنب»، ومن حين إلى آخر كان يمازح «أندريه باروش»، وهو يهودي تونسي ينتمي إلى الحزب الشيوعي قائلاً له: «غداً ستنسى. وسيصبح كل شيء حكايات جميلة».

غير أن ذلك «السلام» الذي خيم على «معسكر رمادة» لم يكن إلا عابراً. فحين رأى دي هوتوكلوك أن الحركة الوطنية لم تفقد حركيتها ومعنوياتها، ورأى أن مساجين رمادة قد تحولوا إلى رموز وطنية باعثة على الأمل، عمد إلى فصل بورقيبة عن بقية المساجين وذلك لضرب معنوياتهم. وفي ٢١ أيار/مايو من العام ١٩٥٢، نقل بورقيبة إلى جزيرة «جالطة» القريبة من بنزرت والواقعة بين مالطة وتونس. كان في البداية قد فكر في نقله إلى جزيرة

كورسيكا الفرنسية، لكن وزارة الخارجية اقترحت «جالطة» ريثما تهدأ الأمور. وفي صخرة «جالطة» الخالية من السكان تقريباً باستثناء بعض الصيادين وذات الرطوبة العالية، سيسكن بورقيبة في قلعة مهجورة. لقد بلغ الآن نحو ٥١ عاماً وأصبح يقترب من الشيخوخة. وتحت ضغط الرطوبة، كان كثيراً ما يدهمه تعب ثقيل. ولأنه كان مضطراً يومياً لتناول أكله عند الصيادين تحت حراسة ضابط من الجندرمة كان عليه أن يشق طرقات متعرّجة ومتصاعدة قد فتحت بالقوة على ظهر تلك الصخرة. لقد ساعدته عصا الخيزران كثيراً على تحمل تلك المسافات الوعرة. وإذ زادته العصا هيبة وذكرته بعصا الملك محمد الأمين باي، فإنه سوف يحتفظ بها لوقت طويل كجزء من إكسسوار الزعيم. فحين يلبس الطربوش المجيدي الأحمر ويحمل عصاه الخيزرانية ويسحب منديلا أبيض من جيبه ثم يقف أمام المصور، تتراقص في عيني بورقيبة صور عديدة لرجالات كبار مثل الثعالبي التونسي ومصالي الحاج الجزائري وشكيب أرسلان السوري والنحاس باشا المصري ورياض الصلح اللبناني، وقد أصبح الآن واحداً منهم إذا لم يكن أكثر حضوراً وتوهجاً منهم جميعا وهو ينتظر المستقبل الذي إما أن يذهب أو يأتي إليه صاغراً.

في نوفمبر ١٩٥٢، تمكنت واشنطن من وضع القضية التونسية على جدول اجتماع الأمم المتحدة. أحسّ بورقيبة أن جهوده التي بدأت بنكتة أو «كذبة بيضاء» قد أثمرت أخيراً. دهمه فرح كبير وقد أيقن أنه أدخل كل الشعب معه في المعركة. حتى الباي أصبح إلى جانب الشعب. البورجوازية لم تعد مترددة، الجاليات اليهودية والمالطية أصبحت هي الأخرى متحمسة للتغيير. وقبل ذلك بنحو شهر، أي في أكتوبر، زاره طبيب عسكري في قلعته بجالطة لفحصه، فإذا به يقدم له عرضاً جاء فيه: «يمكن نقله إلى فرنسا بداية من الشتاء، إذا التزم بالهدوء». رفض بورقيبة ذلك العرض قائلاً لطبيبه: «إنني لا أطلب شيئاً من «دي هوتوكلوك». إنني لا أطلب منه لا أن يحرّرني، ولا حتى أن يخفف عني نظامه القاسي». لقد بدا بورقيبة وكأنه قد أصبح متصوفاً بالرغم من أنه رجل برغماتي من فصيلة نادرة، ولأنه كان يعلم أن «المساومات» غالباً ما يبدأها الطرف الضعيف، فقد فضل أن ينتظر عرضاً أكثر إغراء.

وطوال سنتين قضاهما بورقيبة في جزيرة جالطة، استطاع أن يتحصن بالمعنى والرمز وكذلك بالقراءة حتى لا يسقط. كان يقرأ بشهية. عاد إلى كتابات هيغو، ثم التهم معظم كتابات «ريمون أرون» حول التاريخ، كما قرأ عدة كتب في السيرة حول زعماء كبار، فزاد إصراراً على التألق لأن سياسة الجزرة لا بد أن تقود آجلاً أو عاجلاً إلى هزيمة المحتل.

وفي صباح ٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٢، وبينما كان بورقيبة ممدداً على فراشه وهو يتأهب لمغادرته، طرق أحد ضباط الحراسة بابه ليخبره ببرودة بأن: «الزعيم النقابي فرحات حشاد قد قتل». لم يقل الضابط كيف ومتى وأين؟ لكن بورقيبة الذي أرعبه ذلك الخبر، تمالك قليلاً ثم قال لنفسه: «الآن يمكنني أن أعرف لماذا تُرك حشّاداً حراً ولم يسجن مثلنا جميعاً. تراهم هل كانوا يريدون اغتياله. ولكن كيف حصلت تلك المصيبة؟.

لقد خسرت تونس في ذلك اليوم أحد زعمائها الثلاثة الكبار. والأحرى أن يقال إنها أصبحت يتيمة. فحشاد قتل وبن يوسف في المنفى وبورقيبة في السجن. هكذا كان المشهد العام. ولكن ما من شك أن بورقيبة سيرى المشهد حين يذهب الحزن ويمتص الحزب الصدمة، على نحو مغاير: إن موت حشاد سيجعله أكثر حرية وأكثر جرأة لأنه سيخلصه من «عدو احتياطي» قد ينافسه على الزعامة فيما بعد، وكما حدث مع بن يوسف لاحقاً.

الهوامش:

(١) قال ذلك لرفيقه البشير زرق العيون، شهادات جمعها المؤلف ما بين عامي ١٩٩٣ و١٩٩٥.

(٢) أحمد القصاب، **تاريخ تونس المعاصر**، الشركة التونسية للتوزيع، أنظر كذلك كتاب:

Bourgiba vu par Jean Rous Ed: Martinsart, 1984, Paris.

(٣) من شهادة البشير زرق العيون، أحاديث مع المؤلف، عام ١٩٩٣.

(٤) الوصف يعود لمحمود المصمودي، وزير الخارجية السابق، أحاديث مع المؤلف في باريس.

(٥) نام بورقيبة في بيت الحاج علي، ابن عمّ المؤلف الكائن بمنطقة الدوالي بمدينة قفصة. وكان تاجراً كبيراً قام بتمويل الحركة الوطنية، وتنظيم الصفوف الأولى للمقاومة مع أحمد التليلي. وقد اتهم باغتيال أو تنظيم عملية اغتيال «قايد» قفصة المتعاون مع الاستعمار في العام ١٩٥٢.

(٦) من وثائق تاريخ الحركة الوطنية، تم جمعها بإشراف مدير الحزب السابق في عهد بورقيبة، محمد الصياح.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) اغتيل فرحات حشاد في ٥ كانون الأول/ديسمبر - ١٩٥٢ في ظروف غامضة جداً. الجميع يتفق على أن منظمة الأيدي الحمراء هي التي قامت باغتياله، لكن أرشيفات الخارجية الفرنسية لا تحسم في ذلك. فهو قد يكون ذهب ضحية غدر وحسد من رفاقه.

(٩) محمد المصمودي ـ العرب في العاصفة

- **Les arabes dans la tempete,** Ed: Jean claude Simoen, Paris 1977.

(١٠)و(١١) المصدر نفسه.

(١٢)و(١٣) - **Les arabes dans la tempete,** Mohamed Masmoudi, Paris 1977.

(١٤) أول معسكر تدريب لمناضلي الحركة الوطنية، كان قد فتح في ليبيا قرب مدينة الزاوية. وربما بالتحديد في منطقة «جدّايم» الزراعية. تحول فيما بعد إلى معسكر تدريب لكل اليساريين العرب في عهد القذافي. المعسكر فتح بالاتفاق

مع الحكومة الليبية التي كانت تغض الطرف عن ذلك وقد أشرف عليه علي الزليطني، رفيق بورقيبة. وأصيل ليبيا - زليطن.

(١٥) الأمير فيصل بن سعود هو الذي سيصبح فيما بعد الملك فيصل. وقد كان مناصراً لكل القضايا العربية أثناء عمله الدبلوماسي.

(١٦) من أحاديث المؤلف مع المصمودي في بيته بباريس، عام ١٩٩٠.

(١٧) أنظر كتاب: **Bourguiba vu par Jean Roux** Ed: Martinsart, Paris, 1948.

و - **Bourguiba a la conquete d'un destin, S. Bessis et S. Belhassen,** Ed: Jeune Afrique-Livres - Paris-1989.

(١٨) **Philipe Sollers-entretien avec Edgard Faure,** Ed: Media 1982.

(١٩) **Hommes et leurs peuples-Jean laconture,** Ed· Seuil, Paris 1969.

(٢٠) من أحاديث المؤلف مع المصمودي - باريس ١٩٩٠.

سنوات الشطرنج:

فنّ الركض بحصان من خشب

«إن الإنسان يعرف الآن معظم قوانين «اللعبة»، وقد يفهم بأن «للعبة» هدفاً متعلّقاً بالتطور، لكن اللاعب «الشطرنجي» الممتاز يحتاج لأن يلمّ بالقوانين والهدف الأخير. وكلما نمت إمكانية هذا الوجدان في الوصول، كلّما زاد الأمل في الفوز، ولا جدال بأن الحياة بلا وجدان هادف، هي حياة بلا معنى».

«كولن ولسون»
ما بعد اللامنتمي

فَقَدَ بورقيبة وهو لا يزال فوق ذلك الجلمود الصخري الذي يسمى بجزيرة جالطة أخويه الواحد تلو الآخر. مات محمد وبعد بضعة أسابيع التحق به محمود، وكانا قد وقفا إلى جانبه حتى أصبح رجلاً. ومع الأخوين محمد ومحمود، فقد كذلك بورقيبة أخاه في النضال «فرحات حشاد»، الزعيم العمّالي، الذي وقف إلى جانبه حتى أصبح زعيماً. لكن بورقيبة الذي هبطت عليه هذه المصائب الثلاث في أقل من شهرين، لم يفقد الأمل.

لم يكن «فرحات حشاد» الذي ذهب لتقديم التعازي لأقارب الفقيد «محمود بورقيبة»، يعرف أنه سيموت بعد حين. ومع ذلك بدا وكأنه يرى ما لا يراه غيره. لقد قال لأقارب بورقيبة: «إن الصبر الذي نلتمسه من الله لهؤلاء ولأقارب الفقيد، ربما كان أحق به ذلك الرجل الذي يصارع أهوال المنفى وهو معلق بين البحر والسماء فوق صخرة»[١]. كان موت محمود قد نتج من مرض تحالف مع الشيخوخة، لكن حشاد أضاف بتلك المناسبة قوله: «إن الوطن يحتاج إلى شهداء».

كان المقيم العام هوتوكلوك قد دخل إلى طريق العنف والقمع بلا فرامل. وبدا أنه فقد التحكم في منطقه الذي قام على سياسة الترهيب والترغيب، فأصبح رجلاً بلا مبادرات «خلاقة». ولأنه عاش على وهم بأن بإمكانه القضاء على أعدائه الواحد تلو الآخر، فقد

تخيل أنه يستطيع أن يفعل كل شيء بما في ذلك إرجاع عجلة التاريخ إلى الوراء. حارب هذا المقيم العام المصاب بهلع البارانويا على عدة جبهات. لم يكن محبوباً لدى الرئيس «أوريول»، كما خسر المدافعين عنه في الخارجية. وأما في تونس فقد أصبح في قبضة إدارة مليئة بالعنصريين والمتطرفين. ولأنه كان دائماً يختار الذهاب إلى أعدائه من الوراء، فقد وافق على تكوين «عصابات متطرفة» للعمل الموازي من أجل إرهاب واغتيال مناضلي حزب الدستور الجديد.

وإذ أصبحت للمقيم العام، عصابة «اليد الحمراء» التي شاع اسمها إلى حد أغرقت البلاد في هلع لا مثيل له، فإن حزب الدستور قد أصبح له رجاله «الفلاقة». دخل هؤلاء إلى العمل السري استعداداً ليوم الصفر وهم يحتفظون بعدة قطع من السلاح المهرب من طرابلس، ويأتمرون بتعليمات من رجال لم يعرفوا جامعات فرنسا مثل «أحمد التليلي» و«البشير زرق العيون» و«علي الزليطي» و«المحجوب بن علي». أما «عصابة اليد الحمر» فقد دخلت هي الأخرى في استعراض قوة باحثة عن أهدافها بكل عناية.

اختلطت في ذلك الوقت جميع الأوراق. قيادات حزب الدستور مشتتة بين المنافي والخارج. الاتحاد العام التونسي للشغل بدا وكأنه معزول ومكشوف أمام الأعداء. الباي محمد الأمين اشتد به الغضب لأن وزراءه قد أصبحوا في السجن والمنفى. الأمراء مهددون بالعقاب وعدم الاتصال بالباي. مجلس الأربعين الذي جمع ٤٠ من أعيان البلاد في جميع الحساسيات السياسية[1] قد زج به في مشاحنات ومناورات دنيئة قضت عليه في النهاية. أما الصحافة فقد دخلت إلى العتمة، فكان أن تهيأت كل الأجواء لضربة موجعة في صفوف الحركة الوطنية. ففي مثل تلك الملابسات والاتهامات المتبادلة يحدث عادة اغتيال شخص ما.

وبينما كانت هناك مفاوضات عقيمة تجري بين القصر والحكومة الفرنسية، امتدت أياد خفية لاغتيال الزعيم النقابي فرحات حشاد. غضب الباي فقطع كل اتصال، وأعلن مجلس الوزراء الفرنسي عن أسفه لأن هناك من لا يريد للفرنسيين والتونسيين أن يعيشوا في وئام. وتكلم أحد النواب فحذر «من أية اضطرابات مهما كان مصدرها». وفهم «دي هوتوكلوك» أن التحذير موجه إليه وكذلك للثوار الأهليين. أما رئيس الوزراء «بيناي»، فقد حذر من أن يكون رد فعل الأهلين، سقوط ضحية فرنسية بحجم فرحات حشاد. انتشر الذعر والهلع في البلاد ورأى الرئيس أوريول بعين ثاقبة: «أن هوتوكلوك قد وضع فرنسا على قنطرة لزجة جهنمية»، ثم أضاف وهو يخاطب وزير خارجيته شومان «إنني أطلق صفارة الإنذار: Je sonne l'alarme».

قتل فرحات حشاد عند فجر يوم ٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٢، حين كان المقيم العام «دي هوتوكلوك» في زيارة إلى فرنسا. كان خارجاً من بيته، وقد ركب سيارته متوجهاً إلى العاصمة قادماً من الضاحية الجنوبية، حين اعترضته في منتصف الطريق سيارة مجهولة صوبت نيرانها باتجاه سيارته. أصيب حشاد بطلق ناري لم يسقطه في البداية، وتمكن من النزول ليركب شاحنة كبيرة تابعة لإصلاح خطوط الهاتف طالباً منهم أن يوصلوه إلى أقرب مستشفى، ثم اقتربت سيارة أخرى صغيرة، قال راكبوها إنها أسرع من الشاحنة وهم مستعدون لنقله على جناح السرعة إلى المستشفى. وفي الطريق قرب منطقة «نعسان» الزراعية على بعد ٥ كلم من وسط العاصمة، رمى أولئك الرجال المجهولون «فرحات حشاد» في الغابة وقد أصبح جثة، بعد أن أجهزوا عليه. وإذ سكن الخوف قلوب السكان منتظرين فصلاً آخر من الفظاعة، فإن الاتهامات تهاطلت من كل حدب. تكلم الجميع عن اغتيال قامت به عصابة «اليد الحمراء». أما البوليس الفرنسي فقد عمل على نشر إشاعة مفادها: «أن حشاد ذهب ضحية مؤامرة داخلية من حزب الدستور». استند البوليس إلى أقوال عدد من الشهود الغامضين الذين زجوا بأسماء مثل «المحجوب بن علي»، باربوس بورقيبة و«البشير زرق العيون»، جزار بورقيبة. وتبارى المحللون فأعطوا عدة توضيحات منها أن حشاد كان المنافس الوحيد على الساحة في ذلك الوقت لبورقيبة وقد ربط علاقات جديدة بالباي وهو يملك اتحاد العمال الذي أصبح قوة ضاربة ومنافسة لحزب الدستور، وأنه الوحيد من بين رجالات الحركة الوطنية الذي لم يسجن، وأن اغتياله تم في غياب «دي هوتوكلوك» الذي لا أحد يمكنه أن يتصرّف في غيابه على هذا النحو، وأن حزب الدستور قد أصبح خائفاً من هيمنة فرحات حشاد وإشعاعه. لكن كل تلك التفسيرات كانت عبارة عن متاهة ليظل اغتيال قاتل حشاد مسجلاً في قصر العدالة تحت (اسم مجهول) وفي الذاكرة الشعبية، تحت اسم معلوم، هو «اليد الحمراء».

كانت عصابة «اليد الحمراء» التي اشتهرت بعدة اغتيالات ناجحة مثل (قتل حشاد) ومحاولات فاشلة مثل محاولة قتل الزعيم الجزائري أحمد بن بلة في طرابلس بعد بضع سنوات، منظمة إرهابية سرية قد تشكلت في بداية عام ١٩٥١ بدعم من المقيم العام «دي هوتوكلوك»، وتحت حماية رجال البوليس والجندرمة وبمساعدة معمرين كبار متعصبين. جمعت شباباً خارجاً على القانون، متعطشاً للقتل والمغامرة جندتهم الإدارة الفرنسية من ذوي السوابق العدلية، وهم خليط من الفرنسيين وغيرهم القادمين من الجزائر والمغرب والهند الصينية. هذه المنظمة التي تشبه منظمة الجيش السري التي بعثت في الجزائر، ستكلف بمهمات سرية وغاية في النذالة تحت شعار مكافحة الإرهاب الأهلي. لم تكن

هذه المنظمة تعمل في صلب جهاز الإدارة الفرنسية (الشرعية)، وإنما كانت تعمل بالتوازي معه في الظلام. وإذ لم تتوافر أية معلومات عما إذا كانت تحظى بالدعم من باريس في ذلك الوقت، فإن الحكومة الفرنسية لم تبذل أي جهد لوقف عملياتها. فلقدكانت محمية من المقيم العام وتقع تحت إشراف البوليس الفرنسي، فتمكنت من التغلغل في جميع الأجهزة، فكسبت دعماً كبيراً، وهي تعبر عن مصالح المعمرين الكبار الذين شعروا «بأن حكومتهم في طريقها إلى خيانتهم» عن طريق المفاوضات مع الحركة الوطنية، الأمر الذي جعلها فيما بعد كأمر واقع.

وإذ كان فرحات حشاد هدفاً سهلاً ومثيراً، فقد أختير ليكون أول الضحايا. كان قد أصبح الدينامو الكبير لحركة المقاومة في الداخل، والزعيم الشعبي الذي بإمكانه أن يعوض غياب بورقيبة ويملأ فراغ صالح بن يوسف، وهو إلى جانب ذلك حلقة الوصل القوية ذات الفتحات المثلثة، إذ يتزعم اتحاد النقابات ويحظى بثقة الباي، ثم هو ينتمي إلى قيادة حزب الدستور. كان سقوطه ضربة مذهلة أوقعت كل التونسيين تحت الخوف، بما في ذلك الباي الذي خضع أخيراً لضغوطات الإدارة الفرنسية فقبل بما يسمّى بالإصلاحات البلدية التي تعطي للفرنسيين نفس حقوق التونسيين!.

لم يكن هناك عصابة «اليد الحمراء» التي تقتل فقط. وإنما رجال البوليس الفرنسي هم أيضاً أصبحوا يقتلون في وضح النهار. أما من جانب الحركة الوطنية، فقد انتقلت هي الأخرى إلى القيام بعمليات جريئة ضد الفرنسيين وعملائهم. وحين دخل رئيس الوزراء التونسي محمد صالح مزالي[٢] في تطبيق قانون إصلاحات المجالس البلدية المقترح من الإدارة الفرنسية، فكر حزب الدستور في اغتياله، لكنه لم يجد وسيلة لتنفيذ ذلك إذ كان يعيش تحت حراسة مشددة. ومع ذلك، تمّ اغتيال عدد من المتعاونين الصغار و«القياد» الذين يباشرون عملهم بالتنسيق مع فرنسا؟. أما عصابة «اليد الحمراء» فقد تمكنت من اغتيال الشاذلي القسطلي، نائب رئيس بلدية تونس العاصمة، وصاحب جريدة «النهضة» المعارض لإصلاحات البلدية يوم بدء الانتخابات في شهر نيسان/أبريل ١٩٥٣.

وفي ١٣ أيلول/سبتمبر من العام ١٩٥٣، استطاعت عصابة «اليد الحمراء» أن تدفع أحد المتعاونين التونسيين، وهو أصيل صفاقس إلى التسلل لاغتيال المناضل الدستوري الهادي شاكر[٣]. ومن بداية آذار/مارس حتى نهاية أيلول/سبتمبر سقط أكثر من ٣٠ مناضلاً وطنياً صرعى الرصاص. أما حزب الدستور فسوف يقوم بعمليات قليلة لكنها مثيرة، مثل عملية

اغتيال «عز الدين باي»، وليّ العهد في أول حزيران/يوليو ١٩٥٣، وكان ينظر إليه كأحد «رجال فرنسا» في القصر.

لم يعترف حزب الدستور بقتل وليّ العهد عز الدين باي في ذلك الوقت، ولكن بورقيبة سيعترف بذلك بعد حوالى عشرين عاماً خلال محاضرة أمام الطلبة[٤]: «حين قبل الباي ببرنامج إصلاحات البلدية في ظل القمع الذي قاده دي هوتوكلوك، غضب بورقيبة، وكان قد انتقل من جزيرة جالطة إلى جزيرة غروا، فأعاد الوسام الذي منحه إليه الباي ومعه القلادة الذهبية التي أهدتها له ابنة الباي «زكية». وهو يريد أن يقطع الصلة» بالأسرة المالكة.

لم يصدر بورقيبة أوامر صريحة إلى «الهادي جاب الله»، أصيل منطقة الواحات، توزر، ولكن خلال زيارة لبعض أفراد أسرته في المنفى، سيتساءل بورقيبة أمام أخته وبناتها، ما إذا كان «يتعذر في تونس وجود رجل يكون في استطاعته التضحية بحياته من أجل تخليصها من هذه الجرثومة؟». كان بورقيبة لا يقصد غير «عز الدين باي» الذي رآه قبل يومين على صفحات جريدة «لادبياش تونزيان» (٢ كانون الثاني/يناير) وهو يقدم التهاني للمقيم العام هوتوكلوك بمناسبة أعياد رأس السنة. وحكى بورقيبة وهو يتجه بالحديث إلى ابنة أخته التي ستُعرف فيما بعد تحت اسم «سعيدة ساسي»، «بأن هذا المتزلف ولي العهد يريد أن يحلّ محلّ الباي وهو يعمل على خلعه بهذه المزايدات». فهمت سعيدة، أن تلك الإشارة هي رسالة واضحة، ذلك أن الزعماء غالباً ما يلمحون ولا يوضحون في مثل هذه المسائل، فنقلت إلى أحد مناضلي الحزب فحوى الرسالة، وهو «الهادي بلحسن» الذي أحالها على مناضل آخر أكثر جرأة هو الهادي جاب الله. أجاب «جاب الله» وهو رجل لا يحسن لا القراءة ولا الكتابة، «بأن مثل هذه الأعمال قد تضرّ بالحزب»، ولكن حين أصرت سعيدة بأن ما تقوله هو بمثابة أمر من الزعيم بورقيبة، قال لها: «لنتمهل قليلا ثم سنرى».

بعد مدة قصيرة سأل الهادي جاب الله سعيدة، ابنة أخت بورقيبة ما إذا كانت تعرف السيد الشاذلي القسطلي صاحب جريدة «النهضة»، فقالت: «إنه في القبر منذ مدة قصيرة». فأجابها الشاذلي: «وإذن بإمكانك أن تعتبري عز الدين باي في القبر مثله». بعد يومين سقط وليّ العهد في الشارع برصاصة واحدة، وحاول الهادي جاب الله الهروب لكنه وقع في الأسر. ثم نقل إلى منصة الإعدام دون أن يجد من يشيعه حتى بكلمة أسف.

أراد بورقيبة، من وراء تحريضه على قتل وليّ العهد أن يضع نفسه داخل دائرة الاتهام حتى لا تتجاوزه الأحداث. لم يكن ينتقم لمقتل فرحات حشاد، ولكن كان يرد على الذين

يريدون أن يصنعوا الحدث السياسي دون أن يأخذوا في اعتبارهم قوة حزب الدستور. وكما هي عادة بورقيبة، فإنه حالما يشعر بالضعف ينتقل إلى الهجوم، أما حين يشعر بالخذلان من رفاق الحزب، فهو يلجأ إلى أفراد عائلته. فقد هاجم معتمداً على عائلته هذه المرة. ولكن بورقيبة الذي حرض على قتل وليّ العهد ونجح في ذلك، فإنه كذلك حرض على قتل رئيس الوزراء محمد الصالح مزالي ولم ينجح. رغم ذلك فقد وجد الفرصة لكي يبلغ إلى وزير الباي الأكبر عن طريق ابنه «رشيد» الذي زاره في منفاه، كراهيته المقيتة له: «قل لأبيك إنه اقترفت خيانة حقيقية في حق الشعب». كان ذلك في الـ٢٨من آذار/مارس عام ١٩٥٤، أي بعد ٢٦ يوماً فقط من تولي أبيه للوزارة.

لقد ندد بورقيبة من منفاه ببرنامج المجالس البلدية ورأى فيه تذويباً للشخصية التونسية، بل وصفها بأنها خطوة عملاقة نحو الوراء أعادت الحركة الوطنية إلى بداياتها الأولى. لذلك فقد راح يدعو إلى الإضرابات وإبداء المقاومة وعدم الرضوخ والخوف. وبعد مدة أيقنت السلطات الفرنسية أنها لم تتقدم قيد أنملة، وقال دي هوتوكلوك في لحظة صفاء لأحد قادته العسكريين: «إن التونسيين يجروننا إلى مزيد من القتل، ولكن لن نتغلب عليهم في النهاية». وأخيراً جاء قرار عزل هوتوكلوك الذي عيّن مكانه «بيار فوازارد» في ٢٣ أيلول/سبتمبر ١٩٥٣. وحالما وصل هذا المقيم العام المدني الجديد رفع حالة الحصار عن البلاد وأوقف التعامل بقرارات وقوانين دي هوتوكلوك الاستثنائية، ثم أطلق سراح ٥٤ من مساجين الحركة الوطنية بمناسبة رأس السنة الجديدة لعام ١٩٥٤. وفي ما يتعلق ببورقيبة، فقد أوحى له «بأن المستقبل يمكن أن يكون أكثر إغراء دون أن يطلق سراحه».

قام «فوازارد»[٥] الذي جاء إلى تونس باحثاً عن طريق للمساومة التاريخية، في البداية بالعمل على عزل «صلاح الدين البكوش» من الوزارة لأنه صديق «دي هوتوكلوك»، ثم ساند اختيار محمد الصالح مزالي من قبل الباي ليشرف على الوزارة بداية من ٢ من آذار/مارس ١٩٥٤. لم يكن مزالي، ابن إحدى عائلات المنستير الكبيرة ليظهر سيئاً في عيون الشعب وهو يمد يديه للتعاون مع فوازارد، ولكن بورقيبة رأى في ذلك «خيانة للقضية». إن سجين جزيرة جالطة الذي سيذهب إلى حد التحريض على قتل ابن بلدته مزالي، كان متخوفاً من نعومة فوازارد أكثر مما كان خائفاً من دموية دي هوتوكلوك. لقد بدا «فوازارد» لجزء كبير من الشعب أنه سيجد الاهتمام به ويحقق التعاون معه. وحين أعاد الهدوء إلى البلاد، أعجب به كثير من الوطنيين الليبيراليين، وإذّاك بدأ يرمي بشباكه لصيد المتعاطفين

معه من حزب الدستور. إن ذلك الأسلوب الناعم هو الذي سيبعث في بورقيبة الخوف من سرقة «الثورة» وسرقة زعامته.

وإن أعجب البعض من قيادات حزب الدستور بعد أن أطلق سراحها، بشخصية المقيم العام الجديد، فقد راحوا يتصيدون بدورهم فرصة اللقاء به أو معه. ومن بين أولئك كان «الهادي نويرة» الذي كان أميناً عاماً للحزب الدستوري الجديد، أول من ضعف أمام أساليب «فوازارد» الناعمة. فقد أصبح نويرة يدعو إلى ترك العنف وذهب إلى حد طلبه من «الفلاقة»[٦]، بأن «يعقدوا هدنة ويلقوا بالسلاح جانباً». وفيما استجاب بعض الثوار لنداءات الهادي نويرة وقد نزلوا من الجبال عائدين إلى بيوتهم، فإن البعض الآخر المحكوم عليهم بالإعدام غيابياً، قد فروا إلى ليبيا، ولكن هل كان أسلوب فوازارد الذي قام على تنويم الحركة الوطنية سينجح بدون أن يستعين بسجين جالطة، زعيم الشعب بورقيبة؟

لم يكن واضحاً للسيد فوازارد وهو يعمل على شق الحزب بأسلوب الجراحين المهرة، أنه سينجح في ذلك!! وحين رفع بورقيبة من وتيرة التنديد وقد سانده في ذلك صالح بن يوسف انطلاقاً من القاهرة التي أصبحت الآن تحت قبضة زعيم شاب يطالب بتحرير الوطن العربي من مراكش إلى البحرين، هو عبد الناصر الذي اعتلى لتوه الرئاسة وراح يحثّ الخطى للصدام مع الغرب.. تراجع الهادي نويرة عن تعاونه مع السلطات الفرنسية. ثم توقف السيد فوازارد للحظة ليرى المسافة التي قطعها والمسافة التي عليه أن يقطعها متسائلاً ومستدركاً: «ولكن إلى أيّ هدف؟».

قدم الهادي نويرة استقالته من الحزب في ٢٥ آذار/مارس ١٩٥٤، تحت تهديد المتشددين من حزب الدستور. وحين رضخ أصبح مهدداً من عصابة «اليد الحمراء»، فجنى المرارة من الجانبين. وسوف لن يعود إلى الحزب إلا بعد أن بدا له أن لا مهرب من تاريخه السابق. فهم المقيم العام أخيراً أن الهدف الذي يسير إليه غير واضح، وهو لا يملك جميع الوسائل للوصول إليه. وفجأة التفت إلى بورقيبة، فأرسل إليه مبعوثاً سرياً هو الطبيب العسكري «دولوك» ليخبره بأن المقيم العام يفكر فيه جيداً. وهكذا وبداية من الـ٢٠ أيار/مايو ١٩٥٤، سينتقل بورقيبة من صخرة جالطة إلى جزيرة أخرى أكثر راحة وشاعرية تقع بمنطقة «البريتون» وتدعى «دي كروا». بدا بورقيبة لذلك الرجل الذي حمله إلى البرّ من جزيرة جالطة على ظهر زورق، وكأنه توغل في الشيخوخة. انحنى ظهره وفقد كثيراً من شعر رأسه ثم اتكأ على العصا بثقل فيما تثاقلت خطواته. كان بورقيبة قد دخل في الشيخوخة لكنه ظل يسير بثبات، فحالما وصل إلى جزيرة دي كروا ـ بفرنسا، حيث سيسكن بيتاً

جميلاً يملكه أحد الصيادلة في الجزيرة، وحال وصوله إلى ذلك البيت سارع بورقيبة إلى الهاتف ليخاطب حبيبته وسيلة قائلاً لها: إنه وصل بخير، وإنه يتمتع بإقامة جيدة. ثم تحدث إلى زوجته وأخبرها بأنه لم يتعب ولكن «قليلاً من الصبر». ثم اتصل بمكتب الحزب ليقول لهم: «إنه يتمتع بحرية أكثر، ولكن نريد تونس كلها أن تتمتع بالحرية». وأخيراً، برجل سرّه «علالة العويتي» ليطلب منه «أن يرد وسام الافتخار إلى الباي لأن بورقيبة غاضب». لقد شعر وهو في جزيرة «دي كروا»، أنه يقترب من الهدف وأنه لم يبق الكثير لكي يبدأ مع الفرنسيين حوار الشجعان. وإذ راح يصرّح للصحافيين «بأن ما أطلبه في البداية هو الاستقلال الذاتي، وأن حقوق الفرنسيين الاقتصادية والاستراتيجية والثقافية ستحترم» فإنه كان حريصاً على ألا ينطق بأية كلمة يمكن أن يفسرها ثوار جبل عرباطة على أنها أمر بالانسحاب والعودة إلى الهدوء.

نحن الآن في آخر يوم من شهر آب/أغسطس ١٩٥٤. مضى على بورقيبة نحو ثلاثة أشهر وأسبوع على وجوده في منفاه الجديد. لم يتلق بعد أي عرض، لكنه ينتظر ذلك وهو على يقين بأنه سيكون جدياً هذه المرة، لأن الحزب قد انتقل إلى العمل الجدي. تعاقبت عمليات «الفلاقة» في الريف والمدن فأثارت الرعب في السلطات الفرنسية المنهمكة والمتعبة على إثر هزيمة «ديان بيان فو». ثم فجأة يتعرض رئيس الوزراء محمد الصالح مزالي لمحاولة اغتيال. تلك المحاولة حتى وإن كانت فاشلة، فقد كانت إنذاراً شديد اللهجة من الحزب، بأن لا سبيل للتفاهم إلا مع بورقيبة. إن ابن مزالي، السيد رشيد هو الذي أخبر الباي بذلك وكذلك السلطات الفرنسية، لأنه سبق وأن تلقى رسالة تهديد بخصوص والده من فم بورقيبة مباشرة، حين قال له في جزيرة جالطة: «إن والدك اقترف خيانة حقيقية».

إذ فقد المقيم العام فوازارد السيطرة على ثوار حزب الدستور، فإنه كذلك فقد السيطرة على عصابات «اليد الحمراء». وحين استقال مزالي من الوزارة بعد مائة يوم (١٧ حزيران/يونيو عام ١٩٥٤)، لم يجد السيد فوازارد ولا الباي محمد الأمين، من يخلف ذلك الرجل. لقد دخلت البلاد إلى حالة من العصيان العام وأصبحت تقريباً غير قابلة للحكم. وفي ١٨ حزيران/يونيو ١٩٥٤، سيعين «منديس فرانس» على رأس الحكومة الفرنسية في باريس، فيشعر بورقيبة في جزيرة «دي كروا»، بأنه ازداد قرباً من هدفه. فهذا الرجل الذي جاء خصيصاً ليخرج فرنسا من ورطة الفيتنام عن طريق المفاوضات، سينظر إليه بورقيبة منذ تلك اللحظة على أنه الرجل الذي ضرب له القدر موعداً نبيلاً معه.

* * *

جاء بيار منديس فرانس، وهو مثقف يهودي ينتمي إلى البورجوازية الفرنسية من وراء خيال

الهزيمة في «ديان بيان فو». فكان على هذا الرجل أن يوقظ فرنسا من فراش عظمة القرن التاسع عشر الذي أطالت فوقه النوم. ولما أيقن أن الهزائم تتلاحق كالمصائب، هرع هذا الرجل إلى مساومات حفظ الشرف لأمبراطورية بدت دائخة منذ مؤتمر يالطا عام ١٩٤٥ وهو يدرك أنه رجل لحظة أكثر منه رجل عصر أو حقبة. لقد وصفه الذين عرفوه، «بأنه جراح أكثر منه طبيباً، يستطيع أن يفتح الجرح ويخيطه على وجه السرعة، لكنه لا يستطيع أن يراقب مرضاه في المستشفى أو يتابع آلامهم كما سيفعل من بعده إدغار فور»[٧]. كان كذلك يذهب إلى هدفه بقوة الثور، وهو بورجوازي عريق احتفظ بعادات الفلاحين الذين يسرعون نحو قطف ثمارهم قبل أن تمتلئ السوق.

إن منديس فرانس الذي سيفتح الجرح التونسي، هو الرجل الذي خاط الجرح الفرنسي في فييتنام عن طريق المفاوضات في جنيف. لم يكن مسؤولاً عن المرض، ولكنه يحمل أخلاق الجراح المسؤول المباشر عن مرضاه. فهل علينا أن نعود إلى الوراء قليلاً؟.

لقد بدأ مرض فرنسا الذي قد يسمى «بشيخوخة أمبراطورية» من الدار البيضاء في العام ١٩٤٢ حين أعلن الحلفاء خلال ما عرف بمؤتمر أنفا، الهجوم المضاد على دول المحور انطلاقاً من شمال إفريقيا.

وفي العام ١٩٤٥، وقبل أن تتحرك سفينة الرئيس روزفلت من المياه الإقليمية المغربية، وبعد استراحة قصيرة على شاطئ الدار البيضاء في اتجاه يالطا لتقسيم «الكرة الأرضية» مع ستالين، أطلق روزفلت بالوناً سريعاً حمّله رسالة تقول: «هذه الحرب جعلتنا ندرك أن شمال إفريقيا هي الحدود الأمنية للعالم الحرّ». وقبل أن يصل روزفلت إلى شاطئ البحر الأسود، وصل بالونه السياسي إلى ستالين. وأثناء الجلسة الرابعة من المفاوضات مع تشرشل وروزفلت، تساءل ستالين: وماذا يمكن أن نترك لفرنسا؟ فأجابه روزفلت (جنوب شرق آسيا). وامتد النقاش فرد ستالين: «ولكن جنوب شرق آسيا بركان يغلي ولن تستطيع فرنسا البقاء في هذه المنطقة لمدة طويلة». بعد سبعة أشهر من تلك المفاوضات التقى كل من تشرشل وديغول على ظهر بارجة حربية على شاطئ دانكرك فدار هذا الحوار[٨]:

ـ تشرشل: «لقد كنت غائباً عن المفاوضات أيها الجنرال، لكن فرنسا كانت حاضرة»، ثم أضاف: «أريد أن أسألك باسم روزفلت وستالين: ما الذي تريده فرنسا بالضبط؟».

ـ ديغول: «أن تبقى فرنسا في مكانها حفاظاً على مكانتها».

ـ تشرشل: «أين بالضبط؟».

ـ ديغول: «في جنوب شرق آسيا وجنوب أوروبا، أي في شمال إفريقيا».

ـ تشرشل: «لكني سمعت ستالين يقول: إن فرنسا لن تستطيع البقاء في جنوب شرق آسيا طويلاً، ولا شك أنك سمعت روزفلت يقول «إن شمال إفريقيا هي الحدود الجنوبية لأوروبا وللعالم الحرّ»، فهل يعني ذلك أن ستالين كان يرد على روزفلت؟»».

ـ ديغول: «لعل ستالين يريد القول أيضاً «إن جنوب شرق آسيا هي حدوده الثورية». سوف لن نختلف كثيراً مع روزفلت، ولكن أرى ستالين أكثر إصراراً».

كان ذلك مع بداية ١٩٤٦، ودارت الأيام فخرج الفرنسيون من الهند الصينية وهم يجرون خيباتهم. تحققت نبوءة ستالين، لكن الأميركان أدركوا أن المنطقة مهمة جداً وهي تشكل المقبض الرئيسي لباب العبور السوفياتي نحو المحيط الهادئ، فعملوا بكل جهد على أن يخلفوا الفرنسيين، لكي ينالوا أهم صفعة في تاريخهم في تلك المنطقة بعد حوالى ثلاثين سنة.

كان مؤتمر يالطا قد انتهى دون أن ينظر في مستقبل المغرب العربي بعمق. كان شمال إفريقيا أو المغرب العربي يمتد في عيون الأميركان من طبرق (ليبيا) إلى أغادير المغرب، وهو ساحل يمتد من مصر إلى طنجة على ضفة المتوسط الجنوبية ثم يتقوّس من مضيق جبل طارق إلى حدود أغادير على الأطلسي فيبلغ حوالى ٦ آلاف كلم. وهذا الساحل حسب الاستراتيجية الأميركية ليس إلا جزءاً ممّا يسمى بـ«الشرق الأوسط» الذي يقع بين الباكستان والمغرب، وهو ما يعبر عنه حالياً «بالهلال الإسلامي». أما في نظر الفرنسيين فإن شمال إفريقيا الذي يمتدّ من تونس إلى نهر السنغال، الحدود الموريتانية، هو مجالهم الحيوي الذي سوف لن يدخروا أي جهد للحفاظ عليه حتى في أسوأ الخيارات، ذلك أن خسارته ستغلق آخر فصول الأمبراطورية لتعيدها إلى مسدسها الداخلي.

وفعلاً لم تستطع فرنسا البقاء في جنوب شرق آسيا (فييتنام، كمبوديا، لاوس وتايلاند) إلا قليلاً من الوقت. فبعد فترة من العذاب النفسي ومقاومة الاعتراف بالهزيمة، كان على فرنسا في أواسط الخمسينيات أن تحمل عصاها وترحل لتحل محلّها الولايات المتحدة في صراع مفتوح مع السوفيات. وسوف لن تمضي إلا بضعة أشهر حتى تشهد الأمبراطورية الفرنسية ضربة ثانية ربما كانت أشد وجعاً لأنها حدثت في منطقة أكثر قرباً. فحين نطلقت الثورة التونسية ودخلت البلاد في منطق العصيان، وهو ما كان يحدث بالضبط في المغرب الذي تحالف فيه السلطان مع الأحزاب، كانت الجراح الفرنسية في «ديان بيان

فو» لم تلتئم بعد. أما حين أعلن عن الثورة الجزائرية في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٤، فإن فرنسا أدركت أن عليها أن تغادر فراش العظمة بعد أن تسلل إليه عملاق ما بعد يالطا.

كانت مهمّة «منديس فرانس» الأولى هي، أن يصنع السلام في الهند الصينية، حيث لم تعد فرنسا قادرة على أي نوع من مناورات القوة منذ هزيمة «ديان بيان فو» في ٧ أيار/مايو ١٩٥٤. ولكن إذا كان منديس فرانس متخوفاً من الفشل في عقد صلح مع الجنرال جياب، فإنه راغب في فتح مفاوضات جانبية مع بورقيبة لكي يضمن بعض النجاحات. كان شبه متأكد، حسب «جان لاكوتير»، بأنه سيجد بعض النجاحات لو فتح الباب أمام بورقيبة، وقد شعر بالضغط من قبل «جياب الفيتنامي» و«شون إن لاي الصيني»، فالتجأ إلى تونس لكي يقدم نواياه واضحة. كلف «منديس فرانس» الوزير «آلان سافاري» الذي يعرف تفاصيل الملف التونسي جيداً، بإعداد مذكرة مفصلة عن الوضعية في تونس، ثم أرسله إلى بورقيبة بجزيرة «دي كروا» في الرابع من حزيران/يونيو ١٩٥٤، الذي كان قد حوّل فندق (لامارين) إلى ما يشبه القيادة العامة حيث أصبح من هناك يتلقى كل التقارير ويستقبل الصحافيين والمساعدين ويرسل التعليمات. كان «آلان سافاري» كتب في مذكرته الموجهة إلى منديس فرانس ما معناه أن «فرنسا عليها أن تسابق الزمن حتى لا يصاب المغرب العربي كله بالتفسخ لأن الحالة التونسية السباقة يمكن أن تنتج حالات مماثلة أكثر إحراجاً في المغرب والجزائر».

وحين جلس الوزير سافاري أمام بورقيبة، أدرك أنه أمام زعيم، إذا كانت فرنسا قد صنعت بعض الأجزاء الصغيرة منه فهي اليوم مضطرة للتعاون معه حتى وإن كان ذلك على مضض. كان بورقيبة في ذلك الوقت يُحسب على صف المتشددين في حزب الدستور. ويصعب عليه أن يقبل بنصف الكعكة إذا رأى نفسه قادراً على نيل الكعكة كاملة. وهو متيقن من أنه أصبح محجاً للفرنسيين أنفسهم، فها هو «سافاري» يكتب إلى منديس فرانس بعد ذلك اللقاء مع بورقيبة: «إذا كان بورقيبة ينظر إلى الحكم الذاتي على أنه مرحلة، فهو يعرف أن الاستقلال الكامل لا يزال بعيداً». كانت تلك العبارة هي التي أوحت إلى «منديس فرانس» بأن ينفتح أكثر. وإذ عرف بورقيبة كيف يفرش سجاده لسافاري ويدخله إلى منطق الترغيب، فإن سافاري لم يعرف أبداً في ذلك الحين كيف يقاوم سحر بورقيبة.

توالت النوايا الطيبة، وبدا أن بورقيبة قد عثر أخيراً على الرجل الذي يفهمه داخل الطاقم الحاكم في باريس. وإذ عرف أن عمر حكومة «منديس فرانس» قد يكون قصيراً، فقد حثّ

الخطى من أجل قطع المسافة التي لا تزال طويلة. نُقل بورقيبة إلى مكان آخر على قدر من الأبهة في الـ١٧ من تموز/يوليو ١٩٥٤. وفي قرية «أميلي» قرب جبل «مونتارجيس»، وجد قصر «دي لافارتي» De La Ferté قد أعدّ له على نحو لائق بالزعماء. وقد سُمح لابنة أخته سعيدة ساسي الالتحاق به وملازمته في السكن. أصبح يتمتع بحرية لا عهد له بها منذ نحو عشرين عاماً، بل أصبح يتمتع بلقب الزعيم عن جدارة، إذ أنه سيكون صاحب الكلمة الفصل في كل ما يتعلق بمسار الحرب والسلام في تونس منذ ذلك الوقت.

كان المصمودي الذي ارتفع نجمه منذ أن اختاره بورقيبة لمرافقته إلى زيارة ابن سعود[٩]، الذي مدّه بالمال والنصائح والتعليمات يقوم بجولات مكوكية بين قصر «لافيرتي» بفرنسا وفندق أنتركوتيننتال بجنيف حيث تجرى المفاوضات بين منديس فرانس والوفد الفيتنامي بقيادة جياب. لقد قال «منديس فرانس» لآلان سافاري: «منذ ١٥ عاماً، كنا وعدنا التونسيين بالحكم الذاتي. والآن جاءت الفرصة. ولتحقيق ذلك لا بد من حكومة تونسية تتمتع بالاحترام وبمساندة حزب الدستور. إن مساندة بورقيبة ضرورية، وإني موافق على أن يذهب المصمودي فوراً لإطلاع بورقيبة على هذا الاقتراح. إن بورقيبة يملك حسّاً سياسياً متطوراً، وهو رجل واقعي. إنه ضروري»[١٠].

حمل المصمودي تلك الرسالة إلى بورقيبة وبعد يومين التحق به «آلان سافاري» ليعطي مصداقية لرسالة منديس فرانس. وفي قصر «لافيرتي»، سُمع سافاري لأول مرة يتكلم عن حكم ذاتي، يحترم حقوق جميع الطوائف، وتتولى خلاله فرنسا البحث عن تسوية مشرفة، ثم استدعى الصحافيين فقال لهم إنه يثق «في إرادة السيد «منديس فرانس»، وإن لا مفاوضات قد تبدأ، وبمجرد أن تتشكل حكومة صلبة ومستقلة، فإن أعمال العنف ستتوقف مباشرة».

كان واضحاً أن بورقيبة قبل العرض، ولكن حين قلّبه وجده ناقصاً. فهو لا يعرف إلى متى سيدوم الحكم الذاتي، كما لا يعرف أين تبدأ حدود ذلك الحكم وأين تنتهي، وخاف أن تأخذ منه فرنسا أكثر مما تعطيه، فلم يتورط في أية وعود. ولأنه لم يكن في وضع يؤهله لرؤية كل شيء على الأرض التونسية التي غادرها منذ نحو ثلاث سنوات، فإنه لم يغامر لا بالموافقة على المشاركة في الحكومة ولا على طلب وقف العمليات الحربية ضد الوجود الفرنسي. كان يراقب وينتظر. إنه يريد المزيد من الوضوح وكذلك المكاسب لتشكيل قاعدة الانطلاق.

وفيما بدا «منديس فرانس» مستعجلاً لوضع قاعدة لانطلاق المفاوضات، راح بورقيبة

يحرض من بعيد متخفياً تحت لغة الاعتدال والواقعية، على المزيد من تكثيف العمليات العنيفة. انتشرت عمليات «الفلاقة» في عموم البلاد، فنصبت كمائن كثيرة للجنود الفرنسيين وقتل «عملاء كثيرون» يتعاونون مع فرنسا، فبدا «منديس فرانس» وكأنه يبحث عمّن يستطيع السيطرة على الوضع بما في ذلك بورقيبة نفسه. وفي مساء اليوم نفسه أعلن كذلك عن زيارة يؤديها رئيس الحكومة الفرنسية «منديس فرانس» إلى تونس للقاء بالباي، بصحبة الماريشال جوان ووزير الشؤون التونسية والمغربية «كريستيان فوشيه». في صباح ٣١ تموز/يوليو، وبالتحديد في الساعة العاشرة و٤٥ دقيقة حطت طائرة منديس فرانس على أرض مطار العوينة بعد نصف ساعة من التحليق في أجواء تونس خوفاً من أية حوادث مفاجئة. ومن المطار انتقل الموكب فوراً إلى قصر الباي محمد الأمين بضاحية قرطاج. انحنى منديس فرانس ليسلم على الباي الجالس على كرسيه، ثم وقف ليقرأ خطاباً قصيراً، هو أهم خطاب فرنسي في تاريخ العلاقات الفرنسية ـ التونسية منذ معاهدة «باردو» في العام ١٨٨١: «إن الدولة الفرنسية تعترف وتعلن الاستقلال الذاتي للدولة التونسية بدون أية خلفيات. نحن مستعدون لنقل السيادة الداخلية إلى أشخاص ومؤسسات تونسية. ومنذ الآن، وإذا كانت تلك رغبتكم، فإنه بالإمكان أن تشكلوا حكومة جديدة لتتولى المفاوضات باسمكم مع الحكومة الفرنسية». أحس الباي أنه مسح جزءاً من عار الأجداد. وأن التاريخ دار دورته ليأتي إليه حاضناً الحقيقة ورد الاعتبار. وحين أصبح منديس فرانس في الجو، قال للماريشال جوان: «علينا أن نسرع الخطى نحو المغرب قبل أن تشتعل الجزائر». أما الباي فراح يبحث عن وزير كبير لتشكيل حكومة جديدة، فحظي بتأييد بورقيبة للدخول في المفاوضات. كان منديس فرانس قد حصل على موافقة كل من الباي وبورقيبة على مفاوضات الحكم الذاتي. وهو الآن عليه أن يخفف من معاناة فرنسا في تونس والمغرب قبل أن يندلع حريق الجزائر.

* * *

كانت جثة الاستعمار الفرنسي قد تعفنت في الجزائر وتفسخت إلى حد كان فيه على كل الشعب أن يشارك في حفر قبر ضخم لدفنها. وحين رأى الجزائريون أن إخوانهم في كل من المغرب وتونس قد استطاعوا بقليل من الإمكانات وكثير من الشجاعة أن يوجهوا ضربات موجعة لفرنسا، راحوا يهيئون أنفسهم لمعركة فاصلة مع ذلك التاريخ الكئيب. إن هزيمة فرنسا التي لا تقهر في الفييتنام ستثير الحماسة في الجزائريين إلى حد نسوا فيه جميع آلامهم، أما المفاوضات التي فتحت أخيراً مع كل من المغرب وتونس، فسوف تجعلهم أكثر

إيماناً بأن فرنسا ليست قدراً. هكذا بدت ثورة الجزائر العارمة التي انطلقت في الفاتح من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٤، أي بعد ثلاثة أشهر فقط من اعتراف منديس فرانس بالحكم الذاتي لتونس، وكأنها جمعت أكثر من ثورة. فإذا كان زمن الاستعمار الفرنسي قد طال أمده فلأن الجزائريين كانوا يغنون مخزونهم ويتهيأون لنوع آخر من الثورات. انتفاضات كثيرة قد قبرت ومذابح رهيبة قد اقترفت وأحزاب كثيرة قد جربت كل الأساليب، وفي النهاية لم يبق أمام الجزائريين غير الكفاح المسلح الشعبي. وها هي إذن ثورة قد تغذت من جميع التجارب ومن جميع الآلام، من محنة الخطابي كما من محنة الفلسطينيين، ومن تجارب التونسيين كما من انتفاضات المغاربة، ومن مناوارت السياسيين كما من إحباطات المثقفين.

كانت الثورة الجزائرية في البداية بلا أفكار جاهزة. شباب مغامرون متعطشون للعمل والعطاء مع لغة مترملة لا هي عربية ولا هي فرنسية، إلى جانب أسلحة قديمة، ثم تدفق العطاء. أصبح الإسلام جندياً آخر إلى جانب الفلاح وانضم الطلاب والشيوخ والمثقفون، ثم تعانق كل شيء مع كل شيء ليصنع الملحمة. أصبحت الثورة الجزائرية محجاً للثوريين من كل أنحاء العالم، بل أصبحت مكاناً لجميع لعرب للتكفير عن ذنوبهم. راق للإسلام من جامع القرويين بفاس إلى جامع الزيتونة بتونس ومن القاهرة إلى مكة أن يمجد تلك الثورة ويسير في صفوفها بكل إجلال، كما لاح للعروبة الصاعدة من القاهرة، قبساً جديداً، فرأت أن تهتدي به في طريقها الوعرة والمظلمة. وإذ عرف عبد الناصر معنى الرمز لتلك الثورة التي صادفت صعوده على مسرح الشرق العربي، فقد أعطى كل ما أمكنه للجزائر كما لو أنه ضرب معها موعداً في الخفاء.

كان «منديس فرانس» في ذلك الوقت كمن يسابق كارثة قد رآها من بعيد تقترب نحو بلاده. وإذ حث الخطى للالتفاف على العاصفة التونسية محذراً من الحريق الجزائري، فإنه وجد نفسه أخيراً في قلب ذلك الحريق. سقطت حكومة «منديس فرانس» بعد ثلاثة أشهر فقط من اندلاع الثورة الجزائرية، وحلّ محله «إدغار فور» بحكومة ذات عدة رؤوس، فكان أن عاد ذلك الذي يوصف بأنه رجل الصيغ والحجج القوية، ليواجه حقائق مثيرة ومريرة لم يعد من المجدي إخفاؤها.

* * *

قبل يومين فقط من سقوط حكومته في فبراير ١٩٥٥، تجرأ «منديس فرانس» على إرسال ثلاثة ألوية عسكرية جديدة إلى الجزائر، على رأسها حاكم جديد وهو الديغولي «جاك

سوستيل». وصرح الوزير ميتران آنذاك: «بأن الجزائر فرنسية ولا أحد يقول عكس ذلك». ثم أعلن أن عدد الجنود الفرنسيين قد ارتفع من ٤١ ألف إلى ٨٤ ألفاً. هذا الإرث الفظيع أثقل من حركة «إدغار فور» العائد إلى الضوء لمواصلة الحوار مع كل من تونس والمغرب.

إن الحلّ الذي أصبح يتقدم في تونس قد زاد من تعقيد الوضع في الجزائر، لكنه بعث كثيراً من الحماس في «فور» لكي يبحث عن حل لمسألة المغرب لعزل الجزائر. كان «إدغار فور» لم يقبل منذ أن كان وزيراً بعزل سلطان المغرب ونفيه إلى جزيرة مدغشقر في آب/أغسطس ١٩٥٣. وقد كتب آنذاك رسالة استقالته إلى الرئيس «أوريول» بسبب ذلك الخطأ الشنيع، ولذلك ما إن صعد إلى رئاسة الحكومة حتى باشر بفك العزلة عن السلطان المنفي محمد الخامس. إن «فور» رجل يغفر حين يكون الغفران طريقاً لإصلاح الخطأ. وإذا كان قد تعلم في أحيان كثيرة من أخطاء من سبقوه، فهو في أحيان أخرى كان عليه أن يبحث عن حلول لأخطائهم. كان خطأ الذين سبقوه هو نفي سلطان المغرب مع أبنائه إلى جزيرة مدغشقر والدفع بشيخ سيئ الحظ يدعى «الشيخ بن عرفه» ليحل محلّه بدعم من باشا مراكش القوي «التهامي القلاوي»، الأمر الذي أعطى للمغاربة مبررات إضافية لإعلان العصيان. وحين أصبح في موقع القرار الأول، كان على «فور» أن يختار أحد الحلول الثلاثة التي طرحت أمامه لحل هذه المسألة: دعم الملك الجديد الشيخ بن عرفه أو إعادة محمد الخامس من المنفى أو عزل الإثنين وتكوين مجلس وصاية.

اختار «فور» عودة الملك، وقال «إن الخطأ الذي وقع ارتكابه يتمثل في الإطاحة بالشرعية في دولة لا نتمتع فيها بغير الحماية»[11]. مع ذلك بقي محتفظاً ببقية الخيارات إذا ما فشل. ثم مضى إلى إعداد مسلسل تدريجي لإخراج بلده من هذه الورطة. وقع الاتصال بمحمد الخامس في المنفى ثم أرسل لبن عرفه «أنه ليس إلا ملكاً مؤقتاً». وفيما وجه إنذاراً لباشا مراكش كي يسحب دعمه لبن عرفه، بات هذا الأخير عارياً، فقتل في قلب الرباط. أما الحركة الوطنية التي راحت تستعد للثورة والسلاح فقد تم تبليغها «بأن الملك قد أصبح في فرنسا وهو في طريقه للعودة إلى عرشه».

وصل السلطان محمد الخامس في ٣١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٥ إلى فرنسا من مدغشقر. وفي السادس من تشرين الثاني/نوفمبر، وقع هذا الأخير مع «أنطوان بيناي» وثيقة تعترف باستقلال المغرب الذاتي. وقد كانت مرحلة ضرورية ستؤدي إلى الاستقلال حسب الأكاديمي «فرنسوا مورياك» الذي كتب يقول على صفحات الـ «إكسبرس»: أخيراً عرفنا أن الأعشى إدغار فور كان يرى أبعد مما كنا نرى». أما «جان جاك سرفان شرايبر»

الذي كان يناصبه العداء على صفحات المجلة نفسها فقد أرغم على إبداء التحية له. فبعد سنوات قليلة سيلتقي هذا الثلاثي الشغوف بالثقافة والتاريخ والسياسية، فور، شرايير ومورياك في صالون الديغولية الواسع جداً، فتبادلوا السخرية من أوهام الجمهورية الرابعة ثم قرروا أن يصبحوا من فرسان الجمهورية الخامسة.

هكذا، إذن، إذا كان «منديس فرانس» قد مات سياسياً في جنيف خلال مفاوضات الهند الصينية بعد هزيمة «ديان بيان فو»، وافتتاح المفاوضات مع تونس، ليدفن مع اندلاع الثورة الجزائرية، فإن «إدغار فور» سيولد سياسياً مرة أخرى على المسرح الدولي كقائد سياسي يجمع سطوة كليمنصو وإشعاع ليون بلوم وفصاحة ديغول ثم خيال الروائي، مع عودة كل من محمد الخامس إلى العرش، وبورقيبة إلى بلاده.

* * *

استمرت المفاوضات التونسية ـ الفرنسية مرة على نار هادئة وأخرى على نار ملتهبة. كان الطرفان حريصين على الوصول إلى نتيجة حتى لا يضطرا إلى العودة للمواجهة. وحين تأكد لبورقيبة أن «إدغار فور» انتصر على الشق المناهض للمفاوضات داخل حكومته، رأى أن يمد إليه يد المساعدة حتى لا يترك له فرصة للعودة إلى الوراء. كانت الخطوط العريضة واضحة أمام الوفد التونسي، ولكن الطاهر بن عمار رئيس الحكومة لن يستطيع الخروج على توصيات حزب الدستور. فقد عرف أن رجال بورقيبة يحاصرونه مرة وأخرى يدفعون به إلى الأمام، تاركين له هامش المناورة في المسائل الأخرى التي تحتاج إلى وقت طويل. وتعثرت تلك المفاوضات حول البلديات في البداية، ولما قبل المفاوض التونسي بمبدأ المناصفة في عضوية البلديات ذات الكثافة الفرنسية، شعر بورقيبة بأن المفاوض التونسي بدأ يضعف، أما حين بلغه أنه قبل بالمناصفة في تكوين جهاز الشرطة، فقد تحرك بورقيبة بقوة وبحث عن المصمودي لكي يضغط باتجاه عدم قبول ذلك، قائلاً له: «إذا اشتد الضغط، فما عليك إلاّ أن تقول إن بورقيبة غير موافق». ولما تصلب المفاوضون التونسيون كان على «إدغار فور» أن يتجه إلى بورقيبة طالباً منه التدخل.

دخل بورقيبة على «إدغار فور» في قصر الحكومة ماتينون، وهذه علامة تؤكد أنه أصبح ضرورياً في أية عملية سياسية. وإذ شعر أن إدغار فور يحتاج إليه ورآه يحضر له القهوة بنفسه، فقد عرف كيف يستقوي على ضعف اللحظة فيضغط باتجاه التصعيد قائلاً له في آخر اللقاء: «إني أعترض على هذا التفتيت لاستقلالنا. وإن نتيجة المقابلة بيني وبينك ستحدد ما ستكون عليه العلاقات بيننا. فإما السلم وإما الحرب»(١٢).

كان بورقيبة إلى تلك اللحظة يمسك العصا من الوسط، ولكنه كثيراً ما كان يميل نحو التشدد، فإذا كان «فور» لا يريد أن يخرج صفر اليدين من هذه العملية، فهو أيضاً لا يريد أن يعود إلى تونس فارغ اليدين، فيقال له: «إنه قايض حريته الشخصية بحرية تونس كلها»[١٣].

انتهى ذلك الاجتماع بالاتفاق على تكوين لجنة للنظر في حقوق الفرنسيين بتونس وحقوق التونسيين في فرنسا، ثم خرج إلى الصحافيين وكان إلى جانبه «البشير زرق العيون» وهو يمسك بمسدسه في جيبه، فقال وهو يبتسم على غير عادته: «لقد أصبح المستقبل مفتوحاً أمامنا للتعاون، لكننا لم ننظر في الجزئيات». وفيما اغتاظ المنجي سليم رجل صالح بن يوسف، وأصبح منزعجاً من ملاحقة المصمودي رجل بورقيبة، وبدأ ينسج الاتهامات حول بورقيبة الذي يريد أن يعقد صفقة مع الفرنسيين من وراء ظهر وفد الحكومة وكذلك من وراء ظهر حزب الدستور، أدرك بورقيبة أن الساعة قد دقت للعودة إلى البلاد لتهيئة الأجواء لتلك الصفقة التي ستثير العواصف وتسيل كثيراً من دماء التونسيين.

كان بورقيبة يعرف جيداً أن الحزب أصبح ينقسم إلى تيارين، واحد مع المفاوضات والحكم الذاتي، والآخر مع الكفاح المسلح والاستقلال التام ضمن استقلال المغرب العربي كاملاً. ولذلك حرص على التفاهم مع صالح بن يوسف وأخبره بقرار عودته إلى تونس عارضاً عليه المصالحة والتفاهم والعودة إلى البلاد معاً، لكن بن يوسف الذي رأى في عبد الناصر حليفاً لا يقهر رفض العودة مع بورقيبة، بل رفض حتى إمكانية اللقاء به. كان طلاق هذين الرجلين قد أعلن عن قدومه منذ عدة سنوات، وفي العام ١٩٥٥، سيصبح نافذ المفعول ولا رجعة فيه. عاد بورقيبة على ظهر الباخرة إلى ميناء حلق الوادي في الفاتح من حزيران/ يونيو ١٩٥٥، بعد أن أصبح يعرف أن اتفاقيات الحكم الذاتي ستوقع بعد يومين فقط، ليجد في استقباله نصف البلاد. أما صالح بن يوسف فسوف يعود بعد ثلاثة أشهر، ليجد في استقباله النصف الثاني للبلاد.

إن طلاق زوجين كثيراً ما يؤدي إلى تدمير عائلة، أما طلاق زعيمين فهو غالباً ما يؤدي إلى تدمير بلد بكامله!.

الهوامش:

(١) من وثائق الحركة النقابية.

(٢) **Bourguiba à la Conquette d'un destin** S. Bessis, S. Belhassen, Jeune Afrique, Livres, Paris, 88.

(٣) الهادي شاكر، قتله رحل من عائلة القروي انتقاماً لأحد أفراد العائلة الذي قتله رحال الفلاقة، الثوار. وقد حمل شاكر إلى خارج صفاقس وربط على عود تل ثمّ دق عنقه دقاً، المؤلف.

(٤) من محاضرة بورقيبة أمام طلبة معهد الصحافة وعلوم الأخبار، عام ١٩٧٣، جمعت في كتاب: آرائي، حياتي، كفاحي.

(٥) بيار فوازارد، هو المقيم العام الفرنسي الثاني والعشرون. من أيلول/سبتمبر ١٩٥٣ إلى تموز/يوليو ١٩٥٤.

(٦) الفلاقة، هو التعبير الشعبي الذي أطلق على الثوار المحاربين. وتعني كلمة «الفلاقة» قطاع الطرق أو الرجال الغلاظ، أو أصحاب الفتوة. الكلمة شاعت في وسط الدستوريين كما في الإدارة الفرنسية. وهي تعادل اليوم كلمة ـ إرهابيين.

(٧) **L'intelligence de la politique, Edgar Faure,** Daniel Coland Ed: Jean dullis, Paris, 57.

(٨) الحوار مأخوذ باختصار من أرشيف الخارجية الفرنسية المفرح عنه عام ١٩٨٥. ترجمته غير دقيقة، لكنها تفي بالمعنى المقصود.

(٩)و(١٠) محمد المصمودي ـ من أحاديث خاصة مع المؤلف. باريس ١٩٩٠. وتتوافق مع رواية جان لاكوتير في كتابه:
Mendes France, Paris, 1981. Ed: Scuil.

(١١) **L'intelligence de la politique,** Edgar Faure-Paris, 75.

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) سيرة **Pierre Mendes France Biographie, Jean Lacouture,** Seuil-Paris, 1981.

سنوات الفتنة:

البلاد لا تتسع لأكثر من زعيم

«إن الشهام لا يخشون الخطر من أجل الظّفر بمطلبهم، كما أن الأذكياء لا يحجمون عن المشقة. أمّا الجبناء والمغفّلون فلا يعرفون احتمال الضرر ولا تحصيل الخير».

«إيتان دي لابوسييه»

كاتب فرنسي عاش في القرن الـ١٦.

مقالة في العبودية المختارة

بدا يوم عودة بورقيبة إلى تونس (غرة حزيران/يونيو ١٩٥٥) وكأنه يوم إعلان الاستقلال للشعب التونسي. أما بالنسبة إلى بورقيبة شخصياً، «فقد كان أجمل وأمتع يوم في حياته». حتى تلك اللحظة، لم يكن بورقيبة يمثل شيئاً على الصعيد الرسمي، ولكنه كان كل شيء على الصعيد الشعبي، وإذ لم يحمل أي لقب حكومي حتى ذلك اليوم، فقد أصبح يحمل عدة ألقاب أطلقها عليه الشعب دفعة واحدة، فهو الزعيم وهو البطل، وهو قائد النصر، وهو كذلك «المجاهد الأكبر». سوف يرتاح بورقيبة كثيراً للقب «المجاهد الأكبر» لأنه يضعه فوق كل المجاهدين، أما لقب الزعيم فسوف يحتفظ به ليعود إليه حين ينهي معركته مع جميع الزعماء الآخرين.

إن بورقيبة، ذلك الرجل الذي أصبح يعرف كيف يصطاد المواعيد مع التاريخ، يعرف كذلك كيف يجعل من نفسه مركز الحدث أو ملتقى السير في جميع الاتجاهات. فحين أحسّ أن التوقيع على وثيقة الاستقلال الذاتي لم يعد إلا مجرد إيجاد فسحة من الوقت لمراسيم البروتوكول، ركب الباخرة باتجاه تونس - ميناء حلق الوادي، حيث سيتمتع بحماسة شعبية لن تبارح ذاكرته وذاكرة تونس إلى الأبد.

كان قد ودع باريس باتجاه مرسيليا في آخر يوم من أيام أيار/مايو، وهو يقول للمصمودي: «إنني لا أحمل بداخلي أية أحقاد تجاه فرنسا، بل بالعكس إنني أحمل مشاعر الاحترام والاعتراف بالجميل للشعب الفرنسي الذي ضغط على حكومته للخروج من مآزق

الاستعمار»[1]. وحين اتجه إلى الباخرة «الجزائر» التي سترسو بعد ليلة في ميناء حلق الوادي، ارتجل كلمة حماسية أمام مودّعيه فقال: «يجب أن لا نترك للماضي فرصة لافتراسنا. إنني رجل خال من أية مرارة. علينا أن ننتبه جيداً. إن النصر أمامنا».

وفي حلق الوادي، تلك الضاحية الشمالية التي تستلقي على البحر وهي تختزن أحاسيس متشابكة لجاليات كثيرة مثل اليهود والمالطيين والطليان والفرنسيين، سوف تطلق المدفعية بضع طلقات لإعلان قدوم القائد من المنفى. ثم يعزف النشيد الملكي بحضور رئيس الحكومة «الطاهر بن عمار» ووزرائه وممثل الباي، ابنه «سيدي الشاذلي» وكذلك مسؤولي المنظمات الشعبية والمهنية ورجال دين هم أئمة المساجد الكبرى وحاخامات الجالية اليهودية مع عشرات من أعيان البلاد ونبلائها. بعد ذلك سينزل بورقيبة محمولاً على الأكتاف وسط عرس لم تشهد تونس مثله حتى يوم إعلان استقلالها الفعلي (آذار/مارس ١٩٥٦).

ها هو إذن بورقيبة قد أصبح مرفوعاً على الأكتاف. لا بد أنه تذكر مشهد الباي وهو صبيّ لا يزال يشق طريقه نحو المدرسة بعناء شديد حين رآه لأول مرة على مركبته التي تجرها سبعة خيول، وهو يحيّي جموع الناس. لا بد كذلك أنه شعر في تلك اللحظة أن تونس قد أصبح لها «بايان» واحد في الشارع والآخر في القصر، واحد ورث المجد عن أجداده، والآخر صنع مجده بنفسه. لا بد كذلك أنه حاول طرد الصورة عن ذهنه في ذلك الوقت ريثما تستوي العروش، وهو ما جعله حريصاً على التوجه إلى قرطاج لأداء التحية للباي في قصره.

استغرق لقاء بورقيبة والباي نصف ساعة فتبادل خلاله الرجلان حديثاً قصيراً وهما ينظران في عيون بعضهما بعضاً وكأنهما يبحثان عن حقيقة كل واحد منهما في عين الآخر. سأل الباي بورقيبة: «هل تعتقد أن الأمور تسير إلى الأمام؟» فأجاب بورقيبة بحذر شديد: «مولاي، علينا أن ننتظر، لا شكّ أنكم تدركون أن السياسة هي القدرة على الانتظار». كان بورقيبة يدرك جيداً أن المنافي والمحتشدات العسكرية وحملات القمع قد أصبحت وراءه. وإذ أيقن أن الانتظار علاوة على كونه ضرورياً لإنضاج أي شيء، فهو فن لا يتقنه إلا السياسيون المهرة كما هو ثقل لا يتحمله إلاّ الرجال الأقوياء. إن الرجل الذي عاش طويلاً وهو متهم بأنه شخص مستعجل من أمره ومتوتر، هو الذي سيفاجئ الجميع في نهاية السباق بأنه أقلهم استعجالاً وأكثرهم قدرة على الانتظار.

وهو خارج من القصر، كان عليه أن يبتعد عن إهانة فرنسا كما ابتعد عن إهانة الباي. فقد قال للطاهر بن عمار رئيس الوزراء: «علينا ألا نشعر فرنسا بالهزيمة. إن ذلك لا يفيدنا في

شيء. فإذا نحن جرحنا كرامتها، نكون كمن حاول الاعتداء على كرامة أسد»[٢]. ثم اندفع إلى داخل الجماهير التي تنتظر خروجه من القصر. ركب في البداية صهوة جواد أبيض، ثم نزل ليركب سيارة مكشوفة باتجاه المدينة. وبالتحديد نحو بطحاء الغنم حيث يوجد بيته. لقد قدر عدد الذين جاءوا لاستقبال بورقيبة بنحو ٣٠٠ ألف وقد حافظوا على النظام كما يليق بالزعماء. ولاحظ بورقيبة ذلك فقال لأحد مساعديه: «الآن يمكن أن نطمئن فرنسا بأننا قادرون على تنظيم أنفسنا». ثم أضاف: «كذلك يمكن أن نهنئ أنفسنا لأن حزب الدستور أصبح قادراً على أمن جميع هؤلاء»[٣].

في ذلك اليوم، لم تكن لا الزوجة «ماتيلد» ولا الحبيبة «وسيلة بن عمار» حاضرتين في حفل الاستقبال. لقد كانت الأولى مريضة، وهي غير قادرة على تحمل حرّ حزيران/يونيو وازدحام الشوارع. أما الثانية فقد كانت شغوفة للقاء الحبيب، لكنها لم تعرف كيف تقترب منه دون أن يثير حضورها اللغو من حولها. وأخيراً قررت أن تذهب إليه مع أختها في صباح اليوم التالي لتبدأ في تنظيم مواعيده.

وفي بطحاء الغنم، عرف بورقيبة أنه يتمتع بشعبية أسطورية، وأن ذلك الاحتفال هو عبارة عن بيعة شعبية لا يستحقها إلا الأبطال الكبار أو الملوك الجبابرة، فأيقن أن ساعة الكلام قد حانت فهبّ مدافعاً عن وجهة نظره وسط الجموع وهو يقول: «لقد لاحظت أنكم اتبعتم كل ما قلته في السابق، وإني مقتنع بأنكم ستساندوني وتتبعون خطواتي. إن الطريق الوحيدة نحو الاستقلال، هي احترام كل وثيقة موقعة بيننا وبين فرنسا. وإن لا شيء بإمكانه أن يشق صفوفنا»[٤]. وها هو إذن ذلك الذي كان قبل حين يعتبر من الصقور المتطرفة، قد أصبح على رأس المعتدلين، وهو يدعو إلى الالتزام بالنظام والمعاهدات والتدرج وأسلوب «الخطوة ـ خطوة» لبلوغ الهدف. وأي هدف؟ هو ذلك الذي ما سوف يختلف بورقيبة على شكله ومحتواه مع رجل آخر ليس أقل منه إشعاعاً أو كاريزما: هو الزعيم صالح بن يوسف. إن الاستقلال الذي لطالما انتظره التونسيون بشغف ومعاناة قد أوشك أن يحط على أرضهم مترنحاً بين الخيبات والدماء.

* * *

إن زعيماً يخرج إلى استقباله نصف سكان العاصمة تقريباً سوف لن يعود إلى شقة صغيرة في بطحاء الغنم. فبعد أسبوع فقط من وصوله انتقل إلى السكن في فيلا مريحة وفسيحة في أرقى أحياء تونس، وبالتحديد في «متيوال فيل» قرب حديقة البلفيدير. هناك سيستقبل بورقيبة زواره من جميع الطبقات ومن جميع المناطق. ولأنه قد أصبح زعيماً كبيراً لا يُشقّ

له غبار، فإن مواعيد زياراته ولقاءاته أصبحت دقيقة جداً. لقد تطوعت الحبيبة «وسيلة بن عمار» التي جاءت لزيارته، بأن تقوم بتنظيم كل مواعيده. ثم ما لبثت أن أصبحت تقريباً الناطق باسمه. لم تترك أي شيء للصدفة. وكثيراً ما أغضبت أصدقاء قدماء لبورقيبة جاءوا إليه بلا مواعيد سابقة، وهو ما جعلها تبدو وكأنها سدّ منيع أمام الوصول إلى الزعيم حتى قال أحد أصدقائه القدماء: «لقد أدخلته ابنة بن عمار إلى حجرتها ثم أغلقت عليه بمفاتيح كثيرة(٥)».

أحسّ البعض أن الزعيم بدأ يبتعد عن الشعب، أما البعض الآخر فرآه يبحث عن تحالف جديد لمقاومة الذين سينازعونه في الزعامة. وإذ بدا بورقيبة وكأنه قد دخل في نفق لا بدّ أن يخرج منه ميتاً أو حيّاً، فإنه راح ينصت جيداً إلى صوته الداخلي في انتظار ما سوف تأتي به الأيام القريبة. لم يكن يملك كل الوسائل للذهاب إلى النصر النهائي ولكنه كان على يقين أن الخيارات حين تكون صائبة فهي كفيلة باختراع وسائلها.

وفي مثل ذلك الجو الملبد بالمخاوف والتساؤلات، سارع كل واحد إلى إعادة ترتيب شؤونه على نحو يحفظ له النجاة من حمام دم أهلي بدا أنه سيحدث لا محالة: باع تاجر إيطالي فيلاته الخمس وقفل راجعاً إلى صقلية ليبدأ من هناك حياة جديدة، وتلمّس طالب زيتوني مخدّته وهو يخبئ تحتها مسدساً ومصحفاً، ودخلت غانية في سيدي بوسعيد إلى مقصورتها لتنزع عنها فستان الرقص وهي تحزم حقائبها وتخبئ باروكتها برفق لتأخذ في الصباح طريق البحر نحو مرسيليا، وصاح مجاهد في الجبل قرب منطقة قابس: «لا بدّ أن نتوحد مع الثورة الجزائرية ونقاتل فرنسا من قابس إلى طنجة». وخبأ تاجر مجوهرات يهودي رأسه تحت الغطاء ليطرد الأشباح التي ملأت غرفة نومه، وهو يفكر في السفر إلى فرنسا أو إسرائيل، وتفقد جندي فرنسي بندقيته قائلاً لزميله: «إن هؤلاء الذين يأكلون الكسكسي(٦) ثلاث مرات في اليوم لا يمكن أن نهزمهم»، وتساءل أحد الدستوريين عن تاريخ عودة بن يوسف من الخارج فقيل له: «إنه يحزم حقائبه وسوف يصل قريباً». وأقفل تاجر خمور فرنسي باراته الأربع في تونس العاصمة وحلق الوادي ثم ركب الباخرة نحو مرسيليا. أما بورقيبة فقد رفض أن يتسلم أي منصب رسمي قائلاً لوسيلة التي كانت تدفعه نحو تشكيل وزارة: «إن الوقت لم يحن بعد، إن الفرنسيين في تونس قد لا يقبلون ذلك. وسوف يأتي كل شيء إلى أيدينا». ثم قال للباهي الأدغم: «إن الحكم لا يستهويني. لندفع بالسيد الطاهر بن عمار إلى تشكيل وزارة ثانية».

كان بورقيبة يريد سلطة لا يقاسمه فيها أحد. سلطة كاملة ومطلقة. وبما أن ذلك لم يكن

ليحصل عليه في ذلك الوقت، فقد فضل أن ينتظر. لم يخسر أي شيء، لكنه ربح الكثير لأنه سحب من تحت أقدام أعدائه أهم ملف اتهامي ضده، كونه رجلاً مهووساً بالسلطة.

شكّل الطاهر بن عمار حكومة ثانية، هي حكومة الحكم الذاتي لمواصلة المفاوضات، وهي أول حكومة تونسية ١٠٠٪ منذ بدء الحماية الفرنسية، أي منذ نحو ٧٥ سنة، وذات أغلبية دستورية. وهذا ما سوف يساعد بورقيبة جيداً خلال جولته في الداخل لشرح وجهة نظره. ففي كل اجتماع كان يصرّ على القول: «أنظروا إنهم جميعهم وزراء تونسيون. ماذا تريدون أن نفعل أكثر من ذلك الآن؟». ولكن رغم منطق بورقيبة القوي وحججه المتناسقة ومهارته الخطابية، فإنه سيجد أمامه معارضة عنيفة تتهمه بالعمالة وإجهاض الثورة والديماغوجيا وحب الزعامة. تلك المعارضة هي خليط من إسلاميين وشيوعيين ودستوريين جدد ودستوريين قدماء ومجاهدين وأعيان، وهؤلاء جميعاً كانوا في انتظار الزعيم الغائب، ذلك الذي باستطاعته أن يقول لبورقيبة: «لا.. ليس هكذا».

* * *

عاد بن يوسف إلى تونس بعد ثلاثة أشهر من عودة بورقيبة. كانت عودته مظفّرة، كما كان الاستقبال لائقاً بالأبطال لكنه لم يكن في مستوى الاستقبال الذي حظي به بورقيبة. لقد التهم بورقيبة الموجة العارمة من الحماسة. أما بن يوسف فقد حصل على الموجة الهادئة والحائرة في الوقت نفسه. كان ذلك الرجل الذي يصغر بورقيبة بعدة سنوات المعادل الوحيد لوزن بورقيبة في الداخل والخارج والإمكانات. فهو لا يزال يمسك بالأمانة العامة للحزب ويحظى باحترام كبير لدى جيلين من هذا الحزب كما هو يمسك بخيوط المقاومة المسلحة ويعرف كيف يغزو قلوب الرجال من كل صنف. كما أنه يتمتع بشبكة من العلاقات المهمة في القاهرة والجزائر وأوروبا، إلى جانب ذلك فهو خطيب ماهر وذكي وألمعي وبراغماتي إلى حدود تضعه قبل بورقيبة أحياناً.

وأثناء المفاوضات عرف هذا الرجل كيف يجعل من المقاومة المسلحة وسيلة للضغط على سير الجلسات، وفي الوقت نفسه راح يتجول بين القاهرة حيث ربط علاقات متينة مع رجال ثورة ٢٣ تموز/يوليو وثورة الجزائر، إذ كان على اتصال برجال وقادة ثورة الفاتح من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٤. وصولاً إلى باندونغ حيث شارك كرئيس وفد المغرب العربي في مؤتمر عدم الانحياز (نيسان/أبريل ١٩٥٥). لقد اختير بن يوسف لرئاسة الوفد الثلاثي المشترك الذي حضره محمد يزيد وحسين آيت أحمد عن الجزائر وعلال الفاسي وعبد المجيد بن جلون عن المغرب والطيب سليم والطاهر عميرة عن تونس. وفوق ذلك كلّه،

كان «ابن يوسف» يحظى بعلاقة خاصة مع زعيم العرب عبد الناصر. وإذ سينزل بن يوسف إلى مطار العوينة ـ تونس قادماً من جنيف لوقف ما أسماه بـ«الانهيار» أو «التراجع الكبير» الذي يقوده بورقيبة، مدفوعاً بتحالفات داخلية وإقليمية ودولية ومستنداً إلى ماضيه الكفاحي ورجال المقاومة المسلحة وقدرته على الإقناع وحبك المناورات السياسية، فإنه سيجد أمامه لا محالة رجلاً يعرف كيف يسير بمحاذاة الهاوية دون الوقوع فيها.

كان بورقيبة يعرف أن قدوم بن يوسف إلى تونس سيشق الساحة إلى نصفين وسيجعل منه زعيماً لنصف التونسيين فقط وأن المرحلة تفرض الحذر والانتظار وعدم الصدام، لذلك ذهب لاستقباله في المطار وقد قرر أن يصمت ويصبر. لم يحضر إلى المطار رئيس الحكومة الطاهر بن عمار، ولكن ممثل الباي كان في مقدمة الحاضرين وإلى جانبه صفٌّ طويل من أعيان البلاد والوزراء والشخصيات الوطنية، يتقدمهم بورقيبة والباهي الأدغم الذي كان لا يزال لم يحسم أمره وهو يقف في المسافة الوسطى بين الرجلين. وحين أطل بن يوسف من باب الطائرة وقف قليلاً على الدرج وهو يلوح بيديه لتحية مستقبليه، ووقعت عيناه على اللافتات التي كتب عليها «أهلاً بالزعيم الكبير» فأدرك أن حرب الزعامة قد بدأت منذ اللحظة، فنزل الهويناء كأي مهراج هندي، وهو يتقدم لمصافحة ممثل الباي. آنذاك قفز بورقيبة نحوه فاتحاً ذراعيه لاحتضانه، لكن بن يوسف تراجع خطوة ثم مد يده ببرودة إلى يد بورقيبة. وفي تلك اللحظة لاحظ جميع الحاضرين أن تلك المصافحة الباردة تنبئ بقطيعة ساخنة.

رغم ذلك ضغط بورقيبة على الإهانة ليبتسم. وقال للباهي الأدغم الذي كان إلى جانبه «إن بن يوسف رجل لا يعرف كيف يخفي غضبه»[7]. وعند باب المطار ركب الزعيمان سيارة مكشوفة ليشقا الجماهير التي اصطفت لتحيتهما. وإذ شعر بن يوسف أن بورقيبة قد قاسمه ذلك الاحتفال المخصص له، فإن بورقيبة قد أعطى انطباعاً للجماهير أن لا خلاف بينه وبين بن يوسف. وعند الوصول إلى داره بمنطقة مونفليري، صعد بن يوسف إلى الشرفة ليلقي خطاباً على نحو ارتجالي ولكنه غاية في الإتقان، فهو الوحيد الذي يضاهي بورقيبة في فن الخطابة.

قال بن يوسف وهو يضغط على الحروف والكلمات: «إن هذه الاتفاقيات تشكل خطراً على وجودنا واستقلالنا. إنني متأكد أن ما من قوة ستقدر على مقاومة التيار الشعبي. سوف نسير معاً اليد في اليد نحو الهدف الأعلى، أي تحرير البلاد نهائياً من النظام الاستعماري، وهذا لا يكون إلا بالاستقلال التام»[8]. كان ذلك رداً واضحاً على ما قاله

بورقيبة قبل عودة بن يوسف من «أن الاتفاقيات تمثل تقدماً مهماً. وأتمنى أن يقتنع أخي بن يوسف بذلك».

خلال جلستين طويلتين جمعت بين بن يوسف وبورقيبة لم يتوصل هذان الزعيمان إلى أي اتفاق. كان كل واحد تقريباً يقف على الطرف المقابل للآخر. ولأن الإثنين على قدر هائل من سحر العبارة والشجاعة والنرجسية، فإن لا أحد منهما قد حاول أن يفهم الآخر. كانا يتكلمان بسرعة رشاش.

استغرقت الجلسة الأولى حوالى ساعتين وقد تمت في بيت بورقيبة القديم في بطحاء الغنم وبحضور الباهي الأدغم، وقد حرص بورقيبة على القول: «إن الحركة الوطنية كانت على حافة الهاوية قبل بدء المفاوضات مع فرنسا، وإن الثورة المسلحة هي التي أخرجتنا من هذا المصير المخيف»[٩]. ثم انتقل إلى طمأنة مخاطبيه «بأنه لا يسعى إلى مطلب رسمي وأنه لا يطمع في الحكم». ولكن بن يوسف وحسب شهادة الباهي الأدغم، لم يبد أية مرونة باتجاه اتفاقيات الحكم الذاتي. وطلب أن تلغى وأن ذلك هو الطريق الأفضل للضغط على فرنسا والرفع من معنويات المقاومة المسلحة، وقد اتهم بورقيبة بالمراوغة وعدم الوضوح وكذلك بالضعف، إذ سأله: «كيف يمكن له أن يطلب من الثوار إلقاء سلاحهم ويسلّموه إلى الحكومة والحال أن الاستقلال لم ينجز؟».

أما الجلسة الثانية والتي عصفت بجميع الجهود، فقد تمت في بيت بن يوسف بمنطقة مونفليري. حضر بورقيبة بصحبة الباهي الأدغم، وقد أصبح يعرف أن هذا الأخير بدأ يميل إلى بن يوسف، خصوصاً بعد أن حذرته «وسيلة» من أنه يعمل بالتنسيق مع بن يوسف، وأنه يقف إلى جانب مواصلة الكفاح المسلح. ورغم ذلك فقد كان الوحيد الذي بإمكانه أن يسيطر على تلك الأجواء العاصفة. انتهت تلك الجلسة إلى الحضيض وحذر كل واحد الآخر «بأنه يسير لوحده في طريق مظلم، وأنه يراهن على الأوهام، وأن الفرص لا يمكن لها أن تدق أبوابنا مرتين»[١٠]. كان بورقيبة يرى أن فرصة الحكم الذاتي لا تعوض فيما كان بن يوسف يعتقد أن فرصة الثورة المسلحة للحصول على الاستقلال التام لا تعوّض. وحين شح ريق كل واحد، وقفا ليودعا بعضهما بعضاً، وكأنهما قرّرا أن يتحاربا لا لأن يتصالحا.

استعد كل منهما للمعركة الفاصلة بينهما. لم يكن الخلاف الأساسي بين هذين الرجلين لا حول شكل الاستقلال ولا حول محتواه، وإنما بسبب الزعامة. كان كل واحد يعتقد أن القمة لا يجلس عليها إلا رجل واحد، فيما كان كل منهما يعتقد أنه الأحق بالجلوس على

تلك القمة. فالطموح الذي اجتاحهما والأنانية المفرطة التي استفحلت فيهما لم تترك أي مجال لا للوساطة ولا للتسوية.

اتجه كل منهما إلى جولة داخل البلاد ليجمع صفوفه ويزن شعبيته وقدرته على الإقناع. وراحا يلهبان حماسة الناس بكل صنوف الإثارة. فنشر كل واحد غسيل الآخر على حبال السطوح والمنصات والساحات. تحدث بورقيبة عن فجور بن يوسف والركض وراء النساء والملذات، وأوعز لمساعديه بأن يوزعوا صورته وهو يعانق الراقصة اليهودية «دنيازاد»، ثم طالب بطرده من الحزب لأن الحزب لا يشرفه أن يكون أمينه العام رجلاً زانياً وتاجراً وفاجراً. أما بن يوسف فقد راح يتعقب خصمه في كل مكان، فما إن يترك بورقيبة منصة حتى يعتليها ليلقي من فوقها خطاباً. كان في البداية متعففاً على تجريح شخصه، ثم ما لبث أن دخل إلى سوق الوقاحة مثل بورقيبة، فتحدث عن طمعه ولهاثه وراء المال وسرقاته لأموال الحزب، كذلك شهّر بعلاقته المريبة مع «وسيلة بن عمار»، واتهمه بالزنا والتعاون مع فرنسا، كما أوعز لبعض مساعديه أن يوزعوا صورة لبورقيبة وهو يحتضن الراقصة الإسكندرانية «ميّا شطة». ومع تلك الصورة وزعت كذلك حكايات أخرى عن «ابنة بورقيبة الحرام» التي تركها في مصر، وعن علاقاته المشبوهة مع أخت وسيلة «نائلة بن عمار»، وعلاقته المحرمة مع «ابنة أخته» (سعيدة ساسي).

كان كل منهما يتكلم لغة الآخر، وقد انزلقا نحو الوقاحة والحضيض، ولكن بعد أن أفرغ كل منهما ما في جعبته من بذاءة، اتجها إلى العمل الجاد. لم يعد هناك أي مجال للقاء. وحين اختار بورقيبة خط الاعتدال والمرونة والتقرب من فرنسا، فإن بن يوسف لم يبق له إلا الخيار الآخر، وهو خيار العروبة والإسلام والكفاح المسلح. وفي تشرين الأول/أكتوبر من العام ١٩٥٥، وضع بن يوسف آراءه واضحة من على منصة جامع الزيتونة في متناول جمع غفير من المصلين، فقال «إن تونس جزء لا يتجزأ من الأمة العربية وهي كذلك جزء من الأمة الإسلامية، وإن قدرها يملي عليها الوقوف إلى جانب أشقائها في الجزائر»، ثم طالب بتكوين جبهة مغاربية متحدة لمقاومة الغزاة، معتبراً «أن تحرير المغرب العربي هو عنصر مهم لتحرير الأمة العربية».

أدرك بورقيبة آنذاك أن بن يوسف قد شهر عليه السلاح الذي سيذبح به نفسه. فهو يعتقد أن مثل ذلك الكلام قد يبعث الحماسة في الناس لكنه لا يزن أي ذرة في الواقع. كما رأى أن فرنسا إذا كانت جادة في الاستقلال فإنها ستختاره للحوار والتعاون بدل أن تختار رجلاً أصبح يتكلم لغة «صوت العرب» في القاهرة. ثم أن فرنسا لن تتسامح أبداً مع الذين

يتحدثون عن تحرير الجزائر واستقلالها. إلى جانب ذلك، فإنه كان يعرف أن بن يوسف غير مؤمن بما يقوله، ولكنه كان مضطراً إليه، وذلك عنوان كبير لضعف رجل سياسة.

إن العروبة والإسلام والحرب، هي بالضبط عناوين القطيعة مع الغرب، وكذلك الأطروحات المضادة لعناوين بورقيبة الكبرى: الاستقلال على مراحل، التعاون مع فرنسا والعلمنة. أصبح كل منهما الآن يتكلم لغته الخاصة به، وإذ ذهب بن يوسف في جولة قادته إلى القيروان بعد خطاب جامع الزيتونة، جمع بورقيبة عدداً كبيراً من قيادات الحزب الذين يعارضون أطروحات بن يوسف في بيته وطلب منهم أن يساعدوه على تجميد عضوية بن يوسف في الحزب. اتخذ القرار بسرعة في غياب «الباهي الأدغم» الذي كان لا يزال يبحث عن تسوية بين الرجلين. ولكن الجميع بمن فيهم بورقيبة تردّدوا في نشر القرار على صفحات الجرائد. وبعد بضعة أيام سيصبح ذلك القرار موزعاً على جميع خلايا الحزب. وفيما اتهم الشق الأول بورقيبة بالانشقاقية وعدم الشرعية وفتح النار على الحزب من الداخل، اتهم الشق الثاني بن يوسف بأنه تجاوز أوامر الحزب وتوصياته وهاجم رجاله ونضاله ولم يمتثل للحوار.

أصبح الآن حزب الدستور بمثابة حزبين متقاتلين. الأول تحت قيادة بورقيبة، والثاني تحت قيادة بن يوسف. وإذ رأى بن يوسف أن مركزه كأمين عام للحزب لا يمكن أن يلغى عقب اجتماع غير شرعي لم يدعُ إليه المكتب السياسي، فإن بورقيبة قد أصبح مقتنعاً بأنه وضع خصمه في إشكالية معقدة. فهو الآن عليه أن يثبت شرعيته لقيادة الحزب، قبل أن يثبت صحة آرائه في المفاوضات. ولأن بورقيبة حين تشتد به المحنة يهرب إما إلى الخارج أو إلى فراش المرض، فقد أوى إلى فراش المرض، الأمر الذي سيجلب له قدراً من التعاطف. لقد كان يعرف جيداً أن الزعيم حين يسافر أو يمرض، إنما يصبح أقوى، لأن الناس يشتاقون للمسافر ويتعاطفون مع المريض. ولكن هذه المرة شعر بورقيبة بالمرارة، وهي درجة أعلى من الخيبة كما قال للمصمودي، ثم ارتفعت درجة المرارة فأصبحت شعوراً «بالخيانة». تساءل بورقيبة بحضور وسيلة والمصمودي والمنجي سليم والحبيب عاشور: «هل تراهم سينتصرون في النهاية؟». ثم أضاف: «إني أعرف أن بن يوسف حية رقطاء. إنه الشيطان بعينه».

استسلم بورقيبة إلى الخيبة ومزق قلبه شعوره بأن الشعب خانه هذه المرة، ولكن رفاقه المقربين إليه جعلوه ينهض من فراش المرض. وسألهم: «هل نحن قادرون؟»، فجاءه صوت «الحبيب عاشور»: «سوف تهزمه ونحن معك»[11]. آنذاك هب بورقيبة وافقاً وقد عزم على الذهاب إلى القيروان ليرد على خطاب بن يوسف. وصل بورقيبة إلى تلك المدينة التي

بدت وكأنها وقفت مع صالح بن يوسف إلى الأبد، فأدخلها في حيرة من أمرها. ومن فوق جيب عسكري، راح بورقيبة يروي مسيرته وصولاً إلى المفاوضات كأي معلم مدرسة، وحين أحس أن الجموع استكانت لروايته، انتفض فجأة وكأن شيطاناً حرّكه من الداخل ثم انطلق في حمأة الكلام ليستحوذ على كل الذين لا يزالون مترددين. لقد هز كل من جاء إليه، وبدا أنه سيطر على كيانهم. فالقيروان التي غزاها بن يوسف ها هي تستسلم أخيراً لبوقيبة.

بعد ذلك الخطاب استرجع بورقيبة معنوياته وحث جماعته على الإسراع في عقد مؤتمر استثنائي لعزل بن يوسف من الحزب نهائياً، على أن يكون في مدينة محايدة أو مدينة يستطيع فيها بورقيبة أن يتكلم بكل حرية. «لم تبق أية قرية محايدة في ذلك الوقت، كل الشعب التونسي تقريباً قد انشطر إلى شطرين» قال له الحبيب عاشور رجل النقابات القوي، ثم أضاف: «لكني أستطيع أن أضمن لك حماية العمال والنقابات إذا ما اخترت مدينة صفاقس». وفي صفاقس سيعقد ذلك المؤتمر الخارق للعادة والمثير للقلاقل تحت حماية العمال والنقابات. لقد استطاع الحبيب عاشور أصيل جزيرة قرقنة النائمة في أحضان مدينة صفاقس، أن يجعل من الاتحاد العام الذي شارك بن يوسف في بعثه، نصيراً لبورقيبة. إن ابن جزيرة قرقنة التي توجد في المسافة الفاصلة بين المنستير (بلدة بورقيبة) وجزيرة جربة (بلدة بن يوسف) هو الذي سيرجح كفّة ابن المنستير إلى حد بدا فيه للبعض وكأن أبناء الجزر يكرهون بعضهم بعضاً، لأن جميعهم يتطلع إلى البرّ.

عقد مؤتمر صفاقس في ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٥ تحت حماية رجال عاشور الأشداء الذين اختارهم بنفسه من حملة الميناء ومتطوعين من شباب الحزب وكذلك من «لجان الرعاية» التي أنشأها الحزب في البداية من أجل النظام. رمى بورقيبة بعصاه السحرية من فوق المنصة فدعا بن يوسف إلى حضور المؤتمر، ولكن بن يوسف الذي لا يركب القطار بعد أن يكون انطلق، هو أيضاً لا يريد أن يدخل إلى قاعة المؤتمر قبل أن يفرض شروطه. وهذا ما كان يعرفه بورقيبة جيداً. ولمدة يومين، دافع البعض عن تسوية الخلاف والمصالحة، ونادى البعض الثاني بتأجيل المؤتمر ريثما يحضر بن يوسف. أما الثالث وهو أغلبية القاعة التي كان يستحوذ عليها بورقيبة، فقد عجلت في اختتام المؤتمر بعزل بن يوسف من الحزب نهائياً وجعله خارجاً على القانون، بعد يومين من الأشغال الملتهبة. لقد انتصر بورقيبة في ذلك المؤتمر، وشعر أنه سيّد الحزب الوحيد بلا منازع، ولكن ثمة شيء يزعجه، أنه ليس سيّد الساحة الوطنية الوحيد. فبعد يوم فقط من نهاية مؤتمر صفاقس، دعا

اليوسفيون إلى اجتماع عام في تونس العاصمة، حضره أكثر من ٢٠ ألفاً، أدخلوا الرعب في قلب بورقيبة والسلطات الفرنسية على السواء، وهم ينادون بمواصلة الكفاح المسلح وقتل الخونة. والمتعاونين مع الاستعمار.

انطلق كعادته في جولة داخلية بالبلاد بحثاً عن مؤيدين لوجهة نظره. وقد طاولت تلك الجولة مناطق في الجنوب التونسي كانت تعتبر مركز ثقل لليوسفيين، إذ كان السلاح يتدفق من الجانبين إلى الجنوب، من الجزائر، وكذلك من ليبيا. وفي إحدى القرى المنجمية (الرديف) كاد بورقيبة أن يقتل بعد أن حوصر مقر اجتماعه، ولكن بفضل تدخلات القوات الفرنسية (إذ لا تزال المنطقة خاضعة للقوات الفرنسية ومليئة برجال الجندرمة ورجال الأمن السريين لأنها تقع بالقرب من الحدود الجزائرية) نجا بورقيبة من القتل وعاد إلى تونس في حراسة المحجوب بن علي، وقد قرر أن يضرب بقوة.

كان بورقيبة إلى تلك اللحظة يتوخى المرونة ولا يريد أن يدخل في منطق ردود الفعل القوية. ولكن بعد تلك الحادثة التي أرعبته، اكتشف أن شعبه الذي يحبه يمكن أن يقتله، كما أن الشعب الذي يكثر من المديح لزعمائه يمكن أن يخون زعماءه. باختصار فقد قرر أن يكشف لذلك الشعب عن وجهه القبيح. لقد قال لحارسه الشخصي «المحجوب بن علي» وهو في طريق العودة إلى تونس، «أريد منذ الآن أن تبحث لي عن رجال لا يعرفون الرحمة. لقد قررت ألا أغفر لمن أبحث لهم عن الحرية ويبحثون لي عن الموت». وعندما وصل إلى تونس اجتمع بالمنجي سليم، وكان يشغل وزير داخلية في حكومة الحكم الذاتي، ليقول له: «إن الزعيم الغفور والرحيم قد انتهى، فإذا كنت دستورياً حقاً فعليك أن تعرف أننا لن ننجح إذا كنّا لا نضرب بقوة». ثم أضاف «إن الموقف الآن لم يعد للإغراء. إنه وقت للترهيب».

من أجل أن يصبح بورقيبة مخيفاً وفعالاً، كان عليه أن يعتمد على عدة عناصر مجتمعة. فالجيش الفرنسي الذي لا يزال يسيطر على مسألة الدفاع في الحكومة المؤقتة قد انحاز إليه، لأن باريس لا تريد أن يلتحم ثوار تونس بثوار الجزائر، كما أن فرنسا لا تريد أن تصبح تونس مزرعة للأفكار العروبية والناصرية. وقد شكل تحالف بن بلة وعبد الناصر مع بن يوسف ورقة عرف بورقيبة كيف يلعب ويربح بها. بالإضافة إلى ذلك فإن السيد المنجي سليم الذي كان على رأس وزارة الداخلية في حكومة الطاهر بن عمار، قد انحاز إلى بورقيبة في صراعه مع بن يوسف، وخرج عن موقفه المتردد والحيادي ليقوم بمهام الأمن المكلف بها. وبذلك فقد شكل لبورقيبة أرضية للتحرك لم يكن يتمتع بها رجال بن يوسف

الذين بدوا وكأنهم خارجون على القانون. في الوقت نفسه راح كل من المحجوب بن علي وزرق العيون وعلي الزليطي يشكلون ما أصبح يعرف آنذاك بـ«عصابات لجان الرعاية» التي ستتولى اغتيال بعض رجال المقاومة أو ما أطلق عليهم آنذاك برجال عصابات الأمانة العامة (اليوسفيين)، إلى جانب ذلك كلّه تمكن بورقيبة من كسب اتحاد العمال إلى جانبه بفضل الحبيب عاشور ونائبه أحمد التليلي.

ضرب بورقيبة موعداً آخر مع النصر وكان حليفه. فقد تمكن أخيراً من إقناع المنجي سليم وزير الداخلية بإصدار قرار لإلقاء القبض على بن يوسف باعتباره «رجل الفتنة الأول». وإذ أعطت السلطات الفرنسية الضوء الأخضر، فإن الباي لم يبلغ أبداً بذلك القرار. حين عرف بن يوسف أنه أصبح هدفاً لرجال بورقيبة ورجال الجندرمة الفرنسية، قرر أن يختفي ليظهر صبيحة يوم ٢٩ كانون الثاني/يناير ١٩٥٦ في طرابلس الغرب. وما إن أصبح بن يوسف في الخارج حتى شعر بورقيبة أنه تنفس الصعداء.

إذا كان بن يوسف قد فضل السفر، فلأنه كان يريد أن يبقى الرمز حياً من أجل أن تزداد المقاومة قوة، ولكن بورقيبة كان يفكر في العكس تماماً. لقد رأى في سفره إلى الخارج نهاية له ولرجاله، لأن قتله أو سجنه في الداخل سيجعل منه شهيداً ومزاراً ويزيد من اشتعال نار الفتنة. بعد ذلك اتجه بورقيبة إلى تفتيت اليوسفيين والتنكيل بهم بلا رحمة. فحين يغيب القائد، يصبح جنوده فاقدين للتنظيم والمعنويات والأهداف الواضحة!. أغلقت الصحف الناطقة باسم الأمانة العامة، وتم السيطرة على كل مكاتبها وملفاتها وأموالها ومخازن أسلحتها ثم ألقي القبض على ١٢٠ من قياداتها، شكلت بسرعة محكمة عليا للنظر في «جرائمهم»!!

من طرابلس، انتقل بن يوسف إلى القاهرة ليتابع هجومه على سياسة بورقيبة التفريطية عبر أمواج «صوت العرب». أما بورقيبة الذي رأى أن المغرب قد حصل على اتفاق استقلال أفضل بكثير من الاتفاق التونسي، فقد اتجه نحو الضغط باتجاه تحسين الحكم الذاتي. دعا أركان الحزب وقال لهم: «إن بن يوسف قد يكون معه بعض الحق. ما هذه الاتفاقيات؟ علينا أن نفتح مباشرة مع فرنسا مفاوضات جديدة»(١٢).

بعد هروب بن يوسف بأربعة أيام فقط، سافر بورقيبة إلى باريس في مهمتين: الأولى قصد الراحة في جبال الألب. والثانية قصد التوضيح للسلطات الفرنسية أنه أصبح سيّد الساحة التونسية الوحيد، والذي بإمكانه أن يسافر بعد أن تمكن من السيطرة على البلاد. ولكن قبل أن يسافر بورقيبة، كانت لجنة جديدة قد تشكلت لمتابعة المفاوضات مع فرنسا. وفي

آخر يوم من شباط/فبراير ١٩٥٦، كان «آلان سافاري» المكلف بالشؤون المغربية والتونسية في حكومة «غي موليه» الاشتراكي التي خلفت حكومة «إدغار فور»، في استقبال رئيس اللجنة التونسية للمفاوضات السيد «الباهي الأدغم». لقد انحاز أخيراً، هذا الأخير إلى صف بورقيبة، وبدا أنه الحجر الذي رجح الكفة لصالحه في آخر لحظة. لم تتمكن تلك اللجنة من الحصول على أشياء هامة، لأن الاهتمام الفرنسي كان منصبّاً كله باتجاه الجزائر، وقد طلب سافاري من محاوره الباهي الأدغم الانتظار قليلاً حتى تعرف باريس ما سوف تؤول إليه الأمور في كل من الجزائر والمغرب. غير أن بورقيبة الذي قرر أن يتخذ من الثورة الجزائرية وسيلة ضغط، عاد ليفتح مفاوضات جديدة يوم ٥ آذار/مارس ١٩٥٦. وعندما تم استقباله في باريس من قبل وزير الخارجية «كريستان بينو Pineau»، قال بورقيبة: «إن مصلحة فرنسا الآن هي أن تدعم سلطة حلفائها في تونس، وتمكنهم من وسائل لإطفاء الحريق الذي يوشك أن يلتحم بالحريق الجزائري». وهكذا اقتنع الفرنسيون بأن تونس بإمكانها أن تصبح مستقلة. فبعد ١٨ يوماً فقط من استقلال المغرب، وقع بورقيبة على وثيقة الاستقلال التام يوم ٢٠ آذار/مارس ١٩٥٦، ليعود من هناك ومرة أخرى منتصراً.

بعد أقل من شهر على خروج بن يوسف من تونس، حصل بورقيبة على «الاستقلال التام». لقد أصبحت الآن كل السلطات بين يدي هذا الرجل الذي يعرف كيف ينتظر. لم يعد الآن هناك من يشاركه أو ينازعه على السلطة. فصانع الاستقلال بمرحلته الذاتية والكاملة، سينهمك منذ ذلك الوقت في صناعة الدولة التي تناسب مزاجه وثقافته وأفكاره وكذلك «فانتازماته». إن «رجل البطرونة» قد خرج أخيراً عن وصايا البطرونة، ولكنه لن يتنكر أبداً لفضائلها إذ سيبقى بمثابة ابنها البارّ، الحامل لثقافتها وأفكارها. هكذا في بعض الأحيان ينتهي الأعداء إلى الزواج من بعضهم بعضاً.

* * *

ما إن تم الإعلان عن الاستقلال التام، حتى اخترع بورقيبة حكايةً عمل جاهداً على تغذيتها بالأقاويل والشهادات فأشاعت غضباً غير محدود في أوساط الشعب، وضربت ثقة الباي في وزيره الكبير الطاهر بن عمار. قال بورقيبة للأميرين الشاذلي ومحمد، أبناء الباي: «إن والدكما يطعننا من الخلف، وقد بلغني أنه لا يريد أن يصبح لتونس جيشها المستقل وجهازها الأمني، كما هو يفضل أن يبقى أمن القصر تحت سلطة فرنسا». ثم أضاف: «لو أن الشعب عرف بكل هذا، فإن العرش سيدك دكاً»[١٣]. استغرب الأميران من لهجة بورقيبة، ولكنهما فهما رموز الرسالة التي يريد بورقيبة أن يبلغها إلى الباي. إنه يريد أن

يضغط عليه حتى يوقع على مرسوم انعقاد المجلس التأسيسي كأعلى سلطة تشريعية في البلاد. لقد فضّل بورقيبة إلى تلك اللحظة أن يبقى بعيداً أو فوق جميع المناصب الرسمية، ولكن حين أتم الاستقلال، قرر أن يبدأ في رحلة الغزو والاستحواذ على جميع السلطات. ولأنه يعتقد أن الغزو يجب أن يتم من داخل الهياكل الشرعية، فقد اختار أن تكون معركته الأولى مع المجلس التأسيسي.

وفيما كان رصاص آخر جنود بن يوسف يهز جبال الجنوب وهو يبتعد ويتقهقر منسحباً إلى الخارج وملتحقاً بالثورة الجزائرية، كان رجال بورقيبة قد استعدوا جيداً لافتكاك أعلى السلطات التشريعية. أما الباي فلم يعرف أبداً في تلك اللحظة، أنه منذ أن وافق على انعقاد ذلك المجلس، إنما وافق على نهاية عرشه.

بعد خطاب لرئيس الوزراء الطاهر بن عمار حضره الباي، وكأنه يحضر جنازة، افتتحت جلسة انتخاب رئيس جديد لهذا المجلس التأسيسي الذي أصبح جميع أعضائه من التونسيين. ملأ القاعة نشيد الحركة الوطنية «حماة الحمى» الذي سيصبح منذ ذلك الوقت النشيد الرسمي للدولة التونسية. صعد بورقيبة إلى المنصة ليلقي بخطاب قصير ومركّز تكلم فيه عن احترامه للشرعية والديموقراطية وضرورة بناء دولة القانون والمؤسسات. ثم فتح باب الترشيح لرئاسة هذا المجلس. اقترح الدكتور محمود الماطري، صديق بورقيبة القديم، أن يتم التصويت في كنف السرية، لكن بورقيبة سخر من ذلك الاقتراح قائلاً: «بما أن المرشحين هم بعدد المقاعد، فلماذا السرية؟». تم كل شيء تحت الأضواء الكاشفة، وفي الحين امتلأت القاعة بأصوات تنادي برئاسة بورقيبة للمجلس التأسيسي، ولأن لا أحد تقدم لمنافسته، فقد أصبح بورقيبة أول رئيس لأول برلمان تونسي ١٠٠٪. أوَلم يكن أول مطلب لحزب الدستور الجديد هو أن يصبح لتونس برلمان تونسي. أوَلم ينشقّ بورقيبة عن الحزب الدستوري القديم بسبب تمسكه بمطلب برلمان مشترك!.

في تلك اللحظة، شعر بورقيبة بفرح لا يعادله إلا فرح يوم عودته من المنفى في غرة حزيران/يونيو ١٩٥٥، كما قال للباهي الأدغم، وأضاف: «لأول مرة يا سي الباهي وجدت نفسي عاجزاً عن التعبير عن مشاعري»[١٤].

أصبح ذلك المجلس هو الذي يصوغ الدستور ليصبح بورقيبة رجل «الدستورين»: المجلس التشريعي الدستوري والحزب الدستوري. كان يعرف أن كل شيء سيأتيه إلى بين يديه على طبق من ذهب، ولذلك فقد صمت ليترك الآخرين يتكلمون.

انتهت وزارة الطاهر بن عمار، وقد أنجزت المهمة التي شكلت من أجلها، وهي قيادة المفاوضات مع فرنسا. فلقد كانت قيادة الحزب الدستوري مع الباي، ترغب في أن تشارك البورجوازية التونسية في ولادة الاستقلال. والآن وقد ولد الاستقلال، فإن أباه الشرعي هو الذي سيتولى رعايته.

دعا الباي أعضاء المجلس التأسيسي لاستشارتهم في تشكيل حكومة جديدة. وحضر بورقيبة إلى ذلك اللقاء بصفته رئيساً للمجلس، لكنه فضّل الصمت كعادته. وسأل الباي الحاضرين عمّن يمكن تكليفه بتشكيل هذه الحكومة، فتكلم أحمد بن صالح الذي سيبدأ نجمه يتصاعد منذ ذلك الوقت، قائلاً: «مولاي، ليس هناك أحد سوى بورقيبة». وانتظر الباي قليلاً عسى أن يتكلم أحد الحاضرين، وحين طال الصمت، أشار الباي بيده فحضرت الأوسمة ومنها وسام الدم ووسام الافتخار. وعندها قام بورقيبة من مقعده، فتقدم نحو الباي في نصف انحناءة.

شكل بورقيبة وزارته الجديدة في الخامس عشر من نيسان/أبريل ١٩٥٦. ثم أعلن بعد حين «أن تونس دولة حرة مستقلة وذات سيادة، دينها الإسلام ولغتها العربية». رأى البعض في ذلك مجرد مناورة لتخفيف حدة المعارضة. وفعلاً لم تمض عدة أيام حتى تحدث بورقيبة لصحيفة «لاكسيون» عن مفهومه للائكية فقال ما معناه: «يظن البعض أن اللائكية هي التنكر للدين، ولكن أعتقد كما شرحت ذلك لرفاقي أن اللائكية بالنسبة إليّ هي أن يصبح القانون التونسي من وضع الرجال، وليس من وحي الأديان». بعد ذلك سافر إلى فرنسا لمزيد من «الوضوح» إذ كان يريد أن يمدّ يديه إلى مجال الدفاع والدبلوماسية. وفي حزيران/يونيو ١٩٥٦، حصل بورقيبة على تنازلات أخرى خاصة في مجال السياسة الخارجية، ومع ذلك فإنه سيبقى على الحياد حين تم خطف طائرة زعماء الثورة الجزائرية الستة[١٥] فوق الأجواء الجزائرية، وكانت في رحلة من الرباط إلى تونس. ففي ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر نددت جميع دول العالم بتلك القرصنة التي قام بها الجيش الفرنسي، كما استقال السفير الفرنسي بتونس احتجاجاً على ذلك العمل الإرهابي (بورونودي لييس De Leusse) لكن بورقيبة لم يحرك له ساكناً. بعد أسبوعين تعرضت مصر للعدوان الثلاثي (بريطانيا ـ فرنسا ـ إسرائيل) فقام العالم ولم يقعد، لكن بورقيبة استمر في صمته. لقد كان بالأحرى يرى إلى وقوع بن بلة في الأسر وضرب عبد الناصر، انتصارات جديدة له. فحين يصاب حلفاء صالح بن يوسف بالضعف، فإن خصمه سيموت تدريجياً. ولكن ألم يكن

من الأفضل أن يجد الفرصة لقطع الأعشاب من تحت أقدام بن يوسف، لو أنه اختار دعم عبد الناصر والتنديد بخطف الزعماء الجزائريين؟.

أجاب المصمودي عن ذلك السؤال بعد نحو ٣٠ سنة، حين قال: «إن بورقيبة فكر في ذلك، لكنه اختار أن يغيظ أعداءه. كان يبحث عن مشهد للشماتة. ثم كان يعتقد بسذاجة أن هذين الرجلين بن بلة وعبد الناصر قد دخلا إلى مرحلة الانهيار. كان في ذلك الوقت مستعداً لسماع كل شيء فيما عدى سماع اسم بن يوسف»[١٦].

كانت المقاومة اليوسفية قد أصبحت ذكرى أكثر منها واقعاً. لقد قضى الجيش الفرنسي على نصفها. أما النصف الثاني فقد تكفل به بورقيبة. فمنذ أن أصبح رئيساً للوزراء، استطاع أن يستخدم كل أجهزة الدولة الحديثة ضد أعدائه اليوسفيين. ضغط على العدالة لكي تسرع في المحاكمات وضغط على وزارة الداخلية لكي تنفذ الأحكام. أعدم الكثير من قادة الكفاح المسلح في الساحات العمومية أمام الناس، كما حكم على الكثير بالإعدام غيابياً وعلى رأسهم بن يوسف نفسه. وخلال سنتين قتل التونسيون من التونسيين أكثر من ألف رجل، وهو ضعف العدد الذي قتل خلال الثورة ضد فرنسا لمدة سنتين. وهو رقم يفوق بأربع مرات عدد القتلى الذين ماتوا منذ بداية الحماية ١٨٨١ إلى بدء المفاوضات الأولى في العام ١٩٥٤.

أصبح الآن بورقيبة الرجل القوي بلا منازع. فهو يسيطر على حزب الدستور وعلى الوزارة وكذلك على المجلس التأسيسي. إنه يملك بين يديه كل خيوط السلطة التشريعية والتنفيذية والسياسية. ولأنه كان يريد أن يضع حداً لتدخلات العائلة المالكة المزعجة، فقد أوحى لرجاله بأن يقترحوا على المجلس التأسيسي تكوين ملكية دستورية.

كان واضحاً أنه لم يعد يريد أن يبقى وزيراً لدى الباي. لكنه لم يفصح بعد عن رغبته الدفينة في أن يصبح هو الباي. كان يعرف أنه في سباق مع المجد، لكنه كان يحتاج إلى فرصة مناسبة لبلوغ هدفه. إن معركته الأخيرة مع السلطة المطلقة ستكون جداً حذرة ومراوغة إلى أن تأتي لحظة التفجير الحاسمة. أوَ لم ينصح الأمير الشاذلي والده محمد الأمين باي، «بأن بورقيبة لا يقبل أبداً بنصف الكعكة؟» أوَ لم يقل الماطري في كثير من المناسبات، إن «بورقيبة يملك شهية تمساح؟»!

الهوامش:

(١) Mohamed Masmoudi, **Les arabes dans la tempête** Paris, 1977. Ed: Jean Claude Simoen

(٢) **Bourguiba vu par Jean Rous** Ed: Matinsart, Parıs 1984.

(٣) شهادة البشير زرق العيون، أحاديث مع المؤلف، تونس عام ١٩٩٢.

(٤) من خطاب لبورقيبة ألقاه في «بطحاء الغنم» بتونس العاصمة عام ١٩٥٥.

(٥) قائل تلك العبارة هو الجلولي فارس، رئيس المجلس التأسيسي السابق. ولقد كانت وسيلة مكروهة من أصدقاء بورقيبة القدماء. وكذلك من الباي نفسه.

(٦) الكسكسي: هو الأكلة الشعبية ذات الجذور البربرية التي تنتشر من ليبيا إلى المغرب الأقصى. والكسكسي هو عجين القمح أو الشعير الذي يطبخ على البخار. ويؤكل بعدة أنواع من المرق، كما يؤكل بالحليب.

(٧) شهادة الباهي الأدغم، حديث مع المؤلف أجراه في العام ١٩٩٣، ونشر جزء منه بجريدة **الأيام** البحرينية.

(٨) أنظر كتاب **صالح بن يوسف** لمنصف الشابي، دار الأقواس للنشر، تونس. كذلك أنظر كتاب الطاهر عبد الله/ **الحركة الوطنية التونسية، رؤية شعبية قومية جديدة**، سوسة، دار المعارف للطباعة، ١٩٩٠.

(٩) شهادة الباهي الأدغم، حديث مع المؤلف أجراه في تونس عام ١٩٩٣.

(١٠) المصدر نفسه.

(١١) مذكرات الحبيب عاشور، النسخة الفرنسية.

Ma vie politique et syndicale Tunis, ALIF 1989, Enthousiasme et deception.

(١٢) Jean Lacouture, **Hommes et leurs peuples**, Ed: Seuil 1969.

(١٣) **حياتي، كفاحي، آرائي**، مجموعة محاضرات ألقاها بورقيبة أمام طلبة معهد الصحافة، عام ١٩٧٣، أشرف على جمعها محمد الصياح.

(١٤) شهادة الباهي الأدغم، حوار مع المؤلف أحراه في تونس عام ١٩٩٣.

(١٥) الزعماء المخطوفون هم: أحمد بن بلة، آيت أحمد، محمد بوضياف، رابح بيطاط، محمد خيضر، وكريم بلقاسم. كانت الطائرة متجهة من الرباط إلى تونس للاجتماع بالحكومة المؤقتة. يقال أن الجنرال أوفقير رجل المغرب القوي آنذاك هو الذي أعطى للجيش الفرنسي موعد إقلاع الطائرة وأسماء الراكبين.

(١٦) شهادة المصمودي، أحاديث مع المؤلف، باريس، ١٩٩٠.

سنوات الذروة:

صعود الباي الجمهوري

«ذهبت لأقابل «سيّدي الأمين» الذي ارتقى إلى العرش حسب نظام الأكبر سنّاً، بعد إقالة المنصف باي. فاستقبلني في قرطاج، وإلى جواره وزراؤه. وبالرغم من الاضطراب الذي أثاره في الرأي العام رحيل سلفه ذي الشعبية الواسعة، فإن الملك الجديد كان يتحمل مسؤولياته ببساطة لائقة. ولقد دهشت لما وجدت في شخصه، عبر حكمة السنّ والطبع، من تفان في خدمة بلاده. ومذّاك الوقت، شعرت تجاه «سيّدي الأمين» بتقدير وصداقة لم يتغيّرا قطّ».

«ديغول»

مذكرات الحرب

إذا كانت السلطات الثقيلة كلها قد استكانت إلى قبضة بورقيبة، فإن المجد ما زال يلهب حماسته. كان طموحه بلا حدود ولكن قدراته على الصعود كانت أيضاً خارقة. ونظر إلى أعلى قمة الهرم، فرأى «باياً» عجوزاً يجلس فوقها، لكنه لا يستحقها. إنه قد يبدو محترماً، لكنه لم يكن شعبياً. ولأن بورقيبة زعيم شعبي ومحترم، فقد أصبح مقتنعاً بأنه يفوقه في الشعبية والذكاء والسلطات والصحة.

كان الباي محمد الأمين البالغ من العمر نحو ٧٦ سنة آنذاك والذي أمضى ١٥ سنة على كرسي العرش قد أصبح يمتلك المجد، لكنه لم يعد يمتلك القوة. ففي عهد الحماية كان يمتلك بعض القوة والشرعية، ولكن منذ الاستقلال فقد ذلك الجزء من القوة والشرعية. أما بورقيبة وزيره الأكبر ورئيس المجلس التأسيسي فسوف يتكفل بنزع سلطان المجد عن ذلك الباي الساكن في قصر قرطاج والمسكون بجميع الهواجس والمخاوف. كان تقريباً بلا حركة. وكل من زار تونس من الوفود الرسمية أحسوا أن الباي قد أصبح شبه معزول.

لقد لاحظ الملك بن سعود ذلك جيداً خلال زيارته الرسمية لتونس في شباط/فبراير (٢٣ - ٢١) عام ١٩٥٧. فاللقاء الذي جمعه مع الباي أعطاه انطباعاً بأنه كان يتحدث إلى رجل

يقترب من الموت. وإذ صدمته معاملة بورقيبة للباي، إذ كان يتكلم بصوت عال أمامه وهو يشير بيديه في جميع الاتجاهات، فقد أدرك أن رجل تونس القوي هو بورقيبة[1].

اقترب بورقيبة جيداً من عائلة الباي، فاطلع على كثير من الأسرار، وتساءل بينه وبين نفسه كيف يرضى أن يكون وزيراً أكبر لدى هذه العائلة التي تستحوذ على الأرزاق والأعناق وتعامل وزير البلاد الأكبر بمثابة الخادم الكبير والخاص لها؟. كانت تلك العائلة تبدو لبورقيبة وكأنها مزرعة للفساد، وهي ترمز إلى كل شيء يكرهه: روح التفوق على الشعب الذي تحكمه، الناتجة من شعورهم بأنهم من الساحل الشمالي للمتوسط، الغطرسة المغلفة بنمنمات الأرستقراطية الشرقية المريضة والمتكاسلة. وكذلك الجهل الذي يعش في رؤوس جميع الأمراء والناتج من عدائهم للتعليم وعدم حاجتهم للمعرفة أو للوظيفة. ثم السيطرة على أهم مزارع البلاد باسم الأوقاف.

كان بورقيبة في البداية لا يعرف من أين يبدأ في قضم تلك العائلة، وقد فكر في انقلاب مشهدي، خصوصاً أن العائلة أصبحت ديكوراً ينتمي إلى أنتيكا القرن الثامن عشر، لكنه تراجع عن تلك الفكرة التي قد تظهره كرجل انقلابي فاهتدى إلى أسلوبه القديم: التدرج بخطوات صغيرة، حتى إذا بدت له المسافة قصيرة بينه وبين الهدف، قفز قفزة واحدة.

وحين عاد من جولة خارجية باعتباره رئيساً للوزراء قادته إلى غانا وغينيا والمغرب ثم إسبانيا وإيطاليا، كان بورقيبة قد استعد جيداً لإعلان حملاته ضد العائلة المالكة. وضع الباي بعيداً عن كل تهمة. فهو إذا لم يكن رمز البلاد الأعلى، فإن تحييده أمر مستحب لتنويمه. تكلمت بعض الصحف عن أملاك العائلة التي لا تحصى وعن تجاوزات بعض أفراد العائلة للسلطات[2]، وكذلك عن تدخلات لصالح بعض المتعاونين مع الاستعمار. وحين رأى بورقيبة أن مثل تلك الأخبار المثيرة قد أدمنها كثير من الناس، شعر بأن الوقت حان لتطرح مثل تلك المسائل والتجاوزات للنقاش في المجلس التأسيسي. فاستصدر قرارات للحدّ من تلك التدخلات ورفع الأوقاف عن بعض أملاك العائلة. آنذاك كان عليه أن يتقدم خطوة أخرى ليرى الشعب بعينه كيف أن بورقيبة الزعيم ورئيس الوزراء يختلف عن جميع وزراء الباي السابقين. فهو شريك له وليس مجرد خادم.

كانت المناسبة ليلة القدر لرمضان ١٩٥٧، وكان على بورقيبة أن يرافق الباي إلى جامع الزيتونة العامر، حسب التقاليد. كان بورقيبة يسير إلى جانب الباي، وهما يتقدمان إلى مدخل الجامع. وعند الباب دخل الباي وانتحى بورقيبة جانباً مع المنجي سليم، وزير الداخلية لينهمكا في حديث جانبي. لم يفهم أحد ما المقصود من تلك الحركة، إلا حين

دخل بورقيبة في حديث وبقي الباي واقفاً لعدة دقائق وهو لا يستطيع الجلوس على الأرض بدونه. كانت الإهانة بالغة وبليغة وقد حاول أحد مساعدي الباي أن يعالج ذلك قائلاً بأن الأمر كان فعلاً يحتاج إلى تلك المحادثة بين الوزير الأكبر ووزيره للداخلية. وعند العودة وبعد أن اجتاز كل من الباي وبورقيبة الباب الخارجي لقصر قرطاج، ثم اجتازوا الباب الثاني، وقبل اجتيازهما للباب الثالث ناول الباي العصا المزخرفة التي كان يحملها لبورقيبة، غير أن يدي هذا الأخير تراخت تاركاً عصا الباي ممدودة، وحينها سارع الأمير محمد إلى إنقاذ الموقف وهو يقول لبورقيبة: «إنها هدية من سيّدنا». آنذاك تناول بورقيبة العصا ليحتفظ بها، لكنه بعد فترة سيكتشف أنها اختفت من مكتبه. كان بورقيبة لا يتوقف على تسديد إهاناته للباي وكذلك لأبنائه أو حتى لزوجته. فذات يوم دُعي بورقيبة للعشاء إلى مائدة الباي. ورأى أن زوجة الباي تتناول الحساء قبل ضيفها الذي هو الوزير الأكبر، فسألها مستغرباً ذلك السلوك. وأجابته: «بأن العادة جرت على هذا المنوال ليتأكد الضيف من خلو الطعام من السمّ»، إلا أن بورقيبة أرادها أن تسكت قائلاً لها: «لا تكلفي نفسك في المستقبل مثل هذا العناء»[٣].

لم تكن زوجة الباي تحب هذا الرجل الذي أصبح يقتفي أثر زوجها الملك وهو يدخل عليهم في القصر بلا مواعيد، وهو يضيق الخناق على أبنائها دون أن يقدم لها أية خدمة في ما يتعلق بتوصياتها حول بعض الموظفين الذين يعيشون تحت رعايتها. لكن بورقيبة الذي يريد أن يعرف كل شيء بما في ذلك طنجرة الملك لم يعبأ بتلك الكراهية فبادلها الاحتقار بقسوة. وذات يوم دخل بورقيبة البهو الكبير بالقصر وهو في طريقه لمقابلة الباي، ولاحظ أن الزوجة/الملكة ظلت جالسة على مقعدها فتوقف عن السير ليقول لها بشيء من الحدة: «عندما يدخل رئيس الحكومة يجب على الحاضرين الوقوف لتحيته». ورغم أنها قامت لتعتذر له عن ذلك السهو، إلا أن بورقيبة تابع يقول بحزم: «أنا لست مصطفى الكعاك أو صلاح الدين البكوش»[٤].

وفيما تواصل النقاش داخل المجلس التأسيسي الذي أصبح تحت رئاسة جلولي فارس، وهو أحد أعيان البلاد الذين لا يقدرون على مواجهة الحقائق المصيرية كما يصفه بورقيبة، حول تكوين ملكية دستورية «تملك ولا تحكم» على المنوال البريطاني، واصل بورقيبة في تصويب إهاناته للتاج الذي يريده أن ينتقل إلى فوق رأسه. دفع بورقيبة بتلك النقاشات ليغطي عن نواياه الحقيقية، وقد عمد إلى أسلوب الغموض والمناورة وهو حريص على تحييد الباي من الاتهامات الموجهة لعائلته وكذلك لطمأنته قائلاً له بين الحين والآخر: «قريباً ستصبح ملكاً

على الطريقة البريطانية. ستكون فوق جميع الصراعات»[٥]. وإذا كان الباي قد أبدى بعض الارتياح لذلك الاقتراح الذي سيضمن له الاستمرارية والشرعية، فلأنه لم يصدق أبداً، بل لا يريد أن يصدق ما يقال عن بورقيبة بصوت عال من أنه يسير نحو إعلان الجمهورية وعزل الباي.

لم ينطق بورقيبة بكلمة واحدة حول رغبته في إعلان نظام جمهوري، وقد اختار الصمت والابتعاد عن أية نقاشات من هذا النوع. لكن رفاقه ووزراءه وكوادر الحزب الحرّ الدستوري أصبحوا كلهم يعرفون ميوله للجمهورية ولا يشكون أبداً في أنه يهيئ لنفسه أفضل الطرق للوصول إلى ذلك الهدف. وحين حلّ صيف ١٩٥٧، أصبح «حديث الجمهورية» يملأ المقاهي والبيوت، واختلف الناس حول مزايا الجمهورية ومزايا المملكة الدستورية. وفيما ازداد تحذير الباي من انقلاب يقوده بورقيبة[٦]، ازدادت سرعة بورقيبة نحو الهدف. لقد قرر أن يكشف عن نصف الحقيقة تاركاً الغموض يخيم على الجميع، فتكلم يوم ١٨ تموز/يوليو ١٩٥٧، عن الفساد الذي يغرق فيه القصر والانحرافات التي يعيشها الأمراء والبذخ الذي تغرق فيه الجواري والعائلات القريبة من القصر، وختم تدخله في المجلس التأسيسي: «قريباً ستحين ساعة الحساب». فجأة أصبح الباي متهماً بالفساد وهو قد يواجه مساءلة من المجلس التأسيسي أو من نخبة قضائية أخرى حول كل الاتهامات المسجلة في حق العائلة المالكة. وقبل أن يسحب نفسه من قوة الصدمة، دعا المكتب السياسي لحزب الدستور إلى اجتماع عاجل للمجلس التأسيسي. وفي الـ٢٥ من تموز/يوليو ١٩٥٧، توالى الخطباء على المنصة مطالبين بإنهاء عهد البايات. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر تكلم «الباي الجديد أو الباي الجمهوري» الذي سيجلس على عرش الباي بعد حين. لقد استمر بورقيبة في الكلام لمدة ساعتين، حاكم خلالها عصراً بكامله وعائلة بكاملها بقسوة لا مثيل لها، منهياً كلامه بإعلان «الجمهورية التونسية».

ها هو يصل إلى الذروة لصناعة أسطورته. لقد اعتلى أخيراً تلك العربة التي كان يصفق لها وهو طفل، بيد أن تلك العربة لم تعد تجرها ستة خيول، وإنما هي سيارة كاديلاك من النوع الأميركي. أما الرجل الذي بداخلها، فهو ليس ذلك البائس والمكبل بالسلطات الفرنسية وإنما هو رئيس لا يشاركه أحد في سلطاته. وفيما كانت كاديلاك بورقيبة متجهة نحو المجد والسلطة المطلقة، كانت سيارتا جيب تتجهان بالباي محمد الأمين وعائلته نحو المنفى واليتم، تاركا وراءه أكثر من قرنين ونصف من الحكم.

* * *

ولد الأمين باي[٧]، آخر ملوك العائلة الحسينية، أو الملك التاسع عشر في أيلول/سبتمبر ١٨٨١، أي في العام الذي انطلقت فيه الإيالة التونسية إلى نظام الحماية الفرنسي، وقبل سنة فقط من موت الباي الثاني عشر «الصادق باي» الذي وقع على معاهدة باردو والتي عرفت بمعاهدة الحماية.

في ذلك الوقت أصبحت العائلة الحسينية القادمة من ألبانيا والتي حكمت البلاد تحت العلم العثماني، تقريباً تونسية. وبعكس دايات الجزائر الذين عاشوا بدون اتصال حقيقي مع الشعب، استطاعت تونس وإلى نحو شبيه بمصر (مع عائلة محمد علي) أن تهضم تلك العائلة الحاكمة وتجعل منهم تونسيين شيئاً فشيئاً إلى حدّ جعلتهم يتمردون على الباب العالي بداية من القرن التاسع عشر.

جاء القرن السابع عشر إلى تونس وهو يجر وراءه المجاعات والهجرات الكبرى والصراعات الدينية، وبدا أن حكم المراديين في طريقه إلى التفكك بعد أن بات عاجزاً عن صيانة استقلاله وصد الهجمات التي تأتيه من السواحل الجزائرية أو السواحل الإسبانية. وحين وقع آخر ملوك المراديين (وهم فرع من الحفصيين نشأوا عن انشقاقات في الدولة الموحدية) في الأسر وهو يقود معركة لرد جيوش الدايات الجزائريين الغلاظ والمتمادين في القرصنة، كان لا بد أن ينتخب أحد القادة لوقف التقهقر. وقع اختيار الأعيان والعلماء والضباط الكبار على الضابط «حسين بن علي» الذي كان يعمل ككاهية (مساعد أو مدير مكتب) للملك الأسير «إبراهيم الشريف». ولما كان حسين بن علي يحظى باللياقة والقدرة والمعرفة إذ عمل مع إبراهيم الشريف لفترة طويلة مع مراد الثالث، فإنه لم يتردد أبداً في انتدابه لتلك المهمة. تمت البيعة لهذا القائد الجديد في صيف ١٧٠٥. وفي فترة قصيرة تمكن من السيطرة على الفوضى التي حلت بالبلاد. وأحكم تنظيم صفوفه فتمكن لاحقاً من طرد جيوش الدايات من الشمال، ومن ثم استمر على رأس القيادة لمدة ثلاثين سنة، فكان الجذر الأول لشجرة العائلة الحسينية التي حكمت باسمه لمدة قرنين ونصف.

أقام الحسينيون ابتداء من القرن الثامن عشر وبصورة رسمية الملكة الوراثية. وقد تم ذلك بعد أن نجحوا في مقاومة الغزو الجزائري وكذلك الغزو المسيحي القادم من سواحل إسبانيا. لم يكن في البداية حسين بن علي يريد تأسيس تلك الملكية الوراثية، خصوصاً أن ليس لديه أبناء ذكور ثم لأنه لا يريد أن يحرج الباب العالي. وحين ضمن لنفسه الأبناء الذكور، والقوة الداخلية والحماية الخارجية عن طريق عقده لاتفاقيات تجارية مع بريطانيا وفرنسا

والنمسا وهولندا، أصبح لا يكتفي بمبايعة الأغاوات والباشوات، وراح يدفع نحو تكوين مجلس خاص يشرع للملكية وراثية بداية من العام ١٧١٠.

باع القراصنة بنتاً من كورسيكا، فاشتراها الباي حسين بن علي لجمالها ثم تزوجها فأنجبت له ولداً ذكراً، فبدأ التفكير في تأسيس عائلة وراثية يتعاقب فيها على الحكم الابن الأكبر على عادة الشرق. ولم يكن ذلك أكثر من عرف استمر به العمل من جيل إلى جيل بمصادقة الباب العالي على البيعة متمثلة في فرمان سلطاني أو وسام أو رتبة عسكرية. وقد دام ذلك الأمر إلى أن اعتلى العرش محمد الصادق باي الذي سيجعل من وراثة الحكم بمثابة القانون منذ العام ١٨٦١. بعد ذلك سعى الصادق باي وتحت الخوف من الوقوع تحت سلطة دولة أجنبية أخرى إلى ربط ذلك القانون بفرمان سلطاني في مقابل تجديد الامتيازات العثمانية في البلاد التونسية.

احتمى الصادق باي بدار الخلافة، ولكنه ما لبث أن وقع في ما كان يحذره منه الباب العالي. ولم تمض ٢٠ سنة على الاستقلال الشكلي عن الأمبراطورية العثمانية، حتى وقع تحت حماية الأمبراطورية الفرنسية. إن الصادق باي الذي عانى الكثير قبل أن يحصل على الفرمان السلطاني بالاستقلالية، والذي كلف وزيره خير الدين باشا بضع سنوات من المفاوضات في الآستانة، هو نفسه الذي سيضطر إلى التوقيع على معاهدة باردو الاستعمارية بعد أن حاصرت البوارج الفرنسية السواحل التونسية في العام ١٨٨١.

لم تكن فرنسا لتعترف بذلك الفرمان السلطاني تحت حجة أنه سيحدّ من حرية الباي في الالتزام بالاتفاقيات التجارية والسياسية التي يعقدها مع دول أجنبية. أما الباب العالي فسوف لن يعترف بالحماية الفرنسية على تونس إلا في العام ١٩٢٠ بعد هزيمة الأمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى. وآنذاك كانت أنفاس تلك الأمبراطورية تتقطع تحت ضربات القوى العظمى الصاعدة، وهي تسير مترنحة نحو الزوال، أما بايات تونس الذين فقدوا كل هوامش الاستقلالية، فقد أصبحوا عبارة عن ديكورات لشرعية وقع اغتصابها منذ نحو أربعين سنة.

لقد كان الحكم بالنسبة إلى البيت الحسيني، وهم حاملون لثقافة الأتراك، صناعة، سعوا طويلاً إلى تنميتها بالأحقاد والدماء والدسائس لتدر عليهم أوفر الأرباح. وقبل أن يموت حسين بن علي المؤسس، دخل البيت الحسيني في صراع دموي بسبب تمرد ابن أخيه «علي باشا» الذي تمت مبايعته باياً على البلاد التي انقسمت لفترة بين حسينية وباشوية. وقد

استطاع «علي الباشا» أن يهزم عمّه في العام ١٧٣٥، حين استعان بالجزائريين، وآنذاك أمر بتمزيق جسد العم الشيخ إلى قطعتين لتدفن واحدة في القيروان وأخرى في تونس.

كان علي باشا مقرباً جداً من عمّه حسين بن علي وقد وعده بالخلافة، ولكن ما إن أنجبت الكورسيكية للباي حسين ابناً أعطاه من الأسماء محمد، حتى طار صوابه، ولكن علي باشا الذي سيحكم من العام ١٧٣٥ إلى العام ١٧٥٢، سوف يواجه ثورة قادها ضده ابنه يونس، الأمر الذي سيتيح لابني حسين بن علي (محمد وعلي) الفرصة لاسترجاع عرش والدهما. حكم محمد فترة قصيرة ثم مات، تاركاً ابناً يسمى محمود، وأعقبه أخوه علي، فرفع من مقام ابنه حمودة الذي يصغر ابن عمه محمود. ولأن الباي علي يخاف أن ينشب صراع بين حمودة ومحمود، في حالة موته، فقد عمل جاهداً على أن يسلم الحكم إلى ابنه حمودة بحضوره. وهكذا جلس ذلك الأمير الشاب والذي سيصبح من أعظم ملوك تونس والعرب في القرن الثامن عشر، في شباط/فبراير ١٧٧٧.

لم يفت هذا الملك الطموح جداً والذي كان ينبض بالذكاء والألمعية، أن العرش الذي تربع عليه، إنما هو من حقوق غيره، ولذلك راح يستعين بابن عمه محمود (الأحق بالعرش) ليغمره بالإحسان والألقاب، مما فتح له المجال للتفرغ إلى شؤون الحكم والصراع مع القوى الأجنبية.

لقد تمكن حمودة باشا من الصمود طويلاً في وجه أعداء البر والبحر. تجرأ على قطع العلاقات مع البندقية، كما فرض شروطه على إسبانيا التي التزمت عدم التعرض لسفنه، ووقف ضد هيمنة دايات الجزائر، ثم أرسل جيشاً إلى طرابلس لإرجاع الباش القرامنللي إلى عرشه، واستطاع أن يحلّ جيش الإنكشارية الذي تمرد عليه، أما فرنسا فقد اعترفت بقوته وفضلت أن تُنهي خصوماتها معه على بعض الجزر عن طريق المفاوضات. وبعد ذلك دخل في علاقة حميمية مع نابليون بونابرت، إذ تبادلا الإعجاب من بعيد دون أن يقتربا جيداً من بعضهما بعضاً.

مات حمودة باشا، نابليون الضفة الجنوبية للمتوسط في السنة نفسها التي انهزم فيها نابليون بونابرت، فدخل المتوسط في هدنة طويلة خلت من الصراعات الإقليمية. وقد حل محله ابنه عثمان، لكن هذا الأخير توفي بعد ثلاثة أشهر فقط، فقفل العرش عائداً إلى محمود، ابن محمد باي. وفي عهد محمود ستبدأ كل من فرنسا وبريطانيا رحلة تنافسهما على احتلال مواقع تجارية متقدمة على الساحل الجنوبي للمتوسط. تدخلت السفن الحربية الغربية لتحطيم تجارة القرصنة في كل من تونس والجزائر وطرابلس. وفي العام ١٨٣٠

رمت فرنسا بكل ثقلها لتحتل الجزائر في محاولة للحد من النفوذ البريطاني. غير أن لا الباي التونسي ولا السلطان الشريفي في المغرب، سيدركان بأن بلديهما سيسقطان الواحد تلو الآخر تحت الهيمنة الفرنسية، بعد سقوط الجزائر.

ومنذ حمودة باشا الذي غادر العرش في العام ١٨١٤، سوف لن يعرف العرش الحسيني إلا في العام ١٩٤٢، أي بعد قرن و٢٨ سنة باياً آخر تمكن من فرض احترامه على الجميع. ففي ١٩ حزيران/يونيو من العام ١٩٤٢، اعتلى المنصف باي العرش ممتنعاً عن مصافحة المقيم العام الفرنسي الذي حضر لتهنئته، تلك الإهانة سوف تكلفه بعد نحو سنة العزل ثم النفي.. لقد كان المنصف باي آخر ملوك تونس الذين ولدوا قبل عهد الحماية. وحين عُزل، صعد إلى العرش أول البايات الذين ولدوا في ظل الحماية الفرنسية. فالباي محمد الأمين الذي استمر في الحكم من ١٩٤٣ إلى ١٩٥٧، سيكون آخر بايات البيت الحسيني(٨).

* * *

منذ اللحظة الأولى حضر الأمين باي في كفن العائلة. فبعد عزل المنصف باي، كان ثمة من فكر في إلغاء العائلة المالكة. وإذ لم يستطع المقيم العام أن يقنع باريس بتلك الفكرة لأنها تتعارض وبنود اتفاقية الحماية، فقد حاول أن يدفع باتجاه انتخاب أمير من أحد الفروع الفقيرة للعائلة. ولما فشل في إقناع باريس بتلك الفكرة، عاد (الجنرال إستينا) إلى القبول بالأمين باي، لاستمرار «شرعية» الحماية الفرنسية.

عاش الأمين باي عدة سنوات مطعوناً في شرعيته لأنه قبل أن يتولى الحكم في حياة المنصف باي المنفيّ، كان أغلب أفراد العائلة المالكة ومعهم الحركة الوطنية قد نظروا إلى الأمين باي في البداية على أنه من «مخلوفات» السلطة الفرنسية. ولكن حين توفي المنصف باي في المنفى، أصبح الأمين في وضع شرعي وقوي، وبدا أنه أنقذ البيت الحسيني من الانهيار ولكن لمدة ١٥ سنة فقط.

ففي العام ١٩٤٨ وعقب موت المنصف باي، تحرر الباي من عدة قيود بعد أن حصل على الشرعية والبيعة. ثم تمكن من نسج علاقة منظورة مع الحركة الوطنية. ودخل في عدة امتحانات قوة وهو يواجه ضغوطات شديدة من الجانبين: الحركة الوطنية التي تطالبه بتبني برامجها، والسلطات الفرنسية التي تطالبه بالامتثال لمعاهدة الحماية. ولكن منذ العام ١٩٥٢ سينحاز الأمين باي كليّاً إلى الحركة الوطنية رغم اعتقال بعض وزرائه وإرسالهم إلى المنفى والتلويح له بالعزل عن طريق إغراء بعض أفراد العائلة المالكة، وإشعارهم بإمكانية

القفز إلى العرش. وفي تلك الأثناء ستنتشر شائعات مؤلمة حول محاولة اغتيال الأمين باي عن طريق دسّ السمّ في طعامه، بيد أن الباي الذي اكتفى بتأكيد تلك الشائعات دون أن يضع المسؤولية على أحد، سيزداد ارتباطاً بالخيار الوطني وهو يتلمس طريقه داخل قصر مليء بالدسائس والمؤامرات.

ومنذ تلك الحادثة ستشرف زوجة الباي بنفسها وبكل حزم على الطعام المعدّ للباي، إلى حدّ أنها كانت تحرص حتى في المآدب المفتوحة، على تذوق الطعام قبل زوجها. وهو ما أثار أعصاب بورقيبة في إحدى المرات حيث رآها تسرع إلى أكل الحساء قبل ضيوفها.

كان الباي رجلاً ورعاً ودافئاً في علاقاته، وهو على ثقافة متوسطة استطاع أن يطورها عن طريق اكتسابه للحسّ السليم. لم يكن مصارعاً على العرش في عهد المنصف، بل كان ملتزماً بالمواسم والأعراف. وبالرغم من أنه كان قادراً على تغيير قاعدة وراثة العرش لمصلحة ابنه الأكبر محمد الذي كان يحظى بتأييد كبير داخل الحركة الوطنية إلا أنه لم يفعل ذلك. وحين قتل عز الدين باي ولي عهده، بدا الأمين باي رجلاً متعففاً على المناورات الرخيصة ورفض أن يعين ابنه محمد في ولاية العهد، وأصر على إسناد الولاية لأخيه الصادق، لتأخذ مجراها نحو الأمير الأكبر سناً.

أظهر الأمين باي مهارة فائقة في نسج علاقات ناجحة مع جميع الأطراف الصاعدة الديناميكية. وحين زار ديغول زعيم المقاومة الفرنسية تونس، صرّح له قائلاً: «سيدي الجنرال، إنني سعيد بسماع صوتك في الواقع بعد أن سمعته لفترة طويلة في المذياع»[٩] (بي.بي.سي)، وسوف يرد الجنرال عن ذلك المديح الذي ينم عن معرفة بالمشهد السياسي الجديد في فرنسا بمنح «صليب اللوران» الذي سيضعه الأمين باي أثناء زيارته لباريس. وإذا كان الباي يتطلع نحو المستقبل، فقد سعى كذلك إلى ربط علاقة جيدة مع زعماء الحركة الوطنية لا سيما الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف اللذين كانا قد أصبحا نجمين سياسيين في البلاد. كان الأمين باي يعتقد أن بن يوسف سيجعله أكثر قبولاً داخل الحركة الوطنية. أما بورقيبة فقد نظر إليه على أنه محارب ضد عدد من الأعداء المشتركين. فهو محارب «من أجل القضاء على الجرثومة النازية في البلاد». تلك الجرثومة التي تمكنت من عقل المنصف باي، وهو بالتالي محارب من أجل إسدال ستار النسيان على المنصف، الباي المخلوع والمنفيّ الذي يؤرق محمد الأمين. وهو أخيراً محارب من أجل دعم الحوار والتعاون مع فرنسا الحرة [١٠]. وإذ حظي الباي بكثير من الاحترام لدى الحركة الوطنية، فإنه لم يحصل على لقب «رفيق تحرير» الذي حصل عليه سلطان المغرب. ورغم أنه واصل

تحالفه مع بورقيبة، الأمر الذي أدّى إلى اختياره رئيساً لوزرائه، إلا أن هذا الأخير، كان ناجحاً في إخفاء نوازعه الحقيقية تجاه من جعله أقرب الناس إليه حين ساعة الحسم.

* * *

ساعة الحسم، أو ساعة الصفر حددت في السادسة مساء من يوم ٢٥ تموز/يوليو ١٩٥٧. ففي الساعة الخامسة وخمس وخمسين دقيقة ختم بورقيبة خطابه معلناً عن ميلاد الجمهورية. وبعد خمس دقائق فقط، قبل بورقيبة بعد إجماع أعضاء المجلس التأسيسي بمهمة رئاسة الجمهورية. وفي تلك اللحظة بالضبط عرف الباي من خلال الراديو أنه أصبح رجلاً عادياً من عامة الشعب يدعى محمد الأمين بن حسين. وكان على الباي الذي اعتلى العرش بلا فرح كبير أن يرحل عنه بلا أي أسى. لم تطلق أية رصاصة، ذلك أن العرش الحسيني كان شبه ميت إلى حدّ أكثر فيه الصحافيون من الحديث عن ضرورة دفنه. وحين بلغت أخبار الفتك بملك العراق والوصي على العرش إلى أسماع الباي التونسي المخلوع بعد سنة في ١٤ تموز/يوليو ١٩٥٨، قال لزوجته، وهو رهن الاعتقال «أدام الله حياة بورقيبة، فلولاه لحدث لنا ما حدث لإخوتنا في العراق» كان بورقيبة قادراً على إرسال نصف دزينة من الأمراء إلى المشنقة كما سيعترف لاحقاً، لكنه إذ لم يفعل ذلك، فإنه بالغ في إهانة أفراد تلك العائلة بعد أن جرّدهم من جميع حقوقهم وأملاكهم، وضرب عليهم عزلة قاسية جعلت من بعضهم متسولين لمعيشتهم.

كان الحصار قد ضرب على القصور الملكية في باردو والمرسى وحمام الأنف. أما قصر قرطاج الذي كان يوجد بداخله الباي، فلم يشعر بالحصار، إلا حين وصلت إلى بابه الكبير في الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم بضع سيارات تابعة للشرطة والحرس الوطني. تقدم كل من إدريس قيقة مدير الأمن البالغ من العمر آنذاك ٣٣ سنة وإلى جانبه علي البلهوان نائب رئيس المجلس التأسيسي (٤٨ عاماً)، وهما المكلفان رسمياً بإبلاغ الباي قرار العزل، في حماية مفرزة من رجال الأمن، فوجدا جميع الأبواب مفتوحة أمامهما إلى حدّ جعلهما يشعران بأن كميناً في انتظارهما. كان قدوم هذين الرجلين مسبوقاً بخطاب العزل الذي ألقاه بورقيبة ومحاطاً بالهيبة والقوة. ولم يكن أمام الباي محمد الأمين إلا أن يستمع إلى «ضيفيه الشريرين»، وقد أدرك أن المجد أصبح وراءه. وإذ حافظ الأمين باي على برودة أعصاب الملوك حين يواجهون المحن، فهو لم يقم من مجلسه، وبدا له أنه إذا ما فقد العرش فعليه ألا يفقد الشجاعة والوقار. كان نحيفاً بعكس المنصف باي ودائم الاعتناء بمظهره رغم بلوغه السادسة والسبعين. ولما كان عليه أن يستقبل الذين جاءوه لعزله، فقد حرص

على ارتداء كسوة الماريشالية ثم علّق جميع نياشينه وأوسمته على صدره فبدا رجلاً مهيباً شبيهاً بسلاطين الباب العالي. لم يعط انطباع المهزوم أو المخذول للذين حضروا وبأيديهم قرار عزله. وقد راكم من أجل مواجهة تلك اللحظة كميات ضخمة من الصبر والهدوء والحكمة. كان الباي الأمين يتقن فن الكلام، وحتى لو صدقنا جانباً من الأقاويل الرخيصة التي تشكك في قدرته على التركيز والحوار، فإن شهادة إدريس قيقة بعد ثلاثين سنة عن تلك الحادثة تعترف لهذا الباي بكثير من المميزات. «فهو شجاع ومتمرس وذكي وعلى درجة كبيرة من التهذيب والترفع»(١١).

قرأ الباي بنفسه قرار العزل الذي تناوله من يد «علي البلهوان» بتهذيب شديد. وبعد حين قام من مقعده ليقول لمدير الأمن إدريس قيقة: «بإمكانكم أن تطمئنوا، إنني مستعد للرحيل ولكنني غير مستعد للتوقيع على قرار التنازل. تعرفون جيداً أنني غير قادر على إنهاء عرش لست فيه إلا خادماً سيلقى وجه ربه قريباً»(١٢). وبعد صمت قصير، أضاف الباي يقول بإصرار: «أنا الباي الثاني الذي يعزل عن العرش في أقل من ١٥ سنة. ولا شكّ أنكم تعرفون جيداً أن سيدي المنصف باي خرج من القصر دون أن يوقع على تنازله. ولكنه فعل ذلك حين أصبح في المنفى»(١٣).

دار حديث قصير على نحو خافت بين إدريس قيقة وعلي البلهوان، ثم طلب علي البلهوان من الباي أن يكتفي بقراءة قرار العزل بصوته على مبعوثي الإذاعة الذين حضروا مع مفرزة الأمن، لكن الباي امتنع عن ذلك طالباً منهما: «إبعاد الصحافيين والمصورين لأنه لن يفعل ذلك». ولما كانت مهمة مبعوثي المجلس التأسيسي تتلخص في أن يقولا للباي: «إن أمره انتهى ولم يبق له إلا الاهتمام بشؤونه الخاصة»، ثم يتجها إلى إخراج أفراد العائلة من القصر، فقد طلب إدريس قيقة من الباي: «أن يستعد للخروج»، وهو يقول له: «لقد تم إعداد إقامة خاصة لك وبمستوى مقامك مؤمنة بالحماية وبجميع احتياجاتك».

انتقل الأمين باي في تلك الليلة إلى إقامة جديدة في «منوبة»، لكنها إقامة بائسة جداً. لم يحمل الباي معه أي شيء. وقد اضطر أن ينزع كسوة الماريشالية ويرتدي جبة قمراي، سوف لن ينزعها عن جسمه النحيل إلا بعد نحو سنة. فمنذ أن وصل إلى ضاحية منوبة، حيث يوجد أكبر مستشفى للمجانين (مرستان)، دخل الباي وعائلته في النسيان. قال بورقيبة فيما بعد «إنه لم يلتجئ إلى الانتقام»، ولكنه فعل مع عائلة الباي أكثر من الانتقام. لم ينس أبداً أن جده قد عذب في سجون الصادق باي وأن والده علي خدم في عسكر الباي ١٩ عاماً وحمل البردعة على ظهره كالحمير. فتمادى في تقطيع أوصال تلك العائلة

في كل مناسبة. اتهمهم بالخيانة والدناءة والفجور والتسلط ثم وزع الأمراء على عدة بيوت، ولوح لبعضهم بإمكانية تصفيتهم ثم فرض عليهم عدم الاتصال بأي أحد في الخارج أو في الداخل. وبعد شهر من عزل الباي، أصدر بورقيبة قراراً تم بموجبه نزع كل أملاك العائلة المالكة الثابتة والمنقولة. ثم أعقبه بقرار آخر عرف بقرار «الخيانة الوطنية» وهو الذي يسمح بتقديم كل شخص تثبت إدانته بالتعاون مع نظام الحماية إلى محكمة أمن الدولة. وهذا القرار الغامض سيشلّ به بورقيبة كل احتجاج قد تبديه العائلة المالكة أو العائلات الأرستقراطية. وقد دفع العديد من الأعيان والعائلات ثمناً باهظاً.

ألغى بورقيبة أرستقراطية البلاد بعدة قرارات. وقد وصل إلى هدفه الذي أطال السير نحوه منذ الثلاثينيات حين كان ينظر إليه على «أنه رجل آفاقي قادم من بلدة صغيرة في العاصمة يتحذلق في أوساط طبقة يتهامس أبناؤها حول تخلفه ونهمه وانطوائيته وخجله»، وما إن أطاح أرستقراطية العاصمة حتى التفت إلى البورجوازية الصاعدة ليمدّ إليها يده في تحالف مثير عملت «وسيلة بن عمار»، زوجته الثانية على ترسيخه.

لم ينتقم بورقيبة فقط لثقافته وجذوره وطموحه، وهو يقوم بعزل الباي، وإنما انتقمت كذلك وسيلة بن عمار التي كانت مكروهة في أوساط القصر الملكي ومتهمة بالزندقة والتعاون مع الاستعمار وخيانة زوجها أمام عيون الجميع. فهي لم تنس أبداً أن الباي كثيراً ما حذر بورقيبة من معاشرة هذه المرأة، قائلاً له: «إن زعيماً مثلك عليه أن يبعد عنه جميع الشبهات». كما لم تنس أبداً أن الباي اشترط على بورقيبة أن يعده بقطع الصلة مع هذه المرأة المشبوهة قبل أن يعطي الموافقة على استقباله حين عودته من المنفى. وإذ خبأت «وسيلة بن عمار» كل تلك الإهانات في صندوق أسرارها العجيب، فقد سحبته لتفرغه من تلك الإهانات وتملأه بعدة كيلوات من الذهب والألماس والعقيق والأحجار الكريمة. ولأن الذهب وحده الذي يمحو الإهانات من قلوب النساء، فإن قلب «وسيلة بن عمار» قد استراح داخل جسمها، ليستريح بعد حين جسمها البض على عرش الباي الذي عاش وسط الحريم دون أن يتعلم شيئاً من ثقافة الحريم.

تخلص الآن بورقيبة من العاهل الحسيني وكذلك من العائلات الأرستقراطية التي تبادله الحذر وترى فيه الشؤم بعينه، فقطع تونس عن ماضيها على نحو مشهدي، ثم راح يقضم رجالاً صنعهم بيديه وآخرين شاركوا في صناعة أسطورته. أما وسيلة التي لم تتزوج بعد، فقد أصبحت سيدة البلاد الأولى بلا منازع. وضعت أصدقاء العائلة تحت الأضواء، أما أعداؤها فقد وضعتهم في الظلام والعزلة. وفي ما يتعلق بثروة العائلة المالكة فقد وضعتها

في الخزينة العامة تحت اسمها الشخصي. فمنذ أن أمر بورقيبة كتابياً بعرض «تلك المجوهرات» على الاختبار، ضاعت الطريق المؤدية إلى تلك المجوهرات التي ستظهر إلى العلن بعد أن أصبحت وسيلة الزوجة الرسمية للرئيس. وفي ما يتعلق بالأموال والأملاك، فإن السكرتير الخاص لبورقيبة «علالة العويتي»[١٤] سيتكفل بإدارتها بأمر من بورقيبة. وبعد بضع سنوات، سينسى الناس كل تلك الثروة وهم يعتقدون أن مجرد السؤال عنها يعتبر جريمة. باختصار، لم يجرؤ أحد على فتح ذلك الملف حتى الآن، كما لم يجرؤ أي مسؤول على الكشف عن المنتفعين بتلك الثروة. لقد ساد قانون الصمت. ومن كانت يده قصيرة قال للناس: «إن يده نظيفة»!.

* * *

كثيرون يعتقدون أن بورقيبة لم يكن يبحث عن المال، ولكن بورقيبة الباحث عن الزعامة والسلطة كان يعرف جيداً ومبكراً أنه بدون المال يصبح المرء مجرد هاو سياسي. وكما قال الدكتور الماطري منذ الثلاثينيات «إن بورقيبة استطاع أن يسيطر على رفاقه ويتولى قيادة الحزب لأنه الوحيد الذي كان يملك «المال والسيارة» في ذلك العهد». لم يكن ربما جمّاعاً جيداً للمال وإنما كان يعرف كيف يجعله في خدمة أفكاره وعواطفه. ففي كل مرة كان يتعرض لمأزق ما، كان يجد في المال الوسيلة الوحيدة لخروجه من ذلك المأزق. اكتسب ودّ مجموعات كثيرة من شباب الحزب لأنه عرف كيف يغدق عليهم المال، وامتلك قلب «وسيلة» لأنه كان يملك الوسيلة السحرية التي تجعل قلبها يخفق له. وأصبح يتكلم عن الكفاح المسلح منذ أن حصل على «ثروة» صغيرة من الملك عبد العزيز في العام ١٩٥١. كاد أن يطرد من الحزب لأنه اتهم بتبذير المال. واختلف مع رفاقه الأوائل لأول مرة لأن خزينة مال الحزب لم تسند له. واكتسب ودّ الصحافيين لأنه كان كريماً معهم. باختصار، إذا كان بورقيبة يلهث وراء المال لشراء الزعامة، فإن ذلك لا يعني البتة أنه لم يكن يحب المال من أجل ملذاته. ولكن أين هي أموال وثروات بورقيبة؟ وإلى أين انتهت حسابات حزب الدستور الخارجية؟ ومن تولى سحب تلك الأرصدة التي كانت موجودة في جنيف وبلجيكا والقاهرة وبيروت؟ وكم من الأرصدة كانت مسجلة باسم بورقيبة الشخصي؟ وأين ذهبت جميع المساعدات التي تلقاها بورقيبة قبل أن يصبح رئيساً للبلاد، بل كم يبلغ حجم تلك المبالغ التي تلقاها باسم الكفاح الوطني من الرياض وكراتشي وبغداد؟ ويضاف إلى ذلك أسئلة أخرى: هل بالإمكان الفصل بين ثروات الابن الحبيب والأب بورقيبة؟ وهل بالإمكان كذلك الفصل بين ما تملكه السيدة ماتيلد الزوجة الأولى، أو الفصل بين ما تملكه الزوجة الثانية وسيلة بن عمار وما يملكه بورقيبة؟. وهل ثمة ضبط لهذه الملكيات المختلطة

التي نجدها تحت أسماء أخرى قريبة من بورقيبة وزوجته؟ ولماذا لم يقع أي جرد لهذه الملكيات حتى الآن؟ وكيف يمكن استرجاع بعض الملكيات العائدة إلى الدولة؟

من المؤكد أن بورقيبة لم يكن مناصراً للفساد، ولكنه كان يدرك أن «الفساد» هو نوع من تشحيم دولاب الدولة والسلطة. وإذ يعترف بعض من عملوا معه في سنواته الأخيرة أنه لم يعد يعطي أية قيمة للأرقام مما يفيد أنه فقد الإحساس بالعالم الخارجي، فإن البعض الآخر يؤكد أنه لم يكن أبداً شديداً مع الذين يرتكبون سرقة الخزينة العامة أو الذين يتلقون رشاوي من الشركات الأجنبية. بل كان يعتقد أن الزعيم أو الرئيس هو في صورة من الصور تاجر ماهر عليه أن يعرف كيف يحافظ على زبائنه. ولا يشك أحد أن بورقيبة ترك حسابات بنكية باسمه أو حتى ضيعاً أو عقارات، إذ خرج من القصر تقريباً كما دخل، بيد أن لا أحد يشكّ كذلك في أن كل شيء كان تحت قبضة الزوجة وسيلة وعائلتها وبعض أقاربها وابنة أخته سعيدة ساسي.

إن كثيراً من أفراد العائلة المالكة، قد يغفرون كل شيء لبورقيبة، ولكن يصعب عليهم أن يغفروا لـ«وسيلة» التي ضغطت عليهم حتى أخرجت أمعاءهم على الطريق. «فإذا كان يوجد في كل امرأة شيء من روح الشيطان» كما يقال، فإن وسيلة تجسد الشيطان بكامله بالنسبة إلى أيتام العائلة الحسينية. فهي استحوذت على أملاكهم وشردتهم في بيوت صغيرة، وضربت عليهم عزلة شديدة فمنعت حتى أبناءهم الزواج أحياناً من بعض أبناء البورجوازية إلى حدّ قيل فيه إن عائلة بن عمار هي التي حلت محل عائلة الحسينيين. حتى قيل كذلك إن خلع الباي كان هو المهر الذي قدمه بورقيبة لوسيلة بن عمار.

كان عمر بورقيبة آنذاك ٥٦ عاماً. كان قد اقترب من الشيخوخة ولكن نهمه للسلطة جعله يبدو في حيوية أبناء الأربعين. أما عمر الباي المخلوع فقد كان حوالى ٧٦ سنة، أي في العمر نفسه الذي توفي فيه والد بورقيبة عام ١٩٢٦. لقد تجاوز بورقيبة فجأة سنوات المراهقة حين توفي والده ونهض كرجل دفعة واحدة وبلا مقدمات، خصوصاً أن وفاة الوالد قد رافقها ميلاد الحبيب الابن (١٩٢٦). أما حين خلع الباي فقد بدا بورقيبة وكأنه عاد إلى سنوات الشباب إذ لم يعد هناك من ينافسه أو يشاركه في أي قرار. فبمجرد أن تم عزل الباي، قام بورقيبة آخر سيمزج بين ليبرالية العمل واستبدادية التفكير، حاضناً ماضيه بكثير من الخوف ومتطلعاً نحو المستقبل بكثير من اللهفة، فبدا وكأنه رجل وحيد يسير نحو العزلة منذ اليوم الأول لصعوده إلى المركز الأول.

لقد انتهت الآن مسيرة القائد الحزبي التي بدأت مع مؤتمر قصر هلال (١٩٣٤) كما

انتهت مسيرة الزعيم السياسي التي بدأت مع منفاه الأول، لتبدأ مسيرة رجل الدولة المستبدّ الذي يحالفه الصواب أحياناً ويخونه المنطق أحياناً أخرى دون أن يتخلى عنه الحظ ولا مرة واحدة، «ذلك الحظ الذي بدونه لا نفعل الكثير كما قال بنفسه في العام ١٩٧٣»(١٥).

هكذا، ظهر بورقيبة جديد بعد إعلان الجمهورية. لقد تخلى عن جميع المناورات وأصبح يذهب نحو هدفه مباشرة بلا لفّ ولا دوران، وإذ أدرك أن السلطة لا يمكن تقاسمها مع أي أحد آخر حتى ولو كان من الكروموزوم نفسه، فقد سمعه المصمودي مرة يقول، «كنا نصنع التاريخ. الآن علينا أن ندخل التاريخ»(١٦). ويسأله المصمودي وهو يداعب رشاقة لفظه وقدرته على صياغة أفكاره الكبيرة في جمل قصيرة: «من هؤلاء الذين سيدخلون التاريخ؟». فلا يجيب بورقيبة، ولكنه ينتقل مباشرة إلى المرآة ليكمل حلاقة ذقنه وهو يدندن قائلاً ومنادياً على أمه: «يا فطومة يا فطومة، إيجي شوفي. إبنك عزل الباي، إبنك صار باي»(١٧).

ومنذ أن أصبح بورقيبة «باياً جمهورياً»، عمل على إبعاد كل الذين شاركوه في سنوات النضال. وفيما عدا احتفاظه بـ«الباهي الأدغم» الذي سيساعده جيداً على قتل رأس الحية، بن يوسف، على رأس الوزارة، وكذلك «علالة العويتي» كمدير خاص لمكتبه وهو الرجل الذي ظن البعض أنه امرأة وليس رجلاً من فرط ملازمته لبورقيبة خصوصاً أن اسمه ينتهي بالتاء المربوطة، فإن جميع أصدقائه ورفاقه اختفوا الواحد تلو الآخر وكأن ساحراً قد نفخ عليهم. بعضهم كان قد مات، البعض الآخر فضل الانسحاب بصمت، البعض الثالث انضم إلى حركة اليوسفيين والآخرون ابتعدوا تماماً نحو الصمت. فحين أصبح رئيساً جلب شبابا آخرين إلى العمل الحكومي كانوا قد استكانوا لقبضته، وآخرين كانوا قد خرجوا من العجين الذي صاغه. وفيما بدا الجميع وكأنهم أوانٍ من الفخار، فإن بورقيبة الوحيد هو الذي صاغ نفسه من حجارة الصوان.

كان يريد أن يصنع بلاداً كاملة على مزاجه وحسب ثقافته وأفكاره، ولكن قبل أن يصل إلى استخراج ذلك المعجون الخاص، كان عليه أن يصنع الرجال الذين سيتحركون مرة كنماذج للعرض، وأخرى كدمى متحركة. كان فعلاً قد أصبح يملك الوقت والوسائل والإدارة لكي ينتقم من رجال شاركوا في صناعته ومن آخرين شارك هو في صناعتهم. فمنذ أن أصبح رئيساً للجمهورية، سيصبح بإمكان أي مؤرخ أن يقسم تاريخ بورقيبة إلى مرحلتين، الأولى تنتهي في العام ١٩٥٧ وهي مرحلة صناعة الأسطورة. أما الثانية، التي ستنتهي في العام ١٩٨٧، فهي مرحلة تحطيم تلك الأسطورة.

كان لا يزال أمام بورقيبة طريق طويلة ومفتوحة على جميع الاحتمالات لبلوغ أهدافه، بيد أنه كان عليه أن يسحب من رصيده ويتقدم. فالحيوان السياسي مثل أي حيوان آخر، كلاهما مضطر إلى تخزين جزء كبير من رصيده الاحتياطي ليسعفه أيام الشدة والقحط والمواسم السيئة.

والآن، سنعرف ما إذا كانت المواسم السيئة أقل أو أكثر من الحكومات السيئة في عهد ذلك الرجل الذي سيتأخر موعد اختفائه طويلاً.

الهوامش:

(١) شهادة محمد المصمودي، وزير الخارجية السابق، وكان آنذاك وزيراً للإعلام. **أحاديث مع المؤلف** ـ باريس عام ١٩٩٠.

(٢) الحملة الصحافية قادتها جريدة «**العمل**» الناطقة باسم حزب الدستور وقد أعطى إشارة انطلاقتها بورقيبة نفسه، ثم تراجع عن ذلك بعد تدخلات من محمد الخامس ملك المغرب.

(٣)و(٤) **حياتي، آرائي، كفاحي**، محاضرات ألقاها الرئيس بورقيبة أمام طلبة معهد الصحافة وعلوم الأخبار عام ١٩٧٣.

(٥) ورد ذلك في أكثر من مصدر. ورواه الباهي الأدغم الوزير الأول السابق ومحمد المصمودي وإدريس قيقة وزير الخارجية السابق للمؤلف.

(٦) كثيرون نصحوا الباي بعزل بورقيبة لأنه يعدّ لانقلاب على طريقة ما حدث في مصر عام ١٩٥٢. ومن بين أولئك ابنه الشاذلي وابنه محمد، وولي العهد المغربي آنذاك مولاي الحسن. وبعض رجال الدين.

(٧) كتاب: **الوراثة على العرش الحسيني ـ ومدى احترام نظامها**، محمد الصالح مزالي، الدار التونسية للنشر.

(٨) سعيد المستيري، **المنصف باي ـ الحكم والمنفى**، دار الأقواس للنشر، تونس.

(٩) سعيد المستيري، **المنصف باي ـ الحكم والمنفى**، دار الأقواس للنشر، تونس.

(١٠) المصدر نفسه ص ٢٠١.

(١١) شهادة إدريس قيقة، وزير الداخلية في عهد بورقيبة. وقد كلّف، حين كان لايزال مديرا للأمن بالذهاب إلى الباي وتبليغه قرار العزل، **حديث مع المؤلف**، باريس، ١٩٨٧.

(١٢)و(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) لم يكشف النقاب حتى الآن عن مصير أملاك العائلة المالكة. وكان بورقيبة يمنع كل حديث عن تلك الأملاك. وقد شاع أن الرئيس بن علي قد يفتح ذلك الملف، لكنه لم يفعل ذلك من جهة العائلة المالكة أو ورثتهم فهم مازالوا يتحينون الفرصة لفتح ذلك الملف، غير أن معظم الشهود الذين قد يفيدون بشهاداتهم قد توفاهم الأجل الواحد بعد الآخر. ويمكن التأكيد أن أهم الأسرار قد ذهبت مع «علالة العويتي» و«وسيلة بورقيبة» إلى القبر.

(١٥) **حياتي، آرائي، كفاحي** ـ مجموعة محاضرات ألقاها الرئيس بورقيبة في معهد الصحافة عام ١٩٧٣.

(١٦) من شهادة المصمودي ـ **أحاديث مباشرة مع المؤلف**، باريس ـ ١٩٩٠.

السباحة في أكثر من حوض دموي

«من ينازع وحوشاً عليه أن ينتبه جيّدًا ألاّ يتحول إلى وحش. فحين تطيل النظر إلى الهاوية، تنظر الهاوية أيضاً إليك وتنفذ فيك».

«فريديريك نيتشه»

ما وراء الخير والشرّ

إذا كنت متأكداً من شلّ ردود فعل خصمك قبل وقوعها، فإن سياستك ناجحة. وإذا كنت قادراً على امتصاصها بعد حدوثها، فإن سياستك نصف ناجحة. أما إذا لم تكن قادراً لا على شلّها ولا على امتصاصها فإن نتائج سياستك وخيمة وخائبة. هنا سيتجدد امتحان بورقيبة بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية.

إن لقب رئيس جمهورية لا يعني شيئاً بالنسبة إلى بورقيبة. إنه يفضل عليه رئيس الدولة. وحتى هذه التسمية لم تكن لترضي غروره في أحيان كثيرة. إذ لم يتردد في القول بعد فترة وجيزة من إعلان الجمهورية، على منوال لويس الرابع عشر: «أنا الدولة والدولة أنا». وباختصار فإن بورقيبة المولع بالقوة والمتماهي مع النظام قد أصبح يملك دولة بجميع أجهزتها التشريعية والتنفيذية والسياسية، حتى وإن لم تنجز بعد تحرير كامل فضائها الجغرافي لتمارس فوقه سيادتها الكاملة وسلطتها المطلقة. أما ذلك الغبار من الأفراد على حدّ تعبيره، فقد حان الوقت لكي يجعل منه «أمّة» لتلك الدولة. ففجأة أصبح الشعب الذي يقوده منذ عقود إلى الحرية غير موجود إلا كمساحة من الغبار، لتصبح الدولة التي يمكلها بورقيبة هي المعادل الموضوعي الوحيد للبلاد!.

لم يعترف بورقيبة قط بأن هناك بعض الحريات سابقة للدولة، وقد كتب منذ الثلاثينيات يقول: «يجب منع هذه الحريات إذا ما أضرت أو تسبّبت في تمزق الدولة»[1]. وحين أصبح رئيساً لهذه الدولة سارع إلى شرح ذلك «بأنه لا يجب أن يقدم أي حق من الحقوق المتفق

على تسميتها بحقوق الفرد الطبيعية إذا تعلق الأمر بكيان الدولة»[٢]. وهكذا فإن بورقيبة قد كلف منذ البداية الدولة بمهمات خلفية هي الكشف عن النوايا السيئة، وإيجاد شعب غير موجود ثم تربيته على العيش الجماعي، وعقاب الذين يعتقدون في الاختلاف، وإسداء النصائح ومراقبة السلوك والتمييز بين الأولويات واختيار الظلم على الفوضى.

ولم يكن بورقيبة في حاجة إلى النصوص. فقد كانت شهرته الواسعة وشخصيته الاستبدادية وأجهزته الخاصة تكفي لفرض إرادة الدولة التي هي في آخر المطاف إرادته الشخصية. ولأنه كان على اعتقاد شبه راسخ أن كل ما أنجز حتى تلك اللحظة كان نتيجة جهاده الخاص، فقد واصل الاعتقاد بأن «إنجاز الدولة» التونسية هو مهمته الخلاصية الخاصة، وإذ نظر إلى كفاح الماضي على أنه «الجهاد الأصغر»، فقد رأى أن استخراج الدولة من هذا الطين والغبار، هو «الجهاد الأكبر» بعينه.

كان قد بدأ في اقتلاع أعمدة التركيبة التقليدية التي تحركت ضده بالالتفاف على مكاسب عصر بكامله. وقد رأى بورقيبة أن إمكانية زرع أي نموذج تنموي حديث في تلك التربة المخضبة بالنزاعات القديمة والعقليات العتيقة، هي نوع من العبث ما لم يقلب تلك التربة الراكدة ويغذيها بالأسمدة والمقويات. لقد بدا له ذلك الشعب الذي استند إليه طويلًا في الأخير وكأنه تراكم من القشّ، وهو يستدعي جهوداً كبيرة للفرز والمعالجة كما يستدعي شجاعة كبيرة للتخلص من تقاليده المريضة ومعتقداته البالية. ولأن بورقيبة لم يكن يملك غير جهاز الدولة لإنجاز تلك المهمة، فقد وضع كل شيء على عاتق الدولة بعد أن أعطاه كل الإمكانات. وهكذا بدأت القرارات تصدر بسرعة: بعضها لإعادة التنظيم، وأخرى لإلغاء قرارات قديمة، وثالثة لتحطيم القوى المضادة، ورابعة لتذويب جيوب المقاومة. كانت القرارات أسرع بكثير من حركة المجتمع، بل كانت أسرع من حركة رجال الدولة الذين اختارهم بورقيبة للعمل إلى جانبه. وإذ شملت جميع قطاعات الحياة وهي تسعى لوضع أسس نظام جديد، فإنها أغرقت الجميع في فوضى معاكسة قلبت كل شيء رأساً على عقب.

بلا شكّ، فإن بورقيبة الذي حارب الاستعمار الغربي لم يكن أبداً معادياً للمعتقدات والأفكار الغربية. فالعقلانية والحداثة والتقدم كلها مفاهيم اخترقت شخصية بورقيبة وباتت راسخة لديه كمنهج لصناعة مجتمع حديث. وفي تفسيره للظاهرة اليوسفية، فإن بورقيبة يستحضر الصراع بينه وبين بن يوسف وكأنه صراع بين الفكر الحديث والفكر التقليدي أو بين مجتمع حديث ولد وانتصر مع الجمهورية وبين مجتمع تقليدي ومغلق لا يزال يصر

على العنف كاستراتيجية للتحرر الوطني. ولأنه كان على اعتقاد راسخ بأن الحضن الدافئ لليوسفيين، هو ذلك المجتمع القديم والتقليدي، فقد أخذ على عاتقه تهديم ذلك الحضن الدافئ. وفيما كان في السابق يحارب أعداءه السياسيين والاحتياطيين بآلة الحزب، فها هو الآن يحاربهم بآلة الدولة القوية والشرعية. إن الدولة في نظر بورقيبة ليست حيادية ولا يجب أن تكون كذلك، بل هي آلة صراع حادة وفتاكة لتحطيم الأعداء وخلخلة مواقعهم الآمنة والتقليدية داخل المجتمع. وبالتالي فهي آلة لتحطيم مجتمع قديم وبناء مجتمع جديد. ومنذ البداية، أي منذ أن كان بورقيبة رئيساً للوزراء عمد في حزيران/يونيو ١٩٥٦، بعد الاستقلال بثلاثة أشهر فقط، إلى إلغاء مهمات «القياد» والمراقبين المدنيين، واستبدالهم بمحافظين أو ولاة تابعين مباشرة للجهاز التنفيذي لوزارة الداخلية. بعد ذلك بقليل، اختفى من جمهورية بورقيبة ما يقارب ٧٥٠ شيخاً (عمدة) فيما ظهرت تشكيلة جديدة من البلديات (حوالى ١٠٠ بلدية).

كان بورقيبة مسحوراً بالغرب وبمعتقداته، وإلى جانب ذلك فقد كان مأخوذاً بتراث اليعاقبة وتجربة كمال أتاتورك إذ رأى فيه زعيماً وطنياً كبيراً ومصلحاً ليبرالياً تجاوز الأفكار الإصلاحية التي قامت على الدين في عموم الشرق الإسلامي. وثمة إغراء آخر سيطر على بورقيبة سيطرة كاملة هو إغراء التجريبية منذ اطلاعه على كتابات برغسون. وفي كل ذلك كان العقل هو نقطة الانطلاق لدى بورقيبة. أو هكذا يدّعي من يسقط صريعاً حين يلامس أحد طربوشه الخاص! فهو ما انفك يردّد «بوجوب النظر إلى الحدث في جملته وتحليل كل جزء من أجزائه وتبويب تلك الأجزاء حسب واقعيتها وأهميتها ثم تكوين وحدة تأليفية سابقة لقواعد المنطق. وبعد أن نضع كل ذلك في محيطه الملائم له، يتشبع الفكر بالواقع المحسوس ويتمثل معطياته وينظمها ثم يلقي بحكمه بطريقة تمكنه من خلق الواقع الأفضل كما يراه»[٣]. هكذا، مسحوراً بالغرب ومأخوذاً بتجربة أتاتورك ومدفوعاً بروح الهيمنة ومتسلحاً بالعقل ومثقلاً بمهمات ثقيلة وخلاصية، سار بورقيبة بسرعة نحو تثوير التشريعات. ولأنه على وعي كبير بقوة أعدائه وقدرتهم على إحباط مشاريعه، فقد اختار لتلك المهمة أحد أبناء البورجوازية القديمة، وهو شاب لعب دوراً كبيراً في تنويم الباي قبل خلعه. إن «أحمد المستيري» الذي ينتمي إلى بورجوازية العاصمة والذي سيكون المشرف على تحرير مدوّنة القوانين الجديدة باعتباره وزيراً للعدل، سيلعب دوراً كبيراً كذلك في ربط الصلة بين أبناء الساحل المنتصرين في معركتهم السياسية وأبناء البورجوازية الكبيرة للعاصمة، الذين راحوا يستعدون للاندماج في مشروع بناء دولة الاستقلال الحديثة.

بعد إلغاء ما يسمى بالأوقاف في أيار/مايو ١٩٥٦، تحرر ما يقارب ربع الأراضي التونسية من التجميد والتهميش. فكانت تونس أول بلد عربي إسلامي يلغي العمل بقانون الأوقاف. وحين صدرت مجلة الأحوال الشخصية في تموز/يوليو ١٩٥٩، التي نصت على إلغاء تعدد الزوجات، كان بورقيبة أول حاكم عربي إسلامي يتجرأ على «تحطيم» عرف معمول به منذ ١٤ قرناً، ليحطم بذلك سلطة «الرجل الشرقي» الذي يناصبه العداء منذ الصغر. أوَ لم يتحرر من عقدة الخصي إلاّ عندما أصبح أباًا. أوَ لم يكن بورقيبة في صباه معاشراً للنساء أكثر من الصبيان؟! إلى حدّ كان يمكن القول إذا تغافلنا عن كيميائه النفسية، إن بورقيبة إنما يسير على طريق كمال أتاتورك. ولكن لما تجرأ بورقيبة على مهاجمة الصوم أثبت أنه لا يريد أن يكون شبيهاً بأحد. فقبل ثلاثة أسابيع من شهر رمضان لعام ١٩٦٠، تحدث بورقيبة أمام كوادر حزب الدستور عن حق تأويل النص القرآني، وقد روى كيف أن الرسول قد اضطر إلى الأكل خلال رمضان حين كان عليه أن يحارب الأعداء. ثم قال بصريح العبارة: «أنا أيضاً أقول لكم ألا تضعوا الصوم فوق اعتبار محاربة العدو الذي هو الفقر والبؤس والانحطاط والتخلف. إني أحذر من إهمال الواجبات. وإن التوقيت الإداري والمدرسي المعمول به سوف لن يتغير خلال شهر رمضان. إنني لا أفعل شيئاً غير تأويل القرآن وأعلن أن ذلك هو رأيي الشخصي، وإذا أنتم غير مقتنعين، فأنتم أحرار»(٤).

لم يكن بورقيبة يتصور أن الغضب سيبلغ مداه بعد أن مدّ يديه إلى مقدسات الإسلام وأركانه الأساسية. امتلأت المساجد في عموم الجمهورية بالمحتجين على «دعوات الكفر»، وانتظمت مظاهرات عنيفة في كل من القيروان وقفصة وتونس العاصمة فسقط العديد من الضحايا. وإذ تراجع بورقيبة قائلاً بعد صمت قصير: «إنه لم يدع أحداً إلى الكفر ولم يرغم أحداً على نكران رمضان، فإن خصمه صالح بن يوسف قد انهال عليه انطلاقاً من «صوت العرب» بالقاهرة بجميع الأوصاف القبيحة كما لو أنه ضبط سارقاً في بيته. أما التونسيون، أولئك الذين كان بورقيبة يدفعهم نحو التحرر من الماضي والعادات البالية، فقد راحوا يسخرون منه قائلين في سرّهم: «لم يعد أمام بورقيبة ما يفعله غير تغيير القرآن. وقريباً سنشاهده يقوم بحملة لتهديم الصوامع» أو «إن هذا الرجل الذي يحرّم ما أباحه الله ويبيح ما حرمه الله، قد يرغمنا قريباً على حمل الصليب».

إن بورقيبة كثيراً ما يخلط بين الواقع العنيد وبين أفكاره الجانحة، وهو كثيراً ما يخلط بين حدود شعبيته ونزعته الشعبوية. وقد بلغ به الأمر إلى أن أصبح يتصور أن بإمكان كلماته

أن تتحول إلى قوة دافعة أو صانعة. ولأنه غالباً ما يضع إرادته فوق إرادة الجميع، فقد تحول إلى ديماغوجي من طراز رفيع مكرر على نحو سريع. إن الكلمات هي التي غالباً ما تأخذ مكان الإنجازات والأفعال. كما أن الرغبة كثيراً ما تحتل مكان قوة الفعل أو القدرة على الفعل. وكمثال على ذلك، فإن إعادة تنظيم الزراعة وتطوير الإنتاج يمكن أن ينجزا ـ حسب اعتقاده ـ إذا تم بعث اتحاد للفلاحين أو هيئة اجتماعية للعمال المزارعين، أو أن خروج تونس من مرحلة الأكواخ يمكن أن يتم بمجرد تهديم أول كوخ، أو أن زراعة الأشجار يمكن أن تنجز إذا ما أصبح الشعب يحتفل سنوياً بعيد الشجرة!. تماماً كما لو أن الديموقراطية هي أن تسمح بتكوين أحزاب صغيرة ومبتذلة إلى جانب الحزب الحاكم الجبار!.

خاب أمل بورقيبة مرة أخرى من الشعب الذي أراد أن يقوده إلى الجنة بالسلاسل! وقال لوزيره الأول الباهي الأدغم: «إن التونسيين يحبون السكن في الماضي»[٥]، لكنه أضاف بلهجة ملؤها السخرية والوعيد: «سأحضر لهم البقلاوة أو سأريهم النجوم في وضح النهار. إنهم لا يعرفون بورقيبة»[٦]. أطلق تحذيره في الراديو تجاه كل من يمس النظام العام ودعا إلى العودة إلى الهدوء بسرعة. ثم اتجه في جولة تأديبية وتربوية نحو الداخل. وإذ أمر بضرب بعض الولاة الذين لم يتحكموا في حالة الأمن، تحول هو إلى خطيب في الساحات العامة. فتكلم بلا حدود كما لو لم يتكلم أبداً. لقد عاد إلى الخطابة، ذلك السلاح الذي لا يزال يفتك بجميع أعدائه. إن علاقة بورقيبة بشعبه كانت مركبة ومعقدة. فهذا الشعب لا يفقد عناصر مقاومته التقليدية إلا إذا فتح بورقيبة خزان عباراته وسجالاته وحكاياته النضالية والسياسية!. إنه ليس مجرد زعيم أو رئيس بلاد يخطب في جمهور يتلقى كل شيء عبر الأذن مطوراً بذلك ثقافة سمعية قوية استمرت حتى الآن! وإنما هو أكثر من ذلك بكثير، إنه ساحر يثير الفتنة في كل اتجاه. إنه يعرف كيف يجد العبارة المناسبة وكيف يرميها إلى الناس فتتحول إلى شحنة من النار. يعرف كيف ينغم صوته ويرخمه، كيف يرفع من وتيرته ويوتّره، كذلك كيف يسخر فيتلاعب بالألفاظ ثم كيف يروي فيصنع الأبطال والخونة كما في الحكايات الشعبية! وكيف يعلق صوته في الفضاء فيحبس أنفاس الناس، وكيف يرخيه إلى حدّ الارتطام فيبعث صوتاً نحاسياً يجعل الناس مسمرين في أماكنهم بذهول شديد. يعرف كيف يخنق الكلام في الحلق وكيف يعضّ الألفاظ بوجع وكيف يستلها بيديه اللاعبتين في الهواء الراسمتين للآفاق والحدود والقوة، المليئتين بالألغاز والوعود والمنفتحتين على ضرب الهواء والمغلقتين المكورتين لضرب المستحيل!. كان يتكلم في كل شيء، في شؤون الطنجرة كما في التنظيم العائلي، وفي شؤون الثورات كما في ضرورة

المسرح لتربية الأذواق، وفي الأغاني الشعبية كما في الموضة وتحسين الهندام، وفي شؤون المدارس والتعليم كما في عدم جدوى تربية الماعز، وفي تاريخ الإسلام كما في أهمية الرياضة. لم يترك مسجداً أو ساحة عامة أو مدرسة إلا ووقف فيها خطيباً. ولم يترك مسألة أو ذكرى أو ثورة أو حادثة أو عيداً وطنياً إلا وخطب بمناسبته. لقد جال في البلاد طولاً وعرضاً ولم يعد إلى قصره إلا حين أنهى «مهمته المقدسة» فاتحاً الطريق أمام ما أسماه «بالجهاد الأكبر». فبعد شهرين كاملين عاد بورقيبة متعباً ومرهقاً ولكنه شعر بكثير من الراحة لأنه أفرغ كل ما كان يثقل صدره. وما إن استراح قليلاً حتى كان عليه أن ينهمك في معارك أخرى أكثر ضراوة.

* * *

إذا كان بورقيبة قد أكثر من الحديث عن الدولة وهيبة الدولة، فلأن الدولة لا تزال حتى ذلك الوقت تشكو من نقص في الحضور والسيادة. فمن ناحية لا تزال فرنسا تمسك بالديبلوماسية كما هي تتحكم في القطاع الاقتصادي وتحتفظ بقواعد عسكرية خاصة (قاعدة بنزرت). ومن ناحية أخرى فإن حدود تلك الدولة الغربية والجنوبية تكاد تكون غير واضحة ومتداخلة وخاضعة لقوى الثورة الجزائرية. ومن ناحية ثالثة، فإن جيوب التمرد والمقاومة اليوسفية لا تزال حية في الداخل وتعمل بالتنسيق مع العديد من القوى السياسية، ومن جهة رابعة فإن تلك الدولة لا تزال عبارة عن أجهزة أمنية رادعة بلا أية روادع. ولذلك فإن سيادة تلك الدولة لم تكن ناقصة فقط، بل كانت مهددة بالانهيار حتى بدا لبورقيبة أن الحالة مرشحة لتطور دراماتيكي قد يفقده كل نوع من المبادرة. كان هذا الرجل، الذي بدا وكأنه أسد مسجون يبحث عن منفذ للخروج من تلك الحالة، كان تقريباً لا يعرف من أين يبدأ. وإذ اعتقدت فرنسا أنها قد أنزلت به عقاباً بسبب فتح حدود بلاده أمام المقاومة الجزائرية (جيش التحرير الوطني) فقد ألغت المساعدة التي نصت عليها اتفاقيات الاستقلال والمقدرة بـ١٥ مليار فرنك سنوياً. وهنا وجد بورقيبة في ذلك العقاب مناسبة للمطالبة بمراجعة تلك الاتفاقيات. وهكذا حين قررت فرنسا أن تلغي المساعدة وتخفض من قيمة الفرنك، جاءته فرصة بعث الدينار التونسي إلى يديه رافضاً أن يجعل قيمته معتمدة على الفرنك الفرنسي!. وفي ٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٧، أصبح الدينار التونسي متداولاً في عموم الجمهورية كعملة وحيدة ورسمية. ولكن استقلال العملة التونسية سوف لن يكون نافذاً إلا حين يخرج البنك المركزي التونسي عن الوصاية، وذلك

في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٨. وبعد حوالى سنة من ذلك التاريخ سيلغى الاتحاد الجمركي الفرنسي/التونسي ويحلّ محلّه اتفاق تجاري جديد.

في خطوة تصعيدية أخرى اتخذت شكل العقاب، منعت فرنسا وصول أية شحنة من السلاح إلى الجيش التونسي الجديد، وقد برّرت ذلك بأن جزءاً من السلاح كان يذهب (يتسرب) إلى جيش التحرير الجزائري. وكرد على ذلك الإجراء سيطالب بورقيبة من جهة بفتح حوار جديد مع باريس في ما يتعلق بالتعاون العسكري، ومن جهة أخرى سيتجه إلى دول أخرى لشراء السلاح بما في ذلك دول شرقية. رفضت إيطاليا وبلجيكا وكذلك يوغسلافيا أن تبيعه السلاح تحت ضغط باريس، أما تشيكوسلوفاكيا ومصر فقد استعدتا لبيعه ما يريد من السلاح. ولأنه كان حريصاً على تجميد المعارضة اليوسفية المدعومة من القاهرة، فقد قبل السلاح الذي أرسله إليه عبد الناصر كتعبير عن التضامن العربي. وفي مرحلة لاحقة سيقنع بورقيبة كلاًّ من واشنطن ولندن على بيعه بعض السلاح، بعد أن أكد لهما أنه مقاتل في «صفّ الحرية ضدّ الشيوعية». لم تخيب واشنطن أمل بورقيبة، كما لم تكن بخيلة مثل فرنسا اللاتينية، إذ أرسلت مع شحنات السلاح الأولى شحنات كبيرة من المساعدات الغذائية.

كان بورقيبة معلقاً بين شيئين متناقضين. من جهة كان يريد أن ينهي العلاقة الثقيلة مع فرنسا في ما يتعلق بالوجود العسكري، وقد أصبحت مسألة قاعدة بنزرت بمثابة العبء الذي لم يعد قادراً على تحمله، ومن جهة أخرى كان يخاف أن يجد نفسه عارياً فجأة من أية حماية عسكرية. وإذ وازن جيداً بين المكاسب والخسائر، فقد استقر رأيه أن يقود «معركة وطنية» كبرى يعيد بها وهجه ويتغلب بها على أعدائه حين يسحب منهم جميع أسلحتهم الدعائية حول تفريطه في الوطن. حين قرر بورقيبة أن يبدأ في فتح تلك الجبهة على نحو تدريجي تاركاً معركة بنزرت إلى شوط النهاية، طلب لقاء السفير الفرنسي «جورج كورس»، وبعد حوالى ربع ساعة من بدء المناقشة مع السفير، توقف بورقيبة فجأة عن الكلام ثم قال لضيفه: «إنني أحس بوجع في أسناني. يجب أن أسافر إلى باريس للعلاج»[٧].

آنذاك تدخل القدر ليربح بورقيبة نقطة أخرى على مفاوضيه الفرنسيين. ففي صبيحة ١١ كانون الثاني/يناير ١٩٥٨، وقع اشتباك بين دورية للجندرمة الفرنسية ومجموعة من مسلحي جبهة التحرير الجزائري على الحدود الجزائرية ـ التونسية في قرية «سيدي يوسف» التونسية. وقد أسفر ذلك الاشتباك عن قتل مجموعة من الجزائريين وأسر ثلاثة جنود

فرنسيين. أرسلت باريس بمبعوثين خاصين إلى تونس لكن بورقيبة رفض استقبالهما. وكان السفير الفرنسي قد تلقى رسالة من حكومته تقول: «إذا امتنع الرئيس التونسي عن استقبال المبعوثين الفرنسيين، فعليك أن تعود معهما على نفس الطائرة». تطورت حادثة ساقية سيدي يوسف إلى مذبحة اقترفها الطيران الفرنسي ضد الأهالي والمدارس. أما بورقيبة فقد اتخذ من تلك المجزرة نقطة انطلاق لتحرير بلاده من وضعية الكماشة التي وجدت فيها. فتونس بالنسبة إلى الجيش الفرنسي أو إلى أعدائه مناضلي جبهة التحرير الوطني، كانت تشكل قاعدة استراتيجية. الفرنسيون لا يريدون أن تكون تونس قاعدة انطلاق للجيش الجزائري. والجزائريون كانوا لا يريدون أن تصبح تونس جزءاً من استراتيجية تطويقهم. وفي ذلك الكوريدور الضيق، كان بورقيبة يبحث كيف يوفر لبلاده فرصة للحياد. غير أنه لم يكن قادراً على موقف الحياد وهو يشعر أن تحرير كامل سيادة البلاد قد أصبح مرتبطاً بتطوّر الحرب في الجزائر. لم تكن الخيارات أمام بورقيبة كثيرة. وكل ما كان في متناوله هو ألاّ يندمج أكثر فأكثر مع طرف ضدّ الطرف الآخر، كما عليه أن يصطاد أو يصنع فرصاً للتفاوض بين باريس وجبهة التحرير. وحين تناهى إلى سمعه نداء ديغول إلى تحكيم العقل وفتح المفاوضات، قال بورقيبة «لفرحات عباس»: «لو كنت مكان زعماء جبهة التحرير، فإني سأذهب مباشرة إلى أورلي»[٨]. ففي كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٧، إثر لقاء مع ملك المغرب بالرباط، دعا بورقيبة إلى الهدوء واقترح على باريس التعاون المغاربي لكي تبحث عن حلّ في الجزائر. لقد فعل بورقيبة كل ما في وسعه حتى ذلك الوقت لكي لا يغضب فرنسا، ولكن بالرغم من أنه تساهل مع وجود الجيش الجزائري على أرض تونس، فإنه لم يكن يكسب أبداً ودّ جبهة التحرير. فقد نظرت هذه الجبهة إلى اتفاقيات الاستقلال الذاتي عام ١٩٥٥، على أنها «خيانة» لتحرير المغرب العربي، خصوصاً أن إجهاض الثورة في تونس قد أضعف المد الثوري في الجزائر. لم يكن ذلك مجرد تخمين أو تحليل، وإنما كان فعلاً «تخلياً» عن تعهد تم توقيعه في القاهرة قبل انطلاق الثورة الجزائرية بحضور علال الفاسي زعيم حزب الاستقلال عن المغرب وصالح بن يوسف عن حزب الدستور. ولأن بورقيبة كان يريد أن يقطع العشب من تحت أقدام خصمه صالح بن يوسف الذي يتمتع بحضور كبير داخل الثورة الجزائرية، فقد أصرّ على بناء أحسن العلاقات مع رجالات الحكومة المؤقتة الجزائرية، بل اختار أن يتورط إلى أقصى ما يمكن مفضلاً ضربات فرنسا التي قد توجع على ضربات بن يوسف في حالة دعمه من الثورة الجزائرية التي قد تقتل.

كان شبه مقتنع بالتحالف مع الثورة الجزائرية، لكنه كان عاجزاً عن فعل أي شيء آخر ذي وزن. فتونس قد تحولت إلى قاعدة خلفية للثورة الجزائرية، كما امتلأت باللاجئين، أما

القيادة فقد انتقلت تقريباً بالكامل إليها، وثمة إلى جانب عشرات الآلاف من المجاهدين المسلحين، عدة محافظات قد أصبحت تعيش تحت قانون الثورة الجزائرية. إذ باستثناء العلم التونسي الذي يرفرف إلى جانب العلم الجزائري، لا يوجد أي مظهر لمظاهر دولة بورقيبة.

لقد أصبح بورقيبة تقريباً طرفاً ثالثاً في الحرب الجزائرية. ورأى أن لا يخرج بلا مكاسب إذا ما خاض تلك الحرب من موقعه. فهو لا يزال يحتاج إلى الكثير لبسط سيادة الدولة. وارتفعت لهجة فرنسا ضد ذلك التحالف فاختارت أولاً بناء خط موريس على طول الحدود التونسية ـ الجزائرية، وهو عبارة عن جدار مكهرب. ثم شرّعت قانون حق التعقب والمطاردة للثورة الجزائرية الذي سيسمح لقواتها بالردّ على الثوار المتمركزين في تونس للدفاع عن النفس.

وفي ٨ شباط/فبراير ١٩٥٨، أي بعد شهر من الحادثة الأولى لساقية سيدي يوسف، جاءت حادثة أخرى روعت العالم بأسره حين قام الطيران الفرنسي بقصف مدرسة بتلك القرية خلف وراءه ٨٠ قتيلاً من الأطفال. وهنا التقط بورقيبة تلك الجريمة المروّعة ليجعل منها بداية لهجوم ديبلوماسي لم تكن تتوقعه أبداً باريس، هدفه رحيل فرنسا من جميع مواقعها في تونس. احتج بورقيبة لدى مجلس الأمن وطلب من واشنطن أن تقف إلى جانبه كما طلب منها الضغط على فرنسا للدخول في مفاوضات مع الجزائريين. قال بورقيبة للمبعوث الأميركي وهو مستشار الرئيس أيزنهاور لشؤون شمال إفريقيا «روبرت مورفي»: «إن نهاية سريعة لحرب الجزائر ستحمي شمال إفريقيا من فيروس الشيوعية». وبعد صمت قصير أضاف متسائلاً: «هل لأنني لست من صفّ بولغانين، فإن بلادي عليها أن تصبح ضحية؟» وأردف شارحاً: «إنني لست محايداً في هذا الصراع، لأن وقوفي إلى جانب الثورة الجزائرية سيجعلها دائماً قريبة من الغرب. أما في ما يتعلق بوجود الجيش الفرنسي في تونس، فإني أطلب انسحابه بلا شروط وفي أقرب وقت». ثم صرخ يقول: «لقد ضقت بهم ذرعاً، إنهم حولي في كل مكان. في مطار العوينة، في صلامبو، في أميلكار، في الشمال وفي الجنوب. إنني أرفض التفاوض تحت هذه الشروط»[٩].

شعرت باريس بأن بورقيبة قد طعنها من الخلف وأصبح يتعاون مع أعدائها الجزائريين بوضوح. ثم مدّ خيوط التحالف مع واشنطن وراح يستدرجها نحو شمال إفريقيا تحت إغراءات كثيرة منها «محاربة الشيوعية». وإذ استعد الجيش الفرنسي لعملية انتقام كبيرة انطلاقاً من الجنوب التونسي (صحراء رمادة) وذلك لبدء عملية اجتياح من النوع الكبير بقيادة الكولونيل مولوت يوم ٢٥ أيار/مايو ١٩٥٨، فإن باريس أوقفت العملية في الإبان

وذلك حالما حذرتها واشنطن من مخاطر توسيع المعركة، بعد أن خلفت وراءها ٢٠ ضحية من التونسيين. وفي الوقت الذي كان فيه مجلس الأمن يستعد للنظر في الشكوى التونسية، أعلن ديغول عن انسحاب الجيش الفرنسي من جميع مواقعه في تونس باستثناء قاعدة بنزرت.

لقد بدا بورقيبة كأهم حليف لواشنطن في منطقة المغرب العربي آنذاك. فبعد أن حماه القنصل الأميركي دوليتل من بطش الجنرال جوان عام ١٩٤٣ بتهمة التعاون مع إيطاليا، فها هو يجد في واشنطن حليفاً مرة ثانية، وهو يواجه بطش الجنرالات الفرنسيين المضروبين في معنوياتهم في الجزائر. وما إن حلّ شتاء عام ١٩٥٩ حتى كسب بورقيبة عدة معارك: لقد كسب العلاقة مع الثورة الجزائرية فقطع الأعشاب من تحت أقدام خصومه اليوسفيين، كما كسب العلاقة مع الأميركان، فاستقبل الرئيس أيزنهاور في زيارة رسمية، وأخيراً كسب انسحاب الجيش الفرنسي من جميع مواقعه. أما بنزرت فلم تعد إلا مسألة وقت لكي تصبح قريباً معركة وطنية كبرى. ولكن قبل ذلك كان على بورقيبة أن يعرف كيف يستفيد من الدراما الجزائرية التي تجعل من بلاده أحد مساربها الأكثر مشهدية.

من المفيد أن نذكر هنا أن الثورة الجزائرية وكذلك دخول أميركا إلى منطقة شمال إفريقيا قد جلبا لبورقيبة شهرة عالمية جعلته يشعر بأن المشاكل التي تعترضه هي من الحجم الذي يتناسب وطموحه. ففي لحظة ما أصبح بورقيبة يوجد على صدر الصحف الكبرى يومياً. لقد وضع نفسه كمادة خصبة ودسمة تحت أقلام المعلقين، وبدا محباً للحوارات مع الصحافيين، كما أحب أن يكون أحد المتحكمين في مسار أكبر ثورة في العالم في ذلك الوقت، ورغم أن سيادة بلاده كانت مهددة وهي تقع تحت أقدام جيشين متقاتلين، إلا أنه أعجبه كثيراً أن يظهر كلاعب سياسي من طراز عالمي. فهو محاور ضروري لفرنسا وللولايات المتحدة والأمم المتحدة وكذلك لجبهة التحرير وجيش التحرير الجزائري والحكومة المؤقتة، وقد وضع أولئك الفيلة الكبار في خدمة طموحه السياسي.

كانت جبهة التحرير تعتقد أن بورقيبة قد يفتح لها طريق الهلاك، ولذلك فقد كانت تنظر إلى كل الذين يبدون مرونة سياسية ما على أنهم «خونة». أما بورقيبة فلم يكن يخفي احتقاره لتلك العقلية العسكرية التي سيطرت على العقل السياسي للثورة الجزائرية. وقد ذكر مرة في خطاب موجه إلى الجزائريين، أن «سلوك الجزائريين يتميز باضطراب وكذلك بعقدة ذنب، ذلك أن رجل السياسة والمثقف بشكل عام مذنب بطبيعته»[10]. وسواء كان ذلك نتيجة معاينة عميقة أو مجرد ملاحظة عابرة، فإن بورقيبة كان يعرف جيداً أن الطبيعة

القاسية للثورة الجزائرية كانت نتيجة وتعبيراً خالصاً عن طبيعة القوى التي تقود وتغذي تلك الثورة. ولأن بورقيبة كان يحذر جيداً من استفزاز تلك الثورة المليئة بالريفيين والجبليين والمزارعين، وهو لا يجد أية إمكانية للحوار مع قادتها الذين تغلب عليهم القسوة والاستقامة والعنف، فقد وضع «أحمد التليلي» النقابي، منظم «الفلاقة» السابق وابن المنطقة الملاصقة للحدود الجزائرية، سليل الولي الصالح الذي يوجد أتباعه في البلدين، على رأس مهمة الاتصال مع أولئك القادة.

كان أحمد التليلي أصيل الجنوب الغربي والذي التحق بالثورة التونسية عن طريق تنظيمه للخلايا المسلحة الأولى بمنطقة الجنوب، يتقن الحوار مع قادة جبهة التحرير، كما كان هؤلاء القادة يثقون في أحمد التليلي الذي يتمتع بشخصية قوية ومستقيمة، وهو يحظى بشعبية سواء في أوساط العمال التونسيين أو حتى لدى داخل رجال الثورة الجزائرية.

ورغم ذلك، رغم أن أحمد التليلي كان يتمتع بثقة لدى قادة جبهة التحرير، إلا أنه لم يستطع أن يقنعهم بالمرونة السياسية. حاول مراراً لكنه كان يصطدم دائماً بتلك اللغة التي تجعل من بورقيبة تحت الشبهات. وفي إحدى المرات جاء التليلي إلى بورقيبة ليقول له: «لقد تعبت. لم يبق إلا أن نضرب رأساً برأس. ما رأيك في زراعة خلاف بين جيش التحرير وجبهة التحرير الوطني. سوف نجعل جيش التحرير يقوم بمهمة تأديب هذه الجبهة». غير أن بورقيبة الذي لم يكن ربما حريصاً على تماسك الصف الجزائري، كان خائفاً على السيادة التونسية، قال: «وأين ستصبح السيادة التونسية لو أن الجزائريين قد أصبحوا يتقاتلون على أرض تونس»[11].

كانت تونس في ذلك الوقت تحتوي على ثلاثة جيوش متخاصمة ومتفاوتة التسليح والقدرات. أما الثورة الجزائرية فقد كانت تبدو وكأنها دولة داخل الدولة. فالجزائريون يعدون بالآلاف، وهم يشكلون مجتمعاً موازياً للمجتمع التونسي له حكومته المؤقتة وجيشه المسلح ومدارسه ومستشفياته ومحاكمه الخاصة وأجهزته السرية وسجونه وتجارته وأمواله. وإذ لم تمدّ فرنسا يد المساعدة لبورقيبة وقد سيطرت عليها نزعة تدميرية للذات وللأصدقاء والأعداء فإنه كان على بورقيبة أن يستعمل جميع بهلوانياته السياسية ليفلت من بين فكي تلك الرحى الجهنمية.

كان بورقيبة يدرك جيداً أنه ما لم تجنح الثورة الجزائرية إلى المفاوضات وتتغلب على النزعة الحربية المدمرة، فإن المنطقة ستظل معرضة للاهتزاز والزلازل، كما أن نظامه سيظل معرضاً للسقوط، لأن أعداءه «اليوسفيين» قد وجدوا في تلك الثورة مناسبة للنهوض من جديد

وإعادة بناء صفوفهم وهم قد استفادوا من دعم القاهرة وكذلك من كراهية قادة جبهة التحرير لرجاله ونظامه. ومما زاد في حيرة بورقيبة، أنه رغم وقوفه وتأييده للثورة الجزائرية التي يدعمها عبد الناصر، فإن هذا الأخير لم يرفع الدعم عن خصمه اللدود الذي يستقبله في القاهرة ويمده بالمال والسلاح. وقد ثبت لبورقيبة بالمكشوف أنه كلما تعاون مع الثورة الجزائرية، كلما كان معرضاً أكثر للنار من ثلاث جهات. من اليوسفيين ومن رجال جبهة التحرير وكذلك من الفرنسيين، وخلال حوالي سنة من كانون الثاني/يناير ١٩٥٨ إلى كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٨ اكتشف أكثر من ثلاث محاولات لاغتياله. راح في الأولى حوالى ٤٠ ضحية بالإعدام، وأعدم في الثانية أكثر من ٥٥ رجلاً، وأعدمت المحاولة الثالثة حوالى ١٣٠ شخصاً. وهؤلاء جميعاً اتهموا بالتعاون مع الزعيم المنفي صالح بن يوسف.

كان بورقيبة يجد في تلك المحاولات التي تهدف إلى اغتياله لذة كبرى ما دام يتمتع بعيون قادرة على كشف مدبريها. فهي في كل مرة تجعله يلتهم دفعة من دفعات رجال بن يوسف دونِ أن يصاب بعسر هضم، كما تجعله يسوّق لحم ضحاياه على نحو مربح جداً في السوق الأميركية!. لقد وفّر له بن يوسف غطاء مهماً لكل ممارساته القمعية وجعله يعرف كيف يخاطب واشنطن: «بأن تونس إمّا أن تجنح إلى النظام تحت رعايته ومن ثم الاصطفاف مع الغرب، وإما أن تسقط تحت عبد الناصر والمعسكر الشيوعي، وهو ما يمكن أن يعتبر كخطوة أولى نحو «سفينة» العالم العربي بكامله» خصوصاً أن الجناح الذي يرفض الحوار مع فرنسا في جبهة التحرير هو الجناح المتشبع بالعروبة والناصرية والأفكار الشيوعية.

لهذا كله، كان بورقيبة لا يتعب من محاولة تليين الموقف الجزائري. فبعد أن فشل لقاء «ميلان» في حزيران/يونيو ١٩٦٠، بين مجموعة من الجزائريين وبعض المسؤولين الفرنسيين تولد لدى بورقيبة شعور باليأس، لكنه ما لبث أن قام ليقترح، على وجه مشهدي في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٠، فكرة فيدرالية جزائرية ـ تونسية، والتي قال عنها إنها «فكرة جيدة لأنها ستبني الوحدة وستقود إلى السلام». غير أن بورقيبة الذي أرسل بفكرته إلى كل من ديغول وأيزنهاور، والذي يعرف الجميع أنه كان يناور، قد اصطدم مرة أخرى بالفشل وقوبلت فكرته بكثير من السخرية إذ اتهمه بن يوسف عبر صوت العرب «بأنه يريد أن يبيع الثورة الجزائرية إلى الغرب بلا ثمن»[١٢].

إذا كان أيزنهاور قد أهمل فكرة بورقيبة بشكل واضح إذ لم يردّ عليها البتة، فإن الجنرال ديغول رآها كمناورة من بورقيبة لجعل فرنسا في مواجهة بلدين، أحدهما مستقل وذو سيادة وآخر لا يزال تحت السيادة الفرنسية!. وكما كان موقف الجنرال إلى تلك اللحظة

يتسم بالتردد وعدم الوضوح وكذلك بالحذر والتشكيك في نوايا بورقيبة، فإن لا أحد كان بإمكانه أن يتكلم عالياً ليُسمع الجنرال الحقائق الجديدة. وفجأة يتكلم الوزير الأول «ميشال دوبريه» فيقول: «إن الجزائر أصبحت قضية عسيرة، وإن المستقبل يحتم على باريس أن تربح الصحراء. ومن أجل ذلك لا بدّ من التعاون مع الدول المحيطة بالجزائر»(١٣).

أعجبت ديغول فكرة الوزير الأول، وسرعان ما فكر في فتح حوار مع بورقيبة لمساعدته على إنجاز المرحلة الأولى من الخروج من المتاهة الجزائرية. ولأن العلاقات كانت شبه مجمدة، فقد انتظر الجنرال مناسبة رأس السنة الجديدة ١٩٦١، ليقول للقائم بأعمال تونس «الطاهر بلخوجة» عبر «ميشال دوبريه»، أنه «سيكون مسروراً جداً باستقبال بورقيبة في أي وقت يشاء».

أحدثت البرقية التي أرسلها بلخوجة من باريس في قلب بورقيبة بهجة الزهو والانتصار، وقال للباهي الأدغم «ها هو أخيراً الجنرال يفهمني. إنه يدعوني إلى باريس. إنه يعترف أخيراً»(١٤). وسوف يستعد بورقيبة جيداً لذلك اللقاء الذي طالما انتظره. وقال لابنه الحبيب الابن، وكان يومها سفيراً لبلاده في باريس، «عليك نسيان الماضي. لم يستقبلك الجنرال في الماضي لأني لم أستقبل سفيره. أما الآن، فعلينا أن نذهب معاً للقاء ذلك الفيل. إننا مضطرون مع هذا الفيل أن نلتزم الهدوء»(١٥). وعند وصوله من زيوريخ إلى باريس، كانت سيارة الجنرال تنتظر بورقيبة، التي ستتجه به مباشرة إلى قصر «رامبويه»، حيث سينزل في جناح «فرانسوا الأول» الذي نزل به كل من أيزنهاور وخروتشوف وماك ميلان. لقد كان مليئاً بالفرح والانتصار، وكذلك بالطلبات، وخصوصاً طلب الرحيل عن قاعدة بنزرت. إن بنزرت هي ورقة الضغط الوحيدة التي يستعملها بورقيبة من أجل هدفين: الدفع باتجاه المفاوضات مع الثورة الجزائرية ثم الحصول على جزء من الصحراء، أي تعديل حدود تونس الصحراوية الجنوبية، قبل بدء المفاوضات مع القادة الجزائريين. لكن بورقيبة سيفشل هنا وهناك حين يكشف عن نزقه بوضوح، بل «سيتلقى ركلة على مؤخرته ولطمة على خدّه(١٦) من ذلك الجنرال الجريح، الذي أوصى بورقيبة ابنه بأن يلتزم الهدوء حين يجلسان في حضرته».

* * *

حين وصل بورقيبة إلى رامبويه مع ابنه السفير ومحمد المصمودي والصادق المقدم، لم يكن يعرف أن هناك لقاءات سرية قد حصلت بين الجنرال وبعض رجال الثورة الجزائرية، وأخرى بين جورج بومبيدو واثنين من قادة الحرب الجزائرية «علي بومنجل» و«الطيب

بوحوش». أما الجنرال ديغول فلم يعرف من جانبه أن بورقيبة كان كلف بعض رجاله مثل أحمد التليلي والطيب المهيري بإعلام القادة الجزائريين باللقاء وكذلك بمواصلة تمرير شحنات السلاح التي تأتيهم من القاهرة. لذلك فإن لقاء رامبويه بين الجنرال وبورقيبة كان لقاء الخداع كما وصفه المصمودي. جاء بورقيبة بمطالب شبه استراتيجية، أما ديغول فقد كان يريد منه مهمات تكتيكية. فبورقيبة لم يكن يريد بنزرت في الحين، لأن بنزرت ستعود في يوم من الأيام، ولكنه كان يريد جزءاً من الصحراء الجزائرية بدعوى أن ذلك قد أخذ في السابق عند ترسيم الحدود على نحو مبهم. أما الجنرال فما كان يريد لا الخروج من بنزرت ولا توزيع الصحراء الجزائرية على الجيران، وإنما كان يريد من بورقيبة أن يساعده على ذبح الخروف الجزائري!.

روى ديغول في «مذكرت الأمل» عن ذلك اللقاء فقال: «كان أمامي رجل مناضل وسياسي ورئيس دولة يتجاوز طموحه ورغباته مساحة بلاده. فقد كان يظهر من بعيد بطل استقلال تونس، وهذا كان يحمله على التغلب على تناقضاته الكثيرة. فقد كان دائماً يعارض فرنسا التي تربطه بها رغم ذلك ثقافته وعواطفه، فقضى في تونس على عهد الباي وانغمس في الثورة رغم إيمانه بمحاسن الأوضاع الثابتة والتقليدية، ثم اندمج في النزاع العربي ـ الإسلامي الشاسع لتحرره وتشبعه بأفكار الغرب وعاداته. وهو يدعم حالياً ثورة الجزائر رغم أنه كان يخشى صعوبة الجوار مع جمهورية فائرة. وإذا كان أبدى حرصه على زيارتي، فكان ذلك حتماً ليعرب لي عن تأييده لتصرفي بإجراء المفاوضات مع الجزائر وعن رغبته في أن يقوم بمهمة التوفيق أثناء المجابهة، غير أنه كان يعتزم الحصول أيضاً على بعض المكاسب في الوقت الذي كانت الجزائر على وشك الحصول على المزيد منها».

«لقد أثار بورقيبة، بادئ ذي بدء، قضية بنزرت وطلب الجلاء عنها. فذكرته أننا حين سحبنا عام ١٩٥٨ القوات الفرنسية من تونس وبملء إرادتنا، كنت حريصاً على أن نحتفظ بهذه القاعدة البحرية حتى إشعار آخر. وفي الواقع، فإن وجود كتيبة صغيرة وبضع عشرات من عمال إصلاح السفن الحربية، كانت يجلب لبنزرت مورداً حسناً. ثم قلت للرئيس: «وعلى أية حال فإن هذا الوضع لن يدوم طويلاً، ذلك أنه في الصراع الدولي الراهن لا تشمل أحكام الحلف الأطلسي أقليم تونس التي ترغب في الحياد، لذلك فليس في وسع فرنسا أن تترك تحت قبضة العدو، هذه القاعدة التي يعد موقعها في قلب المتوسط ذا أهمية استراتيجية كبيرة. ولكننا، كما تعلم نحن بصدد تزويد أنفسنا بالسلاح النووي، وعندما نحصل على قنابل منه، فإن أوضاع أمتنا ستتغير رأساً على عقب، وسنحصل

بشكل خاص على ما يضمن لنا تفادي ما يمكن أن يحصل في بنزرت بعد مغادرتنا إياها. ويمكنك أن تتأكد من أننا سننسحب منها في غضون عام واحد». وهنا أجابه بورقيبة قائلاً: «إنني آخذ علماً بذلك بطيبة خاطر، ولذا لا أصرّ على إيجاد حلّ فوري لهذه القضية». وقد كرر بورقيبة هذه الجملة العديد من المرات في حضرة الجنرال وكذلك في غيابه حتى بات واضحاً أنه يريد شيئاً آخر(١٧).

وفعلاً، فإن قضية بنزرت لم تكن لبورقيبة سوى وسيلة للوصول إلى الموضوع الرئيسي. فقد كان همّه منصرفاً كلياً إلى ضمان توسيع جغرافيا بلاده من ناحية الحدود الصحراوية، هذا إذا كانت الصحراء الكبرى (التي توجد بها حقول النفط والغاز الفرنسية مع تجهيزات القنبلة النووية الفرنسية) ستُسلم يوماً ما، إلى الجزائر المستقلة. وبدون شكّ فإن بورقيبة لا يريد الرمال أو ريح السموم، وإنما هو يريد جزءاً من النفط الذي اكتشف بكميات كبيرة وأثار رغبته في أن يمتلك منه، مما يجعله قادراً على تنمية بلاده. كان بورقيبة لا يرى في ذلك أي مانع وقد طرح المسألة ببساطة، واعتقد أن الجنرال سيجامله فيقتطع جزءاً من الصحراء ويسلمه إياه، وقد شرح ذلك قائلاً: «أن ما يسوغ تلك العملية هو أن تخطيط الحدود بين الصحراء وجنوب تونس قد تم في القديم بشكل مبهم وقابل للنقاش». غير أن الجنرال الذي لم يكن متأكداً في ذلك الوقت أن الصحراء ستعود كلها إلى الجزائر، ما كان ليعطي لبورقيبة أو لغيره أي شبر من تلك الصحراء، وإلا فإنه سيقوم بتوزيع أراضي الجزائر على جيرانها وتبديد احتياطي الثروات التي ستكون العنصر الرئيسي للتعاون بين فرنسا والجزائر.

وقد أجاب الجنرال عن تلك المسألة في مذكراته قائلاً بوضوح: «فإذا أقدمنا على مثل هذا الأمر مع بورقيبة، فإنه سيحرك مطامع الغرب في بيشاور وتندوف بالإضافة إلى ما قد تطالب به موريتانيا والنيجر ومالي وليبيا. لذلك فإنه من مصلحتنا أن نعمد في الوقت المناسب إلى إيجاد تسوية منطقية لبترول الصحراء دفعة واحدة. غير أن بورقيبة لم يتقبل هذا الرفض بسرور، ومع ذلك فقد بدا لي أن مباحثاتنا كانت صريحة وودية إلى حدّ أمكنني أن أقول لدى افتراقنا: إنني أنظر بثقة إلى مستقبل علاقاتنا. فأيدني بورقيبة على ذلك بحرارة».

* * *

تسارعت الأحداث على نحو دراماتيكي. وإذ تقدمت المفاوضات بين باريس والقادة الجزائريين، فإن القيادة العسكرية الفرنسية المرابطة بالجزائر قد أعلنت تمردها ووضعت كل

المتعاونين مع ديغول في السجن وتمت السيطرة على كل الجيوش الفرنسية بالجزائر، ثم أعلن راديو الجزائر أن «الجزائر فرنسية وستبقى. وأن ديغول خائن». تحرك ديغول بقوة فأحبط بعد جهد كبير تلك المحاولة الانقلابية. ثم تقدمت المفاوضات وهي تشق طريقها نحو اتفاقيات إيفيان. وحين رأى بورقيبة أن الاستقلال الجزائري على وشك أن ينجز دون أن يتغلب على خصومه اليوسفيين ودون أن يحصل على أية جزء من الكعكة، وقد بات مهدداً من قيام جمهورية ثورية ستتجه إلى الانتقام منه بدعم خصومه، تقدم بخطى حثيثة قبل أن يواجه تلك المصاعب. اتجه إلى واشنطن في أيار/مايو ١٩٦١، وقد طلب من الأميركان أن يساعدوه على إقناع باريس بسحب قواتها من مدينة بنزرت، غير أن باريس ردت على ذلك بتصعيد آخر. فقد قررت القيادة العسكرية أن توسع من مهابط الطيران في قاعدة «سيدي أحمد» ببنزرت.. أمر بورقيبة السلطات الجبهوية بوقف الأعمال والتعاون، لكن الأميرال الفرنسي «أمان» رد على ذلك بإنذار لمدة ٤٨ ساعة، مفاده: «إذا لم تستؤنف الأعمال، فإن القوة ستتولى حلّ المشاكل». كان كل شيء يسير نحو الأسوأ. وقد أدرك بورقيبة أن المذبحة آتية، فقد استدعى وزير إعلامه[١٨] ليكتب رسالة إلى الجنرال يطلب فيها منه الانسحاب من بنزرت. وإذ سأله وزير الإعلام: «هل تريد أن يجيبك بلا أو بنعم»، قال بورقيبة بسرعة: «أريده أن يجيب بلا»[١٩].

كان بورقيبة يريد مواجهة مفتوحة لكي يسجل البطولة التي لم يستطع تسجيلها في السابق، أو بالأحرى لكي يثبت لأعدائه أنه ليس رجل سياسة فقط بل هو رجل حرب أيضاً.. ولأن مفاوضات إيفيان تتقدم بسرعة متجاهلة كل ما دفعته تونس من ثمن، فإن بورقيبة كان يريد بأي شكل من الأشكال إلحاق إهانة بالجنرال ديغول لن ينساها أبداً إذ سيعمل على تحديه مهما كان الثمن.

أصبحت البلاد كلها مستعدة للقتال ضد فرنسا، وقد عمّ غضب لم يعرفه بورقيبة أبداً وجعله يخاف من أن يفلت الوحش من عقاله فيأكل الأخضر واليابس. وحين حمل الناس السلاح من كل صوب واتجهوا في قوافل طويلة نحو الشمال إلى نحو بنزرت تردد بورقيبة قليلاً وتساءل عن أية حماقة قد تجعل هؤلاء الناس يلتحمون بالثورة الجزائرية أو تأخذهم النزعة نحو التمرد على السلطة المركزية؟! مع ذلك لم يكن بإمكانه إلا أن يذهب مع التيار. فلأول مرة يجد بورقيبة نفسه يسبح مع التيار وهو لا يستطيع مقاومته. تجمع حوالى ١٥ ألف مواطن من الرجال والنساء أغلبهم كانوا مسلحين ومعهم دوريات من الحرس الوطني والشرطة. وهم يتقدمون نحو السدود التي أقامها الفرنسيون على طريق القاعدة.

ضغط الجنود الفرنسيون على الزناد وأمروا بوقف الزحف، لكن ما من أحد كان يصدق أن الموت بسيط إلى تلك الدرجة في ذلك اليوم. سقط الصفّ الأول من المتظاهرين تحت الرصاص وتحمس الحرس الوطني وكذلك بعض الجنود التونسيين ليتقدموا نحو القاعدة وقد غطوا تقدمهم بآلاف الناس، فإذا بالرصاص يحصد عدة آلاف في بضع دقائق. لقد بدا الأمر ببساطة وكأنه يتعلق بقتل مجموعة من الذباب. لقد أسفرت المذبحة عن قتل نحو ٥ آلاف ضحية تركت منتشرة على الإسفلت.

كانت فعلاً كارثة، بل كانت مأساة لشعب بكامله. أما بورقيبة فقد أحس بحجم الصدمة، وقد صدق أخيراً أن فرنسا الليبرالية والديموقراطية والعلمانية تقتل مثلما يفعل البرابرة. لقد شُفي بورقيبة مما يسمّى بـ«العقدة الفرنسية»، وأصبح على قناعة تامة بأن الجنرال قد فاق فاشيّي كل الجمهوريات السابقة.

كان بورقيبة يريد المواجهة ويطلب الدعم لتعميد مسيرته النضالية، لكنه لم يكن يتصور بأن المواجهة ستؤدي إلى تلك المأساة وأن الدم سيسيل بتلك الكيفية. وإذ استمع إلى الشارع الذي راح يكبر ويضخم من حجم تلك الكارثة، فإنه ظل ليومين غير قادر على الكلام على نحو منطقي. في تلك اللحظة فقط أحسّ بورقيبة بحجم الخطر، ففعل كلّ شيء من أجل أن تنتهي تلك اللعبة الدموية عند هذا الحدّ. وحين أبرق له الكولونيل بومدين من مقرّ قيادته «غار الدماء» بالشمال الغربي طالباً منه إفساح المجال أمام جيش التحرير الجزائري لنجدة أشقائه التونسيين، ارتعد بورقيبة، وشعر بأن الأرض تهتز من تحت قدميه. رفض بورقيبة تلك النجدة بأدب، ثم راح يعمل جاهداً لكي يبقى الجيش الجزائري في مواقعه.

بعد أن استيقظ بورقيبة من هول الصدمة، اتجه إلى الميدان الدبلوماسي الذي يجيد فيه السباحة. قدم شكوى إلى مجلس الأمن، فحلّ بتونس الأمين العام للأمم المتحدة «هامرشولد» في زيارة لبنزرت الجريحة. كانت المدينة لا تزال مغلقة وتحت الحصار، فتعرض «هامرشولد» لعدة إهانات من الجيش الفرنسي. وقد ساعد ذلك كله في النهاية بورقيبة على كسب قضية بنزرت. ففي ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٦١، صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة وكان يرأسها التونسي المنجي سليم، أحد أقطاب الحركة الوطنية لصالح الانسحاب من مدينة بنزرت. وهكذا بسرعة تحولت تراجيديا بنزرت إلى نصر دبلوماسي لبورقيبة.

إن بورقيبة الذي انتصر في النهاية على الجنرال ديغول بالنقاط الدبلوماسية، سوف لن يراعي كثيراً وقوف عبد الناصر إلى جانبه في تلك المعركة، إذ ما إن يتنفس الصعداء، حتى

يصدر أمراً واضحاً بقتل حليف القاهرة «صالح بن يوسف». لقد أصرّ هذا الأخير على مغادرة القاهرة رغم تحذير عبد الناصر شخصياً، وبعد يومين فقط من وصوله إلى فرانكفورت سيستقبل قاتليه بنفسه في غرفته بالفندق صباح يوم ١٢ آب/أغسطس ١٩٦١. فلقد قرّر بورقيبة أن يتخلص من هذه «الحيّة الرقطاء» على حدّ تعبيره، قبل أن تدخل إلى بيته عن طريق الغابة الجزائرية.

الهوامش:

(١) كتب بورقيبة ذلك في صحيفة (**صوت التونسي**)، بتاريخ ١٩٣٣/٣/٢٤.

(٢) من خطاب لبورقيبة عام ١٩٦٠ بمناسبة الاستقلال. كان بورقيبة مأخوذاً بأفكار مركزية الدولة.

(٣) رسالة بورقيبة/**سياسة الإنسان**/كاميل بيغه/نشر وتوزيع مؤسسة بن عبد الله، تونس ١٩٨١، وقد كتب بالفرنسية عام ١٩٧٥.

(٤) أعاد ذلك بورقيبة في العام ١٩٧٣ أمام طلبة معهد الصحافة، مدافعاً عن نفسه من تهمة الكفر. وكان قد تناول كأساً من الحليب أمام الناس في شهر رمضان المعظم في مدينة القيروان عام ١٩٥٨، كترغيب للذين لا يجدون الشجاعة على العصيان الديني أو الارتداد.

(٥)و(٦) شهادة للباهي الأدغم، الوزير الأول السابق، **حديث مع المؤلف**، تونس ١٩٩٣.

(٧) Louis Perillier, **La conquete de l'independance tunisienne**
Ed: Robert Lafont-Paris 1979.

(٨) رسالة من بورقيبة إلى فرحات عباس، **تاريخ الحركة الوطنية**، الجزء العاشر، منشورات الحزب، ١٩٧٢.

(٩) Jean Lacouture, **5 Hommes et la france.** Ed: Le Seuil-Paris 1961.

(١٠) كان بورقيبة يميل إلى جماعة الحكومة المؤقتة: فرحات عباس، بن خدة.. غير أن سيطرة جيش التحرير بقيادة الكولونيل بومدين وبمساعدة كريم بلقاسم وبن طوبال وعبد الحميد بوصوف قد جعلت المفاوضات أكثر تعقيداً، كما جعلت السياسة تقع تحت النزعة العسكرية.

(١١) شهادة المصمودي، **حديث مع المؤلف**، باريس، الباهي الأدغم أشار بما يشبه ذلك للمؤلف، تونس، ١٩٩٣.

(١٢) **مذكرات فتحي الذيب**، أحد الضباط الكبار العاملين مع عبد الناصر والمسؤول المباشر عن الثورة الجزائرية، بيروت، ١٩٨٨.

(١٣) **Jean Lacouture 4-Hommes et leurs peuples.** Ed: Seul-Paris 1969.

(١٤) و(١٥) أحاديث خاصة أجراها المؤلف مع المصمودي - باريس، ١٩٩٠.

(١٦) **مذكرات الأمل**، الجنرال ديغول، دار عويدات، بيروت.

(١٧) **أحاديث مع المصمودي**، للمؤلف، باريس، ١٩٩٠.

(١٨)و(١٩) المصدر نفسه، أنظر كذلك كتاب:

Jean Lacouture- Mendes France. Ed: Le seuil-Paris 1981.

سنوات الغدر:

حدث ذات مرة أن سارا معاً

«اللحظات التي تمرّ بعد المعركة غالباً ما تكون كاشفة. إنها لحظات صمت. ليس هناك مكان لا للكلمات ولا للدموع. ما نفع الرجال أن يصرخوا!؟ لقد صرخوا بأعلى أصواتهم طوال المعركة. ربما سيصرخون خلال نومهم».

«جاك كادي»

كاتب أميركي

رَسَمَ بورقيبة وبن يوسف نهايات متعددة لبعضهما بعضاً. فبعد أن ناضلا طويلاً معاً، فها هما يتحاربان منذ زمن بعيد وكأنهما قد ولدا لأجل تلك المهمة فقط. وقد نصب كل منهما للآخر كمائن لا تحصى ولا تعدّ، فبات كل منهما لا يعرف تقريباً متى يقع في الكمين الذي نصب لعدّوه أو لنفسه؟.

وباستثناء الموت صدفة لأحد الطرفين كحلّ لتلك الإشكالية المأساوية التي حطمت مسيرة البلاد وجعلتها تترنح بين الدناءات والمناورات والأحكام الاستثنائية، فإنه لم تكن هناك أية قوة قادرة على توجيه الدفة نحو المصالحة وترويض هذين الرجلين المفترسين.

اعتقد بن يوسف أن مأساة بنزرت هي ضربة موجعة لبورقيبة. وأنه الآن قد أصبح بلا شعبية في الداخل، وأن شطارته السياسية قد أوضحت أخيراً مدى تهاونه تجاه القوة. وأن فرنسا نفسها لم تعد متحمسة لحمايته لا سيما أن الجنرال ديغول قد شعر بمدى خذلانه من قبل بورقيبة ثم انحيازه إلى الصفّ الأميركي. وهذه الأشياء كلها أعطت لبن يوسف معنويات جديدة لمعاودة تحركه على الساحة العربية والدولية، خصوصاً أن الثورة الجزائرية قد أصبحت أمراً واقعاً وأن زعامة عبد الناصر الذي يدعمه قد ترسّخت. ولذلك فقد راح يستعدّ لمرحلة جديدة من الحرب مع خصمه العنيد «حاكم تونس بالدم والحديد».

لم يستبعد بن يوسف أية وسيلة للتخلص من بورقيبة، الاغتيال عن طريق السمّ والمسدس الكاتم للصوت، الانقلاب العسكري وتحريض الجيش ضده أو التحالف مع جيش التحرير

الجزائري وإعلان الحرب المفتوحة ضد النظام. أو حتى الدفع نحو توسيع الحرب الجزائرية لتشمل الأراضي التونسية كلها وحينها يتمّ اجتياح تونس من قبل الجيش الفرنسي. كان بن يوسف قد توصل تحت الرغبة في الانتقام من بورقيبة إلى الالتقاء موضوعياً مع رغبة المتشددين في الجيش الفرنسي الذين باتوا يهددون باجتياح تونس لمحاصرة المقاتلين الجزائريين وتهديم قواعدهم وبنيتهم العسكرية التحتية. ورغم أن بورقيبة كان دوماً بالمرصاد لرجال بن يوسف إذ استطاع أن يكشف في كل مرة عن كمائنهم ومحاولات اغتياله، إلا أنه لم يكن يشعر بالراحة أبداً ما لم يتخلص من خصمه جسدياً.

وقبل أن تصبح الجزائر مستقلة تحت سلطة يسارية يتخذ منها بن يوسف قاعدة للتحرك والهجوم، قرر بورقيبة أن يهشم رأس «الحية الرقطاء» لا أن يقطع جزءاً من ذيلها كما كان يفعل سابقاً في كل مرة.

هكذا سقط نبأ اغتيال الزعيم التونسي بن يوسف على مكاتب الصحف كخبر روتيني. وقد قال الخبر الصغير الذي سارعت إلى نشره صحيفة «الجمهورية» المصرية، إن «المحامي بن يوسف قد قتل نتيجة إطلاق رصاص على رأسه، وقد عثر عليه ميتاً في غرفته بفندق في فرانكفورت مساء يوم ١٢ آب/أغسطس ١٩٦١». أعادت بعض الصحف نشر الخبر كما جاء في صحيفة «الجمهورية» القاهرية، فيما أوردت صحف أخرى في تونس والدار البيضاء روايات قصيرة ومختصرة حول اغتيال هذا الزعيم. واتفقت جميع الروايات وطبقاً لما أورده البوليس الألماني «على أن بن يوسف استقبل ثلاثة من مواطنيه خلال ذلك اليوم في فندقه وقد صعد اثنان معه إلى غرفته، ثم جاءت زوجته في المساء إلى الفندق، فاكتشفت بحضور أحد موظفي الفندق أن زوجها قد أصبح جثة هامدة منذ بضع ساعات».

كان بن يوسف قد وصل لوحده إلى فندق «روايال». وفي بهو الفندق وجد ثلاثة من الرجال، هم من مواطنيه في انتظاره حسب رواية البوليس الألماني. اثنان ظلا صامتين طوال الانتظار، أما الثالث فقد كان يتكلم من حين إلى آخر مع موظفي الاستقبال بالألمانية. وحين وصل بن يوسف، تبادل الجميع التحية بحرارة وانهمكوا في حديث عاجل وحارّ، وفيما انسحب الرجل الثالث الذي يتقن الألمانية، قاد بن يوسف الرجلين الآخرين نحو المصعد ومن ثمّ نحو غرفته. بعد قليل من الوقت نزل الرجلان الغامضان من المصعد بهدوء ثم اتجها نحو الباب الخارجي ليختفيا إلى الأبد. فقد ذهبا مباشرة إلى المطار وركبا الطائرة المتجهة إلى زيوريخ (الساعة الثامنة مساء) ومن ثمّ إلى روما ليكونا صباح اليوم التالي في

تونس. وفيما كان الرجلان القاتلان يمتطيان الطائرة نحو زيوريخ، كانت السيدة بن يوسف قد قدمت إلى الفندق بعد أن تأخر زوجها كثيراً عن موعده معها. وحين فتح موظف الفندق غرفة بن يوسف، صرخت زوجته صرخة سمعها الجميع. لقد كان غارقاً في بركة من الدماء. أسدل الستار عن بن يوسف الذي بدأ كبطل شعبي وانتهى إلى ضحية لعملية بوليسية على الطريقة الأميركية وسوف لن يكشف عن بقية قصة ذلك الاغتيال، إلا حين يشارف بورقيبة سنوات الشيخوخة التي ستجعله لا يتوقف عن الثرثرة[1].

إذا كان بن يوسف لم يقتل بورقيبة، فلأنه لم تسعفه الوسائل والحبكات. أما بورقيبة الذي قتل بن يوسف فقد فعل ذلك دون أن يرفّ له جفن. كان كل واحد منهما يحاول أن يصطاد الآخر. وإذ أغمض بن يوسف عينيه لحظة، فقد فقد القدرة على فتحهما إلى الأبد. هكذا في اللحظة التي نشعر فيها بالاطمئنان نكون قد وقعنا في الفخ.!

* * *

يعتبر كل من صالح بن يوسف والحبيب بورقيبة، أن حزب الدستور الذي أنجز استقلال البلاد ما كان ليوجد بدون أحدهما. فإذا كان بورقيبة قد دعا إلى إنشائه في العام ١٩٣٤، فإن بن يوسف الذي التحق به في الحين انطلاقاً من باريس حيث كان يدرس هو الذي وسع قواعده وجعله حزباً جماهيرياً. ولأن كلاً منهما كان يعتقد أنه الأب الشرعي لهذا الحزب، فإن لا أحد منهما كان بقادر على قتل ابنه أو قطعه إلى نصفين. لقد أصرّ كل منهما أن يفتك بالحزب كله، وحتى وإن وجد من كان يدعو بورقيبة أو بن يوسف إلى تاسيس حزب آخر أثناء خلافاتهما المبكرة، فإن كلاً منهما كان يرفض تلك الفكرة. فهما على قدر هائل من المحبة والكراهية، وقد تساوت لديهما نزعة التدمير مع نزعة البناء وأنساهما الطموح والركض وراء المجد بعض الالتزامات الوطنية أو بعض المرونة لصناعة شراكة أكثر عطاءً وانفتاحاً. وإذ سار الإثنان بالسرعة نفسها، فقد كانا دوماً يصلان إلى النقطة نفسها ليجدا نفسيهما مضطرين إلى معاودة السباق. لقد أنهكا أنفسهما بالركض الدائم نحو المجد الشخصي فتعاونا من حيث لا يدركان على وضع البلاد في مسارات لم تكن أبداً من اختياراتها.

لقد كان الاثنان ينتميان إلى الأفكار السياسية نفسها، ولم يكن أحدهما يمثل تياراً فكرياً أو سياسياً يختلف عن الآخر. كما أنهما ينتميان إلى العائلة الثقافية نفسها إذ درسا في الصادقية وواصلا دراسة القانون في السوربون، إلى ذلك فهما من الجيل نفسه إذ لا يزيد

عمر بورقيبة عن بن يوسف إلا ٨ سنوات. ومنذ البداية برز الإثنان كصحافيين بارزين وخطيبين ماهرين ومحاميين ناشطين وزعيمين سياسيين من العجينة نفسها. ولو لم يكن بن يوسف ينتمي إلى جزيرة جربة وبورقيبة إلى بلدة المنستير[٢]، لاعتقد كثير من الناس أن بن يوسف ليس إلا أخاً أصغر لبورقيبة. فمعاً عاشا محنة المنفى في الجنوب التونسي في سنة ١٩٣٤. ومعاً سجنا في فرنسا في العام ١٩٣٨. ومعاً نزلا كضيفين على موسوليني في روما عام ١٩٤٣ بعد أن أطلق سراحهما، ومعاً عادا إلى تونس في العام ١٩٥٥، ولكن ما إن لاحت نتائج تلك المسيرة الطويلة حتى اختلف الرجلان ليفترقا إلى الأبد.

أثناء غياب بورقيبة في القاهرة من ١٩٤٥ إلى ١٩٤٩ تمكن بن يوسف من إعادة بناء الحزب إذ دفعه نحو التجذير حين طعّم صفوفه بالعديد من الشبان والعمال والنساء، فأمّن لنفسه مكانة عالية جداً داخل الحزب وأصبح هو الرجل الأول لهذا الجهاز الجبار الذي أصبح يتحدى الحماية الفرنسية. ومع ذلك فلم يكن في صف أولئك الذين طالبوا بطرد بورقيبة من الحزب لتهاونه والتصرف في أموال الحزب وفساد علاقاته الشخصية. وحين أصبح بن يوسف في الخارج عقب سفره كمبعوث عن الباي لتقديم شكوى للأمم المتحدة مع الوزير «محمد بدره»، تمكن بورقيبة بدوره من استرجاع سطوته على الحزب، وقاد هجوم إعادة الاعتبار لزعامته بالتعاون مع رجال جدد كانوا يعانون من سطوة بن يوسف. وقد استمرت تلك الحالة إلى حين الإعلان عن بدء المفاوضات على لسان «منديس فرانس» أثناء زيارته لتونس في أيلول/سبتمبر ١٩٥٤. في ذلك الوقت بالضبط سيبدأ الخلاف بين بن يوسف وبورقيبة الذي سيتحول إلى نزاع مسلح ينتهي باغتيال بن يوسف.

لم يكن بن يوسف يعارض مبدأ المفاوضات، خصوصاً أن لا بديل لديه حتى ذلك الوقت، ولكنه كان يريد أن يكون قائد تلك المفاوضات بلا منازع. بدأت تلك المفاوضات في البداية بحضور بن يوسف باعتباره وزيراً لدى الباي، ولكن بورقيبة الذي كان يراقب سير تلك المفاوضات من بعيد كان يترصّد الفرص لافتكاك مبادرة المفاوضات، فهو يعتقد أنه أكثر دهاء وحنكة. ثم كان يريد أن يمتلك شرعية الزعامة للحركة الوطنية من خلال تلك المفاوضات. وإذ رغب في أن يبقى بن يوسف على خطّ الباي، فإن بورقيبة كان يضغط باتجاه أن يتحول هو المركز لتلك المفاوضات، لأن الفرنسيين باتوا على قناعة تامة بأن الطرف الذي يتحكم في نصف البلاد هو حزب الدستور. إلى ذلك الوقت كان بورقيبة يلعب ورقة التشدد، ولكن بمجرد أن أصبح يمسك بخيوط المفاوضات حتى تبادل مع بن يوسف المواقع. ابتعد بن يوسف عن طروحات «الحكم الذاتي الناقص» شيئاً فشيئاً، وقد

ساعده في ذلك صعود نجم عبد الناصر وانطلاق الثورة الجزائرية، أما بورقيبة فقد انزلق شيئاً فشيئاً نحو القبول «بأي شيء للحصول على كل شيء»!».

أصبحت تهمة «الخيانة» جاهزة في فم بن يوسف. ولم يتأخر كثيراً حتى انفجر معارضاً لكل خطوات بورقيبة الصغيرة التي تقود إلى الكارثة!. وتحدث طويلاً عن ضرورة تحرير المغرب العربي من قابس إلى طنجة، محرضاً الجماهير على طرد الشيطان بورقيبة الذي يريد منهم التنكر لأخوتهم الجزائريين وذبح العروبة والإسلام بسكين فرنسا والصهيونية العالمية!.

حاول الباهي الأدغم أن يصلح بين هذين الزعيمين، وقد لامس حدود طموحهما، ففشل ثم انحاز إلى بورقيبة دون أن يفصح عن معاداته لبن يوسف[٣]. وإذ اقتنع بأن بورقيبة يمتلك مهارة القفز من موقع إلى موقع ويجاور الأحداث ويسير بمحاذاتها، وهو لا يفرّط في أي خيط، فقد أدرك أن نسبة نجاح بورقيبة تفوق نسبة نجاح بن يوسف. لم يكن حتى ذلك الوقت مَن بإمكانه أن يضع بن يوسف في صفّ التقليديين وبورقيبة في صفّ الحداثة. فالاثنان ينهلان من ثقافة واحدة والاثنان مغلقان على الوطن التونسي، والإثنان يتكلمان لغة سياسية واحدة، حتى وإن اختلفت بعض التعابير. والأكثر من ذلك أن الاثنين قد تعلما السياسة بالكيفية نفسها إذ غلبت على طباعهما وتصرفاتهما النزعة الحزبية. كان الشبه يقتل الخلاف في البداية، ثم أصبح الشبه هو الذي يدعو إلى القتال فيما بينهما. ولطالما تمنى الأول أن يكون في موقع الثاني، وتمنى الثاني أن يتخذ موقف الأول. لذلك فإن العداء حين نشب لم يعد بالإمكان التغلب عليه. فقد بدا وكأنه حريق قد اندلع في مزرعة قمح قبل الحصاد بقليل.

أدت الحرب الأهلية بين البورقيبيين واليوسفيين إلى طمس معالم ذلك الاستقلال. وتحول ذلك الإنجاز الذي طالما انتظره الأهالي إلى ما يشبه المأتم. وجاءت النتائج المفارقة لتعكس درجة الانحراف في المسيرة. وها هو الوطن الذي دُفع من أجله الكثير يعود متثاقلاً ومتعباً وجريحاً. وها هي الدولة الجبارة تتصاعد على حساب ذلك الوطن. إن الدولة التونسية الجديدة التي ولدت بمساعدة الإدارة الكولونيالية، مذعورة من المعارضة اليوسفية المسلحة وخائفة من الانزلاق إلى حرب أهلية ومتوترة تجاه النزاعات الديموقراطية ومتشككة في الهوية العربية والإسلامية، قد أنتجت آلة بوليسية جهنمية من طراز جديد لا يعرفه التونسيون من قبل. وهي آلة مؤطرة بفضل حزب عتيد، ومندفعة ومدعومة بسلطة الاستعمار السابق لقتل كل من يحاول الانشقاق أو الاختلاف أو البناء الديموقراطي!.

أعطت الحركة اليوسفية شيئين متناقضين لبورقيبة كان في أشد الحاجة إليهما: لقد ساعدته

من جهة على ابتزاز السلطات الفرنسية لإنجاز مراحل أخرى من الاستقلال بسرعة لم يتوقعها أبداً. ثم ساعدته من جهة ثانية على قتل أي خيار ديموقراطي وبسط سلطانه الفردي ووضع نفسه كبديل للحزب وكذلك للدولة. وفي النهاية جعلته يركض نحو أهدافه بسرعة غير اعتيادية. واليوم إذ نعرف أن بورقيبة قد اجتاح كل شيء، فإننا لا نعرف بالضبط ماذا كان سيفعل بن يوسف لو أنه كان في موقع بورقيبة؟! إن حدود طموح هذين الرجلين لا يلامس، بيد أن هناك من لا يجادل في أن بن يوسف كان سيفعل تقريباً ما فعله بورقيبة. رغم ذلك فإنه من الممكن أن نطرح عدة أسئلة حول ما إذا كان بن يوسف سيقدم على إطاحة الملكية مثلما فعل بورقيبة أو أنه سيكتفي بلعب الدور الذي لعبه علال الفاسي في المغرب، أي الدفع نحو ديموقراطية تعددية من جهة ومن أخرى الدفع نحو ملكية دستورية، وهو مسار لم يكتمل بسبب موت محمد الخامس المفاجئ في العام ١٩٦١. كذلك من الممكن أن يسأل المرء الآن حول ما إذا كان بن يوسف سيتبنّى الأطروحات الناصرية لو أنه كان في الصف الآخر أو ما إذا كان سيتبنى أطروحات الصف المتصلب في الثورة الجزائرية لو كان على رأس الدولة التونسية؟.

إن لا شيء يوضح أن بن يوسف كان أكثر عروبة أو ثورية أو مغاربية من بورقيبة، ولكن بالمقابل لم يكن هناك ما يؤكد أن بورقيبة لم يكن مستعداً للعب جميع الأوراق التي لعبها خصمه. بيد أن المهم في كثير من الأحيان ليس أن نلعب الورقة نفسها، ولكن المهم هو «اللاّعب» بتلك الورقة.. فمن لاعب إلى لاعب تختلف قيمة الورقة نفسها. ولكن ما لذي يمكن أن يحدث حين تكون الأوراق نفسها التي بيدك هي بيد خصمك؟!.

* * *

ساند بورقيبة الثورة الجزائرية إلى حدّ بدا فيه وكأنه يريد أن يصبح زعيم الشعبين. وسواء كان يناور أو كان مرغماً على فعل ذلك أو كان صادقاً في نواياه، فإن التاريخ سجل له فصلاً خاصاً به داخل كتاب الثورة الجزائرية. وهذا أيضاً ما فعله بن يوسف. لقد كان بورقيبة أحياناً صادقاً وأحياناً مرغماً على ذلك. فلو أنه لم يفعل ذلك لخان مبادئه التحررية واتهم بالأنانية وبقصر النظر لأن تحرير الجزائر لا يمكن أن يكون إلا في صالح استقلال تونس على مدى بعيد. هذا من ناحية الصدق. أما من ناحية المناورة فقد كان مضطراً أن يجعل من نفسه حلقة الوصل بين المتشددين وبين المعتدلين داخل الثورة، وكذلك حلقة وصل بين الثورة وبين باريس. ولأن بلاده كانت تقع بين كماشة جيش التحرير والجيش الفرنسي، فإنه أخيراً كان مرغماً على أن يناور دون أن يشعر بارتكاب أي ذنب، أو

بالوقوع تحت طائلة تعذيب الضمير من الممارسات الانتهازية. بن يوسف يبدو أكثر صدقاً ومبدئية في دعمه للثورة الجزائرية، ولكن والحق يقال كان أيضاً تقريباً بلا أية بدائل أخرى إذا أراد أن يحارب خصمه بورقيبة.

وكما ساند بورقيبة الثورة الجزائرية، فقد حارب وبشراسة ما تبقى من وجود فرنسي داخل تونس. وهذا أيضاً ما فعله بن يوسف. وسواء كان بورقيبة يناور ليكمل مشروعه السياسي، أو ليحمي سلطته، أو كان يجاري تيار التحرر الشامل لسحب البساط من تحت أقدام اليوسفيين، إلا أنه انساق في منطق محاربة فرنسا إلى حدّ دفع فيه ثمناً باهظاً توّج بمذبحة بنزرت التي راح ضحيتها ما بين ٥ أو ٦ آلاف ضحية وكذلك بقطع العلاقات مع باريس. وإذا كان وقوفه إلى جانب الثورة الجزائرية قد جعله يكسب الكثير في منطقة المغرب العربي، فإن محاربته لفرنسا قد جعلته يزيح عن كاهله لقب «ابن البطرونة البار» الثقيل والمليء بإيحاءات العار.

وثمة ورقة ثالثة لعبها كل من بن يوسف وبورقيبة هي ورقة عبد الناصر. لقد ساءت العلاقات في البداية بين عبد الناصر وبورقيبة وشارك في سوء تلك العلاقة المزاج الحاد والمعادي للروح المصرية عموماً لدى بورقيبة، وكذلك لتنافر الأمزجة بين بورقيبة وعبد الناصر. وحين انحاز عبد الناصر إلى وجهة نظر بن يوسف اكتملت الحالة العدائية وأصبحت تبحث عن ميدان معركة لتتنفس من خلاله. كان الميدان هو الثورة الجزائرية، ولكن حين تعرضت ساقية سيدي يوسف إلى قصف الطيران الفرنسي، وقف عبد الناصر إلى جانب تونس. واقتنص بورقيبة تلك الفرصة ليعيد العلاقات مع مصر، خصوصاً أن سيد العراق عبد الكريم قاسم قد دفعه باتجاه العضوية في الجامعة العربية لتشكيل مركز ثقل مواجه ومقابل لمركز الثقل الناصري. إلا أن العلاقات بين عبد الناصر وبورقيبة سوف لن تعود إلى صفائها إلاّ بعد مذبحة بنزرت[٤].

لقد اعتقد بورقيبة إلى حين أن بإمكانه، وعن طريق مناوشات هنا وهناك، أن يقطع الطريق على بن يوسف الذي يحظى بثقة لدى الزعيم عبد الناصر. لكنه لم يفلح في الوصول إلى هدفه. واعتقد للحظة ثانية أن عملية بنزرت التي قد تغري عبد الناصر بالمقارنة بينهما وبين عملية قناة السويس بدا أنه قد أحرز بعض النجاح. فمجزرة بنزرت قد جعلت عبد الناصر أكثر تفهماً لموقف بورقيبة، خاصة وقد سره قطع العلاقات مع باريس واستمراره في السماح لمرور السلاح القادم من مصر عبر ليبيا إلى جيش التحرير الجزائري.

ولكن ورغم كل ما طرأ على العلاقات بين كل من مصر وتونس والثورة الجزائرية وفرنسا،

فإن كل طرف من هذه الأطراف ظل متمسكاً بأهدافه: بورقيبة كان يريد تصفية المعارضة اليوسفية وخروج الجيشين الجزائري والفرنسي من بلاده. عبد الناصر كان يريد تحرير الجزائر وإيصال صديقه بن يوسف إلى الحكم في تونس وصديقه بن بلّة في الجزائر مع إهانة فرنسا التي تجرأت على ضرب ثورته في عام ١٩٥٦. جبهة التحرير الجزائرية كانت تريد مواصلة الحرب حتى لا تضعف موقفها التفاوضي ودون ضغط لا من فرنسا ولا من بورقيبة. أما باريس فكانت تريد ما يمكن أن يحفظ لها مصالحها الاستراتيجية في كل من الجزائر وتونس. كانت مستعدة للذهاب إلى منح استقلال للجزائر على أن يتولى القيادة الجناح المعتدل في الثورة، كذلك كانت تريد أن تصفح لبورقيبة عن أخطائه وتتجه إلى دعمه حتى لا تستبدله في حالة غضب برجل أصبح من رجال عبد الناصر.

لقد كانت سنة ١٩٦١ بحق سنة الغموض والاحتمالات والشكوك، ولكنها كانت أيضاً السنة الصفر للانطلاق نحو خيارات نهائية بالنسبة لمنطقة المغرب العربي. وفي ذلك الجو المضغوط، خرج الجنرال ديغول يقول إنه يريد «سلام الشجعان». وإذ أحس بورقيبة أنه قد يضطر إلى ركوب القطار بعدما يكون انطلق أو أنه سيصبح من المتخلفين البائسين في إحدى المحطات المظلمة، فقد جمع كل شجاعته ليضع نفسه في قلب المعمعة. ذهب أولا إلى رامبويه للقاء الجنرال، وحين عاد بلا نتائج، ذهب ليخوض معركة بنزرت. لم يكن مستعداً لانتصار الأحداث التي قد تطويه وتجعله من الماضي. كان فقط مستعداً للذهاب إلى الأمام حتى وإن كانت الطريق غير واضحة. فالخوف من استقلال الجزائر وتحالف الثورتين الجزائرية والمصرية بالإضافة إلى تحالفهما مع موسكو وتأسيس الوحدة السورية/ المصرية، كان لا يجعل بورقيبة يستسلم لا للنوم ولا للانتظار، ذلك أن التيار العروبي/ الإسلامي البعثي الذي اجتاح تونس قد أصبح يهدد أمنه وأمن نظامه.

إن خوف بورقيبة لم يكن كله نوعاً من الفوبيا أو من البارانويا المتطورة، بل كان فعلاً يرتكز على عدة عناصر واقعية. لقد تعرض الرئيس التونسي خلال السنوات الأخيرة ومنذ ١٩٥٧ إلى ١٩٦١ إلى أكثر من سبع محاولات اغتيال. وقد كاد أن يسقط في أكثر من واحدة من تلك المحاولات. وفي أواسط العام ١٩٦١ أصبح السباق بين بورقيبة وبن يوسف على أشده، فبدا وكأنهما قد أقسما على أن يرسل أحدهما الآخر إلى القبر. وحسب كثير من الشهادات، فإن بورقيبة قد لا يكون فكر في قتل بن يوسف إلا حين تأكد بأنه وضع في خيارين: إما أن يَقتل أو يُقتل.

رغم ذلك، فإن بورقيبة كان شبه مقتنع بأن بإمكانه أن يعيد بن يوسف إلى تونس لو

سمحت الظروف بلقائه، خصوصاً أن عبد الناصر لم يعد من المتحمسين لمعاداة بورقيبة. وتنبع تلك القناعة لدى بورقيبة من ثقته في نفسه ومن قدرته على إقناع خصومه مهما كانت حدتهم، لأن بإمكانه أن يجعلهم يؤمنون بأن الشياطين نصفهم ملائكة. وجاء موعد اللقاء بين الأخوين العدوين، فغضب البعض لأن ذلك لن يزيد إلا من تصلب بن يوسف، وهلل البعض الآخر لأن ذلك قد يؤدي إلى مصالحة وطنية، ولكن البعض الثالث الذي رأى في ذلك اللقاء بمثابة «الإنذار الأخير» الذي وجهه كل منهما إلى الآخر، كان وحده على حق.

* * *

كان الموعد في الثاني من أذار/مارس ١٩٦١. أما المكان فكان في زيوريخ وتحت حراسة البوليس السويسري. كان بورقيبة عائداً من الرباط بعد اشتراكه في جنازة محمد الخامس وكان قد ذهب إليها مباشرة من باريس بعد لقائه بالجنرال ديغول في رامبويه. أما بن يوسف فقد قدم من القاهرة مباشرة. كان شرط بن يوسف الوحيد هو أن يتم اللقاء تحت حراسة البوليس السويسري وبعيداً عن الحرس الرئاسي التونسي وكذلك بحضور العدد ذاته من الجانبين. كانت الثقة منعدمة تماماً، وقد بدا واضحاً منذ المصافحة الأولى أن ذلك اللقاء سيتحول إلى مهزلة.

وإذا صدقنا رواية بورقيبة، فإن اللقاء كان عبارة عن درس في الواقعية السياسية إلى جانب بعض التوبيخات الخفيفة. إذ قال بورقيبة لبن يوسف: «ما موقفك الآن بعد خمس سنوات وأنت كناطح صخرة بلا فائدة؟ ها نحن قد استرجعنا مقاليد السيادة وعلى وشك الظفر بالجلاء عن بنزرت؟». وحين أجاب بن يوسف «بأن ذلك كان بفضل معارضته»، عبّر له بورقيبة عن استغرابه لتمسكه بموقفه العنيد. ويواصل بورقيبة روايته قائلاً إنه حين انتهى اللقاء هبّ بن يوسف لمصافحته فنهره ثم سأله «ما إذا كان مصرًّاً على اغتيال بورقيبة بمسدس صامت أو بالسمّ» ثم قال له موبخاً: «أهذا هو جزاء ما فعلته معك؟ ألا تتذكر موقفك عندما كنت في برج البوف وأمضيت مع الجماعة رسالة الاستسلام والتمست لك الأعذار نظراً لصغر سنّك ومنحتك ثقتي وعيّنتك كاتباً عاماً للحزب»(٥).

أما إذا صدقنا الرواية التي انتشرت في شوارع تونس ومقاهيها وتناقلتها الألسن والأجيال إلى هذا اليوم فإن ذلك اللقاء هو الذي حكم فيه بن يوسف على نفسه بالإعدام. لقد شتم بن يوسف بورقيبة وأسمعه من الكلام البذيء ما جعله يرتعد غضباً، وتذهب الرواية إلى حدّ القول إن بن يوسف قام من مقعده ولطم وجه بورقيبة قائلاً له: «إنك لن تكون أبداً

رجلاً»، وذلك بحضور البوليس السويسري وعلى مرأى من وسيلة بن عمار التي كانت تجلس إلى جانب بورقيبة، ثم أضاف بن يوسف يقول: «أنت زعيم كما تقول عن نفسك لكنك زعيم الفساد، وهذا دليل على فسادك، كيف تسمح لنفسك أن تصاحب عشيقتك معك، وأنت رئيس دولة عربية ومسلمة»[٦].

وسواء بسواء، فقد انتهى ذلك اللقاء إلى مراكمة الأحقاد بين الرجلين. ثم خرج كل منهما يبحث كيف ينهي بقية القصة مع خصمه. وسوف لن يتأخر بورقيبة كثيراً حتى يضع البقية اللائقة لتلك القصة المفجعة التي عبرت بامتياز عن انحطاط علاقة حبّ مخذول بين رجلين شاءا أن يعيشا في سوء الفهم وفي درجة عالية من الضغط المرتفع. لقد ذهب بورقيبة مباشرة من زيوريخ إلى تخطيط مجزرتين. واحدة ستذهب بأكثر من ٥ آلاف مواطن في بنزرت والثانية سيكون ضحيتها زعيم لا يقلّ عنه شعبية هو: بن يوسف.

* * *

اختار بورقيبة لحظة التصعيد مع باريس، حين قررت القيادة العسكرية الفرنسية توسيع مدارج الطيران في قاعدة سيدي أحمد (بنزرت). لقد رأى أن شعبيته ستزداد في الداخل والخارج في جميع الحالات. وقد نظر إلى بنزرت كما نظر عبد الناصر إلى قنال السويس. فهي رمز التحرر الكامل من الاستعمار، ولذلك فإن مغامرة المواجهة تستحق العناء والمعاناة. وخلال يومي ٢١ و ٢٢ تموز/يوليو ١٩٦١، حسمت السلطات الفرنسية المعركة ميدانياً لصالحها حين ارتكبت مجزرة رهيبة في حقّ المواطنين العزل وبضع مفارز من الأمن والحرس والجنود. كانت الضربة موجعة جداً ولكنها لم تكن قاصمة لظهر بورقيبة إذ سرعان ما نهض من الرماد لاستثمار تلك الهزيمة العسكرية ديبلوماسياً. جلبت تلك المغامرة المأساوية لبورقيبة عطفاً كبيراً في القاهرة وداخل أوساط الثورة الجزائرية، وإذ اتهمه اليوسفيون بتقديم الأضاحي إلى باريس من أجل مجده الشخصي، فإنه سيعمل جاهداً على أن يكون ذلك الدم الخط الفاصل بين عهد وعهد آخر.

لم تكن حسابات بورقيبة خاطئة مئة بالمائة. فبعد مرور وقت قصير سيجد تفهماً في المجتمع الأممي لقضية بلاده. كما سيشق الرأي العام الفرنسي وسيحظى بتقدير مناضل جيد جداً في أوساط المتشددين العرب والمناضلين الجزائريين، وسيقبض على مقاليد السلطة كما ينبغي ليضع رجاله المفضلين في المراكز ـ المفاتيح، ثم يتجه لوضع مخطط لتصفية عدوه اللّدود بن يوسف.

وفي خطاب اخترقته الناقضات، ألقاه قبل يوم واحد من تنفيذ خطة اغتيال الزعيم بن يوسف، سيؤكد على اختياراته السياسية ووقوفه إلى جانب الغرب. وقد كان بإمكانه أن يتجه إلى الشرق، إلى موسكو لكنه لم يفعل ذلك لأن إيمانه عميق بالديموقراطية والليبرالية، كما سيشكر كل الذين وقفوا إلى جانب تونس في محنتها وسيخص عبد الناصر بفقرات من المديح العالي جداً، ويعطيه الحق في خياراته الخارجية وتحالفه مع موسكو لأن الغرب المتمادي في تجاهل العالم الثالث هو الذي دفعه إلى ذلك. وسيقول بورقيبة في ذلك الخطاب ما لم يكن يجرؤ على ذكره في السابق، فيتكلم لأول مرة عن القومية العربية والأمة العربية المناضلة، وسيطرح فكرة التضامن العربي والتقارب تدريجياً نحو وحدة عربية تقوم على الاحترام المتبادل. باختصار، كان ذلك الخطاب خليطاً من الأفكار الجديدة والأوجاع والمناورات التي يتقن بورقيبة جيداً طبخها وتقديمها في نسيج متماسك يغري أكثر أعدائه بالإستماع إليه وتصديقه أحياناً رغم تناقضه.

كان ذلك الخطاب المثير قد أعد بمناسبة اتخاذ قرار الاغتيال. لقد أعطى بورقيبة الأمر بتنفيذ الاغتيال قبل يومين فقط وذلك بحضور ومعرفة أربعة أشخاص فقط هم: محمد المصمودي وزير الإعلام والطيب المهيري وزير الداخلية ووسيلة بن عمار، زوجته المقبلة وبشير زرق العيون، وهو رجل المهمات الخاصة لدى الرئيس بورقيبة. سوف ينفذ كل واحد من هؤلاء جزءاً من الخطة. وسيلة أخذت على عاتقها ألاّ تترك بورقيبة يتراجع عن قراره. المصمودي سيتولى التغطية الإعلامية. المهيري سيتولى الإشراف على إعداد كل شيء: الرجال والأموال والجوازات. أما زرق العيون، وهو ابن جزيرة جربة مثل بن يوسف من يتولى استدراج الضحية وقيادة مجموعة الاغتيال انطلاقاً من أوروبا.

كان زرق العيون الذي كثيراً ما يسوق له بورقيبة كل أنواع المديح «لأعماله الجليلة» التي قدمها للحزب وللدولة التونسية، قد اختير للاتصال بين يوسف، وذلك لكونه على معرفة جيّدة به، وهو ما يسكّن كل شكوك الضحية. وبعد طلب اللقاء به في مصر أو في لبنان أو في أي مكان آخر للتباحث في إمكانية مصالحته مع بورقيبة، حصل زرق العيون على موعد مع بن يوسف في فرانكفورت، لكن زرق العيون لم يسافر إلى هناك حسب رواية بورقيبة. وهنا أرسل رجلين من رجاله في هيئة ضابطين من الجيش التونسي يريدان أن يطرحا على بن يوسف خطة انقلاب عسكري ضد بورقيبة. وفيما كان بن يوسف ينتظر الوسيط البشير زرق العيون، ظهر إلى الوجود الضابطان وهما «محمد الورداني» و«عبد الله بن مبروك»، وكانا على موعد كذلك مع بن يوسف. وأمام مرأى هيئة استقبال الفندق، صعد الرجلان

مع ضحيتهما إلى الغرفة، لينزلا بعد ربع ساعة ويختفيا في زحمة الشارع وهما يركضان نحو المطار. لقد كان هذان الضابطان هما القاتلان اللذان أرسلهما زرق العيون ليقتلا الزعيم بن يوسف.

أما الرجل الثالث الذي كان يتكلم الألمانية والذي لم يصعد إلى الغرفة والذي اختفى بمجرد أن ظهر بن يوسف في بهو الفندق، فقد كان دليلاً للقاتلين اللذين لا يعرفان الضحية وهو يدعى «محمد رزقي»، أحد مساعدي بن يوسف السابقين الذي جنده الطيب المهيري لتلك المهمة.

انتهت تلك المهمة كما كان مخططاً لها. وحين وصل زرق العيون إلى القصر مع رجاله قادمين من إيطاليا ليروى تفاصيل الاغتيال لبورقيبة، انتابت وسيلة نوبة من الزغاريد ثم جلبت البخور لتطوّح به فوق رأس زرق العيون الذي راح يقول لبورقيبة: «إذا أزعجك أحد في الغرب أو في الشرق، فأنا موجود»[٧].

أصبح بورقيبة عندما تخلص من أشرس أعدائه أكثر حرية وأكثر تسلطاً كذلك. وإذ حصل على دعم عربي وعالمي بسبب مجزرة بنزرت، فإنه قد حصل على السلطة كلها بعد مقتل خصمه بن يوسف. لقد تم ذلك كلّه خلال أقل من ثلاثة أسابيع. وفي ٣ أيلول/سبتمبر عام ١٩٦١ سيذهب إلى بلغراد لحضور مؤتمر عدم الانحياز، وهو رئيس لا ينازعه أحد في سلطانه، ثم هو صاحب قضية لا يجادل فيها أحد على أنها من أهم القضايا الساخنة في العالم: وهي تحرير بلاده كاملة والمساعدة على تحرير الجزائر.

* * *

في بلغراد التقى بورقيبة لأول مرة بالزعيم المصري عبد الناصر. كان قد رتب اللقاء الزعيم اليوغسلافي تيتو. وإذ وجد بورقيبة في ذلك اللقاء فرصة للظهور أمام التيار العربي وأمام الثوار الجزائريين إلى جانب الزعيم عبد الناصر ومباركة منه لسياسته، فإن عبد الناصر الذي لم يندد باغتيال بن يوسف قد أصبح مضطراً للتعاون مع رجل تونس القوي. تكلم بورقيبة كثيراً حول معركته مع الفرنسيين وسوء الفهم بينه وبين الجنرال ديغول، وكذلك عن خلافاته مع الثورة الجزائرية، وأوضح لعبد الناصر «أنه ينصح الجزائريين بالتمسك بخيار المفاوضات» ثم انتقل إلى لهجة ملؤها اللوم، فقال لعبد الناصر إنه قد يكون أخطأ في حساباته وهو يمد عدوه بن يوسف بالأسلحة والأموال وجوازات السفر. لكن عبد الناصر ظل هادئاً وكأنه أبو الهول نفسه. ولما تعب بورقيبة من الحديث والعتاب صمت فتكلم عبد

الناصر فمدح بعض إنجازات بورقيبة الاجتماعية وخصوصاً مجلة «الأحوال الشخصية» قائلاً: «لقد فعلتم شيئاً حسناً حين أصدرتم تلك القوانين الثورية. إنه شيء رائع ولكن للأسف الشديد فإنني لا أستطيع أن أفعل ذلك في مصر. إن ظروف بلادي لا تسمح بذلك الآن»(٨).

كان عبد الناصر يريد أن يكسب بورقيبة إلى جانبه بأي ثمن. فهو يحتاج إليه لتكتل عدم الانحياز، كما يحتاج إليه ربما للتأثير على مجرى الأحداث أثناء المفاوضات الجزائرية/ التونسية، وأخيراً فهو قد يحتاج إليه لجرأته على طرح أفكار لا يستطيع أن يجهر بها عبد الناصر بصوت عال (سيتضح ذلك مع خطاب أريحا في فلسطين). أما بورقيبة الذي أكثر من مديح الزعيم العربي فقد بدا حريصاً على أن يكسب ودّه، حتى وإن كان يشكو من طغيان زعامته.

بعد يومين من ذلك اللقاء، كان بورقيبة قد استلقى للراحة في بيت الضيافة ببلغراد، حين جاءه المصمودي حاملاً إليه قصاصة من وكالة الأنباء الفرنسية، هي الملخص الأولي لندوة ديغول الصحفية التي عقدها صباح ذلك اليوم (٥ كانون الأول/ديسمبر). «وإذا كان الجنرال لم يعلن الانسحاب الفوري من بنزرت، فقد اعترف بأن سيادة تونس على هذه المدينة خاضعة للجدل. وإذا كان كذلك لم يفتح باب المفاوضات للانسحاب، فإنه لم ينس أن يثني على بورقيبة ببعض علامات الإعجاب». حمل بورقيبة تلك القصاصة وراح يركض من غرفة إلى غرفة وهو في ملابسه الداخلية، ليطلع عليها مساعديه ووزراءه. وبعد نصف ساعة سيعلن بورقيبة لمراسل وكالة الأنباء الفرنسية في بلغراد: «إني أشعر بأن الجنرال ديغول قد أثار لأول مرة مسألة انسحاب الجيش الفرنسي من بنزرت». وحين قرأ ديغول تصريح بورقيبة، تشكّك في أمره إلى حدّ طالب فيه بإحضار النصّ الكامل لندوته الصحافية متسائلاً: «هل صحيح أنني قلت ذلك؟».

تلك اللعبة يجيدها بورقيبة جيداً. فهو لا يكذب بالمعنى المتعارف عليه للكذب، لكنه يدفع خصمه إلى قول ما يريد قوله لكنه لا يقدر على قوله. إنه أحياناً يجعل مخاطبه يقول ما سوف يقوله في وقت لاحق. إنه كذلك كثيراً ما يجعل النوايا تنطق. ورغم ذلك فقد فشل مرة أخرى في جعل الجنرال ديغول يقول ما يريد أن يسمعه بورقيبة. وما لم يفهمه بورقيبة في ذلك الوقت أن «بنزرت» ستبقى «رهينة» لدى ديغول ما دامت الثورة الجزائرية لم تهدأ.. وهو ما سوف يتضح مباشرة بعد اتفاقيات إيفيان واستقلال الجزائر.

بعد عودته من بلغراد سيعمل بورقيبة جاهداً على أن ينسى التونسيون بنزرت إلى حين.

وحتى يضع حداً نهائياً لتلك الأسئلة الماكرة حول ما فائدة أن يموت أكثر من ٥ آلاف مواطن على قضية خاسرة؟ فقد اتجه بورقيبة مباشرة إلى تقوية سلطاته كرئيس ووضع مسافة بينه وبين جميع الذين يحكمون معه إذ جعلهم يشعرون أنهم مجرد موظفين سامين في الدولة، وليسوا شركاء في الخيارات ولا في القرارات الكبرى. كان يعرف ما يريد منهم بالضبط وقد وضع كل رجل في مكانه المناسب. ومن حين إلى آخر كان يجعلهم يندمون لأنهم قاموا بأشياء لم يكلفهم بها. وباختصار، فإن عهد «الشراكة» أو عهد «الشركاء» في السلطة قد انتهى منذ حين ليبدأ عهد موظفي السلطة. كان حريصاً على الاحتفاظ ببعض الرموز الديناميكية. أما الآخرون الثرثارون أو السياسيون المحترفون أو هواة الشعارات الكبرى، فقد أبعدهم عن البلاط. احتفظ بأحمد المستيري كحصان طروادة داخل البورجوازية المدينية والذي سيلعب دوراً ممتازاً في تشريع كل الإصلاحات الاجتماعية التي تثير غضب تلك البورجوازية. وإلى جانبه احتفظ بالطيب المهيري (كوزير للداخلية) وهو رجل قاس جداً ويتحلى بأعصاب تؤهله لاقتراف ما لا يقدر غيره على ارتكابه مثل تهميش وتصفية ما يسمى بالحرس القديم لحزب الدستور. كما ساند الحبيب عاشور الذي دعمه في خلافه مع بن يوسف للسيطرة على قوى النقابات وتكسير شوكتها وإلى جانبه أحمد التليلي للعب دورين في غاية الأهمية في الوقت نفسه وهما: السيطرة على النقابات ولا سيما على الخلايا المناضلة والتي شاركت في الكفاح المسلح، ثم لتحييد جبهة التحرير الجزائرية ودعم الشق المعتدل فيها. وأخيراً احتفظ بأحمد بن صالح وذلك لإحداث التوازن به داخل النقابات ثم لوضعه على رأس التجربة التعاضدية التي ستعطي محتوى اجتماعياً جديداً لدولة بورقيبة خلال عقد الستينيات.

لقد بلغ الآن بورقيبة قمة قوته، خلع الباي ومعه رمى كل أعيان البلاد إلى النسيان. أبعد كل شركائه في مسيرة النضال. أنهى المقاومة اليوسفية ومعها وضع حدّاً لحياة زعيمها بن يوسف. أثبت أنه قادر على التمرد على أمّة فرنسا وعلى أكبر زعمائها التاريخيين الجنرال ديغول. وضع النقابات تحت إبطه. أما الحزب فقد أفرغه من نزعته النضالية وجعل منه أداة للحكم من أدوات دولته الحديثة. وفي النتيجة فإن بورقيبة قد أصبح أكثر من رئيس وأكبر من عاهل بكثير. «لقد جمع بين يديه دفعة واحدة سلطات الباي والمقيم العام الفرنسي» كما كتب أحد الصحافيين في مقال تحت عنوان «العاهل الجمهوري»[٩]. لم يبق إلى جانب بورقيبة من حرسه القديم سوى بضعة رجال هنا وهناك من بينهم الباهي الأدغم الذي استمر في قول «لا» و«نعم» على نحو ما أوصى به إنجيل مرقص، ذلك أن كل ما يأتي بعد لا ونعم هو من قبيل الشيطان. حتى محمد المصمودي، ذلك الذي رافق بورقيبة

منذ مطلع الخمسينيات كظله، قد اضطر إلى الاستقالة في العام ١٩٦٢. ففي هذه السنة (٦٢) التي سيتزوج فيها بورقيبة من وسيلة بن عمار على سنة الله ورسوله بعد رحلة طويلة من العشق والمغامرة والمعاشرة غير الشرعية، والتي سيتعرض فيها لأول مرة إلى انقلاب عسكري والتي ستستقل فيها الجزائر وتجنح إلى الهدوء ستكون بحق سنة اجتياز الخطر بالنسبة إلى بورقيبة.

لقد انتهت سنة ١٩٦١ الغامضة والمليئة بالمناورات والمؤامرات، إلى قتل صالح بن يوسف ومن ثم إلى قتل الديموقراطية حين صعد بورقيبة على الأكتاف ثم على الجثث ليصبح أحد جبابرة العرب والشرق الذين تمتلئ بهم كتب التاريخ. واستقل التوانسة سنة ١٩٦٢ وهم لا يعرفون أية فائدة جنوها من ذلك الاستقلال ثم من تلك الحرب التي دارت بين زعيمين يبحثان عن مجدهما الخاص والمعلق بين أرض خراب وسماء غاضبة وبخيلة.

لقد قضى بورقيبة نصف عمره الأول وهو يصنع الأعداء. أما النصف الثاني فسوف يقضيه وهو ينتقم من هؤلاء الأعداء. فمنذ الآن سيعرف بورقيبة كيف يهمل الذين ساعدوه وكيف ينتقم من الذين حاربوه، دون أن يهمل أحداً.

الهوامش:

(١) كشف بورقيبة عن حقيقة اغتيال الزعيم صالح بن يوسف. وقال أمام طلبة معهد الصحافة وعلوم الأخبار: إن الاغتيال تم في فرانكفورت. وأنه أعطى الموافقة على الخطة التي اعتمدها الفريق المنفّذ. وقبل ذلك، أي قبل عام ١٩٧٣ لم تعترف الدولة التونسية بما نُسب إليها. وقد تجاهلت كل التهم الموجهة إليها، واعتبرت أن الأمر لا يهمّها. وبالرغم من أن اغتيال بن يوسف الذي تم في ألمانيا كان عملية دنيئة بمقاييس السياسة والعلاقات الدولية، إلا أنه لم يثر تلك الضجة التي أثارها اغتيال الزعيم المغربي المهدي بن بركة في باريس عام ١٩٦٥، المؤلف.

(٢) الجذر الأول لعائلة بورقيبة يوجد في جربة. فهي عائلة مهاجرة من ليبيا كما أكدنا ذلك في فصول سابقة من الكتاب. ولم ينتقل منها إلى بلدة المنستير إلا فرع جدّ بورقيبة. وعلى هذا الأساس، فإن بن يوسف وبورقيبة هما أبناء بلدة واحدة، هي جزيرة جربة، المؤلف.

(٣) اتهم الأدغم بالانحياز لبن يوسف في البداية. وقد قيل أنه يلعب دور الجاسوس لصالح بن يوسف ثم اتهم بالازدواجية حين لعب دور الوسيط بينهما. وفي النهاية اتهم بخيانة بن يوسف وتصفية اليوسفيين مما جعل بورقيبة يضعه على رأس الوزارة كمكافأة له.

(٤) أنظر **مذكرات فتحي الذيب**، أحد مساعدي عبد الناصر والمسؤول الأول عن ملف الثورة الجزائرية، دار الحكمة، بيروت.

(٥) من رواية لبورقيبة أمام معهد الصحافة وعلوم الأخبار عام ١٩٧٣. أنظر كتاب: آرائي، حياتي، كفاحي، منشورات الحزب.

(٦) من رواية المصمودي والباهي الأدغم، أحاديث مع المؤلف في تونس وباريس، ١٩٩٠ - ١٩٩٣.

(٧) نفى زرق العيون تلك الحادثة - في أحاديث مع المؤلف جرت عام ١٩٩٣. لكنه أكد إشرافه على المهمّة، مهمّة اغتيال بن يوسف.

(٨) أنظر كتاب: S. Belhassen et S. Bessis, **Bourguiba' un si long régne.** Jeune Afrique-Livres, Paris, 1988

(٩) الصحافي الذي أطلق على بورقيبة لأول مرة لقب «العاهل الجمهوري» هو الفرنسي «شارل سومانغ».

سنوات الزفّة:

سرير الحب.. سرير السلطة

«أجل، كان ينبغي أن يستأنفا حياتهما من جديد، لكنْ كلّ منهما في عزلته».

«ألبير كامو»

رواية «الطاعون»

يُشبه هرم (عرش) السلطة القبر الذي لا يتسع لأكثر من واحد، لكنه على عكس سرير الحب الذي لا يستوي إلا بحضور عاشقين اثنين. ومع ذلك فقد بدا الأمر للعاشقين الحبيب بورقيبة ووسيلة بنت عمار، كأن عرش السلطة لن يستوي لهما إلا حين يستوي سرير الزواج. وهكذا ما إن امتلك بورقيبة شرعية العرش، حتى راح يؤثث لشرعية السرير. لم تكن فكرة الزواج طارئة، بل هي قديمة جداً وقد خضعت للتأجيل عدة مرات إذ بقدر ما كان الأمر محسوماً بينهما، بقدر ما كانت العراقيل والأحداث المفاجئة تتدخل لإحباط ذلك الزواج وكأن القدر كان يستجيب لدعاء تلك العجوز المسيحية التي أصبحت مسلمة وتحمل اسماً عربياً «مفيدة». لقد كان بؤس الزوجة «مفيدة» لا يضاهيه إلا حزن ابنها الذي لم يعرف كيف يقنع والده بالتخلي عن فكرة الطلاق من أمّه «مفيدة» والزواج من وسيلة[1].

كانت «ماتيلد» التي دخلت إلى الإسلام في العام ١٩٥٨ بعد أن أصبح عمرها ٧٠ سنة! قد رفضت فكرة الطلاق في العديد من المرات وظلت على تربيتها المسيحية التقليدية. وإذ أدركت من العمر أرذله حيث كانت تكبر بورقيبة بحوالى ١٢ عاماً، فقد رضيت بأن يكون لزوجها عشيقة، حتى لا تضطر إلى الطلاق. ولكن تحت إلحاح بورقيبة وكذلك إلحاح ابنهما، فقد تماثلت شيئاً فشيئاً واستعدت نفسياً لتلك الصدمة بعد أن وضعت شرطين اثنين. إنها تريد أن تظل حاملة للقب زوجها السابق «بورقيبة»، كما هي تريد أن تدفن في تونس في أرض الإسلام إلى جانب ابنها. وقالت وهي تمسح دموعها «للباهي الأدغم» الذي ذهب لإقناعها: «إنني مسلمة.. وإنني لا أتمنى أبداً أي مكروه للرئيس..

ولكن أتمنى من الله أن يجعل مني شاهدة».[٢] كان ذلك في بداية شهر تموز/يوليو ١٩٦١. وحين تبلغ بورقيبة بالموافقة، انحنى على وسيلة قائلاً لها وهو يداعبها: «لقد رفضت كالعادة». وقبل أن تجتاح وسيلة موجة غضب، أضاف: «لا داعي للغضب، لقد وافقت على الطلاق لكنها رفضت أن تنزع لقب بورقيبة عن اسمها»[٣].

وفيما كانت بنزرت تحترق تحت قنابل الجيش الفرنسي والجثث تنتشر على الشوارع والأرصفة، وكأنها أسماك ميتة قد دفع بها البحر إلى اليابسة، طلب بورقيبة من رئيس المجلس التأسيسي «جلولي فارس» ووزير دفاعه «الباهي الأدغم» أن يحضرا معه إلى جلسة الطلاق. إن وسيلة التي طالما انتظرت موافقة مفيدة على الطلاق، لم يكن بإمكانها أن تنتظر حتى تنتهي أزمة بنزرت. لقد أصرّت على أن يكون الطلاق يوم ٢١ تموز/يوليو، أي في اليوم نفسه الذي وقعت فيه مذبحة بنزرت، ولم يكن بورقيبة قادراً على تأجيل ذلك لأنه كان يريد أن يريح أعصابه من «نقنقات وسيلة ليتفرغ لعويل الوطن الجريح».

لم يعد طريق الزواج طويلاً الآن. وإذ أصرت وسيلة على أن يتم الزواج بإحدى المناسبات الكبرى مثل ذكرى سقوط الباي (٢٥ تموز/يوليو)، فإن ذلك لم يكن أبداً ممكناً لأن موعد الذكرى لم يبق عليه إلا أربعة أيام بينما ليس من المعقول أن يتم حفل الزواج في مثل تلك الظروف الكئيبة. واقترح بورقيبة أن يتم حفل الزواج في ذكرى الاستقلال (٢٠ آذار/ مارس)، فوافقت على ذلك بضجر. وحين تم اغتيال صالح بن يوسف في ١٢ آب/ غسطس، رأت وسيلة أن الفرح سيكون على غاية من الفخامة والضخامة لو أن مقتل بن وسف قد أعقبه حفل الزواج، لكن بورقيبة رفض ذلك الاقتراح بسبب أن ظروف البلاد لا تسمح بذلك إذ سيشعر أغلب السكان، وكأن الأمر شماتة.

ولأن ذكرى الاستقلال قد حلّت وسط مشاغل كثيرة، فإن الزواج قد تأجل مرة أخرى بنحو شهر. وفي ١٢ نيسان/أبريل، كان قصر السعادة بالمرسى، وهو قصر البايات سابقاً، قد أعدّ جيداً لاستقبال حفل زواج القرن التونسي. فأخيراً انتهت أكبر قصة حبّ كما تنتهي عادة أصغر قصة حبّ بالزواج. وسواءً كان قرار الزواج تعبيراً عن لحظة حب وصفاء من جانب بورقيبة، أو كان نتيجة دلع ومساومة من جانب وسيلة، وسواء ولد ذلك الزواج من قصة حب طويلة بين عاشقين كبيرين أو نتج عن حسابات عقلية ودقيقة، فإن التاريخ سيضع ذلك الزواج كإحدى المحطات الهامة لارتباط طبقة اجتماعية بطبقة أخرى في تونس لما بعد الاستقلال. إن كثيراً من الحبّ قد لا يصنع زواجاً، ولكن قليلاً من المصالح

المشتركة قادرة على صنع أكثر من زواج. وهكذا إذا كان العرس قد بدا أكبر من مجرد حفل فلأنه قد اختلطت فيه الأحاسيس الكبرى بالمصالح الكبرى.

* * *

فتحت قاعة الاحتفالات الملكية الكبرى بقصر السعادة بعد أن ظلت مغلقة لمدة تزيد على أربع سنوات. ونصبت بداخلها منصة اعتلاها كل من بورقيبة ووسيلة وهما جالسان على كرسيين ملكيين. حضر إلى ذلك الحفل أكثر من ٢٥٠ مدعواً، هم من رجال الدولة وأعيان البلاد وأصدقاء وسيلة وأفراد عائلتها. تبادل الجميع التهاني والابتسامات وتقدم أفراد نحو المنصة لتهنئة العروسين. ودعا مفتي الجمهورية لهما بالسعادة والتوفيق ثم انسحب، أما الحبيب الابن، فلم يلاحظ وجوده في ذلك الحفل. كان بورقيبة ابن الواحدة والستين صامتاً وهو يحدق في الحاضرين بعيون يملأها الاستعجال والخوف مما قد يحدث في الخارج. أما وسيلة ابنة الخمسين سنة فقد كشفت عن ابتسامة جامدة استمرت معها إلى آخر الحفل. لقد حقق أخيراً كل من هذين العروسين نصف حلمه، والآن على كل منهما أن يحقق ما تبقى من طموحاته أو نصف حلمه الثاني. لقد ناضلا معاً من أجل أن يتزوجا، والآن ها هما يتزوجان ليحكما معاً.

وحين وقف الطيب المهيري وزير الداخلية، ورئيس بلدية المرسى أمام العروسين، سيطر صمت عميق على القاعة المكتظة بالسادة والسيدات الذين لا تعوزهم الحيلة لاختراع الثرثرات. قال المهيري، ذلك الذي كثيراً ما يلقب «ببيريا التونسي»، وهو رجل دولة من طراز أول ورجل علاقات عامة من طراز عال، وقد عرف بورقيبة طويلاً من خلال العمل معه وعرف وسيلة كثيراً لأن عائلته كانت تجاور عائلتها: «إن الرئيس يختارك كزوجة له، وهو سيرفعك إلى أعلى مقام تتمنى كل تونسية أن تصله. إن سلامة الرئيس وهدوءه وسعادته هي الآن بين يديك. فهل تقبلين بذلك؟».

لم تكن تلك الكلمات مجرد عبارات تقليدية تقال في مثل هذه المناسبات، وإنما المهيري الذي عرف «وسيلة» طويلاً، كان يدرك أيضاً أنه المسؤول الأول في الدولة عن حماية أمن الرئيس ولذلك فإنه اختار منذ البداية أن يتعاون مع وسيلة على حماية أمن ذلك الرجل، الذي هو زوجها والذي هو رئيسه. لقد عمل المهيري منذ أن أصبح وزيراً للداخلية جنباً إلى جنب مع بورقيبة. وقد مثل دائماً النواة الصلبة داخل حزب الدستور والدولة البورقيبية. فقد شارك في وضع خطة الهجوم على قاعدة سيدي أحمد بينزرت (يا لها من خطة!)، كما وضع خطة اغتيال بن يوسف (يا للتعاسة!) وشارك في التسلل إلى جبهة التحرير

الجزائرية وضرب اليوسفيين بيد من حديد. وخلال ذلك كله عرف الكثير من الرجال والأسرار والأوضاع في البلاد، فكان رجل دولة بامتياز ورجل علاقات عامة ورجل مخابرات، إلى جانب كونه ينتمي إلى ما يعرف «بالبلديين»، أي سكان العاصمة. وبذلك الرصيد كله، كان الطيب المهيري مفيداً «لوسيلة» بحجم فائدته لبورقيبة. وكما فكر المهيري في كسب «وسيلة»، فكرت وسيلة في كسب المهيري ليشكّلا نواة الجناح المسيطر على قرارات بورقيبة. كانت «وسيلة» تتحسس مصالحها عبر حسّها السليم وفنها العالي في حبك المناورات وقدرتها على نسج العلاقات وسحرها الطاغي وكذلك أنوثتها رغم تجاوزها الخمسين. كانت تعرف كيف تخلط ذلك كله لتستخرج منه أسلوباً جديداً في الحكم. كانت على درجة عالية من معرفة الرجال إذ كثيراً ما يفتحون صناديق أسرارهم أمامها بمجرد كلمة مديح أو ابتسامة أو مزحة خفيفة. وفي حضرة بورقيبة، كان يكفي أن تنطق بكلمة جيدة في حق فلان حتى يطير بجناحين من المال والسلطة. أما إذا أرادت أن تطيح رجلاً ما، فإنها تعرف كيف تقْول فكرة غامضة حول ذلك الرجل أو تتساءل عن جدوى ما يقوم به. لم تعط أية فرصة لبورقيبة لكي يشعر بأنها أرغمته على الزواج منها. بل كانت حريصة باستمرار على إشعاره بأنه هو الذي اختارها كزوجة. وحتى في حالات الغضب، فإن وسيلة لم تنس أبداً أن تقول لبورقيبة بأن زواجه منها ليس قدراً. إذ يمكنه أن يطلقها في أية لحظة؟[٤] إن وسيلة التي تعرف جيداً طباع الرجال الشرقيين حتى وإن درسوا في مدارس الغرب وأصبحوا رؤساء جمهوريات علمانية أو لائكية، قد عرفت كيف تنفذ إلى قلب بورقيبة ليس فقط عن طريق الحبّ وقوة الشخصية والقدرة على المناورة وسحر القماشة، وإنما أولاً وقبل كل شيء عن طريق تعويض كل النقص الذي يعاني منه بورقيبة في حياته إذ كانت تحضنه كعاشقة وأم ومربية وحارسة وراوية للأخبار والحكايات. لقد قيل كثيراً إن هذين الزوجين قد أكملا بعضهما بعضاً. ولكن إذا كان بورقيبة قد منح لوسيلة السلطة والمال والمجد فما الذي تكون وسيلة قد منحته لذلك الرجل الذي لا تنقصه لا السلطة ولا المجد، ولا حتى حبّ الناس؟.

كانت وسيلة غالباً ما تبدو وكأنها هي التي وضعت تاج السلطة على رأس بورقيبة. فإذا كانت الزوجة الأولى «ماتيلد» قد حررته من عقدة الإخصاء وأخرجته من عالم المراهقة حين جعلت منه أباً، فإن وسيلة الزوجة الثانية قد حررته من عقدة الخوف من الرجال ودفعت به إلى صراع المجد وجعلت منه رجلاً يخيف كل الرجال بعدما كان يخاف من جميع الرجال. ففي كل مرة كان يضعف فيها بورقيبة ويفكر في التخلي عن السياسة، كانت وسيلة هي التي تشدّ من عزيمته لكي ينهض مسرعاً وبقوة. لقد أحسّ بالعزلة في

القاهرة فجاءته لتزرع فيه التحدي وشعر بالخيبة بعد عودته من المنفى في ١٩٥٥، فشدت على يديه ودعته إلى النهوض. وكاد أن يستسلم لهجوم صالح بن يوسف، فدعته وسيلة للمنازلة. وتلقى إهانات حارقة من بن يوسف، فدفعته إلى اغتياله. كان يستجيب بكثير من الاستسلام لوسيلة. وإذ كان يحتاج إلى من يسانده، فقد كان كذلك يريد أن يؤكد لحبيبته ككل عاشق أنه قادر على فعل كل شيء يرضيها. فحين يحب المرء يصبح المستحيل لا وجود له، فيما يحمل كل شيء حتى وإن كان رذيلاً قيمة أخرى.

كانت فعلاً امرأة تمتلك قلباً يتسع لكل أنواع الأحاسيس وعقلاً مركباً بحسابات وتوترات الأنوثة والذكورة معاً، وعينين واحدة ترى بها ما يجول وراءها وأخرى تتحسس بها ما يتحرك أمامها. إلى جانب ترسانة من الأسلحة الكلاسيكية والحديثة تتكون من شبكة من العلاقات والحواس والعيون والخطب والأسرار، وهي بذلك جعلت من نفسها وعلى مدى سنوات عديدة وكأنها امرأة مصنوعة من كروموزوم الرجال أو هي «الرجل» الوحيد في تونس بعد بورقيبة في، عصر بورقيبة!.

لكن الرجل الأول ذلك الذي وضع على رأسها تاج السلطة ذات يوم ليس هو «ماركوس» الفيليبين الذي كان يدير أعمال زوجته «أميلدا» ولا بابادوك هاييتي الذي كان تقريباً طفلاً يلهو عند أقدام السيدة «ميشال»، وإنما كان رجلاً من طينة أخرى يعرف كيف يلعب بقلوب النساء ورؤوس الرجال. فـ«وسيلة» حتى وإن كانت الرجل الوحيد في هيئة امرأة في بلاط بورقيبة، فهي لم تكن أكثر من مدير أعمال ذلك الرجل الأول: بورقيبة.

كانت تبدو كسيدة من القوقاز، صلبة وقوية وعنيدة، وحين ترتدي معطف الفرو في الشتاء وتضع على رأسها قبعة سوداء تزداد ضخامة وقوة لكنها تظل توحي بأنها ذات سحر لا ينضب. أما حين تجلس على أريكتها الوثيرة وهي غارقة في قفطانها الحريري الواسع والمشجر، وهي تحدق في صورة صباها المعلقة على جدار صالون الاستقبال الخاص بها، فإنها تصبح كملكة شرقية تحصي السنوات التي مضت، والسنوات التي بقيت أمامها. وإذ كانت في صورتها المعلقة على جدار الصالون تشبه إحدى ممثلات هوليوود في الخمسينيات، كل ما فيها يوحي بأنها ستكون امرأة شهيرة، فمها يتقطر طموحاً، عيناها تشعان بالذكاء ووجهها الدائري يقترب من وجه إليزابيت تايلور، فإن ظهورها إلى جانب بورقيبة فوق سيارة مكشوفة وهي تشق الشوارع سيجعلها تعيش تلك الأحلام كحقائق طازجة.

* * *

وها هي تظهر في نيسان/أبريل من العام ١٩٦٢، وبعد إتمام مراسم عقد القران في قصر السعادة بالمرسى، إلى جانب زوجها الثاني الرئيس بورقيبة، وهي تحيي الجموع بيدين بيضاوين، وصدرها مكشوف على نحو فاضح. كانت قد بلغت العقد الخامس، رغم ذلك فقد احتفظت ببريق هو خليط من نشوة السلطة وفتنة التملك وسحر القماشة. قفازان أبيضان من المخمل يغطيان يديها إلى ما تحت المرفق بقليل، تسريحة تنتمي إلى موضة الستينيات السائدة (قصة جان دارك) وهي تتناسب مع سنّها وهيئتها، وفستان مشجر يكشف عن صدر مكتنز وأكتاف عريضة عليها بعض النمش. وقد حلّ عقد من الألماس والزمرد الفارسي محل كميات من الذهب على جيد تحول إلى عنق ممتلئ بفضل تراكم زيوت النعومة والترف ودفء الديار العامرة!.

وقد أصبحت تلقب بالماجدة، سيدة تونس الأولى، فقد احتلت صورها جدران البنايات ومكاتب الإدارات وبيوت الحزبيين ودكاكين التجار والجزارين وبائعي الخضار والغلال في المدن والقرى. لقد أصبحت «وسيلة بنت عمار»، وسيلة بورقيبة. فبعد حوالى ٢٢ سنة من المعاشرة والحب، ها هي تدخل إلى قصر قرطاج كزوجة شرعية لتخرج منه في شكل قرارات وملصقات وأحلام وأوهام، ذلك «أن الأمّة التي كانت مجرد غبار[٥]، قد بدت وكأنها عثرت أخيراً على أبيها وأمّها».

فحين استقر بورقيبة ابن البورجوازية الصغيرة، وابن الساحل الذي ظل لعقود شبه مهمش، على مقعد الرئاسة خلفاً لأرستقراطية البايات المتحالفة مع بورجوازية العاصمة وأعيان العائلات الكبرى في البلاد، لم يكن يحتاج إلى الخطاب السياسي أو الكادر الحزبي والإداري أو حتى إلى الشرعية التاريخية، وإنما كان يحتاج إلى تلك البورجوازية الكبرى. لقد وعى بورقيبة تلك الحقيقة مبكراً ومنذ أن اقترب من بلاط السلطة وهو لم يغفل أبداً عن احتضان عدة رموز لتلك البورجوازية المدينية. فأحمد المستيري أو الطيب المهيري كانا في نظر بورقيبة الجسر الذي سيعبر فوقه للتحالف مع الطبقة التي ابتعدت عنه والتي رأت فيه نذير شؤم. أما «وسيلة بن عمار»، فهي التي ستدعم ذلك التحالف عن طريق المصاهرة بعائلة كثيرة العدد حتى أن أحد الوزراء قال ذات مرة: «حين يهجم عليّ النعاس، ألجأ إلى تعداد تلك العائلة»[٦]. إن عائلة بن عمار المتحدرة من الشمال الغربي والتي ورثت الدماء الزرقاء عبر المصاهرة مع العائلات التركية والمال والأراضي عبر التعاون مع فرنسا، ثم أصبحت من سكان العاصمة، كانت من أهم أجنحة تلك الطبقة التي يريد بورقيبة كسبها ليكسب معركة بناء الدولة الحديثة التي يريدها!.

وفي الحقيقة لم يكن بورقيبة فقط هو الذي سعى إلى كسب بورجوازية العاصمة عن طريق المصاهرة مع وسيلة وإنما والد وسيلة نفسه الذي لم يعارض علاقة ابنته ببورقيبة حتى حين كانت متزوجة من رجل آخر، والذي هو ملاك كبير للأراضي قد سعى هو الآخر لكي تتزوج ابنته من رئيس الدولة الجديد للحفاظ على ممتلكاته وتراكم ثروات العائلة. وقبل أن يكبر شقيق وسيلة ويصبح دينامو الجيل الثاني في عائلة بن عمار، سبقته أخته إلى فراش السلطة لتصبح الشريك الذي ينام على وسادة القرارات الكبرى. إن المصاهرة كانت دائماً مدفوعة بالحفاظ على الملكيات وهي ليست إلا أحد أشكال علاقات التحالف بين قبيلة وأخرى أو بين عائلة وأخرى أو بين طبقة وأخرى، وهذا ما يجعل في أحيان كثيرة فتاة في مجتمع ذكوري أكثر أهمية وفاعلية من ألف رجل!.

* * *

رأى بورقيبة وسيلة بنت الحاج محمد بن عمار لأول مرة في بيت ابنة عمتها «بيّة». كان ذلك في أواسط الثلاثينيات، حين التقى بها صدفة إذ كان في زيارة لبيت أخيه أحمد. كانت «بيّة» ابنة عمّة وسيلة هي الزوجة الثانية «لأحمد» شقيق الحبيب بورقيبة الثاني الذي كان يعمل كوكيل عام.

لقد ذهب الحبيب إلى بيت أخيه آنذاك للتوفيق في خلاف عائلي نشب بين أحمد وابنه فريد. كان فريد ابن أحمد قد ولد من امرأة ثانية من المنستير هي «بيّة بنت الرايس»، اضطر إلى طلاقها أثناء حملها «بفريد» بعد أن راجت شائعات حول سمعتها الأخلاقية. وقد تربى فريد مع والده وزوجة والده «بية ابنة أخت محمد بن عمار» الذي هو والد وسيلة، فعرف معها كل ألوان العذاب والإهمال إذ عاملته بقسوة كربيب هيمنت على والده بشكل لا يطاق مما سيدفع الابن «فريد» ليتمرد على عائلته مبكراً وينهمك في العمل السياسي كمتطرف كبير إلى درجة أنه سيحاول قتل عمّه بورقيبة لحساب صالح بن يوسف. ولكن كيف انقلب فريد على عمّه؟.

لقد تربى ذلك الشاب محروماً من أمه ومهملاً من قبل زوجة أبيه (ابنة عمّة وسيلة). ورأى بعينيه كيف أن والده قد أصبح مهاناً من قبل زوجته وكذلك من جميع أفراد عائلة بن عمار، فنما حقد دفين تجاه كل أفراد العائلة. وحين رأى عمّه لاحقاً قد انحاز إلى «وسيلة» وأصبح عاشقاً لها، شعر بأن زوجة أبيه «بيّة» هي التي دبرت أمر تلك العلاقة. فبات ناقماً على الجميع بما في ذلك عمّه الحبيب بورقيبة. أنجبت بيّة أولاداً كثيرين لأحمد، وقد كبر هؤلاء على احتقار أخيهم الكبير «فريد» بتشجيع من أمهم، وهذا الأمر إذ لم يعجب العم

الحبيب في البداية وهو يرى ابن أخيه يهان في بيت أبيه وكذلك في بيت آل بن عمار، فإنه أصبح يغض عنه الطرف حين تأكدت علاقته فيما بعد مع «وسيلة بنت عمار».

تعددت اللقاءات بين الحبيب المتزوج من «ماتيلد الفرنسية» ووسيلة المتزوجة من الطبيب «علي الشاذلي»، مرة في بيت ابنة عمتها «بية» وأخرى عند ابنة أخته سعيدة ساسي، ثم توقف كل شيء حين أصبح بورقيبة في المنفى. وبعد عودته من المنفى أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد أطلق سراحه من قبل دول المحور، التقى بورقيبة ثانية بالسيدة وسيلة. كانت تبلغ من العمر حوالى ٣٠ سنة وقد أصبحت أماً لفتاة في طور المراهقة تدعى «نبيلة». وحين لمحها بورقيبة في بيت أخيه ثانية (أحمد المتزوج من بيّة)، وكانت من بين النساء اللاتي جئن لتحيته، تقدم نحوها ليقبّل يديها على مرأى من النسوة وهو يردد: «ألم أقل لك منذ لقائنا الأول إن النساء لا يحتجبن من الزعماء والأطباء». ارتعش قلبا الحبيبين مرة أخرى فاستيقظت حرارة كانت قد بدأت تنطفئ بفعل البعاد ثم ما لبثت أن ارتفعت درجتها إلى حد أصبحت مكشوفة للجميع[٧].

لم يمكث بورقيبة بتونس بعد عودته من المنفى إلا قليلاً من الوقت. فقد سارعت الأحداث فقلبت الموازين السياسية لصالح الحلفاء. وجد بورقيبة نفسه مطارداً لاتهامه بالتعاون مع دول المحور التي أطلقت سراحه، فاضطر إلى السفر إلى مصر. وليلة خروجه إلى جزيرة «قرقنة» لاجتياز البحر نحو طرابلس، حاول أن يمر على بيت وسيلة لوداعها، وفيما هو يجتاز نهج الوادي نحو نهج بوخريص حيث تسكن وسيلة مع زوجها الطبيب «علي الشاذلي» تراجع عن فكرته خشية أن تضعف نفسه ويقع ما لا تحمد عقباه، ولسان حاله يردد مرة: «أمرّ على الديار من غير حاجة لعلّي أراكم أو أرى من يراكم» وأخرى: «أمرّ على الديار ديار ليلى/ لألثم ذا الجدار وذا الجدارا»[٨].

وإذ استقر بالقاهرة، فقد ترك حبيبته وسيلة في صراع مرير مع نفسها وكذلك مع زوجها وأهل زوجها. لقد توترت العلاقة بين وسيلة وبين عائلة زوجها بعد أن أفصحت عن العلاقة التي تربطها بزعيم حزب الدستور، لكنها لم تكن أبداً مستعدة للطلاق ما لم يطلق الحبيب زوجته ماتيلد. وخلال إقامته بالقاهرة تحول بورقيبة إلى كاتب رسائل. فهو يكتب أسبوعياً ما لا يقل عن ستّ رسائل، واحدة لوسيلة وأخرى لزوجته ماتيلد وثالثة لابنه ورابعة لابنة أخته سعيدة ساسي وخامسة للحزب وسادسة إلى أحد أصدقائه، غير أن بورقيبة المغرم بوسيلة إلى حد الجنون والذي قال لها مراراً وتكراراً «بأنه مستعد لكل ما تطلبه بما في ذلك تخليه عن العمل السياسي»، لم يكن أبداً رجلا وفياً لا مع وسيلة ولا مع غيرها. ففي

القاهرة أصبح يعاشر نساء كثيرات. بل استطاع عن طريق المال والسيارة التي يملكها «سيتروين» أن يوقع بالعديد من النساء. ارتبط في القاهرة بسيدتين مطلقتين واعداً إحداهما بالزواج وقد أرسلت تشكوه إلى مكتب المغرب العربي ثم حضرت لدى المرحوم علال الفاسي بحضور الحبيب ثامر ومعها طفلة قالت إنها ابنتها من بورقيبة. وهذه السيدة التي كانت تدعى «سكينة» قد اعترف بورقيبة بعلاقته بها لكنه لم يعترف بالطفلة التي تدعي أنها ابنته. أما السيدة الثانية التي تدعى «وهيبة» فكانت من صنف آخر من النساء لا يليق «بالزعماء» كما سيكتب ذلك الحبيب ثامر في إحدى رسائله إلى صالح بن يوسف أمين عام الحزب، فهي على شاكلة تلك المرأة التي ارتبط بها في الإسكندرية، ابنة الفنان سيّد شطا[٩].

اغتاظت وسيلة حين عرفت أن حبيبها ليس إلا زير نساء، وهو رجل لا يبحث إلا عن الملذات والنساء في القاهرة كما قال عنه رجال الحزب في تونس الذين راحوا ينشرون صورته وهو يعانق ابنة سيّد شطا على شاطئ الإسكندرية. ولشد ما أغضبتها تلك الصورة الوقحة، فقد قررت وسيلة أن تسافر إلى القاهرة لتقف على الحقائق. أقنعت زوجها «علي الشاذلي» برحلة إلى مكة لأداء مناسك الحج، وأصرت على أن ترافقها أختها نايلة. وفي القاهرة تدبرت لقاءً سرياً مع العاشق الخائن، فأقسم لها بأغلظ الأيمان بأن كل ما حدث ليس إلا من نسج خيال المتآمرين عليه في الحزب، ونفى أن تكون له علاقة مع أية امرأة، وأن الصورة التي عمل بن يوسف على توزيعها إنما هي صورة تجمعه بعائلة الفنان سيد شطا الذي تعرف إليه وأكرمه في ديار الغربة. مع ذلك، فإن وسيلة التي أصبحت حياتها لا تطاق بسبب علاقتها به، أصرت على قطع تلك العلاقة، إلا أن بورقيبة عرف كيف يطفئ نار الغيرة في قلبها حين أغدق عليها الكثير من المال والهدايا[١٠].

أثارت تلك العلاقة العاطفية بين بورقيبة ووسيلة عاصفة هزت جميع الأركان لأكثر من بيت وأكثر من طرف، فعارضها الجميع باستثناء ابنة أخت بورقيبة «سعيدة ساسي». عارضها الابن الحبيب وقد نصح والده بإنهائها لأنها تسيء إليه كزعيم وتسيء إلى أمه كامرأة فاضلة وصبورة. وعارضتها الزوجة ماتيلد لأنها تطعن كرامتها كزوجة وأم. أما الزوج «علي الشاذلي» فقد هدّد بالطلاق لكنه لم يكن ليفعل ذلك بسبب وقوعه تحت سحر وسيلة وقوة شخصيتها ثم لسطوة عائلتها الكبيرة!. وحاول الحزب بكل جهوده أن يقطع تلك العلاقة مع امرأة يقال إنها مشبوهة وإن لها أكثر من علاقة حرام، وترتبط بعلاقات غامضة مع الإدارة العامة الفرنسية. وبلغ الأمر إلى الباي، ففاتح بورقيبة في

الموضوع، وتجرأ الأمير الباي على القول لبورقيبة: «إن علاقتك مع هذه المرأة لا تجلب لك إلاّ المتاعب والشبهات». وحين أصبح بورقيبة رئيساً للوزراء، فاتحه الباي ثانية قصد إنهاء تلك العلاقة المشبوهة مع وسيلة، بل أشار له بأنه من غير المرغوب أن يصحبها معه في أية مناسبة تتعلق بنشاط الحكومة.

لقد سيطرت هذه المرأة على كيان بورقيبة قبل أن تسيطر على شؤون قصره. ولا يشك أحد الوزراء الذين عرفوا وسيلة عن قرب أن تكون هي وراء فكرة إطاحة الباي(١١). لقد أرادت أن تنتقم من ذلك الباي الذي منعها من دخول القصر مع بورقيبة وهو رئيس وزراء. وربما يكون بورقيبة لم يفكر جدياً في خلع الباي، قبل أن توقظ وسيلة في رأسه تلك الفكرة النائمة. وهكذا بعد نقاش طويل حول تغيير النظام الملكي إلى «ملكية دستورية» أوقف بورقيبة كل شيء ثم فاجأ المجلس التأسيسي بفكرة خلع الملكية وتكوين نظام جمهوري. ذلك الوزير لا يستبعد أبداً أن يكون بورقيبة قد أخذ قرار اغتيال بن يوسف تحت تأثير وسيلة التي كانت تكن له كراهية مفرطة. وحين حضرت آخر لقاء جمع بين بورقيبة وبن يوسف في جنيف ورأت بعينيها كيف أن بن يوسف قد أهان بورقيبة بحضورها، دفعته إلى الانتقام من ذلك الرجل الذي تجرأ على شتمها وشتم رئيس الجمهورية. مع ذلك فقد تحدت وسيلة كل الذين اعترضوا سبيل علاقاتها مع الزعيم بورقيبة إذ رأت نفسها في كل لحظة أنها تمسك بمقود حصان قادر على اجتياز السباق بنجاح. وما إن أنهى بورقيبة طلاقه من زوجته السابقة حتى اتجهت إلى خياطة فساتين الزفاف ومعها فستان للدولة التي ستحكم أكثر من نصفها طوال ما يقرب من ربع قرن.

* * *

الآن دخلت وسيلة إلى قصر السلطة بقرطاج من أوسع أبوابه، بل من بابه الرسمي الكبير. ومعها جلبت طفلة صغيرة تدعى هاجر كرمز للعطاء والرخاء قدمتها على أنها فتاة تبناها بورقيبة، لكن هذا الأخير سيكشف النقاب عن هوية تلك الفتاة في لحظة غضب بعد أكثر من عقدين، فيعترف «بأن هاجر ما هي إلا ابنة من علاقة حرام للمنذر بن عمار شقيق وسيلة». لقد دخلت وسيلة إلى القصر منذ اليوم الأول مع جزء من عائلتها، وبالتحديد مع شقيقها المنذر الذي سرعان ما أصبح أحد مستشاري الرئيس. إنها تقف على قدمين واحدة استعارتها من بورقيبة الرئيس والزوج، والثانية جلبتها من عائلتها الكبيرة والغنية. وإذ استقرت كسيدة أولى في قصر قرطاج، فقد كشفت بسرعة عن مقدرتها الفائقة على

استيعاب الحالات النفسية لبورقيبة الزوج وبورقيبة الرئيس، ثم عن قدرتها العجيبة على تلمس الحالات الصعبة والمتداخلة للعبة السلطة.

بعد فترة قصيرة من الزواج، سوف تتمكن من إنقاذ زوجها بورقيبة بفضل حنكتها في امتصاص التعب وإخراجه من حالة نفسية سيئة ومحبطة ألمت به على إثر محاولة انقلابية فاشلة كانت تعد بالقرب من سريرهما. كان الكشف عن تلك الحالة الانقلابية قد أدخل بورقيبة إلى أعلى حالات الإحباط وجعله مشلولاً لعدة أيام، ولكن وسيلة وكعادتها تمكنت من زرع القوة بداخله فقفز من السرير ليضرب على رؤوس كل الذين وافقت وسيلة على إعدامهم باستثناء ابن أخ محمود الماطري لمراعاة نضالات عمّه وعلاقته الجيدة مع عائلة بن عمار.

ولأن الحاجز الذي كان يفصل بين الزوجة السابقة «مفيدة» وبين أهل القرار لم يعد موجوداً أمام وسيلة فقد راحت تتكلم بلغة قريبة من لغة الرجال وأحياناً بلهجة متعالية على لهجات أبناء الأقاليم الأخرى. فقد أصبحت هذه المرأة التي تسخر ممن يحيط بزوجها كما سيفعل إخوتها وأبناء إخوتها، تدير لعبتها بذكاء نادر تشربت جزءاً كبيراً منه مع الحليب والجزء الآخر في الصالونات السياسية التي ارتادتها خلال مرافقتها لبورقيبة. وخلال سنوات قصيرة أصبحت وسيلة هي تقريباً الحاكم الفعلي إذا أخذنا في الاعتبار سطوتها على رجل القصر الأول بورقيبة. امتدت أيديها إلى جميع الملفات واستحوذت على جميع رجال بورقيبة من القصر إلى الحزب إلى الحكومة، وتمكنت من بلورة كتلة سياسية ضاربة لم تقتصر على أقاربها فقط بل جمعت جميع الحساسيات السياسية. وحين استوى أحمد بن صالح، صاحب الحقائب الوزارية الأربع وبدا أنه «الرجل السوبرمان» في حكومة الباهي الأدغم، امتدت أيادي وسيلة لتطيحه متحالفة في ذلك مع عدد من الوزراء قبل أن يمتد أخطبوط «التعاونيات» إلى أملاك عائلتها فتقع تحت التأميم الزاحف من القاعدة إلى القمة في ما سوف يوصف لاحقاً «بالاشتراكية المعكوسة»!.

وحين ذهب بن صالح إلى السجن تحت تهمة الإفلاس والخيانة العظمى، أصبحت وسيلة هي «السوبرمان الوحيد» في تونس البورقيبية، فهي ستهتم بكل شاردة وواردة. بل ستظل على اتصال مباشر مع عائلات الذين أرسلوا إلى السجن مع بن صالح. لقد لعبت دور المفجر للصراعات وكذلك دور المهدئ. كانت بلا استراتيجية واضحة، لكنها كانت تملك حساً صائباً في تلمس طريقها نحو تحقيق رغباتها ومصالحها. كانت عاطفتها هي التي تفتح لها الطريق، بالإضافة إلى نصائح أخيها المنذر وحظوتها لدى بورقيبة. ومع ذهاب

حكومة «الباهي الأدغم» وإرسال بن صالح إلى السجن في نهاية الستينيات، إزداد نفوذها بشكل ملحوظ فشاركت في تشكيل حكومة «الهادي نويرة» التكنوقراطية والمضادة لتجربة التعاونيات.

جاء الهادي نويرة للوزارة بدعم من بورقيبة شخصياً، أما معظم وزرائه مثل الصادق بن جمعة والطاهر بلخوجة والباجي قايد السبسي والحبيب بولاعراس وكذلك المصمودي، فقد كانوا باقتراح من وسيلة. ولأن تلك الحكومة كانت تقريباً مناصفة بين الهادي نويرة ووسيلة بورقيبة، فإن الصراعات ستندلع في كل ميدان وقطاع. كان نويرة، أحد رموز الجيل الثاني لحزب الدستور الجديد. وقد يتزعم التيار الليبرالي الجديد في تونس. ومثلما أنقذ الحزب في فترة ما من التفتت، حين غاب زعيماه بن يوسف وبورقيبة في المنفى، فقد أخذ على عاتقه إنقاذ الدولة التونسية من إفلاس تجربة الاشتراكية التي أخذت كل شيء دون أن تعطي أي شيء!. ولأنه رجل بلا عواطف وتكنوقراطي جاف، فقد رأى في وسيلة، ذات العواطف المتأججة، عقبة كبيرة أمام بعض قراراته. ومع الأيام أصبح صراعه مع وسيلة، بلا مخرج إذ بدا بورقيبة عاجزاً عن اتخاذ أية مبادرة. فهو من جهة يريد لتجربة نويرة أن تنجح لأنه رجل المرحلة. ومن جهة أخرى لا يستطيع أن يغضب زوجته. والأحرى أن يقال إن بورقيبة حين أصبح رجلاً مريضاً وقد هدّه التعب وأصبح كثير الغياب، بدا له أن أحسن طريقة للسيطرة على دواليب الدولة هي أن يحكم نويرة وتعارض وسيلة أو أن تحكم وسيلة ويعارض نويرة، وبذلك يضمن إشرافه على كل شيء، ذلك أنه في آخر المطاف ليس الهادي نويرة إلا وزيره الأول وليست وسيلة إلا زوجته، والاثنان يمثلان وجهة نظر الرئيس الحاضر مرة والغائب مرة أخرى، أو المتحمس مرة والهادئ مرة أخرى.

كانت وزارة الداخلية هي القطب الجاذب لكل من نويرة ووسيلة. كل واحد كان يريد أن يضع على رأسها رجله المناسب. ومنذ أن غادرها الطيب المهيري، صديق وسيلة وصديق عائلتها، تفطنت وسيلة إلى ان هذه الوزارة هي مركز الحكم في البلاد. لذلك فقد عملت بكل جهودها وأعصابها على تعيين «الطاهر بلخوجة» على رأسها. وهو رجل قريب من بطانتها إذ قيل مراراً إنه تهيأ للزواج من ابنتها «نبيلة» حين تمّ طلاقها من السيد «توفيق الترجمان» الذي عمل طويلاً بالقطاع المصرفي. وفي ذروة الأزمة مع النقابات في العام ١٩٧٨، تحدى نويرة زوجة الرئيس وذهب إلى مبنى الداخلية لينصّب على رأسها «عبد

الله فرحات» محلّ الطاهر بلخوجة الذي يقال إنه رفض الخروج منها بعد أن أبلغته وسيلة دعمها!.

خسرت وسيلة في تلك المعركة وزيراً قوياً وقريباً من قلب ابنتها هو «بلخوجة»، لكنها لم تخسر حماستها لمخاصمة الهادي نويرة، فراحت تؤلب عليه بعض الوزراء أمثال الحبيب الشطّي وعبد العزيز الأصرم ومحمد الناصر ومنصف بلحاج عمر الذين أقنعتهم بالاستقالة احتجاجاً على مداهمة وزارة زميلهم مقابل وعد بتوزيرهم حين تتم إطاحة حكومة نويرة. كان ذلك كله يحدث بالقرب من بورقيبة. وإذ لم يسقط نويرة خلال تلك الأزمة، فإنه سيسقط عند اندلاع ما عرف بـ«انتفاضة قفصة» في العام ١٩٨٠. آنذاك ستصب وسيلة الزيت الساخن على رأس نويرة وهي توبخه أمام بورقيبة لأنه وضع وزيراً ضعيفاً على رأس الداخلية (عثمان كشريد) لا يفقه شيئاً في شؤون الأمن. ذلك الحمام بالزيت الساخن هو الذي سيدخل نويرة في نوبة عصبية تنتهي بإصابته بالشلل النصفي فيرسل مباشرة إلى التقاعد والعزلة.

لقد كان نويرة هو رئيس الوزراء الثاني الذي أطاحته وسيلة بالتحالف مع الحبيب عاشور زعيم النقابات ثم بالتحالف مع أحداث قفصة التي جاءتها كهبة من السماء. كان ذلك بعد عشر سنين تقريباً من إطاحتها رئيس الوزراء الأول «الباهي الأدغم». وسوف تسعى منذ البداية إلى احتلال مبنى وزارة الداخلية، إذ عجزت عن إيصال أحد رجالها إلى الوزارة الأولى. وهكذا استطاعت أن ترشح أحد مناصريها وهو «إدريس قيقة» لمنصب وزير الداخلية لإدراكها أن عصب السلطة يوجد في هذا المبنى من ناحية، ومن ناحية أخرى، لأن هذه الوزارة تمثل القوة الوحيدة التي تتصدى للحد من سلطة مبنى القصبة (الوزارة الأولى). وقد قامت انتفاضة الخبز في كانون الثاني/يناير ١٩٨٤ لتثبت مرة أخرى أن الصراع بين «رجال وسيلة» و«رجال بورقيبة» قد بلغ أشده بل أصبح يهدد الدولة التي يشاركان في حكمها.

تغلب الوزير الأول محمد مزالي في البداية على إدريس قيقة رجل وسيلة، ولكن ذلك لم يكن إلا بداية لإشعال الحرائق في حدائقه الخلفية. فمنذ أن سقط «إدريس قيقة»، سمع الماجدة تقول له: «إما رأسي أو رأسك في هذه البلاد»[١٢]، غير أن وسيلة التي فاتها أن تفهم أن بورقيبة نفسه لم يعد متحمساً لآرائها وأنه قد لا يدعمها في كل شيء، لأنه يريدها شريكة لا حاكمة بالمطلق، سوف تتدرج منذ تلك المعركة إلى مواقع الضعف. لقد قادها الغرور أحياناً وكذلك الرغبة في الانتقام إلى تدمير جزء كبير من شبكة علاقاتها. وإذ

أصبح بورقيبة مريضاً ومتهالكاً وبلا شعبية تقريباً في سنواته الأخيرة فإن تلك المرأة الحديدية قد استمرت في نهجها السابق، ولكن بلا بريق أو إبداع أو حتى دعم كبير من بورقيبة. كانت باختصار تريد كل السلطة، فإذا بها ستتورّط في معارك كثيرة وهامشية تفقدها كل السلطة!!.

* * *

كانت النتيجة بالتعادل أخيراً. قبل ذلك كان واضحاً أن سلطة هذه المرأة الحديدية قد بدأت في الانحدار منذ العام ١٩٨٢ حين كشفت عن عدائها لمزالي. فقد طالبت بورقيبة «بتعديل الدستور وبند الخلافة لأن الرجل لا يستحقها أبداً». منذ ذلك الوقت أصبحت وسيلة مشتتة بين طموحها وكراهيتها لبعض الوجوه التي تسعى إلى طردها من جنة قرطاج وبين نصائح عائلتها التي أصبحت تتخوف من ردّة فعل قوية تجاه مصالحها، لكن وسيلة التي كانت ترى في نفسها الكفاءة والقدرة وترى في بورقيبة سيفها الضارب وقميصها السحري بدت وكأنها اختارت الطريق السيئة حين أصرت على مواصلة الحرب ورفضت أن تعقد هدنة مع من يحاربها في القصر.

إن امرأة تهان في كرامتها لا تستطيع الصمت أبداً. وهذا على الأرجح ما جعل وسيلة تفقد أحياناً أعصابها فتثور في وجه الرئيس كما تثور في وجه مزالي أو وجه بعض وزرائه، لكن أكبر الإهانات كانت قد وجهتها إلى «الصياح» الذي دسّ في القصر سكرتيرته السابقة وهي المهندسة «نجاة خنتوش» في القصر الرئاسي. ثمّ تلك التي تلقاها مزالي وبالتساوي مع تلك الإهانة التي تلقتها سعيدة ساسي ابنة شقيقة الرئيس التي كانت تمنع خالها من عزل محمد الصياح.

كانت وسيلة تعزل من تشاء وتنصّب من تشاء، والآن ها هي عاجزة عن طرد غريمتها ابنة أخت بورقيبة «سعيدة» التي كانت فيما مضى مدافعة جيدة عن زواج خالها من وسيلة.

إذا كانت وسيلة قد دعمت وصول مزالي إلى الوزارة وعارض محمود الصياح في بداية الثمانينيات، فإن هذا الأخير سوف يبادلها العداء منذ ذلك الوقت، ولكن على نحو مراوغ جداً، إذ سيقترب من بورقيبة إلى حدّ سيستجيب فيه إلى كل رغباته. وما إن دخلت وسيلة في قطيعة مع مزالي، حتى ضغط الصياح أكثر على نفسية وسيلة المنقبضة، إذ دفع بسكرتيرته السيّدة «نجاة خنتوش» إلى مجلس بورقيبة. استطاعت هذه المثقفة والجامعية اللاّمعة أن تحتل ما تبقى من حياة في قلب بورقيبة العجوز، فأيقظت فيه شهوة الصراع ضد

المرض وحرقة النفس المتعبة والهرمة، ثم تمكنت من توزير زوجها المحامي «البشير خنتوش». كان ذلك يحدث تحت ناظري وسيلة التي راحت الغيرة تنهش قلبها، وقد تم «عزلها» تقريباً بالتعاون بين الصياح وابنة أخت الرئيس «سعيدة ساسي» ومدير الأمن المكلف بالحرس الرئاسي «أحمد بنور». فقدت وسيلة السيطرة على أعصابها وأصبحت صريعة لنوبات عصبية حادّة، ولم تعرف ماذا تفعل مع أعدائها الذين راحوا ينهشون لحمها ويدفعون الرئيس إلى إهانتها وإهانة أقاربها. ولأنها كانت واقعة تحت تأثير الشعوذات، فقد سافرت لمناسك العمرة ومنها إلى الهند، لملاقاة عرافها الخاص. ثم عادت إلى تونس لتجد الرئيس وقد أصبح عاشقاً للسيدة خنتوش التي أصبحت تركب إلى يمينه في السيارة الرئاسية، وتشرف على راحته في المساء!.

وباختصار لقد انتهى ذلك العهد الذي كانت فيه الماجدة ترفع الهاتف وتخاطب عرفات وهو في حصار بيروت لتقول له: «إن تونس بلدك الثاني» أو لتقول للقذافي: «إنني دائماً مع الوحدة ولكن نويرة هو الذي يعارض ذلك» أو لتعترض على حافظ الأسد وهي تبلغه موقف الرئيس قائلة: «ما تفعلونه الآن في بيروت خطير جداً وهو قد ينقلب عليكم غداً» أو لتقول للرئيس بومدين: «لا تترك بورقيبة يسير باتجاه القذافي. إنه لا يفهم إلاّ لغة التهديد. هدّده يا بومدين»[١٣].

كانت وسيلة لا تمتلك منظوراً موحداً للسياسة. وهي قد لا تكون تفهم كثيراً في العلاقات الدولية الحديثة، لكن امتلاكها لحسّ سليم جعلها كثيراً من الأحيان قريبة من الصواب حتى وإن تناقض ذلك مع لسانها أو وعودها أو رجالها. فالمصمودي ما زال يروي إلى الآن، كيف أنها هاتفت بومدين في ١٩٧٤ بعد توقيع بيان جربة الوحدوي مع العقيد القذافي وطلبت منه أن يضغط ويهدد بالقوة حتى يتراجع بورقيبة عن قراره. من جهة أخرى استطاعت أن تقنع القذافي بأن نويرة هو الذي رفض هذه الوحدة، فكانت أن كسبت بومدين دون أن تخسر القذافي وحاربت نويرة دون أن تخاصم المصمودي ووقفت إلى جانب بورقيبة وهو يوقع على البيان، ثم وهو يلغي ذلك البيان. كل ذلك تم خلال ٢٤ ساعة فقط، خرجت من بعدها وكأنها المنتصر الوحيد. هل هي حنكة سياسية أو مهارة نسائية في حبك الألاعيب؟

كثيرون يعتقدون أن الرئيس هو الذي يمنحها هذا القدر من الحرية لكي يبقى على اتصال مع جميع الخطوط، وهي لا تنطق إلاّ بما يعبّر عن آراء الرئيس واتجاهات يحركه تفكير بورقيبة سواء تعلق ذلك بلعبة الداخل أو بلعبة الخارج، لكن آخرين يعتقدون أن وسيلة

كانت دائماً رئيسة أخرى للبلاد أو شريكة في القرار، وليس مجرد تعبير عن اتجاه رياح بورقيبة. فهي قد أطاحت وزراء ونصبت وزراء آخرين. وفي وقت من الأوقات شكلت غرفة عمليات في القصر إذ كانت مغرمة بعالم الاستخبارات. كما كانت دائماً على علاقة جيدة بالضباط، فترقي بعضهم وتنقل بعضهم الآخر وتمنح بعضهم الثالث مناصب ديبلوماسية لإبعادهم عن لعبة النار. كل ذلك دون أن تغفل عن تحركات زوجاتهم، ذلك أنها كانت دائماً تؤمن بأن الزوجة هي أكثر الأسلحة مضاء لمحاربة الزوج أو كسبه.

رغم ذلك فإن سيدة قرطاج الأولى قد وجدت نفسها مطلقة وحيدة في شقتها في باريس في شتاء ١٩٨٦ إلى لحظة وفاتها في صيف ١٩٩٩ في بيتها بالمرسى. فهل هي لعنة الأنانية؟.

لقد كانت تملك الجمال والحنكة في شبابها ثم أصبحت تملك القوة والمال في كهولتها ومعها السلطة. ولكن في أرذل العمر أضحت وحيدة. تلك هي وسيلة بن عمار التي قال لها عراف هندي قبل بضعة سنوات من طلاقها: «إنك ستموتين قريباً!». لم تمت وسيلة جسدياً، ولكنها ماتت سياسياً. ظلّت لسنوات تتابع الأخبار السياسية بنهم، تتصل بالأصدقاء، تتبضع في أسواق المرسى، تسأل عن أفراد عائلتها وتسافر من حين إلى آخر، لكنها لم تعد تلك المرأة التي تخلط بين سطوة بورقيبة وهرطقة النساء فتستخرج من ذلك أسلوباً جديداً في الحكم: هو السير في طريق خاطئ بحثاً عن الاستقلال من رجل قد يكون صائباً.

كانت جيهان بالنسبة لوسيلة امرأة تابعة لزوجها إلى حد شجعته فيه على مواصلة السير في طريق خاطئ. أما وسيلة فقد تكون بالنسبة إلى جيهان امرأة مستقلة عن زوجها إلى حدّ لم ينقذها فيه حين سارت في طريق خاطئ!.

إن «وسيلة» بورقيبة كانت بحق اسماً على مسمّى. فقد كانت وسيلة بيد عائلتها للالتفاف على دولة الاستقلال. وكانت كذلك «وسيلة» بيد بورقيبة مرة للوصول إلى السلطة وأخرى للحفاظ عليها. أما هي فلم يكن يغادرها الإحساس العميق بأنها كانت مجرد وسيلة لأغراض عدّة في مراحل عدّة لرجال عديدين. وهكذا عملت «وسيلة» بكل وسيلة على أن تكون وسيلة بحقّ. وسيلة لأغراض جيّدة أحياناً، وفي أغلب الأحيان لأهداف سيئة ورذيلة!.

الهوامش:

(١) أول من عارض زواج بورقيبة من وسيلة بنت عمار هو الباي محمد الأمين. ولم يكن بورقيبة قادراً على فعل ذلك حين كان لا يزال الوزير الأول للباي. وتعود حساسية القصر الملكي تجاه السيدة وسيلة إلى سنوات الأربعينيات. فقد عاشت متهمة بأنها امرأة ذات سيرة مشوهة في حياتها العامة والخاصة. بل إن بورقيبة نفسه قد أتى على ما يحيط بزوجته وسيلة من شبهات في محاضرات بمعهد الصحافة عام ١٩٧٣ وللإمعان في الشماتة، أصرّت وسيلة أن يتم زواجها في قصر البايات بالمرسى/قصر السعادة.

(٢) شهادة الباهي الأدغم.

(٣) من حديث مع محمد مزالي في باريس عام ١٩٨٦ - بعد أن فرّ إلى الجزائر ثم إلى فرنسا على إثر صراع على السلطة بينه وبين وسيلة التي أصبحت هي الأخرى آنذاك مطلقة ومعزولة في شقتها بباريس.

(٤) التعبير لبورقيبة. وقد كرره في عدة خطابات ويعني بورقيبة ببساطة أن تونس لم تكن موجودة من قبله.

(٥) هذا القول ينسب لأكثر من وزير، إدريس قيقة - أحمد بنور - المصمودي - منصور معلّى - والمستيري.

(٦) شقيق وسيلة الذي أصبح فيما بعد وزيراً ومستشاراً ورجلاً نافذاً وهو المنذر بن عمار، والد المنتج السينمائي العالمي، طارق بن عمار.

(٧) رواية بورقيبة، من كتاب: **حياتي - آرائي - كفاحي**، محاضرات ألقاها على طلبة معهد الصحافة، ١٩٧٣.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) شهادات الباهي الأدغم - الحبيب عاشور، **أحاديث مع المؤلف**، تونس، ١٩٩٣.

(١٠) أنظر كتاب: S. Bessis-S. Belhassen. **Bourguiba-un Si long régne. 1975-1987**, Jeune Afrique-Livre, Paris, 1988 .

(١١) الوزير الذي يعتقد أن وسيلة كانت وراء فكرة إطاحة الملكية هو المصمودي.

(١٢) من حديث مع مزالي - في باريس عام ١٩٨٦.

(١٣) لعبت وسيلة بنت عمار دوراً خطيراً في إطاحة الوحدة الليبية - التونسية التي أعلن عنها في كانون الثاني/يناير ١٩٧٤ بجزيرة جربة. وقد استعانت بالجميع لكي تحبط ما عرف بالجمهورية العربية الإسلامية فتحالفت مع الشطي وبلخوجة ونويرة، ضد المصمودي الذي كان المدافع الأول عن تلك الوحدة. ثم اتصلت بالرئيس الجزائري بومدين لتجعله أكثر تصلّباً في معارضته لتلك الوحدة. أنظر كتاب: **العرب في العاصفة**، محمد المصمودي/النسخة الفرنسية، باريس، ١٩٧٧.

سنوات الصولجان:

الدولة أنا وأنا الدولة

«ولكن ما هذا يا ربّي؟ أيّ رذيلة أن نرى عدداً لا حصر له من الناس يحتملون السلب والنهب وضروب القسوة لا من جيش ولا من عسكر أجنبي، بل من واحد لا هو هرقل ولا شمشون بل خنث، هو في معظم الأحيان أجبن من في الأمة وأكثرهم تأنثاً. إنه لبؤس ما بعده بؤس أن يخضع جميع الناس لسيّد واحد».

«إيتان دي لابوسييه»

كاتب فرنسي عاش في القرن الـ١٦.
مقالة في العبودية المختارة

لم يعد الفراش الذي ينام عليه بورقيبة بارداً أو مائلاً إلى جهة اليمين، مع وسيلة بنت عمار، أصبح فراش الرئيس دافئاً ثم مال قليلاً نحو اليسار لأن وسيلة كانت أكثر بدانة من زوجها بورقيبة. وتحت ذلك الفراش الرئاسي كانت شياطين الخيانة ترقص في انتظار ساعة الصفر.

ثمانية أشهر وأسبوع على نحو الدقة مضت الآن على الزواج، كان قائد الحرس الخاص لبورقيبة النقيب «كبير المحرزي» سيعطي ليلة الـ٢٠ من كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٢، كلمة السرّ لمجموعة من الضباط التي تسمح لهم بالدخول إلى القصر الرئاسي وكذلك إلى غرفة نوم الرئيس ليجهزوا على ذلك الذي «باع تونس إلى الشيطان ووزع ثرواتها على أقاربه وأقارب زوجته ثم انتصب كحاكم مطلق بلا أي رادع أو وازع»[1].

جمعت تلك المحاولة الانقلابية التي أحبطت قبل نصف ساعة فقط من ساعة الصفر، أكثر من اتجاه وأكثر من جيل. فالذين شاركوا في إعدادها وتنظيمها جاءوا من جميع الآفاق والمناطق. فمنهم الغاضبون على توجهات النظام واليائسون من الإصلاح الداخلي والمبعدون عن الامتيازات والمحبطون بسبب النتائج الهزيلة للاستقلال، والمخدوعون في

معركة بنزرت، والعائدون من المنفى والمتخرجون من أكاديمية «سان سير» العسكرية الفرنسية، والمفتتنون بعبد الناصر وعبد الكريم قاسم والطامحون إلى الأدوار والمراكز الأولى. وكذلك العائدون من الكونغو. وجميع هؤلاء وسواءً كانوا مدنيين أو عسكريين يلتقون حول كلمة سر واحدة من أجل رغبة واحدة هي الانتقام، غير أنهم كانوا بلا برنامج أو قائد.

إذا كان المورطون في تلك المحاولة الانقلابية ينتمون إلى جميع أقاليم تونس وفئاتها الاجتماعية وأجيالها، فلأن «نكبات الاستقلال» قد وزعت بالتساوي على عموم البلاد. أما امتيازاته فقد ذهبت إلى عناوين بضع عائلات محظوظة. ولأن الحكومات السيئة ترافقها المواسم السيئة، فإن الجفاف الذي حلّ بالبلاد عام ١٩٦٢ قد أضاف إلى «مجزرة بنزرت» و«عرس وسيلة» كثيراً من الغضب. تضاعفت أسعار المواد الغذائية، وانتشرت مجاعات محدودة في بعض أقاليم البلاد، واختفى زيت الزيتون من الأسواق، «ولولا المساعدات العاجلة التي جاءت من أميركا، فإن البلاد كانت ستعيش إحدى مجاعات الأجداد» كما قال أحد وزراء بورقيبة لاحقاً[٢].

بدأ الاستقلال يكشف عن أوهامه وأكاذيبه. فهو استقلال جاف وناكر للجميل وللدماء. أما الذين دخلوا إلى نعيمه فهم قلّة ينتمون في أغلبهم إلى منطقتين لا أكثر هما منطقة الساحل وبالتحديد عائلات المنستير الكبرى والقريبة من بورقيبة، ومنطقة تونس العاصمة وبالتحديد بضع عائلات قريبة من وسيلة بورقيبة. وباختصار، فيما كان مجاهدو الاستقلال يبحثون عن لقمة العيش بصعوبة، كان «مسوّقو الاستقلال» يتلذذون مستسلمين «لإيلاف جنيف رحلة الشتاء والصيف». أصبحت عائلات بورقيبة وبن عمار وبوزغرّو وقايد السبسي وبن صالح والأدغم ونويرة والعويتي والمبروك تقبض على مفاتيح السياسة والاقتصاد في البلاد وذلك بالتعاون مع بعض الأسماء اللامعة في حزب الدستور أو في المنظمات الجماهيرية التابعة له. وقد استطاع هؤلاء أن يستحوذوا على جزء كبير من أراضي الأوقاف المحررة وأملاك الدولة المسترجعة، وأن يحصلوا على القروض بسهولة لبناء قصور فخمة وفيلات على الشواطئ الرائعة في قمرت وقرطاج والحمامات.

وصل خبر محاولة الانقلاب إلى الباهي الأدغم الوزير الأول ووزير الدفاع قبل يومين من اليوم الذي حدّد للتحرك. ولكن الباهي الأدغم لم يصدق في البداية. كان الحبيب عمار الذي يعمل آنذاك كرئيس مكتب الباهي الأدغم هو الذي عرف بتاريخ المحاولة وبعض أسماء المورطين فيها عن طريق أحد الضباط الذين «تعبوا» من الانتظار وأصيبوا بالإحباط

والخوف الشديد. وإذ أخبر الشاب الحبيب عمار الذي سينفذ بالاشتراك مع صديقه بن علي في عام ١٩٨٧ ما لم ينفذه ضباط عام ١٩٦٢، رئيسه الباهي الأدغم، فإن هذا الأخير قد تباطأ في التحرك لإحباط المحاولة وإعلام بورقيبة إلى حدود نصف الساعة الأخير قبل ساعة الصفر(٣).

كان المخطط بسيطاً وحاسماً: لقد وضعه الضابط «صالح البنبلي» مع الضابط «قيزة» وهما من خريجي أكاديمية «سان سير» الفرنسية التي تخرج منها كل من الحبيب عمار وصديقه بن علي، وذلك بالتنسيق مع قائد حرس بورقيبة الخاص النقيب «كبير المحرزي»، ويتمثل في محاصرة كل من قصر السعادة وقصر قرطاج والدخول إلى غرفة نوم الرئيس حيث سيطلب منه التنازل عن الحكم وإرساله إلى المحاكمة. وفي حال رفضه يتعين تصفيته في الحال لإحباط أي نوع من المقاومة. في الوقت نفسه يتعيّن إلقاء القبض على جميع الوزراء وإعدامهم واحتلال كل بنايات الحكومة والحزب والإذاعة، وهذا هو باختصار ما جاء في تحقيقات الوكيل العام للجمهورية آنذاك، صلاح الدين بالي، ولكن خطة الانقلاب كانت أكثر تعقيداً من ذلك. فهي ليست انقلاباً بقدر ما كانت حركة ثورية اشترك فيها العسكريون والمدنيون، بل إن الذين عاشوا تلك الفترة بجميع تفاصيلها يؤكدون «جانبها الثوري» من خلال طغيان العنصر المدني على العنصر العسكري. بل ويعترف أحد الذين شاركوا في تلك الحركة، «بأن الفشل جاء حين تأكد لبعض العسكريين أن السلطة الجديدة ستكون للمدنيين، الأمر الذي دفع بعض الضباط إلى إفشاء السر وإعلام مدير مكتب الباهي الأدغم، الحبيب عمار». ويضيف المسطاري بن سعيد(٤) الذي فر إلى الجزائر ومنها إلى ليبيا «بأن الخلاف وقع بين القيادة المدنية والقيادة العسكرية قبل يومين فقط من ساعة الصفر، وقد ناقش الحاضرون إمكانية تأجيل الموعد، لأن بعض الأمور لم تكن واضحة، ولأن السلاح لم يكن كافياً، ولكن الجميع في النهاية اتفقوا على أن تسير الأمور كما هو مخطط لها».

كانت الفكرة في البداية قد انطلقت من رأس أحد خريجي جامع الزيتونة، «عبد العزيز العكرمي»، أصيل الجنوب منطقة قفصة، وذلك منذ آب/أغسطس ١٩٦٢ حين عاد بعض اليوسفيين القدماء من ليبيا والجزائر. لقد وجد في بعض هؤلاء الحماسة والاستعداد وكذلك الإمكانية لجلب السلاح واستقطاب بعض الكفاءات. كان الشيخ العكرمي الذي يتمتع بعلاقات واسعة وبسمعة طيبة، على اتصال دائم بهؤلاء العائدين من الخارج، وحين خبر ثقتهم ربط بينهم وبين النقيب صالح حشاني، الذي عمل سابقاً في جيش الباي وهو

الآن رئيس حامية قفصة العسكرية. كذلك بينهم وبين المقاتل والمناضل «الأزهر الشرايطي».

وإذا كان صالح حشاني لا يغفر لبورقيبة «مجزرة بنزرت» التي أهان خلالها الجيش التونسي، فإن المناضل الأزهر الشرايطي الذي نظم المقاومة ضد فرنسا في الجنوب لا يغفر هو أيضاً لبورقيبة لأنه أهان المناضلين القدماء وسخر منهم في أحيان كثيرة. كان حشاني والشرايطي ينتميان مع العكرمي إلى منطقة قفصة وقد التقوا على فكرة إزاحة بورقيبة وهم يمثلون العسكري والمثقف المدني والمناضل القديم. لذلك فقد سعى كل من هذا الثلاثي أن يستقطب زملاءه ورفاقه. استطاع كل من هؤلاء الثلاثة في فترة وجيزة أن يجنّدوا الكثير من الضباط والتجار والأساتذة والمناضلين القدماء. وإذ بدا لكل منهم أن اللحظة الحاسمة لم تعد بعيدة، فقد أخفوا خلافاتهم جيداً إلى حين الاجتماع الأخير يوم ١٨ كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٦٢. في ذلك الاجتماع الذي نُوقشت فيه المهام والمسؤوليات، اتضح أن الثلاثي حشاني والشرايطي والعكرمي الذين اتفقوا على فكرة إطاحة بورقيبة هم الآن مختلفون حول ما بعد الإطاحة. كان كل واحد من هؤلاء يريد السيطرة على الحركة. وإذ تم الاتفاق على أن يكون الشيخ العكرمي هو الرئيس، فإن الشرايطي وحشاني ظلا مختلفين على منصب وزير الدفاع. ولأن الكفة مالت في ذلك الاجتماع إلى «صالح الشرايطي»، فإن أحد الذين جندهم صالح حشاني وهو ضابط في الجيش البري قد تلمس الخطر بيديه حين رأى أن التحالف بين المدنيين والحزبيين واليوسفيين القدماء قد عقد ضد الجيش. اتصل ضابط الصف التوكابري الذي كان يعمل تحت إمرة الضابط البنبلي، بالسيد الحبيب عمار وروى له حكاية الانقلاب من البداية إلى النهاية.

في تلك الأثناء، كان البشير زرق العيون الذي تحول إلى «جزار لليوسفيين» قد استطاع أن يجمع معلومات أمنية مهمة حول تحركات بعض الذين شاركوا في تنظيم هذه المحاولة. لقد قدم لوزير الداخلية تقريراً مفصلاً عن تحركات الشيخ العكرمي والأزهر الشرايطي بعد أن تعقب رجالهم وعرف أنهم يجتمعون من حين إلى آخر في بيت بضاحية الزهراء وآخر بباب الجزيرة بالعاصمة، إلا أن وزير الداخلية لم يكن أبداً يثق في معلومات زرق العيون «الذي يريد أن يزج الجميع في السجن. وخصوصاً أولئك الذين يعتقدون بأنه قاتل الزعيم بن يوسف».

لم يكن «الانقلابيون» على استعداد كامل لتنفيذ مهمتهم، حين دهمت بيوتهم الشرطة والجندرمة. وإذ لا يوجد اليوم من ينفي أو يؤكد تأجيل موعد الانقلاب، لأن ساعة الصفر

مثل كلمة «السرّ» كانت في متناول قلّة فقط هم قادة الانقلاب، فإن كل المؤشرات تفيد بأن تأجيل موعد الانطلاق قد تم خلال اجتماع ١٨ كانون الأول/ديسمبر العاصف. فعلاوة على الخلافات التي كشفت عن نفسها من خلال صراع النزعتين العسكرية والمدنية إذ تريد كل واحدة أن تسيطر على الحركة، فإن الأسلحة التي كانوا في انتظارها لم تصل من الجزائر وقد تأخرت لأسباب غير معروفة، كما أن البدلات العسكرية التي كانت بصدد الإعداد والخياطة لم تجهز بعد، يضاف إلى ذلك غياب بعض الضباط عن ثكناتهم بسبب الإجازات التي طلبوها بمناسبة أعياد العام الجديد.

وثمة مؤشر آخر واضح يفيد أن التأجيل لموعد الانطلاق قد حصل لأن الجناح العسكري الذي رأى أن «درجة» كان يناور وربما يكون قد قرّر أن يقوم بالانقلاب لوحده دون مشاركة الجناح المدني، ولكن كذلك دون إشعاره بالإبعاد أو التهميش. لقد قرر العسكريون، ولا سيما حشاني والبنبلي وقيزة والماطري أن يتخلصوا من المدنيين الذين أصبحوا شبه أوصياء عليهم، وذلك حين تأكدوا أن «رفاقهم» يوجدون في جميع فصائل الجيش تقريباً، وهم على استعداد لتنفيذ المهمة دون الحاجة إلى المدنيين أو السلاح القادم من الخارج.. هذا الاحتمال سيتأكد حين يتحدث بورقيبة إلى الباهي الأدغم وقد أصبحت المحاولة مكشوفة قائلاً: «ليس معقولاً، أَلِهذه الدرجة يكرهني الجيش التونسي؟ لقد تسلّلوا إلى كل قطاعات الجيش»[٥].

وهكذا إلى جانب عشرات من المدنيين، تمّ إلقاء القبض على أربعين من الضباط خريجي أكاديمية «سان سير». تمت المحاكمة بسرعة فسلّطت أشدّ العقوبات. وحين تناول بورقيبة قائمة المحكوم عليهم بالإعدام للمصادقة عليها، اقترح أن يخفف بعض الأحكام وهو يقول: «إذا أعدمنا هؤلاء جميعاً فإن مجزرة أخرى سنرتكبها في حق كوادر جيشنا الوطني. لنعدم بعضهم فقط من أجل ردع الآخرين».

تم تنفيذ الحكم بالإعدام على أحد عشر رجلاً فقط. ستة من المدنيين وعلى رأسهم الشيخ عبد العزيز العكرمي وخمسة من العسكريين وعلى رأسهم الضابط حشاني. وذلك بعد أن تم خفض عقوبة ضابطين آخرين أحدهما ابن أخ الزعيم الدستوري ورفيق بورقيبة محمود الماطري، بناء على تدخل من وسيلة. ومثلما كانت المحاكمة سريعة وعنيفة، كان تنفيذ الحكم سريعاً وعنيفاً. ففي صبيحة ١٦ كانون الثاني/يناير ١٩٦٣، أشرف المحجوب بن علي أحد جلادي بورقيبة، باعتباره آمراً للحرس الوطني آنذاك بنفسه على حفلة الإعدامات إلى جانب وكيل الجمهورية «صلاح الدين بالي». قامت فرقة الإعدام بواجبها على أكمل

وجه. ثم كان على «المحجوب بن علي» أن يتبرع برصاصة من مسدّسه الخاص في رأس كل جثة لكي يتأكد وكيل الجمهورية من حدوث الموت الفعلي.

* * *

بعد أن توارت جثث المتمردين داخل التراب، ظهرت الأسئلة المشاغبة لتملأ الشارع. كان السؤال الأكثر انتشاراً بين الناس هو: هل أن محاولة الانقلاب حقيقة أم هي مجرد سيناريو وهمي؟ لم يكن ممكناً معرفة الحقيقة وحدود الخيال في ذلك «السيناريو»، ولكن أغلب الناس مالوا إلى الاعتقاد بأن ما حدث كان عبارة عن «ضربة وقائية» قام بها الجناح الأكثر تطرّفاً في الحكومة والحزب لاقتلاع ما سوف يسميه لاحقاً «بالشيطان البربري» من الشعب التونسي و«جن الانقلاب» من الجيش الوطني[٦].

هل يكون الثلاثي، الباهي الأدغم باعتباره الوزير الأول ووزير الدفاع والطيب المهيري باعتباره وزير الداخلية ووسيلة بورقيبة زوجة الرئيس قد قام بتركيب جزء من ذلك السيناريو الجهنمي للتخلص نهائياً من بقايا اليوسفيين وأتباعهم داخل الجيش الوطني. ولأن ذلك الثلاثي قد عاش مذعوراً وخائفاً منذ اغتيال الزعيم بن يوسف في فرانكفورت، فهو من المحتمل أن يكون قد فكر في خطة لبث الرعب في كل من يفكر في الانتقام من المتهمين بقتل «زعيمهم».

كان الباهي الأدغم من المتهمين الرئيسيين في اغتيال بن يوسف، فهو الذي شارك في استدراجه «لمصالحته مع بورقيبة». وقد لعب دوراً مزدوجاً بالتنسيق مع بورقيبة من أجل الإيقاع ببن يوسف. كما أن الطيب المهيري هو الذي قام بوضع خطة الاغتيال وأمر بتنفيذها، أما وسيلة التي لم تخف أبداً انزعاجها من ذلك «الشيطان» الذي يتربص بزوجها، فقد دفعت بورقيبة إلى اجتياز «خط الرحمة» مع ذلك الذي أهانها وأهان زوجها في جنيف.

أمر الباهي الأدغم مدير مكتبه الحبيب عمار بإعداد ملف اتهامي ضد مجموعة من ضباط «سان سير»، بالاعتماد على وشايات متناثرة وغير متناسقة. أما الطيب المهيري فقد كلف زرق العيون بتعقب بعض رموز اليوسفية وإعداد تقارير اتهامية بشأنهم، وفيما ادّعت وسيلة بأنها كانت تشعر بوجود شبح يقترب منها في غرفتها في الظلام، وقد اتخذت خادمتها «فريدة» كشاهدة على نوبات الذعر التي تتعرض لها بينما هي نائمة[٧]، فإن «المحجوب بن

علي» قد نقل إلى بورقيبة وشايات كثيرة عن المناضل «الأزهر الشرايطي» مفادها «أنه غير راض عن وضعه لأنه لم يحصل على رتبة مشير أو جنرال بعد كل هذا النضال»[٨].

ويروي المناضل والعسكري «عز الدين عزوز» الذي عرف جيّداً الأزهر الشرايطي حين عمل معه كجندي في كتيبة شمال إفريقيا بالجولان وفي فلسطين قبل ١٩٤٨، «أن الشرايطي الذي كان مقاوماً كبيراً أثناء الثورة التونسية، قد كان يعيش كأمير بعد الاستقلال في قصر الباي بضاحية الحمامات، إذ حصل على امتيازات مثيرة»[٩]، وإذ لا ينفي ولا يؤكد النقيب «عزوز» تورّط الشرايطي في تنظيم تلك المحاولة الانقلابية، فهو لا يستبعد أن يكون الباهي الأدغم الذي أمر بإلقاء القبض عليه بعد ثلاثة أيام من المحاولة، قد قام بحبكة ذلك السيناريو بهدف تصفية الحسابات مع جميع الذين يقعون في المنطقة الرمادية، أي أولئك المتهمين دائماً بعدم الولاء لشخص بورقيبة.

لم يكن الشرايطي راضياً أبداً عن الوضعية التي وضع فيها رغم أنها كانت مريحة. فمنذ أن اغتيل صالح بن يوسف شعر بالإهانة ثم هو كثيراً ما سمع زرق العيون يقول له: «إن بورقيبة قد اشترى صمته وولاءه حين منحه قصراً بالحمامات، لكنه دائماً خاضع للمراقبة لأن لا ثقة فيه»[١٠]. وإذ أصبح الشرايطي مطعوناً في كرامته ومكروهاً من الرجال الجدد لنظام بورقيبة، فإنه من المحتمل أن يكون قد أقدم على وضع خطة لإطاحة ذلك النظام. ولكن ليس مؤكداً أن هذا الرجل المراقب جداً والموضوع تحت الحراسة الفائقة من الطيب المهيري والبشير زرق العيون والمحجوب بن علي قد تمكن من تنويم كل تلك الحراسات، وهو ما يرجح بأن سيناريو الانقلاب كان محض خيال من نسيج ثلاثي الباهي الأدغم والطيب المهيري ووسيلة بن عمار.

كان هذا الثلاثي يريد أن يدفن تحت الأرض آخر يوسفي في الجمهورية التونسية، ولأنه كان يعيش تحت هاجس الخوف من الانتقام، فقد سعى بكل وسيلة إلى تصفية كل الذين من شأنهم أن يرفعوا رؤوسهم ذات يوم ويتهموا أحدهم باغتيال بن يوسف. إلى جانب ذلك فإن هاجس الانقلابات العسكرية كان قد حط عليهم بكل ثقله وكوابيسه. فهؤلاء المتهمون في تلك المحاولة جميعهم وباستثناء بعض المدنيين إما محاربون في المشرق العربي ومنهم من أصبح ضابطاً في الجيش السوري مثل «عز الدين عزوز»، وإمّا هم متطوعون سابقون في الجيوش العربية لتحرير فلسطين ثم مقاومون في الثورة المسلّحة مثل «الأزهر الشرايطي»، وإما هم ضباط جدد وشباب عائدون من الكونغو بعد أن عملوا لفترة في صفوف قوات الأمم المتحدة أو هم متشبعون بالنزعة العروبية والإسلامية. وباختصار،

«فإنهم متشبعون بالنزعة الانقلابية» أو هم مصابون بفيروس الانقلابات كما قال عنهم الأدغم الذي تسلّل إلى خلاياهم منذ البداية(١١).

وإذ صحّ احتمال «السيناريو الخيالي»، فإن ذلك يكون قد حقق عدة أهداف لتلك الدولة المذعورة، هي: تصفية آخر اليوسفيين من مقاومين وعسكريين أو مدنيين. وتنظيف الجيش من الطامحين وتلقيحه عن طريق الصدمة ضد فيروس الانقلاب، وإفساح الطريق أمام الخيارات البورقيبية لتسير بلا عراقيل، ثم افتكاك المبادرة من جميع الذين يفكرون في خيار القوة سواء في الداخل أو في الخارج. وقد بدا ذلك واضحاً من خلال اتهام بورقيبة للجزائر التي قال إنها «مدت المتمردين والمتآمرين بالسلاح»(١٢).

وسواء كان الانقلاب حقيقة لم تكتمل أو وهماً كاملاً، فإنه قد حقق من خلاله بورقيبة كل ما كان يصبو إليه، وخصوصاً قطع الطريق أمام أي محاولة قوة من قبل الجزائر ضد نظامه. فالرئيس الجزائري السابق بن بلّة(١٣) لا يذكر أبداً أنه أمدّ هؤلاء الانقلابيين بأي نوع من الدعم، وقد تفاجأ بالاتهامات التي ساقها بورقيبة ضد بلاده، وهو يعتقد أن بورقيبة قد اختار الضرب الاستباقي لجميع أعدائه الاحتياطيين، كما اختار التصعيد ضدّ الجزائر لتقطع الطريق أمام أي تحالف بين المعارضة التونسية والثورة الجزائرية.

* * *

مهما يكن من أمر، وسواء كانت محاولة الانقلاب على وشك أن تحدث أو كانت خطة مفبركة للتخلص من أعداء النظام، وسواء كان بورقيبة يملك جميع الحجج لإعدام من سمّاهم بالمتآمرين أو كان مدفوعاً بالخوف وبرجاله الأقوياء، فإنه قد أصبح مقتنعاً أكثر مما يجب، «بأن القوة وحدها بإمكانها أن تردع هذا الشعب المتمرد وتنزع من داخله، «الشيطان البربري». لقد أوضح ذلك بعد حفلة الإعدامات مباشرة لصحفية لوموند الفرنسية قائلاً: «إن تونس ليست مونبارناس، وإني أقول لكل الذين يدعونني للانفتاح على النقد، بأن الفوضى لا تبني شيئاً، وأن التونسيين في حاجة إلى الاعتقاد برجل قوي ونظام قوي».

بعد الكشف عن تلك المحاولة الانقلابية أصبح بورقيبة مسعوراً ومفترساً. لم يعد يتحمل أي شيء يشتمّ منه رائحة المعارضة أو النقد. لقد أغلق جميع الصحف المستقلة كما أغلق صحيفة «الطليعة» الناطقة باسم الشيوعيين التونسيين ثم أمر بإغلاق مكاتب الحزب الشيوعي. وأعلن أن حزب الدستور هو الحزب الوحيد في البلاد من الآن فصاعداً. لقد أصبح لا يرحم أبداً. فهو يمتلك القوة والشرعية والماكينة السياسية والحزبية والبوليسية.

وفيما أمسك بيده اليسرى كل الأجهزة التنفيذية/ أمسك باليمين كل الأجهزة التشريعية ثم راح يتبختر ويتمايل كأمبراطور جاء من بعيد ليسيطر على بلد صغير كثيراً ما يشعره بالهشاشة، لأنه أقل بكثير من طموحه.

* * *

خرج بورقيبة مرة أخرى من النفق أكثر قوة وتوهجاً. لقد أصبح يوصف بالديكتاتور في بعض الأوساط الضيقة ولكن ذلك ما كان ليزعجه لأنه يعتقد بأن الديكتاتورية ضرورية لقيادة شعوب غير ناضجة!. لقد انتهز فرصة محاولة الانقلاب ليضع كل شيء بين يديه بما في ذلك قيادة الجيش. لم يعد ثمة في الدولة التونسية ما هو خارج عن اختصاص أو سلطة الرئيس. أما الشيء الأكثر مدعاة للراحة بعد تلك المحاولة، فإن التونسيين قد تعلموا درساً لن ينسوهُ وهو أن بورقيبة رجل لم يعد يخاف الانقلابات، وأن تونس لا تنتمي إلى منطقة الاضطرابات والانقلابات كما اعتقد البعض، كما أن اليوسفيين لن تقوم لهم قائمة بعد اليوم.

كان بورقيبة مرتاحاً من جهة لأنه قضى على جميع أعدائه وأغلق على دولته بإحكام، ومن جهة أخرى فقد كان قلقاً ومشغولاً بمسألة ملحة وحيوية جداً هي: كيف يمكن توفير حياة أكثر كرامة لهذا الشعب النامي والذي يشعر بالخصاصة ويكاد يقع على الأرض من فرط خيبات الاستقلال التي تلاحقت خلال السنوات الأخيرة؟! لقد أصبح الشعب يتمتع بالاستقلال، لكنه لا يعرف ماذا يفعل بذلك الاستقلال إذا كان لا يوفر الحياة والكرامة والعمل. كذلك هي حال دولة الاستقلال. لقد أصبحت الدولة بين يدي أبنائها، ولكن ماذا يفعل هؤلاء الأبناء بدولة ضعيفة وفقيرة ولا تملك أية موارد مهمة؟!.

ما زاد في انشغال بورقيبة حول وضعية البلاد الاقتصادية، أن جميع مساعديه في هذه الدولة بالإضافة إلى الحزب كانوا مولعين بالمسائل السياسية فقط، بل هم لا يفقهون شيئاً في الميدان الاقتصادي وتعوزهم الخبرة العملية إذ أن معظمهم جاء من الجامعة مباشرة أو من المؤسسة الحزبية أو صعد إلى مركزه عن طريق الأكتاف والسلالم الخاصة والعامة. كانوا جميعاً بلا أفكار وبلا مخططات.

لقد بدا للحظة أن الدولة التونسية تعيش كل يوم بيومه منذ نحو خمس سنوات، وهي تعتمد على المساعدات الخارجية أو على الإرث التجاري مع فرنسا وقد أصيب بالتدهور والانهيار. إن بورقيبة نفسه لم يكن مولعاً بالاقتصاد وظل يعتقد لسنوات أن البلاد ستقلع

بمجرد أن ينتشر التعليم ويتم تبني علاقات دبلوماسية مع الخارج، ولكن ذلك كان محض خيالات قديمة وتصورات بالية.

كانت الكارثة الاقتصادية تقترب وهي تهدد هذه الدولة الوليدة بالتحلل والتفكك، حين تسلّل الشاب «أحمد بن صالح» إلى مكتب بورقيبة ليقنعه بمخطط اقتصادي شامل من أجل إنقاذ البلاد. ويتلخص ذلك المخطط في وضع كل مقدرات البلاد تحت سلطة الدولة والاتجاه إلى تعميم لنموذج تعاوني سيعرف تحت اسم «التعاضد» تحت إشراف ومراقبة الحزب الحاكم.

كانت الفكرة الأولى التي اعتمد عليها مدرس اللغة العربية «أحمد بن صالح»، قد جاءته من عمله وسط النقابات وشغفه بالمنظمات الجماهيرية. فمنذ العام ١٩٥٦، كان النقابي بن صالح قد تكلم عن مخطط تعاوني لتنظيم الاقتصاد التونسي. وقد وجد صدى واسعاً لدى شباب المنظمة العمالية وكذلك لدى شباب الحزب الجدد، ولكن بورقيبة الذي كان آنذاك مشغولاً بتصفية حسابه مع اليوسفيين وغارقاً في مهمة تشييد سلطته السياسية والذي لم يكن يرتاح «لأحمد بن صالح» لأن الباهي الأدغم قد حذره من «طموح هذا الشاب وبراغماتيته وشططه وتطرفه»[١٤] أهمل مقترح بن صالح، بل أمر حينها بتنحيته من قيادة الاتحاد العمالي لأنه لا يثير غير المتاعب.

ولكن بن صالح الذي لم يجد من يدافع عنه وعن أطروحاته في العام ١٩٥٦، فإنه سيجد كل الدعم لدى بورقيبة في بداية الستينيات، حين تكلمت عنه السيدة الماجدة أمام الرئيس وهي تقول: «إنه شاب طموح ومنظم ومتحمس وله أفكار كبيرة ومفيدة». وفي الحقيقة لقد فتح أمام بن صالح باب الدخول أو العبور إلى قلب بورقيبة اثنان هما من أعز الناس لديه: الأول وهو ابنه الحبيب الذي تربطه علاقات جيدة ببن صالح. أما الثاني فهو وسيلة التي تعرف أن أختها نايلة على علاقة جيدة ببن صالح. ولما كان بن صالح رجلاً ديناميكياً ويحظى باحترام كبير لدى الأوساط العمالية وهو إلى جانب ذلك أصيل المكنين الساحل ومحبوب من قبل النساء! فإنه قد منحه الثقة التي لم يمنحها لأي وزير آخر!.

مرة أخرى يدخل أحمد بن صالح إلى الحكومة تحت رعاية وسيلة، كوزير للتخطيط والمالية بعد أن طرد منها. وفي هذه المرة سيجد من يستمع إلى أفكاره ومن يعجب بها. كان متأثراً بالمدرسة الاشتراكية لأوروبا الإسكندينافية. وكان يعتقد أن طريق التعاونيات والتشاركيات هو طريق التنمية الاقتصادية للبلدان المستقلة حديثاً للخروج من التخلف، ولذلك فإن تخطيطاً محكماً ومركزياً لجميع القطاعات الاقتصادية والاجتماعية قد أصبح أكثر من

ضروري للوصول إلى أهداف التنمية الشاملة. وهو ما أثار حماسة بورقيبة نفسه الذي كان يقول بدوره أن التنمية تستوجب النظام والمركزية. الأمر الذي سيؤدي إلى إعلان زواج شرعي بين أفكار بن صالح الاقتصادية ومدرسة بورقيبة السياسية. لقد كانت المركزية هي القاسم المشترك بين الابن وأبيه. فالأب الذي كان شغوفاً بوضع الدولة فوق كل قطاع ونشاط، قد وجد في ابنه بن صالح الوسيلة والأسلوب من أجل أن تظل الدولة فوق كل شيء.

أصبح كثير من الوزراء الشباب متحمسين لهذه الخطة الجديدة. ودعا بعضهم إلى الضغط من نفقات الدولة وإدغام بعض الوزارات. وبالنسبة إلى بورقيبة فقد وجد في تلك الأفكار التي هبت على حكومته نوعاً من إضفاء طابع القوة والعقلانية وكذلك الحداثة، وقال للباهي الأدغم: إن مثل هذه التجربة تستحق تضحيات كثيرة وهي تجربة نبيلة لا تقل أهمية عن الاستقلال السياسي[١٥]. ولأن بورقيبة كان مهتماً بمصير سلطته السياسية، فقد وجد تجربة التخطيط المركزية التي ستؤدي إلى مركزة الاقتصاد بيد الدولة، فرصة لتعاظم سلطته وسلطة الدولة.

لم يكن بورقيبة يعتقد أبداً أن بن صالح خريج الآداب العربية بإمكانه أن يحدث بداخله كل هذا الإعجاب. لقد اعترف بذلك أمام وزرائه وكذلك أمام وسيلة التي مدحها مطولاً لأنها نصحته بالتعاون مع هذا الرجل. كان بن صالح يعرف كيف يقبض على اللحظات الضعيفة التي يمر بها بورقيبة. كما كان يعرف فن القول والإقناع. وإذ عمل في النقابات طويلاً وتدرب على المفاوضات في بروكسيل، وتعرف إلى كثير من الأمراء حتى ارتبط بصداقة كبيرة مع المنصف باي في منفاه، وكان متأهلاً للزواج من أخته، فقد استفاد بن صالح من كل ذلك لتصبح السياسة عنده فناً يزاوج بين الإقناع والعنف، بين المرونة والمركزية وكذلك بين المناورة ووضوح الرؤية. كان يشبه بورقيبة في العديد من النواحي. فهو خطيب مناور، لامع وحاذق وجارح ومحبّ للحياة اللذيذة والسلطة وكذلك النساء. وهو إلى جانب ذلك لا يعرف العراقيل ولا المتاعب، كما يعرف كيف يسيطر على رجاله ويجعلهم يعملون بلا كلل. لقد كان من الطينة نفسها. وإذ فرش بن صالح أمام بورقيبة طريق التحرر الاقتصادي بالورود والوعود، فإن بورقيبة قد منحه كل الدعم والثقة والقدرة على الجرأة والتحديات، وكذلك الضرب. لم تعد كلمات مثل «تعاونية» و«اشتراكية» و«تخطيط» و«تعاضدية» تابوات بالنسبة إلى الشيخ بورقيبة الذي تربّى على معاداة الشيوعية والفكر الاشتراكي، وإنما أصبحت لذيذة وتتقطر معاني سحرية وهي تتناثر من فمه. لقد

أصبح الداعية الأول لأفكار بن صالح. بل إن بن صالح جعل منه جهاز دعايته الضخم والحاسم ففتح أمامه كل الطرق، وكل القرى والمدن ثم فتح له الحزب الذي أصبح يعرف تحت اسم «الحزب الاشتراكي الدستوري».

لقد تجمع كل شيء في وزارة التخطيط والمالية. أصبحت هذه الوزارة هي المركز الضخم الذي يقود البلاد ويوجه جميع القطاعات. تراجعت الوزارة الأولى إلى الخلف، أما الداخلية فقد انحصر دورها في المهمات الأمنية. وفي ما يتعلق بالحزب الحاكم فقد خضع كله لخدمة هذه التجربة وبدا الرهان خطيراً وثقيلاً إلى حد لم يعد فيه بورقيبة يشعر بأية رحمة تجاه المخربين أو المحرضين على الفوضى أو المعادين للاشتراكية!.

في آذار/مارس ١٩٦٣، أعلن بن صالح عن المخطط العشري الذي بشر بخروج تونس من التخلف وكشف فيه عن آفاق النعيم الذي سيعمّ تونس. وتحمس بورقيبة لتلك الأرقام الخيالية وذلك السيناريو الذي سيجلب السعادة لجميع معذبي الأرض التونسية، فأعلن بدوره عن المخطط الثلاثي الذي سيبدأ تنفيذه بداية من سنة ١٩٦٣، والذي يتمثل في تعميم التعاونيات والتعاضديات على القطاع الزراعي. ومن أجل مساعدة وزيره على تخطي المصاعب والعراقيل، فقد استعد بورقيبة لجولة داخل البلاد سيحاول خلالها أن يقنع جميع المترددين أمام تجربة التعاضد. ومن الجنوب إلى الشمال مروراً بالساحل خطب بورقيبة وهو ينادي بمقاومة الفقر والتخلف معلناً «الجهاد الاقتصادي» أمام شعب حذر وشكاك وأناني ولا يثق في كلام الحكومة. لقد مدح بورقيبة بن صالح كثيراً وأضفى عليه طابع القديسين والرجال الصالحين، إلى حد جعل منه رمزاً للثورة الاقتصادية والاجتماعية. وهو ما سيتأكد لبن صالح خلال مؤتمر الحزب الحاكم في مدينة بنزرت من ١٩ إلى ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٤.

كانت كلمة «الاشتراكية» قد اجتاحت بلدان العالم الثالث في الستينيات مثل الحمى. أصبحت «تعويذة» سحرية لدى نخب هذه البلدان للخروج من التخلف. توزعت الاجتهادات وتنوعت، ولكن جميعهم كان يلهج بالاشتراكية. وفيما انحاز البعض للتجربة الماوية مثل نيريري، رأى البعض الآخر في تجربة التسيير الذاتي اليوغسلافية نموذجاً جديراً بتقليده، أما البعض الآخر فقد اختار اشتراكية أخرى قال إنها نابعة من خياراته وإنها إنسانية ومرنة وأقل وطأة على الفرد. سمّي ذلك النوع من الإشتراكية في السنغال وساحل العاج وغانا «بالاشتراكية الديموقراطية»، أما في تونس فقد أخذت اسم «الاشتراكية الدستورية».

لم تكن «الاشتراكية الدستورية» فكراً متكاملاً أو منهجية للتغيير والتطور شاملة. بل هي كانت تنويعة من تنويعات «الطريق الثالثة» التي يبحث عنها العالم الثالث وسط عالم الاستقطاب الثنائي. كانت عبارة عن تركيب بين أفكار السياسة الاجتماعية لدول اسكندينافيا وبعض أفكار «السوفيات» تركيزاً على فكرة رأسمالية الدولة مع بعض التلوينات المحلية حيث ستكون بلا أي «سند ديموقراطي» أو محتوى فكري واضح.

ولأن الاشتراكية لا يطبقها إلا الاشتراكيون كما يقال عادة، فإن بورقيبة المولع بإحلال الكلمات مكان الإنجازات والبارع في نسج الأحابيل الديماغوجية، قد عمد إلى تغيير تسمية الحزب الحاكم من «الحزب الدستوري» إلى «الحزب الاشتراكي الدستوري». بدا للكثيرين من كوادر هذا الحزب أن تغيير التسمية بإمكانه أن يغير من واقع الحال، ولأن القائد قد تكلم وقال «إن جميع الدستوريين هم اشتراكيون» فقد أصبح هؤلاء بين عشية وضحاها اشتراكيين من درجة ممتازة!.

إذا كان بورقيبة يعرف جيداً أن المسألة أعمق من ذلك بكثير، فقد كان يريد أن يدفع إلى الأمام بالأكاذيب كي تصبح حقائق، لأن الأهداف الكبرى تجاورت مع الديماغوجيا. فهو سيستبدل تسمية الحزب. كما أنه سيستبدل كلمات مثل «الصراع الطبقي» بما يسمى «بالوحدة الوطنية»، الأمر الذي سيجعل منه قائداً يقع فوق كل صراع. أما كلمة اشتراكية فسوف تطغى عليها كلمتا «تعاضد» و«تعاضديات» وهي مصطلح من إنتاج بورقيبة ووزيره بن صالح ليستخدم باتجاه تجميع كل شيء في مخازن الدولة: (من المحراث إلى الشاحنة ومن الزجاج إلى الرجال). وبما أن الاشتراكية كثيراً ما تغطي على كلمات أخرى مثل ديموقراطية وحقوق إنسان وحرية وما شابه، فإنها ستستخدم كذلك جيداً من أجل طغيان سلطة القائد بورقيبة. وفي النهاية فإذا كان بورقيبة قد قبل الدخول في ذلك الرهان السياسي والأيديولوجي، فلأنه قد وجد فيه كل المواد الصالحة لتشييد هرم السلطة. فبعد حين سوف تُعرف الاشتراكية الدستورية «بالاشتراكية البورقيبية».

* * *

إذا كان «الحزب الحر الدستوري» قد قاد معركة الاستقلال السياسي، فإن «الحزب الاشتراكي الدستوري» هو الذي سيقود معركة «الاستقلال الاقتصادي» (حزب واحد لا حزبان).

انتهى مؤتمر بنزرت إلى توضيح هوية الاشتراكية الدستورية التي ستقوم على التعايش بين

ثلاثة أعمدة أو قطاعات هي: قطاع الدولة الذي سيتولى ملكية وسائل الإنتاج والبنى التحتية وكذلك الصناعة والتجارة الدولية وذلك للسيطرة على ثروة البلاد، ثم قطاع التعاضد الذي سيتولى تسيير الإدارة والإنتاج والزراعة، وأخيراً القطاع الخاص الذي باستطاعته أن يعمل وينمو ولكن ضمن شروط الدولة ومخططاتها.

أعطى مؤتمر بنزرت كذلك هامشاً من الحرية لبن صالح كان في أشد الحاجة إليه للخروج من خدره وتردده فوضع رجاله في الأماكن المناسبة كما وضع سياسته قيد التجربة والإنجاز. لم يعد الحزب مؤسسة موازية للدولة أو جهازاً بيد الدولة، وإنما أصبح تقريباً هو الدولة على نمط الحزب/الدولة في بلدان الكون السوفياتي. تعاظمت سلطة موظفي الدولة الكبار وكذلك سلطات رجال الحزب. وأصبح هؤلاء وأولئك يعملون بالتنسيق. وإذ غضبت قيادة الاتحاد العام للشغل (النقابات) من زواج الحزب بالدولة إذ قرر مؤتمر بنزرت مراقبة سوق العمل عن طريق بعث خلايا مهنية داخل كل مؤسسة أو تعاضدية لمنافسة سلطة النقابات، فإن بورقيبة سوف لن يطيل الصمت كثيراً حتى يتفرغ لتصفية حساباته مع قيادة تلك النقابات الغاضبة.

ولكن قبل ذلك، كان على بورقيبة أولا أن يدعم وزيره «السوبرمان» (بن صالح) ثم يضعه تحت المراقبة. فهو إذا كان لا يريد لأحد أن ينازعه في الزعامة أو القيادة، فإنه لا يثق كثيراً في «طموح» ذلك الوزير الشاب. ومن أجل ردع ذلك الطموح، طرح ما يمكن أن يسمى بمعادلة التوازن حين أطلق عنان مجموعة من الذئاب الشباب داخل الدولة والحزب. تم ذلك حين أوصى بتشكيل لجنة مركزية (٥٠ عضواً) تعمل بالتنسيق مع المكتب السياسي. وهكذا بعد ثلاثة أسابيع من انتهاء أعمال مؤتمر بنزرت، ومباشرة بعد إعادة انتخابه رئيساً للجمهورية بنسبة ٩٦,٤٪ عين على رأس الحزب شاباً آخر لا يقل طموحاً عن بن صالح، هو «محمد الصياح» البالغ من العمر ٣٠ سنة فقط.

لقد دفع بورقيبة بذلك الشاب أصيل قرية بوحجر التي لا تبعد كثيراً عن المنستير مسقط رأس الزعيم ليتقاسم مع بن صالح قيادة الدولة والحزب. وإذ قال عنه بورقيبة «إنه يمثل الجيل الجديد» فإنه كان يقصد شيئين اثنين أولهما أن هذا الرجل لا يزال بكراً وهو لا ينتمي إلى التحالفات القديمة لقيادات الحزب التاريخية، وثانيهما: أن هذا الرجل الذي لا يعرفه أحد اخل الدولة والحزب، سيجعل من بورقيبة أباه الوحيد[١٦]!.

صبح الآن بن صالح يمسك بآلة الدولة الضخمة وقد سيطر على وسائلها وإمكاناتها وكوادرها ووزاراتها وهو يتمتع بتأييد بورقيبة ودعم الحزب له، غير أنه لن يلبث حتى

يكتشف أن الحزب ليس تحت تصرفه بالكامل. فهو يخضع بالكامل لرجل آخر أثبت فعاليته وجدارته وديناميكيته وولاءه لبورقيبة هو الصيّاح. كان كلٌّ من بن صالح والصياح يتشابهان كتوأم حيناً ويتباعدان إلى حد النفور أحياناً. فهما إذ أصبحا بمثابة الرجلين المفضلين لبورقيبة اللذين يعملان بلا كلل ويبسطان أفكارهما أمامه بلا خوف، فإنهما كثيراً ما يقعان في خلافات بسبب تداخلات سلطتيهما واجتهاداتهما الخاصة ومواقع رجالهما.

أعجب بورقيبة كثيراً بذلك الثنائي وقد شعر بأن كلاًّ منهما يراقب الآخر، وبأن طموحهما كثيراً ما يعطّل تعاونهما، ثم إن أفكارهما لا تبدو منسجمة إلى حدّ التواطؤ ضده. ورغم ذلك فقد أضاف لهما ابنه الحقيقي «الحبيب» لتصبح الدولة التونسية تحت سلطة الثلاثي: الحبيب الابن للسياسة الخارجية وبن صالح للسياسة الاقتصادية والصياح لإدارة الحزب الحاكم.

إذا كانت الديموقراطية تتنفس أحياناً وتعبر عن نفسها داخل أروقة الحزب والدولة، فإنها تكاد تكون ميتة خارج ذلك الفضاء. وحسب الصياح، «فإن بورقيبة كان على قناعة بأن فكرة الديموقراطية نخبوية ولم تكن ولن تكون فكرة شعبية، فهي طريقة للحكم، وهي أسلوب لتبادل الأفكار وتجديد الطاقات داخل الفريق الحاكم، ولكنها ليست أبداً وسيلة لحكم الشعب أو مبرّراً لتمرده»(١٧). لذلك فقد اتسمت ما يسمى بالاشتراكية الدستورية بغياب الديموقراطية في الخارج منذ البداية، أي منذ أن عرفت باسم الاشتراكية البورقيبية. وفي جميع الأحوال، إذا كان بورقيبة ينظر إلى الديمقراطية على أنها «فيروس خطير» فإن لا بن صالح ولا الصياح ولا حتى ابنه كما لا أحد من رجال تلك الفترة كانوا يميلون أو يحبذون تلك الكلمة. لقد تقدمت تلك التجربة الاشتراكية على أرض خالية من التسامح والتداول والتعاون. كان الجميع يعتقد أن «الأهداف» أكثر سموّاً من ترف الديموقراطية، أما بورقيبة فقد كان يعتبر كل نقد لتلك التجربة، إنما هو شتيمة لشخصه. فحين احتج بعض الطلبة اليساريين على تلك «الشمولية» اختار الحزب التصعيد فوضع اتحاد الطلبة مباشرة تحت سلطة الحزب. لقد عمل الصياح منذ البداية على أن تكون المنظمات الجماهيرية كلها امتدادات للحزب الحاكم. أما بن صالح فقد جاهد من أجل أن يصبح اتحاد العام للشغل منظمة تابعة للحزب. وإذ استفاد بن صالح من الصراع بين قياديي تلك المنظمة وهما الحبيب عاشور كأمين عام وأحمد التليلي كأمين عام مساعد، فقد عرف كيف يجذب إلى جانبه الحبيب عاشور، غير أن هذا الأخير ما لبث أن اكتشف أن بن صالح قد نزع منه جزءاً من سلطته وأطفأ لهيب طموحه.

لم ينضم أحمد التليلي إلى ذلك الرهان الإشتراكي! منذ البداية، وقد فضل الرهان الديموقراطي[١٨]! أما الحبيب عاشور فسوف ينتهز فرصة مؤتمر المنظمة العمالية أيلول/ سبتمبر ١٩٦٤ ليحتج على بعض الممارسات الخشنة ويطالب باستقلال منظمته العتيدة عن الحزب والدولة ثم بزيادة عالية في الأجور لتعويض النقص الذي طرأ على القدرة الشرائية بسبب تخفيض الدينار التونسي بنسبة ٢٥٪. كان خطاب عاشور بمثابة إعلان الحرب على بن صالح وبالتالي على بورقيبة. تردد بورقيبة في مواجهة عاشور من أجل ألا يثير مشاعر الشارع والطبقة العمالية. ولكنه سيحسم أموره خلال بضعة أشهر من أجل أن ينتقم من عاشور وزملائه. وحين حلّ عيد العمال في الأول من أيار/مايو ١٩٦٥، اختار عاشور التصعيد فأعلن أن منظمته لن تكون تابعة للسلطة، وأن الكلمة الأخيرة ستكون للمنظمة وللعمال، فاختار بورقيبة الردّ وبقسوة.

كان الحبيب عاشور يملك مركباً بحرياً يعمل في نقل الأشخاص والبضائع بين جزيرة قرقنة (بلدته ومسقط رأسه) وبين البرّ. وفي ليلة ٧ حزيران/يونيو ١٩٦٧ اشتعلت النيران داخل ذلك المركب فتوفي ستة من السياح الأجانب، وعند البحث أثبت رجال الأمن «أن عاشور كان يستعمل بوليصة تأمين مزوّرة، الأمر الذي وضعه تحت طائلة القانون». أوقف عاشور ووضع في الحبس ثم رفعت عنه الحصانة الدبلوماسية، ولم يجد من يدافع عنه في البرلمان سوى زميله وخصمه «أحمد التليلي»، وفي أول مناسبة لانعقاد المكتب السياسي للحزب، طلب بورقيبة من الحاضرين أن يوافقوا على طرد عاشور والتليلي من المكتب السياسي للحزب الدستوري.

وسواء كان حريق المركب عملية منظمة أو مركبة أو كان صدفة، فإن بورقيبة لم يمنح لخصمه أية فرصة للدفاع عن نفسه، بل لم يمنح للمنظمة العمالية أي هامش من الحرية لاختيار أمين عام جديد لها. هكذا انعقد مؤتمر استثنائي لاتحاد العمال ليختار في النهاية رجلاً قريباً من الزوجة وسيلة هو «البشير بلاغة» على رأس تلك المنظمة. لقد جاء بلاغة لمهمة وحيدة هي: وضع المنظمة العمالية تحت سلطة الحزب والدولة. ولأنه كان يعرف دوره جيداً، فلم يتردد منذ البداية في القول: «على العمال أن يدافعوا عن الدولة بانضباطية وبروح عالية مثلما يدافع عنها الجيش»[١٩].

وسوف لن تنتصف سنة ١٩٦٥، حتى يتخلص بورقيبة من جميع «التيوس السوداء» التي تجعل من القطيع مبرقعاً وخالياً من الانسجام. سيموت الطيب المهيري بعد صراع مرير مع مرض السكري، وقد كان أحد القلائل الذين يُتعبون بورقيبة في النقاش ويتجرأون على

معارضته في بعض القرارات. بعد ذلك سيسافر «أحمد التليلي» صديق المهيري الكبير ومساعده في مهمات عديدة منها التغلغل داخل الثورة الجزائرية، ومن أوروبا سيوجه رسالة نقدية إلى الرئيس بورقيبة اعتبرت بمثابة القطيعة مع النظام الذي يحتكر كل شيء متّهماً «دولة الاستقلال التي أنهكت الشعب بالارتجالية والدكتاتورية والفساد والمحسوبية»(٢٠). وفي حين سيرسل المنجي سليم الدبلوماسي المحنّك والرجل الذي يتمالك أمام بورقيبة في جميع الحالات، إلى الخارج في مهمات دبلوماسية، سيدخل الحبيب عاشور، رجل النقابات القوي وحليف بورقيبة في صراعه مع اليوسفيين وشريكه في الحكم، إلى الصمت في انتظار عبور الصحراء. أما الرجلان الوحيدان اللذان سيعلو نجمهما خلال عقد الستينيات فهما بن صالح الذي يمسك بخناق الدولة والصياح الذي يقبض على روح الحزب. لقد تمكن بورقيبة أخيراً من إطاحة جميع الرؤوس أو «التيوس السوداء» العنيدة، ثم أحاط نفسه بأشخاص لا يدين لهم بشيء بينما هم يدينون له بكل شيء.

سيعرف الصياح الذي يتقن فن اللعب على الأحاسيس والإيقاع بالرجال كيف يتسلّل إلى قلب بورقيبة ليسكن بداخه طويلاً كابن مدلل ووحيد. أما بن صالح الجريء إلى حدّ التهور والمعجب بنفسه إلى حدّ المغامرة والغرور فسوف يعيش سنوات مجده وقوته وكأنه محكوم عليه مع تأجيل التنفيذ. وسوف لن ينتهي عقد الستينيات حتى يصبح ذلك الرجل الذي وضع كل الدولة بجيب سترته ووضع نفسه في مكان القديسين، يوضع تحت كل الشبهات.

وحين استكان الداخل إلى مشيئته، التفت بورقيبة ليثير العواصف في الخارج، وكان عليه أن ينال إعجاب البعض وأن يستحق سخرية البعض الآخر.

الهوامش:

(١) كانت تلك العبارة قد نطق بها أحد المشاركين في حركة ١٩٦٢ الانقلابية - وهو عبد العزيز العكرمي - أصيل منطقة قفصة، **من أحاديث مع الشيخ محمد البدوي**، أحد زعماء صوت الطالب الزيتوني الذي عاش مُلاحقاً ومنفياً في الجزائر ثم عاد إلى تونس بعد التغيير الذي قاده بن علي ثم توفي في العام ١٩٩٨ وسط صمت مطبق.

(٢) الوزير هو الباهي الأدغم في معرض روايته لحركة انقلاب ١٩٦٢، **حديث مع المؤلف**، تونس عام ١٩٩٣. وكان الباهي الأدغم هو الذي كشف تقريباً خيوط تلك المحاولة، الباهي الأدغم هو أيضاً من أصول ليبية حسب كتاب: **المهاجرون الليبيون بالبلاد التونسية**، للدكتور «إبراهيم أحمد أبو القاسم»، نشر مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، تونس. ويمكن أن تكون هجرة عائلة الأدغم، إلى الساحل التونسي في عهد حكم عائلة القرمانلي في ليبيا ١٧١١ - ١٨٣٥. وهو سليل مدينة «مصراتة» مثل بورقيبة وأبوه هو «مفتاح بن عمر الأدغم».

(٣) المصدر نفسه، بالاعتماد على رواية الباهي الأدغم. والمقصود هنا هو الحبيب عمار نفسه الذي قام مع الرئيس بن علي بتنفيذ مهمة التغيير وتنحية بورقيبة في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٧، وذلك باعتباره المشرف العام على قوات الحرس الوطني.

(٤) من رواية المسطاري بن سعيد أحد المشاركين في الانقلاب الذي عاش منفياً بين طرابلس والجزائر للمؤلف، وتتطابق المعلومات مع رواية المناضل إبراهيم طوبول الذي عاش منفياً خارج تونس منذ الأربعينيات إلى حين وفاته في جنيف عام ١٩٨٨.

(٥) رواية الباهي الأدغم عن انقلاب ١٩٦٢. **أحاديث مع المؤلف**، تونس ١٩٩٣.

(٦) يقصد بورقيبة من خلال عبارته «بالشيطان البربري» نزعة التمرد التي ورثها سكان تونس والمغرب العربي. أما عبارة «جنّ الانقلاب» فيقصد بورقيبة من خلالها أن «جنّ الجيوش المشارقة» قد يكون حلّ بعقول الجيش التونسي.

(٧) قالت وسيلة لبورقيبة إنها استيقظت ذات ليلة لتجد في غرفة نومها ضابط الحراسة «كبير المحرزي». وقد جعلت خادمتها فريدة تشهد بذلك. وهذا ما رواه بورقيبة بنفسه في أكثر من خطاب.

(٨) من رواية البشير زرق العيون، **حديث للمؤلف**، تونس، عام ١٩٩٣.

(٩) من مذكرات عز الدين عزوز:

L'histoire ne pardonne pas,
L'harmation, Paris, 1988.

(١٠) الأزهر الشرايطي ـ أصيل الجنوب. وهو أحد زعماء المقاومة المسلّحة. وبعد الاستقلال أصبح هؤلاء إما مطاردين أو مكروهين. وقد أطلقت عليهم أسماء ساخرة وباتوا مادة للتندّر.

(١١) الباهي الأدغم، **أحاديث مع المؤلف**، عام ٩٣.

(١٢) تراجع بورقيبة عن ذلك التصريح إذ لم يجد ما يدعم ذلك. وقد يكون فعل ذلك حتى لا يستفزّ السلطة في الجزائر.

(١٣) بن بلّة يتكلّم، كتاب حواري، بين المؤلف والزعيم بن بلّة، نشرته **«السفير»** اللبنانية بالاشتراك مع عدة صحف عربية ثم نشرها ككتاب فيما بعد.

(١٤)و(١٥) رواية الباهي الأدغم مع المؤلف عام ١٩٩٣.
أنظر كذلك كتاب:

S. Bessis-S. Belhassen. **Bourguiba-un si long régne 1757-1988.**
Ed: Jeune Afrique-Livres, 1988

(١٦) محمد الصياح، شغل عدة مناصب في عهد بورقيبة. كان أكثر الرجال قرباً لبورقيبة. وقد اعتمده ككاتب وموثق لتاريخ الحركة الوطنية التي جاءت عبارة عن سيرة لبطولات رجل فقط. كان سيعيّن في الوزارة الأولى في التاسع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٧، لكن حركة التغيير التي قام بها بن علي في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر (قبل يومين فقط) قد قطعت الطريق من أمامه. عاش لفترة في الإقامة الجبرية ثم رفعت عنه وأصبح من زوّار بورقيبة في عزلته بالمنستير.

(١٧) من أحاديث مع الصياح قام بها المؤلف عام ١٩٩٣ في تونس. وقد كان خاضعاً للإقامة الجبرية، قطعت تلك الأحاديث بعد أن تفطن إليها رجال الأمن.

(١٨) يتضح ذلك من خلال الرسالة التي وجهها التليلي من منفاه في أوروبا إلى الرئيس بورقيبة، أنظر في سبيل **الديموقراطية**، أحمد التليلي، تونس ١٩٩١.

(١٩) مذكرات الحبيب عاشور

Ma vie Politique et syndicale
Enthousiasme et deception 1944-1981. Tunis-Alfi- 1989.

(٢٠) أنظر كتاب **«في سبيل الديمقراطية»** أحمد التليلي ـ تونس ١٩٩١.

فنّ التحايل على السقوط في قلب الهاوية!

«في الحقيقة، ذهبت إلى الشرق المعقّد بأفكار بسيطة!!»

«الجنرال ديغول»

قبل أن يضع بورقيبة البلاد على سكة «الاشتراكية الدستورية» بقليل، حاول أن يضع نفسه وخبرته وأسلوبه في خدمة «القضية العربية»!

لقد أتاح الجلاء الكامل عن بنزرت في ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٣ لبورقيبة، فرصة كبيرة للظهور كقائد كبير إلى جانب الزعيمين عبد الناصر وبن بلة. كانت معركة بنزرت التي خلفت وراءها حماماً من الدم قد جلبت السخط والكراهية لبورقيبة ثم ما لبثت أن جعلت منه زعيماً!.

كان التونسيون مثل كثير من العرب يرون في بورقيبة «رجل فرنسا الممتاز والمخلص». ولكن بعد معركة بنزرت استطاع «ابن البطرونة»[١] أن يفوز بمكانة لائقة لدى كثير من العرب المتعطشين للمعارك الساخنة. تأكد ذلك حين رأوه يستقبل كلاًّ من عبد الناصر وبن بلة على أرض بنزرت المبللة بالدماء ورذاذ المطر. كان ذلك في ١٣ كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٦٣ حين نزل ناصر من الطائرة ثم أعقبه بن بلّة وهما يلوحان بمنديلهما إلى أكثر من ٣٠٠ ألف مواطن جاءوا لتحيتهما.

لقد نسي هذان الزعيمان كل خلافاتهما مع بورقيبة. فهو الآن رجل تونس الوحيد والقوي. ولم يكن ممكناً لا لعبد الناصر الذي يريد اتحاد الصف العربي ولا لبن بلّة الذي يخوض صراعاً حاداً مع المغرب بسبب صحراء تندوف، أن يستمرا في عداوتهما لبورقيبة. لقد اغتيل رجلهما المفضل الزعيم بن يوسف وأصبح تحت التراب، وكان من المستحيل إعادة التاريخ إلى الوراء.

في طريقهم إلى المنصة، سأل عبد الناصر بورقيبة ما إذا كان يستطيع أن يركز على الوحدة العربية في خطابه، فقال له: «وأي مانع من ذلك؟ ألسنا كلنا عرباً وأشقاء». أما حين أكثر بن بلّة من صراخه: «نحن عرب، نحن عرب، نحن عرب»، فقد أجابه بورقيبة على نحو خافت: «وهل نحن هنود، حتى نؤكد العكس»[٢]. انتهى الاحتفال بالجلاء عن بنزرت إلى مصالحة كبرى بين أولئك الزعماء الثلاثة. وإذ كسب عبد الناصر إلى جانبه زعيماً آخر، وكان يخوض معاركه في اليمن والمملكة السعودية وإسرائيل إلى جانب معركة التحول الاشتراكي، ورأى بن بلة في بورقيبة سنداً له، وكان يخوض معركة مع المغرب وأخرى في الداخل من أجل تركيز الدولة وتطبيق التسيير الذاتي، فإن بورقيبة قد كسب من تلك المصالحة عدة أشياء هي خليط بين السياسي والشخصي. لقد برز أخيراً لشعبه وكذلك للعرب على أنه ليس عدو العروبة رقم واحد كما كان يقال عنه. كما أوضح للتونسيين وكذلك للجزائريين أنه لا يعاني لا من عقدة العروبة ولا من عقدة الثورة الجزائرية ولا حتى من عقدة «الاشتراكية»، وإذ وضع يده في يدي أكثر زعماء العرب شعبية، فلأنه راح يهيئ نفسه لأدوار كبيرة على صعيد الشرق الأوسط. لم يكن يسارياً متطرفاً مثل عبد الكريم قاسم أو قومياً متصوّفاً مثل ناصر وبن بلّة، كما لم يكن يمينياً مغلقاً أو أتوقراطياً منعزلاً مثل بعض الحكام الآخرين، ولكنه كان معتدلاً، الأمر الذي قد يؤهله للعب دور «المعدّل العام» للصراعات والخلافات التي كانت تجتاح الوطن العربي.

* * *

وقبل أن يتوجه إلى الشرق الأوسط، كان عليه أن ينهي بعض الإشكاليات والخلافات الأخرى مع فرنسا.

أعيدت العلاقات مع باريس ثم سرى تيار الحرارة بين فرنسا ومستعمرتها السابقة فاستؤنفت المساعدات وكان بورقيبة في أشد الحاجة إليها. وبالنسبة لما يسمى بأراضي المعمرين السابقة وهي تغطي مئات الآلاف من الهكتارات، فقد استرجعت الدولة جزءاً كبيراً منها وتم الاتفاق على استرجاع نسبة ٢٠٪ من تلك الأراضي كل سنة ضمن جدول تعويضي مناسب للطرفين؟؟ ثم فجأة أعلن بورقيبة عن تأميم جميع الأراضي التي كانت لا تزال تحت ملكية الأجانب!. كان ذلك القرار قد فاجأ حتى الحكومة التونسية نفسها صبيحة صدوره في ١٢ أيار/مايو ١٩٦٤. وإذ لم يكن الوزير بن صالح متحمساً كثيراً لإعادة تلك الأراضي وإدخالها تحت نظام التعاضد، فإن بورقيبة قد يكون فعل ذلك على الأرجح حتى لا يتهم مرة أخرى أنه «خادم فرنسا». فحين أعلن بن بلّة عن تأميم جميع

الأراضي متخلياً عن «اتفاقيات» إيفيان، وجد بورقيبة نفسه مدفوعاً إلى إعلان التأميم بالرغم من أنه كان يعرف أن الجنرال ديغول إذا ما اختار الردّ فإنه سيبدأ بضرب الحلقة الأضعف!.

تماثلت باريس للأمر الواقع الذي فرضته الأحداث على بورقيبة. ولكن هذا الأخير لم يكن مستعداً أبداً أن يترك الشعب التونسي ينعم بالسكينة. فهو يدرك جيداً أنه لا بدّ أن يضعه باستمرار على أهبة الطوارئ والأحاسيس المتوهجة، وذلك لهدفين. الأول: حتى لا تستهويه دروب المعارضة والتمرد. والثاني: حتى يبقى باستمرار وكأنه أمام «الواجب الوطني» مثل سرايا الجنود.

لم يختر بورقيبة تاريخ ١٢ أيار كيوم لتأميم جميع الأراضي التونسية بالصدفة. وإنما لأنه كان يبحث عن الرمز. ففي ١٢ أيار/مايو ١٨٨١ تم توقيع اتفاق باردو الذي سمح لفرنسا باحتلال أرض تونس. وبعد ٨٣ سنة بالضبط رأى بورقيبة أن التأميم هو الذي ينهي آخر رموز ذلك الاحتلال. كان قراراً شجاعاً لكنه مأسوي على الاقتصاد التونسي الهش. اختارت فرنسا المفاوضات والوساطات حتى تقنع بورقيبة بالتراجع، وحين فشلت تلك المساعي اتجهت إلى العقاب فقطعت مساعداتها المالية ثم أوقفت التعامل مع النظام الجمركي الذي يعطي للإنتاج التونسي امتيازات كثيرة. اعترف بورقيبة لاحقاً بالخطأ، لكنه لم يتراجع عن قراره مدافعاً عنه بأنه «معركة كان لا بد أن تحدث». وإذ جلب له ذلك القرار بعض المتاعب الاقتصادية، فإنه قد شحنه بمقويات سياسية سيدخل بفضلها إلى ساحة الشرق الأوسط كزعيم له كلمته الخاصة حتى وإن كانت مرّة المذاق.

* * *

كان بورقيبة حين اختار أن يزور القاهرة خلال القمة العربية عام ١٩٦٤، يريد أن يحقق أكثر من هدف في الوقت نفسه. فهو يعود إلى القاهرة التي خرج منها بائساً ومتهماً كزعيم كبير، وبذلك فهو يريد أن «ينتقم» من جميع أولئك الذين طاردوه بالشائعات والحروب الصغيرة ونظروا إليه على أنه رجل متهالك ومتصابٍ. ثم هو يدخل إلى القاهرة، قلب العرب النابض، لكي يقول لجميع العرب إن العقل هو السلطان، وإن الأشياء عنيدة ولا يمكن للكلمات أن تغير منها شيئاً. لم يكن مستسلماً للأوهام، كذلك لم يكن نائماً داخل أي تابو أو محرم. كل الحقائق يجب أن تقال وبصوت عال، كما أن كل شيء قابل للنقاش بما في ذلك «وجود إسرائيل»!

كان بورقيبة لا يخفي إعجابه بهذه «الدولة الصغيرة» التي فرضت نفسها على العرب المتمادين في نسج الأوهام. وحتى عندما أعلن في العام ١٩٥٧، أن «إسرائيل قد بعثت من اللاشرعية الدولية، وأنه لن يعترف بها ما لم تحل جميع مشاكلها مع العرب»، فإن ذلك لم يكن إلا اعترافاً ضمنياً. فهو معجب ببن غوريون الذي قال مرة إنه ينتمي إلى صنف بورقيبة، صنف الذين يصفعون التاريخ على الوجه والقفا معاً[٣]. ولطالما أغرته التجربة الإسرائيلية في الزراعة وتسويق الحوامض حتى كاد أن يرسل مجموعة من الشبان ليطلعوا على تلك التجربة في المكان عينه. وإذ لم يجد الشجاعة ليفعل ذلك مع دولة إسرائيل، فإنه استطاع أن يرتبط ببعض الرموز الصهيونية الليبيرالية مثل «ناحوم غولدمان». ولما وجد نفسه أمام الزعماء العرب في قمة القاهرة ١٩٦٤، سخر كثيراً من أولئك الذين كانوا يبحثون عن تشكيل قيادة عربية موحدة لتحرير فلسطين، وقال لهم: «إن أمركم لا يعدو أن يكون فذلكة، ولكنها فذلكة بالدماء. إن تدخل العرب في الحرب مباشرة في العام ١٩٤٨ كان خطأ فادحاً، وإن المطلوب أن يحارب الفلسطينيون لتحرير بلدهم عن طريق حرب عصابات متحركة»[٤]. كانت صراحة بورقيبة موجعة وكريهة لأنها محبطة في الوقت نفسه. فقد ردّد ما قاله له بالضبط ذات يوم من أيام ١٩٥١ الملك عبد العزيز حين زاره في الرياض طالباً منه المساعدة لتحرير تونس من الاحتلال الفرنسي، ولأنه كان يعتقد أن «أسلوبه» في الساحة التونسية يمكن أن يصبح نموذجاً قابلاً للانتشار وإعادة الإنتاج والتعميم، فقد سقط في مدار الإحباط. رغم ذلك فقد رأى عبد الناصر أن يحافظ على علاقته ببورقيبة من أجل تأليف سمفونية متعددة الأصوات!.

عاد بورقيبة إلى القاهرة في شتاء ١٩٦٥، في زيارة رسمية بعد أن توطدت العلاقة بينه وبين عبد الناصر. استقبل في القاهرة بكثير من الترحيب. تناولت المحادثات التي أجراها مع عبد الناصر، بعد زيارة إلى السدّ العالي نقطتين مركزيتين هما: اليمن وفلسطين. كان عبد الناصر الذي يتقن المناورة قد اختار الصراحة مع بورقيبة هذه المرة فطلب منه التوسط لدى الرياض بخصوص قضية اليمن بعد أن أوضح أن كاشفة اليمن أنهكت الجيش المصري!. أما في ما يتعلق بقضية فلسطين فقد كان ميالاً إلى توحيد الصف والهدف العربيين وقال لبورقيبة: «إن إسرائيل دولة مفتعلة وذات نزعة حربية، وهي تسير نحو الحرب، وإن العرب غير قادرين على إعلان أي نوع من الحروب في هذا الظرف وإنه يتفق معه في نقطة دفع الفلسطينيين إلى المقدمة، لذلك وجب تشجيع المنظمات الفدائية». استمع بورقيبة جيداً ثم تكلم فصارح عبد الناصر قائلاً إنه ينوي القيام بجولة في دول المشرق العربي. وهو سيتكلم إلى الشارع بكل صراحة، بل سيدعو إلى المفاوضات والاعتراف بإسرائيل، وأنه يعتقد جيداً

«بأن الاعتراف بقرارات التقسيم هو الذي سيوقف إسرائيل عند الحدود المرسومة، أما ما خالف ذلك فإنه سيجعل منها دولة هائجة وخائفة وعدوانية وتوسيعة». وجد عبد الناصر في كلام بورقيبة قدراً كبيراً من «العقلانية» لكنه إذ مدح رؤيته الاستراتيجية، فإنه لم يقدر على مجاراته وقال له: «إن أنا نطقت بهذا الكلام، فإن الجميع سيهجم عليّ. افعل أنت ذلك. إن عبد الناصر لا يستطيع أن يقول ذلك، بل هو ممنوع حتى من التفكير في ذلك»(٥).

أدرك بورقيبة أن عبد الناصر سجين صورته في الشارع العربي أو لنقل إن شعوب العرب سجنت عبد الناصر في فكرة الحرب والمقاومة العنيفة وحتى المزايدات. وسواء كان ذلك اللقاء قد كشف عن نزعتين أو رؤيتين استراتيجيتين كل منهما تستحق النظر إليها بعمق وتروٍّ، أو كان قد كشف عن أسلوبين مختلفين لرجلين يعتقد كل منهما أنه أكثر تجربة وأكثر شعبية، أو أوضح [اللقاء] أن لا خلاف بين هذين الرجلين وإنما الخلاف في الأسلوبين، فإنه يؤرخ لنقلة نوعية في الصراع العربي - العربي حول قضيتهم المركزية: فلسطين.

غادر بورقيبة القاهرة مباشرة إلى الرياض فاستقبله الملك فيصل بحفاوة شديدة. ومنها إلى الأردن للقاء الملك الشاب «حسين». كان الوفد الذي اصطحبه بورقيبة في رحلته إلى الشرق كبيراً وهو يجمع وزراء ورجال أعمال وكذلك أصدقاء وبعض أقارب وسيلة إلى درجة أن البعض قد رأى في تلك الرحلة وكأنها رحلة شهر العسل مع السيدة وسيلة بعد أن تأخرت ثلاث سنوات.. وفي أريحا الفلسطينية في الضفة الغربية أصبح العسل مرّ المذاق.

في الثالث من آذار/مارس، وصل بورقيبة مع الملك حسين إلى أريحا. «كانت الصدمة قوية حين رأى جموع الناس يفترشون الأرض ويتغطون بالسماء وكأنهم بانتظار المهدي المنتظر» كما عبّر عن ذلك لاحقاً. وقال للملك حسين في الحين: «إن القادة العرب ليسوا معنيين أبداً بتكوين دولة فلسطينية لهؤلاء اللاجئين، وهم يكثرون من دعوات الحرب الشاملة لأن لا أحد يريد الحرب». وحين صعد إلى المنصة، أعاد ذلك حرفياً ثم أضاف: «إنه من السهل أن نتكلم ببلاغة عن الحرب، ولكنه من الصعب جداً أن نعمل بجدية ومنهجية. وإذا اتضح لنا أن قوتنا غير كافية للتخلص من العدو أو رميه خارج أرضنا، فإن المصلحة تقتضي أن لا نلغي الحقيقة أو نحاول إخفاءها». أضاف بورقيبة وهو يضغط على الكلمات ويصرخ

كنبي مخدوع أو مجهول: «يجب ألا نتهم الذين يريدون أن ينادوا بالحلول الجزئية بالانهزامية، إن سياسة كل شيء أو لا شيء لم تقدنا إلاّ إلى الهلاك»(٦).

لقد فجر بورقيبة قنبلته في أريحا بعد أن كشف عنها في القاهرة لعبد الناصر. ردّ عليه البعض بالبصاق والشتائم، أما الأغلبية فقد رمته بالبندورة (الطماطم). انتهى ذلك الخطاب إلى مهزلة. فإذا كان المشرّدون الفلسطينيون ومعهم جميع العرب لم يدركوا معنى مثل ذلك الكلام العقلاني بعد ١٧ سنة من بدء تقطيع أوصال فلسطين، فإن بورقيبة لم يكن يتوقع أن ينال ذلك الحمّام الجماهيري من البصاق. تذكر بورقيبة ما قاله له عبد الناصر من أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، لكنه لم يقدّر العبارة كما ينبغي. فإذا كان الفلسطينيون لا يريدون أن يسمعوا مثل ذلك الخطاب، فلأنهم هم وحدهم الذين يعانون من وطأة الاحتلال والتهجير، أما بورقيبة إذا كان قد ظل «يفاخر» بذلك «الخطاب العقلاني»، فإنه لم يكن يعرف كيف يتحسّس آلام الناس. كان جموحاً جداً. ولو كان «عقلانياً» كما قال أو كما قيل مراراً، لعرف كيف يخاطب الأطباء المهرة مرضاهم أو جرحاهم!.

لم يكن خطاب أريحا إلا مقدمة. فحين ذهب بورقيبة إلى القدس أوضح للصحافيين: أنه لا يقول عبارات طائشة وإنما هو يحمل «أفكاراً وبرنامجاً على الجميع أن يعرفه». بدا ذلك البرنامج البورقيبي هو هدف الرحلة المركزية لبلاد الشرق. وهو يتلخص في جملتين: «نعم إسرائيل دولة استعمارية. ولكن الحقوق الفلسطينية يمكن أن تسترجع تدريجياً. إنه من المستحيل أن نصل إلى شيء ما لم يدرك العرب تلك الحقائق»(٧).

وهو يغادر القدس عائداً إلى عمان، قال للملك حسين «إن أفضل سلام هو ذلك الذي يأتي دون أن يكون هناك لا مهزوم ولا منتصر. وسوف يأتي يوم يتضح فيه لنا أن كل هذه المآسي لم يكن لها من معنى»(٨).

أصغى العالم كله بانتباه إلى لغة بورقيبة الجديدة. وإذ هزّ بن غوريون أكتافه غير مهتم بما يقوله رجل قادم من المغرب وحاكم لبلد صغير وفقير، فإن عبد الناصر قد اختار في البداية الصمت. أما سوريا والعراق فقد نددتا بخطاب وتصريحات بورقيبة ثم رفضتا استقباله.

في تلك الأثناء وبينما كان بورقيبة في زيارة لبيروت (١١ آذار/مارس) قطعت مصر علاقاتها مع بون لأنها اعترفت بإسرائيل، ثم طالب عبد الناصر الدول العربية أن تحذو حذو مصر. غير أن بورقيبة قد سخر من ذلك كثيراً وانفجر يضحك أمام الصحافيين قائلاً:

«حين تطلبون مني قطع العلاقات مع ألمانيا فإنكم تذكرونني بقصة ذلك الرجل الذي أراد أن يعاقب زوجته، فلم يجد أفضل من خصي نفسه».

كان متوهجاً ساخراً، مستفزاً، ولاعباً بالكلمات والحركات أمام صحافيي عاصمة الصحافة. أما وسيلة زوجته فكانت مذعورة وخائفة من مفاجأة غير سارّة. وأضاف بورقيبة يقول: «أخاف أن نجد أنفسنا بعد ١٧ عاماً في المكان نفسه والوضعية نفسها. إن قطع العلاقة مع بون أمر ضار، وخطير وغير مسؤول ويتّسم بالنفاق. فأي ضرر سنلحقه بألمانيا لو قطعنا العلاقات معها؟ ثم أي نفاق هذا. فالاتحاد السوفياتي وفرنسا وبريطانيا وأميركا وجميع الدول الكبرى تعترف بإسرائيل؟».!.

باختصار، كان بورقيبة يريد أن يقول للعرب ان العمل وحده هو الذي يفتح لهم طرقات السلام ويقول «لإسرائيل» بأن السلام وحده هو الذي يضمن لهم الأمن والبقاء. ومن أجل ذلك اختار العلاج بالصدمات. فنال أقبح الأوصاف وأفظع الإهانات ثم ما لبث أن أعاد له «واقع الحال البائس» الاعتبار الذي ظل ينتظره طوال ربع قرن[٩].

لقد تأكد آنذاك لأبناء الشرق أن هذا الرجل ليس إلا داعية للغرب. وهو قد يكون زعيماً كبيراً، لكنه زعيم مخرب. إنه الآن الجاسوس الخائن و«المنشق» و«المترتدّ» وصديق الصهاينة و«العميل الأكبر»، كل هذه الأوصاف البذيئة والكريهة التي اخترقت الثقافة السياسية في بلاد العرب ألصقت ببورقيبة، ولكن هذا الأخير الذي واصل رحلته إلى طهران ومنها إلى إسطمبول وأثينا وصوفيا، كان يعرف أنه حرك بركة راكدة وآسنة، فكان لا بدّ أن تفوح الروائح الكريهة.

بدا خطاب بورقيبة للغرب بمثابة الإمكانية الأولى للتقدم نحو المفاوضات والاعتراف بإسرائيل، وقد وجد صدى طيباً من واشنطن إلى بون، ومن لندن إلى بروكسيل. أما اليهود العرب الذين كانوا لا يزالون يعيشون في البلدان العربية، فقد أحسّوا أن الأمل قادم لا محالة وأن العرب قادرون على الخلاف وكذلك على التفهم. ومن الدار البيضاء إلى تونس إلى دمشق إلى بيروت، عبّر اليهود لبعضهم بعضاً، وهم يخفون ذلك، عن فرحهم لخطاب بورقيبة. أما الذي لم يكن يخطر على البال، فهو موقف تل أبيب. لقد رأى القادة الصهاينة في خطاب بورقيبة خطراً يتهدد كيانهم وقالت «غولدا مائير» وزيرة الخارجية آنذاك في الكنيست: «هذا هو بورقيبة، إنه الأكثر ذكاء والأكثر خطورة من جميع أعدائنا».

بعد شهرين من الغياب والتجوال عاد بورقيبة إلى أرض الوطن وقد سبقته الضجة. «لقد

ذهب إلى الشرق المعقد بأفكار بسيطة» كما قال ذات مرة ديغول، عن نفسه ولكنه حين عاد شعر أنه عاد من شرق بسيط يعيش على أفكار معقدة. ومعنى ذلك لدى بورقيبة: «لا بدّ لحكام الشرق الأوسط أن يصارحوا أنفسهم وأن يأخذوا المسائل بجدية وعندها سيكتشفون أن التعقيدات كلها من صنع خيالهم أو من بنات أفكارهم، والدليل على ذلك أن سكان الشرق البسطاء لا يزالون مخدوعين بتعقيدات الأفكار، ومناورات الحكام»[١٠].

كان بورقيبة مزهواً حين عودته إلى تونس. «فهو قد قام «بفتح مُبين لبلاد الشرق وترهاته» كما قال أحد المعلقين الصحافيين آنذاك[١١]. كما أنه استطاع أن يجهر بالحقائق المرة والمريرة في عقر دار البؤس!. وأكثر من ذلك، فهو تحدّى الزعيم عبد الناصر وأطروحاته ونال إعجابه وصداقته. ولكن ليس ذلك هو كل الحقيقة. إن التونسيين لم يكونوا كلّهم على رأي ملكهم أو أميرهم. فهو بالنسبة إلى البعض داعية استسلام وهو بالنسبة إلى البعض الآخر معاد للعروبة ومحبّ للانشقاق ولا يعول على كلامه، لأنه ليس إلا الجانب الآخر من الميدالية العربية!. أما الدستوريون فقد أخذوا خطاب زعيمهم على أنه «كلام مقدّس» يجب أن يسقي هذه الأرض العطشى للدم والانتقام، ثم انتصبوا كوسطاء للسلام بين العرب وإسرائيل.

في تلك الأثناء جاء تصريح مثير آخر من بورقيبة حين قال لصحفية «لوموند» الفرنسية: «لو كنت قائداً فلسطينياً فإنني لن أتردّد في الذهاب إلى تل أبيب واللقاء بزعمائها»[١٢]. وإذ استقبلت واشنطن ذلك التصريح بترحيب كبير، فإن العواصم العربية قد استقبلته بحريق كبير. اجتاحت دمشق والقدس وبيروت والقاهرة وبغداد موجة من التظاهرات تندد ببورقيبة وتطالب بقطع لسانه. وتعاظم الاحتجاج فأحرقت إقامة السفير التونسي بالقاهرة ثم اضطر عبد الناصر الذي ظلّ صامتاً إلى تلك اللحظة، إلى رفض استقبال مبعوث بورقيبة. وفي أواخر نيسان/أبريل ١٩٦٥، لم تجد بعض وفود الجامعة العربية أفضل من أن تطالب بتجميد عضوية تونس. وقال أحمد الشقيري مندوب فلسطين للمجتمعين: «إن هذا الرجل قد أصابه الكلب، فهو يتحدث عن السلام مع إسرائيل بلا انقطاع».

وفعلاً ما كان بوسع بورقيبة أن يصمت ولو قليلاً. كان قد ركب مزاجه وبدا العناد له كأفضل ما يمكن أن يتحلى به رجل السياسة حين يتعرض للإهانة أو لعدم الفهم أو للعري. وها هو يكرر لوسائل الإعلام الفرنسية ما قاله في طهران وصوفيا: «إن وجود إسرائيل غير عادل وغير شرعي ولكن حتى لو كان ذلك صحيحاً ماذا يغير في الأمر؟!». ردّ عليه أمين الجامعة العربية بحذق فقال: «إن القضية العربية لا تحتاج إلى وساطة أو إلى مفاوضين». أما

الآخرون، فقد زادوا من مقدار الشتم، وبدا أن الشرق الأوسط غير مستعد أبداً لسماع أي خطاب آخر غير خطاب الحرب والانتقام من إسرائيل. كان عبد الناصر الذي أراد أن يمتحن «نزعة المفاوضات» من خلال بورقيبة قد نال مزيداً من التأييد، وإذ لم يعرف كيف يدافع عن بورقيبة، فقد فضل أن لا يهاجمه، لأنه ساعده على تحريك الشارع العربي لصالحه.

إذا كان الشرق الأوسط يكره دائماً من يمزق أوهامه وأساطيره، وهو ينظر إليهم على أنهم مشاغبون وقليلو الخبرة والصبر وتعوزهم حكمة الانتظار، فإن الغرب يحب كثيراً أولئك الذين يتعايشون مع الحقائق المرة والمتناقضة والذين يرفضون أن يلعبوا دور البطولة في دراما الآخرين. لم يسمع العرب صوت بورقيبة، لكن الغرب استمع إليه جيداً. فحين بدأ بورقيبة رحلته إلى أوروبا عام ١٩٦٦ كان يحظى بأكبر قدر من الاحترام. وفي بون أو بروكسيل لم ينس بورقيبة أن يقول لقادة الغرب، إنه يفضّل المفاوضات، وإن «عبد الناصر هو كذلك مستعد للفكرة، ولكن ضوضاء الشارع تقتل تلك الإمكانية».

* * *

إذا كان بورقيبة قد قام بشيء مهم في تلك الجولة فإنه قام بفضح العجز العربي. وهو في هذه الحال لا يستطيع أن يستثني نفسه. فالمزايدات قد بلغت مداها في ذلك الظرف. وبدا واضحاً أن الذي يزايد بالحرب كان شبيهاً بالذي يزايد بالسلام. فلا الذين يضعون الحرب كاعتبار مقدس كانوا يستعدون للحرب، ولا الذين كانوا يفضلون المفاوضات والسلام، كان بمقدورهم أن يصنعوا السلام. ولأن العرب عموماً يحبون الاختلاف لأنهم يكرهون العمل، فقد وجدوا (مغاربة ومشارقة) في «المسرحية البورقيبية» ما يلهيهم عن العمل. ولكن في تلك السنة الكئيبة التي خيمت بحقائقها الكئيبة على العرب، سوف تهز حمى العمل الجدي جماعة من الشباب الفلسطيني ليباشروا التعاطي مع قضيتهم بروح جديدة وأساليب جديدة. إن انطلاق العمل الفدائي في تلك السنة هو الذي سيفضح الجميع، المتمادين في الكلام عن الحرب وعن السلم، بل سيخرج العرب من التصريحات الرنانة أو المساومة إلى اهتمامهم بالعمليات الفدائية. لكن الأنظمة العربية المتيبسة والراكدة في برك الشعارات والمتوجسة من انتشار الفدائيين والعمل المسلح سوف تتحايل بكل الطرق لكي تستحوذ على العمل الفدائي الفلسطيني.

لم تكن أكثر الأنظمة العربية يسارية وتشنّجاً لدعوات الحرب تسمح بالعمل الفدائي وقد نسجت كل السيناريوات للتخلص من تلك الظاهرة المتنامية لأنها سترفع عنها الغطاءات

ذات يوم وتكشف عجزها وعورتها. وتطورت الأمور فأصبح الفدائي الفلسطيني بمثابة الطاعون الذي يهدد بيوت تلك الأنظمة. والقليلون الذين دافعوا عن تلك الظاهرة ما لبثوا أن تراجعوا وأغلقوا آذانهم وحدود بلادهم. وبات واضحاً أن الأنظمة لا تريد لا حلاً لهذه القضية ولا تقدر على الحرب مع العدو، كما هي لا ترغب في أي سلام. ومفاد ذلك كلّه: أنها أصبحت تتغذّى من مأساة شعب يعرف في جميع البيانات «بالشعب الفلسطيني» اللاجئ. لم يكن بورقيبة أفضل من غيره، فقد انهمك الجميع في التعاون ضد اتساع ظاهرة الفدائيين ثم تعاونوا جميعاً على محاربتهم واتهامهم بالإرهاب. وكان كل واحد يتمنى لو أن وجهة نظره تكون هي الصائبة حتى لو جاءت على عربة الموت الجماعي. وفي العام ١٩٨٢، بعد حصار بيروت، شعر بورقيبة أنه كان على حقّ. فالذين شتموه ذات يوم ورموه بالطماطم، ها هم أخيراً يقصدونه وينزلون عنده كضيوف غير متهورين وغير مسلحين ومنزوعي الكرامة والقوة. رأى في ذلك نصراً لوجهة نظره، وإذ بكى البعض من فرط الهزيمة التي جعلتهم يتجهون إلى من تربّوا على كراهيته، فإن البعض الآخر بكى ندماً لأنه لم يستمع ذات مرة لصوت بورقيبة. فبعد ١٧ سنة بالضبط، وكما قال بورقيبة في أريحا عام ١٩٦٥، أخاف «أن نجد أنفسنا في المكان نفسه بعد ١٧ سنة»، كان على أولئك البائسين، الضائعين والمهزومين والمخدوعين أن ينصتوا إلى صوت بورقيبة، ليبدأوا من بلده في وضع خطة متواضعة للعودة إلى بلدهم. إن ذلك لن يعني أبداً أن بورقيبة قد نطق بالحقيقة قبل الجميع مثلما يفعل الأنبياء أو المجانين. وإنما يعني باختصار أن خطايا الآخرين قد منحت مصداقية لأخطاء بورقيبة. ولأن العرب ينقصهم الجدل في حياتهم، فهم كثيراً ما يسمّون خطأ اليوم بحقيقة الغد!

* * *

خسر بورقيبة في تلك الجولة العرب، وربح أوروبا وأميركا، لكنه لم يعرف كيف يرضي فرنسا. لم يكن بورقيبة من المتحمسين لبناء جسور مع أفريقيا. فهي بالنسبة إليه مجال لا يسكن فيه غير البؤس والحرمان والانقلابات. كما أن بلاده إذا أرادت أن تتعلم أو تنهض، فإن أفريقيا لا تقدم لها أي إغراء. ومع ذلك فقد رأى أن جولة لبعض بلدان هذه القارة ستصنع جزءاً آخر من أسطورته السياسية. وكما قال أحد وزرائه، «فقد ذهب إلى هناك ليغيظ الجنرال ديغول. كان يعتقد أن الحضارة تتوقف عند حدود الصحراء الكبرى، ولكنه كان يريد أن يزاحم الجنرال ديغول في مجاله»[١٣].

لم يجد بورقيبة الفيلة في الشوارع أو القرود في المطارات، وإنما وجد سنغور في السنغال

الذي اغتبطه لثقافته وسعة اطلاعه «وهو فوات بوانييه» فني ساحل العاج الذي فتنه ذكاؤه السياسي، و«موديبو كاتيا» في باماكو الذي هيمن عليه بقامته المهيبة وحماسته المشتعلة ثم «الحاج ديوري» في النيجر وأهيدجو في الكاميرون وقد عرفا كيف يثيران حسّ المعرفة وحبّ الاطلاع لدى بورقيبة عن طريق حكمتهما وبساطتهما.

كان تسلل بورقيبة إلى «حديقة فرنسا الداخلية» يرمي إلى هدف واحد هو الضغط على فرنسا لإعادة العلاقة معها. وإذ رآه ديغول مثيراً لحماسة الأفارقة، فقد شعر كذلك أن بعض أفكاره تستحق الاهتمام. فما إن تكلم بورقيبة في داكار عن «الرابطة الفرنكوفونية»، حتى جاء السفير الفرنسي في داكار «جان فرانسوا دينيو» إلى زميله التونسي «الطاهر بلخوجة» ليقول له: «إن الجنرال قد تابع رحلة الزعيم بورقيبة، وهو معجب بالأفكار التي طرحها في داكار». بعد ٢٤ ساعة فقط، طار السفير الفرنسي إلى باريس، ثم عاد ليقول بوضوح: «إن الجنرال لا ينتظر إلا إشارة بسيطة لكي ترفع كل العراقيل بين باريس وتونس». عندها طلب بورقيبة من سنغور أن يمنحه فرصة التحدث أمام مجلس النواب السنغالي، ليقول إنه «لا يدافع فقط عن وجود كيان فرنكوفوني، بل هو يقترح أن يوجد «كومنويلث» على الطريقة الفرنسية». ومن داكار فهم الجنرال ديغول الرسالة.

عاد بورقيبة إلى بلاده وقد حقق الهدف الذي ذهب من أجله، وهو إعادة العلاقات مع باريس. وإلى جانب ذلك، فقد أتاحت له تلك الجولة أن يتعرف إلى قارته السمراء ويصبح أحد قادتها التاريخيين. وفي عيد ميلاده الخامس والستين الذي أحياه في مسقط رأسه المنستير، بعد تلك الرحلة مباشرة، سيبدو بورقيبة وكأنه أحد أمراء الدولة العباسية الذين خرجوا من الكتب. لقد استمرت الاحتفالات أكثر من أسبوع فبلغت درجة من الفخامة والبذخ لم يعرفها أبداً بايات تونس. لم يكن هناك في تونس من يستطيع أن يرفع صوته ليقول إن هذا الذي يحدث ليس من أخلاق الاشتراكية ولا من أخلاق المجاهدين. الجميع انهمك في المديح والرقص، والأصوات كلها كانت كورال عيد ميلاد الزعيم، الذي سيصبح بداية من تلك السنة بمثابة عيد وطني.

وفجأة سيهتزّ قصر قرطاج وكأن زلزالاً قد وقع بداخله. لقد أصيب زعيم الأمة بذبحة قلبية. كان ذلك في ليلة الـ١٤ آذار/مارس ١٩٦٧. هرع الوزراء والمساعدون إلى القصر وهم يحملون قلوبهم على أكفهم من شدة الخوف. لكن الأطباء الذين سبقوا الجميع طمأنوا الوزراء وكذلك الزوجة وسيلة التي راحت تنتحب بصوت مشروخ: انتهى الخطر، بيد أن بورقيبة سوف لن يسترجع نشاطه وصحته إلا بعد شهر. كانت تلك الذبحة قد

أيقظت بورقيبة على حقيقة لا مفرّ منها هي: أنه لم يعد لا شاباً ولا كهلاً بل هو دخل إلى المرحلة الثالثة من عمره. وإذا لم ينتبه كما ينبغي لصحته، فإن الذبحة قد تعود في شكل نوبة قاتلة. اكتشف التونسيون بسرعة أن رئيسهم قد قلّل من الخطابات الحماسية والجولات. أما هو فقد اكتشف أن الموت قريب منه، بل هو أقرب مما كان يتصور. وأخيراً تعايش الرئيس والشعب مع تلك الفكرة. بدا ذلك كما لو أن بورقيبة عاد إلى حجمه الطبيعي أو إلى طبيعته الإنسانية. وإذ رأى الشعب أن رئيسه الذي أصبح هشاً وكثير الغياب قد يجعل منه شعباً يتيماً في أية لحظة، فإن الطبقة السياسية سرعان ما اشتمت رائحة الموت فراحت تنسج تحالفاً مع القدر. لقد حررت تلك الذبحة القلبية التي أصابت رئيسهم، كل طاقاتهم وجعلتهم ينتبهون للمستقبل. وهذا ما سوف تعبّر عنه «الجامعة التونسية» التي كانت تتنازعها عدة تيارات.

سوف لن يخرج التونسيون من صدمة الذبحة القلبية التي أصابت رئيسهم إلا في مساء الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧ حيث ستنسيهم النكسة تلك الذبحة. لقد انطلقت الحرب الثالثة العربية ـ الإسرائيلية، تلك الحرب التي ستوطد هيمنة إسرائيل على العرب على نحو لم يتوقعه أكثر خبراء العلاقات الدولية خيالاً. انتهت تلك الحرب بسرعة. ولكن جروحها وآثارها ستبقى محفورة في باطن الأرض العربية إلى مدى بعيد. ومن بغداد إلى الرباط اشتعلت الشوارع فنادت بالانتقام والحرب والثورة على الحكام الفاسدين والمتهاونين. حتى بورقيبة الذي حذر من ذلك اليوم البائس، كان عليه أن يواجه الشعارات والاتهامات. حرق المتظاهرون المركز الثقافي الأميركي. واندفع التيار فحرق صور بورقيبة، ثم جاء دور الكنيس اليهودي بالعاصمة فأشعلت فيه النيران كما أشعلت في العديد من المحال التجارية للجالية اليهودية. كان جمهور المتظاهرين ينتمي إلى جميع الطبقات الشعبية وإلى جميع الأفكار السياسية. بل إن العديد من الدستوريين قد بدوا أكثر مغالاة من غيرهم.

وفي الحقيقة إذا كان ذلك الاندفاع قد فجره غضب الهزيمة أمام إسرائيل، فهو كذلك عبّر عن غضب شعب بكامله تجاه قائده. اتضح فيما بعد أن عدداً من أفراد الفريق الحاكم قد عقد العزم على محاربة بن صالح وزير بورقيبة السوبرمان. وهؤلاء الأفراد قد أعطوا لأنفسهم حق نقد تجربة التعاضد. وحين رأوا بورقيبة قد أصبح مريضاً، تمادوا في تكثيف جهودهم وتجميع صفوفهم لتشكيل هيئة معارضة داخل النظام.

كان أغلب هؤلاء ينتمون إلى الدولة والحزب وكذلك إلى العاصمة. بدا الأمر وكأنه

تحالف معارضي العاصمة ضدّ تحالف الساحليين. وإذ اختار بورقيبة الساحلي دعم وزيره القوي بن صالح ومدير حزبه محمد الصياح، فإن وسيلة التونسية ستختار التحالف مع أبناء تونس العاصمة وهم أحمد المستيري وزير الدفاع والباجي قائد السبسي وزير الداخلية وفؤاد المبزع مدير الأمن الوطني إلى جانب المنجي سليم والباهي الأدغم. إذا كان الصراع بين أبناء الساحل وأبناء العاصمة لم يختف أبداً طوال تاريخ تونس الحديث، فإن فترة بن صالح القاسية قد زادت من التهابه. وهنا شعر بورقيبة أن بلاده قد أصبحت مخترقة بالجهوية والإقليمية، وأن نظامه قد بات يتركب من محورين متنافسين ومتناحرين.

أحدثت هزيمة حزيران داخل بورقيبة صدمة أقوى بكثير من صدمة الذبحة الصدرية التي دهمته منذ بضعة أشهر. فالذبحة قد أشعرته بالهوان والضعف، أما الهزيمة قد أشعرته بالتلاشي أمام تحديات الشارع. والاثنان في النهاية أيقظاه على الحرب التي اندلعت داخل نظامه.

إن حرق المركز الثقافي الأميركي والكنيس اليهودي وكذلك تدمير بعض الممتلكات اليهودية، كل ذلك سينظر إليه بورقيبة على أنه عمل منظم ضده شخصياً وضد خيارات حكومته. فهو قد اختار صف أميركا بلا أية مراجعة حتى أنه كان الوحيد الذي دافع عن حربها الفظيعة في الفيتنام إلى حد تجرأ فيه ذات مرة على التساؤل أمام وزرائه «عمّ يجعل واشنطن إلى الآن مترددة في ضرب هؤلاء المتمردين بالنووي؟!»(١٤)، كما اختار الدفاع عن وجود إسرائيل في المنطقة إلى حد تجرأ فيه على المطالبة بالمفاوضات معها، وهذا ما جعله يشعر بالتلاشي تجاه ما حدث في بلاده من عنف تجاه أميركا واليهود. فَهِمَ بورقيبة أخيراً أن شعبه يتنفس من هواء وغبار الشرق، ثم أدرك أن فريقه الحاكم غير منسجم. وبعد ذلك استنتج أن هناك من يريد تأليب واشنطن عليه وقطع الصلة بينه وبين اليهود وجعله ضعيفاً وغير قادر على ضبط الإيقاع في بلاده وتشويه خطابه الذي يقوم على التسامح والتصالح مع مغتصبي أرض العرب!.

لقد حلّت الخيبة مرة أخرى في قلب بورقيبة ورأى أن شعبه شغوف بالعروبة والإسلام مثله مثل جميع العرب. ولأنه ليس من صنف أولئك الرجال الذين يستسلمون لليأس، فقد اختار بورقيبة وكالعادة أن يسير بعكس التيار. أعطى إشارة للوزير بن صالح بأن يسرع في برنامج التعاضد ثم أمر الصياح مدير الحزب بأن يفتح النار على الخطاب العروبي الذي يختفي وراءه المتمردون والغاضبون وكذلك الليبراليون، وأن يجعل من «التونسة» مركز اهتمام الحزب، وفي الوقت نفسه أرسل ابنه الحبيب إلى واشنطن كسفير لطمأنة المسؤولين

الأميركان بأن ما حدث ليس إلا موجة غضب، أما النظام فهو بصحة جيدة، وكذلك خياراته.

وفي الواقع، فإن بورقيبة قد أصبح مثقلاً بالهموم الحقيقية التي كشفت عن نفسها أثناء أحداث حزيران/يونيو ١٩٦٧. لقد اقتنع أن التشققات قد أصبحت بارزة في واجهة نظامه وأن وزراءه لا يتكلمون لغة واحدة. وإذ بدا غير قادر على إعادة الانسجام بين أجنحة نظامه، فإن اللحمة بينه وبين الشعب قد تمزق نسيجها واهترأ. فلمدة طويلة وهو يحاول أن يبعد بلاده عن اهتزازات الشرق، ولكن في لحظة، أقرت الطبيعة أن رياح الشرق وحدها القادرة على إنضاج الخوخ في المغرب!.

* * *

إذا كان القائد يمرض، فهو كذلك يموت. هذا ما كان ينتظره كثير من التونسيين. أما أحمد بن صالح فقد أصبح مستعجلاً في برنامجه قبل أن يغيب القائد. فهو الضمانة الوحيدة له، كما أصبح يعرف أن الطموحين للخلافة ليسوا قليلين كما هم ليسوا منزوعي السلاح. إنه الآن وزير لأربع وزارات. فهو زير الاقتصاد الذي يضم الصناعة والتجارة وكذلك التخطيط والمالية ويسيطر على وزارة الزراعة ثم وزارة التربية والتعليم. لم يظهر أي ضعف تجاه أي نقد أو تجاه أية مسؤولية ثقيلة، ولذلك فإن حسابه لا يقدمه إلا لبورقيبة شخصياً. كان كذلك يعرف أن السنوات الخمس من تجربة التعاضد لم تنتج شيئاً مثيراً أو قادراً على الدفاع عن وجوده. كان كل شيء قابلاً للانهيار، ولأنه كان خائفاً من موت مفاجئ للقائد، فقد كان يحث الخطى على نحو مجنون. اجتاحت تجربة التعاضد جميع القطاعات. واختفت من المشهد التونسي عدة عادات وتقاليد ومعاملات. أغلقت جميع الدكاكين التجارية بما في ذلك دكاكين العطرية والمواد الغذائية والخضار الصغيرة. أما الفلاحون فقد أصبحوا أجراء داخل أراضيهم. فيما اتجه العمال والعاطلون عن العمل إلى السفارات طالبين تأشيرات الخروج لعرض قواهم في سوق العمل في أوروبا وليبيا. وإذ شعر الحزب بتفكك النسيج الاجتماعي نتيجة تلك «الاشتراكية التي قامت على شكل هرم معكوس» وقد أفقرت البورجوازية الصغيرة وقضت على الفلاحين وشردت العمال، فإن بورقيبة الذي كان يزور بين الحين والآخر «مزارع نموذجية» مهيأة خصيصاً لزوار البنك الدولي، قد ظل لفترة ينظر إلى ذلك الغضب على أنه جنوح أو حنين لعهد الليبرالية البائد!.

في ذلك الجوّ الملبّد بالأسئلة والخوف والصراعات، خرج عن الصفّ وزير الدفاع أحمد المستيري، ليصارح الرئيس المخدوع! والشعب الغاضب. كان المستيري ابن بورجوازية

العاصمة وزوج ابنة محمد شنيق رئيس وزراء أحمد الأمين الباي، طموحاً مثل بن صالح ودستورياً مثله منذ شبابه. وقد دفع به بورقيبة إلى الأمام لكسب ود البورجوازية الوطنية، فشارك في تأسيس دولة الاستقلال مبكراً. ولأنه يتمتع بثقة الرئيس وكذلك بودّ وسيلة، فقد كان أكثر الوزراء كفاءة أو قدرة على التصدي لبن صالح.

كان المستيري قد تعايش طويلاً مع عدة مآخذ ونقائص ثم ما لبث أن انتفض. إنه غير مطمئن لتجربة التعاضد، وهو لم يعد ينظر إليها إلا كمغامرة شخصية أو مطية لطموحات أخرى، لأن الاشتراكية التي تقوم على القمع لا يمكن أن تنتج غير البؤس. كما أنه يحتج على تعيين بورقيبة لأغلب أعضاء اللجنة المركزية للحزب لأنه لا يشجع إلا مسار البيروقراطية والأتوقراطية، وأخيراً فإنه غير راض على عبادة الشخصية التي تجعل من بورقيبة رجلاً غير قابل للفناء ومن السياسة لعبة قدرية سمجة. وهذا كلّه يهدد النظام الذي شارك في وضع أسسه والجمهورية التي آمن بها، ما دفعه إلى تقديم استقالته من وزارة الدفاع ومن عضوية المكتب السياسي للحزب الدستوري الحاكم.

وفي تصريح وزعه على الصحافة لتبرير استقالته تكلم المستيري بلغة القطيعة فقال: «إن الدولة لم تعد تعمل. وإن مرد ذلك هو شخصنة الحكم والسلطة وانتصاب البيروقراطية التي تعتبر نفسها فوق القانون» وأضاف: «أعتقد أنه من الممكن أن نقوم بثورة عن طريق القانون. فالشيء المهم لدى أي مواطن في دولة متحضرة هو أن يعرف مسبقاً اتجاهات دولته». غضب بورقيبة وأمر بتجميد عضويته في الحزب، ولم يكن أمام المستيري الآن إلا أن يواجه قدره. لم يكن المستيري هو الأول الذي احتجّ على غياب الديموقراطية فنال مثل ذلك العقاب، وإنما كان قبله آخرون مثل المصمودي وأحمد التليلي والحبيب عاشور.

بدا واضحاً أن الحرب على تجربة بن صالح قد بدأت. وإذ طار بورقيبة في جولة قادته إلى أوروبا وأميركا لمعالجة صورته التي غدت باهتة، فقد ترك الدولة في قبضة بن صالح الذي بدأ يشعر أن انتصاره قد وضعه مرة أخرى في مهبّ الرياح العاتية. لقد أصبحت هذه الدولة تعد أكثر من فريق. كان كل فريق يشحذ سلاحه لمواجهة الفريق الآخر. وسوف لن يتأخر زمن المواجهة كثيراً، لكي يعرف التونسيون أنهم كانوا يعيشون في وهم كبير وجميل، ولكنه قاتل. أما بورقيبة فقد برهن مرة أخرى كيف يتحايل على السقوط في قلب الهاوية. إنه رجل قادر على تكرار كل شيء، والتحايل على كل شيء، لذلك سيطيل السير وهو شبه ميّت.

الهوامش:

(١) «ابن البطرونة» هو كنية شعبية (سوقية) ألصقت ببورقيبة لوقت طويل. وتعني «البطرونة» هنا القوادة، وابن البطرونة، أي ابن القوادة، التي هي فرنسا الاستعمارية.

(٢) **بن بلّة يتكلم**، حوارات صدرت في كتاب بعد أن نشرت في أكثر من صحيفة عربية، مثل «السفير» اللبنانية و«الشراع» اللبنانية و«الخليج» الإماراتية عام ١٩٨١

(٣) قال بورقيبة ذلك لمنديس فرانس. وكذلك للصحفي جان دانييل.

أنظر:

Mendes France-Jean Lacouture

Ed: Seuil 1981.

-Bernard Cohen-Bourguiba-le pouvoir d'un seul.

Ed: Flammarion 1986.

(٤) **مذكرات الشقيري**، بيروت ١٩٧٥.

(٥) لم يكن بورقيبة ليتحرأ على ما جاء في خطاب أريحا لولا أنه وجد تأييداً لدى عبد الناصر. هل كان عبد الناصر يناور؟ هل كان فعلاً سجين خطابه القومي المتشدد؟ هل أراد أن يزيح بورقيبة من الصورة ويجعله ممسحة!؟ ربما لم يطرح بورقيبة مثل تلك الأسئلة على نفسه. فقد كان مولعاً بإحداث الصدمة. وهذا شغف قديم في بورقيبة. وربما كان كذلك ساذجاً إذ كان عليه أن يفكر في ما بعد الصدمة!.

(٦) «كل شيء أو لا شيء» سياسة العجز بالنسبة إلى بورقيبة. وقد واجهها في تونس وتغلّب عليها بمنهجية، خذ وطالب، أو سياسة، خطوة ـ خطوة، حتى أصبحت تُعرف بالخطة البورقيبية.

(٧)و(٨) الملك حسين في حوار مع مجلة **«فورين أفيرز»** عام ١٩٨٧.

(٩) عند التوقيع على اتفاقيات أوسلو، ردّد فلسطينيون كثيرون «بأن بورقيبة كان على حقّ، ويا ليتهم أدركوا معنى كلامه وأخذوا بنصائحه».

(١٠) قال ذلك في حوار مع مجلة **«النوفيل إبسرفاتور»** الفرنسية، حوار مع رئيس التحرير جان دانيال، أواخر ١٩٦٥.

(١١) من افتتاحيات **«العمل»** الصحيفة الناطقة باسم الحزب الدستوري الحاكم.

(١٢) من حوار صحافي أجراه معه «أندريه فونتان» في صحفية **«لومُوند»** الفرنسية.

(١٣) العبارة لمحمد المصمودي.

(١٤) المصمودي، **حديث مع المؤلف**، باريس ١٩٩٠.

سنوات الصيد:

الحكاية المريرة للثعلب والأسد

«أيتها السذاجة المقدسة! يا له من تبسيط وتزييف غريب يعيش فيه الإنسان! فما إن يفتح المرء عينيه ليبصر هذه الأعجوبة حتى لا يعود للعجب من نهاية! كم جعلنا كل شيء من حولنا باهراً وحراً وخفيفاً وبسيطاً! وكم برعنا في إفلات حواسّنا على كل ما هو سطحي وفي تزويد فكرنا برغبة إلهية في الفهلوة وفساد الاستدلال! ـ فيا للحذق الذي به حافظنا على جهلنا منذ البداية».

«فريديريك نيتشه»

ما وراء الخير والشرّ

لأن الاقتصاد التونسي هشّ وهزيل في بنيته الأساسية، فإن اشتراكية الهرم المعكوس الثقيلة التي كانت تتعالى تحت أنظار ووصايا البنك الدولي! سرعان ما دلّت على بؤسها.

ولأن صحة القائد بورقيبة قد غدت عليلة ومعطوبة، فقد تحالف بؤس الاشتراكية مع بؤس المرض من أجل إطاحة أكثر رجال بورقيبة طموحاً وخبرة في الدسائس السياسية الذي كان يحلم بالخلافة. إنه أحمد بن صالح.

كانت حادثة «الوردانيين» تلك القرية الساحلية التي لطالما غذت حزب الدستور بمناضلين طيّعين بين يدي بورقيبة قد أشعلت الحريق الذي سيلتهم بن صالح وتجربته الاشتراكية!. ففي السادس والعشرين من كانون الثاني/يناير في العام ١٩٦٩، أطلق رجال الشرطة والحرس عيارات نارية ضد فلاحي تلك القرية لوقوفهم أمام جرارات «بن صالح» التي شرعت في تهديم حدود ملكياتهم الصغيرة من أجل دمجها في تعاضديات كبرى تحت إشراف الدولة بينما يصبح أصحابها مجرد أجراء يعملون بها يوميّاً.

كان عبد الله فرحات ابن «الوردانيين» وعضو المكتب السياسي للحزب الحاكم، ورجل بورقيبة القوي والمتشدد تجاه سياسة التعاضد، هو الذي أخبر بورقيبة بالحادثة الأليمة التي كادت أن تتحول إلى مجزرة، وهو لا يزال نائماً في إحدى العيادات الطبية بسويسرا.

أدرك بورقيبة وهو على فراش المرض أن اسمه قد أصبح يصيب الأهالي بالدوار. وقد قال له عبد الله فرحات: «إن الناس يعتقدون بأن تسلط بن صالح على الفلاحين ما كان ليتم لولا موافقة بورقيبة، وأنهم ينتظرون منه «كلمة بركة» لتهدئة النفوس أو إشارة ما لمقاتلة بن صالح»[١].

كان مثل ذلك الكلام واضحاً وحاسماً بالنسبة للقائد المريض بورقيبة. فهو إذا واصل الصمت، فإنه سيعطي لـ«بن صالح» مزيداً من الشرعية والقوة، أما إذا ندد بالحادثة، فإنه سيسبب في حرب أهلية جهوية قد تمتد إلى بقية مناطق الجمهورية. ولكن كان عليه أن يتحرك وبحذر.

خاطب بورقيبة مباشرة من سرير المرض رئيس وزرائه «الباهي الأدغم» هاتفياً وقد استبدّ به غضب فرعوني قائلاً له: «استعمال القوة ممنوع. وقل لبن صالح أن يوقف نشر التعاضديات في تلك المنطقة. أما عمر شاشية والي المنطقة (المحافظ) فدعه يلتزم الهدوء»[٢]. كان الباهي الأدغم كما وصفه بورقيبة لاحقاً رجلاً يحب اللعب على حبلين. فهو كثيراً ما يقف في المسافة الفاصلة بين خصمين. ولأنه لم يكن يملك قوة الإقناع أو قوة الردع بالرغم من أنه خليفة بورقيبة دستورياً، فإنه لم يفعل شيئاً ذا قيمة. فحين خاطب المحافظ «عمر شاشية» في الموضوع، أجابه هذا الأخير الذي كثيراً ما وصف «بباشا الساحل» لغطرسته وولعه بالسلطة والملذات والنساء «أنه لا يمكن التراجع في نشر التعاضد بمجرد مكالمة هاتفية، لكنه سيخبر بن صالح فوراً»[٣].

كان بن صالح لا يكنّ أي احترام «للباهي الأدغم»، فهو ينظر إليه على «أنه رجل عتيق لا يصلح لأي شيء نافع»[٤]. كما أنه لم ينس له أبداً وقوفه إلى جانب «فرحات حشاد» خلال منافسته له في قيادة اتحاد النقابات. أما «عمر شاشية» فهو وإن كان ودوداً تجاه بورقيبة وكذلك تجاه خليفته «الباهي الأدغم»، فهو رجل لا يناقش قرارات بن صالح الذي دفع به إلى الأمام وحماه من كراهية الآخرين. لذلك حين فاتحه في الموضوع وقد أخبره بغضب بورقيبة، ردّ بن صالح بكلمات قصيرة: «الرئيس انتهى أمره. إنه مريض جداً»[٥].

تلك الكلمات القصيرة قد أيقظت في «الباهي الأدغم» حسّ الخوف على منصبه. وبدا له أن بن صالح قد فتح معركة خلافة بورقيبة في حادثة الوردانيين، وأنه ليس مؤمناً بالتعاضد مثلما هو مؤمن بالوصول إلى السلطة. كانت الدولة تترنح بين يدي رجال تنقصهم الشجاعة ويستهويهم التحالف مع القدر، وآخرين يمتلكون الشرعية وتعوزهم القوة

والحكمة. أما القائد فهو نائم في منتجع «غشتاد» بعيداً وهزيلاً وموجعاً لأن الأبناء بصدد تخريب ما بناه الآباء.

فجأة ينهض بورقيبة مس فراش المرض وكأن شيطاناً قد أعاره قوته. وها هو يعود إلى بلاده التي أصابها الإنهاك ليقول ما كان يحب أغلب الشعب سماعه. إنه لم يعد مريضاً، أما تونس المتعبة فعليها أن تنهض هي الأخرى كما فعل قائدها، وهكذا لأول مرة سيتعرض بورقيبة في خطاب مفتوح ومثير يوم ٤ آب/أغسطس ١٩٦٩، أي بعد يوم فقط من عيد ميلاده، لانتقاد أعمدة حكومته ومساوئ برامج التعاضد. لقد قال بوضوح: «إن نظام التعاضد صالح فقط إلى الحدّ الذي يخلّ فيه توازن الدولة والشعب، فالمظالم إذا لم تصلح، فإنها ستأتي بكوارثها»[٦].

كان ذلك يعني للجميع أن بورقيبة قد أعطى إشارة تحطيم الصنم الذي لطالما دافع عنه. أما بن صالح فلم يستسلم، بل أراد أن يضع رئيسه في زاوية ضيقة. وخلال جلسة طويلة جمعت الرئيس ووزيره ـ التمساح، حاول بن صالح أن يكسب قرار بورقيبة بنشر التعاضد وتعميمه. قدم له مشروعاً متكاملاً كما يفعل في كل مرة قائلاً له: «لم يبق كثيراً على بلوغ النعيم الاشتراكي الدستوري». لكن بورقيبة لم يقتنع وبدا له أن بن صالح يراوغ من أجل كسب الوقت. خرج الاثنان من ذلك الاجتماع دون تسجيل أحدهما هدفاً على الآخر وقد قررا أن يعرضا مشروع تعميم التعاضد على مجلس الوزراء.

في بداية أيلول/سبتمبر ١٩٦٩، لم يصادق مجلس الوزراء على ذلك المشروع، لكنه لم يعارض استمرار سياسة التعاضد موصياً بتعايش القطاعات الثلاثة (الخاص، التعاضدي، وقطاع الدولة). بدا واضحاً أن بن صالح لم يكسب المعركة، أما بورقيبة فكان يهيئ نفسه من أجل إلقاء القبض على ذلك التمساح الذي التهم كل شيء تقريباً.

كان مجلس الوزراء قد انقسم إلى صفين. الصف الأول وهو الأغلبية التي وقفت ضد سياسة بن صالح وكان يقودها الهادي نويرة، مدير البنك المركزي (برتبة وزير) أما الصف الثاني فكان يمثل الأقلية، وقد قاد هجومها الهادي البكوش[٧] بصفته أحد الأدمغة المخططة لتجربة بن صالح. ومن أجل ألاّ يظهر بورقيبة ذلك الانشقاق الكبير في حكومته فقد أمر وزيره الأول «الأدغم» بشرح قرارات الحكومة مباشرة على شاشة التلفزيون، على أن يصحب معه الوزير بن صالح.

وأثناء البثّ، تجرأ بن صالح على مقاطعة الوزير الأول. وقد استطاع أن يقول ما كان يفكر

فيه، فذكر «أن تجربة التعاضد ستتواصل، وأن التراجع غير ممكن، وكل التعاضديات التي أنشئت قبل كانون الثاني/يناير ١٩٦٩ ستبقى على حالها، وأن البورقيبية ستنتصر عندما تنتصر الاشتراكية».

اغتاظ بورقيبة كثيراً وهو يتابع تلك المداخلة من فوق فراشه في قصر قرطاج، ورأى أن وزيره قد تجاوز كل الحدود، وأن هذا الرجل قد أصابه كلب المعارضة والعناد، وقد أصبح خطيراً. لقد شعر بالخوف، لأن بن صالح قد يلجأ إلى فكرة الانقلاب والتخلص منه، وبالإهانة، لأنه كذب عليه وباسمه. ومنذ تلك اللحظة قرّر بورقيبة أن يتغدى بوزيره قبل أن يتعشّى به. أما وسيلة، فقد أعدت كل ما يلزم بما في ذلك شهيّة بورقيبة.

بعد يومين فقط أصدر بورقيبة قراراً بحلّ وزارة الاقتصاد، أو بالأحرى تفتيتها إلى ثلاث وزارات، لم تسند أية واحدة منها إلى بن صالح. هلّل الأهالي للخبر، وذبح العديد من الفلاحين قرابين وهم يدعون في السرّ والعلن بموت بن صالح. أدرك بورقيبة للمرة الأولى كم كان وزيره مكروهاً وملعوناً. وإذ لامس عمق تلك الكراهية، فقد ازداد ثباتاً من أجل وضع حدّ له.

لم يكن بورقيبة يصدق ما رآه بعينه. فقد استطاع أن يتغلب على جميع أعدائه. وكثيراً ما صارع رجالاً عظماء وأحداثاً مريرة. ولكنه كان يخاف أن ينهزم أمام رجل صنعه بيديه. فهو الذي منحه كل تلك الثقة وكل تلك السلطة ولطالما حذره بعض الأصدقاء من «أن بن صالح رجل بألف وجه»، لكنه تغافل عن ذلك وهو يريد في الوقت نفسه أن يرضي طموح لشباب وإعجاب الزوجة وسيلة بذلك «الدون جوان» الاشتراكي الذي صرف سنين عديدة من عمره وهو يطارد حفيدة «المنصف باي»: «تراكي»[٨].

كانت الصدمة بالنسبة إلى بورقيبة موجعة لأنها تصادفت مع انهيار صحته. وكان التونسيون كلّما رأوا قائدهم وهو يقترب من الشيخوخة متكئاً على عصاه، شعروا بالغبن وكذلك بالخداع وهو يطحنهم دون مقاومة. انتشرت في البلاد بطالة لا مثيل لها وانهار الاقتصاد إلى حدود الاستقالة الكاملة، وبدت دولة الاستقلال وكأنها مجرد دوريات من الشرطة والعساكر والحرس تلتقط من الشوارع كل من تبدو على وجهه علامات الغضب. وحين حلّت فيضانات أواخر خريف ١٩٦٩، انتشرت المجاعة في البلاد التي يدعوها أهلها بتونس الخضراء. فكان على بورقيبة أن يتحرك قبل حدوث الطوفان. وهكذا حين لم يجد من هو مستعد لإبلاغ بن صالح بقرار عزله من جميع مهامه بعد مجلس وزراء مضيق في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٩[٩]، سحب بورقيبة بنفسه الهاتف وأدار رقم بن

صالح في بيته ليقول له: «ألو. سي أحمد، يمكنك أن تستريح في بيتك من الآن. الدولة تحيّي جهودك عالياً. مع السلامة»(١٠).

* * *

استقر بن صالح في السجن بعد أن حكم عليه بعشر سنين أشغالاً شاقة بتهمة التآمر على أمن الدولة وتخريب الاقتصاد. كان بن صالح في البداية مطمئناً إلى أن بورقيبة سيستيقظ فيه حنان الأبوة ذات يوم ويعفو عنه، ولكن بعد مرور بضع سنوات دهمته كآبة شديدة حين عرف أن الأب قد يكون عاد إلى التخطيط من جديد للتخلص منه ثم يقلب الصفحة.

* * *

وإذا صدقنا روايات تواترت بكثرة على ألسنة رجال مقربين من بورقيبة، فإن بورقيبة قد أغرته فكرة الاغتيال منذ البداية، وقبل بدء المحاكمة، وقد فاتح في ذلك كلاً من زوجته وسيلة والوزير الأدغم وكذلك المصمودي. وقال لهم: «لم يبق لي إلا إحضار الرجل الذي سينفذ المهمّة»(١١).

وحسب جميع الروايات، فإن المصمودي حاول تهدئة بورقيبة فيما حاولت وسيلة أن تثنيه عن الفكرة قائلة له: «إن ذلك سيثير عليك مصاعب كثيرة»، أما الباهي الأدغم فقد التزم الصمت(١٢). وسواء كان بورقيبة يهذي كأي مريض أو كان جادّاً أو كان يريد أن يجسّ نبض قيمة بن صالح لدى الفريق الحكومي ويستطلع اتجاهاتهم من أجل قياس مدة العقوبة التي ستعلنها المحكمة، فإنه قد ذهب بعيداً في سيناريو القتل. لقد كلف أحد رجاله القدماء المعروفين بالشراسة وهو «خليفة حواص» بالمهمة(١٣)، إلا أن هذا الأخير اعتذر بلباقة، أما البشير زرق العيون المتهم بالتخطيط لقتل بن يوسف، خصم بورقيبة العنيد، فقد استعد للمهمة بلا أي شعور بالذنب وهو يقول لنفسه: ما الفرق بين أن نقتل واحداً أو اثنين؟!

في الأخير، عرف بورقيبة أن بن صالح لا يزال يتمتع ببعض العطف. وأن قتله قد يؤدي إلى صراعات أخرى أكثر شراسة، فأعطى الأمر لمحكمة باردو بأن تكون معتدلة في حكمها. كانت المحاكمة سريعة لكنها لم تخل من المشهدية: دافع بن صالح عن نفسه وقال إن مهامه «كانت حارقة، وها هو قد احترق. وإنه لم يفعل شيئاً إلا باستشارة الرئيس، وأن الاشتراكية التي قد تكون ضيّقت العيش على البعض، قد فتحت سبل العيش الكريم على الأغلبية. وإن أخطائي لا تستدعي وقوفي أمام المحكمة العليا، وإني أرجو من الرئيس

بورقيبة أن يخفف غضبه عنّي». ولأن خيار الإعدام قد تراجع وفكرة الاغتيال قد أخرجت من دماغ بورقيبة، فقد نال ذلك الذي كان يدعى قبل حين بذراع بورقيبة اليمنى، عشر سنوات سجن أشغالاً شاقة. وهي عقوبة معتدلة قد أراحت كل أصدقاء بن صالح سواء في تونس أو في السويد أو في أميركا أو النمسا حيث كان يتمتع باحترام كبير لديهم. ولو لم يهرب بن صالح من السجن بعد ثلاث سنوات فقط، لأكمل عقوبته وبورقيبة لا يزال في الحكم. ولكن هل كان ذلك ممكناً؟

* * *

في ليلة الخامس من شباط/فبراير ١٩٧٣، وبالتحديد في الساعة الحادية عشرة ليلاً، وكان المطر ينهمر على العاصمة التونسية بقوة، توقفت سيارة مرسيدس سوداء أمام السجن المدني، وكان بها رجلان في غاية التوتر. وبعد لحظات ارتمى بداخل السيارة في مقعدها الخلفي شخص آخر كان يرتدي لحافاً أبيض (سفساري)[١٤] ثم انطلقت السيارة باتجاه الحدود الجزائرية.

قرب مدخل مدينة «جندوبة» الشمالية، أوقف رجال الحرس تلك السيارة ثم وجهت إلى السائق تهمة السرعة المفرطة، لكن السائق استطاع أن يتخلص بنباهة من ذلك الحاجز قائلًا للحرس: «إن سيّدة على وشك الولادة، ولا بدّ لي أن أصل إلى المستشفى لأنها في حالة وجع شديد». لم يكشف ذلك الشخص المغطى باللحاف الأبيض عن وجهه ولكنه كان من حين إلى آخر يطلق آهات متوجعة، الأمر الذي جعل رجل الحرس يفتح الطريق أمام السيارة. واصلت السيارة طريقها إلى قرية «حمام بورقيبة» البعيدة عن الجزائر بنحو كلم واحد فقط. وهناك غادر الركاب الثلاثة سيارتهم، وتحت المطر والظلام ساروا على أقدامهم إلى خلف الحدود التونسية حيث كان في انتظارهم ثلاثة رجال عند البوابة الجزائرية.

لم يكن ذلك الشخص الذي تنكر في هيئة امرأة جاءها المخاض إلا أحمد بن صالح نفسه. أما الرجلان الآخران فهما السائق محمد الميناوي، الذي عمل في السابق كسائق خاص للوزير بن صالح ثم محمد العريبي، وهو مدير الحراسة في السجن الذي أعدّ عملية الهروب بالتنسيق مع الطبيب محمد، شقيق الوزير الهارب بن صالح.

في صبيحة ٥ من شباط/فبراير، أصبح بن صالح الذي أمضى نحو ثلاث سنوات من عقوبة مقدارها ١٠ سنوات أشغالاً شاقة و١٠ سنوات في الإقامة الجبرية، حرّاً وطليقاً في بلد هواري بومدين الذي يهابه بورقيبة كثيراً. أما حرّاس السجن المدني فقد أصابتهم الحيرة

صباح ذلك اليوم وهم يحاولون إعلام السلطات السياسية بفرار أغلى وأهم سجين سياسي لديهم. وحين وصل النبأ إلى بورقيبة في منتصف ذلك اليوم بعد أن مرّ بوزير الداخلية ثم الوزارة الأولى، انفجر غاضباً وهو يصيح بأعلى صوته شاتماً الجميع بما في ذلك سكرتيره الخاص علالة العويتي، راكضاً بين ردهات القصر وهو يبحث عن زوجته وسيلة ليقول لها: «كلّكم أخطأتم. لو أنني قتلته لما هرب إلى بومدين. لنرى الآن ماذا سيحدث. إننا لا نحتفظ بكلب مسعور حتى لو كان في سجن»(١٥).

تمكن بن صالح من تسديد ضربة موجعة لمعنويات الرئيس المريض أدخلته إلى الكآبة المطلقة. لم يكن ثمة من هو مستعد لتخفيف تلك الصدمة عن بورقيبة. المصمودي نال توبيخاً كبيراً لأنه تدخل من أجل إنقاذه من الإعدام. وسيلة كانت هي الأولى التي تعرضت للإهانة. أما الهادي نويرة، فقد تصرف على نحو ما يفعل دائماً مع بورقيبة. بعد موجة الغضب يمكن الحديث مع بورقيبة.

كان بعض الناس يعتقدون أن بورقيبة هو الذي أوحى لسجينه أن يهرب من السجن بعد تدخلات دولية عديدة لإطلاق سراحه لا سيما من «ماكنمارا» الأميركي و«منديس فرانس» الفرنسي، لكن بورقيبة ليس من أولئك الذين يتركون لأعدائهم أي منفذ للهروب حين يتم القبض عليهم. ثم هو يريد دائماً أن يكون رجل قانون مثالي بحيث لا يليق به أن يظهر كمعتد على القانون. وبعد ذلك كله، فإن بورقيبة يدرك جيداً أن بن صالح خارج السجن ثم خارج البلاد بإمكانه أن يكون مزعجاً وقاسياً كذلك. إنه رجل تستهويه المعارك السياسية بالقدر الذي تستهوي بورقيبة.

* * *

فمنذ أن كان شاباً دلّل بن صالح على قدرة عجيبة في العمل السياسي. في العام ١٩٤٤، تمكن ابن مكنين (الساحل) أن يصبح رئيساً للشبيبة المدرسية التابعة لحزب الدستور. بعد ذلك سافر إلى باريس ليكمل تعليمه متخرجاً من كلية الآداب القسم العربي. عاد إلى سوسة ليزاول التعليم، ولكن اغتيال فرحات حشاد (رئيس اتحاد العمال) على يدي «اليد الحمراء» في العام ١٩٥٢ سيفتح الطريق أمام صعود بن صالح في العام ١٩٥٤ في منصب السكرتير العام للاتحاد العام للعمال التونسيين. أمضىفي ذلك المنصب ثلاث سنوات ثم تعرض للإبعاد ليجد نفسه نائب رئيس البرلمان التونسي ثم وزير صحة في العام ١٩٥٧. وبعد سنتين أصبح وزيراً يحمل حقيبتي الصحة والشؤون الاجتماعية.

بالرغم من أن بن صالح كان مدرساً للغة العربية، إلا أنه كان مولعاً بالاقتصاد. وخلال نشاطه كرئيس لاتحاد العمال أبدى ميولاً واضحة نحو الاشتراكية. لم يكن ماركسياً كما أنه لم يكن لا بعثياً ولا ناصرياً. وإنما كان معجباً بتجارب الاشتراكية الديموقراطية في بلدان الشمال الأوروبي. كان يرى أن الحقبة مطبوعة باللون الاشتراكي، وأن البلدان المستقلة حديثاً لا يمكنها أن تسير نحو التنمية دون تكثيف الجهود والعمل الجماعي مع احتكار قرار السلطة وقرار المال. ولأنه لم يكن متحمساً للتسيير الذاتي الذي قاده بن بلّة في الجزائر، ولا إلى المنهج الناصري في التأميم والتحالف مع الرأسمال الوطني وتحديد الملكيات الكبيرة، فقد ابتدع مخططاً كبيرا للنهوض بتونس عرف بمخطط التعاضد. وهو يرمي تدريجياً إلى وضع كل الإنتاج والتوزيع والإدارة تحت قيادة الدولة والحزب الواحد. كانت التجربة من ناحية تثير الإعجاب والحماسة، ولكنها من ناحية أخرى كانت تحتاج إلى من يدافع عنها وينميها ويفتح أمامها آفاق الديموقراطية. وإذ رأى بورقيبة وزيره وكأنه يسير لوحده عكس التيار فقد اختار أن يقف إلى جانبه ويعطيه فرصة إلى أن يثبت نجاحه أو فشله. وبما أن التجربة لن تمسّ من مكانة الحزب الواحد، وهي لن تتعارض مع كاريزما بورقيبة، كما هي لن تُدخل إلى البلاد أفكار الشيوعية المخيفة والكالحة وأفكار العروبة (الهوجاء) بل ستقطع الطريق عليهما، فقد ذهب بورقيبة بعيداً في دعم وزيره إلى أن دهمته الحقائق الموجعة وبات من المؤكد أن البلاد تترنح بين الكارثة والمجاعة.

كان بن صالح يعرف كيف يفوز بودّ بورقيبة لأن هذا الأخير كان مستعداً دائماً لإعطاء الفرصة للذين رفعوه عالياً وأيدوا خطواته وباركوا بيعته. وهكذا ما إن قدم بن صالح خطته العشرية حتى قال بورقيبة لوزرائه وهو يؤنبهم: «كلّكم تتكلمون، وبن صالح وحده الذي يتكلّم ويفعل. إنه الوحيد الذي يقدم البرامج العملية»[١٦]. ثم عيّنه وزيراً للتخطيط والمالية وعضواً بالمكتب السياسي في الحزب الدستوري الحاكم.

كان ذلك في بداية العام ١٩٦١. وفي آذار/مارس ١٩٦٢، بدأ بن صالح في تطبيق برنامجه وهو يحتل ثلاث وزارات. وفي العام ١٩٦٧، أصبح بن صالح في ذروة مجده وهو يحتل حوالى سدس مقاعد وزارة الباهي الأدغم، ولكن في العام ١٩٦٩، وبمجرد أن شرع في تنفيذ المرحلة الأخيرة من برنامجه وهي تعميم التعاضد، حتى هبت عليه رياح عاتية. استدعاه بورقيبة لجلسة طويلة وساخنة عرفت بليلة الأسد والثعلب. ولأن الثعلب لم يقتنع بضرورة التراجع لرؤية الأشياء على نحو واضح، فإن الأسد قد قرر أن يضرب بقوة. جُرّد السوبر وزير من كل مهامه ثم وضع تحت الإقامة الجبرية. بعد ذلك زجّ به في السجن

وبدا له أن مستقبله قد أصبح وراء القضبان. كانت المحاكمة خاطفة لأن بورقيبة لم يكن يريد أن تخرج فضائح وزرائه إلى الشارع وقد ساعده على ذلك المتهم نفسه لأنه فضّل الصمت على نشر غسيل أعدائه ريثما يرف له قلب الزعيم. ولكن إذا كانت المحاكمة قد هضمت حق المتهم الذي حرم من الدفاع عن نفسه كما يعتقد محاموه، فإن أوضاعه في السجن كانت إلى حدّ ما مريحة. كان سجيناً خطيراً، ولكنه كان مدلّلا. فقد كان يتمتع بامتيازات لم يعرفها أي سجين آخر. كان يستقبل زوجته أسبوعياً. أما أخوه محمد الطبيب فقد كان يجلب له دورياً الصحف والرسائل والدواء والطعام.

كان مؤمناً إلى حدّ بعيد أن بورقيبة سيعيد النظر في محاكمته ولن يتركه خلف القضبان. بل كان يقول لحرّاسه «إن سلاحي الوحيد في هذه العزلة هو شعوري بأن بورقيبة لا يظلم أبناءه». كان ينتظر المناسبة التي ستسمح لبورقيبة بإصدار عفو في حقّه. وفي كانون الثاني/ يناير ١٩٧٣، حاول بن صالح أن يساعد رئيسه وسجانه على إيجاد تلك الفرصة، فكتب له يشكوه حالته الصحية العليلة ويرجوه أن يساعده على الخروج من هذه المحنة.

كان بن صالح يعاني حقّاً من السكري وكذلك من الغدة، ولكن الحقيقة أنه كان يعاني فوبيا الخوف أكثر من المرض. فقد أدرك أن رسالته رماها بورقيبة في الماء. وفيما انتشرت الشائعات حول عزم بورقيبة على تدبير عملية لاغتياله، غزت فكرة الهروب من السجن رأسه. ولكن كيف؟.

كان محمد العريبي رئيس حراسة السجن يعاني هو الآخر من مرض السكري. وبما أنه غير قادر في كل مرة على استقطاع جزء كبير من مرتبه الهزيل للأدوية والفحوصات، فقد أشار عليه بن صالح بأن يذهب إلى عيادة أخيه محمد الكائنة بأحد شوارع العاصمة التونسية قائلاً له: «الدكتور سي محمد سيساعدك فلماذا لا تذهب إليه؟».

كان اللقاء الأول قد أراح رئيس حرس السجن. وقد عرف الدكتور بن صالح كيف يكسب ثقة العريبي مع الأيام، وخطوة خطوة عرض عليه بعض الخدمات فلم يرفض لأنه قد أصبح مداناً له بالعلاج والأدوية. كانت المرحلة الأولى قد أعطت ثماراً جيدة. ذلك أن السجين بن صالح أصبح بمقدوره أن يغادر السجن في بعض الليالي ويذهب لزيارة بيته وعائلته في «رادس»، وعند الفجر يعود إلى السجن.

تطورت العلاقة بين العريبي والأخوين بن صالح إلى حدّ لم يعد فيه ما يمنع كشف الأوراق. وذات ليلة، طرح الطبيب على العريبي فكرة تهريب شقيقه من السجن طالباً منه

مساعدته. أبدى العريبي موافقة بسرعة وكأنه كان ينتظر ذلك منذ مدة، ثم ترك للطبيب مهمة البحث عن رجل أو رجلين لمساعدته، فكّر جيداً ثم اتصل بالسائق القديم لأخيه الوزير محمد صالح الميناوي.

كان الميناوي مستعداً لدفع حياته ثمناً لتحرير ربّ عمله القديم من السجن. ولما كان يتردد على الجزائر، فقد كلف بجسّ نبض السلطات الجزائرية ما إذا كانت مستعدة لاستقبال بن صالح وذلك عن طريق علاقاته الجيدة مع مستشار بومدين أحمد طالب الإبراهيمي. لقد وعد الجزائريون بأن يغضوا الطرف على مرور بن صالح عبر أراضيهم ثم أبدوا الاستعداد الكامل لاستقباله عند الحدود ومساعدته على السفر إلى الخارج. كان ردّ الجزائر سريعاً وحاسماً لأن الرغبة في إزعاج بورقيبة كانت جامحة. ثم إن بن صالح الاشتراكي كان بالنسبة إليهم ضمانة كبيرة في تونس لكي لا تنحرف أكثر نحو واشنطن.

وفي اللحظة التي بدأت فيها السلطات التونسية تشك في عملية تهريب لبن صالح، كان بن صالح قد أصبح في الجزائر مع سجّانه العريبي وسائقه القديم الميناوي. أما شقيقه الدكتور محمد فسوف يقبض عليه ويرسل إلى السجن حتى بدا للبعض وكأن ما حدث لم يكن إلا عملية استبدال سجين بآخر جرت بين شقيقين.

* * *

في تلك الليلة، ليلة الخامس من شباط/فبراير، كان الدكتور بن صالح شقيق الوزير السجين قد استدعى ضيوفاً كثيرين إلى فيلته بأرقى أحياء العاصمة (ميتوالفيل) لحفل عشاء. كان رجلاً كريماً ومعروفاً في أوساط النخبة التونسية. وخلال الحفل، تسلّل الدكتور إلى خارج فيلته نحو الشارع من الباب الخلفي للحديقة ثم اتجه بسرعة إلى السجن. كان يحمل معه فقط مبلغاً من المال وبعض الكتب وسفساري نسائياً (لحاف أبيض). لم يلاحظ أحد من الضيوف أن الدكتور قد غادر المنزل. وناداه أحد الأصدقاء، فأجابته زوجته «لقد دخل الحمام».

وهناك في السجن، كان الوزير السجين قد بدأ يتلوى من شدة المرض. ثم قام ليضرب باب الزنزانة وهو ينادي على رئيس الحرس العريبي قائلاً له بغضب: «أريدك أن تحضر لي دواء لعيوني». أقنع العريبي بقية الحراس بأنه لا يمكن أن يترك الوزير في مثل هذه الحالة حتى الصباح. وأنه لا يستطيع أن يتحمل هذه المسؤولية، خصوصاً «أن زوجته قد حضرت بنفسها وهي تريد أن تشرف على علاجه».

دخل العريبي إلى زنزانة الوزير بصحبة زوجته التي لم تكن في الواقع إلا أخاه الدكتور محمد وهو متنكر في زيّ امرأة. وبعد حوالى ربع ساعة، وكان الأخوان بن صالح قد تبادلا السفساري، خرج العريبي ومعه الدكتور وزوجة السجين التي لم تكن إلا الوزير الهارب. وهكذا ما إن تحركت السيارة باتجاه الجزائر، حتى عاد الدكتور إلى ضيوفه وهو يعتذر لهم عن غيابه القصير قائلاً: «للضرورة أحكام. نحن الأطباء يدهمنا المرض دون مقدمات». وكأنه قد فتح باب الحمام وخرج[17]!!

* * *

لم يكن ذلك مجرد مسرحية هزلية بالنسبة إلى بورقيبة، وإنما كانت ضربة موجعة. لقد ذهب تفكيره مباشرة نحو الجزائر التي قد تكون وراء عملية تهريب بن صالح. ولأنه كان يهاب بومدين الذي كثيراً ما حاول تقزيمه على الساحة المغاربية، فقد قرر إرسال وفد حكومي إليه يتكون من المصمودي وزير الخارجية والهادي خفشة وزير الداخلية والحبيب الشطي مدير مكتبه الخاص. لم ينكر المسؤولون الجزائريون دخول بن صالح إلى بلادهم سرّاً، ولكنهم أكدوا لضيوفهم التونسيين الذين كانوا متوترين جداً «بأن بن صالح قد غادر الجزائر إلى روما» ثم أبدوا اعتذاراً لئيماً كما وصفه المصمودي ذات مرة قائلين: «نحن متأسفون لأن الحدود بيننا غير قابلة للمراقبة المحكمة، وأنتم ترفضون الترسيم»[18]. كان واضحاً أن الجزائريين قد ردّوا على بورقيبة الصاع بصاع. فقبل عدة أشهر من هروب بن صالح إلى الجزائر، استطاع العقيد الطاهر الزبيري الذي قام بمحاولة انقلابية فاشلة ضدّ بومدين في العام ١٩٦٧ أن يهرب من الجزائر إلى تونس. وقد رفضت السلطات التونسية أن تستجيب لطلب بومدين لاستعادته، وهي تتأسف لأن ذلك قد يعرضها إلى حملة تشويه عالمية إذا ما أقدمت على «تسليم اللاجئين السياسيين».

عاد الوزراء التونسيون الثلاثة من الجزائر دون أن يلتقوا بالرئيس بومدين. ولما حضروا إلى الرئيس بورقيبة أخبره المصمودي «أن الجزائريين لم يفهموا أبداً كيف نسمح لأنفسنا باستضافة الطاهر الزبيري، ولا نسمح لهم حتى بمجرد عبور بن صالح من أراضيهم». وأضاف «لقد أخبرني بوتفليقة (وزير الخارجية الجزائري آنذاك) أن الرئيس بومدين غاضب لأن الرئيس بورقيبة يعتقد أن الجزائر قد دبرت عملية هروب بن صالح»[19].

ساءت العلاقات بين الجزائر وتونس إلى حدّ أثار تخوفات في العاصمة الفرنسية التي سرعان ما ساندت بورقيبة معنوياً حين منعت السلطات الفرنسية بن صالح من الإقامة في أراضيها. ولأن بورقيبة ليس بإمكانه أن يفعل للجزائر أكثر مما تتحمل بلادهم فقد اكتفى

بمغازلة الحسن الثاني من جهة والعقيد القذافي من جهة أخرى، ثم صبّ كل غضبه على الذين قاموا بتدبير عملية التهريب.

كان الدكتور بن صالح قد ألقي عليه القبض منذ ليلة السادس من شباط/فبراير، أي بعد ليلة فقط من هروب أخيه من السجن. وحين أصبح الوزير الهارب في أوروبا، أخضع شقيقه الدكتور لاستجوابات قاسية تعرض خلالها للعنف، الأمر الذي سيدخله إلى المستشفى العسكري بعد أن ساءت صحته تحت التعذيب. كان الدكتور بن صالح قد بلغ أكثر من الستين من عمره وهو يعاني مثل أخيه من السكري ومن ضغط عال وهو ما جعله عرضة لنوبات متتالية وعالية الخطورة. بعد ذلك نال الدكتور ثلاث سنوات سجن كعقوبة بتهمة إفساد موظف حكومي والمشاركة في تهريب سجين وحمل السلاح بلا رخصة «أما العريبي رئيس حراسة السجن فقد كان نصيبه ١١ سنة سجن، فيما نال صالح الميناوي سائق السيارة ٩ سنوات سجن غيابياً.

* * *

تغلب بورقيبة على تلك المحنة بالمنهجية نفسها التي تغلب فيها على أعدائه الآخرين وكذلك على المرض. النسيان ثم القفز إلى معارك أخرى. كان قد تغير كثيراً إذ أصبح شيخاً لا يقدر على المشي إلاّ متكئاً على عكاز أبيض، لكنه لم يستسلم أبداً لا للمرض ولا للذين يريدون أن يخلفوه وهو لا يزال حيّاً. غادر البريق عينيه وأصبح يضع نظارات سميكة فبدا وكأنه أخفى أحد أسلحته الرهيبة، لكنه استمر يتحرك في كل اتجاه وهو يراقب بحذر وصرامة كل ما يتحرك حوله. خطواته أصبحت ثقيلة، ولكن العكاز ساعده كثيراً على اختصار المسافة. كان قد هده التعب والسنوات الثقيلة ونوبات الغضب، غير أنه لم يكن أبداً مستعداً أن يظهر عجوزاً بائساً أمام شعبه فحافظ على أناقته وخطاباته وسخريته. وإذ أصبح سجين قصر قرطاج في أغلب الأحيان بعد أن أوقف تلك الجولات الطويلة في كامل البلاد، فقد زاد دهاؤه الميكيافيللي. فبالنسبة إلى قائد بطولي مثل بورقيبة كان أمراً يدعو إلى السخرية فيما لو تقاعس أو استكان للهدوء أو اعترف بقوة الزمن، وتعاقب الأجيال.

إن الخضوع الوحيد الذي أبداه بورقيبة كان لأطبائه الذين فرضوا عليه رقابة صارمة. فهو لم يعد يحضر مجلس الوزراء إلا مرة واحدة كل شهر. أما الشخصان الوحيدان اللذان كان بإمكانهما أن يلتقي بهما بورقيبة فهما «وسيلة» زوجته، وسكرتيره الخاص «علالة العويتي»، وهذان الأخيران قد أصبحا القائدين الفعليين لسرايا الزعيم. بعد وسيلة وعلالة

العويتي يأتي كل من الهادي نويرة (الوزير الأول) ومحمد المصمودي (وزير الخارجية) وقد استطاعا أن يتقاسما إلى حدّ ما الإشراف على سياسة البلاد. الأول انهمك في إعادة بناء اقتصاد البلاد المتدهور وقد اختار طريق الليبرالية المتوحشة، والثاني اتجه إلى إعادة بناء الجسور الدبلوماسية المهدمة مع الجيران والحلفاء. كانا أقرب الوزراء إلى بورقيبة، ولكنهما كانا بعيدين عن بعضهما بعضاً. فالمصمودي ونويرة كانا يعملان وكأن كلاً منهما وزير لدولة أخرى. لم تكن المحبة تنقصهما ولكن قلة التنسيق والاختلاف في وجهات النظر وكذلك الطموح والثقافة هي التي كانت تمنع التعاون بينهما.

كانت الفكرة الكبيرة التي سيطرت على الهادي نويرة، وهو مدير البنك المركزي السابق، وأحد رجال حزب الدستور التأسيسي، هي أن يمنح الشعب التونسي فرصة للثراء بعدما عاش سنين طويلة تحت الحرمان، ولكن كيف ومن هم أولئك الذين سيصعدون في حقبة نويرة؟. لم يكن هذا الرجل ديموقراطياً، وهو لم يعرف يوماً كمدافع عن الديموقراطية السياسية، ولكنه كان مولعاً بالليبرالية الاقتصادية. ورغم أنه يعرف أن التناقض صارخ بين إشاعة الليبرالية في السوق وبين حكم الحزب الواحد، فقد كان لا يخفي أبداً «أن البلدان النامية تحتاج إلى سلطة سياسية مركزية قوية». كان همّه الكبير أن يتعاون رجال الأعمال مع الإداريين وأرباب العمل مع رجال الحزب من أجل بعث مجتمع جديد. لم يكن من المهمّ معرفة مواصفات ذلك المجتمع، كما لم يكن مهمّاً حدوث تجاوزات أو استخدام السلطة السياسية من أجل تقوية مراكز رجال الأعمال والسوق. ولكن المهمّ في نظر نويرة أن تسير تونس نحو عصر آخر غير ذلك العصر الذي فرضته تجربة بن صالح التعاضدية.

وفيما كان نويرة يخطط لميلاد تونس أخرى خالية من اللغة الاشتراكية والطوباويات النقابية وبعيدة عن اهتزازات الشرق الأوسط والنزعات السياسية الأخرى بجميع أشكالها، وقد ظهر وكأنه مدير مؤسسة تجارية لا رئيس وزراء دولة، فإن محمد المصمودي رئيس الدبلوماسية، قد راح يخطط من جهته لإعادة تونس إلى صفّها العربي وإخراجها من التبعية المطلقة للقاموس الأميركي. لم يكن قومياً عربياً عن طريق التحزّب، ولكنه كان عربياً بالغريزة والمصلحة. كما أنه لم يكن ديموقراطياً من حيث التكوين والتجربة، ولكنه كان يسعى إلى تشكيل حالة أو مزاج ديموقراطي قد يؤسس لتجربة ديموقراطية في المستقبل.

استطاع المصمودي في فترة قصيرة أن يكشف عن إمكانات هائلة في العمل الدبلوماسي. فبعد جولة قصيرة في الصين، عاد وهو يتكلم عن الفيتنام بلغة جديدة أغضبت الأميركان. لقد استطاع أن يقنع بورقيبة أن أميركا لا يمكن أن تكسب الحرب ضدّ الصين أو السوفيات

في الفيتنام، وأنه (من العار) أن تبقى تونس لوحدها في العالم أجمع تصفق لقضية خاسرة!. بعد ذلك تمكن من إقناع بورقيبة بأن الجزائر دولة ضخمة وواعدة واستراتيجية، وأن الاستمرار في معاداتها لن يجلب إلى تونس غير الأتعاب، وقد ساعده على ذلك صديقه وزميله عبد العزيز بوتفليقة. أما ليبيا، فهي الاحتياطي الاستراتيجي لتونس، وأن أمام بورقيبة فرصة تاريخية لا تعوّض لو أنه التقط الحسّ الوحدوي لدى العقيد الشاب القذافي، وحوّله إلى عمل مشترك. مثل تلك الآراء لم تكن تعجب الهادي نويرة أبداً، بل كانت تغضبه وتجعله عاجزاً عن الحركة. أما بورقيبة الميكيافيللي، فقد وجد في الرجلين (نويرة والمصمودي) شيئاً من نفسه. فالأول يغذي أحلامه بالنجاح الاقتصادي. أما الثاني فهو يغذي أحلامه بالزعامة، كانا يتعارضان، ولكن بورقيبة كان يراهما يتكاملان.

لا بدّ من الاعتراف هنا بأن نويرة قد وجد أرضية الانطلاق جاهزة. فالبنية التحتية التي هيأتها تجربة بن صالح والحماسة التي أطلقت عنانها التجربة التعاضدية البائسة بالإضافة إلى الكوادر الذين تخرّجوا في سنوات بن صالح وتدرّجوا في العمل الإداري والتسيير الحكومي، دون أن ننسى موسمي ١٩٧٢ - ١٩٧٣ الجيدين اللذين أعقبا حقبة جفاف قاسية، كل ذلك قد جعل نويرة يربح رهانه منذ البداية. فقد استطاع أن يحقق نسبة نموّ في الدخل الفردي بنحو ١٠٪ في العام ١٩٧٤. ولأن العالم قد شهد ارتفاعاً جنونياً للأسعار في المحروقات، فقد كان ذلك أيضاً من حظ نويرة، يضاف إلى ذلك انفتاح البلاد على الرأسمال الخارجي والتجارة الخارجية والسياحة وبعث جملة استثمارات جديدة، وهي كلها خطوات أدّت في النهاية إلى بروز طبقة وسطى عريضة زادت من نشاط السوق الداخلية من ناحية وتركيز الأمن والسلم الاجتماعي من ناحية أخرى وإلى وقت طويل.

وحين رأى بورقيبة أن بلاده قد عثرت على طريق النجاح في النهاية كما عثرت على رجل النجاح الاقتصادي، بدا له أن الوقت حان مرة أخرى ليتفرّغ إلى المسائل الخارجية التي ستشيع فيه الحياة من جديد. وبما أن السياسة الداخلية قد أصبحت من اختصاص وليّ العهد الدستوري (الهادي نويرة)، فإنه سيتجه إلى السياسة الخارجية مرة أخرى وبكل شغف. هكذا وضع يده في يد المصمودي ثم سارا معاً نحو أول مغامرة سياسية بعد المرض، مغامرة الوحدة مع ليبيا.

وكالعادة، فإن بورقيبة حين يقدم على أيّ عمل، فإنه لا يقدم عليه إلاّ إذا وقع تحت الحماسة المفرطة.

الهوامش:

(١) محاضرات بورقيبة في معهد الصحافة - عام ١٩٧٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) عمر شاشية، كان من المتحمسين لبن صالح، عضده الأيمن، وقد سجن معه. ثم عاد إلى الحياة السياسية من الباب الخلفي.

(٤)و(٥) أنظر كتاب: إبراهيم طوبال **«إشتراكية أحمد بن صالح البائسة»**، بيروت ١٩٧٣.

أنظر كتاب: S. Bessıs S. Belhassen **Bourguiba-un si long régne**- Jeune Afrique-livres, Paris, 1988

(٦) من خطاب بورقيبة في ٤ آب/أغسطس ١٩٦٩ بمناسبة عيد ميلاده.

(٧) الهادي البكوش، زميل لبن صالح، كانت له ميول اشتراكية. بعد تجربة التعاضد دخل إلى الصحراء ثم عاد إلى الحزب ليقود مع الرئيس بن علي التغيير في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٧. عيّن رئيساً للوزراء في عهد التغيير، ولكن بعد حوالى سنة سيغادر الحكومة إلى التقاعد.

(٨) كان بن صالح مكلفاً من قبل الحزب بمتابعة أخبار القصر الملكي من خلال علاقته بحفيدة المنصف باي - تراكي - ابنة الأمير رؤوف. علاوة على ذلك فقد أشيع عنه أنه قد تزوجها في السرّ لكنها تزوّجت فيما بعد من فتحي زهير وهو شقيق لزوجة الزعيم صالح بن يوسف الذي قتله رجال بورقيبة في فرانكفورت. ويُشاع أن بورقيبة كان يشجع أحمد بن صالح «اللاي بوي» على مطاردة نساء بعض الوزراء.

وأحمد بن صالح هو ابن حسن بن صالح، فلاح من بلدة «المكنين» يقال إنه حضّر لاجتماع تأسيس الحزب الدستوري الجديد في «قصر هلال» عام ١٩٣٤. أما أمّ أحمد بن صالح فهي «يزة» بنت الواد من «المكنين» وهي أم «تركية» ومحمد وأحمد وفاطمة. بعد وفاتها تزوج حسن بن صالح ثانية من أخت «يزة» وتدعى فاطمة وهي أم الهادي ونجيبة ورجاء وحسناء التي ولدت يوم وفاة والدها عام ١٩٤٩. ويُروى أن الوالد حسن قد نصح ابنه - أحمد - قبل وفاته بقليل، بعدم العمل مع جماعة بورقيبة قائلاً له: «لن أغفر لك أبداً لو أنك عملت مع هذا الذي يدعى الحبيب بورقيبة».

(٩) عزل بن صالح تمّ في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٩، وقد اعتبر بمثابة تحول كبير أو الدخول في عهد جديد. كذلك التعبير أي عزل بورقيبة تمّ في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٧. هل يكون الهادي البكوش قد اختار التوقيت (٧ تشرين الثاني/نوفمبر) للانتقام من بورقيبة!.

(١١)و(١٢) رواية المصمودي - شهادة للمؤلف - ١٩٩٠ باريس.

(١٣) خليفة حواص، أحد مناضلي حزب الدستور. يعرف بأنه من زبانية بورقيبة. ينتمي إلى أصول ليبية مثل علي الرليطني وبورقيبة نفسه والباهي الأدعم. أنظر كتاب: **«المهاجرون الليبيون في البلاد التونسية»** ١٩١١ - ١٩٥٧ - د. إبراهيم أحمد أبو القاسم. مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، تونس.

(١٤) السفساري هو الرداء الأبيض الذي ترتديه النساء في تونس.

(١٥) رواية المصمودي للمؤلف - باريس عام ١٩٩٠.

أنظر كتاب: S. Bessis S Belhassen **Bourguiba-un si long régne**-Jeune Afrique-livres, Paris, 1988.

(١٦) شهادة محمد الصياح، **حديث مع المؤلف**، تونس عام ١٩٩٣.

(١٧) الرواية وردت في محاضر التحقيقات ثم وردت على لسان بن صالح نفسه حين كان في المنفى وهي تتطابق مع ما جاء في كتاب: S. Bessis S. Belhassen **Bourguiba-un si long régne-** Jeune Afrique-livres-Paris 1988.

(١٨) رواية المصمودي للمؤلف.

(١٩) رواية المصمودي بحضور بوتفليقة أمام المؤلف في بيت المصمودي - باريس ١٩٨٩.

سنوات الفالس:

الشيخ والذئاب ورقصة المواعيد الخائبة

«أعرف أن الجزائريين يريدون منّي أن أكون رئيساً لبلد الوحدة. لكنهم لن يقبلوا غداً برئيس تونسي غير بورقيبة. إن الجزائر بلد ضخم بصحرائه ونفطه وغازه وشعبه وأخاف أن تبتلعنا المعدة الجزائرية».

بورقيبة

إلى المصمودي أمام بومدين

كانت صدمة بورقيبة في «بن صالح» لا تضاهيها أية صدمة منذ أن استوى له عرش السلطة. فقد صنع هذا «الولد المشاغب والألمعي» قطعة قطعة. وجعله يتصاعد ويتعالى كهرم عل حساب أقرانه وزملائه طوال عقد من الزمن، ثم ها هو يكتشف أن ما كان يبنيه بن صالح لم يكن إلا قصوراً من ورق ما لبثت أن تهاوت أمامه. نهض بورقيبة من وطأة الصدمة بفضل قسوته وبمساعدة رجال أحبوه كأب. فوضع بن صالح في السجن وطرد الباهي الأدغم من الحكومة. وإذ وضع بورقيبة مهام الاقتصاد على كاهل الهادي نويرة، رئيس البنك المركزي السابق، أعطى المصمودي كل مفاتيح الدبلوماسية.

إن حبّه الكبير الذي خاب في بن صالح، ها هو يمنحه دفعة واحدة للمصمودي. فابن المهدية الذي لا يكبر ابن المكنين بن صالح إلا بسنة واحدة، كان قد التقطه بورقيبة في باريس خلال زيارة له في الخمسينيات وهو لايزال طالباً في السوربون. بدا المصمودي لبورقيبة أنه «فلتة» جيله فقربه كثيراً من أسرار الآلهة وسافر معه إلى الشرق فخاض معه التجارب الأولى لجمع السلاح والمال ثم المفاوضات. وبعد أن شارك في حكومات كثيرة وعمل في سفارة باريس ها هو أخيراً يصبح وزير خارجية البلاد التي فقدت بوصلة الصواب في فترة الستينيات الكالحة.

ينتمي المصمودي إلى مجموعة وزراء خارجية العرب الذين لامسوا حدود الشجاعة

والاختلاف. فقد كان له مذاق السقاف السعودي وخفّة الأرياني اليمني وصدامية بوتفليقة الجزائري. كان يمتلك ثقافة موسوعية وقد جمع بين إيمانه بأن تونس أكبر مما هي عليه الآن وبأن العروبة هي محيطها الطبيعي، وبين اعتقاده بأن الدبلوماسية التي تنقصها المهارات والشجاعة والروح الهجومية تصبح تبريراً للضعف والعجز. كان يبدو للبعض أنه خليط متنافر بين الشوفينية والأفكار التحررية، لكنه تمكن بفضل تجربته وحسه البراغماتي أن يجمع تحت جبته صداقات متنوعة ومتعددة أثثت له دبلوماسية متحركة، مناوئة وذات روح عالية. فقد عمل على كسب ثقة رجال كثيرين في العالم العربي على قدر كبير من الاختلاف. فكان صديقاً للسلطان قابوس والشيخ زايد كما برز حليفاً كبيراً للقذافي ومحاوراً جيداً لبومدين ومتعاوناً مع منظمة التحرير. وإذ ظلّ مكتنفاً بالغموض في نظر واشنطن، فإن باريس رأت فيه صديقاً وفياً لطالما تمتع بثقة الجنرال ديغول[1].

لقد استطاع المصمودي الحثيث الخطى أن يفتح جميع تلك الأبواب التي كانت مغلقة أمام بورقيبة. فقد شجعه على حضور القمة الحادية عشرة لمنظمة الوحدة الإفريقية في الرباط في حزيران/يونيو ١٩٧٢. ثم جعله يحضر الدورة الرابعة والثمانين لمنظمة العمل الدولية في جنيف ليخاطب من على منبرها الإسرائيليين مرة أخرى. وقبل ذلك بقليل من الوقت، كان المصمودي قد هشم جبال الجليد مع القاهرة حين نظم زيارة للسادات إلى تونس، فاستمع مرة أخرى إلى رأي بورقيبة الذي لطالما ردده على مسامع الزعيم عبد الناصر، ومفاده «أن حرباً كلاسيكية مع إسرائيل لن تحلّ مشكلة الشرق الأوسط».

في تلك الزيارة طرح بورقيبة أفكاراً للمناورة وأخرى للمفاوضات. وإذ استمع السادات إليه جيداً وكان قد طرد لتوه السوفيات من مصر فبدا وكأنه رجل يبحث عن فرصة للسلام. اعتقد بورقيبة أن بإمكانه أن يعيد الكرة فأعاد محاولته لفتح حوار مع إسرائيل، دفعه السادات إلى ذلك كما دفعه عبد الناصر عام ١٩٦٥. سخرت غولدا مايير من دعوته للحوار على أساس قرار التقسيم ١٩٤٧ في أي مكان وأي وقت تختاره إسرائيل، أما أبا إيبان وزير الخارجية، فقد رمى بشباكه الدبلوماسية لاختبار جدية دعوة بورقيبة ومدى صدقيتها وما إذا كانت نتيجة «اتفاق مع السادات» أو هي اجتهاد تونسي بحت. وفيما كان «أبا إيبان» يجري اتصالات أولية مع سفارة تونس في باريس، انطلقت حرب أكتوبر، فبدا أن السادات قد خدع الجميع. غضب بورقيبة لأن السادات لم يصارحه وقال لوزرائه وهو يقرّر إرسال بعثة طبية إلى الجبهة المصرية: «كنت قد نصحته بالدبلوماسية، كما

أشرت عليه بأن يتعاون مع واشنطن لأنها تملك معظم أوراق اللعبة، ولما كان عليه أن يختار الحرب، فأرجو من الله أن لا يجعلنا عرضة لسخرية القدر»[٢].

في أيلول/سبتمبر ١٩٧٤، زار عرفات تونس، وكان يريد أن يستمع إلى وجهة نظر بورقيبة، قبل ذهابه إلى نيويورك حيث سيلقي أول خطاب له ممثلاً عن منظمة التحرير الفلسطينية. قال بورقيبة لعرفات: «عليك أن تعرض الاعتراف بإسرائيل مقابل دولة مستقلة طبقاً لخارطة تقسيم ١٩٤٧ مع السلام». فرد عرفات «بأنه لا يستطيع أن يعلن ذلك، لكن سيحمل معه غصن زيتون للتعبير عن رغبته في السلام». فكان جواب بورقيبة: «عليك أن تقرر وأن تقول شيئاً واضحاً. فالزعماء يحملون أقدارهم على أكتافهم. ومن الصعب أن نختفي وراء أصابعنا»[٣].

كان واضحاً أن ورقيبة يتكلم لغة مباشرة وواضحة عن شرق معقد جداً. ولطالما حار في إقناع زعماء ذلك الشرق بنظرته للأمور. لم يجد من يشاركه الرؤية لا في المشرق ولا في المغرب. وإذ لم يتعلم من درس ١٩٦٥ في أريحا حين تلقى وابلاً من السباب وحمّاماً من عصير الطماطم الفاسدة، فهو أيضاً لم تردعه سخرية «غولدا مايير» من «طروحاته الساذجة»، لكنه كان يعتقد أنه لا بدّ أن يجد من ينصفه ذات يوم. وكما قال بنفسه عن نفسه في الجزائر وهو يوجه كلامه إلى كاسترو بمناسبة قمة عدم الانحياز، فقد كان بورقيبة يسبح في نهر. أما الآخرون فقد كان يسبحون في نهر آخر.

كان بورقيبة يحب السباحة ضدّ التيار. وفي القمة الرابعة لعدم الانحياز في الجزائر (٧ أيلول/سبتمبر ١٩٧٣)، قال لكاسترو الذي خيم عليه بقامته الطويلة في إحدى ردهات قصر الصنوبر: «إن عدم الانحياز أكبر كذبة على النفس. وأكبر دليل على ذلك، وجودك على رأسها». ضحك كاسترو طويلاً ثم قال بأدب: «أنا مسرور للقاء بشيخ مناضلي المغرب. إننا نختلف في المنهج، لكن أهدافنا واحدة». وفيما راح بومدين وكاسترو يمجدان الصراع ضد الإمبريالية ويناديان بنظام عالمي جديد يعيد للعالم الثالث حريته وكرامته، راح بورقيبة في خطابه ينتقد مقولة العالم الثالث التي لم تعد تشكل بديلاً للهيمنة، وكتلة عدم الانحياز التي انشطرت بدورها إلى مجموعتين واحدة منحازة للغرب وأخرى منحازة للشرق.

إذا كان بورقيبة قد حضر قمة عدم الانحياز لأول مرة لكي يرفع عن نفسه تهمة التبعية للمعسكر الأميركي، فإن المصمودي الذي كثيراً ما كان يحظى بلقب «الابن الثاني لبورقيبة»، قد اختار تلك المناسبة لكي يقترب ببلاده من كتلة عدم الانحياز والعالم الثالث.

ففي عام ١٩٧١ صوتت تونس بشجاعة لصالح الصين لتنضم إلى الأمم المتحدة. وفي العام ١٩٧٢ زار المصمودي بيكين وهانوي وعاد من هناك بعد أن أرسى علاقات دبلوماسية مع الفيتنام الشمالي. احتجت أميركا فأمر بورقيبة المصمودي بالذهاب إلى سايغون ثم أعلن في تونس أن «العلاقات مع هانوي لن تقام إلا حين تنتهي الحرب»، لكن المصمودي الذي يمتلك شجاعة الرواد الأوائل وعزيمة التحدي سوف لن يستسلم للضغوطات الداخلية والخارجية. فقد تسربت أفكاره إلى عقل وقلب بورقيبة مع قهوة الصباح، وبدا أنه الوحيد القادر على إقناعه برسم سياسة جديدة تتناسب وتاريخ البلاد مع شعاع زعيمها. قال المصمودي لبورقيبة: «لقد حان الوقت لكي تتجه تونس إلى محيطها الجيوسياسي. إن دولة صغيرة مثل بلادنا ليس لديها ما تفعله إذا لم تكن قوية في محيطها المغاربي والعربي». وإذ سأله بورقيبة أن يشرح فكرته بالتفصيل، أجاب المصمودي «بأن الجزائر وليبيا هما جناحا تونس إذا كانت لديها رغبة في الطيران»(٤).

كانت العلاقات التونسية مع كل من الجزائر وليبيا شبه معطلة بالرغم من رغبة الجميع في تجاوز الخوف والماضي. وكانت النزعة الثورية التي تحكم في طرابلس والجزائر لا تثير شهية بورقيبة، بل تجعله يبتعد عنهما كلما اقتربا منه. فهو كثير التوجس ولطالما احتمى بعلاقات جيدة مع الرباط وموريتانيا، لكنه لم يكن أبداً على استعداد للدخول تحت نادي «ثوريي النفط». وإذ كانت ليبيا تبدو له تحت حكم القذافي وكأن لعنة قد أصابتها منذ أن ودعت ملكها العجوز إدريس، فقد بدت له الجزائر أكثر ميلاً للعقلانية منذ أن أطاح بومدين الزعيم بن بلّة.

كان بن بلّة وبورقيبة لا يتحابان أبداً. وقد عاشا على طرفي نقيض. ولم يفت بورقيبة أن لاحظ مرة «بأن الله كان في عونه لأن القذافي حين حضر إلى ليبيا لم يجد بن بلة في الجزائر، وإلا فإن تونس كانت ستقع بين كماشة «العروبيين»(٥). وبالرغم من النقص الفادح في عروبة بومدين، وحبّ هذا الأخير لتونس وعدم ميله إلى المغامرات فإن هذا الملتف ببرنسه صيفاً وشتاءً والذي عرف تونس حين كان طالباً في الزيتونة وقائداً عسكرياً في مناطق الشمال حيث كان يرابط جيش التحرير الجزائري، كان يبدو لبورقيبة وكأنه يخفي له «مؤامرة كبرى». وبما أن الجزائر قوية وفسيحة وتهيمن على بلدان المغرب من جميع حدودها، فقد كان بورقيبة يحاول جاهداً ترويض بومدين بدل استفزازه.

مضى الآن على سقوط بن بلّة أكثر من ٨ سنوات. أصبح خلالها بومدين رجل الجزائر القوي بلا منازع وأحد زعماء العالم الثالث الذين لا يشقّ لهم غبار. وإذا اختفى عبد

الناصر من الساحة، فقد بدا لهذا الطالب الزيتوني والأزهري الذي أصبح يتربع على بحيرة من النفط والغاز، أن يملأ فراغات الزعيم الراحل في المغرب العربي. كان القذافي يملك المال والذكاء والوصية[٦]، لكنه لا يملك البشر والتجربة، وكان الحسن الثاني يملك الشرعية والتجربة، لكنه لا يملك المال، وكان بورقيبة يملك الزعامة والكاريزما، لكنه لا يملك المال والقدرات البشرية. وهكذا بفضل الصداقة التي كانت تربط بوتفليقة مع المصمودي، استطاع كل من بورقيبة وبومدين أن يلتقيا لإزاحة الغموض والخوف المتبادل. فإذا كان بومدين يبحث عن حليف احتياطي ضد المغرب وليبيا، فإن تونس كانت تبحث عن توازن إقليمي يؤمن لها عدم الوقوع بين كماشة النفط والعسكر. تمّ اللقاء في الجزائر، فكان مناسبة لبورقيبة ليطلع على التجربة الجزائرية التي لطالما سخر منها. لم يتحدث الطرفان لا في شؤون الوحدة ولا في قضية هروب بن صالح إلى الجزائر، ولا في ملف ترسيم الحدود. لقد اختار الضيف والمضيف أن يتجاهلا كل ما يمكن أن يعكر مزاجهما ثم اتفقا على لقاء ثان في تونس.

وفي «الكاف»، تلك المدينة القريبة من الحدود الجزائرية، والتي عاش فيها بومدين بضع سنين في أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات حين كان قائد جيش التحرير، كان اللقاء الثاني بين بومدين وبورقيبة في أيار/مايو ١٩٧٣. ومنذ الاجتماع الأول طرح بومدين قضية الوحدة فقال لبورقيبة: «لقد جئنا إلى تونس واخترنا الاجتماع على أرض الكاف التي اختلطت فيها دماء شعبينا، لأننا نحمل معنا مشروع وحدة بين بلدينا». فجأة أصاب بورقيبة تلعثم في لسانه فيما احمرّ وجه الهادي نويرة (الوزير الأول) الذي كثيراً ما عارض المصمودي في توجهاته المغاربية والعروبية. ثم وجد بورقيبة العبارة فقال: «لا يمكن أن أسجل على نفسي الوقوف ضد ما يرغب فيه شعبانا، ولكنني أرى أن نبدأ بمشاريع اقتصادية متواضعة تقودنا إلى الوحدة. فلماذا لا ندرس بناء معامل إسمنت مشتركة أو مطار أو مركب سياحي أو حتى معمل طماطم». ثم التفت إلى وزيرة المصمودي قائلاً بصوت خافت: «أعرف أن الجزائريين يريدون مني أن أكون رئيساً لبلد الوحدة. ولكنهم لن يقبلوا غداً برئيس تونسي غير بورقيبة. إن الجزائر بلد ضخم بصحرائه ونفطه وغازه وشعبه، وأخاف أن تبتلعنا المعدة الجزائرية»[٧]. انتهى الاجتماع الأول إلى غداء خال من الحرارة. ومضغ كل واحد من الحاضرين بقية كلامه ليودعه في معدته. وفي المساء ودّع بومدين الرئيس بورقيبة قائلاً: «إن تونس لا تزال غير ناضجة للوحدة»[٨]. وإذ عاد نويرة إلى العاصمة وقد أدرك أن مهمته نجحت في فرملة إغراءات بورقيبة وطموحات وزيره

المصمودي، عاد المصمودي وهو يتطلع إلى خوض محاولة أخرى مع الشرق. وبالتحديد مع ليبيا.

* * *

كان المصمودي يبدو بمثابة الثور الأسود الوحيد في طاقم بورقيبة المغرق في المحلية. لم يكن يخفي آراءه العميقة، بل يطرحها للنقاش مع بورقيبة ويدافع عنها بشراسة. فهو إلى جانب شجاعته الأدبية وعلاقته الوطيدة مع الزعيم، فقد كان بحق يمتلك ثقافة سياسية عميقة. كان على صلة وثيقة بما يجري في العالم من جدال وصراعات فكرية. وإذ لم تستهوه مدارس العروبة في شقيها البعثي والناصري، إلاّ أنه كان متشبعاً بفكرة مفادها «أن قوة العرب تكمن في وحدتهم»، إلى جانب ذلك فقد كان يؤمن بأن بلاده تونس قد تكون ذات إشعاع ثقافي وتاريخي، ولكن احتياطي ثرواتها لا يؤهلها للاستقرار والصمود. فقد تقلصت أرض هذه البلاد شيئاً فشيئاً بسبب خرائط الاستعمار وتهاون الجيل الأخير من البايات وانغلاق حكامها الجدد، حتى أصبحت تبدو على خارطة المغرب العربي وكأنها قطعة طارئة فيما هي كانت القاعدة الأساسية للوجود العربي والإسلامي في تلك المنطقة الممتدة من مرسى مطروح إلى سواحل طنجة.

ولأنها خسرت جزءاً من صحرائها زمن المفاوضات مع فرنسا، فقد خسرت حصتها من النفط الذي سكن في الصحراء الجزائرية والليبية. ولكي لا تستيقظ ذات يوم على حقائق الجيوبوليتيك القاسية، فقد أيقن المصمودي أن الوحدة مع الجزائر أو مع ليبيا يمكن أن تنقذها من المجهول. كانت الورقة الوحيدة التي يمتلكها المصمودي للدخول إلى سوق الوحدة، هي زعامة بورقيبة. وكان بورقيبة قد استكان لذلك الإغراء، ولكن حين بدأ المساومات مع الجزائر، تراجع بورقيبة تحت الخوف من فقدان بلاده. أضاع بورقيبة الفرصة مع الجزائر، لكن المصمودي بدا وكأنه قد ربح المحاولة رغم فشلها. لقد قال مرة وهو يتصفح ذكرياته، بأنه كان يعتقد أنه نجح في غرس فكرة الوحدة في رأس بورقيبة، «وهذا ما جعلني قادراً على دفعه إلى محاولة أخرى مع ليبيا»[٩].

في أيلول/سبتمبر ١٩٧٠، كان القذافي يحتفل بعيد الفاتح من أيلول/سبتمبر، ثورته، حين التقاه الصمودي بحضور الزعيم عبد الناصر الذي منحه لقب «أمين القومية العربية» في خطاب جماهيري. كانت العلاقات بين ليبيا وتونس تمرّ بأزمة صامتة بسبب تلك اللغة الصريحة التي كان يتكلم بها القذافي، كذلك بسبب شعور تونس بالعزلة وهي ترى نفسها وكأنها وضعت بين فيل في الجزائر وثعلب في ليبيا استطاع أن يكسب محبة وود

وثقة أسد الغابة في مصر. ولأن المصمودي قد حضر لأول مرة إلى ليبيا منذ أن أصبح القذافي زعيمها، فقد رأى أن يضع النقاط على الحروف منذ أول لقاء. قال المصمودي وهو يخاطب القذافي أمام عبد الناصر بشجاعة: «قل له يا سيادة الرئيس، أن تونس لا تخاف من ثورته كما أنها لا تطمع في ثروته». ظل القذافي صامتاً، لكن عبد الناصر سرعان ما نطق: «أخي معمّر، أريدك ألاّ ترتكب أخطاء بحق التونسيين، إنهم مصارعون، إنني أعرفهم جيداً، ولكن إذا أردت يوماً أن تتوحد مع بلد عربي، ففكر في تونس. وقبل ذلك تبادل الرأي مع المصمودي، إنه مفيد». ومنذ ذلك اللقاء سيضع القذافي يده في يد المصمودي ليشرعا في غزل «قميص جربة».

بعد أقل من شهر، رحل الزعيم عبد الناصر عن الحياة. وبدا للقذافي بسرعة أن مرحلة انتقال السلطة في مصر قد تستغرق وقتاً طويلاً قبل أن تتضح رؤية الطريق التي ستسلكها القاهرة، فكان على القذافي أن يتجه إلى مغازلة تونس. وفي شهر شباط/فبراير، جاء القذافي ليتعرف إلى تونس في غياب قائدها الذي كان يعالج في سويسرا. بدت الزيارة الأولى وكأنها عملية تسلّل أو هي عدم رغبة القذافي في رؤية بورقيبة إذ كانا على طرفي نقيض. وبعد جولة شملت جزءاً من الساحل وبنزرت، تكلم القذافي أمام البرلمان فقال: «ما دامت تونس تقف إلى جانب القضية العربية وقضية الإسلام، فإنها ستحظى باستمرار بدعم ليبيا» وأضاف «أن ليبيا هي الخط الفاصل بين مشرق ومغرب الوطن العربي، وإذا ما اتحدت مع تونس، فإنهما سيربطان بين فضاءي المحيط الأطلسي والخليج العربي».

كان القذافي قد استطاع أن يزرع الشكّ والأمل معاً في زيارته الأولى لتونس. أما في زيارته الثانية التي تمت في كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٢، فإنها ستثير الحماس والخوف في التونسيين وحكومتهم. جاء من طريق البرّ وقد أثار حماس التونسيين في كل مدينة مرّ بها موكبه. كانت أول مرة يظهر فيها القذافي بصحبة زوجته «صفية» أم «سيف الإسلام». استقبله بورقيبة على أبواب تونس العاصمة بضاحية حمام الأنف التي كانت مصيفاً للبايات. وفي اجتماع مغلق وسريع طرح القذافي مشروع وحدة مع تونس، لكن بورقيبة أصر على أن يتعارف الشعبان إلى بعضهما بعضاً قبل أن يعقدا الوحدة.

وفي اليوم الثاني لزيارته، خاطب القذافي من على مسرح قاعة البالماريوم حوالى ٥٠٠ شخصية تونسية أغلبهم من كوادر الدولة وحزب الدستور الحاكم في غياب بورقيبة الذي كان يتابع الخطاب على شاشة التلفزيون في غرفة نومه بسبب وعكة صحية مفاجئة. وحين بدا أن القذافي ألهب قاعة البالماريوم بالتصفيق وتمكن من كسب رجال بورقيبة الذين كانوا

يستمعون إليه، تحرك حيوان السياسة داخل بورقيبة ففتك بحيوان المرض. وفجأة دخل بورقيبة إلى القاعة ليأخذ مكانه على المنصة إلى جانب القذافي. كان غاضباً إلى درجة أنه لم يسلّم على ضيفه، وكان مستعجلاً إلى درجة أنه نسي فيها أن يربط خيط حذائه. وحين أخذ الكلمة لم يلسم كعادته، وإنما انطلق ينفث كلمات كرشاش فقال إنه لم يصل «إلى الحكم على ظهر دبابة أو عبر انقلاب عسكري وإنه لا يستطيع أن يتكلم باسم الأمة العربية لأنها غير موجودة، لكنه يستطيع أن يتكلم باسم الأمة التونسية. وإذا كان هناك من يريد توحيد العالم العربي فإن تلك المهمة تستوجب سنين طويلة، لا بل قروناً». فجأة، اتجه إلى القذافي وسأله: «هل يمكن لك أن تقول لي في أي عام ولدت؟». همس القذافي بأدب: «ربما في ١٩٤٣». رد بورقيبة: «قبل ميلادك بسنة، كنت قد عزمت على شقّ الصحراء الليبية مشياً على الأقدام للانتقال إلى القاهرة هرباً من الاستعمار الفرنسي وبحثاً عن استقلال بلادي». ثم مضى يروي فصلاً من تاريخه الشخصي، كرّر فيه أكثر من عشر مرات «بأن العالم العربي لم يكن في أي يوم من الأيام متحداً». أشار عضو مجلس قيادة الثورة بشير هوادي على رئيسه بمغادرة القاعة، لكن القذافي استمر في الاستماع إلى بورقيبة بمتعة أخرى، إذ قال بعد ذلك: «لو لم يكن بورقيبة زعيماً فإنه كان سيكون ممثلاً مسرحياً»(١٠). وبعد أن انتهت تلك المبارزة السياسية، قال القذافي وهو يصافح بورقيبة: «بيني وبينك صراع أجيال ليس أكثر من ذلك». ثم أضاف: «ولكن ذلك ليس بسيطاً». انتهت الزيارة على الصخب الذي أحدثه القذافي وبورقيبة في قاعة البالماريوم فيما راح الناس يتندرون بتلك المبارزة. وفيما رآها البعض بأنها كانت مبارزة بين تلميذ وأستاذه، رآها البعض الآخر بين الأب وابنه. أما البعض الثالث مثل المصمودي فقد رآها ضرورية لكي يعرف كل منهما الآخر ويعرف كل شعب حكمة ومقدرة زعيمه.

* * *

أصبحت تونس تشبه تلك المرأة الجميلة وغير المتزوجة والتي يتصارع على «ودّها» جاران على قدر من الثروة والكبرياء. وكلّما مالت السياسة التونسية نحو جار، ازدادت غيرة الجار الآخر. كانت تونس معلّقة بين أملين. أمل الاكتفاء بنفسها والعيش في سلام، وأمل الخروج من هذه الورطة بالزواج أو الارتباط برجل ثالث أكثر قوة من جاريها الشرقي والغربي. وفي تلك اللحظة، وعندما ازداد الضغط على بورقيبة، دعا وزير خارجيته المصمودي ليأمره بتوجيه طلب انضمام إلى الحلف الأطلسي. استغرب المصمودي ذلك من بورقيبة، لكن هذا الأخير أجابه: «إنني أنظر بعيداً جداً. إن تونس المحاصرة بين هذين

الثورتين، يمكن أن تختفي ذات يوم. كنت دائماً معتمداً على أميركا والأسطول السادس، ولكن يلزمنا الدخول في كادر الدفاع والالتزامات المحددة. فالحلف الأطلسي هو وحده الذي يمكن أن يعطينا تلك الضمانات»(١١).

لم يستجب المصمودي لمثل ذلك المطلب الغريب وقال لرئيسه إن «الأمر سيبدو مستهجنا، بل سيثير من حولنا عواصف لا تنتهي. ثم إنه ليس من المؤكد أن يقبل الحلف الأطلسي بعضويتنا. وفي النهاية، فإن الغرب قد يختار نفط الجزائر وليبيا على «زرقة سماء» تونس أو زرقة عيون بورقيبة»(١٢).

كان واضحاً أن بورقيبة ظل واقعاً تحت ضغط وزيره الأول الهادي نويرة الذي ما انفك يقول له إن كلاً من الجزائر وليبيا «لا يريدان الوحدة، وإنما هما يريدان القوة، ويريدان الاستحواذ على تونس». غير أن بورقيبة الذي حاول أن يمنع نفسه من التفكير في هذا الموضوع لأنه أصبح يجلب كل أوجاع الرأس والقلب، قد عاد فجأة ليميل نحو ليبيا. فقد بدا له أن دعوة القذافي أكثر صدقاً من دعوة بومدين. وأن ليبيا أقل غطرسة من الجزائر، وأن تونس يمكن أن تشكل نداً لليبيا بينما هي لا تستطيع أن تكون إلا قزماً أمام الجزائر. وأخيرا، فإن جذوره الطرابلسية قد حركت بركة الحنين في داخله. وجاءت الذكرى الرابعة لثورة الفاتح من أيلول/سبتمبر، فعزم بورقيبة على المشاركة. وفي قاعدة «هويلس» العسكرية التي أصبحت تعرف بقاعدة «ناصر» أقيم عرض عسكري مثير جداً كشف عن مخزون ضخم من السلاح بيد شباب الثورة الليبية. أعجب بورقيبة بتلك القوة وفي الوقت نفسه أبدى توجسه من كل ذلك السلاح قائلاً لمحمد الصياح «لمن كل هذا السلاح؟ إسرائيل بعيدة جداً. مصر قوية جداً وكذلك الجزائر. قل لي لمن يجمع القذافي كل هذا السلاح»(١٣).

ومثلما غاب بورقيبة عن قاعة البالماريوم تاركاً ضيفه القذافي لوحده يلهب حماسة التونسيين، عمد كذلك القذافي إلى ترك ضيفه بورقيبة لوحده وهو يلهب حماسة الجماهير التي هبت إلى قاعدة ناصر. قال بورقيبة لجماهير مشحونة بالحماسة والتعب وهي تتشكل من ليبيين وتونسيين ومصريين وسوريين وعرب آخرين: إن «الوحدة مطلب شعبي وحق للعرب، ولكن علينا أن لا نقفز إليها قفزاً، علينا أن نذهب إليها خطوة خطوة».

في اليوم الثاني، أي في الثاني من أيلول/سبتمبر ١٩٧٣، ظهر بورقيبة جديد أمام القذافي ورفاقه في مجلس قيادة الثورة. وإذ افتتح القذافي الاجتماع، تكلم بورقيبة فقال وهو يغمز إلى الشرق: «إنهم موزاييك يصعب فرزه. فهم مسيحيون من كل صنف ومسلمون من

كل الطوائف والمذاهب. إنني لا أتكلم عن مستوى تنظيمهم السياسي فقط، فهم غير قادرين على إنجاز أي عمل ثم هم غير جديين. وإنني على يقين أنك لن تفعل أي شيء مهمّ معهم. ولذلك قررت أن أتحمل التحدي. وإذا قدر لك أن تنجز وحدة مع المصريين، فإنك ستكون الخاسر الأكبر»[١٤]. صمت بورقيبة قليلاً ثم عاود الكلام: «أخي معمر، أعطيك مهلة إلى شهر كانون الأول/ديسمبر المقبل (آخر السنة) وإذا لم تفعل شيئاً معهم، يمكنك القدوم إلى تونس وسترى الجدية، فبيننا لا توجد أية مشاكل. فأنا من أصل ليبي وسوف نصنع عملاً قوياً وصلباً يمكن أن يكون بداية لمغرب عربي كبير عاصمته القيروان كما كان الأمر في الماضي». تمعن رفاق القذافي في كل كلمة نطق بها بورقيبة. وإذ استحسن أغلبهم التوجه إلى المغرب بدل المشرق، فإن القذافي قد أدرك أنه كسب جولته مع بورقيبة وكذلك مع السادات. فهو منذ تلك اللحظة سيصبح أكثر توازناً تجاه السادات. ويمكنه أن يكون أكثر تعقلاً تجاه الوحدة مع بلد يعد ساكنوه عشرة أضعاف سكان ليبيا. ويضاف إلى ذلك أن السادات الذي لا يزال مزهواً بانتصارات أكتوبر لم يكن يفكر أبداً في الوحدة مع ليبيا. لم يأت القذافي إلى تونس في كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٣. وحين تأكد أن علاقاته قد ازدادت سوءاً مع مصر، لأنه تجرأ وانتقد قرارات السادات في الحرب ووقف إطلاق النار قائلاً منذ ليلة السابع من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣: «إنها حرب تحريك وليست حرب تحرير، وإن السادات قد أجهض حرب العرب الكبرى»، ركب سيارته واتجه إلى جزيرة جربة التونسية ليجد في انتظاره بورقيبة.

اختلى الرجلان لمدة ساعة وربع الساعة في غرفة مغلقة بفندق «أوليس» بجزيرة جربة، ثم خرجا بورقة موقعة تحمل ميلاد «الجمهورية العربية الإسلامية» ومعها ورقة أخرى تحمل أسماء حكومة تلك الجمهورية الوليدة.

* * *

في ذلك اليوم الشتوي ١٢ كانون الثاني/يناير ١٩٧٣، الذي سيظل محفوراً في ذاكرة أهل جربة الذين لا يخفون أن الدماء الطرابلسية تجري في عروقهم[١٥] سيحضر القذافي ليكون في استقباله كل من المصمودي والوزير حسان بلخوجة. ثم يصل بورقيبة ومعه مجموعة من وزرائه الآخرين مثل الهادي خفشة والطاهر بلخوجة ومحمد الصياح. أما زوجته وسيلة فقد كانت في جولة في بلدان الخليج العربي، فيما كان وزيره الأول في زيارة رسمية إلى طهران. كانت الفرصة جيدة للتغلب على تردد بورقيبة، ولكن الذي أذهل الجميع أن بورقيبة قد بدا متحمساً للوحدة في ذلك اليوم أكثر من القذافي نفسه.

ناقش الزعيمان أشياء بسيطة تتعلق بكيفية إعلان الوحدة. وتركا المجال مفتوحاً أمام أي بلد يريد أن يلتحق بركبها حتى لا تبدو وكأنها حلف ضد دولة ما في المنطقة. أبدى القذافي تخوفات من مصر، فقال له بورقيبة إن «السادات مكتوف اليدين وكل جيشه لايزال على الجبهة». أبدى بورقيبة تخوفاته من الجزائر فقال القذافي إن «بومدين قد يهدد لكنه لن يفعل شيئاً». بدا أن كلاً منهما يدفع بالآخر إلى الأمام. ثم سحب القذافي ورقة كتب عليها «بيان إعلان الوحدة». وبينما انهمك بورقيبة في قراءة الإعلان قبل التوقيع عليه، راح القذافي يكتب قائمة وزراء دولة الوحدة. أعطى الرئاسة لبورقيبة ومنح لنفسه منصب نائب الرئيس ووزير الدفاع، ثم وزع بقية المناصب بالتساوي فكانت الخارجية من نصيب المصمودي والأمن من نصيب الكولونيل زين العابدين بن علي. وإذ وقعت عين بورقيبة على الكولونيل بن علي الذي سيصبح فيما بعد رئيساً لتونس[١٦] سأل القذافي من يكون هذا الرجل. هل هو ليبي أم تونسي؟ أجابه القذافي بأنه «شاب تونسي نبيه ويمكن أن يكون محلّ ثقتك قبل ثقتي».

وحين شرع المصمودي في قراءة إعلان الوحدة على أمواج أثير الإذاعتين الليبية والتونسية، بدا وكأن لغماً قد انفجر تحت أقدام وزراء بورقيبة الذين لم يكونوا على علم بما حدث حتى تلك اللحظة. خرجت المظاهرات الشعبية في البلدين لتأييد تلك الوحدة وراح الشعبان يحلمان بالقوة والثروة. فأخيراً تيقن التونسيون أن رئيسهم لا يزال قادراً على إحداث المفاجأة وصناعة التاريخ. وها هم بعد أن خيّب آمالهم كثيراً في الاتحاد مع بلد غنّي جداً ولا يسكنه إلا عدد قليل، يشعرون بالغبطة وهم يشكرون الله الذي إذا لم يمنحهم النفط فإنه قد منحهم زعيماً يعرف كيف يصطاد لهم المواعيد والمواسم الجيدة.

بعد حفل الإعلان عن ميلاد الجمهورية الإسلامية العربية وعاصمتها القيروان[١٧]، سافر القذافي ومعه كلّ من مصطفى الخروبي والمختار القروي، عضوي مجلس قيادة الثورة عن طريق البر عائدين إلى طرابلس، وقد تركوا التونسيين في حيرة من أمرهم. من جهة كان الشارع يغلي فرحاً. ومن أخرى كان رجال بورقيبة يستشيطون غضباً. كان علالة العويتي سكرتير بورقيبة الخاص قد حذر من اجتماع مغلق بين القذافي وبورقيبة، ولكنه لم يفلح في منع ذلك. إنه الآن يهرول بين غرف فندق «أوليس» وكأنه أصيب بسعار. قال للطاهر بلخوجة وزير الداخلية: «اتصل بوزارتك في تونس، لا تترك الشوارع تمتلئ بالناس». أدار بوجهه عن المصمودي حين حاول أن يهنئه بميلاد الدولة الجديدة. ونادى على الحبيب

الشطي ومحمد الصياح مدير الحزب ليقول لهما: «إن الاستفتاء لم يعد يفصلنا عنه وقت طويل ويجب أن نفعل شيئاً».

وفي الطائرة العائدة من جربة إلى تونس، اقترب الطاهر بلخوجة وزير الداخلية بتشجيع من العويتي والشطي من بورقيبة وقال له: «سيدي الرئيس، إن تاريخ الاستفتاء الذي أعلنتموه وهو ١٨ كانون الثاني/يناير لم يبق عليه غير أسبوع واحد. وعلاوة على أنه يصعب تنظيم استفتاء شعبي عام خلال أسبوع، فإن دستور البلاد ليس به بند أو فصل واحد يشير إلى الاستفتاء، لذا أقترح أولاً تحويراً دستورياً». مط بورقيبة شفتيه وقد استشعر أن أغلب وزرائه غاضبون من هذه الوحدة، ثم أجاب، «ولكني وقّعت على ذلك. فما الذي يجب أن نفعله؟». اقترح بلخوجة موعداً آخر وقال: «يمكن أن يكون تاريخ ٢٠ آذار/مارس تاريخاً مناسباً. فهو يعطينا الفرصة لترتيب كل شيء. ثم إنه يحمل رمزاً هو رمز عيد الاستقلال مثلما يحمل تاريخ ١٨ كانون الثاني/يناير رمز بداية الثورة المسلحة». وعند نزوله من الطائرة في مطار قرطاج قال بورقيبة للصحافة الدولية: «لقد وقعنا على الوحدة ويمكن للجزائر أو لغيرها أن تلتحق بالمسيرة. وبالنسبة للاستفتاء، فإن ١٨ كانون الثاني/يناير أو ٢٠ آذار/مارس لا يهمّ».

كانت تلك أول إشارة إلى أن بورقيبة قد يتراجع. وقد لمس العويتي ذلك فطلب منه أن يكلم الرئيس بومدين ليطمئنه ويخبره حتى يكسب ودّه. جاء صوت بومدين حزيناً ومليئاً الغضب، وقد طلب منه بورقيبة «أن يلتحق بركب الوحدة لتشكيل دولة المغرب العربي» أجابه بخشونة: «إنني لا أركب القطار وهو يسير». بعد ذلك مباشرة تكلم مع المصمودي هاتفياً قائلاً له بكثير من القلق: «هل تعرف أن بومدين غاضب وقد قال إنه لا يركب القطار بعد أن يكون قد انطلق»[١٨]. بدأت فكرة التراجع تدق أبواب بورقيبة ولكنه كان لا يريد أن يبدو منزوع الإرادة والقوة.

في تلك الليلة، عادت وسيلة من رحلتها في الخليج لتنضم إلى صفّ المعارضين لتلك الوحدة. وقد روى المصمودي كيف هاتفت عبد العزيز بوتفليقة قائلة له: «إن بورقيبة لا يؤمن إلا بالقوة. وإذا وقع تهديده، فإنه سيتراجع. إنني زوجته وأعرفه جيداً». لم تكن وسيلة تعتقد للحظة واحدة أن بورقيبة سينهزم أمام إغراءات القذافي، ولأنها لم تعد تثق لا في المستقبل ولا في بورقيبة نفسه، فقد ذهبت إلى حدّ التآمر عليه. في آخر ليل ذلك اليوم الطويل جدّاً وصل الوزير الأول الغائب من طهران قادماً عبر باريس على عجل. اجتمع بسرعة مع كل من بلخوجة وزير الداخلية والحبيب الشطي رئيس الديوان. كان غاضباً

ومزمجراً وقد قال لهما: «علينا أن نضع خطة لإطاحة المصمودي. وإذا لم يتراجع بورقيبة فإنني سأستقيل»[١٩]. في صباح اليوم التالي ذهب نويرة إلى بورقيبة ليقول له: «إن الاستفتاء لا يمكن أن يحدث قبل تحوير الدستور، وهذا يتطلب وقتاً أطول ثم إن ذلك قد يعطي اطمئناناً للجزائر القلقة». وحين أجاب بورقيبة «بأن القذافي لا يعرف شيئاً عن حكاية الدستور، وسوف يشعر بالخذلان» ردّ نويرة: «من ناحية القذافي سوف يبلغه المصمودي بأن الأمر مجرد روتين بيروقراطي وعليه ألاّ يقلق، وبالنسبة إلى الجزائر، فإني أقترح أن يذهب في الحال كل من بلخوجة والشطي للقاء بالرئيس بومدين لطمأنته»[٢٠].

في الجزائر، لم يستقبل بومدين المبعوثين التونسيين، وقد أدرك معنى نصيحة زوجة بورقيبة، فقد أمر بوتفليقة بإبلاغهما «أن جيش الجزائر قد وضع في حالة طوارئ، وأن الرئيس غاضب»[٢١].

إن نويرة الذي لا يعرف كيف يقول «لا» لبورقيبة منذ سنوات طويلة، وهو لا يقوى على النظر في عيونه، اختار أن يحارب «الوحدة» بكثير من الدهاء. فهو لم ينقد بورقيبة في حضوره كما لم يفصح عن رفضه، ولكنه دفع بكل وزرائه لكي يقفوا ضد الوحدة. وها هو ينجح مع «وسيلة» في إقناع بورقيبة بالتراجع وكذلك بالتخلص من المصمودي. فحين دخل المصمودي على بورقيبة عند ظهر يوم ١٣ كانون الثاني/يناير ليخبره بزيارة السادات، فاتحه بورقيبة الذي ودع لتوه سفير الولايات المتحدة «غوشير»: بأن «الجزائر غاضبة وهي تهددنا بحالة الطوارئ». ردّ المصمودي «بأن ذلك ربما كان مبالغة من الشطي وبلخوجة» ثم قال «إذا كان لا بدّ من التحدي فليكن». لكن بورقيبة قال على غير عادته: «هذا كلام. القول بسيط». ثم أضاف «إنني لا أفهم الجزائريين. فهم يريدون اللعب معي وإذا ما رفضت اللعب معهم يعمدون إلى إفساد اللعب. هل تراهم لأنني رفضت الوحدة معهم يريدون إفشال الوحدة مع ليبيا»[٢٢].

في تلك الجلسة الملتهبة، سيدرك المصمودي أن نويرة نجح في إبعاده من الوزارة. انتقل بورقيبة مباشرة إلى تهشيم صورة المصمودي قائلاً له: «ما هي قصّة معركتك الأخيرة مع ابني الحبيب؟»، رد المصمودي بأنه لم ير ابنه (الحبيب) منذ أشهر وأن ذلك لم يحدث أبداً. ثم قال له: «إنني عازم على الذهاب إلى واشنطن، وأنت تعرف أن الرئيس نيكسون لا يحبك ولا يريد أن تضع قدميك على بلاده منذ أن وقفت ضدهم في الفيتنام». أجاب المصمودي بأن ذلك لا يهمه كثيراً. بعد ذلك قال له: «إنني ذاهب إلى جنيف لراحة في أواخر شهر كانون الثاني/يناير، أي بعد غد. وقبل ذلك علينا أن نجتمع في المكتب

السياسي للحزب لأن الهادي نويرة يريد تغييراً بسيطاً في الوزارة يتعلق بالشؤون الاجتماعية.

غير أن ذلك الاجتماع لم يحدث أبداً. وما حدث أن المصمودي تلقى هاتفاً من بورقيبة يعرض فيه عليه تعيينه ممثلاً لرئيس الجمهورية بدلاً من حقيبة الخارجية. ردّ المصمودي بأنه «لا يستطيع أن يمثل رئيس البلاد بعد أن فشل في تمثيل البلاد». وحين راح المصمودي يكتب استقالته تناهى إلى سمعه من الراديو نبأ إقالته.

بعد أن طرد المصمودي من الحكومة عاد نويرة إلى هدوئه، ولكن حين قرر بورقيبة الذهاب إلى جنيف لبعض الراحة، عاد نويرة إلى قلقه فطلب من وسيلة أن تصاحبه إلى جنيف. وفي يوم الرابع والعشرين من كانون الثاني/يناير التحق القذافي ببورقيبة في جنيف. سيطر القلق على وسيلة فطلبت من نويرة أن يأتي على عجل إلى جنيف حتى لا يضعف الرئيس أمام القذافي. جاء نويرة ومعه الوزراء المحاربون للوحدة وهم الشطي ومنصور معلّى ومحمد مزالي على نحو استعجالي. أصرّ بورقيبة أن يذهب إلى مطار جنيف لاستقبال القذافي. وفي الطريق طلبت منه زوجته ألاّ يتكلم كثيراً وأن يترك وزراءه يتكلمون. وفي صالون المطار، انفجر القذافي واضعاً إصبع الاتهام أمام وجه بورقيبة قائلاً له: «ألست أنت الذي كنت مصرّاً على التوقيع. ما الذي حدث حتى تتراجع؟». ثم التفت يقول لوزراء بورقيبة: «لقد أعطيته مهلة للتفكير لمدة شهرين لكنه رفض. إنني لا أطلب سوى أن يحترم التزاماته. فأنت الآن رئيس الدولة الجديدة وعليك أن تقرر. كل التبريرات الأخرى تبدو لي بلا معنى»(٢٣). حين صمت القذافي، حاول «الصادق المقدم» رئيس مجلس النواب أن يهدئ من روعه، لكن المقدم الذي سأله القذافي ساخراً عن نوع الدكتوراه التي يحملها لم تعط له الفرصة للكلام، بعد أن انفجر الحاضرون ضحكاً.

وهكذا، تم في جنيف دفن الجمهورية العربية الإسلامية. وفيما عاد القذافي إلى بلاده وهو يفكر كيف ينتقم من الذين قتلوا الوحدة، ظل بورقيبة ينظر إلى بحيرة «ليمان» وهو يستنطقها عن السياسات الجديدة التي لم يعد يعرف كي يفك ألغازها. أدرك القذافي منذ ذلك الوقت أن الجميع يخافون الوحدة. ومنذ ذلك الوقت أصبحت تلك الوحدة سلاحاً بين يدي القذافي يرهب به جيرانه، فقد نظم مسيرة شعبية نحو مصر تطالب السادات بالوحدة. أما جيرانه الذين لم يدركوا أن الليبيين هم أنفسهم غير وحدويين مثل غيرهم، فقد استمروا في النظر إلى القذافي على أنه رجل خطير، بالوحدة وبغير الوحدة. ولأن صحن الانتقام لا يؤكل إلا بارداً، فقد استطاع ابن الصحراء أن يخبئ حقده إلى مطلع

الثمانين ليطيح من أطاح جمهورية الوحدة. فقنبلة جربة التي أبطل نويرة مفعولها في شتاء ١٩٧٣، سوف تنفجر في وجه نويرة في قفصة في شتاء ١٩٨٠.

الهوامش:

(١) المصمودي كان على علاقة جيدة بالجنرال ديغول. وقد ظلّ يزوره حتى بعد تقاعده في قريته ـ لي ديزيغليس ـ. كما كان على علاقة جيدة بخليفة ديغول جورج بومبيدو. هذا ما يؤكده المصمودي بنفسه وما تؤكده الوقائع، إذ استطاع أن يقنع بومبيدو ببيع سرب من طائرات الميراج إلى ليبيا محطماً بذلك حظر بيع السلاح إلى دول الشرق الأوسط. بعد ذلك كاد أن يقنعه ببناء مفاعل نووي في ليبيا ـ **حوارات المصمودي مع المؤلف**، ١٩٨٨ ـ ١٩٩٠.

(٢) من خطاب لبورقيبة، بعد الإعلان عن حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣.

(٣) شهادة عرفات، أعاد عرفات ذلك مراراً أثناء حوارات عديدة مع المؤلف في فترات متفاوتة في المغرب، بيروت وطرابلس.

(٤) شهادة المصمودي، **أحاديث مع المؤلف**، باريس ١٩٨٨ ـ ١٩٩٠.

(٥) S. Bessıs S. Belhassen. **Bourguiba-un si long régne.** Jeune Afrique-lıvres, Paris, 1988.

(٦) وصيّة عبد الناصر العلنية نطق بها في أيلول/سبتمبر ١٩٧٠ في بنغازي أي قبل ٢٨ يوماً من موته، حين قال في خطاب جماهيري بمناسبة أعياد الثورة الليبية في عامها الأول: «أتركَكم اليوم، وأنا أترك أخي معمّر القذافي أميناً للقومية العربية».

(٧) المصمودي، **أحاديث مع المؤلف**، باريس، ١٩٨٨ ـ ١٩٩٠.

أنظر كذلك: **Les arabes dans la tempéte.** M. Masmoudi Ed: J.E. Simoen- Paris-1977.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) القذافي، في حوار مع صحيفة **«الأسبوع العربي»** البيروتية، ١٩٧٣، السجل القومي.

(١١) S. Bessis S. Belhassen. **Bourguiba-un si long régne.** Jeune Afrique-livres-Parıs 1988.

(١٢) شهادة المصمودي، **أحاديث مع المؤلف**، في باريس.

(١٣) S. Bessis S Belhassen. **Bourguiba-un si long Bourguiba-un si long régne.** Jeune Afrique-livres, Paris, 1988.

(١٤) كان بورقيبة معادياً للمشرق العربي على نحو عرائزي. فبعد سنوات المنفى في القاهرة في الأربعينيات عاد خائباً. وفي رحلته إلى أريحا ١٩٦٥ عاد مريضاً ومعطوباً. كان يعتقد دائماً أن المشارقة لا يعرفون إلاّ الكلام. وهذا «الكليشه» توارثه رجال بورقيبة ونظامه. وبعيداً عن كل ذلك، فإن نخب المغرب العربي يسيطر عليها باستمرار هاجس التفوق لدى المشارقة. وتعود تلك النزعة إلى عصر زمن الخلافات الإسلامية.

(١٥) لقد سبق لحكام طرابلس، عائلة قرمانللي أن حكمت جربة. كما أن معظم عائلات جربة لها أصول ليبية وأشهرها عائلة بورقيبة نفسه. فالجذر الأصلي لشجرة بورقيبة يوجد في جربة بعد انتقالها من مصراته وقد انتقل فرع منها إلى الساحل، المنستير.

(١٦) اتهم نويرة الذي استبعد من وزارة الوحدة القذافي، فيما بعد، بأنه أعطى جميع الحقائب المهمة لليبيين. وفي ما عدا

الخارجية، فإن حقائب الداخلية والمال والبترول والدفاع قد كانت من نصيب الليبيين، وأما بن علي فقد أعطي رئاسة المكتب الثاني أو المخابرات وليست الداخلية على وجه الدقة. وكان آنذاك غير معروف في أروقة السلطة.

(١٧) القيروان هي العاصمة الرمزية. طرابلس هي العاصمة الشتوية. أما تونس فهي العاصمة الصيفية حسب إعلان الوحدة.

(١٨) شهادة المصمودي، **أحاديث مع المؤلف**، ١٩٨٨ - ١٩٩٠، باريس.

(١٩) شهادة وسيلة بن عمار، زوجة الرئيس، **حديث مع المؤلف**، في باريس، ١٩٨٨. لم تكن وسيلة متحمسة جداً للحديث في ذلك الموضوع وقد قالت إنها لا تريد أن تنبش في الماضي. وإنها بعكس ما يقال كانت تحبّ القذافي. وقد بدت وسيلة خلال جلستين مع المؤلف في باريس عام ١٩٨٨ وكأنها امرأة بلا ذاكرة أو امرأة قررت أن تدفن الماضي كلّه بعد طلاقها من بورقيبة.

(٢٠) S. Bessis S. Belhassen. **Bourguiba-un si long régne.** Jeune Afrique-livres, Paris, 1988.

(٢١) امتنع بوتفليقة عن الادلاء بشهادته. حاول معه المؤلف عدة مرات حين كان يسكن في باريس، لكنه كان يجيب دائما بدبلوماسية: أفضل من يتكلم في هذا الموضوع هو «سي المصمودي».

(٢٢) شهادة المصمودي، **أحاديث مع المؤلف**، باريس ١٩٩٠.

وفي رأي المصمودي أن الشطي وبلخوجة قد لعبا دوراً خفياً في تأجيج مشاعر الجزائر وتحريض بومدين على الوقوف ضد الوحدة، لأنهما كانا ضد الوحدة سواء مع الجزائر أو ليبيا. يعتقد المصمودي أن نويرة أقنع بورقيبة بإرسال الشطي وبلخوجة إلى الجزائر دون علمه كوزير للخارجية. ولو أنه ذهب بنفسه أو أرسل شخصاً آخر، لكان موقف الجزائر أكثر ليونة.

(٢٣) من حديث صحافي للقذافي مع المؤلف لمجلة **«كل العرب»** الصادرة في باريس. وقد ورد ذلك أيضاً في عدة خطابات له.

سنوات الشلل:

حرب الخلافة بين الأخوة ـ الأعداء

«لا أحد يستطيع أن يكون قائداً بدون أن تكون له إرادة قوية وأنا طاغية. يمكنه أن يخفي أناه، أن يدّعي أن لا أنا له، أن يعلن عن تواضع ما، ولكن السلطة تحتاج إلى أنا طاغية».

«نيكسون»

كتاب: **«قادة»**

لم يظهر بورقيبة ضعيفاً وعليلاً وغير متوازن كما ظهر في جنيف أمام القذافي أولا ثم أمام وزرائه. ولم يتأكد القذافي من أن بورقيبة قد أصبح أسداً هرماً كما تأكد خلال ذلك اللقاء. أما الوزراء فقد أيقنوا أن ساعة الإعداد لمراسم توديع الأب العجوز قد حانت.

إن الأعمال الكبرى غالباً ما تكشف عن صغر الرجال. وهذا ما نطق به درس جربة. إن بورقيبة الذي كان يعتقد أنه رجل استراتيجي من النوع النادر، قد بدا وكأنه جنرال مخدوع اضطر إلى الانسحاب قبل المعركة فخسر سطوته أمام الأعداء وكذلك أمام جنوده. هكذا ظهرت «وحدة جربة» وكأنها مغامرة صبيانية وظهر بورقيبة معها وكأنه شيخ فقد الصواب. ومنذ ذلك الوقت سيبدأ سباق التكالب على خلافة ذلك الشيخ، مرة بالتحالف مع المرض والقدر وأخرى بالتحالف مع الجيران والأجانب.

عرف التونسيون أن دولتهم قد دخلت في مضيق الأهواء القاتلة والهواء الفاسد. وكلما ازداد ضغط المرض على الرجل الذي نحت ثقافتهم وأحاسيسهم وردود فعلهم طوال ربع قرن، ازداد هامش الحريات اتساعاً. فمنذ أن تمت إطاحة تجربة التعاونيات الاشتراكية، ظلت السياسة الاقتصادية للبلاد تراوح مكانها. لم يتمكن فريق نويرة من وضع مشروع واضح للنهوض بالبلاد. فالرجل الذي ظهر كمدافع شرس عن الليبرالية الاقتصادية، ما لبث أن احتمى بترسانة الحمائية الجديدة. ولأن وزراءه لم يكونوا منسجمين، كما لم يكونوا صنيعة يديه، فقد وجد صعوبة كبيرة في ترويضهم أو إبعادهم عن التوغل في

مستنقع السياسة. لقد كانت السياسة هي مرض تلك الوزارة. أما فيروس طموح الخلافة فقد فتك بجميع أولئك الوزراء.

في ظل ذلك الفراغ، شرع بورقيبة في إلقاء مجموعة محاضرات على طلاب معهد الصحافة وعلوم الأخبار. كان العنوان الكبير لتلك المحاضرات «تاريخ الحركة الوطنية» لكن المضمون كان تاريخ بورقيبة في الحياة السياسية، حيث اختلطت الحقائق بالخيالات والتجاوزات. ولم يجد بورقيبة من ينصحه بأنه انتهك تاريخاً بكامله وتجاوز كل الحدود إلى حد اتهم فيه نفسه باغتيال خصمه الزعيم صالح بن يوسف(١). استمرت تلك المحاضرات إلى أن دهم المرض بورقيبة مرة أخرى فانقطع بنفسه عن إلقاء التهم والتشنيع بالأحياء والأموات وتصفية الحسابات الصغيرة وتحقير كل ما عداه. كان التونسيون يتابعون تلك المحاضرات وكأنهم يتابعون إحدى المسلسلات الدرامية. منهم من وجد فيها تسلية، ومنهم من وجد فيها دليلاً على أن الزعيم قد شاخ، ومنهم من نظر إليها على أنها تصفية حسابات. ومنهم من رأى فيها حزمة أكاذيب لا مثيل لها مثل «د. محمود الماطري» أحد زعماء حزب الدستور القدماء الذي لم يجد بداً من الكتابة إلى بورقيبة طالباً منه «الكفّ عن الكذب»!.

كان بورقيبة يغرق في الفوبيا والكآبة والخيالات السوداوية كلما اشتدّ به المرض. كان مرض العظمة قد استبدّ به فبدا أصغر مما يعتقد شعبه. أصبح اتهام شخص بسب أو شتم رئيس الدولة في مستوى خطورة تهمة انقلاب عسكري. أصبح الحزب الحاكم بين يدي الجناح الأكثر تصلّباً. فمحمد الصياح الذي برز كمؤرخ للحركة الوطنية وللزعيم بورقيبة فسه منذ الستينيات استطاع أن يضع الحزب في جيبه في أواسط السبعينيات. كان قد عاد من رحلة التيه بقوة أخرى. ووجد في الهادي نويرة حليفاً ودوداً إذ كان ينتمي إلى منطقة «المنستير ـ بوحجر» أيضاً. فبعد برهة صغيرة من الانفتاح لم تستمر أكثر من سنتين، عادت أجواء القمع لتخيم على البلاد. فمنذ ١٩٧٣ إلى عام ١٩٨٠ كان الصياح، مدير الحزب الحاكم وباعث ميليشياته، الرجل الذي اختار أن يقف أمام أي تحول ديموقراطي في البلاد(٢). ففي المؤتمر الحادي عشر للحزب الدستوري (من ١٢ إلى ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩٧٤) الذي عرف بمؤتمر «الوضوح»، ستتمكن مجموعة الصياح من طرد جميع الليبراليين داخل الحزب، بالإضافة إلى طرد محمد المصمودي، وفرض بورقيبة كرئيس مدى الحياة. كانت الفكرة قد نبتت في رأس الصياح لوقف مسلسل صراعات الخلافة للرجل المريض، كما سيعترف فيما بعد، ولكن الحقيقة، أن بورقيبة هو الذي أوحى للصياح

بأن يقترح ذلك على الحزب والحكومة. كان لا بدّ أن تأخذ تلك الفكرة وقتاً لكي تمشي على قدميها. وبعد انتخابات رئاسية فاز فيها المرشح الوحيد بورقيبة بفترة رئاسية رابعة بنسبة ٩٨، ٩٩٪، كان لا بدّ للبرلمان التونسي أن يعين بورقيبة رئيساً مدى الحياة. هكذا أعطت تونس درساً في الأتوقراطية الحديثة للعالم الثالث مفاده: «أن الرؤساء حين يمرضون لا يعفون من مناصبهم بل يعمّدون في أماكنهم مدى الحياة».

* * *

أصبحت تونس كلها تعيش على إيقاع مريض قرطاج. أما الطبقة السياسية فهي تحزن حين يمرض الزعيم وتفرح حين يشفى الزعيم. غير أن ذلك لم يكن إلاّ نفاقاً تعرف السرايا كيف تغزله مديحاً يقدم مع عصير الصباح. وبطبيعة الحال، فإن بورقيبة الذي لم يعد يخرج إلى الشارع، قد غدا سجين حاشيته التي تعاظم دورها في ظلّ شيخوخته ومرضه. ففي قصر قرطاج، وحول سرير الزعيم، بدأت وسيلة تدير جزءاً كبيراً من شؤون الحكم إلى درجة وضعت نفسها في مواجهة الوزير الأول/الخليفة الهادي نويرة. كان نويرة لا يحبّ من يتدخل في شؤونه، وعندما رأى أن وسيلة قد أكثرت من الطلبات والتدخلات أصبح لا يطيق رؤيتها. أما هي فقد وضعت نصب عينيها أن تجعل من نويرة خادماً لرغباتها، لأنه لا يساوي شيئاً بدون زوجها. فقد أسرت لأحد أصدقائها من الوزراء[٣]، «بأنها لو أرادت إطاحته، فإنها ستجعل بورقيبة يتخلص منه في ليلة واحدة».

إذا كان نويرة صعب المراس عادة، فقد لان قليلاً بين يدي وسيلة إذ فتح بعض الوزارات لرجالها. أما بورقيبة الذي اشتدّ به المرض، فلم يفقد أبداً حاسة الشمّ من بعيد، إذ سرعان ما أدرك أن زوجته تريد احتلال مكانة لأصدقائها ضمانة لحياتها بعد بورقيبة الذي يمرض يومياً لكن لا يعرف إلا الله متى سيموت. لم يكن ذلك الصراع بين سيدة القصر وسيّد القصبة خافياً على أحد لا في الداخل ولا في الخارج. في الداخل امتد نحو الحزب والاتحاد العام التونسي للشغل ووزارة الداخلية، وهي المراكز الثلاثة التي تمثل عصب الحياة السياسية في البلاد. أما في الخارج، فقد جعل كل من الجزائر وليبيا يرميان بشباكهما لاصطياد حلفائهما داخل السرايا المتخاصمة بهدف النفوذ أو الانتقام.

زاد تعيين نويرة كخليفة دستوري للرئيس الحاكم مدى الحياة الطين بلّة. وكان ذلك في نيسان/أبريل ١٩٧٦، فعرف التونسيون وليّ عهد ملكهم الجمهوري. ولأن الهادي نويرة لا يتمتع بشعبية أو كاريزما بورقيبة، فقد حزن البعض وقرر البعض الآخر إشعال الحرب، بل والاستعانة بالخارج.

كان أكثر الغاضبين الحبيب عاشور، الزعيم التاريخي لنقابات العمال. كان هذا الرجل الذي كثيراً ما لقب بـ«الأسد» صريحاً إلى حد الوجع. فهو سياسي بالفطرة ونقابي بالتجربة والممارسة. وحتى لو اتهم بالفردانية من قبل الجيل الجديد من النقابيين التونسيين، فإنه يبقى أكثر الرجال قرباً إلى العمال التونسيين بعد شهيدهم فرحات حشاد. ولأن عاشور قد أصبح يتعرض لضغوطات متزايدة من الحزب بسياسته القمعية ومن الهادي نويرة بليبراليته المتوحشة، فقد قرر أن يتحدى كل الذين يريدون ضرب الاتحاد ومكاسبه.

لم يكن عاشور يرغب في تحويل اتحاد النقابات إلى حزب سياسي كما يسعى بعض النقابيين. وقد وعد ذلك التيار مرة بالمماطلة وأخرى بالرفض. لكنه في الوقت نفسه لم يكن مستعداً أن تصبح النقابات ملحقاً إدارياً وبيروقراطياً لأجهزة الدولة والحزب. فهي عصاه التي سيضرب بها كل من يريد النيل منه كما هي جهازه الذي سيواجه به أجهزة الدولة الأخرى. فبعد حوالى ربع قرن من الاستقلال تيبست شعارات الرفاهية والتقدم على شفاه أصحابها. وإذ امتلأت الشوارع بالعاطلين والسجون بالمعارضين، فإن رؤوس الدولة قد فرغت من الأفكار الخلاقة. ولأن التعددية ممنوعة وحرية الصحافة معدومة، فقد التجأ كل الغاضبين والمعارضين والمنتقدين وحتى محترفي الشغب إلى دار «الغاضب الأكبر»، وهو الحبيب عاشور. أصبح الاتحاد مجمعاً للماركسيين والقوميين والإسلاميين وكذلك للدستوريين المهمّشين. برزت الصراعات الأيدلويوجية على أشدها وكشف ذلك الشباب الغاضب عن مهارات نادرة في صناعات الشعارات الملتهبة. لم تخل المناقشات من الاحتكاكات الصدامية، ولكنها كانت كلها تشحن الاتحاد بقوة جديدة لم يعرف مثيلها إلا في سنوات الكفاح الوطني.

كانت الساحة اليسارية يتقاسمها تياران، تيار العروبة والإسلام، وتيار الماركسية بجميع تنويعاتها. لم يكن هناك فرز واضح ولا قوة جذب ذات ثقل استثنائي، ولكن الجميع كان يستحم في الشعارات والتحليلات النظرية. وأمام آلة القمع الرهيبة تباعدت الفجوات شيئاً فشيئاً بين تلك التيارات. فالعروبي التحق بالإسلامي والإسلامي تزوج بالعروبي والماركسي اقترب من الجميع بحذر، لكنه لم يتمكن من الإفصاح عن لغة جديدة ولا عن ممارسة نظيفة. كان الاتحاد بمثابة الفرن الذي انصهرت فيه جميع هذه التشكيلات، بيد أن زعيم الاتحاد الذي كان يريد ترهيب السلطة والإدارة قد شعر هو نفسه بالخطر، لأن الاتحاد كاد أن يتحول إلى جبهة سياسية.

كانت لحظة الصدام تقترب شيئاً فشيئاً. واستباقاً لتلك اللحظة، طلب الوزير الأول نويرة

من قيادة الاتحاد التوقيع على «عقد اجتماعي» بين الدولة والاتحاد يستمر لفترة المخطط الرباعي ١٩٧٧ - ١٩٨١، وحيث تكون النقابات محركاً دافعاً لهذه السياسة الجديدة. بعد مفاوضات طويلة ومضنية سيقبل الاتحاد بالتوقيع على نص لضمان ما يسمى آنذاك «بالسلم الاجتماعي» لكنه لن يتلقى مقابل ذلك ولو مجرد تعهد حكومي بالتعددية السياسية التي كانت مطلباً ملحاً داخل أوساط اتحاد النقابات.

كان نويرة يتصرف كوزير أول وخليفة للرئيس وكذلك كرئيس للمستقبل، وقبل ذلك كصاحب منهجية في السياسة والاقتصاد. فهذا الحزبي حتى النخاع والذي عمل طويلاً كمدير للبنك المركزي والبالغ من العمر آنذاك نحو ٦٦ عاماً كان يعرف كيف يقوى حين يضعف، وكيف يضع أعداءه وأصدقاءه في الأماكن المناسبة، وكيف يخاطب رئيسه بورقيبة ويرضي غروره، ثم كيف يطيح أعداءه، ومع ذلك فهو لا يعرف كيف يغذي شعبيته التي كانت تتآكل يومياً. لقد قال ذات مرة للحبيب الشطي «إن السياسات الفعّالة غير شعبية، ولكنه لا يعرف ماذا يفعل حتى تصبح له شعبية؟». وإذ أجابه الشطي «بأن الكاريزما هبة من الله»، فقد جعله يفكر كيف يمكن لرجل سياسة أن يتحدى الجميع وهو لا يملك تلك الكاريزما!.

لم يكن على وفاق كبير مع مدير الحزب محمد الصياح الذي يراه خليطاً بين الدهاء والسذاجة وبين المكر والنفاق، ولكنه كان لا بدّ أن يتحالف معه. كما لم يكن يحبّ الحبيب عاشور إذ كان يراه رمزاً من رموز الدوغماتية الجديدة، أما وسيلة صاحبة الحلّ والربط في القصر، فهي لم تكن في نظره إلا زوجة للرئيس، كان مضطراً لرؤيتها أسبوعياً يوم الأربعاء لوضع جدول الأعمال للمكتب السياسي للحزب ولمجلس الوزراء. غير أنه قد بدأ في تجاهلها منذ أن طلبت منه تنحية بعض مديري البنوك والشركات العامة. أما هي فقد أصبحت لا تتورّع عن توجيه انتقادات له في حضور بورقيبة. كان الطاهر بلخوجة وزير الداخلية الأرمل القوي والذي يقال إنه ارتبط بعلاقة غرامية مع ابنة وسيلة قد أصبح هو الآخر في صفّ الذين لا يحبهم نويرة. فوزير الداخلية الذي راح يلمّع صورته ويكشف عن مطامحه للخلافة بدعم من وسيلة، قد بات لا يتحرك إلاّ بأوامر من نويرة. فنويرة الذي تدرّب جيداً في البنك المركزي على غلق الخزائن، استطاع بسهولة أن يمسك بمفاتيح وزارة الداخلية.

ولكن بلخوجة، ابن المهدية، مدينة الفاطميين العريقة ذات النزعة الباطنية التي أنجبت المصمودي، عدو نويرة اللدود، سوف يختار التحالف مع وسيلة ويتحدى نويرة الوزير

الأول ورئيسه المباشر. فقد استمرّ في الحوار مع بعض الجماعات المعارضة للنظام. ورغم تحذيره من «أن التهاون قد يؤدي إلى الفوضى»، إلاّ أنه استقبل مثقفين كثيرين وسمح لجريدة «الرأي» وهي أول جريدة معارضة بالصدور، ثم نظم لقاء سرياً بين بورقيبة والمعارض الكبير أحمد المستيري(٤). طرحت خلال اللقاء عدة أفكار، كان أهمها السماح بتكوين حزب معارض يمكن أن يكون رادعاً لأي تجاوزات داخل النظام مقابل الإعلان عن التأييد المطلق لشخص بورقيبة. وفي ذلك اللقاء الذي لم يعلم به نويرة إلاّ بعد يومين، كانت فكرة إسقاط نويرة قد نضجت في عقول الكثيرين سواء في الداخل أو الخارج. فنويرة الذي فعل كل شيء من أجل كسب الأعداء، كان يسير واثق الخطى نحو الشلل. ومع ذلك فقد كان عليه أن يصارع.

* * *

انشقّ أمام نويرة، خليفة بورقيبة كل شيء إلى شقين. بدأت التحالفات ترسم دوائرها في الخفاء بشيء من الخفة والابتذال. كانت هناك خمس مؤسسات فاعلة في تونس. الحكومة في «القصبة»، الرئاسة في قرطاج، الحزب في حيّ «باب بنات»، ووزارة الداخلية في بوليفار باب بحر ثم اتحاد النقابات في بطحاء محمد علي. كان الحزب بقيادة الصياح يقف إلى جانب نويرة، وكانت الداخلية تتناغم مع سيدة قصر قرطاج، أما الحبيب عاشور زعيم النقابات فقد بدا وكأنه يعزف معزوفتين واحدة على أنغام القصر وأخرى على أنغام الحكومة.

وفي القصر، كان هناك سرير واحد ينام عليه زوجان، الأول هو الرئيس الذي يدعم خليفته نويرة، والثاني هي زوجة الرئيس التي تقف ضد الخليفة نويرة. وكما كان الداخل منشطراً أمام نويرة، كذلك كان الخارج. فالجزائر تريد أن تكسب نويرة إلى جانب قضية الصحراء التي تتبناها. أما ليبيا فقد كانت تريد أن تنتقم من ذلك الرجل الذي أحبط مشروع وحدة جربة، وهو ليس إلاّ نويرة. وفيما كان نويرة يتصارع مع نفسه وحكومته وخصومه وجيرانه، كان الحبيب عاشور يبدو وكأنه الرجل الوحيد المؤهل لإحداث التوازن لذلك البناء الهشّ أو الانقلاب على ذلك الخليط المتنافر والمتخاصم.

اختار كل واحد من هذا الخليط المتخاصم «خليفته» ثم راح ينسج أحلامه. كانت الجزائر في ذلك الوقت قد استطاعت أن تلوي عنق نويرة باتجاهها. فقد استطاع بوتفليقة أن يكسب وسيلة إلى جانب وجهة نظر بلاده في صراع الصحراء، وإذ تردد بورقيبة طويلاً، فإن نويرة الذي لم يكن يحب ليبيا، قد اضطر إلى محاباة الجزائر. أصبح بلخوجة رجل

وسيلة هو المسؤول المباشر عن ملف الجزائر ولا سيما في ما يتعلق برسم الحدود. وحين راحت تونس تنحاز شيئاً فشيئاً نحو الجزائر حركت ليبيا مسألة الجرف القاري، فتعاقدت مع شركات أميركية وإيطالية لتبدأ التنقيب عن النفط متجاهلة بذلك رأي تونس(٥). فكّر بورقيبة في استدعاء قوات مسلحة من المغرب إذا اقتضى الأمر وقال لوزيره الأول: «إن الحسن الثاني هو حليفنا الحقيقي ضد هذا الثنائي (الجزائر وليبيا) وأظن أنه سيقبل بذلك، لأنه سيجعل القذافي يفكر أكثر من مرة قبل مهاجمة تونس أو دعم رجال البوليزاريو». كان واضحاً أن الأمور تنزلق نحو الأسوأ، وأن رجال الحكم في تونس قد أصبحوا مأخوذين نحو صراعات إقليمية منهكة لهم جميعاً، ثم إن وضوح الرؤية كان منعدما لديهم. ردّت ليبيا على ذلك بقوة فشرعت في طرد العمال التونسيين. وهنا كان على الحبيب عاشور أن يدخل إلى ساحة المعركة. تقدم عاشور بحذر وهو يتحسس جميع الاتجهات باحثاً عن مكاسبه ومكاسب الاتحاد. لقد جاءته الفرصة إلى بين يديه لأن نويرة هو الذي طلب منه أن يتوسط لدى أصدقائه الليبيين حتى لا تتأزم الأمور. سافر عاشور إلى طرابلس، وبحضور المصمودي صديق القذافي، لعب عاشور دور الوسيط بامتياز. فهو لا ينتمي إلى حكومة نويرة، ولكنه جاء ليدافع عن مصالح العمال المطرودين، ولأن القذافي كان يدرك بأن عاشور رجل مفيد جداً وقوي جداً في تونس وأن ليبيا يمكن أن تعتمد عليه في زعزعة حكومة نويرة، فقد كان كريماً معه. قال له أمام المصمودي: «كل شيء يمكن أن يجد حلّه إذا استطعت أن تضع حداً للمهزلة»(٦). عاد عاشور وهو يشعر بأنه حقق نصف المهمة، ولكنه كان مشغولاً بفكرة تسويق ذلك النجاح لصالحه وصالح النقابات. لم يفت نويرة أن عاشور الذي أنهى التوتر مع ليبيا قد أصبح أكثر قوة إذ وضع نفسه كمحاور مفضل لدى القذافي، فازدادت لعبة الشطرنج تعقيداً!.

ومنذ ذلك الوقت سيرتفع الضغط لدى الجناح المتصلب في الحزب الحاكم. فالتحالف الذي تم بين القذافي وعاشور بمباركة المصمودي سينظر إليه وكأنه إعلان حرب داخلية وخارجية ضد الحكم في تونس. وبدعم من نويرة سيتصدى الصياح كمدير للحزب وعبد الله فرحات كوزير للدفاع لذلك الحلف الشيطاني. لقد أصبح عاشور متهماً بخيانة الحزب وزعزعة أمن البلاد ولم يجد من يدافع عنه لدى بورقيبة إلا «وسيلة» التي كانت تريد إضعاف نويرة. كان عاشور لا يزال يستجمع أنفاسه من رحلة ثالثة إلى طرابلس، حين اكتشف أن رجال نويرة والصياح يضيقون عليه الخناق ويرغمونه على القبول بالتوقيع على ما يسمّى «بالعقد الاجتماعي الجديد». ردّ عاشور على ذلك الضغط بمقاطعة المكتب السياسي للحزب ثم طلب مكافحة بينه وبين نويرة أمام بورقيبة. انتهى اللقاء بمصافحة بين

الرجلين المتخاصمين، وإذ قال لهما بورقيبة بأن عليهما أن يعملا معاً «من أجل مصلحة الوطن العليا»، فإن الصياح الذي أبلغ بفحوى اللقاء ظل غاضباً ومتيقظاً لألاعيب عاشور ومستمراً في تكوين ميليشيات موازية لرجال الأمن وهو شبه متأكد أن المعركة قادمة لا محالة، وأن بلخوجة وزير الداخلية لا يمكن الاعتماد على رجاله، ولذلك فهو لن يسمح لنفسه بأن يؤخذ على حين غرة.

في خريف ١٩٧٧ وبالتحديد في تشرين الأول/أكتوبر، سيدق ناقوس الخطر، وكالعادة في منطقة تعتبر أحد مراكز حزب الدستور الوفية. لقد وقع صدام بين ميليشيات الحزب وبين العمال في كل من المكنين وقصر هلال. رأى نويرة أن يتدخل الجيش لأنه لا يثق في وزير الداخلية. قدم بلخوجة استقالته للرئيس إذ شعر بالإهانة، لكن الرئيس الذي رفض الاستقالة لم يكن يعرف ربما أنه دعم اتجاه حرب الأجنحة من حوله. وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٧، اشتكى عاشور من محاولة قتل كانت تستهدفه بتحريض من الصياح على يد أحد رجال الميليشيا الحزبية «عبد الله المبروك»(٧). حاول بورقيبة أن يبطل مفعول ذلك اللغم، لكن النقابيين أرادوا أن يرموه لينفجر في وجه الصياح مهما كلّف الثمن. حاول نويرة أن يتدخل لكن الصياح قال له: «إن عاشور يريد أن يأكلنا جميعاً» وإذ بدا الصياح يحرض على التصعيد وبلخوجة ينصح بالمرونة، فإن عاشور لم يعد مسيطراً لا على غضبه ولا على غضب رفاقه في النقابات. فشلت جميع الوساطات ومنها وساطة رجل فتح القوي آنذاك «أبو إياد» الذي كانت تربطه علاقة جيدة مع وسيلة في إصلاح الجسور بين أجنحة الحكم. وسواء كان أبو إياد صادقاً في وساطته أو كان يريد المزيد من تمزيق الأوصال أو كان فقط مفتوناً بالحفلات الصاخبة التي كانت تعدها له وسيلة بورقيبة، فقد زاد من توتر الجميع حين قال بحضور بورقيبة «إن القذافي يعتقد أن نظامكم مريض بالخلافات الداخلية، وأن فرصة توجيه ضربة قاصمة له قد أصبحت مؤاتية». بعد ذلك اقترح أن يتدبر «مبالغ مالية»(٨) (من ليبيا أو السعودية) من أجل معالجة العجز في الميزانية ليصبح في مقدور نويرة أن يرفع من الأجور.

كان كل شيء قابلاً للانفجار. نويرة لم يعد يسيطر على معظم وزرائه وخاصة بعد استقالة وزير الاقتصاد عبد العزيز الأصرم الذي اتهمه بالعجرفة أثناء المفاوضات مع اتحاد العمال. الحبيب عاشور لم يعد يسيطر على القوى التي تدفعه إلى الصدام مع الحكومة. الصياح لم يعد يسيطر على نوازعه المتطرفة. وإذ سافر وزير الداخلية بلخوجة إلى فرنسا لقضاء العطلة السنوية هناك بعد مناوشة بالكلمات الجارحة مع نويرة في البرلمان، فقد ذهب نويرة إلى

بورقيبة ليطلب منه أن يختار بينه وبين بلخوجة الذي لم يعد يستطيع العمل معه. اختار بورقيبة في غياب وسيلة، حاضنة بلخوجة، وزيره الأول وأقال وزير داخليته ليضع مكانه «عبد الله فرحات» وزير الدفاع على أن يشغل الوظيفتين معاً، ويساعده في الداخلية على رأس جهاز الأمن الوطني، ذلك الكولونيل الذي سيترقّى إلى جنرال والذي سيعرفه العالم برجل التغيير.

عمل الكولونيل بن علي الذي وضعه بورقيبة بمباركة نويرة كمدير للأمن الوطني مع أكثر من وزير داخلية. فقد عُزل عبد الله فرحات الذي جاء معه، بعد ٤٨ ساعة فقط. ثم عُزل من بعده الضاوي حنابلية في العام ١٩٧٩ ثم عُزل «عثمان كشريد» من بعده بنحو عام، لكن بن علي ظلّ العين الساهرة على أمن الرئيس الذي لا يثق كثيراً في وزراء داخليته. وهذا الرجل الذي سيغادر جهاز الأمن مع خروج نويرة من الوزارة في العام ١٩٨٠ سوف يعود إلى منصبه في العام ١٩٨٤ ليصبح مباشرة مديراً للأمن ووزيراً للداخلية. فمنذ أن دخل بن علي إلى وزارة الداخلية في نهاية ١٩٧٧، عمل بكل جهد على ألّا يطرد أو يعزل أو يذهب إلى السجن كغيره من الذين سبقوه. فقد كان يتميز بموهبة نادرة لدى رجال الحكم في تونس، وهي القدرة على تفكيك الألغاز واستخلاص الدروس بأسرع مما يمكن وبأقل المعلومات وفي أكثر الظروف اضطراباً. كان بن علي قد اقترب كثيراً من مطابخ السياسة في بلاده، وإذ رأى كيف أن أمهر الطباخين يمكن أن يعدّوا أسوأ أنواع الطعام حين لا يكونون صادقين مع أنفسهم، فقد قرر منذ اللحظة الأولى أن يتولى إعداد طعامه بنفسه!.

تسارعت وتيرة الخلافات والاستقالات. وفي صباح ٨ كانون الثاني/يناير ١٩٧٨ ذهب عاشور ليضع استقالته من المكتب السياسي للحزب الحاكم أمام بورقيبة، وقد رأى في التغيير الوزاري انزلاقاً نحو التصلّب. وأمام الضغط الشعبي، دعت قيادة النقابات إلى إضراب عام دون أن تحدد تاريخه. في ذلك الوقت بالضبط تلقت النقابات هدية من القذافي بقيمة ١٠٠ ألف دولار لإعادة بناء مقر الاتحاد، فازداد غضب الصياح لكن عاشور تقدم خطوة أخرى نحو المواجهة بتحديده ليوم الإضراب العام وهو ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٧٨. تدخل كثير من أصدقاء عاشور وعلى رأسهم «أوتو كيرستان» لكي يتراجع عاشور قليلاً ويعطي للحكومة فرصة المراجعة، غير أن عاشور حتى وإن أبدى استعداداً للتراجع في ذلك الوقت، فإنه كان سيعرض نفسه للتيار الجارف. لقد فقد السيطرة على رجاله، واعتقد أن هؤلاء سيسيطرون على الوضع يوم الإضراب العام، لكنه أخطأ في

التقدير، لأن أبطال ٢٥ كانون الثاني/يناير قد أصبحوا ضحايا ٢٦ كانون الثاني/يناير. أما الذين احتلوا المشهد وسدوا المنافذ فهم رجال ميليشيات الحزب ورجال الأمن وجنود الجيش والحرس الوطني.

كانت حصيلة ذلك «الخميس الأسود» أكثر من ٥٠٠ ضحية بين قتيل وجريح. بدت تونس العاصمة وبقية مدنها من الشمال إلى الجنوب وكأنها ساحة حرب حقيقية. حرائق ودخان ودماء وصراخ وجنازات لم يعرفها أبداً ذلك الجيل الذي ولد في أحضان دولة الاستقلال. فمن أصل أربعة أشخاص خرجوا إلى الشوارع للتظاهر ضد حكامهم، كان هناك ثلاثة قد ولدوا بعد الاستقلال. كانوا يحلمون بالتغيير فإذا بهم يسقطون ضحايا الرصاص الأعمى. انتهت المعركة في مساء ذلك اليوم لصالح الحزب والجيش والأثرياء الجدد ودعاة التطرف والتصلّب. أما الخاسرون في ذلك الوقت فقد كان في مقدمتهم القصر (وسيلة ومعها بورقيبة الذي تهشمت صورته كزعيم) والنقابات والشعب الذي تهشم كعشب طري تحت أقدام فيلة مصابة بالسعار لخلافة الأسد المريض.

تمكن الهادي نويرة من إطاحة خصمه العنيد الحبيب عاشور، فضعفت سطوة وسيلة التي أدركت أن لعبة الأجنحة تؤدي إلى لعبة الدم. أما بورقيبة فقد أيقن أن عاشور كان يريد أن يفتك به ويفتكّ منه السلطة والبلاد. أعدّ له ملفاً خطيراً ومليئاً بالتهم القاتلة، لكن الوساطات والضغوطات الكثيرة التي هبطت على بورقيبة جعلته يأمر المحكمة بتخفيف العقوبة إلى نحو ١٠ سنين أشغالاً شاقة.

* * *

عاد الأسد إلى النوم بعدما أعاد النظام داخل الغابة. فلقد تقاتلت جميع الوحوش فهشمت الأخضر واليابس فيما كان المرض يسيطر على الأسد. فطوال تلك الأزمة كانت الزوجة وسيلة هي طبيبه الخاص التي تشرف على علاجه وأدويته ولا تترك أحداً بما في ذلك الأطباء من الاقتراب من خزينة الدواء. كان يشكو من كل مفصل في جسمه، لكن الأطباء لم يحددوا أي مرض معين. وباستثناء الرعشة التي لازمت يديه وفكيه، فإن ذاكرته كانت تبدو قوية لمن يقترب منه. ثم إن مداركه العقلية قد حافظت على مستواها. أحياناً كان يهبط عليه نوم عميق، وأحياناً كان الأرق يأخذ منه كل شيء. كان مريضاً جداً، ولكنه لم يكن قابلاً للموت. وإذ كان أطباؤه يهرولون في كل صوب باحثين له عن الأدوية والعقاقير، فإن وسيلة هي التي كانت تقرر ما إذا كان ذلك الدواء صالحاً أو غير صالح.

فجأة بدأ النسيان أو تآكل الذاكرة يدهمه. أحياناً يكون يتكلم مع ضيفه الجزائري بشكل عادي وفجأة يسأله: ومن يكون بومدين؟ ولأن بورقيبة كان يخلط بين الواقع والتمثيل وبين الجدية والهزل، فإنه كان يصعب على مراقبيه معرفة ما إذا كان بورقيبة نسي بومدين فعلاً أو هو يسخر من محدثه!. ومع الأيام بدأت عوارض هستيرية تظهر عليه. فقد أصبح يمرّ من حالة النشوة والضحك إلى حالة من الحزن والبكاء دون أن يكون بإمكانه أن يحبس دموعه بسهولة. ومن حالة المرونة والأريحية إلى حالة عدوانية قصوى يستعمل فيها كلمات جدّ مبتذلة حتى أمام وزرائه وضيوفه. فمرة سمع يقول لأحد وزرائه[٩]: «كان بن صالح ينكح كل نساء وزرائي، فلماذا لا تفعل مثله وأنت عازب». أما في اجتماعات المكتب السياسي، فقد كان يمسك بعصاه ثم يأخذ في الدوران حول الطاولة ومن حين لآخر كان ينقر رأس أحد وزرائه[١٠]. كان ينهمك في البكاء وحفظ الأشعار والنكات والضحكات وهو لا يهتم بمن كان حوله. وتزداد عدوانية بورقيبة حين يلتقي بالنساء. ففي إحدى المرات وقفت أمامه صحافية، وسألها عن اسمها فقالت: «حليمة». صمت لحظة ثم التفت إلى مساعديه فقال بلا خجل ولا تردد «أنا أعرف حليمتين. الأولى مرضعة الرسول، والثانية هذه السيدة التي يمكن أن ترضع شعباً بكامله» ثم أشار بيديه المرتعشتين نحو صدرها.

كانت حالة الإحباط تزداد وطأة على بورقيبة وكذلك على رجاله. فهذا الرجل يمكن أن ينتحر في أية لحظة أو يتسبب في كارثة لبلاده. ومنذ أن سمعه نويرة يردد بأن حالته الصحية «ليس لها حلّ إلا الموت» أصرّ على أن يلازمه أثناء أي لقاء بأي مسؤول خارجي. فكثيراً ما طرد زواراً من مجلسه، وكاد ذات مرة أن يضرب بعصاه وزير خارجية ليبيا الدكتور «علي التريكي» قائلاً له: «قل لصاحبك القذافي إن بورقيبة معه الأميركان والشاذلي بن جديد، أما أنت فلا أحد معك سوى بريجنيف المريض». كانت تلك الحالة «Maniaco deprissive» قد وصفها أحد الكتاب[١١] الغربيين «بعقدة يوغرطة» التي أصابت بورقيبة. فهذا الأخير كثيراً ما يصف نفسه بالبطل يوغرطة البربري الذي قاتل الرومان وقد عاش مذعوراً وخائفاً منهم إلى أن وقع بين أيديهم.

ولأن الوزير الأول نويرة كان عليه أن يراقب وضع البلاد المأساوي ووضع بورقيبة المتدهور، فقد أعلن عن وزارة نظيفة وخالية من رجال وسيلة. أصبح الحبيب الابن وزيراً مستشاراً لدى أبيه، وهذا الأخير لم يكن يخفي أبداً كراهيته لزوجة أبيه منذ أن أرغمته على الطلاق من أمه «ماتيلد» ثم إنه لم يكن على وئام معها لأنها حسب رأيه «امرأة شريرة ومبتذلة».

دفع نويرة بمجموعة من التكنوقراط الشباب للابتعاد عن مهازل الوزراء السياسيين. ولأن صحة بورقيبة كانت تشغله كثيراً فقد عين وزير الصحة الجديد المختص في الأمراض العصبية «المنجي بن حميدة» لمراقبة أطباء الرئيس.

إن مثل ذلك المنصب لهو منصب استراتيجي في جمهورية بورقيبة المريض. وعندما ستسافر وسيلة إلى الخارج سيشكو بورقيبة من قلة النوم ومن الأوجاع إلى حد تساءل فيه البعض ما إذا كانت وسيلة «امرأة سحرية» أو أنها كانت تخفي ما يتناوله بورقيبة من الأدوية. نقل بورقيبة على إثر وعكة أليمة إلى باريس وهناك أمضى بضعة أيام وهو يتنزه في حدائق فرساي وغابة بولونيا، ثم عاد على قدر من الصحوة.

في ذلك الوقت كان السادات قد زار إسرائيل، وبدا أنه رجل مكروه وخائن في نظر زملائه العرب. طلبت السعودية بعد قمة عربية في بغداد، أن تنتقل الجامعة العربية من مصر إلى تونس، فوافقت معظم الدول العربية. أما تونس فقد رأت في استضافة القمة العربية فرصة لتحصين نفسها وتحسين صورتها العربية واعترافاً بسياستها المتوازنة. مع ذلك، فإن النفوس لم تهدأ. وبينما كان نويرة يغسل يديه على قبور خصومه الواحد تلو الآخر، كان خصومه يعدون له الجنازة التي قد تليق به.

* * *

إن بورقيبة نفسه قد يكون شارك في إعداد يوم نويرة الحزين. فقد أضعفه قليلاً بعد أن بدا «رجل الموقف» لبضعة أشهر. ها هي إذن النقابات قد شلت وزعيمها موجود في السجن والليبراليون قد تراجعوا وتواروا إلى الخلف، والشباب تحت المراقبة الشديدة والقصر قد همّش بعد أن فقدت وسيلة بعض رجالها. وها هو نويرة يحكم بلا صعوبة إلى أن جاء موعد المؤتمر العاشر للحزب الحاكم الذي عقد تحت حراسة الجيش. وإذ استطاع نويرة أن ينظم مؤتمراً على قياسة ولمقاسه في غياب بورقيبة الذي رفض الحضور، فإن قرارات الرئيس في نهاية المؤتمر قد أشعرت نويرة أنه تجاوز الحدود. فقد أطاح بورقيبة عدداً من رجاله دفعة واحدة، وهم عبد الله فرحات وزير الدفاع والهادي البكوش مستشار نويرة الخاص ثم مدير وكالة الأنباء محمود التريكي وثلاثتهم قد عملوا على تعميد نويرة كخليفة للرجل المريض. لا أحد أعجبه صعود نويرة بمن في ذلك بورقيبة، ولكن أكثر الذين كانوا يريدون النيل منه كانوا في الجزائر وطرابلس. وبداية من عام ١٩٧٩ ستراود الجزائريين والليبيين أفكار كثيرة لإطاحة نويرة ونظام بورقيبة. كانت كل دولة تحاول جذبه إليها، لكن نويرة لم يكن ليضعف لا باتجاه الشرق ولا باتجاه الغرب. ساءت علاقات ليبيا مع مصر بسبب «كامب

ديفيد» فلم تقف تونس إلى جانبها، وساءت علاقات الجزائر مع المغرب بسبب الصحراء الغربية فراوحت تونس مكانها بل مالت نحو المغرب. كان الاتفاق الضمني بين بومدين والقذافي حاصلاً باتجاه تونس في حدّه الأدنى، وهو أن النظام قد تآكل وصراعاته الداخلية قد تضعف موقفيهما، ولكنهما لم يكونا يملكان خطة مشتركة لإطاحة ولا اتفاقاً مشتركاً على إقامة نوع من الوفاق على أرض تونس. في تلك اللحظة لاحت فكرة في رؤوس البعض في العاصمتين الليبية والجزائرية مفادها أن نظام بورقيبة على شفير الحفرة ولا يحتاج إلاّ إلى ركلة صغيرة لكي يقع في تلك الحفرة. لم يكونا يملكان رجالاً داخل الجيش التونسي، كما كلنا حذرين من تهمة التدخل واستفزاز الغرب، ولا سيما أميركا التي كانت تبحث عن مدخل للتمدد تجاه ليبيا والجزائر. وفي ذلك الوقت بالضبط بدأ سيناريو ما سوف يعرف بعملية قفصة يتضح للرجال المكلفين في كل من ليبيا والجزائر لمعالجة ملف تونس.

كان بومدين قد وقع فجأة تحت طائلة ذلك المرض الذي سيأخذه من الحياة، حين سافر رئيس مخابراته العسكرية قاصدي مرباح[١٢] إلى طرابلس ليضع مع رجال القذافي اللمسات الأخيرة للهجوم الذي سيستهدف مدينة قفصة الجنوبية في كانون الثاني/يناير ١٩٨٠. كانت العملية ستنطلق في صيف ١٩٧٩، ولكنها تأجلت بسبب مرض بومدين، فوقعت في عهد الشاذلي بن جديد الذي لم يكن يعلم بها. وكما أوضح القذافي فيما بعد لإحدى الصحف الأجنبية، فإن مرباح هو الذي أعدّ الخطة مع بومدين وجاء إلى ليبيا ليطلب المساعدة والمشاركة.

كانت الخطة تقف عند حدود إحداث صدمة لنظام بورقيبة في إحدى مدنه الهامة التي عُرفت تقليدياً بالتمرد، ولكن الذين اختيروا لتنفيذها من التونسيين، كانوا يعتقدون بأنهم ذاهبون لإعلان بدء الثورة المسلحة. لقد فات أولئك الشباب الغاضب والمندفع أن لا ليبيا ولا الجزائر تريد ثورة مسلحة على حدودها، وكما اعتقدوا أن الإمدادات ستأتيهم حين يتمكنون من السيطرة على مدينة قفصة، فقد توهموا أيضا أنهم كانوا يقومون بعمل شعبي سيسانده «كل الشعب» حالما يعلن عن نفسه[١٣].

من الخطأ القول بأن كوماندوس قفصة كانوا أعضاء في أحزاب سياسية أو أن أحزاباً سياسية كانت تقف وراء ذلك الهجوم. فحتى لو انتمى بعضهم في السابق إلى ما يعرف «بالجبهة القومية التقدمية لتحرير تونس»، فإن هذه الجبهة لم تكن توجد على الأرض. فهي مجرد تسمية بدون مسمّى. أما القول بأن «الحزب الثوري الشعبي التونسي» قد شارك في

الإعداد لذلك العمل، فهو ليس إلاّ دعاية أطلقها من كان يبحث عن دور. فأحمد الميرغني أو عز الدين شريف اللذان أعدّا وقادا الهجوم على قفصة إذا لم يكونا مجرد مغامرين فهما بالتأكيد لم يكونا زعيمين سياسيين. تكفل عز الدين الشريف بالإعداد في الداخل وتخزين الأسلحة وكسب الرجال، فيما تكفل الميرغني باختبار عناصر تونسية من ليبيا ولبنان لاستقطابهم لهذا العمل. وبعد أن كاد الميرغني أن يقتل في بيروت من قبل أحد رفاقه بسبب خلاف مالي وقد قفز من الطابق الثاني من فندق في شارع الحمراء، ذهب ليموت في تونس بعد أن ألقى الجيش عليه القبض بعد يومين من الهجوم على قفصة.

كان عدد الكوماندوس لا يزيد على ٢٧ رجلاً. أغلبهم جاءوا من لبنان وقد تدربت غالبيتهم من معسكرات الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة (أحمد جبريل). ساعد الميرغني في استقطاب أولئك الشباب أحد أصدقائه الذين تعرف إليهم في طرابلس. وبعد رحلة من بيروت إلى روما إلى طرابلس ثم من طرابلس إلى روما إلى الجزائر، استقل الميرغني ورفاقه حافلة ركاب جزائرية كانت متجهة إلى الحدود التونسية. ومن هناك دخلوا على أنهم فريق رياضي. لم يكونوا يحملون لا سلاحاً ولا خرائط. فالسلاح قد تم خزنه في مدينة قفصة قبل ذلك بمدة بإشراف عز الدين الشريف. وأما الخرائط فربما لم يفكروا فيها أبداً إذ كانوا يعرفون جيداً النقاط الحساسة التي يحب السيطرة عليها! وبعد اختفاء دام ثلاثة أسابيع قرروا ساعة الهجوم. وفي فجر السابع والعشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٨٠ هاجم الكوماندوس ثكنة قفصة العسكرية ثم دخلوا إلى المعهد الثانوي للسيطرة عليه ثم سيطروا على الجامع الكبير للمدينة، بعد ذلك اتجه فريق منهم إلى مدينة مدنين جنوب شرق البلاد.

كان عز الدين الشريف الذي سبق أن حوكم في محاولة الانقلاب الفاشلة عام ١٩٦٢ يعتقد أنه بمجرد إعلان الهجوم فإن الشعب سيلتحق «بالثورة». وقد يكون هؤلاء الشباب قد تلقوا وعوداً من ليبيا أو من الجزائر تفيد بأنه بمجرد تحرير مدينة قفصة، فإن إمدادات جوية ستهبط عليهم من السماء، ولكن لا شيء تحقق من ذلك. فلا قفصة تحررت، ولا الإمدادات وصلت. فلم ينتصف النهار حتى استعاد الجيش السيطرة على المدينة بعدما خاض معارك شبيهة بمعارك المدن انتهت بقتل أكثر من ٦٠ شخصاً وجرح حوالى ١٠٠ شخص وإلقاء القبض على نحو ٧ من أفراد الكوماندوس.

كان بورقيبة الذي كان يقضي عطلته الشتوية في واحة الجريد «نفطة» التي لا تبعد أكثر من ١٠٠ كلم عن قفصة والواقعة مباشرة على الحدود الجزائرية قد عاد إلى صفائه وتوهجه. فهو لم يفقد لا الشجاعة ولا فنّ القيادة. اختار أن يبقى في «نفطة» حتى لا يظهر

وكأنه هارب من مجموعة من المراهقين كما قال بنفسه، ثم دعا الرئيس الفرنسي «ديستان» و«الحسن الثاني» إلى التدخل. جاءت المساعدات بسرعة من المغرب فبدا وكأنه ينتظر تلك الفرصة ليثبت علاقة تحالفية مع تونس ضد كل من الجزائر وليبيا اللتين تدعمان البوليزاريو. أما ديستان فقد تريث قليلاً ثم أرسل باخرة حربية إلى خليج قابس في محاولة لتهديد ليبيا. كانت الإذاعة الليبية «صوت الوطن العربي» تدعو ليلاً ونهاراً الشعب التونسي المقهور إلى الثورة. أما راديو الجزائر فقد إلتزم الصمت. أيقن بورقيبة أنه ليس من المصلحة ولا من الحكمة أن يهاجم كلاً من الجزائر وليبيا دفعة واحدة، فتغاضى عن دور الجزائر فيما شنّ حملته على القذافي الذي قال عنه: «إنه أخطأ كالعادة، ووقع في أكثر من كمين. إن رجاله يدفعونه إلى الخطر والمغالطات وقد اعتقد أن حبة الأرز التونسية قد نضجت، لكن الذي نضج هو وعي الشعب التونسي الذي لن يتنكر أبداً لي»(١٤). تدافع المبعدون والليبراليون والمعارضون وكذلك الغاضبون على «نفطة» لدعم الرئيس بورقيبة. لم يضعف ولم يهرب من المسؤولية، وحتى وإن وجد من انتقد استعجاله لدعوة قوات أجنبية للتدخل، فإن ذلك لم يجعله أقل قامة مما كان في السابق. هكذا عاد بورقيبة إلى مقدمة الأحداث ليمسك المقود بقدرة وبكلّ عناية وبأياد كفت عن الارتعاش. وفيما كان نويرة يتعافى من الصدمة، جاء قرار بورقيبة بإبعاد «عثمان كشريد» من وزارة الداخلية وزين العابدين بن علي من إدارة الأمن وتعيين ذلك الرجل الذي لا يحبه نويرة أبداً على رأس الداخلية وهو ليس إلاّ «أدريس قيقة».

وفي تلك الليلة الفاصلة بين ٢٥ و٢٦ شباط/فبراير، ليلة تعيين قيقة على رأس الداخلية، أصيب الهادي نويرة بشلل نصفي أنزله من كرسي الخلافة مرة واحدة وأخيرة. وهكذا فيما انتهى وليّ العهد، عاد الملك الجمهوري بورقيبة أدراجه من طريق الموت إلى طريق الحياة. لقد كان عليه أن يدفن في كل مرة أحد خلفائه ثم ينهض متكئاً على عصاه وقدره.

الهوامش:

(١) بلغ عدد المحاضرات التي ألقاها بورقيبة على معهد الصحافة في عامه الأول خمس محاضرات، كان يلقيها يوم الجمعة في كلية الآداب أمام مقرّ الحزب الجديد، بعد المحاضرة كانت تقدم لبورقيبة أسئلة مكتوبة من الطلبة فكان يردّ على بعضها. وأحياناً كان يحضر معه بعض الشهود. وكان يأتي مرفوقاً بموكب كبير. وقد أثارت تلك المحاضرات التي اختلط فيها الكذب بالحقيقة ضجة كبرى أثناء إلقائها، بل كانت في بعض فصولها سمجة ومبتذلة. ومع ذلك فقد أعدت في كتاب دون أي نقصان أو تهذيب بإشراف مدير الحزب آنذاك محمد الصياح.

(٢) اعترف محمد الصياح بأنه كان وراء فكرة تنصيب بورقيبة كرئيس مدى الحياة لإنهاء صراع الخلافة. لكنه دافع عن ذلك بأن معظم الوزراء كانوا يشاطرونه الرأي. وقال إن بورقيبة نفسه كان يرغب في ذلك، وقد راودته أحياناً فكرة إعادة الملكية وتنصيب نفسه كملك للبلاد. غير أن الصياح يعترف كذلك لبورقيبة أنه كان يعطي الفرصة لكل رجل يرى فيه الكفاءة حتى إذا أظهر ذلك الرجل بعض العجز، سحب من تحته البساط، **حديث مع المؤلف**، تونس ١٩٩٣.

(٣) أسرت بذلك إلى الوزير الطاهر بلخوجة (الداخلية) وقد أكد ذلك أحمد بنور كاتب الدولة للأمن السابق، **حديث مع المؤلف**، في باريس.

(٤) أحمد المستيري: من مواليد تونس عام ١٩٢٥. كان وزيراً للعدل عام ١٩٥٨. في العام ١٩٧٠ عاد لوزارة الداخلية إلى أن أعفي من منصبه عام ١٩٧٤ تحت ضغط نويرة والصياح/الجناح المتصلّب. وقد شكل أول نواة للمعارضة داخل الحزب الحاكم تطورت فأصبحت تعرف بـ«حركة الديموقراطيين الاشتراكيين».

(٥) تطورت قضية الجرف القاري بين ليبيا وتونس إلى صراع. ثم قدمت القضية لمحكمة العدل الدولية. حكمت لاهاي لصالح ليبيا، لكن القذافي بعد تغيير ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٧ أراد أن يجعل من حقول الجرف القاري منطقة للتعاون المشترك مع تونس.

(٦) شهادة المصمودي، **أحاديث مع المؤلف**، باريس، ١٩٨٨ - ١٩٩٠.

(٧) محاولة الاغتيال التي تعرض لها عاشور قد تكون مفتعلة. وقد نفاها الصياح. وقال للمؤلف في حوارات معه بتونس عام ١٩٩٣ «إن عاشور كان يبحث عن أية فرصة لتفجير الصراع مع الحزب والحكومة».

(٨) أبو إياد لم يكن على علاقة جيدة مع القذافي. ثم إنه لم يكن على علاقة جيدة مع السعودية. والأرجح أنه كان مشغولاً بتأجيج الصراعات. وهو مفتون بذلك الأسلوب باعتباره رجل مخابرات.

(٩) الوزير الذي قال له بورقيبة ذلك الكلام هو الطاهر بلخوجة؟.

(١٠) الرواية رواها أحمد بنور، كاتب الدولة للأمن السابق، للمؤلف.

(١١) أنظر كتاب: Bernad Cohen, **Bourguiba-Le pouvoir d'un seul,** Ed: Flammarion-Paris.

(١٢) قاصدي مرباح أصبح فيما بعد رئيسا للوزراء في عهد بن جديد ثم استقال وكون حزباً سماه «مجد». بعد ذلك توفي في حادث تفجير لسيارته وكان بصحبة صهره وابنه.

اعترف القذافي في حوار صحفي مع مجلة فرنسية «أن قاصدي مرباح الجزائري هو الذي عرض عليه خطة الهجوم على مدينة قفصة التونسية. وأن التونسيين قد عرفوا منذ اليوم الأول أن الجزائر ضالعة في العملية، لكنهم تجنبوا أية إشارة إلى ذلك». وقد يكون القذافي شارك في العملية للانتقام من نويرة الذي أفشل الوحدة، وليس لأي سبب آخر، ثم لكي يبقى في الصورة حتى لا تسحب تونس نحو الجزائر في عملية التجاذب السياسي على الصعيد الإقليمي. ومن ناحية الشاذلي بن جديد، فإنه لم يكن يعلم بشيء لأن الملف كان بين يدي رجال بومدين الأقوياء، وهو لايزال رئيساً جديداً. ولو أنه اطلع عليها لعارضها.

(١٣) المؤلف كان يعرف بالعملية منذ الإعداد لها في أواخر ١٩٧٩. لكنه عارضها وتخاصم مع أحد قادتها ـ الميرغني ـ في بيروت حين جاء ليجنّد بعض الشباب التونسي الناشطين في المنظمات الفلسطينية. ولو أن تونس كانت تملك «عيوناً» في بيروت لعلمت بكل شيء، لأن الروائح فاحت لا سيما حين بدأ الصراع على حزم الدولارات بين بعض المجندين للعملية.

مع ذلك فقد كان المؤلف على لائحة الاتهام وقد علّقت صوره على الحدود والمطارات كمطلوب للعدالة. وخلال حوار مع مدير الأمن السابق أحمد بنور في باريس، عرف المؤلف أنه كان سيُعدم لو تم القبض عليه آنذاك. وللشهادة التاريخية لا أدعي أبداً أنني كنت من المخططين أو من المشجعين. ولكن حين تمت عملية الهجوم، كان عليّ أن أؤيدها كما فعلت معظم المجموعات اليسارية المعارضة. وحين تم القبض على مجموعة من الشباب التونسي في بيروت من قبل جهاز أبو إياد ـ الأمن الفلسطيني لتسليمهم إلى تونس ذهبت إلى المرحوم أبو جهاد برسالة من صديقه القديم المناضل محمد البدوي، وقد استجاب أبو جهاد فأطلق سراح الجميع وكان عددهم ١٣ شاباً رغم أنف أبو إياد. أنظر كتاب **(الحمّى ٤٢)** للمؤلف، دار نقوش عربية، تونس ١٩٩٤.

(١٤) قال ذلك لجان دانيال، **نوفيل أبسرفاتور** ـ الفرنسية، عام ١٩٩٣.

سنوات الرذائل:

رجال من طين وآخرون من عجين

«الشعب هو الطريق الملتوية التي تسلكها الطبيعة للوصول إلى ستة رجال كبار أو حتى سبعة. ثم للتخلّص منهم فيما بعد».

«فريديريك نيتشه»

قاوم الهادي نويرة طويلاً ثم سقط. كان سقوطه مروعاً، فذلك الذي حكم تونس لمدة عقد من الزمن (السبعينيات) بيد من حديد وقلب من حجر قد رحل بلا أسف كبير. حتى بورقيبة الذي دعمه كثيراً وحماه من جميع ذئاب القصر والحزب والنقابات قد بدا وكأنه تنفّس الصعداء وهو ينهض من فراش المرض ليمسك ببلاده التي توشك على الانهيار. لقد دلّل رحيل نويرة على أمراض كثيرة. عرف الذين كانوا يتوجعون لرؤية بلادهم وهي تسير نحو الهاوية أن الحزب الحاكم مريض باحتكاره للسلطة وانغلاقه على الانفتاح والتغيير، وأن البديل الديموقراطي مريض بمحدوديته وتردده، وأن اليسار مريض بالصبيانية والتشرذم، وأن النقابات مريضة بالمطلبية والانتهازية الصغيرة، وأن الوزراء مرضى بالفساد والتكالب، وأن الإنتلجنسيا مريضة بالشيزوفرانيا، وأن الشعب كلّه قد أضحى يتلهى بالفرجة على نفسه عارياً، من خلال مسرح العرائس الذي أقامه بورقيبة لمدة ربع قرن.

وإذ أيقظت صدمة قفصة حسّ التقصير في الطبقة السياسية الحاكمة وزرعت الشك في الشعب تجاه زعيمه، فإن بورقيبة عرف كيف يستفيد مرة أخرى من كل ذلك. فقد جعل من وزرائه يقفون إلى جانبه فيما جعل الشعب يصدق مرة أخرى أن النظام والبلاد يمكن أن يلتقيا ليتزوجا من جديد.

إن بورقيبة نفسه، الأوتوقراطي لا يعرف كيف يمكن لرجل بلغ الثمانين من عمره أن يضحي رجلاً ديموقراطياً. لذلك فقد تابع عروضه الساحرة والسوداوية، وكأن لا شيء قد

حدث من حوله. أصبح فقط أكثر يقظة لجاريه الشرقي والغربي بعدما تأكد أن لا أحد منهما يريد له الاستقرار. أما في الداخل فقد كان عليه أن يختار رجلاً آخر ليسلّم له مقاليد الوزارة. رجلاً حيادياً إلى حدّ ما. رجلاً بلا تاريخ معقّد وبلا طموحات غامضة، رجلاً بلا أعداء وبلا مشاريع كبيرة. رجلاً بلا أسنان وبلا أجهزة. إنه محمد مزالي.

ظلّ محمد مزالي وزيراً أول بالنيابة من كانون الثاني/ يناير إلى آذار/مارس ١٩٨٠، وهو لا يعرف ما إذا كان يؤدي مهمات مؤقتة أم أنه أختير لهذا الموقع لفترة طويلة. وفي الذكرى الـ٢٤ لاستقلال البلاد (٢٠ آذار/مارس ١٩٨٠) أعفى بورقيبة بعض قيادات النقابات، ثم هبط الحظّ على مزالي حين أصدر بورقيبة مرسوماً في نيسان/أبريل يقضي بتعيينه رسمياً على رأس الوزارة.

لم يكن مزالي من بارونات حزب الدستور، ولا من رجال الاستقلال البارزين. كان قد بلغ آنذاك حوالى ٥٥ عاماً، وقد برز كمثقف متردد داخل حزب الدستور. فهو لم يجاور المتصلبين ولم يرافق الليبراليين. أما ما يشاع عنه فهوأنه رياضي وصاحب مجلة أدبية[1] ومناصر للغة العربية. فهو بطبعه لا يحب التحالفات، بل هو لا يتقن فنونها. كانت خطوط كفّه واضحة أما أفكاره فبسيطة وذكاؤه السياسي متوسط. وتلك المواصفات إذا كانت لا تثير أي حماسة له لا داخل الحزب ولا في الشارع، فإن «وسيلة» قد وجدتها مناسبة إذ ظنّت أنه ليس بالرجل الخطير الذي قد يهدّد سلطتها. ولأن مزالي كان يريد أن يظهر مختلفاً عن غيره، فإنه لم يجد غير كلمة «الانفتاح» ليفتتح بها عهده، وهي كلمة كانت تحمل الخوف والمناورة والحذر أكثر مما كانت تحمل معنى المبادرة والتغيير.

وهكذا وبالرغم من صدمة قفصة، فإن التونسيين قد وجدوا أنفسهم بعد ٤ أشهر فقط، مع الحزب نفسه والعقلية نفسها والزعيم نفسه والرجال أنفسهم. وكان لا بد أن يدرك الجميع أن ترسانة الرجال قد أضحت خاوية، وأن كل شيء قد أصبح بالياً. كان التململ واضحاً من تلك السياسة العقيمة، وقد رافق ذلك موسم سيئ للغاية فأدرك مزالي أنه لا يستطيع أن يحكم بالكلمات فقط وإنما هو يحتاج إلى أفعال. أقنع بورقيبة حين كانت وسيلة لا تزال إلى جانبه، بأن حزب الدستور يستطيع أن يحكم بهدوء دون أن تكون إلى جانبه النقابات وكذلك دون أن تكون للبلاد علاقات جوار ممتازة ولا سيما مع ليبيا. وفي الخامس من آب/أغسطس ١٩٨٠، فتحت مفاوضات مع القيادة الشرعية لاتحاد الشغل وقد تخلى بورقيبة تدريجياً عن شروطه التي تختصر في عدم إشراك عاشور في المسؤولية لأنه «عنيد ومزدوج» حسب رأيه. أطلق سراح جميع السجناء ثم أحضر ابن الزعيم النقابي فرحات

حشاد (نور الدين حشاد) ليعلب دور الوفاق بين القيادة الشرعية وبين من كانوا يوصفون «بالمظليين»[٢]. ظلّ عاشور يترصد فرصته، وفي الـ٢٧ من آذار/مارس ١٩٨١، قدم ترشيحه من جديد للمكتب التنفيذي لاتحاد النقابات. غضب بورقيبة واستدعى وزيره الأول ليقول له: «إن عاشور ممنوع من العودة»، لكن مزالي الذي وجد نفسه بين الحبيبين الخصمين اللدودين حائراً، استعان «بنور الدين حشاد» وبآخرين مثل وسيلة لزرع الأمل في بورقيبة. بعد شهر فقط رأى بورقيبة أن يدعو إلى مؤتمر استثنائي للحزب ثم استدعى مجموعة من رجاله فقال لهم أمام مزالي: «أريد من المؤتمر أن يكون استثنائياً بحقّ». كان الحاضرون وهم إلى جانب مزالي: الصادق بن جمعة والمازري شقير والطاهر بلخوجة والباجي قايد السبسي ومنصور معلّى والمنجي الكعلي وبشير زرق العيون، قد اتفقوا على أن يقنعوا بورقيبة بافتتاح عهد جديد وإعلان نهاية عهد الحزب الواحد. كانت الفكرة مثيرة ومخيفة، أعجبت بورقيبة، فأمر الشاذلي القليبي (وكان آنذاك الأمين العام للجامعة العربية) بتحرير خطاب جديد لافتتاح مؤتمر الحزب الاستثنائي، ولكن بورقيبة الذي وعد وزراءه بذلك سرعان ما استعاد وعيه حين اختلى بنفسه. وهكذا ترك الخطاب الذي كتبه القليبي ليرتجل خطاباً آخر لم يفصح خلاله بوضوح عن مسار الديموقراطية، لكنه ترك الباب نصف مفتوح للديموقراطيين.

أصبح الكلام عن التعددية مسموحاً به. بل ذهب البعض إلى أن بورقيبة قد يستقيل كما فعل صديقه السنغالي «سنغور» أو صديقه الكاميروني «أحمد أهيدجو». بدا أن مزالي تغلب على بعض الصعاب، لكن بورقيبة ما زال يجد صعوبة في القبول بزعماء آخرين يحتلون الساحة في عهده حتى وإن كانوا أقل منه إثارة وأهمية. ثم فجأة كشف النقاب عن مفاوضات بين بورقيبة وأمين عام الحزب الشيوعي محمد حرمل في قصر سقانس بالمنستير. كان بورقيبة المعادي للشيوعية على نحو غرائزي يريد من تلك المفاوضات أن تحدث التوازن في الساحة السياسية، فالشيوعيون الذين هم ليسوا باليساريين المتطرفين يمكن أن يشكلوا جداراً ضدّ المدّ الأصولي وكذلك المد القومي بشقية البعثي والناصري. كانت الديموقراطية تبدو وكأنها خيار لا رجعة فيه حتى وإن كانت مناورة سياسية. وفي تلك المعمعة كان التيار الإسلامي يدعم صفوفه ويزداد قوة. فسحر الثورة الإيرانية قد حطّ بجناحيه على فئات كثيرة من شعب ظلّ مطعوناً في إسلامه وعروبته، ثم إن التهميش وفشل الأفكار الليبرالية ومناورات السياسيين الآخرين واستغراق اليسار في الأيديولوجيا، قد قاد الشباب إلى أن يتسلح بالإسلام لمحاربة الدولة الشيطانية التي يتزعمها كافر[٣]!.

في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨١، خاضت تونس أول تجربة ألوان (انتخابات ملونة). تقدم الشيوعيون والمستقلون والديموقراطيون و«البن صالحيون» المنشقون إلى أول انتخابات تشريعية. كان الأمل يسبقهم نحو البرلمان لاحتلال مقاعد نظيفة، غير أن بورقيبة خيّب ظنهم على نحو لم يصدقه إلا الذين امتنعوا عن الإفراط في الحماس أو التورط في المهزلة. فقد استدعى بورقيبة وزير داخليته آنذاك «إدريس قيقة» قبل ليلة من الانتخابات وطلب منه «أن تكون الصناديق كلها ملأى بالدستوريين»[٤]. وهكذا لم ينجح أحد في تلك الانتخابات، فحتى أحمد المستيري ذلك المعارض الشهير، ابن المرسى الليبرالي وابن الدستور المنشق لم يحصل على الأصوات التي تؤهله للدخول إلى البرلمان. فبورقيبة لا يمكن أن ينسى له «خيانته» حتى يكرمه بمقعد نظيف. أصيبت المعارضة بالذهول. أما وسيلة زوجة الرئيس، ومزالي رئيس وزرائه فقد شعرا بالإهانة. فبالرغم من أن أغلب أعضاء الحكومة (من مزالي إلى بلخوجة ومن السبسي إلى قيقة) كانوا على استعداد لفتح برلمانهم لبعض المعارضين، إلا أن بورقيبة رفض ذلك رفضاً مطلقاً إذ أراد أن يخنق كل شيء في المهد. بالنسبة إلى مزالي كان الأمر بمثابة الفضيحة، لأنه خسر الرهان بسرعة. أما بالنسبة إلى قيقة وزير الداخلية القوي والذي اعترف أمام بعض زملائه بأنه لم يكن إلا منفذاً لسياسة القصر، فقد شرع في تخطيط مستقبله بعيداً عن مزالي. وربما كان، حسب عضهم لا يريد منذ البداية النجاح لمزالي بأي شكل من الأشكال.

* * *

بدت اللعبة السياسية في الداخل سخيفة في أحيان كثيرة للماجدة وسيلة بورقيبة. ولأنها لم تنجح في جرّ الأمبراطور إلى حديقة الديموقراطية! فها هي تحاول أن تجره مرة أخرى إلى المتاهة العربية!.

فمنذ ما يقرب من ثلاث سنوات، كانت وسيلة هي المشرفة تقريباً على مطبخ الدبلوماسية التونسية. لقد عادت لتضع ملفات الجزائر وليبيا تحت إبطيها. ثم مدت أيديها إلى دول المشرق. ومن خلال صداقات طويلة مع بعض الفلسطينيين، ولا سيما أبو إياد وخالد الحسن وعصام السرطاوي، تمكنت وسيلة أن تشكل «رؤية مشرقية». أما دول الخليج فقد عرفتها وسيلة من خلال زيارات متعددة للكويت والسعودية. كان الباجي قائد السبسي وزير الخارجية لا يشعر بأية مزاحمة، بل كان يساعدها على الاطلاع على جميع الملفات. نجحت في استرجاع النسخة الأصلية من «بيان جربة الوحدوي» من يد القذافي ثم نجحت

في نسج علاقة جيدة مع الجزائر. بعد ذلك تهيأت جيداً لتجعل من بلادها ملجأ للقيادة الفلسطينية.

كان الفلسطينيون قد وضعوا في الزاوية أثناء حصار بيروت في صيف ١٩٨٢، وبعد مفاوضات مضنية، قرروا الخروج من بيروت استجابة للشروط الإسرائيلية وكذلك استجابة للحركة الوطنية اللبنانية التي قاتلت بشجاعة مع الفلسطينيين ثم ما لبثت أن عادت إلى رشدها في لحظة ضعف قاسية جداً. أعدت لوائح الذين عليهم مغادرة بيروت ثم قسمت إلى عدة أصناف. منهم من كان عليه أن يذهب إلى الخرطوم، ومنهم من قبل الذهاب إلى اليمن، ولكن المحظوظين منهم سجلوا أسماءهم على لائحة تونس. ويمكن القول إن الأمر لم يكن بتلك البساطة. فلولا موافقة كل من واشنطن وفرنسا ما كان لتونس أن تقبل باستضافة المسلحين الفلسطينيين حتى ولو كانوا منهوكي القوى ومنزوعي السلاح. لعبت وسيلة دوراً بارزاً في إقناع بورقيبة الذي لا يحب «المشرق وخلافاته» بأن تنتقل القيادة الفلسطينية إلى بلاده التي أصبحت مقراً للجامعة العربية منذ ١٩٧٩. بدت تلك الاستضافة لهؤلاء المحاربين الغلابي لبورقيبة بمثابة اعتراف بحكمته وسياسته. فهو الذي اقترح عليهم طريق المفاوضات مبكراً ومنذ العام ١٩٦٥ لأنهم لم يكونوا قادرين على الحرب في ظل الأوضاع الدولية. وها هم الآن يأتون إليه بقيادتهم، باحثين عن ملجأ أو نصيحة أو استراحة أو لحظة صفاء ريثما يعيدون ترتيب أفكارهم وأولوياتهم. وهكذا كان على بورقيبة أن يذهب بنفسه في الـ٢٨ من آب/أغسطس ١٩٨٢ إلى ميناء بنزرت لاستقبال الباخرة التي تقلّ عرفات مع حوالي ألف من رجاله. تمكنت تونس من استيعاب أولئك المحاربين. وأدرك الفلسطينيون أن تونس ليست بيروت ثانية، فهي قد تكون في قبضة رجال مختلفين ومتقاتلين، ولكنها خالية من الأحزاب والطوائف والقبائل والنزعات المتطرفة، ولأن أبو عمار لم يكن على استعداد ليعيد إنتاج «مهزلتي» عمّان وبيروت، فقد استمع جيداً إلى عقله وراح يعمل بصمت باتجاه الأراضي المحتلة وانتفاضة الحجارة!!.

أصبح وجود منظمة التحرير في تونس ورقة مهمة في يد تونس. إنها قد تكون ورقة حارقة، ولكنها إذا عرفت تونس كيف تحافظ عليها، فهي ورقة رابحة. لم يضعف وجود الفلسطينيين منتوج السياحة في تونس، بل أضاف إليها مداخيل جيدة إذ أن إنفاق المنظمة كان يزيد على الـ٤٠ مليون دولار شهرياً. بالإضافة إلى ذلك فإن كلاً من الجزائر وليبيا قد قررتا تحسين العلاقة مع تونس لتبقى كل منهما على اتصال «بالقضية الكبرى» للعرب. وتبعاً لذلك فقد تحسنت العلاقات مع طرابلس كما تحسنت العلاقات مع الجزائر، ولكن

هذين البلدين اللذين يتعقبان بعضهما بعضاً ويتنافسان في الخفاء والعلانية على «ودّ» تونس، سوف يصطدمان ببعضهما بعضاً بسبب ذلك «الودّ الكاذب». فحين وقّع الرئيس بن جديد «اتفاق الإخاء والوفاق»(٥) مع تونس في آذار/مارس ١٩٨٣، ذهب القذافي إلى الرباط لينهي قطيعة دامت ١٤ عاماً، ويوقّع مع الحسن الثاني «معاهدة وجدة» التي أنتجت «الاتحاد العربي والإفريقي». كان لا بد أن يتقابل ذانك الحليفان المتناقضان. فالجزائر الاشتراكية والعسكرية قد تحالفت مع تونس البورقيبية والرجعية، أما العقيد الثوري والعروبي فقد تحالف مع الملك الرجعي، الحسن الثاني. كان واضحاً أن المغرب العربي ينزلق نحو سياسة المحاور بعدما حلم أبناؤه طويلاً بالوحدة، لكن لا أحد كان يعتقد بأن تلك السياسة تحمل أكثر من ردود الفعل البائسة، حتى إن هناك من وصفها بأنها كانت سياسة «الأحياء الشعبية» أو «سياسة النساء الثرثارات». إنها فعلاً كانت وفي جزء كبير منها من صنع امرأة كفّت أن تتسلى بالتطريز كما يفعل زميلاتها، وراحت تتسلى بالرجال والمصائر!.

* * *

وفيما استغرقت وسيلة في الدبلوماسية، كان الوزير الأول، خليفة بورقيبة الدستوري قد شرع في تلميع صورته استعداداً ليوم الخلافة الذي إما أن يصنعه له القدر أو يصنعه بيديه. بدا وكأنه في سباق مع القدر حتى لا يصنع له الآخرون «رحيلاً لائقاً» كما صنعوا لغيره من قبل. أصبح رجلاً يعرف كيف يكشف عن أنيابه وفي الوقت نفسه يعرف كيف يصافح أعداءه. تعلّم من بورقيبة أشياء كثيرة منها الاستغراق في الخطابة ومعاملة الوزراء بشيء من القسوة واللعب على مخاطبة الأحاسيس. أعطى لأصدقائه هوامش واسعة للعمل والحركة وألمح لجيرانه بأنه الرجل الأقوى بعد بورقيبة، وكشف لليبراليين أنه يناصر تيار التعددية. أما النقابيون والإسلاميون فقد راح يمدّ خيوطه نحوهم في السرّ أكثر مما في العلن، لكنه لم يكن يعرف أن الآخرين يتعقبون خطواته لوضع قدميه في الفخ ذات يوم.

انطلقت فكرة الفخ من وزارة المالية. فقد طرح «منصور معلّى» زيادة معتدلة في الأسعار، ولا سيما في أسعار الخبز والمواد الأساسية المدعومة من صندوق الدعم الحكومي. حاول مزالي أن يعترض على تلك الزيادات لأن الشعب لا يتحمل أكثر مما يتحمله ولأن النقابات ستجد فرصة في تلك الزيادة لإثارة الغبار في وجهه، ولكن معلّى أصرّ على ذلك وقال «إن العجز كبير وإنه لا يستطيع أن يستمر في مثل هذه الطريق». ذهب مزالي إلى بورقيبة وقال له إنه لا يستطيع أن يحكم مع وزير مالية «قاس إلى هذه الدرجة». استقال «معلّى» ثم

استقال وزير الإعلام «الطاهر بلخوجة». وإذ شعر مزالي بأنه ازداد قوة، فإن وسيلة ستنضم إلى أعدائه لأنه لم يتوقف عن مطاردة رجالها ثم لأنه لم يفهم شروط التحالف بينه وبينها.

عاد «عبد العزيز الأصرم» وزير الاقتصاد إلى الزيادة في أسعار الخبز، فبدا أن الخبز قد أصبح قضية في قصر قرطاج وقصر القصبة. وحين رأى مزالي أن بورقيبة مال أخيراً إلى رأي وزرائه التكنوقراط، أصبح أكثر عدوانية. استقال الأصرم من الوزارة وترك لبورقيبة تقدير الموقف. وبعد أخذ وردّ، اختار بورقيبة الوقوف ضد وزيره الأول وحدّد تاريخ الزيادة في أسعار الخبز في ٣١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٣.

ولأن الخبز هو المادة الأساسية لغذاء أغلبية الشعب التونسي، وقد تضاعف سعره بدعوى أن مجمع النقابات في العاصمة يتلقى يومياً نصف كمية الخبز التي يشتريها التونسيون، فإن أولئك الذين يشعرون بالحرمان وقد أعياهم الانتظار على الأرصفة وأمام المكاتب بحثاً عن عمل، سوف يهجمون على الذين يتمادون في تجاهلهم وتهميشهم قبل موعد زيادة الأسعار بيوم واحد. ففي ليلة الـ٢٩ من كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٣ انطلقت الشرارة من الجنوب الأكثر تضرراً وتهميشاً. وهكذا طالت رجة الخبز جميع المدن التونسية إلى أن بلغت العاصمة. اضطر بورقيبة إلى العودة من بلدة «قصر هلال» حيث ذهب ليحتفل بالذكرى الـ٥٠ لميلاد الحزب الدستوري الحاكم. وفيما كانت «جمهوريته» تشتعل، وقّع على قرار إعلان حالة الطوارئ، ثم أمر الجيش بالتدخل بعد أن عجز البوليس والقوات المضادة للشغب عن السيطرة على الوضع. أنهى الجيش المعركة لصالحه كما في كانون الثاني/يناير ١٩٧٨ بحصيلة كبيرة من الموتى والجرحى. وتراجع بورقيبة عن تلك الزيادات في خطاب تلفزيوني يوم ٦ كانون الثاني/يناير. وإذ راح الناس يعدون الضحايا والمساجين، راح وزراء بورقيبة يلقون باللوم على بعضهم بعضاً. لقد لعب كل من وزير الداخلية «إدريس قيقة» ومدير الأمن «أحمد بنور» دوراً بارزاً في إقناع بورقيبة بالتراجع عن تلك الزيادة الملغومة. وقال بنور لرئيسه: «الآن وقد دلّلت الدولة على قدرتها وتماسكها، فإنه يمكن التراجع عن هذه الزيادة دون الشعور بالضعف»[٦]. ساعد «بنور» في ذلك وسيلة التي كانت تدفع باتجاه تعميق الخلاف بين مزالي ووزارة الداخلية. اتهم مزالي الوزير «قيقة» بأنه كان يتفرج من نافذة مكتبه بوزارة الداخلية على المظاهرات والحرائق بكثير من اللامبالاة، ثم اتهمه وبنور «بأنهما دسّا رجالهما السريين في المظاهرات لإشعال المدينة ومهاجمة الوزارة الأولى وإطلاق الشعارات المعادية له». وعند ذلك الحدّ تجرأ قيقة على أن يفعل ما سوف يعتبره مزالي بأنه «محاولة انقلاب» ضده. أرسل قيقة رئيس الحرس الوطني

«عامر غديرة» إلى الوزير الأول مزالي يطالبه بالاستقالة الفورية. وفي السابع من كانون الثاني/يناير، ذهب مزالي إلى بورقيبة ولم يخرج إلاّ حين حصل على إقالة قيقة[٧].

كانت حصيلة ذلك الشوط الساخن كالتالي: خسرت وسيلة معركتها الثانية مع مزالي كما خسرت كثيراً من رجالها في الحكومة وعلى رأسهم إدريس قيقة الذي كان يبدو لها كبديل يحظى بكل مواصفات الزعامة والخلافة والاستقامة والثقافة. أما مزالي الذي ربما خسر عطف الشارع، فقد ربح ثقة بورقيبة وكسب وزارة الداخلية التي أصبحت تحت إشرافه المباشر، كما كسب تأييد المعارضة الليبرالية والإسلامية التي كانت ترى فيه أقل رجال بورقيبة ضرراً حتى وإن كان أكثر تملّقاً وطمعاً في الخلافة!.

* * *

أعطى بورقيبة دفعة قوية لوزيره الأول وجعله يحلّق في السماء منتظراً أن ينزل مع حظه في ساحة قصر قرطاج! لكنه في الوقت نفسه أضعف اقتصاد بلاده. فمنذ كارثة نظام التعاضديات في الستينيات، لم تعرف تونس مثل تلك المآزق الاقتصادية التي عرفتها في عهد مزالي. لقد نضب الاحتياطي النقدي ولم يعد يوجد في البنك المركزي ما يكفي لأكثر من ١٥ يوماً من الواردات. جال مزالي في عدة بلدان خليجية بحثاً عن عروض أو ودائع أو حتى هبات، ولكنه كان يعود دوماً خالي الوفاض. وقد قيل له في السعودية كلام غامض ظل يقلّبه ولم يفهم مغزاه إلا حين ساعده الحسن الثاني على فك طلاسمه قائلاً له: وهو يستقبله أثناء قمة فاس الإسلامية: «إن الجميع يريدونك أن تنقذ بلادك من العمّ بورقيبة، إذا كنت تريد أن تنقذ اقتصاد بلادك»[٨]. ولأنه أصبح يتربع على وزارة الداخلية، فقد راح يشكل ميليشات خاصة به للاعتماد عليها ساعة الحسم. قلب الكثير من السيناريوات النظيفة والوسخة، ولكنه لم يجد الوقت لتنفيذ إحداها، إذ فجأة بدأت جسور العلاقات مع طرابلس تتهاوى. ففي خلال زيارة بورقيبة لواشنطن في حزيران/يونيو ١٩٨٥، قال «ريغان» الذي كان يعد ضربة للقذافي: «إن تونس مستهدفة من ليبيا، ويمكن لأصدقائنا أن يعتمدوا علينا». وما قاله ريغان لبورقيبة أعاده على «الشاذلي بن جديد» فيما بعد في واشنطن. غضب القذافي من تونس والجزائر إذ أحسّ أنهما يتآمران عليه في ظروف صعبة تمرّ بها الثورة الليبية إذ بدت محاصرة من كل جانب، ثم أمر بطرد حوالى ٣٠ ألفاً من العمال التونسيين من بلاده بدعوى «أن ليبيا تمرّ بأزمة اقتصادية». وهكذا عادت الإذاعات تشتم من كل صوب. وأقفلت الحدود من الجانبين وبدا أن طرابلس قد اختارت الردّ على بورقيبة بليّ ذراع مزالي.

بعد ذلك بفترة صغيرة، اندلعت الاحتجاجات من داخل النقابات ضد سياسة مزالي الاقتصادية. حاول مزالي أن يستفيد من عملية طرد العمال من ليبيا، ولكن حين تغضب طرابلس والنقابات فإن أية حكومة في تونس حتى وإن كانت قوية لا بد أن يصيبها الذعر. تمكن مزالي من استيعاب غضب القذافي وأقنعه عن طريق وسطاء، بأنه «عروبي» مثله ولا بد من إعطائه فرصة لكي يتحقق القذافي بنفسه من ذلك. وبعد أن فكك ما كان يمكن أن يكون تحالفاً موضوعياً بين طرابلس والنقابات، اتجه مزالي لمعاقبة الحبيب عاشور. لقد قرر وبمساعدة بورقيبة أن يقوم بعملية جراحية يخلص فيها النقابات من «الورم العاشوري الخبيث». وصف مزالي عاشور بـ«الورم الخبيث»، لكن عاشور رد على ذلك بأن ما يفعله مزالي بالعمال لا يفعله حتى البيض بالسود في جنوب إفريقيا! فُتحت الملفات على آخرها ثم بسطت الحكومة يديها على كامل ممتلكات الاتحاد، بعد ذلك حكم على «عاشور» بسنتي سجن، ولكن في الوقت الذي كان فيه مزالي يشكر ربّه وهو يرفع رأسه نحو السماء لأنه تغلّب على عاشور، رأى طائرات عسكرية إسرائيلية تخترق أجواء بلاده وهي متجهة إلى ضاحية «حمام الشط» لتقصف أحد المعسكرات الفلسطينية انتقاماً من عملية قام بها رجال المقاومة في قبرص راح ضحيتها ثلاثة من عناصر الموساد.

اختلط الدم الفلسطيني بالدم التونسي مثلما اختلط الدم الجزائري بالدم التونسي في ساقية سيدي يوسف عام ١٩٥٨. ثم نطقت الإحصائيات فأعطت أكثر من ٧٠ قتيلاً بينهم عدد كبير من المدنيين التونسيين.

لم يكن أحد يتوقع أن تمتد الذراع الإسرائيلية إلى تونس. فهذا البلد بالإضافة إلى كونه بعيداً عن الجبهات الساخنة ومعتدلاً في سياسته، فهو يعتقد «بأنه صديق مبجل لدى واشنطن».

كان أبو عمار يردّد فيما مضى باستمرار «أن ما يتمناه أن تكون العلاقة الفلسطينية/اللبنانية على منوال ما كانت عليه العلاقة بين الشعبين الجزائري والتونسي»، ولكن حين حدث ذلك، كان عليه أن يتحسس عقاله ومسدسه لأن وجوده في تونس لم يكن محل ترحاب من جميع وزراء بورقيبة. حاول البعض أن يدق إسفيناً بين أبو عمار وبورقيبة، ولكن وسيلة لعبت بأقصى جهدها لكن تهدأ الخواطر. أرسل بورقيبة وزير خارجيته القايد السبسي إلى نيويورك لتقديم شكوى ضد العربدة الإسرائيلية وأوصاه بأن يكون واضحاً وحاسماً، ثم أرسل ابنه الحبيب الابن إلى واشنطن ليلتقي بصديقه «مكنمارا» وزير الدفاع الأميركي

الأسبق في محاولة لتبليغ «ريغان» «بأن تونس غاضبة وأن بورقيبة سيقطع علاقته مع واشنطن لو أن المندوب الأميركي رفع الفيتو ضد التنديد بإسرائيل في مجلس الأمن».

غاب المندوب الأميركي أثناء مناقشة قرار التنديد بإسرائيل. وهكذا قام ريغان بحفظ ماء وجهه ووجه بورقيبة الذي أحس بالإهانة. كان بورقيبة يعتقد جازماً أن إسرائيل ما كانت لتقصف تونس لو لم تحصل على «موافقة» واشنطن. ولذلك فقد راح يراجع مسلماته. فواشنطن ليست صديقة لأي نظام عربي مهما كان معتدلاً. كما أن «القوة هي خيار إسرائيل الأبدي وإن كل بحث عن السلام هو بحث عن الأوهام»[٩].

برر مزالي تهاون جيشه ومخابراته على نحو أحمق، وقال للصحافة وكأنه رجل يتحدث في مقهى شعبي لا رجل دولة تعرضت لعدوان خارجي، «إن القوة الإسرائيلية تشبه سيارة مرسيدس، أما قوة تونس فهي بمثابة سيارة رينو قديمة». ربما ضحك البعض على تلك المقارنة السمجة، لكن الأغلبية قد سخرت من رجل دولة فقد «ثقافته الفلسفية» في لحظة هزال.

في تلك اللحظة أحسّ مزالي أن الجميع يتآمرون عليه بما في ذلك إسرائيل. فالقدر لم يقم بواجبه حين قام بورقيبة من موت محدق بعد إصابته بنوبة قلبية. ووزراؤه بدأوا ينسحبون الواحد تلو الآخر باتجاه التقاعد أو باتجاه المعارضة. ووسيلة ازدادت شراسة حين رأته يحث الخطى نحو وراثة بورقيبة. أما الرجل الوحيد الذي ظل إلى جانبه فهو محمد الصياح، الرجل القوي والمحبوب من بورقيبة، فقد رأى فيه مزالي خصماً محتملاً أكثر مما رأى فيه حليفاً قوياً. كان كل شيء يتداعى من حوله. فحتى «سعيدة ساسي» ابنة أخت الرئيس التي اختارت أن تتحالف معه ضد زوجة خالها (وسيلة) لم تكن لتثق في قدراته أو مبادراته فمدت خيوطها نحو رجال آخرين أكثر حسماً!.

* * *

استطاع «قصر سقانس» في المنستير هذه المرة أن يسرق الأضواء من قصر قرطاج في تونس العاصمة. وقد ساعده على ذلك شاطئ هذه المدينة الذي يحلو لبورقيبة أن يسبح فيه مع كل صيف. في صباح الثامن من تموز/يوليو شعر بورقيبة أن صحته تؤهله لكي يرأس اجتماعاً مع أهم معاونيه للبحث في حالة اقتصاد البلاد التي تبعث على القلق منذ أن أطلعه وزير اقتصاده «رشيد صفر» على الخزينة العامة من العملات الصعبة، وهو رقم يبلغ حوالى (٥٠ مليون فرنك) أي ما يعادل ثمن باخرة متوسطة الحجم من القمح فقط.

بدأ هذا الاجتماع الذي طغت عليه الانتقادات غير المألوفة لرئيس الوزراء محمد مزالي، بمناقشة إمكانية إعادة جدولة ديون البلاد المقدرة آنذاك بنحو ٥ مليارات دولار بالإضافة إلى الفوائد المترتبة عليها، فقال «إسماعيل خليل» وزير التخطيط «إن ذلك يتطلب جهداً كبيراً لإقناع البنوك والمؤسسات المالية، عن طريق أصدقاء لنا يتمتعون بمصداقية». وتكلم محمد السخيري، المدير العام للبنك المركزي، فأضاف مسحة درامية على القاعة التي كانت ترتجف حيناً لهيبة بورقيبة الذي كان يستمع بصمت غير عادي وحيناً للهواء المختلط برائحة البحر الذي يتسرب لاعباً بستائر النوافذ، فقال «إن ثقة البنوك الدولية أصبحت معدومة في سياستنا الاقتصادية وإن ذلك يتطلب قراراً مصيرياً».

لم يفصح محمد السخيري عما يقصد بالقرار المصيري، لكن منصور السخيري، مدير الديوان الرئاسي الذي كان يسجل ملاحظاته على ورق أزرق، تذكر ما دار من حديث أمس بينه وبين الرئيس بورقيبة، ورفع رأسه قليلاً ليجد وزير الداخلية «بن علي» غارقاً في صمته، لكنه مستعد لكي يدلي برأيه حين يأتي دوره في الكلام.

كانوا جميعاً قد قالوا ما كان يكفي لكي يجعل بورقيبة يؤمن مرة أخرى أن الإصلاح قائم على القوة وأخذ المبادرة المناسبة في الوقت المناسب. خمستهم: رشيد صفر وزير الاقتصاد حتى ذلك الصباح، إسماعيل خليل وزير التخطيط، محمد السخيري مدير البنك المركزي وبن علي وزير الداخلية ومنصور السخيري مدير الديوان الرئاسي قد ودّعوا بورقيبة حين دخلت ابنة أخته سعيدة ساسي لتخبرهم «أن الرئيس في انتظارهم على الغداء».

انضمت سعيدة ساسي التي أصبحت خبيرة بشؤون القصرين (قرطاج وسقانس) منذ أن غادرتهما الزوجة وسيلة، إلى مائدة الغداء. وحرصت جداً على أن تظل صامتة حتى لا يذهب كلامها إلى التأويل. كان الحديث عاماً وقد تخللته بعض النكات عن «المساجين الجدد» من رؤساء بنوك وشركات أمر بورقيبة بتوقيفهم، فسأل بورقيبة عن عددهم وأوضاعهم، فقال بن علي «إنهم يتصرفون كرؤساء ومديرين في السجن». ضحك السخيري وهو يمسح بعض حبات العرق عن صلعته وكأنه يتذكر الرقم الحقيقي ثم قال «لم يصل الرقم بعد إلى المائة يا سيادة الرئيس»(١٠).

استغرق الغداء حوالى ساعة ونصف، بعدها ودع بورقيبة ضيوفه ودخل إلى غرفة نومه لتمضية قيلولته كالعادة، فيما أخذ الوزراء طريقهم نحو العاصمة لمواصلة يوم عملهم. كانوا يعرفون أن قراراً خطيراً على وشك أن يوقعه بورقيبة لكن لا أحد تجرأ على التفكير بصوت عال.

عند السادسة إلاّ ربعاً، ركضت السيدة سعيدة ساسي نحو المراسل الرئاسي لوكالة تونس إفريقيا للأنباء (الوكالة الرسمية) ثم عادت وهي ترافقه، بسرعة، نحو مكتب الرئيس الذي استيقظ من القيلولة. كانت الكلمات تخرج بسهولة وبقسوة أيضاً من فم بورقيبة، لكن المراسل لم يتجرأ على رفع رأسه، فقد كتب ما أملي عليه: إنه بيان مقتضب يتكون من أربعة أسطر أنهى حياة مزالي السياسية، وقد بدأ مباشرة «أقال الرئيس.. محمد مزالي من مهامه كوزير أول وكأمين عام للحزب».

بعد دقائق نزلت البرقية على جميع مكاتب الوكالة المحلية والخارجية. غير أن مزالي لم يجد من يبلغه بذلك غير صوت الإذاعة الذي ردّد الخبر على وتيرة عادية جداً لم تستدع أي براعة صوتية من المذيع.

حين تم تعيينه رئيساً للوزراء، قبل نحو ست سنوات على إثر «عملية قفصة» التي أقعدت الهادي نويرة، رجل السبعينيات القوي إلى الأبد، بدا مزالي ذلك الذي جاء من الفراغ وكأنه العدّاء الذي وصل مبكراً، لكن ما كان يدعو البعض إلى الخوف أن هذا الرجل لم يكن واضحاً ما إذا كان قادراً على إدارة اللعبة السياسية في بلد يعيش فورة سياسية أوحت لكثيرين أنهم أصبحوا زعماء سياسيين!.

وبقليل من الحظ مع قليل من الجهد و«البراءة الأولى» اضمحل ذلك الخوف شيئاً فشيئاً عن مزالي نفسه وعن أولئك الذين راهنوا عليه حين رشحه بورقيبة لخلافته. ورغم أن الكثيرين قد قالوا منذ اللحظة الأولى إن الوصول إلى القمة (الخلافة) هو ذاته الوصول إلى النهاية، كما حصل للباهي الأدغم (أول رئيس وزراء) وللهادي نويرة من بعده، إلاّ أن حسابات السياسة في تونس حيث تتداخل مع حسابات القدر، كثيراً ما تشحن أحصنة السباق بالأمل!

* * *

جاء مزالي من رحم أزمة عاشتها تونس نظاماً وحزباً لمدة عقد كامل توج بعملية عنيفة في مدينة «قفصة» التي ظلت دائماً مثار أتعاب للدولة المركزية في الساحل. فقد جاء هذا الرجل المحب للغة والبلاغة كإمكانية حلّ وليس كحلّ نهائي لهذه الأزمة. وهذا هو الانطباع الذي ارتسم في المخيلة الشعبية وهي تستعرض شريط السنوات الماضية.

ورغم أن مجيء مزالي قد أخرج الناس من جمود كان يطغى على نويرة كشخص ومنهج،

إلا أن ذهاب هذا الرجل قد حطم في أحد جوانبه سياج الثقة الذي كان يحمي رجال الأعمال والاستثمارات والبنوك.

كان على مزالي أن يواجه كل الأتعاب دفعة واحدة: الحزب الذي أصبح يحتاج إلى إعادة بناء، الجيش الذي اعتاد الخروج إلى الشارع، الأمن الذي تحطمت أسطورته حين لم يستطع إجهاض عملية قفصة ولا إحباط الهجوم الإسرائيلي، الاقتصاد الذي دخل إلى غرفة العناية الفائقة والنقابات الهائجة التي تحتاج إلى ترويض (كما قال بورقيبة). غير أن قوة الأمر الواقع كانت أقوى من نوايا أي رجل، وتلك هي الفجوة التي تحدث في كل مرة يطمح فيها بلد من العالم الثالث إلى الخروج للهواء الطلق.

تصرف مزالي وكأنه رئيس حكومة لمدى السنين العشر المقبلة. وهو الوقت نفسه الذي أمضاه نويرة على رأس الحكومة، وأمضاه الباهي الأدغم قبله، وهو يدرك أنه إذا كانت الستينيات قد خصصت لبناء القاعدة التحتانية لدولة ما بعد الاستقلال، والسبعينيات قد أخذت على عاتقها البناء المؤسساتي، فإن الثمانينيات عليها أن تبني القاعدة التعددية لهذه الدولة، ففي خلال ثلاثين سنة تغير كل شيء في تونس من الأجيال إلى الرجال إلى العقليات إلى العلاقات إلى الهموم والأحزان، لكن ثمة شيئاً واحداً لم يتغير وهو الأشخاص ومعتقداتهم!.

ليس من الخطأ القول إن مزالي قد دخل إلى خشبة مسرح، وهذا الدخول إلى جمهور متعدد ومتنوع ومتحفز قد أعطاه قوة هي قوة المفاجأة، لكن حين ذهبت المفاجأة، كان على هذا الرجل أن يبرهن لمن ينتظره أنه رجل من نوع آخر، وهو أمر كان يتطلب جهداً خارقاً من الميكيافيلية السياسية لا يمتلكه مزالي فكانت أن تحولت الكوميديا التي أراد أن يكون بطلها إلى دراما إغريقية كان هو ضحيتها.

* * *

كانت وسيلة بورقيبة قد خرجت من «عيادة التوفيق» بتونس العاصمة التي دخلتها حين تصاعدت درجات مرض السكري الذي تعانيه منذ سنوات. ورغم أن الشائعات كانت تملأ البيوت والمقاهي في ذلك الوقت من أن طلاقها قد أصبح وشيكاً، إلا أن بورقيبة كان يحرص يومياً على زيارتها والجلوس إلى جانبها بعض الوقت، بيد أن ذلك كلّه كان يشير إلى أن الشائعات كثيراً ما تعبر عن حقيقة ما.

وحين غادرت عيادة التوفيق، لم تذهب وسيلة إلى قصر قرطاج، وإنما اختارت البقاء في

بيت ابنتها نبيلة، ثم بعد أيام جاءت إلى بورقيبة تطلب منه السماح لها بمغادرة تونس لبعض الوقت. في هذه المرة كان كل شيء تقريباً يوحي بأن هذه السفرة ستطول وربما تحوّلت إلى منفى. وسألها بورقيبة:

ـ هل هو اختيارك؟

فقالت بهدوء: «إنني أحتاج إلى علاج مكثف بين باريس وواشنطن».

ـ «لكنك تلقيت علاجاً كافياً هنا في تونس؟».

فردت وسيلة: «الطبيب نصحني بالتوجه إلى واشنطن أو إلى باريس».

ـ «لكنني أراك متوترة رغم هدوئك»، قال بورقيبة.

ـ ربما، ألا تسمع ما يشاع على ألسنة الجميع؟

وحاول بورقيبة أن يصمت، لكن لسانه تحرك ليقول:

ـ لأنني لم أعد أريد من حولي أناسا يدافعون عن السراق.

واندفع الكلام من فم وسيلة كالشلال فقالت: إن كنت تقصدني، فأنا لا أدافع إلاّ عن هيبتك وهيبة الدولة. وإن كنت تقصد بعض أقاربي، فإني أجد نفسي مضطرة للدفاع عن كرامتي.

هنا نهض بورقيبة من مقعده بصعوبة ثم قال:

ـ يمكنك أن تسافري، فقد قررت أن أطهر هذه البلاد من الفساد حتى لا يقال بعد موتي إنني بنيت بلاداً فاسدة. وقبل أن يشير إليها بالخروج عاد إلى هدوئه وقال:

ـ يمكنك أن تمري على «سي منصور» (رئيس الديوان منصور السخيري)، فقد أمرته بصرف ألف دينار لك. ثم تابع يقول:

ـ لقد هاتفت سي الهادي في باريس (السفير الهادي مبروك)، وهو سوف يستقبلك في المطار[11].

عندها أيقنت وسيلة أن بورقيبة هو الذي يريد منها في هذه المرة أن تغادر تونس، وقلبت أفكارها فلم تتأكد ما إذا كان بورقيبة يستعد للطلاق منها أو يستعد لتغيرات سياسية في البلاد لا يريد أن يقال إنها تمت بتأثير من وسيلة أو أنه كان يستعد لتطهير الإدارة التونسية من بعض رجالها وأقربائها. لكنها شعرت وهي التي عاشت إلى جانبه عدة امتحانات

صعبة أن الرجل بدا وكأنه قد استيقظت بداخله حركة وعي جديدة انبعثت فجأة من سنوات الثلاثين والأربعين، سنوات النقاوة الوطنية أيام كان يركب حصانه الأبيض ويلبس طربوشه الأحمر ثم ينطلق إلى داخل البلاد داعياً، خطيباً، مصلحاً وقائداً.

وغادرت وسيلة تونس إلى باريس. لم تجد حتى الوقت الكافي لترتيب أعمالها وأموالها أو لنصيحة أعوانها وأقربائها. لكنها أخبرت شقيقها المنذر بن عمار ورئيس بلدية المرسى أن «الرئيس لم يعد يرغب في بقائي في القصر. وأعتقد أن هناك من يريد أن يحل محلّي». في ذلك الوقت بدا مزالي رئيس الوزراء السابق، وكأنه المنتصر الأكبر من مغادرة السيدة وسيلة البلاد، لكنه لم يكن يعلم كغيره، أن حركة التطهير ستنال منه مثلما نالت من أكبر خصومه: وسيلة. فالسجن استقبل زوج ابنة مزالي كما استقبل زوج ابنة وسيلة، إلى جانب عدد من الرجال النافذين المحسوبين على الخصمين: مزالي ووسيلة، كما غادر الوزارة بعض الوزراء المحسوبين على هذا الطرف أو ذاك، وبدا واضحاً للعيان أن هناك غرفة عمليات في قصر قرطاج هي بمثابة وزارة فوق الوزارة أو مستشارية للرئاسة قد شرعت في تنفيذ خطة تطهير سوف لن تلبث أن تطيح رأس الوزارة نفسه مزالي وتأتي برأس جديد هو رشيد صفر، وإلى حين فقط.

إن بورقيبة قد يمهل رجاله ووزراءه وقتاً طويلاً، لكنه لا يهملهم أبداً عندما يتخذون من زعامته شجرة يستظلون تحتها حيناً ويعبثون بأغصانها أحياناً أخرى.

* * *

«إنها ضربة قاسية لسمعة تونس، إنه شيء محزن». هكذا علقت وسيلة بنت عمار وهي في باريس حين بلغها نبأ هروب مزالي رئيس وزراء تونس السابق[١٢]، بيد أن هناك من علّق قائلاً «لقد التحق بها إلى المنفى». فسيدة قرطاج السابقة كانت على عداوة شديدة مع رئيس الوزارء السابق رغم أنها فضّلته لهذا المنصب في العام ١٩٨٠، على محمد الصياح مدير الحزب الدستوري سابقاً.

كان الهادي نويرة قد أصيب بشلل نصفي على إثر حوادث قفصة، وكان على بورقيبة أن يبحث عن خليفة لرئيس وزرائه الذي نقل إلى المستشفى. الترسانة كانت مليئة بالأسماء لكنها كانت تخلو من اسم لامع يقنع بورقيبة أولاً ثم الشارع. فبعضهم ذهب إلى التقاعد والبعض الآخر انتقل إلى المنفى ولم يبق إلاّ بضعة رجال من الصف الثاني الذين انهمكوا في سياسات غير شعبية. حين حاول بورقيبة أن يرسم أمامه بعض الأسماء على ورقة ليختار

من بينها الاسم المناسب لمرحلة بدت معقدة ومتشابكة وتتطلب رجلاً من مذاق آخر، لم يجد غير محمد الصياح مدير الحزب السابق، وهو رجل عرف بصراحته وصرامته وميله إلى حكم الحزب الواحد، ثم محمد مزالي، وقد كان إلى ذلك الوقت لم يدخل إلى كواليس لعبة الحكم من أبوابها الواسعة، وإنما كان يطل عليها من حين إلى آخر عبر نوافذ وزارات ثانوية. كان كل من الصياح ومزالي شخصيتين متناقضتين، الأول حزبي صلب وديناميكي. والثاني وزير مرن، وكل ما كان يجمعهما لدى بورقيبة أنهما ينتميان إلى منطقة واحدة هي الساحل وإلى جيل واحد يؤمن برسالة بورقيبة، لذلك تردد هذا الأخير كثيراً قبل أن يختار الصياح.

كانت وسيلة قد شعرت أن بورقيبة قد تردد في اختيار الصياح، ولأنها تفضل مزالي على الصياح، فقد كان عليها أن تستغل ذلك التردد إلى أقصى حد. وحين رفع بورقيبة السماعة ليطلب الصياح للحضور إلى القصر، ذهبت وسيلة إلى غرفتها بدورها تطلب مزالي للحضور أيضاً إلى القصر. وقبل أن يصل كل منهما إلى قرطاج كانت وسيلة قد أقنعت بورقيبة باختيار مزالي لأنه أكثر مرونة وأكبر سنّاً. والأهم من ذلك فهو أكثر تعاطفاً مع المثقفين والجيل الجديد من الصياح!.

وأمام وسيلة، خاطب بورقيبة ضيفيه مزالي والصياح قائلاً: «فكرت في تعيين الصياح منسقاً للحكومة، لكني عرفت أنه لا يزال شاباً وأن الفرص لاتزال أمامه كثيرة، وعلى هذا قررت تعيين مزالي على رأس الوزارة، وإني أطلب من الأخ الصياح أن يساعده في مهامه الجديدة فثقتي فيه كبيرة»(١٣).

هل كان مزالي أكثر مرونة وأكبر سناً وأكثر خبرة من الصياح أم كان أكثر ضعفاً وأقل شجاعة وأكثر ميلاً إلى شؤون أخرى من السياسة؟. الأرجح أن وسيلة التي عرفت الصياح كرجل قوي ويختزن طموحات كبيرة لتولي السلطة ذات يوم في تونس، أدركت أن اختيارها لمزالي سيمكنها من مواصلة توجهها للعبة الحكم في تونس. لم تكن بين مزالي ووسيلة أية علاقة وطيدة إذ لم يكن من رجالها في أي يوم من الأيام، لكنه كان دائماً يوحي لها بأنه قابل للتوجيه والاستعمال ويملك قدراً من التهذيب والطاعة.

ومزالي الذي أصبح رئيساً للوزراء لم يقض وقتاً طويلاً حتى أدرك أن ذلك الاختيار كان يرتكز على العداء الذي يجمعه بوسيلة تجاه الصياح المتشدد والمعارض لأي انفتاح مهما كان نوعه، ولذلك كان عليه أن يخطو خطواته الأولى نحو هذه الغابة من الألاعيب بحذر شديد. فمن جهة كان حريصاً على سماع وسيلة، ومن أخرى كان حريصاً في كل

مناسبة على التذكير بثقة الرئيس التي منحها له. والذين كانوا يعرفون بتلك العلاقة التي بدأت جدية وانتهت سيئة بين وسيلة ومزالي يذكرون إلى اليوم «أن مزالي لا ينكر عليها دورها في إطلاق سراح المساجين النقابيين حزيران/يونيو ١٩٨٠ وكذلك دورها في رفع المنع عن الحزب الشيوعي في حزيران/يونيو ١٩٨١ وكذلك دورها في الاعتراف بحزبين معارضين في خريف ١٩٨٣ هما «حركة الديموقراطيين الاشتراكيين» و«حركة الوحدة الشعبية».

لكن وسيلة التي كانت دائماً تحمل بين ضلوعها شعوراً قوياً بعقدة الذنب من أحمد بن صالح زعيم تجربة التعاونيات الذي أطاحته وهو في أوج صعوده في أواخر الستينيات لم تتقدم خطوة واحدة نحو تحسين علاقتها بتيار بن صالح، حتى عادت لتقود انشقاقاً داخل هذا التيار وهي تدرك أن جماعة «بن صالح» إذا ما تمكنت ذات يوم من العودة إلى السلطة والنفوذ فإنها ستكون أولى ضحاياها. وهكذا راحت تعمل على خطوط عديدة.

* * *

نحن الآن في آذار/مارس ١٩٨٦. بورقيبة الابن استكان إلى الصمت بعدما تعب من مشاهدة قصر أبيه وقد تحول إلى بيت لصناعة الحكايات الشعبية. الحبيب عاشور دخل إلى السجن وهو يقول في نفسه «السجن وحده ينقذني من هذه المهازل». مزالي بدأ يدرك أن الفصول الأكثر كثافة في صراعه من أجل الفوز بالخلافة قد أوشكت على أن تقول أسرارها. علالة العويتي ذهب إلى بيته وفي قلبه غصة لأن الرجل الذي حماه لمدة أربعين سنة لم يقدر على حمايته لحظة واحدة. سعيدة ساسي جلبت حقائبها وغادرت زوجها (حسن ساسي ٧١ سنة) لترتب بيت خالها الرئيس الذي فقد الثقة في رجال أنهكهم الصراع لوراثته وهو حيّ. أما وسيلة تلك الحبيبة والزوجة والممرضة والمستشارة فقد كان عليها أن تغادر القصر وتونس، وهي تقول بحسرة «كنت أشعر منذ أربع سنوات بأنني لم أعد مرغوبة، وقد فضلت أن أرضى بكل التسويات لأبقى في القصر إلى جانب زوجي، لكن ذلك كان مستحيلاً. وإنه لأمر محزن»(١٤).

بعد خمسة أشهر فقط، وفي شهر تموز/يوليو تقدم بورقيبة بطلب طلاق إلى المحكمة حسب البند ١٠ من مجلة الأحوال الشخصية. ولأن القانون يقضي بتعليق طلب الطلاق في قصر العدالة بتونس وبمبنى الولاية، فقد علمت وسيلة بأن بورقيبة أصبح يطلب الطلاق فعلاً وكلف محاميه بمتابعة ذلك. وحاولت وسيلة أن تتصل ببورقيبة من واشنطن هاتفياً في محاولة لدفعه إلى التراجع فأجابها بقوة: «أنا على أحسن ما يرام، أما أنت فلا أعلم».

في اليوم الذي حدد كموعد للجلسة الأولى، وهي جلسة وفاق تقترحها المحكمة كما ينص قانون مجلة الأحوال الشخصية، بين الزوجين، غابت وسيلة، فكان على المحكمة أن تعلن الطلاق لأنها لم تتلق حتى مجرد رسالة من الزوجة الغائبة.

أعلن الطلاق في المحكمة يوم ١١ آب/أغسطس ليصبح نافذ المفعول يوم ١٢ آب/أغسطس حسب البند رقم ٣١ من فصل «الزواج والطلاق». هذه السرعة التي تم بها أكبر طلاق في تاريخ تونس الحديثة التي تتمتع بأكثر القوانين علمانية في ما يتعلق بالأحوال الشخصية في العالم منذ العام ١٩٥٦ قد لا يكون سببها الوحيد أن الرئيس هو أحد أطراف هذه القضية، وإنما لأن الطرف الآخر وهو الزوجة وسيلة كانت غائبة، حتى أن الزوج قد طالب بطلاقها لأنها غادرت بيت الزوجية منذ فترة خمسة شهور ولم تعد بينما الفرصة التي تمنحها المحكمة يجب أن لا تزيد على ثلاثة أشهر بالنسبة للطرفين. لقد كان بورقيبة يعرف جيداً قانون بلاده الذي صاغه بنفسه، بالإضافة إلى ذلك فهو في الأصل محام، ولذلك فإنه قد يكون قرر الطلاق منذ أن سمح لها بمغادرة البلاد ولم يطلب عودتها قبل أن يمرّ على غيابها ثلاثة أشهر.

كان من حق وسيلة أن تعترض على «الطلاق» الذي استخدم فيه بورقيبة مراوغته السياسية، لتستأنف ذلك الحكم خصوصاً أن الوقت كان يسمح لها إلى ١٠ أيلول/سبتمبر، لكنها لم تفعل ذلك. لماذا؟ قد تكون أصيبت بخيبة أمل في الرجل الذي أعجبت به منذ صباها. وقد لا تريد ان تبدو في وضع من يطلب العفو والشفقة، ولكن السبب الرئيسي أن بورقيبة قد أغلق عليها ذلك الباب حين طلب من محاميه بشير خنتوش، زوج نجاة خنتوش (غريمتها في القصر) أن يسجل الطلاق بسبب «تدخلها في شؤون الدولة وتورطها في قضايا تحويل الأموال إلى الخارج وتأثيرها على سير أجهزة الدولة».

كانت ترتدي جلابية خضراء حين استقبلت مراسلة «اللوموند» بعد بضعة أسابيع من طلاقها في الشقة التي تسكنها بباريس، وقد تكلمت قليلاً وبحذر كبير فبدت أنها تعاني صدمة، لكنها لم تفقد الأمل حتى تلك اللحظة في عطف الرجل الذي أحبها. فقالت: «لا تنوي القيام بأي نشاط ضد بلادها وهي تنتظر حالياً جواز سفرها الجديد». ثم دافعت عن نفسها فقالت إنها لم تمارس «أيّ نشاط أخلّ باحترام الدستور» ولم تنس الإشارة إلى أن علاقتها بالرئيس ظلت طيبة وأنه لا يحق لها الكلام عنه بعد ٤٠ سنة من الحياة المشتركة «فهو رمز تونس وأحب أن يبقى كذلك، فلقد احترمته دائماً، ولذلك فإني أرفض أي كلام عنه. كما أرفض أن أسيء إلى سمعة بلادي»[١٥].

إن صورة الصبية التي كانت تبلغ من العمر ١٥ سنة فقط حين أحبها بورقيبة وأحبته من أول نظرة وهو ينادى عليها قائلاً: «إن النساء لا يحتجبن أمام الأطباء والزعماء» ربما هي التي سيطرت على وسيلة حين وجدت نفسها وحيدة في شقتها بالمنفى إلى جانب رجال طالما خاصمتهم أو احتضنتهم ثم ما لبثوا أن تساقطوا الواحد تلو الآخر. وكان آخرهم مزالي[١٦].

الهوامش:

(١) المجلة الأدبية التي كان يديرها مزالي هي مجلة **«الفكر»** التي ظلت تصدر لأكثر من عقدين، توقفت حين أُقيل مزالي من الوزارة.

(٢) «المظليون» Les parachutistes، هم الذين هبطوا من السماء أي بقرار من السلطة ليتولوا قيادة اتحاد النقابات. وقد اعتبروا غير شرعيين.

(٣) التيار الإسلامي في تونس هو أقل تطرفاً من غيره في بلدان عربية أخرى. وقد كان بعض زعمائه يصمون دولة بورقيبة «بدولة الشيطان» أو «دولة الكفر».

(٤) لا ينفي إدريس قيقة ذلك. وقد تحدث للمؤلف كيف أن بورقيبة أمره بتزييف الانتخابات قائلاً له: «سي إدريس، يجب ألاّ تصدق أن الشعب التونسي ناضج للديموقراطية». **أحاديث مع المؤلف**، باريس، ١٩٨٧.

(٥) اتفاق الإخاء والوفاق بين تونس والجزائر كان من وحي وسيلة وتنفيذ مزالي. لم يفهم هذان الحليفان اللذان سيدمران بعضهما بعضاً فيما بعد أن ذلك الاتفاق سيجعل تونس في خصام مع ليبيا والمغرب. لقد كان مزالي يميل نحو الجزائر ويحاول كسبها في معركته للخلافة، لأنه لم يكن محبوباً لدى الليبيين والمغاربة. وسيتأكد ذلك حين يهرب إلى الجزائر بعد طرده من الحكومة.

(٦) شهادة أحمد بنور، **أحاديث مع المؤلف**، باريس ١٩٨٨.

(٧) فيما ينفي قيقة تلك الحادثة نفياً قاطعاً، فإن مزالي يؤكدها تأكيداً صارماً وهو يعتقد أن قيقة حاول تنحيته ليتولى رئاسة الوزارة، لكن بورقيبة وقف إلى جانبه، شهادات قيقة ومزالي للمؤلف، باريس ١٩٨٦ - ١٩٨٧.

(٨) روى ذلك مزالي للمؤلف عام ١٩٨٧ بعدما أصبح لاجئاً في باريس وقد قال «أن السعوديين أوحوا له بفكرة انقلاب على بورقيبة، لكنه لم يفهم ذلك إلاّ حين سأل الحسن الثاني فيما بعد». وقال أيضاً «أن الخزينة كانت مفلسة وقد امتنع الخليجيون على المساعدة لأنهم كانوا يعتقدون أن تونس تحتاج لرحل حديد لكي يستعيد الاقتصاد عافيته». قال مزالي أيضاً: «بعد اللقاء بالحسن الثاني شعرت أن هناك من كان ينتظر مزالي ليتولى زمام الأمور».

(٩) قال ذلك بورقيبة لوزرائه تحت تأثير الصدمة وقد روى ذلك مزالي بنفسه للمؤلف - باريس - ٨٦.

(١٠) أمر بورقيبة بحملة تطهير ضد الفساد. وقد طلب من مدير ديوانه منصور السخيري أن يسحن أكثر من مئة من مديري الشركات والبنوك المرتشين والفاسدين. وقد طالت تلك الحملة أسماء كثيرة من بينهم توفيق الترحمان صهر زوجة الرئيس بورقيبة.

(١١) هذا الحوار تم نشره في مجلة فرنسية شهرية، **مانسيوال**، أواخر ١٩٨٦

أنظر كتاب **«الحمّى ٤٢»** للمؤلف، دار نقوش عربية تونس ١٩٩٥.

(١٢) من حديث أدلت به وسيلة بن عمار لصحيفة **«لوموند»** الفرنسية أواخر ١٩٨٦.

(١٣) شهادة الصياح للمؤلف ـ تونس ١٩٩٣.

(١٤)و(١٥) من حديث أدلت به وسيلة بن عمار لصحيفة لوموند الفرنسية تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٦.

(١٦) فسّر مزالي عداء وسيلة له بأنه لم يكن يلبّي لها رغباتها وطلباتها ثم قال «لقد خرجت من الوزارة لأن روحتي لم تكن فاسدة» في إشارة إلى أن وسيلة كانت تنظم حفلات فسق في قصر قرطاج تحضرنها زوجات الوزراء!. ـ من حديث مع المؤلف، باريس عام ١٩٨٦

سنوات الحطام:

حقيقة ما تبقى من الساعات: صفر

«قريباً سينتهي كلّ شيء. آه.. العار هو أيضاً له نهاية. الأيام التي تسير بنا إلى المقابر ستنتهي. لم يبق إلاّ هذا الحجر بين أيدينا فلنرمه وينتهي كلّ شيء».

«كليف باركر»

قصّة «الوداع»

من عادة الشرق، وكلّنا في الهمّ شرق، أن نستقبل الحاكم القادم بالهتاف والأضاحي، وأن نشيّع الحاكم الراحل بالحزن والأسف، بيد أن هذه «القاعدة» لم تثبت صحتها ولو مرة واحدة في دولة بورقيبة. كان ذهاب مزالي بارداً وشبيهاً بذهاب الذين سبقوه بدون حزن وبلا أسف، فيما بدا قدوم الوزير الأول الجديد «رشيد صفر» وكأنه لا يستحق أية عناية. الهتافات كلّها الصاخبة منها والمبحوحة كانت للرجل ـ الأسطورة، حارس الغابة وحطّابها: بورقيبة.

فرغم بلوغه آنذاك ٨٦ سنة إلاّ أنه كشف أنه لايزال قادراً على تغذية كآبة بلاده بالمفاجآت والقرارات الكبرى. فهو يعتقد دائماً بأن الدبلوماسية التي لا قلب لها هي التي تصغي في أحيان كثيرة إلى العقل.

هكذا إذن بدت تونس التي عاشت في عهد مزالي لمدة ٦ سنوات على غوغائية النفط وجعجعة الخطابة وكأنها قد عادت متلهفة إلى دوغمائية الأرقام التي عرفتها مع نويرة. فرشيد صفر الذي جاء كخليفة لمزالي وبدا وكأن الحظ قد لفّه بضحكاته المتعالية والماكرة، كثيراً ما كان يوصف بأنه رجل محبّ للأرقام والحسابات ويميل إلى الطرق البسيطة وغير المعقدة التي يتبعها السياسيون العاديون حين يواجهون كارثة خالية من العواطف. أما مزالي الذي خسر الرهان دفعة واحدة، فقد رحل مع حزن لم يعرف مصدره، لكنه مدموغ ببرهان على أن ما حصل له كان لا بدّ أن يحصل منذ ما عرف بانتفاضة الخبز في العام ١٩٨٤.

عاش مزالي سنتين مع وقف التنفيذ. وهكذا، ما كان سيقع في ١٩٨٤ وقع في العام ١٩٨٦. فبورقيبة حين أقال مزالي لم يفعل سوى أن أخرج من درج مكتبه قراراً قديماً. فمزالي الذي كان يعتقد أن تأييد بورقيبة يكفيه لكي يهزم جميع أعدائه، فاته أن يدرك أن بورقيبة قد تحوّل إلى تمساح لا يتردّد أبداً في أكل أبنائه حين يستبدّ به الغضب أو الجوع.

لقد استطاع في السنة الثانية من توليه للوزارة أن يتغلب على مصاعب كثيرة منها: تنظيف بعض الجيوب المحيطة بحي القصبة وإبعاد رموز جماعة الصيّاح، رجل الحزب القوي ثم الدخول في معركة مع رموز ما يسمّى ببورجوازية العاصمة. وتم ذلك بالتعاون مع رجال تربطهم به علاقات خاصة، الأمر الذي جعله في لحظة ما يعتقد أنه يقبض على المفاتيح الكبرى للبلاد. لكنه ما إن شرع في فتح الأبواب المقفلة، حتى اكتشف أن حراس تلك البيوت قد نهضوا من غفوتهم. وسرت جلبة ما بين الوزارات وقصر قرطاج تخلّلتها جلبة أخرى بين أروقة النقابات، كانت كافية لكي تبعث في جسد بورقيبة حيوية مكّنته من أن يسحب قرار الإقالة من الدرج ويضعه أمامه على الطاولة، في انتظار اللحظة المناسبة.

لقد أعطى بورقيبة ثقته ذات مرة للباهي الأدغم. ظلّ هذا الأخير لمدة ١٥ سنة بمثابة الرجل الثاني كخليفة وكرئيس حكومة. وقد قال عنه بورقيبة «إنه من النوع الجدي الذي يحظى بثقتي المطلقة، لكن ما لا أحبه فيه هو التواضع». وسواء كان ضعف الأدغم هو في تواضعه أو في طموح ذلك الوزير الذي سيطر على ثلث وزارته، أحمد بن صالح، فإن بورقيبة سحب منه كل شيء في لحظة غضب.

وجاء الهادي نويرة ليحوز كل ثقة بورقيبة، فسلّمه الوزارة والحزب والخلافة، لكن أحداث قفصة كشفت له أن قوة هذا الرجل لم تكن إلاّ قوة وهمية. فقد سقط عند أول اختبار وبدا أنه هشّ إلى درجة كشف فيها عن مدى هشاشة دولته حين سارع إلى استدعاء البحرية الفرنسية للتدخل لإنقاذ تونس من مجموعة صغيرة من الفتية الغاضبين!.

وها هو بورقيبة يمنح ثقته مرة ثالثة لمزالي في نيسان ١٩٨٠ حين عيّنه وزيراً أول، ثم في ١٩٨٢ حين عيّنه خليفة له في حالة غيابه أو موته، غير أن تلك المرة لم يكن مقدّراً لها أن تكون الأخيرة. فرشيد صفر الذي عيّن مؤخراً كخلف لمزالي لم تلحقه نعمة بورقيبة ليصبح خليفة له رسميا. فلمصلحة من سيلعب القدر يا ترى منذ تلك اللحظة؟!

كان رشيد صفر قد تعوّد رؤية بورقيبة منذ أن دخل إلى الوزارة لأول مرة في عهد نويرة سنة ١٩٧٧، وبفضل خبرته في قراءة خطوط الوجه أصبح يعرف تقريباً ما يعتمل داخل

من يجلس بالقرب منه، لكنه كان دائماً صامتاً ولا يتكلم إلاّ بمقدار بسيط حتى أن بورقيبة قد قال له في إحدى المرات مازحاً «هل الصمت هو الذي يجعلك أكثر نشاطاً».

تلك الجملة رنت في رأس رشيد صفر، وهو يستعد لمداخلته في قصر «سقانس» بالمنستير في الثامن من تموز/يوليو عام ١٩٨٦، لكنه حين انتهى من الكلام التقت عيونه بعيون بورقيبة فأدرك أنه حاز الإعجاب الذي ما كان ليكتمل لدى بورقيبة لولا تلك الفصاحة التي كشف عنها حينها. فرئيس وزراء في بلد مثل تونس عليه أن يكون خطيباً فصيحاً ليقنع الناس ويصارع المنافسين.

كان بعيداً عن صراعات المناصب، وقد رفض أن يكون مع طرف ضد طرف آخر، حتى أن الرئيس بورقيبة كثيراً ما أشار لوزيره الأول السابق مزالي «بأن وزراءه غارقون في حروب مع القدر فيما عدا رشيد صفر».

تلميحات كثيرة سمعها مزالي عن وزيره صفر، ولو أنه حللها ووضعها في مستوى الملاحظات لأيقن أن «صفر» هو الذي أصبح منافسه الكبير، وليس الحبيب عاشور الذي تسبب له في السجن. حتى وسيلة بورقيبة قالت له مرة إنها «ليست رجلاً لكي تخلفه في الوزارة، وعليه أن ينظر إلى من يحاربونه بالصمت»، لكن مزالي لم يكن ليصدق ذلك. وحين سمع بورقيبة يقول له في المؤتمر العام للحزب «أنت عضدي الأيمن في الماضي والحاضر، في الحكومة والحزب»، لم يتساءل مزالي عن كلمة «المستقبل» التي لم ينطق بها بورقيبة، وإنما راح يتصرف وكأن المؤتمر قد عقد من أجل تجديد البيعة له.

إن «صفر» الذي وصل إلى قلب بورقيبة من قناة الصمت قد يكون التقى في منتصف الطريق مع مزالي وهو خارج من قلب بورقيبة من قناة الثرثرة. مع ذلك فقد كان مزالي آخر من يعلم لأنه يتكلم كثيراً ولا يستمع إلى أحد.

* * *

استثناءات كثيرة تحكم تونس. منها أنها الجمهورية المدنية الوحيدة في العالم العربي (معظم الجمهوريات الأخرى صنعها الجيش) ومنها أن الانقلابات أو التمردات كانت دائماً تنطلق من وزارة الداخلية وليس من وزارة الدفاع، ومنها أيضاً أنها تعيش تحت مؤسسة حزبية متجددة عمرها الآن أكثر من ثلاثة أرباع القرن. لكن أكثرها إثارة تلك الملاحظة التي أصبحت في مستوى العادة، وهي أن بورقيبة هو الذي يقود انقلاباته ضد حكوماته حين يتأكد أن هذه الحكومات باتت بدون شعبية.

لقد ذهب بن صالح الذي كان يوصف «بأنه عبقري لا يوجد منه اثنان في تونس»، إلى السجن ومنه إلى المنفى. ثم أعقبه الباهي الأدغم إلى النسيان، وبعده غادر نويرة الوزارة على كرسي هزاز. وأخيراً ها هو مزالي يذهب بلا أسف دون أن يترك أي فراغ كما كان يعتقد. فبورقيبة هو الرجل الحديدي الوحيد في البلاد، أما الآخرون فواحد من طين وآخر من عجين.

نتيجة لذلك يخطئ من يعتقد أن حكومة القصبة هي التي تمسك بأصول اللعبة السياسية الكبرى في تونس. ففوق هذه الحكومة ثمة حكومة أخرى غير مرئية هي حكومة قصر قرطاج التي تحيط بالرئيس بورقيبة. وما بين الحكومتين كان دائماً ثمة من يقوم بدور التنسيق.

هذا الأمر لم يتضح إلا مع تعيين رشيد صفر على رأس الحكومة. في السابق كان الأمر لا يلاحظ بالعين المجردة حتى لأولئك الذين يقتربون من مدفأة الرئيس. فمنذ رحيل السيدة وسيلة من القصر تبين أن هناك من يقوم بدورها على أكمل وجه. إن سعيدة ساسي التي حظيت بعطف خاص من خالها الرئيس، تمكنت في مدة قصيرة أن تحسم العديد من القضايا بالتعاون مع رجل القصر القوي الآخر منصور السخيري وذلك بالتعاون مع بورقيبة الابن (ابن خالها).

وإذا كان رشيد صفر بدا وكأنه اختيار الصدفة للعديد من المراقبين، فالحقيقة أن عدة مقاييس قد توافرت في هذا الرجل قبل أن يطرح اسمه على اللائحة. منها أنه خبير في الاقتصاد الذي يحتاج إلى معالجة دقيقة. ومنها أيضاً أنه يقع فوق الصراعات، ومنها أنه بلا مطامح كبيرة. وقبل ذلك فهو رجل من خارج «المنستير» بحيث لن يتمكن من تقسيم صفها في محاولة لبناء قاعدته ضمن لعبة المحاور التي ستدخل لا محالة مرحلة أخرى أكثر ضراوة. فكلما تقدمت السن ببورقيبة، كلما ازدادت الصراعات حدّة.

ليس من المؤكد أن ما انسحب على مزالي سوف ينسحب على رشيد صفر، فهذا الأخير قد عُيّن كوزير أول وكأمين عام للحزب، لكنه لم يعين كخليفة لبورقيبة، وهذا ما يؤكد أن ملف الخلافة أصبح من اختصاص حكومة القصر. وحسب هذه الحكومة التي تحتفظ بـ«واسطة تنسيق مهمة» والأحرى «بضابط اتصال» حثيث الخطى هو زين العابدين بن علي وزير الداخلية سوف لن تجد الوقت الكافي لكي تنظر في هذا الملف، الأمر الذي يفتح هذه الخلافة مجدداً وعلى نحو مغاير لما جرت عليه العادة سابقاً.

* * *

ولأن مزالي قد عرف أخيراً أن بورقيبة أصبح تمساحاً حقيقياً، فإنه كان عليه أن يهرب بجلده. ففي ٣ أيلول/سبتمبر ١٩٨٦، ارتدى مزالي بلوزة زرقاء كما يفعل تجار الأسواق الشعبية ووضع شنباً اصطناعياً على شاربه وطربوشاً على رأسه ثم اتجه إلى الحدود الجزائرية برفقة اثنين من أصدقائه. وصل إلى الأرض الجزائرية ليلاً. وروى أنه بعد أن اجتاز الحدود، سقط في حفرة فأصيب بجروح طفيفة في رجله ورأسه. وبعد أن ساعده رفيقاه على النهوض، تناهى إلى سمعهم أصوات غناء، فقصدوا المكان، فإذا بهم وسط عرس لأحد أغنياء تلك المنطقة الحدودية. وكان من بين الحضور رجال من الدولة الجزائرية سرعان ما تعرفوا إلى مزالي الذي سيحتفل به كعريس ثان ثم سينقل فوراً إلى مدينة «عنابة» حيث سيستقل الطائرة في صباح الغد إلى العاصمة الجزائرية[1].

أضاف مزالي: «حين وصلت إلى الجزائر، شعرت بأن الدولة كلها أكرمتني». التقى بالشريف مساعدية ـ مدير حزب جبهة التحرير ثم بالرئيس بن جديد نفسه، وقد طلبا منه أن يكون الأمر سرياً، في اليوم الثاني، سيتلقى مزالي مساعدة مالية وعدة بدلات جديدة وتذكرة سفر إلى جنيف التي سيصلها إلى يوم ٧ أيلول/سبتمبر. حار وزير الداخلية (بن علي) كيف سيخبر بورقيبة بهروب مزالي. لكن بورقيبة قال حين عرف بذلك: «لقد فعل ما يناسبه. الآن لقد حكم على نفسه بالموت. إنه سمكة خارج الماء»[2]. حاول مزالي أن يجمع حلفاءه ويعمل ضد حكومة رشيد صفر من الخارج، لكن ذلك بدا له وكأنه بلا جدوى فراح يكتب الرسالة تلو الأخرى لرشيد صفر مهدداً بكشف «عورات الجميع، إذا ما تعرضت عائلته للتنكيل»[3]. بعد مدة من إقامته في الخارج كتب رسالة مفتوحة إلى بورقيبة في شكل كتاب صدر باللغة الفرنسية[4]، أفرغ فيها ما في جعبته ثم استكان إلى الصمت ومشاغل الحياة اليومية.

كان بورقيبة قد أصبح مجرد شبح في قصر قرطاج، لكن كان شبحاً مخيفاً. خرجت وسيلة من القصر ولم تعد إليه. وقد احتلت السيدة نجاة خنتوش سرير وسيلة فيما احتلت ابنة أخته «سعيدة ساسي» مكتبها ومركز اتصالاتها. وفيما ظلت نجاة كعشيقة لرجل لا يعرف الحبّ، أصبحت سعيدة مديرة أولى لأعمال رئيس لا يمتهن الرئاسة. إنها امرأة عادية جداً، لم تدخل إلى المدرسة أبداً، تعلمت الكثير من الكلمات الفرنسية عن طريق السماع. فقد رافقت خالها طويلاً منذ أن كانت مراهقة. كانت تذهب إليه في المنفى بقبلي (الجنوب) وكذلك في جزيرة جالطة إلى حدّ وجد فيه من يقول «إن الخال كان على علاقة

محرمة مع ابنة أخته». وقد تمكنت من طرد بنت بن عمار من القصر. فقد أصبحت الناطقة الرسمية باسم خالها المريض والممرضة والحاضنة[٥].

إلى جانب سعيدة ساسي، كان هناك ذلك الرجل الغامض منصور السخيري الذي احتل منصب علالة العويتي (مدير ديوان الرئاسة لأكثر من ربع قرن وسكرتير بورقيبة لأكثر من نصف قرن). تمكن منصور السخيري ابن مدينة بورقيبة «المنستير» من الاستحواذ على روح بورقيبة وهي في أوج قلقها منذ أن كان محافظاً لولاية المنستير. فهو الذي أشرف على بناء مقبرة الرئيس. ومن هناك انتقل إلى قصر قرطاج ليصبح حارسه الأول. عرف كيف يتحالف مع سعيدة ورشيد صفر ليبقى في مكانه. إنه لا يتقن غير إرضاء بورقيبة بتغذية «أناه» المنتفخة ثم محاربة كل الذين ساعدوه على الوصول إلى جانب بورقيبة. وكان أول ضحاياه: مزالي.

إن السخيري ليس هو المستيري الوحيد الذي أصبح أحد رجال بورقيبة الضاربين في الأرض بعصاه. بل إن الهادي مبروك، ابن أحد «قياد»[٦] فرنسا وسفير تونس السابق في باريس، قد أصبح هو الآخر أحد المتنفذين من خلال وزارة الخارجية. فبعد ١٣ عاماً قضاها في سفارة باريس، عاد لتسند إليه الخارجية. فالهادي المبروك المعروف بشطارته في التجارة وفن المساومات استطاع أخيراً أن يقترب من بورقيبة أكثر بمساعدة سعيدة ساسي وصديقه محمود بلحسين.

ورغم خفة دمه، فإن المبروك عاش دوماً متهماً، شأنه شأن محمود بلحسين، بالعمالة لفرنسا. فهو قد دخل إلى العمل كسكرتير خاص لوزير الفلاحة في عهد الاحتلال «الجنرال سعد الله» الذي زوّجه ابنته. ظل طوال حياته يمسك بالورقة الفرنسية وقد استطاع أن يقنع الطرفين أنه مفيد لهما. اقترب في البداية من أحمد بن صالح ثم من وسيلة ثم من مزالي وأخيراً ها هو إلى جانب بورقيبة، لكن برتبة مستشار رسميّ لسعيدة ساسي، غير أن نجمه الذي سطع بسرعة ما لبث أن اختفى من سماء السلطة، بمجرد أن بدأ رشيد صفر يستعدّ للرحيل.

كانت تلك الحاشية الرئاسية تضم أيضاً محمود بلحسين، وهو «قائد» سابق في العهد الفرنسي. لم يكن هذا الأخير يملك إلا موهبة واحدة هي قدرته الجيدة على نطق الحروف الفرنسية إذ كان يقرأ الصحف لبورقيبة كل صباح. ومع ذلك فقد أصبح هو الآخر يحلق عالياً وهو يحلم بما كان يحلم به السخيري أو المبروك أو الطبيب عمر الشاذلي. فهذا الأخير كان هو المشرف الخاص على صحة بورقيبة. ورغم أنه جرّب المناصب السياسية

حين عين كوزير للتربية وفشل فشلاً ذريعاً، إلا أنه كان يعتقد بأن الوزارة الأولى قد تكشف عن مواهبه. ومع بلحسين وعمر الشاذلي، كان هناك أيضاً السيد بشير خنتوش زوج المحظية «نجاة» وهو المحامي الذي قام بتطليق وسيلة ثم أصبح ينتمي إلى نادي قرطاج وهو يمسك ببعض ملفات الذين وضعوا على القائمة السوداء.

لم يقدر ذلك النادي المستيري على إخفاء ضعفه وتكالبه فقط، بل كشف كذلك عن ضعف بورقيبة وغيابه عن الوعي. أما الوزير الأول رشيد صفر الذي حاول أن يرفع من وتيرة العمل والأداء الاقتصادي فلم يجد أمامه إلا صنفين من الرجال، الأول لا يحب أن يتعاون معه. والثاني لا يهتم إلا بسيد قرطاج المريض. كانت البلاد تتجه نحو الأسوأ. وكان الشعب يشعر باليتم والضياع. وفيما كانت الوعود الديموقراطية تتراجع، كان التيار الإسلامي ينشر شبكاته مرة بالمناورة وأخرى بالتحدي والاختبار لموازين القوى. لقد عاش بورقيبة دئما مذعوراً من نزعتين إذا تمكنت إحداهما من البلاد، فإنها ستذهب بها نحو الكارثة حسب رأيه. النزعة الأولى، هي العروبة التي لطالما حاربها وقاتلها بقسوة، من سنة إلى أخرى ومن خلال رمز إلى آخر. والثانية، هي الإسلام الذي لطالما تحداه وتحدى رجاله منذ أن أغلق جامعة الزيتونة وحث الناس على الإفطار في رمضان. وكما كان عداء بورقيبة للعروبة والإسلام غرائزياً ولا يستند إلى أي منطق في كثير من الأحيان سوى حبه للظهور بمظهر رجل الحداثة الأول في تونس على منوال أتاتورك في تركيا، كذلك كان التيار الإسلامي يحمل عداء عاماً للدولة التونسية وآخر خاصاً لبورقيبة الشخص. ولما كان عليه أن يواجه أولئك الذين يتحدونه شخصياً في عقر داره بالقنابل والمظاهرات والشعارات، فقد قرر أن تكون آخر معاركه الكبرى هي تلك التي سيقودها ضد التيار الإسلامي دون أن يعرف أن تلك الطريق التي اختارها ستؤدي به هو الآخر إلى خارج القصر.

* * *

اختار بورقيبة زين العابدين بن علي لتلك المعركة. فمنذ نيسان/أبريل ١٩٨٦ سيصبح مدير الأمن وزيراً للداخلية. فهو يعتبر كأحد الخبراء المثاليين للمهمات الصعبة حسب بورقيبة. كانت مهمة بن علي هذه المرة أكثر من صعبة. فهو أمام نهايتين. فإما أن يضرب بشراسة وعمى حسب أهواء بورقيبة المرضية، فيُعرف كجزّار لتونس، وأما أن يعصي الأوامر فيخسر مركزه وربما نفسه. كان الاختيار صعباً بالنسبة إلى بن علي الذي تربى على النظام، خصوصاً أنه يدرك أن كل من دخل إلى الداخلية إما أن يذهب إلى التقاعد أو المنفى أو

السجن. وبما أنه ليس من المدنيين وربما هو الوحيد الذي يحمل لقباً عسكرياً، فإن بورقيبة سوف لن يرسله إلى بيته وإنما قد يرسله إلى المشنقة حين يغضب عليه!.

أخذ بن علي تلك «المهمة القاتلة» على عاتقه وسار إلى الأمام وهو يقلب بدائله ليجعل منها مهمّة إنقاذية للبلاد. كان الشارع يغلي كالمرجل، وكان القصر قد تحول إلى ملجأ لمجموعة من العجائز الذين فارقتهم الحياة ولم يستقبلهم الموت. أما هو فقد أدرك أن الدولة كلها قد أحالت عليه جميع مشاكلها. بدا أنه الحارس الوحيد لتلك الدولة المترنحة ثم راح يبحث عن حلفائه لمواجهة ذلك المأزق الذي وضع فيه. كان بن علي الذي لا يتقن كثيراً المساومات والنقاشات والذي غالباً ما يظهر كرجل خجول وصامت، لا تنقصه لا الخبرة ولا الجدية ولا الأصدقاء. فهو على علاقة جيدة مع الهادي البكوش ابن قريته حمام سوسة، منذ أن عين هذا الأخير على رأس الحزب الحاكم في العام ١٩٨٤. وهو كذلك يتمتّع بتقدير لدى وزيره الأول رشيد صفر الذي كثيراً ما يشكو إليه من ألاعيب عجائز قرطاج، ثم هو يمتلك شبكة واسعة من العلاقات تمتد إلى رجال الجيش وقادة الحرس الوطني.

تمكّن بن علي من وضع يديه على شبكة الحركة الإسلامية فألقى رجاله القبض على الكثير من قادة هذه الحركة. ثم فجأة قطعت العلاقات السياسية مع طهران. وفيما شعر بورقيبة بالارتياح، عمّ القلق عجائز قرطاج من صعود هذا الجنرال! وباستثناء سعيدة ساسي التي ظلت ترى في بن علي الرجل المناسب لهذه المرحلة، فإن كلاً من السخيري وبلحسين وعمر الشاذلي قد أصبحوا يحثون بورقيبة على تنحيته وتنحية البكوش لأنه ثنائي خطير. لم يأخذ بورقيبة برأيهم كاملاً فقرر عزل البكوش وترك بن علي على رأس الداخلية. ولأن بورقيبة يعرف كيف يضعف رجاله دون أن يجعلهم يشعرون بذلك، فقد دعم وزير داخليته بأن قرر أن يرفعه إلى وزير دولة. خلف عبد العزيز بن ضياء في قيادة الحزب، الهادي البكوش الذي أصبح وزيراً للشؤون الاجتماعية. وبما أن البكوش لم يرسل إلى بيته، فإن كلاً من بن علي ورشيد صفر اللذين حاولا أن يثنيا بورقيبة عن قراره، قد نجحا نصف نجاح. كان لا بد أن تدور الماكينة على نحو سريع. فالمظاهرات التي نظمتها حركة الاتجاه الإسلامي في قلب العاصمة في الـ٢٣ من نيسان/أبريل عام ١٩٨٧ والتي نادت بإسقاط بورقيبة قد وجدت أمامها رجلاً لا يعرف التهاون هو «بن علي». نجح بن علي في درس المواجهة الأولى فنال عليه لقب وزير دولة. أصبح أكثر قوة وثقة لدى الرئيس بورقيبة. تقدم رشيد صفر ليقنع بورقيبة بإبعاد منصور السخيري من القصر لأنه أصبح حاجزاً بينه وبين

حكومته فتم ذلك. وفي ١٦ أيار/مايو أعلن عن تحوير وزاري نقل بموجبه السخيري من الديوان الرئاسي إلى وزارة التجهيز والصياح إلى وزارة التعليم برتبة وزير دولة. وحتى لا يغضب السخيري، فقد نقل صديقه عمر الشاذلي إلى الديوان الرئاسي.

بدت الحكومة بعد ذلك التحوير، وكأنها حكومة برأسين. رشيد صفر من جهة، وبن علي وزير الداخلية من جهة أخرى. فهذا الأخير تمكن من إطاحة أعدائه في القصر. أما في الحكومة، فإن الوحيد الذي كان يشكل له بعضاً من قلقه، هو محمد الصياح، ذلك الرجل الذي كان يقال عنه «إن أسنانه تطحن الحجر من فرط نهمه للسلطة». فجأة انفجرت أربع قنابل في أربعة فنادق، اثنتان(7) بمدينة سوسة واثنتان بمدينة المنستير، حيث كان بورقيبة يقضي عطلة الصيف. كان عدد الجرحى قليلاً جداً، لكن بورقيبة اعتبر ذلك تحدياً في عقر داره فانفجر في وجه وزيره الأول ووزير داخليته. قال لهما: «لا بد من الرد السريع والحاسم. يجب أن تشكل محكمة أمن الدولة فوراً، أريد أن تسقط بعض الرؤوس حتى تعمّ العبرة». حاول وزير الداخلية أن يهدئ من غضب الرئيس قائلاً له: «إن الإرهاب ظاهرة دولية وهو يضرب حتى في البلدان الديموقراطية»، لكن بورقيبة ردّ عليه: «هؤلاء يريدون رأسي. إنهم يضربون بالقرب من نوافذ بيتي. لا وقت للكلام الآن».

استيقظ بورقيبة على حقائق مفجعة. فلم يكن يتوقع أن يجتاز «الإسلاميون» خط الدم. كما لم يكن يتوقع أن «رجاله» ليسوا كلهم من الصنف الحاسم والقاطع مع هؤلاء الإسلاميين. وفكر أن يكون «الحزب» قد اخترقته تيارات أخرى غير دستورية في عهد عبد العزيز بن ضياء أو أن تكون الدولة كلها قد أصبحت تحت قبضة الداخلية أو أن يكون بعض رجاله ينسجون لعبة ما مع الإسلاميين. كان مدير الحزب آنذاك موجوداً في الخارج وقد عرف أن تلك التفجيرات قد وقعت في غيابه. ولشدّ ما أذهله أن تكون تلك التفجيرات الأربعة بلا ضحايا!

وسواء اشتم بورقيبة روائح المؤامرة الداخلية أو اشتم روائح الحرب مع أعدائه الإسلاميين، فقد قرر أن يعين رجلاً جديداً من رجاله مثيراً للشبهات نائباً لرئيس الحزب هو: المحجوب بن علي، ذلك الذي لا يحضر إلا إذا كانت هناك رؤوس يريد بورقيبة أن يسقطها من على أكتاف أصحابها!. أثار قرار تعيين المحجوب بن علي جزار الحركة اليوسفية في أواخر الخمسينيات بعض الوزراء، ورأى فيه البعض أنه انزلاق نحو الحرب الأهلية التي لا يريدها أحد. أما بن علي فرأى في المحجوب بن علي منافساً له. فميليشيات الحزب قد تفتكّ من رجال الأمن سلطة الإشراف على البلاد. كان بن علي قد قرر أن يحدّ من سرعة الركض

نحو الأسوأ، فطلب من رشيد صفر أن يقنع الرئيس بعدم التصعيد لأنه ليس من مصلحة أحد أن يصبح لهؤلاء الإسلاميين شهداء، غير أن بورقيبة ظل مصرّاً على قطع بعض الرؤوس لتجفيف منابع الخطر الإسلامي! وفي الـ٢٧ من آب/أغسطس ١٩٨٧ فتحت محكمة أمن الدولة أبوابها لاستقبال ٩٠ متهماً بقلب نظام الحكم والتعاون مع دولة أجنبية هي إيران، لكن الحاضرين لم يتجاوز عددهم الـ٣٥ من بينهم زعيم حركة النهضة «راشد الغنوشي». أما الآخرون فقد استطاعوا أن يهربوا من السجن قبل بدء المحاكمة بأسبوع. وبعد مداولات استمرت شهراً كاملاً، صدرت أحكام قاسية ومتفاوتة بين الحكم بالإعدام وبين المؤبد والأشغال الشاقة لمدة ٢٠ عاماً. وكان نصيب الغنوشي (الأمير) الأشغال الشاقة مدى الحياة. ومع ذلك، فإن بورقيبة لم يكن راضياً على تلك الأحكام إذ وصفها أمام وزير داخليته «بأنها كانت مخففة». كان بورقيبة يتمنى رؤية جثة الغنوشي تتدلى على أعواد المشنقة. انضم كل من الصياح والسخيري إلى رأي بورقيبة ثم سرّبا بأن «الأحكام كانت مطبوخة» بإشراف بن علي وأن الذين هربوا من السجن قبل بدء المحاكمة إنما وجدوا من يساعدهم على ذلك، لكن الضحية التي سقطت بسبب ما أسماه الصياح بالتهاون الحزبي، كان مدير الحزب الدستوري عبد العزيز بن ضياء.

قدّم رشيد صفر اسماً آخر لبورقيبة ليضعه على رأس الحزب، وهو يسرع الخطى حتى لا يتم تعيين المحجوب بن علي. وقد اختاره من الصفوف الخلفية حتى لا يثير تعيينه أية إشكالية. فعبد الملك العريف مدير الإذاعة حتى ذلك الوقت، لم يكن ينتظر أبداً أن يصبح على رأس الحزب الحاكم، لكنه قبل بتلك المهمة بلا نقاش. فهو يعرف جيداً أنه ينتمي إلى الساحل، كما أنه ليس بذلك الرجل الصارم الذي يبحث عنه بورقيبة، حين ذهب للقاء سيّد قرطاج، كان متردداً بل كان يشعر أنه لم يصنع لمثل هذا المنصب الحساس، وأنه قد يكون زج به زجّاً في عملية طويلة من تصفية حسابات لا تنتهي.

وقبل أن تبدأ مناقشات مجلس الوزراء في اليوم الأول من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٧، طلب الرئيس من وزيره الأول أن يقدم له مدير الحزب الجديد قائلاً له: «من يكون هذا الرجل؟» وقبل أن ينطق صفر بأية كلمة انفجر شلال السباب والشتم من فم بورقيبة باتجاه «صفر»: «من الذي أمرك بتعيين هذا الرجل؟ ومن أعطاك هذا الحق؟ هل تظنّ نفسك أنك الزعيم، أو أنك تظنّ أن الزعيم مات؟». لم يصمت بورقيبة بل واصل شتم وزيره بكل التعابير المبتذلة فوصفه «بالنذل والخصي والمخنث» وقال له: «إن بورقيبة لايزال قادراً على نزع سروالك» ثم أضاف: «هل ترى هذه العصا. سوف أضعها في مؤخرتك. أنت لست

رجلاً»[٨]. وقبل أن يتعب بورقيبة من الصراخ، كان بعض الوزراء قد تسللوا إلى الخارج من فرط الحياء. انتهى ذلك الاجتماع إلى ما يشبه شجاراً عنيفاً ومبتذلاً في أحد الأحياء الشعبية، تفرق على إثره أولئك الوزراء منهوكي القوى والكرامة وقد اكتشفوا أخيراً مدى هشاشتهم أمام ذلك العجوز. كما اكتشفوا أنهم ليسوا إلا شهود زور على قتل بلاد بكاملها. وفي الطريق إلى بيوتهم فكر كل واحد منهم في ما يمكن أن يفعل لإنقاذ نفسه من المهزلة أو إنقاذ بلاده من الهلاك. بالنسبة لرشيد صفر، كان الأمر واضحاً، فهو لم يبق له سوى أن يكتب استقالته. أما بالنسبة لوزير الداخلية بن علي فربما فكر جيداً منذ تلك اللحظة في إنقاذ بلاده.

* * *

لقد نصّبت الشائعات بن علي على رأس الحكومة قبل أن ينصبه بورقيبة رسمياً. امتلأ الشارع لمدة يومين بثلاثة أسماء هي: بن علي والصياح ومنصور السخيري. وفيما استبعد السخيري في اليوم الثاني من السباق، مالت معظم التخمينات لصالح بن علي والصياح، لكن بورقيبة قطع تلك التخمينات حين مال إلى بن علي. وفي الحين دبّ الخوف في نفوس كل أولئك المنافسين لبن علي الذين كانوا ينتظرون عطف بورقيبة. فهو رجل يمسك بجميع الملفات الخطرة. وطوال عمله في الحكومة كان مستقيماً حتى وإن لم يحالفه النجاح دائماً. وإذ سُمع يقول لأحد أصدقائه بأن «بورقيبة محاط بمجموعة من الوسخين» فقد شعر أولئك بأن قواعد اللعبة قد تغيرت كلياً الآن.

للحظة، بدت الدولة التونسية وكأنها قد أصبحت «ملكاً» لآل بن علي. فبعد ٣٠ عاماً من تنحية الباي حسين بن علي ها هي تستقر بين يدي ثلاثي يحمل كل منهم لقب بن علي: الحبيب بن علي (رئيساً) وزين العابدين بن علي (رئيس وزراء) والمحجوب بن علي (رئيساً لجهاز الحزب الحاكم) بيد أن ذلك الثلاثي لا يجمع بينهم غير اللقب، إذ يتشكل كل واحد منهم من خليط مغاير للخليط الآخر. ولأن بورقيبة عادة ما يعطي لرئيس وزرائه بعض الهوامش لتغذية شعبيته، فقد ذهب بن علي مباشرة وبعد ١٥ يوماً فقط من تعيينه على رأس الوزارة ليطيح محجوب بن علي من على سدة الحزب الحاكم. ولم يعارض بورقيبة ذلك القرار خصوصاً أن حامد القروي (وهو دستوري قديم) وزير الشباب والرياضة آنذاك هو الذي أصبح على رأس الحزب، لكن «مجموعة الوسخين» أحست بأن الخطر قد اقترب منها أكثر.

قال الصياح الذي لايزال يتنفس بقوة - رغم أن أنفه قد قارب الماء - لبورقيبة: «إن

الإسلاميين هم الخطر المحدق بدولتك العلمانية. والآن وقد أصبح بن علي رئيساً للوزراء عليه أن يقوم بالواجب تجاه هؤلاء الأعداء. إن شنق بضعة إرهابيين سيقضي على وكر الأفاعي كلّه»[٩]. وما إن فاتح بورقيبة وزيره الأول بن علي في إعادة المحاكمة وإعادة تشكيل محكمة أمن الدولة من أجل إعطاء درس لا ينسى لهؤلاء الإسلاميين، حتى أيقن بن علي بحسّه السليم أنه وُضع في النقطة الحرجة التي يتمناها كل عدو لعدوه. فإذا رفض بن علي ذلك، فسوف يظهر كمن يرفض أوامر القائد وبذلك قد يترك مكانه للصياح. أما إذا قبل بذلك، فإنه سيظهر بمثابة جنرال متعطش للدماء على شاكلة جنرالات أميركا اللاتينية. وفي لحظة صفاء اختار بن علي المناورة لربح الوقت، وقال لبورقيبة: «سنتحدث في كل ذلك عندما يتم تشكيل الوزارة. وسنحدد أجندة واضحة لإعادة المحاكمة عندها»[١٠].

في ذلك الوقت اتجه بن علي إلى تشكيل وزارة. اختار إلى جانبه مجموعة من التكنوقراط غير المعروفين وآخرين من السياسيين المخضرمين مثل «فؤاد المبزع». ثم قدم اللائحة إلى بورقيبة فوافق عليها. كان من المتوقع أن يتسلم أولئك الوزراء حقائبهم صبيحة الـ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٧، ولكن في هزيع الليل الأخير، تلقى كل واحد من الوزراء الجدد مكالمة هاتفية من قصر قرطاج أخرجته عن طوره وفراشه تفيده «بأن كل شيء تأجل إلى وقت آخر».. ففي مساء الـ٢٦ من ذلك التاريخ، تراجع بورقيبة عن موافقته على تشكيلة الوزارة كما يفعل غالباً، بعد أن أبلغه كل من محمود بلحسين والصياح والمحجوب بن علي «بأن حكومة بن علي قد تكون أسوأ حكومة عرفتها تونس في عهد بورقيبة لأنها لا تحمل أي اسم لامع، وهي إذا ما فشلت، فإن ذلك قد يكون كارثة على النظام بأكمله».

وفي صباح الـ٢٨ من تشرين الأول/أكتوبر، ناشد بن علي رئيسه «بأن يحترم توقيعه ويسمح له بإعلان الحكومة، وبعد أسبوع يمكنه أن يغير من يشاء». ساعد بن علي في حفلة التوسل لبورقيبة كل من عمر الشاذلي الطبيب الخاص لبورقيبة الذي قال له: «هذا خطأ يا سيدي الرئيس لا يليق بالرؤساء» وابنة أخته سعيدة ساسي التي قالت له: «لقد وقعت يا عمي. لقد أعطيت صلاحية تشكيل الحكومة إلى وزيرك الأول وقد فعل ذلك بأمانة». فجأة استبد الغضب ببورقيبة وراح يشتم من حوله ثم قال: «لن أقبل بأي واحد من هؤلاء في الحكومة. كيف تريدونني أن أقبل الخنزير (وكان يقصد المبزع)» الذي استدعاه بن علي من الرباط ليلتحق بالوزارة.

خرج بن علي من قصر قرطاج وقد أنهكته عدوانية بورقيبة وصلابة رأسه. كان لا يعرف ماذا يفعل في تلك اللحظة بالضبط، ولكنه أيقن بأن مرض البلاد سببه مرض الزعيم. وإذا كان قد فكر في السابق في التخلص من هذا المرض، فإنه لأول مرة قد يكون وضع بعض الخطوط العريضة في رأسه لإنجاز تلك المهمة الصعبة. لقد جاءت اللحظة المناسبة. وإذا كانت الخطة لم تتضح بعد، فإن الدوافع للقيام بذلك العمل الإنقاذي كانت كثيرة.

فتح بن علي قلبه لصديقه وابن قريته الهادي البكوش وروى له كيف شعر بالذل وهو يغادر قصر قرطاج ثم قال له: «أنت تعرف ربما أكثر مني، فلو أنني قدمت استقالتي، فإن الصياح هو الذي سيأتي من بعدي». ارتعب البكوش حين سمع اسم الصياح، عدوه اللدود في الحزب، ثم قال لبن علي: «يجب أن تتحرك». بعد ذلك فاتح بن علي صديقه الآخر وابن قريته الحبيب عمار مدير الحرس الوطني في الموضوع، فوجده على استعداد كامل. وفيما اتجه بن علي لترتيب موعد ساعة الصفر من الناحية السياسية، تكفل البكوش بالجانب الدستوري. أما الحبيب عمار فقد أسندت له مهمة التوجه إلى قصر قرطاج عندما تحين ساعة الصفر.

هكذا، لم يكن أمام بن علي الذي وضع في زاوية حادة، إلاّ أن يعود إلى هيئته العسكرية. فهو لا يريد أن يقوم بانقلاب عسكري، ولكن خيار الموت أو الحياة الذي وضع أمامه، قد دفعه إلى القيام بانقلاب حتى وإن كان أبيض، حتى وإن كان نظيفاً، حتى وإن كان دستورياً.

ولا شكّ أن بورقيبة حين كان يستقبل وزراء بن علي في الأول من تشرين الأول/نوفمبر ١٩٨٧، قد تساءل بينه وبين نفسه ما إذا كان قد أخطأ في اختيار بن علي كرئيس لوزرائه؟. لكن الجواب سوف لن يأتي إلاّ في فجر الـ٧ من تشرين الثاني/نوفمبر من جنود الحرس الوطني الذين طوّقوا القصر على نحو لم يتوقعه بورقيبة أبداً. لقد تم كل شيء في أقلّ من ١٢ دقيقة، بحيث بدا الأمر وكأن رجلاً فتح الباب وخرج.

الهوامش:

(١) رواية مزالي نفسه، للمؤلف، باريس، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٦.

(٢) روى مزالي أنه وجد كل الكرم لدى الحكومة الجزائرية وقال «إن الكسكسي بلحم العلوش، كان متوفراً طوال اقامته في الجزائر!». (يا لورزاء العرب!) كان نفى أن يكون هروبه إلى الجزائر بالتنسيق مع مسؤولين جزائريين كما أُشيع آنذاك.

(٣) تعرضت عائلة مزالي بعد هروبه إلى التعقب والمراقبة ثم صودرت بعض أملاكه في غيابه. وفي عهد بن علي، عرض بيت مزالي للبيع لكن لا أحد تقدم لشرائه بعد ذلك أعطي بيته في ضاحية سكرة «للقضاة» لاستعماله كناد خاص بهم فيما أعطي بيت ابنه المجاور «للمحامين» لاستعماله كنادٍ خاص.

(٤) وهي الرسالة التي كتبها مزالي. كانت بالفرنسية على نمط رسالتيْ أحمد التليلي ومحمد المصمودي. وقد كانت خالية من أي نقد لبورقيبة الشخص أو الزعيم.

(٥) قالت سعيدة ساسي «لتريبن دي جنيف»: «إن بورقيبة هو خالي وأبي وزعيمي وطفلي. فعندما أكون في غرفته أعود بالذكريات إلى سنوات مضت حين كان مع أطفالي. وقد أُشيع منذ أواخر الثلاثينيات أن سعيدة ساسي كانت على علاقة محرمة مع خالها. وقد انتشر ذلك في أوساط الحزب الدستوري.

(٦) يقال أن الهادي المبروك كان يحمل الجنسية الفرنسية، وهذا ما جعل بورقيبة يستبعده حين بدأ يبحث عن بديل لرشيد صفر.

(٧) في ليلة عيد ميلاد الرئيس الـ١٩٨٧، انفجرت ثلاث قنابل بمدينة المنستير وسوسة. وقد اتهم الإسلاميون بوضع تلك القنابل. وهي قنابل لم تقتل أحداً لكنها أثارت الرعب في بورقيبة وفيمن حوله. وهناك من يعتقد أن القنابل وضعها أحد رموز الأجنحة المتصارعة على السلطة ليجعل بورقيبة أكثر تشدداً تجاه التيار الإسلامي!

(٨) الرواية نقلها الهادي المبروك إلى أحد الصحافيين السوريين!. كما رواها إلى أحد السياسيين الليبيين! أنظر كذلك كتاب:

S. Bessis S. Belhassen. **Bourguiba-un si long régne** Jeune Afrique-livres, Paris, 1988.

(٩) نفى الصياح أن يكون دفع بورقيبة إلى إعادة محاكمة الإسلاميين أو إلى شنق بعض قادتهم، حديث مع المؤلف - تونس ١٩٩٣.

(١٠) كتاب: S. Bessis S. Belhassen. **Bourguiba-un si long régne** Jeune Afrique-livres, Paris, 1988.

فهرس الأعلام

ت

ث

فهرس الأماكن

أ

ب

ت